breaking dawn

بزوغ الفجر

ستيفاني ماير

ستيفاني ماير

بزوغ الفجر

ينتهي القارئ من "خسوف" حابسا أنفاسه، في انتظار الكتاب الرابع من هذه السلسلة: **إنها حكاية عشاق المستحيل وأحلامهم المعذّبة.**

في الجزء الرابع، الذي يختم سلسلة "توايلايت" يصل التشويق إلى ذروته. وتظهر الإجابات حول تلك الأسئلة التي سعى عشرات ملايين القرّاء لمعرفة خواتيمها.

-هل ستصبح بيللا مصاصة دماء؟

-هل سيتزوّج إدوارد من بيللا؟

-هل سيوافق إدوارد على تحوّل بيللا؟

-كيف سيحلّ المشكلة مع الفولتوري ومع مصّاصي الدماء الذين تجذبهم رائحة دم بيللا على نحو لا يمكن مقاومته؟

-هل ستترك بيللا إدوارد وتحسم أمرها لصالح الحياة البشرية والارتباط بجايكوب؟

-هل ستبقى الهدنة مستمرة بين "الذئاب" و"مصاصي الدماء" من عائلة "كولن"؟

كل هذه الأسئلة الجذّابة التي رافقت ملايين القراء الذين يتهافتون على هذه السلسة، تجد أجوبتها في هذا الجزء الرابع والأخير.

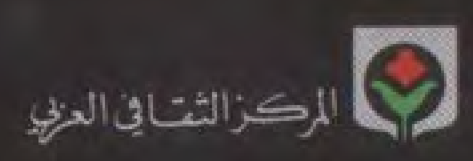
❋❋❋

لا تزال هذه الرواية وبعد مرور خمس سنوات على صدور الجزء الأوّل تتصدّر أرقام المبيعات، ومجلات مراجعة الكتب، ولا تزال "أفضل كتاب لهذا العقد" لدى أمازون، وعلى قائمة (teen people) للكتب المختارة...

Jacket design by: Gail Doobinin
Jacket photo © Roger Hagadone
Jacket © Hachette Book Group


ISBN 978-9953-88-405-7





المحتويات

الكتاب الأول

بيلا

ليست الطفولة هي تلك الفترة الممتدة من الولادة حتى سنٍّ بعينها يصير الطفل كبيراً بعدها فيستغني عن أشيائه الطفولية. الطفولة مملكة لا يموت أحد فيها.

إدنا سينت فنسنت ميلاي

مقدمة

نلت أكثر من نصيبي المنصف من التجارب التي اقتربت بي من الموت. لم يكن هذا شيئاً مما يمكن أن يعتاد الإنسان عليه.

لكن، يا للغرابة، يبدو أن علي مواجهة الموت من جديد مواجهة لا فرار منها. كأني منذورة للكوارث حقاً! أفلتُ من الموت مرة بعد مرة لكنه ظل يلاحقني.

لكن الأمر هذه المرة شديد الاختلاف عن المرات السابقة.

تستطيع أن تهرب من شخص تخشاه؛ وتستطيع أن تقاتل شخصاً تكرهه. لقد اتجهت ردود أفعالي كلها إلى ذلك النوع من القتلة... الوحوش... الأعداء.

عندما تحب من يقوم بقتلك لا يعود لديك أي خيار! فكيف يمكن أن تهرب، وكيف يمكن أن تقاتل عندما يكون في هذا أذى لذلك المحبوب؟ إذا لم يكن لديك إلا حياتك تعطيها لمن تحب فكيف تستطيع ألا تعطيها؟

كيف تستطيع ذلك إن كنت تحبه حقاً؟

1

مخطوبة

قلت لنفسي: لا أحد ينظر إليك! لا أحد ينظر إليك. لا أحد ينظر إليك.

لكني ما كنت أستطيع أن أكذب بشكل مقنع... حتى على نفسي... كان علي أن أتحقق من الأمر.

جلست أنتظر إشارة المرور الخضراء واسترقت النظر إلى يميني... كانت السيدة ويبر في شاحنتها الصغيرة مستديرة صوبي بجسدها كله فأدرت رأسي متسائلة عن السبب الذي جعلها لا تحوّل نظرتها عني ولا يظهر عليها الخجل. مازال من المعيب أن تحدق في الناس بهذا الشكل، أليس كذلك؟ ألم يعد ينطبق هذا علي؟

عند ذلك تذكرت أن نوافذ سيارتي معتمة كثيراً وأن السيدة ويبر لا فكرة لديها على الأرجح عن وجودي هنا ولا عن أنني رأيتها تنظر صوبي. حاولت أن أشعر بالراحة لعلمي أنها لم تكن تحدق في اتجاهي في الحقيقة، بل في اتجاه السيارة فقط.

سيارتي أنا! يا للحسرة.

ألقيت نظرة إلى اليسار. تجمد اثنان من المارة على حافة الرصيف إذ فاتتهما فرصة عبور الشارع فيما كانا يحدقان. ومن خلفهما، رأيت السيد مارشال ينظر نظرة بلهاء عبر زجاج واجهة محله الصغير لبيع التذكارات.

على الأقل، لم يكن يضغط بأنفه على الزجاج. . . حتى الآن!

صارت الإشارة خضراء، ولشدة استعجالي الفرار ضغطت على دواسة الوقود من غير تفكير. . . كما كنت أضغط عادة على الدواسة حتى أجعل شاحنتي العتيقة تتحرك.

زمجر المحرك مثل فهد يهم بالهجوم وقفزت السيارة إلى الأمام بسرعة شديدة جعلت جسمي يرتمي مصطدماً بالمقعد الجلدي الأسود. . . سرعة جعلت معدتي تلتصق بظهري.

صحت «أوه». . . وراحت قدمي تبحث عن الفرامل. تمالكت نفسي وضغطت على الدواسة فتوقفت السيارة فوراً.

لم أستطع النظر من حولي لأرى ردود الأفعال. إن كان الناس يظنون أن من يقود السيارة هذه الآن هو نفسه من كان يقودها سابقاً فقد تبين لهم إذن أنهم مخطئون. نقرت بطرف حذائي على دواسة الوقود مسافة نصف ميليمتر فقط، فانطلقت السيارة من جديد.

أفلحت أخيراً في الوصول إلى هدفي، إلى محطة الوقود. لو لم ينفد الوقود من السيارة لما دخلت البلدة أبداً. صرت أستغني عن أشياء كثيرة هذه الأيام كالحلوى ورباطات الأحذية حتى أتجنب قضاء الوقت أمام الناس.

أسرعت كما لو أنني في سباق ففتحت خزان الوقود وأدخلت البطاقة في الآلة ووضعت فوهة الخرطوم في الخزان في ثوان قليلة. لكني ما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً حتى أزيد سرعة الأرقام التي تسجل الكمية على الآلة. راحت الأرقام تتحرك ببطء وتكاسل. . . «هل تتعمد مضايقتي.؟»

لم يكن الجو صحواً. . . كان يوماً عادياً من أيام المطر الخفيف في فوركس. . . لكني مازلت أشعر كما لو أن ضوءاً مسلطاً علي يجتذب الأنظار إلى ذلك الخاتم الرفيع في يدي اليسرى. عندما أشعر بالعيون من خلفي في أوقات كهذه أحس أن خاتمي ينبض مثل إعلان من إعلانات النيون: انظروا إلي. . . انظروا إلي!

من الغباء أن أفكر هكذا. . . أعرف هذا! فباستثناء أبي وأمي، هل يهمني في الحقيقة ما يقوله الناس عني وعن خطوبتي؟ أو عن سيارتي الجديدة؟ أو عن قبولي الغريب الغامض في كلية آيفي ليغ؟ أو عن بطاقة الائتمان السوداء اللامعة التي أشعر بحرارتها الآن في جيبي الخلفي؟

تمتمت بصوت منخفض: «أوه! لا يهمني ما يفكرون».

سمعت صوت رجل: «ماذا يا آنسة؟»

استدرت. . . وتمنيت لو أنني لم أستدر.

رأيت رجلين واقفين قرب سيارة رياضية فاخرة تحمل زورقي كاياك مثبتين فوقها. ما كان أحد منهما ينظر إلي بل كانا يحدقان في السيارة.

شخصياً، لم أفهم ذلك. لكني كنت أشعر بالفخر لأنني صرت قادرة على التمييز بين شارات التويوتا والفورد والشيفي. كانت هذه السيارة سوداء لامعة أنيقة جميلة، لكنها كانت مجرد سيارة بالنسبة لي.

سألني الرجل الطويل: «آسف لإزعاجك، لكن هل تقولين لي ما نوع هذه السيارة التي تقودينها؟»

«همم. . . إنها مرسيدس! صحيح؟»

ظهر الاستغراب في عيني زميله القصير، لكن الطويل قال بأدب: «نعم! أعرف هذا. لكنني أتساءل. . . هل تقودين سيارة مرسيدس غارديان؟» قال الرجل اسم السيارة بطريقة ذات دلالة. شعرت أن هذا الرجل ينسجم مع إدوارد كولن، . . . خطيبي (لم تكن لدي طريقة للهروب من هذه الحقيقة، فقد كان موعد الزواج بعد أيام). تابع الرجل يقول: «أعرف أنها غير متوفرة في أوروبا حتى الآن، فكيف هنا!»

بينما راحت عيناه تتابعان تفاصيل السيارة. . . ما كانت تبدو في نظري مختلفة عن أي سيارة مرسيدس. . . لكن ما أدراني أنا؟. . . رحت أفكر في كلمات خطيب وزفاف وزوج، إلخ.

لم أكن أستطيع جمع هذه الكلمات في رأسي.

من ناحية أولى نشأت على النفور من فكرة الفستان الأبيض المنتفخ وباقات الزهور، لكنني أيضاً لم أكن أستطيع التوفيق بين مفهوم «الزوج المحترم الغريب» وبين صورة إدوارد. كان ذلك مثل محاولة جعل ملاك يؤدي دور محاسب؛ لم أكن أستطيع تصوره يؤدي أي دور عادي.

وكما هي الحال دائماً، كلما بدأت التفكير في إدوارد تتملكني نوبة مدوخة من الخيال. كان على الرجل الغريب الذي يحدثني أن يتنحنح حتى يلفت انتباهي... مازال ينتظر إجابتي بشأن طراز السيارة وسنة صنعها.

قلت له بصدق: «لا أعرف».

«هل يزعجك أن ألتقط صورة لها؟»

لم أفهم سؤاله إلا بعد لحظات: «حقاً! هل تريد التقاط صورة لك مع السيارة؟»

«طبعاً!... لن يصدقني أحد من غير دليل».

«هممم... لا بأس».

أسرعت في إعادة خرطوم الوقود إلى مكانه ثم جلست في مقعدي داخل السيارة حتى اختبئ في حين أخرج الرجل المتحمس كاميرا احترافية من صندوق سيارته. ثم تناوب مع صديقه في التقاط صور لكل منهما إلى جانب السيارة. وبعد ذلك ذهبا لتصويرها من الخلف.

تمتمت في نفسي: «أين أنت يا شاحنتي العتيقة!»

كان من المناسب جداً (مناسب أكثر مما يجب) أن تلفظ سيارتي العتيقة أنفاسها قبل أسابيع فقط من اتفاقنا أنا وإدوارد. كان من تفاصيل هذا الاتفاق أن أسمح له بإهدائي سيارة جديدة. أقسم إدوارد أن الأمر كان طبيعياً فقد عاشت سيارتي عمراً طويلاً مملوءاً بالعمل ثم توفيت وفاة طبيعية... كما قال! ما كنت قادرة طبعاً على إيجاد طريقة للتحقق من صدق كلامه وما كنت قادرة على استعادة سيارتي من عالم الأموات بمفردي، إن الميكانيكي المفضل عندي...

أوقفت تلك الفكرة رافضة أن أتركها تمضي إلى نهايتها. بدلاً من ذلك

رحت أستمع إلى صوت الرجلين خارج السيارة... كان يأتيني مكتوماً عبر جدرانها.

«... رأيتهم في فيلم على الإنترنت يسلطون قاذفة لهب عليها. لم تصب بأي أذى... حتى طلاؤها لم يتشوه!»

«طبعاً لم يتشوه! يمكنك أن تسير بدبابة فوق هذه السيارة. ليس عليها طلب كبير هنا. إنها مصممة من أجل دبلوماسيي الشرق الأوسط وتجار الأسلحة ولوردات المخدرات».

سأل الرجل القصير بصوتٍ منخفض قليلاً: «هل تعتقد أنها أحد هؤلاء؟»... طأطأت رأسي واحمرّت وجنتاي.

قال الطويل: «ربما! لا أستطيع أن أتخيل ما يجعلها في حاجة إلى زجاج مضاد للصواريخ وإلى سيارة مصفحة وزنها ألفي كيلوغرام في هذه الأماكن! لابد أنها ذاهبة إلى أماكن أكثر خطورة».

سيارة مصفحة! ألفا كيلوغرام من التصفيح! زجاج مضاد للصواريخ! عظيم... وما عيب الزجاج المضاد للرصاص؟

حسن، إن لهذا معنى على الأقل... إذا كان لدى المرء حس فكاهي مريض!

ليس الأمر هو أنني لم أتوقع أن يستغل إدوارد اتفاقنا وأن يفسره على هواه بحيث يعطي أكثر بكثير مما يأخذ. لقد وافقت على استبدال سيارتي عندما تحتاج إلى الاستبدال ولم أتوقع قدوم تلك اللحظة بهذه السرعة طبعاً. وعندما اضطررت إلى الاعتراف بأن سيارتي العتيقة لم تعد أكثر من ذكرى عن سيارات الشيفي الكلاسيكية أدركت أن فكرته عن استبدال السيارة ستحرجني على الأرجح. ستجعلني محط كثير من النظرات والهمسات. لقد كنت محقة في هذا التوقع. لكنني لم أكن أتوقع، حتى في خيالي، أن يعطيني سيارتين.

سيارة «ما قبل» وسيارة «ما بعد»، كما شرح لي عندما تذمرت.

هذه هي سيارة «ما قبل». قال لي إنه حصل عليها بقرض مصرفي وإنه

سيعيدها بعد زفافنا. لكنني لم أفهم أي معنى لهذا الأمر قبل هذه اللحظة.

ها ها! هذا لأني مازلت بشرية شديدة الهشاشة وشديدة الميل إلى التورط في الحوادث. . . وكثيراً ما أقع ضحية حظي السيئ الخطر. . . من الواضح أنني في حاجة إلى سيارة لا تؤثر فيها حتى الدبابات حتى أبقى سالمة. شيء مشين! . . . أنا واثقة من أنه يستمتع بهذه النكتة مع أخوته من خلف ظهري.

لكن صوتاً صغيراً همس في رأسي: «لعلها ليست نكتة يا سخيفة. لعله قلق عليّ إلى هذه الدرجة فعلاً. لن تكون هذه المرة الأولى التي يَغمَد فيها إلى المبالغة محاولاً حمايتي». . . تنهدت.

لم أر سيارة «ما بعد» حتى الآن. إنها مغطاة بالقماش في زاوية عميقة من مرآب أسرة كولن. أعرف أن أكثر الناس كانوا سيسترقون نظرة إليها، لو كانوا مكاني. . . لكنني لم أكن راغبة في معرفة شيء حقاً.

لعلها ليست مصفحة. . . لأنني لن أعود في حاجة إليها بعد شهر العسل. لم يكن هذا من بين الأشياء الكثيرة التي أتطلع إليها. ليست السيارات الغالية وبطاقات الاعتماد المذهلة من أفضل الأشياء التي آمل في تحقيقها عندما أصبح من أسرة كولن.

صاح الرجل الطويل مقرباً عينيه من الزجاج في محاولة للنظر إلى داخل السيارة: «انتهينا. شكراً جزيلاً».

أجبته: «أهلاً وسهلاً». ثم شعرت بالتوتر عندما أدرت المحرك وضغطت على الدواسة بألطف ما أستطيع. . .

مهما يكن عدد المرات التي أقود فيها سيارتي عبر هذا الطريق المألوف إلى المنزل فمازلت لا أستطيع جعل تلك الإعلانات التي صارت باهتة بسبب المطر تغيب عن ذاكرتي. كان كل واحدٍ منها. . . معلقاً على عمود هاتف أو ملصقاً على إشارة من إشارات الطريق. . . مثل صفعة جديدة على وجه. صفعة على وجهي أستحقها فعلاً. عاد ذهني إلى فكرة طالما تجنبتها وتعمّدت مقاطعتها في الماضي. لا أستطيع تجنبها على هذا الطريق. لا أستطيع تجنبها

عندما يتكرر ظهور صور الميكانيكي المفضل عندي على نحو منتظم.

إنه صديقي العزيز. . . جايكوب.

لم تكن الملصقات التي تحمل عبارة «هل رأيت هذا الصبي؟» فكرة والد جايكوب. لقد كانت فكرة والدي أنا. . . تشارلي. . . الذي قام بطباعة الملصقات وتوزيعها في المدينة كلها. . . لا في فوركس وحدها بل أيضاً في بورت آنجلز وسيكيم وهوكيام وأبردين وجميع البلدات في شبه جزيرة أولمبيك. وقد حرص على أن تكون لدى جميع أقسام الشرطة في ولاية واشنطن تلك الصورة نفسها ملصقة على الجدار أيضاً. كان في قسمه هو لوحة جدارية كاملة مخصصة للعثور على جايكوب. لكنها كانت فارغة في معظمها، وهذا ما كان يحبطه ويخيب آماله.

كانت خيبة أمل والدي تتجاوز مسألة عدم تلقي أي إجابات. كان خائب الأمل جداً في بيلي (والد جايكوب. . . أعزّ أصدقاء تشارلي).

كان خائب الأمل لأن بيلي كان قليل المشاركة في البحث عن ابنه «الهارب» البالغ ستة عشر عاماً؛ ولأن بيلي رفض وضع هذا الملصق في محمية لابوش على الساحل، وهي موطن جايكوب؛ ولأنه بدا مستسلماً لفكرة اختفاء ابنه وكأنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً؛ ولأنه كان يقول «جايكوب كبير الآن. وسوف يعود وحده إن أراد ذلك».

وقد انزعج مني أيضاً لأنني وقفت في صف بيلي. لم أكن أريد وضع الملصقات أنا أيضاً. ولأننا، بيلي وأنا، كنا نعرف مكان جايكوب تقريباً، ولأننا كنا نعرف أن أحداً لم يشاهد ذلك «الصبي».

كانت الملصقات تسبب لي تلك الغصة الكبيرة المعتادة، تلك الدموع الحارقة المعتادة. . . كنت سعيدة لأن إدوارد غائب فقد ذهب إلى الصيد هذا السبت. لو رأى إدوارد رد فعلي لانزعج كثيراً. . . هو أيضاً.

ثمة أشياء أخرى سلبية في حقيقة أن اليوم هو السبت. عندما انعطفت باتجاه شارعنا بحذر وبطء رأيت سيارة الشرطة، سيارة والدي، أمام بيتنا. لم

يذهب إلى صيد السمك اليوم وهو مازال يرفض أي حديث عن الزفاف.

لهذا، لم أكن أستطيع استخدام الهاتف في البيت؛ لكن علي أن أتصل...

أوقفت السيارة أمام المنزل خلف شاحنتي العتيقة ثم أخرجت الهاتف الخليوي الذي تركه إدوارد معي من أجل الطوارئ. طلبت الرقم وأبقيت إصبعي على زر فصل المكالمة عندما بدأ الهاتف يرن... من باب التحسب فقط. أجابني صوت سيث كليرووتر: «ألو!»... فتنفست الصعداء. كنت أجبن بكثير من أن أتحدث مع شقيقته الكبرى ليا. لم تكن عبارة «قطع الرأس» مجرد أسلوب في الكلام عندما يتعلق الأمر بليا.

«مرحباً سيث، أنا بيلا!»

«أهلاً بيلا! كيف حالك؟»

أحسست بغصة... كنت أبحث يائسة عن أخبار مطمئنة: «بخير».

«هل تتصلين للسؤال عن آخر الأخبار؟»

«أنت تقرأ أفكاري».

أجابني مازحاً: «لا أبداً! أنا لست أليس... لكن من السهل جداً توقع أفعالك». لم يكن في عشيرة الكويليت في لابوش من لا ينزعج من ذكر اسم أسرة كولن إلا سيث... ناهيك عن المزاح في أمور من قبيل قرابتي الوشيكة مع أليس.

«أعرف أن من السهل توقعها»... ترددت لحظة ثم قلت: «كيف هو الآن؟» تنهد سيث: «كما هو دائماً. إنه لا يتكلم رغم معرفتنا أنه يستطيع سماعنا. إنه يحاول عدم التفكير كما يفكر البشر كما تعلمين. يحاول اتباع غرائزه فقط».

«هل تعرف مكانه الآن؟»

«إنه في مكان ما شمال كندا. لا أستطيع أن أقول لك في أي ولاية هو، فهو لا يعبأ كثيراً بالحدود بين الولايات».

«هل ثمة ما يشير إلى أنه قد...»

«هو لن يعود يا بيلا. أنا آسف!»

ابتلعت ريقي بصعوبة: «لا بأس يا سيث كنت أتوقع هذا قبل أن أتصل، لكنني لا أستطيع الامتناع عن الأمل».

«نعم... لدينا جميعاً الشعور نفسه!»

«شكراً لمساعدتك يا سيث. أعلم أن الآخرين يزعجونك الآن بكل تأكيد».

وافقني بصوت مبتهج: «ليسوا يحبونك كثيراً... أظن أنهم يحسدونك... لقد اتخذ جايكوب قراره، واتخذت أنت قرارك. ليس جايكوب مسروراً بموقفهم من الأمر. ومن الطبيعي أنه غير مسرور أيضاً بسؤالك عنه».

قلت: «ظننت أنه لا يتحدث معكم؟»

«لا يستطيع إخفاء كل شيء عنا مهما حاول».

إذن... يعلم جايكوب أني قلقة عليه. لم أكن واثقة من شعوري تجاه الأمر. لا بأس... هو يعرف على الأقل أنني لم أذهب وأنساه تماماً. لعله ظن أنني قادرة على فعل ذلك.

قلت وأنا أجبر الكلمات على الخروج من بين أسناني: «أظن أنني سأراك يوم... الزفاف!»

«نعم! سنكون هناك أنا وأمي. شكراً لأنك دعوتنا إلى الزفاف».

ابتسمت للحماسة الظاهرة في صوته. صحيح أن فكرة دعوة أسرة كليرووتر كانت من عند إدوارد لكنني كنت سعيدة لأنه فكر فيها. لطيف أن يكون سيث موجوداً... إنه صلتي الوحيدة مع إشبيني المفقود مهما تكن تلك الصلة ضعيفة. قلت: «لن يكون الزفاف لطيفاً دون وجودك».

«بلغي سلامي إلى إدوارد».

«طبعاً».

هززت رأسي ما زالت الصداقة التي نشأت بين سيث وإدوارد تحيّر عقلي

لكنها رغم ذلك برهان على أنه ما من شيء يوجب بالضرورة أن تكون الأمور هكذا. إنها برهان على إمكانية وجود علاقات حسنة بين مصاصي الدماء والمستذئبين إذا أرادوا.

لا يؤيد الجميع هذه الفكرة.

قال سيث بصوت منخفض: «آه! عادت ليا إلى المنزل».

«أوه! إلى اللقاء».

انقطع الخط. تركت الهاتف على المقعد ورحت أستعد عقلياً لدخول المنزل حيث ينتظرني تشارلي.

كان على والدي المسكين مواجهة أمور كثيرة الآن. وما كان جايكوب. . . الهارب. . . إلا أحد الأعباء التي تثقل كاهله. لقد كان شديد القلق عليّ أيضاً. . على ابنته التي لم تكد تبلغ سن الرشد والتي هي الآن على وشك أن تصبح «سيدة» خلال أيام قليلة.

مشيت ببطء تحت المطر الخفيف ورحت أتذكر الليلة التي أخبرناه فيها بأمرنا. . .

* * *

عندما أعلن صوت سيارة تشارلي عن وصوله أحسست أن وزن الخاتم الذي في إصبعي صار مئة كيلوغرام. وددت لو أضع يدي اليسرى في جيبي، أو أن أجلس عليها، لكن قبضة إدوارد الباردة الحازمة أبقت يدي ظاهرة أمامي.

«كفي عن التردد يا بيلا! حاولي من فضلك أن تتذكري أنك لست على وشك الاعتراف بجريمة قتل».

«سهل عليك أن تقول هذا الكلام!»

أصغيت إلى صوت خطوات تشارلي ترتقي الدرجات الخارجية. وسمعت صوت المفتاح في الباب الذي لم يكن مقفلاً. ذكرني الصوت بذلك الجزء من أفلام الرعب الذي تدرك فيه الضحية أنها نسيت إقفال بابها.

همس إدوارد بعد أن سمع صوت تنفسي الذي ازداد سرعة: «اهدئي يا بيلا».

انفتح الباب فأجفلت كما لو أن تياراً كهربائياً مسّني.

قال إدوارد بنبرة مرتاحة تماماً: «أهلاً يا تشارلي».

قلت محتجة بصوت هامس: «لا!»

همس إدوارد: «ماذا؟»

«انتظر ريثما يعلق مسدسه في مكانه على الحائط».

ضحك إدوارد ومرر أصابع يده الحرة في شعره البرونزي.

ظهر تشارلي عند الزاوية. . . مازال في لباسه الرسمي ومازال مسدسه معه. وحاول أن لا يفضح وجهه عن شيء عندما رآنا جالسين معاً على المقعد. إنه يحاول في الفترة الأخيرة بذل كل ما يستطيع من جهد لكي يحب إدوارد أكثر من ذي قبل. من المؤكد أن من شأن سماحه لتعبير وجهه بالظهور أن يفشل ذلك المسعى.

«مرحباً يا أولاد! ماذا لديكم من جديد؟»

قال إدوارد بوقار: «نريد أن نتحدث معك. لدينا أخبار طيبة».

تحول تعبير وجه تشارلي من المظهر الودي المتوتر إلى مظهر شك قاتم خلال ثانية واحدة.

همهم تشارلي ناظراً إلي مباشرة: «أخبار طيبة!»

«اجلس يا أبي».

ارتفع حاجبه. . . ونظر إليّ عدة ثوان ثم مضى إلى الأريكة فجلس على حافتها. . . ظل ظهره منتصباً. . . متأهباً.

قلت بعد لحظة محملة بالصمت: «لا تتوتر يا أبي. . . كل شيء بخير».

كشّر إدوارد ففهمت أنه يعترض على كلمة «بخير». لعله كان يفضل استخدام كلمة أقرب إلى «رائع» أو «عظيم» أو «ممتاز».

«طبعاً يا بيلا، طبعاً كل شيء بخير. إذا كان كل شيء على ما يرام فلماذا تعرّقين بهذه الغزارة؟»

كذبت قائلة: «لست أتعرق!».

تراجعت أمام تحديقه العنيف فتعلقت بإدوارد... وبشكل غريزي مسحت جبهتي بظاهر يدي اليسرى لأزيل الدليل على توتري.

انفجر تشارلي: «أنت حامل! أنت حامل... أليس هذا صحيحاً؟»

صحيح أن السؤال كان موجهاً إليّ بشكل واضح لكن نظرات تشارلي كانت متجهة إلى إدوارد... أقسم أنني رأيت يده تمتد إلى مسدسه.

«لا! لست حاملاً بالطبع!»... أردت أن ألكز خاصرة إدوارد بمرفقي، لكنني كنت أعرف أن مرفقي سيؤلمني بسبب هذا. لقد أخبرت إدوارد مسبقاً أن من الطبيعي أن يقفز الناس إلى هذا الاستنتاج فوراً. فأي سبب غير هذا يمكن أن يحمل أشخاصاً في الثامنة عشر على الزواج؟ (أدهشتني إجابته عند ذلك: إنه الحب، صحيح!)

خفت حدة نظرات تشارلي قليلاً. عندما أكون صادقة يظهر ذلك على وجهي بوضوح... لقد صدقني الآن وقال: «أوه! أنا آسف».

«أقبل اعتذارك».

ساد صمت طويل. وبعد لحظات أدركت أنهما كانا ينتظران مني أن أقول شيئاً. نظرت إلى إدوارد مرعوبة... ما كنت أستطيع أن أجعل تلك الكلمات تخرج من فمي.

ابتسم إدوارد لي ثم رفع كتفيه وتوجه بالكلام إلى والدي: «اسمع يا تشارلي... أعرف أنني أخالف المألوف. حسب التقاليد كان علي أن أسألك أنت أولاً. لست أقصد التقليل من احترامك، لكن بما أن بيلا قالت نعم وبما أنني لا أريد التقليل من حقها في الاختيار فإنني أطلب منك مباركتنا بدلاً من أن أطلب منك يدها. سوف نتزوج يا تشارلي. أنا أحبها أكثر من أي شيء في هذا العالم... أكثر من حياتي نفسها. والمعجزة هي أنها تحبني مثلما أحبها أيضاً. فهل تبارك زواجنا؟»

بدا إدوارد واثقاً جداً... هادئاً جداً. وللحظة واحدة مرت بي حالة نادرة

من صفاء البصيرة عندما كنت أصغي إلى الثقة المطلقة في صوته. استطعت أن أرى بوضوح كيف يبدو العالم في نظره. وللحظة قصيرة جداً، كان لهذا كل المعنى في نظري.

عند ذلك رأيت التعبير الذي ظهر على وجه تشارلي... حطت عيناه الآن على الخاتم الذي في يدي.

حبست أنفاسي عندما راح لون جلد تشارلي يتغير... من الأشقر إلى الأحمر ثم البنفسجي ثم الأزرق. هممت بالنهوض... لم أكن أعرف ما كنت أريد فعله. ربما كنت أريد التأكد من أنه مازال يتنفس. لكن إدوارد ضغط على يدي وتمتم قائلاً بصوت خفيض لم يسمعه غيري: «امنحيه دقيقة واحدة».

طال الصمت كثيراً هذه المرة. ثم راح لون تشارلي يعود طبيعياً شيئاً فشيئاً ضغط على شفتيه وعقد حاجبيه متخذاً هيئة «التفكير العميق» التي أعرفها. راح ينظر إلينا لحظات طويلة وشعرت بإدوارد يسترخي بجانبي.

قال تشارلي أخيراً: «أظن أن الأمر ليس مفاجئاً جداً بالنسبة لي. كنت أعرف أن علي أن أتعامل مع شيء من هذا القبيل في وقت قريب».

تنفست الصعداء.

سألنا تشارلي وهو ينظر إلي: «هل أنتما واثقين من هذا؟»

قلت له بصوت واضح تماماً: «أنا واثقة من إدوارد مئة بالمئة».

«لكن، لماذا تتزوجان الآن؟ فيم العجلة؟»... راح ينظر إليّ نظرة شك من جديد.

كان سبب الاستعجال هو أنني اقترب من الثامنة عشرة في كل يوم يمر، أما إدوارد فهو باق عند كمال سن السابعة عشرة... كما هو شأنه منذ أكثر من ثمانين عاماً. لم تكن هذه الحقيقة هي ما يحتم الزواج من ناحيتي؛ لكن كان لابد من الزواج بموجب الاتفاق الدقيق الصعب الذي توصلنا إليه، أنا وإدوارد، حتى أصل إليه... حتى أكون على وشك التحول من إنسانة فانية إلى كائن خالد.

لم أكن أستطيع شرح هذه الأمور لتشارلي.

ذكره إدوارد مبتسماً: «سوف نذهب معاً إلى دارتماوث في الخريف يا تشارلي. وأنا أريد أن أفعل ذلك بطريقة سليمة، فهكذا رباني أهلي!»

لم يكن إدوارد مبالغاً في كلامه فهذه المسألة هامة جداً من وجهة نظر الأخلاق في زمن الحرب العالمية الأولى.

اعوجّ فم تشارلي وهو يحاول العثور على حجة يجادل بها. لكن، ماذا عساه يقول؟ هل يقول «أفضل أن تعيشا في الخطيئة أولاً»؟... إنه أب... لقد كان مغلول اليدين.

تمتم تشارلي لنفسه: «عرفت أن هذا سيحدث»... وفجأة، عاد وجهه فارغاً من أي تعبير.

سألته بقلق: «ماذا بك يا أبي؟»... التفتُ إلى إدوارد لكنني لم أستطع قراءة تعبير وجهه وهو ينظر إلى تشارلي.

انفجر تشارلي ضاحكاً: «ها ها ها!»... فقفزت من مكاني.

نظرت غير مصدقة إلى تشارلي الذي تكور جسمه وراح يهتز كله لشدة ضحكه. ثم نظرت إلى إدوارد متعجبة لكنه كان يضغط على شفتيه كما لو أنه يحاول منع نفسه من الضحك أيضاً.

قال تشارلي متقطع الأنفاس: «عظيم إذن! تزوجا»... هزته موجة ثانية من الضحك... «ولكن...»

سألته: «لكن ماذا؟»

«لكن عليكِ أن تخبري والدتك بنفسك. لن أقول لها شيئاً من ناحيتي! أنت مسؤولة عن ذلك!»... ثم انفجر ضاحكاً من جديد.

* * *

توقفت لحظة وأنا أضع يدي على مقبض الباب مبتسمة. من المؤكد أن كلمات تشارلي أفزعتني في ذلك الوقت. إنه القدر الذي لا مفر منه: على

إخبار رينيه... أمي. كان الزواج المبكر من أول المحظورات على قائمتها السوداء... كان يسبق المخدرات.

من الذي يستطيع التنبؤ بردة فعلها؟ لست أنا. وليس تشارلي بالتأكيد. ربما أليس... لكنني لم أفكر في سؤالها عن الأمر.

بعد أن اختنقت بتلك الكلمات المستحيلة وتلعثمت عندما قلتها: «أمي... سوف أتزوج إدوارد» قالت رينيه: «طيب يا بيلا... لقد انزعجت قليلاً لأنك انتظرت كل هذا الوقت قبل أن تخبريني. هذا سيجعل تذاكر الطائرة أكثر كلفة... هل تعتقدين أن فيل سيفرغ من عمله الحالي بحلول ذلك الوقت؟ سوف يفسد الصور إذا لم يكن مرتدياً بدلة رسمية...»

قلت بصعوبة: «انتظري لحظة يا أمي... ماذا تقصدين بقولك إنني انتظرت كل هذا الوقت؟ لم تمض على خ... خط... (ما أصعب نطق هذه الكلمة)... خطبتي إلا فترة وجيزة جداً. لم نتفق على أمر الزواج إلا اليوم».

«اليوم! حقاً؟ هذه مفاجأة. لقد اعتقدت...»

«ماذا اعتقدت؟ ومتى اعتقدت ذلك؟»

«حسنٌ! عندما أتيتما لزيارتي في نيسان بدا لي أن الأمور جاهزة تماماً... هل تدركين قصدي. ليس من الصعب كثيراً قراءة ما في ذهنك يا حبيبتي. لكني لم أقل شيئاً لأنني كنت أعرف أنه ليس من الحسن أن أقول شيئاً في ذلك الوقت. أنت مثل تشارلي تماماً»... أطلقت أمي زفرة ندم... «ما أن تقرري شيئاً حتى يصبح النقاش معك مستحيلاً. وأنت مثل تشارلي أيضاً عندما تتمسكين بقرارك».

عند ذلك قالت ما لم أكن أتوقع سماعه منها أبداً: «لا تكرري خطيئتي يا بيلا. يبدو عليك الرعب... وأظن أن هذا لأنك خائفة مني أنا»... ضحكت أمي... «خائفة مما يمكن أن يخطر ببالي. أعرف أنني قلت لك أشياء كثيرة عن الزواج وعن الغباء... ولست أسحب كلامي الآن... لكن عليك أن تعرفي أن ما قلته ينطبق علي أنا تحديداً. أنت شخص مختلف تماماً عني.

لديك أخطاؤك الخاصة بك. . . وأنا واثقة أنك ستندمين عليها خلال حياتك. لكن الالتزام ليس من بين مشكلاتك يا حبيبتي. لديك فرصة في النجاح أكثر مما كان لدي خلال أربعين عاماً من حياتي». ضحكت رينيه من جديد. . . «يا طفلتي. . . لحسن الحظ يبدو أنك وجدت روحاً أخرى».

«ألست. . . غاضبة مني؟ ألست تعتقدين أنني أرتكب غلطة كبيرة؟»

«الواقع أنني كنت أفضل أن تنتظري بضع سنوات. أقصد، هل أبدو في نظرك كبيرة السن إلى الحد الكافي لأن أكون حماة إدوارد؟ لا تجيبي على هذا السؤال. لكن الأمر لا يتعلق بي أنا. . . إنه يتعلق بك. . . هل أنت سعيدة؟»

«لا أدري. أشعر أنني أعيش خارج جسدي الآن».

ضحكت رينيه: «هل يجعلك إدوارد سعيدة يا بيلا؟»

«نعم. . . لكن. . .»

«هل سترغبين في شخص غيره؟»

«لا. . . لكن. . .»

«لكن ماذا؟»

«ألن تقولي لي أنني أبدو تماماً مثل أي مراهقة مجنونة منذ بدء الخليقة حتى الآن؟»

«لم تكوني مراهقة أبداً يا حبيبتي. أنت تعرفين دائماً ما هو خير لك!»

خلال الأسابيع الماضية انغمست رينيه بشكل غير متوقع تماماً في خطط الزفاف. كانت تمضي كل يوم ساعات على الهاتف مع والدة إدوارد، إيزمي. . . لا خوف من انسجام الحموات. لقد أحبت رينيه إيزمي كثيراً، لكنني أشك في أن أي شخص يمكن أن لا ينجذب إلى تلك العزيزة التي توشك أن تصبح حماتي.

فاجأني ذلك تماماً. . . كانت أسرة إدوارد وأسرتي تهتمان بجميع التفاصيل معاً دون أن اضطر لأن أفعل شيئاً أو أفكر في شيء.

كان تشارلي غاضباً طبعاً، لكن الأمر الجيد هو أنه لم يكن غاضباً مني.

كانت رينيه هي «الخائنة». كان يعتمد عليها في لعب دور الطرف المتشدد. فما الذي يستطيع أن يفعله الآن عندما اتضح أن تهديده الأخير. . . أي أن أخبر أمي بنفسي. . . كان تهديداً فارغاً تماماً؟ لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً. . . وقد أدرك ذلك. لهذا راح يسير في المنزل جيئة وذهاباً متمتماً بأشياء من قبيل أنه لا يستطيع الثقة بأي شخص في هذا العالم. . .

صحت وأنا أفتح باب المنزل: «أبي!. . . لقد جئت».

«لحظة يا بيلا. . . ابقي حيث أنت».

«ماذا؟». . . سألته وأنا أتوقف في مكاني تلقائياً.

«لحظة واحدة. أوه. . . لقد أصبتني يا أليس».

أليس. . .؟

أجابه صوت أليس الراقص: «آسفة يا تشارلي. . . كيف الوضع الآن؟»

«لقد جرحتني».

«أنت بخير فهو لم يخرق الجلد. . . ثق بي».

سألت وأنا أقف بالباب مترددة: «ما الذي يجري؟»

قال صوت أليس: «ثلاثين ثانية فقط من فضلك يا بيلا!. . . سيكون صبرك خيراً».

أضاف تشارلي: «هممم!»

رحت أنقر الأرض بقدمي. . . وأعد. وقبل أن أصل إلى الثلاثين سمعت صوت أليس يقول: «ادخلي الآن يا بيلا».

التففت حول الزاوية بحذر ودخلت غرفة الجلوس ثم شهقت: «أوه. . . أوه يا أبي. . . أنت تبدو. . .»

قاطعني تشارلي: «هل أبدو سخيفاً؟»

«بل أريد أن أقول إنك تبدو رائعاً».

احمر وجه تشارلي. أمسكته أليس من مرفقه وجعلته يدور ببطء حتى أرى بذلته الرسمية الفضية.

«كفي عن هذا يا أليس. صرت أبدو مثل الأحمق».

«لا يبدو مثل الأحمق أي شخص أصنع ثيابه بيدي».

«إنها محقة يا أبي فأنت تبدو رائعاً! ما المناسبة؟»

نظرت إلي أليس متعجبة: «هذه هي التجربة الأخيرة للملابس. . . لكما أنتما الاثنين».

انتزعت عيني من تشارلي الذي كان يبدو أنيقاً بشكل غير مألوف فرأيت الفستان الأبيض الذي أخشاه في كيس موضوع على الأريكة.

«آه!»

«لا تجزعي يا بيلا. . . لن يستغرق الأمر طويلاً».

استنشقت نفساً عميقاً وأغمضت عيني. تلمست طريقي مغمضة العينين وصعدت السلم إلى غرفتي. خلعت ثيابي ومددت يدي.

راحت أليس تدمدم سائرة خلفي: «تعتقدين أنني أقوم بتعذيبك!»

لم ألتفت إليها. . . لقد كنت في مكاني المفضّل. . . في غرفتي.

في غرفتي تلك كان كل ما يتعلق بالزفاف منتهياً. . . ماضياً. . . كان خلفي الآن. . . شبه منسي.

كنا وحدنا، إدوارد وأنا فقط. وكان المحيط مشوشاً متغيراً باستمرار. . . كان يتغير من غابة يلفها الضباب إلى مدينة تغطيها الغيوم إلى ليلة قطبية. . . هذا لأن إدوارد كان يحتفظ بمكان شهر العسل سراً حتى يفاجئني. لكنني لم أكن مهتمة بالمكان أي اهتمام خاص.

كنا معاً أنا وإدوارد. لقد وفيت بنصيبي من الاتفاق وفاء تاماً. لقد تزوجت منه. . . هذا هو الأمر المهم. لقد قبلت أيضاً جميع هداياه المبالغ فيها، وسجلت (رغماً عني في الواقع) في كلية دارتماوث وسوف أذهب إليها في الخريف. أما الآن فالدور دوره هو.

قبل أن يحولني إلى مصاصة دماء (وهذا هو تنازله الكبير) كان لديه شرط آخر يلح عليه.

كان إدوارد منشغل البال بتلك الأشياء البشرية التي سأتخلى عنها وأفقدها. . . التجارب التي لم يكن يريد أن أخسرها. لكن أكثر تلك الأشياء كان يبدو سخيفاً في نظري، مثل حفلة التخرج مثلاً. لكن ثمة تجربة بشرية واحدة أقلقني تفويتها. . . ومن الطبيعي أنه كان يتمنى لو أنني أنساها تماماً.

هكذا هو الأمر. لم أكن أعرف إلا القليل عما سأكون عليه عندما لا أعود بشرية. لقد رأيت ولادة مصاصي دماء جدد. . . وسمعت قصصاً كثيرة من أسرة إدوارد عن تلك الأيام الأولى. سوف يكون الظمأ السمة الأولى في شخصيتي خلال سنوات كثيرة. وحتى عندما أسيطر تماماً على نفسي فأنا لن أشعر أبداً بما أشعر به الآن بالضبط.

هممم. . . هل سأشعر بهذا الحب الجارف؟

لقد أردت أن أخوض التجربة كلها قبل أن أستبدل بجسدي الحار سريع العطب. . . بجسدي ذي الرائحة الخاصة. . . شيئاً جميلاً قوياً. . . مجهولاً. لقد أردت شهر عسل حقيقي مع إدوارد. ورغم الخطر الذي كان يخشى أن يسببه ذلك لي، وافق إدوارد على المحاولة.

لم أكن أشعر بأليس وبانزلاق حرير الثوب على جسدي إلا على نحوٍ غامض. لم أكن أهتم في تلك اللحظة بما تقوله البلدة كلها عني. ولم أكن أفكر في المشهد الذي سأكون نجمته قريباً جداً. لم أكن قلقة من احتمال تعثري بحافة ثوبي أو بالسقوط في لحظة غير مناسبة أو بكوني صغيرة السن جداً أو بجمهور الحاضرين الذي سينظر إلي، أو حتى بذلك المقعد الفارغ الذي كان يجب أن يجلس عليه أعز أصدقائي.

لقد كنت في مكاني المفضل مع إدوارد.

2

ليلة طويلة

«اشتقت إليك منذ الآن».

«لا ضرورة لذهابي... أستطيع البقاء».

«ممم».

دام الأمر لحظة طويلة لم أسمع خلالها إلا ضربات قلبي والإيقاع المتكسر لأنفاسنا المتقطعة وهمس شفاهنا المتحركة بشكل متواقت.

كان من السهل كثيراً في بعض الأحيان أن أنسى أنني أقبل مصاص دماء. لا لأنه بدا عادياً أو بشرياً (ما كنت أستطيع أن أنسى ولو لثانية واحدة أنني أحتضن بين ذراعي شخصاً أكثر ملائكية من الإنسان)، لكن لأنه جعل وجود شفتيه على شفتي ووجهي ورقبتي يبدو شيئاً لا مثيل له أبداً. زعم أنه تجاوز الإغراء الذي كان يمثله دمي بالنسبة له وأن خوفه من خسارتي جعله يشفى من أي رغبة في دمي. لكنني أعرف أن رائحة دمي مازالت تسبب له الألم... مازالت تحرق أنفاسه كما لو أنه يستنشق لهيباً.

فتحت عيني فوجدت عينيه مفتوحتين أيضاً تحدقان في وجهي. عجيب أن ينظر إلي بهذه الطريقة كما لو أنني كنت جائزة ثمينة لا مجرد فتاة فازت بضربة حظ عجيبة.

التقت نظراتنا لحظة. كانت عيناه الذهبيتان عميقتين جداً فتخيلت أنني

أستطيع أن أرى روحه فيهما. من المضحك أن هذه الحقيقة (وجود روح هذه) يمكن أن تخطر ببالي، حتى وإن كان مصاص دماء. إن له أجمل روح على الإطلاق... أجمل حتى من عقله الذكي أو من وجهه وجسده اللذين لا نظير لهما. كان ينظر إلي كما لو أنه يستطيع رؤية روحي أيضاً... كما لو أنه كان معجباً بما يراه.

لكنه ما كان يستطيع رؤية ما في عقلي على النحو الذي يستطيع به رؤية ما في عقول الآخرين. من يدري سبب ذلك... شيء غريب في دماغي جعله منيعاً أمام جميع الأشياء الخارجية المرعبة التي يستطيع بعض هؤلاء الخالدين فعلها. (عقلي وحده كان منيعاً... مازال جسدي معرضاً لمصاصي دماء من ذوي القدرات التي تختلف عن قدرات إدوارد). لكنني كنت شاكرة لذلك الخلل الذي جعل أفكاري خبيئة عن إدوارد. ولو كان الأمر غير ذلك لكان محرجاً تماماً.

قربت وجهه من وجهي ثانية.

تمتم بعد قليل: «باقٍ في مكاني!»

«لا، لا... إنها حفلتك. عليك الذهاب».

قلت هذه الكلمات، لكن أصابع يدي اليمنى أمسكت بشعره البرونزي وزاد ضغط يدي اليسرى على رقبته. راحت يداه الباردتان تلمسان وجهي.

«القصد من حفلات توديع العزوبية هو التخفيف عمن يكون حزيناً لأنه يودع أيام عزوبيته. أما أنا فأتوق إلى توديعها. لذلك لا معنى للأمر كله حقاً».

همست قرب جلد رقبته البارد: «صحيح».

كان هذا قريباً جداً من سعادتي المرتقبة. كان تشارلي ينام منسياً في غرفته... وهذا ما كان كمثل وجودي وحيدة في المنزل. كنا متجمعين على سريري الصغير... متقاربين... متشابكين إلى أقصى حد ممكن بالنظر إلى الثوب السميك الذي كنت أرتديه. كرهت اضطراري إلى استخدام البطانية لكن اصطكاك أسناني من البرد كان يفسد تلك الرومانسية

كلها. سوف ينتبه تشارلي إذا قمت بتشغيل التدفئة في شهر آب. . .

صحيح أنني كنت مضطرة لأن ألف نفسي بالبطانية، لكن قميص إدوارد كان مرمياً على الأرض. لم أستطع أبداً تجاوز ذهولي لمشهد جسده الكامل الأبيض البارد اللامع مثل الرخام. كنت أمرر يدي على صدره الحجري الآن وعلى بطنه المسطح. سرت فيه رعدة خفيفة. . . وعثرت شفتاه على شفتي من جديد. بحذر جعلت طرف لساني يضغط على شفته الصقيلة مثل الزجاج فسمعته يصدر زفرة. انسابت أنفاسه الباردة اللذيذة على وجهي.

بدأ يبتعد عني. . . هكذا كان رد فعله التلقائي كلما رأى أن الأمر قد مضى أبعد مما يجوز. . . هكذا كان رد فعله العفوي كلما كان راغباً في الاستمرار. أمضى إدوارد الشطر الأكبر من حياته يرفض أي نوع من الإشباع الجسدي. أعرف أن من المرعب بالنسبة له الآن أن يحاول تغيير هذه العادة.

قلت له وأنا أمسك بكتفيه وأقرب جسدي منه: «انتظر!». . . أخرجت إحدى ساقي من تحت البطانية ولففتها حول خصره قائلة: «التجربة طريق الكمال».

ضحك إدوارد: «لا بأس! لابد إذن أننا اقتربنا من الكمال كثيراً، أليس كذلك؟ هل نمت طيلة الشهر الماضي؟»

قلت أذكره: «لكن هذا وقت تجربة الملابس. لم نجرب إلا أشياء قليلة. ليس هذا وقت الحرص بعد الآن».

ظننت أنه سيضحك، لكنه لم يجبني وظل جسمه من غير حركة. . . لقد توتر فجأة. بدا لي أن اللون الذهبي في عينيه تصلب بعد أن كان سائلاً.

أعدت التفكير في كلماتي فأدركت ما سمعه فيها.

همس إدوارد: «بيلا. . .»

قلت: «لا تبدأ هذا الأمر من جديد. . . الاتفاق اتفاق».

«لا أعرف! يصعب علي التركيز كثيراً عندما تكونين معي على هذا النحو.

لا أستطيع. . . لا أستطيع التفكير بشكل واضح. لن أتمكن من ضبط نفسي. . . وسوف يصيبك الأذى».

«سأكون بخير».

«بيلا. . .»

«اسكت!». . . وضعت شفتي على شفتيه لأوقف ذلك الخوف الذي أصابه. لقد سمعت هذا من قبل. لا. . . إنه لا يحاول التنصل من وعده. ليس بعد أن أصر على زواجي منه أولاً.

قبلني بضع لحظات لكنني عرفت أنه لم يعد كما كان قبل قليل. . . قلقاً. . . دائماً قلق. كم سيكون الأمر مختلفاً عندما لا تعود به حاجة إلى القلق من أجل. ما الذي سيفعله في وقته الفائض كله؟ سيكون عليه أن يجد لنفسه هواية جديدة.

سألني: «كيف صارت أقدامك؟»

كنت أعرف أنه لا يعني ذلك السؤال حرفياً فأجبته: «حارة كأنها محمصة».

«حقاً! ألن تغيري رأيك؟ لم يفت الأوان على ذلك».

«هل تحاول خداعي؟»

ضحك وقال: «أحاول التأكد فقط! لا أريد أن تفعلي شيئاً لست واثقة منه تماماً».

«أنا واثقة منك. أما كل ما عدا ذلك فأمره سهل».

تردد إدوارد فتساءلت في نفسي عما إذا كنت قد أخطأت التعبير من جديد.

سألني بهدوء: «هل تستطيعين؟. . . لا أقصد الزفاف فأنا واثق من أنك تستطيعين تحمله رغم شكاياتك كلها. . . لكنني أقصد بعد ذلك. . . ماذا عن رينيه. . . وماذا عن تشارلي؟»

تنهدت: «سوف أشتاق إليهما». . . بل الأسوأ من ذلك هو أنهما سوف يشتاقان إلي. لكنني لم أكن أريد إعطاء إدوارد أي تشجيع.

«وماذا عن أنجيلا وبنجامين وجيسيكا ومايك؟»

«سأفتقد أصدقائي أيضاً»... ابتسمت في الظلام... «مايك خاصة.. أوه، مايك... كيف أستطيع الذهاب؟»

زمجر إدوارد.

ضحكت ثم غدوت جادة مرة أخرى: «إدوارد!... تحدثنا في هذا مرات كثيرة. أعرف أن الأمر سيكون صعباً، لكن هذا هو ما أريد. أنا أريدك... أريدك إلى الأبد. عمر واحد لا يكفيني».

همس: «تظلين في الثامنة عشرة إلى الأبد».

قلت لأضايقه: «ها هو حلم كل امرأة يتحقق».

«دون أي تغير... دون أي تحرك إلى الأمام».

«ما معنى هذا؟»

أجابني ببطء: «هل تذكرين عندما قلنا لتشارلي إننا ننوي الزواج فظن أنك... حامل؟»

قلت ضاحكة: «فكر يومها بأن يطلق النار عليّ... عليك أن تعترف بهذا... لقد فكر في الأمر حقاً لثانية واحدة».

لم يجبني إدوارد.

«ماذا يا إدوارد؟»

«أتمنى فقط... حسن... أتمنى لو أنه كان مصيباً».

شهقت من المفاجأة.

«أتمنى لو أنه يمكن أن يكون مصيباً. أتمنى لو أننا نستطيع ذلك. وأكره أن أسلبك هذه القدرة أيضاً».

لم أستطع الإجابة إلا بعد لحظة: «أنا أعرف ما أفعله».

«وكيف تستطيعين معرفة ذلك يا بيلا؟ انظري إلى أمي... انظري إلى أختي! ليست تلك التضحية سهلة كما تتخيلين».

«إن إيزمي وروزالي بخير تماماً. وإذا تبين لنا فيما بعد أن في الأمر مشكلة فبإمكاننا أن نفعل كما فعلت إيزمي... نتبنى طفلاً».

تنهد إدوارد ثم صار صوته حاداً: «هذا غير صائب! لا أريدك أن تضحي من أجلي. أريد أن أمنحك أشياء لا أن آخذ أشياءك منك. لا أريد أن أسرق مستقبلك. لو كنت بشرياً...»

وضعت يدي على فمه: «أنت مستقبلي. كف عن هذا الكلام الآن. اذهب ولا تتلكأ وإلا اتصلت بإخوتك حتى يأتوا فيأخذونك أخذاً. لعلك في حاجة إلى حفلة توديع العزوبية».

«أنا آسف. لابد أن أعصابي متوترة».

«هل تشعر بانزعاج؟»

«لا! أنا أنتظر لحظة زواجي بك يا آنسة سوان. لكن حفلة الزفاف هي ما لا أستطيع انتظاره...» قطع جملته في منتصفها... «أوه! من أجل حب كل ما هو مقدس!»

«ما الأمر؟»

شد على أسنانه: «لست مضطرة إلى الاتصال بإخوتي. من الواضح أن إيميت وجاسبر لن يسمحا لي بالتخلف عن الحفلة».

شددته إلي لحظة ثم أفلته. لست أنوي الحرب مع إيميت: «استمتع بالحفلة».

سمعت صوت صرير حاد على النافذة... كان أحد ما يحك أظفاره المعدنية متعمداً بزجاج النافذة فيصدر صوتاً مرعباً يجعل المرء يسد أذنيه ويجعل القشعريرة تسري في ظهره... ارتعشت.

قال صوت إيميت مهدداً بهمس خافت وهو مازال مختفياً في ظلمة الليل: «إذا لم ترسلي إدوارد فسوف ندخل لإخراجه».

ضحكت وقلت: «اذهب! اذهب قبل أن يحطموا بيتي».

ظهر الاستياء في عيني إدوارد لكنه نهض واقفاً بحركة رشيقة وارتدى قميصه ثم انحنى وقبّل جبهتي: «اذهبي إلى النوم... لديك يوم حافل غداً».

«شكراً! سوف يساعدني هذا بكل تأكيد».

«أراك في الكنيسة».

قلت: «سأكون الفتاة التي ترتدي الفستان الأبيض». ثم ابتسمت لما أظهرته من لامبالاة.

ضحك إدوارد وقال: «مقنع جداً»... جثا فجأة وتجمعت عضلاته مثل نابض. ثم اختفى قاذفاً نفسه من نافذتي بسرعة شديدة لم تستطع عيناي متابعتها.

سمعت صوت صدمة في الخارج، وسمعت صوت إيميت شاتماً.

تمتمت وأنا أعرف أنهم يستطيعون سماعي: «من الأفضل ألا تؤخره عن الحفلة».

ثم رأيت وجه جاسبر ينظر من نافذتي. كان شعره العسلي يبدو فضياً في ضوء القمر الخافت المتسرب عبر الغيوم.

«لا تقلقي يا بيلا! سنعيده إلى البيت وسيكون لديكما وقت طويل».

غدوت شديدة الهدوء فجأة، وبدت جميع مشاغلي قليلة الأهمية. كان جاسبر، بطريقته الخاصة، لا يقل عن أليس شأناً من حيث قدرته على التوقع. لكنه كان يعتمد على مزاج الناس لا على المستقبل... كان من المستحيل أن تستطيع مقاومة الشعور بالطريقة التي يريدك أن تشعر بها.

جلست في فراشي وبقيت ملتفة بالبطانية: «جاسبر! ما الذي يفعله مصاصو الدماء في حفلة توديع العزوبية؟ لا أعتقد أنكم تصطحبونه إلى أحد نوادي التعري، أليس كذلك؟»

زمجر إيميت من الأسفل: «لا تخبرها شيئاً!»

سمعت صوت صدمة جديدة وسمعت إدوارد يضحك بهدوء.

قال لي جاسبر: «اهدئي»... فهدأت... «إن لدينا، نحن أبناء كولن، أسلوبنا الخاص. بضعة أسود جبلية واثنان من الدببة البنية. مجرد ليلة عادية نمضيها في البرية!»

تساءلت عما إذا كان سيصبح بوسعي في يوم من الأيام أن أتحدث بشكل عادي عن غذاء مصاصي الدماء «النباتي».

«شكراً يا جاسبر».

غمز لي جاسبر بعينه ثم اختفى.

خيم الهدوء في الخارج. ثم جاءني صوت شخير تشارلي المكتوم عبر الجدران.

استلقيت واضعة رأسي على وسادتي... أحسست بالنعاس الآن. ومن تحت أجفاني التي أثقلها النعاس رحت أحدق في جدران غرفتي الصغيرة التي جعلها ضوء القمر شاحبة.

هذه آخر ليلة لي في غرفتي. هذه آخر ليلة أكون فيها إيزابيلا سوان. أما غداً فسوف أكون بيلا كولن. ومع أن محنة الزفاف كلها كانت مثل شوكة تقض مضجعي فقد كان علي الاعتراف بأنني أحببت هذا التحوّل.

تركت أفكاري تتقلب على هواها بعض الوقت متوقعة مجيء النوم. لكني وجدت نفسي أكثر يقظة بعد دقائق قليلة... راح القلق يتسلل إلى معدتي ويجعلها تتقلص تقلصات غير مريحة. شعرت أن الفراش طري كثيراً... ودافئ كثيراً... من غير وجود إدوارد فيه. صار جاسبر بعيداً الآن، وابتعدت معه جميع مشاعر الاسترخاء والراحة.

سيكون يوم الغد طويلاً طويلاً. كنت أعلم أن مخاوفي سخيفة في أكثرها... ليس علي إلا أن أمسك زمام نفسي. الانتباه جزء لا يتجزأ من الحياة. لكن، لدي بعض المخاوف المحددة التي أعرف أنها صحيحة تماماً.

في البداية لدي تجربة فستان الزفاف. من الواضح أن أليس تركت مخيلتها الفنية تتغلب على الجوانب العملية في هذا الشأن. وعليّ أيضاً أن أصعد سلم بيت آل كولن بالكعب العالي وذيل فستاني من خلفي... هذا ما بدا لي مستحيلاً. كان يجب أن أتدرب على ذلك.

ثم لدي قائمة الضيوف أيضاً.

سوف تصل أسرة تانيا وعائلة دينالي قبل بدء الحفل.

من المؤثر أن تجتمع لدينا أسرة تانيا في الغرفة نفسها مع ضيوفنا القادمين من محمية الكويليت: والد جايكوب وآل كليرووتر. لم يكن آل دينالي يحبون

هؤلاء المستذئبين. والواقع أن إيرينا، شقيقة تانيا، ما كانت قادمة إلى الزفاف إطلاقاً فهي مازالت مصرة على الثأر من المستذئبين بسبب قتلهم صديقها لورنت (عندما كان يهم بقتلي). وبفضل هذه الضغينة ترك آل دينالي أسرة إدوارد في أسوأ الأوقات. لقد كان التحالف المستبعد مع ذئاب الكويليت هو ما أنقذ أرواحنا جميعاً عند هجوم قطيع مصاصي الدماء الجدد. . .

وعدني إدوارد بأن لا يكون وجود آل دينالي قرب الكويليت أمراً خطيراً. لقد كانت تانيا، وجميع أفراد أسرتها عدا إيرينا، تشعر بالذنب إلى أقصى حد بسبب ما حدث. كانت الهدنة مع المستذئبين ثمناً بسيطاً للتعويض عن جزء من ذلك الدين. . . ثمن كانوا على أتم استعداد لدفعه.

تلك كانت مشكلتي الكبيرة، لكن ثمة مشكلة صغيرة أيضاً: إنها كرامتي التي أصابها الضرر.

لم أكن قد رأيت تانيا من قبل، لكنني كنت واثقة من أن لقاءها لن يكون تجربة سارة بالنسبة لي. في يوم من الأيام، قبل أن أولد على الأرجح، جربت تانيا حظها مع إدوارد. . . لكنني لا ألومها لأنها أرادته. لكن لابد أنها جميلة جداً، بل رائعة. ومع أن إدوارد كان يفضلني أنا بكل وضوح (وإن يكن ذلك أمراً غريباً)، فإنني لن أستطيع الامتناع عن إجراء مقارنات بيني وبين تانيا.

لقد تذرعت قليلاً بهذه النقطة حتى لا أدعوها لكن إدوارد الذي كان يعرف ضعفي جعلني أشعر بالذنب عندما قال لي: «نحن أقرب الناس إليهم يا بيلا. . . مازالوا يشعرون أنهم مثل الأيتام حتى بعد انقضاء هذا الزمن كله».

وهكذا أذعنت وأخفيت عبوسي عنه.

إن لتانيا أسرة كبيرة الآن. . . بحجم أسرة كولن تقريباً. إنهم خمسة. انضمت كارمن والبازر إلى تانيا وكيت وإيرينا تماماً مثلما انضم جاسبر وأليس إلى أسرة كولن. . . كانوا كلهم مدفوعين بالرغبة إلى عيش حالة من التعاطف والتماسك العائلي خلافاً لبقية مصاصي الدماء العاديين.

لكن، رغم اجتماعهم معاً، ظلت تانيا وأخواتها وحيدات على نحو ما.

ظللن في حالة حداد. فقبل زمن طويل جداً كانت لهم أم أيضاً.

أستطيع تخيل الفراغ الذي يتركه ذلك الفقدان، حتى بعد ألف عام. حاولت أن أتخيل أسرة كولن من غير الشخص الذي صنعها، من غير الشخص الذي هو مركزها، من غير مرشدها، أبيها، كارلايل. لم أستطع أن أتخيل ذلك.

لقد سبق لكارلايل أن شرح لي تاريخ تانيا في واحدة من الليالي الكثيرة التي أمضيتها في منزل أسرة كولن محاولة أن أتعلم كل ما يمكنني تعلمه استعداداً لذلك المستقبل الذي اخترته بنفسي. كانت قصة والدة تانيا واحدة من قصص كثيرة، قصة توضح قاعدة من القواعد التي سيكون علي الانتباه إليها عندما انضم إلى عالم الخالدين. قاعدة واحدة فقط. . . بل قانون واحد يتفرع إلى ألف حالة وحالة: حفظ السر.

كان حفظ السر يعني أشياء كثيرة: العيش من غير إثارة الشبهات، مثل آل كولن؛ والانتقال من مكان لآخر قبل أن يدرك الناس أنهم لا يتقدمون في السن؛ أو الابتعاد عن جميع الناس (إلا وقت الطعام) مثلما يفعل ويعيش مصاصو الدماء الرحل من أمثال جيمس وفكتوريا، أو مثلما يعيش صديقا جاسبر بيتر وشارلوت حتى الآن. كان ذلك يعني مواصلة ضبط مصاصي الدماء الذين تصنعهم مثلما فعل جاسبر عندما كان يعيش مع ماريا ومثلما فشلت فكتوريا في فعله مع «مواليدها» الجدد.

وكان هذا يعني أيضاً عدم خلق مصاصي دماء جدد لأن بعضهم لا يكون قابلاً للضبط والتحكم.

اعترف كارلايل قائلاً: «لا أعرف اسم والدة تانيا». . . كانت عيناه الذهبيتان مثل شعره تقريباً حزينتين عندما تذكر ألم تانيا. . . «إنهم لا يتحدثون عنها أبداً طالما استطاعوا تجنب ذلك. . . وهم لا يفكرون فيها بإرادتهم أبداً.

أظن أن المرأة التي صنعت تانيا وكيت وإيرينا. . . المرأة التي أحبتهم. . . كانت تعيش قبل ولادتي بسنوات كثيرة. . . خلال زمن الوباء في عالمنا. . . وباء الأطفال الخالدين.

«لا أستطيع أن أفهم ما الذي كان يفكر فيه هؤلاء القدماء... لقد حوّلوا مئات الأطفال الصغار إلى مصاصي دماء».

شعرت بغصة في حلقي عندما حاولت تصور ما كان كارلايل يصفه لي.

قال كارلايل بسرعة بعد أن رأى ردة فعلي: «كانوا جميلين جداً... ساحرين... محببين... إلى حد لا يمكنك تخيله. يكفي أن تكوني قريبة منهم حتى تقعي في حبهم... كان هذا شيئاً تلقائياً.

لكن تعليمهم كان مستحيلاً. لقد ظلوا عند مستوى التطور الذي كانوا عليه قبل تحويلهم إلى مصاصي دماء. أطفال صغار في عمر سنتين فقط لهم غمازات، لكنهم يستطيعون تدمير نصف قرية في لعبة من ألعابهم. وإذا جاعوا... فهم يأكلون... ولا يمكن لأي كلمة تحذير أن توقفهم. لقد رآهم البشر وانتشرت أخبارهم وانتشر الرعب مثل انتشار النار في الهشيم...

لقد صنعت أم تانيا طفلاً من هذا النوع. لا أعرف الأسباب التي جعلتها تفعل ذلك... تماما كما لا أستطيع فهم أولئك القدماء»... استنشق كارلايل نفساً عميقاً حتى يهدئ نفسه ثم قال: «لقد صار الفولتوري معنيين بالأمر طبعاً».

ارتعشت كما أرتعش دائماً كلما سمعت ذلك الاسم، لكن تلك المجموعة من مصاصي الدماء الإيطاليين كانت أمراً مركزياً في هذه القصة. لا يمكن أن يوجد قانون من غير وجود العقاب؛ ولا يمكن أن يوجد العقاب إن لم يوجد من يقوم بتنفيذه. كان آرو وكايوس وماركوس القدامى يحكمون قوى الفولتوري. لم أقابلهم إلا مرة واحدة، لكنني أدركت في ذلك اللقاء القصير أن آرو بما لديه من قدرة على قراءة أفكار الآخرين (تكفيه لمسة واحدة حتى يعرف كل ما خطر في ذهن المرء) كان هو القائد الحقيقي.

قام الفولتوري بدراسة هؤلاء الأطفال الخالدين في موطنهم فولتيرا وفي جميع أنحاء العالم. قرر كايوس أن هؤلاء الصغار لا يستطيعون حماية سرنا. لذلك كان لابد من إبادتهم.

قلت لك إنهم كانوا محببين كثيراً... لذلك دافع عنهم جماعتهم بكل شراسة وخسروا الكثيرين من أجلهم. لم تكن تلك الحرب واسعة الانتشار كمثل حروب قارة أوروبا في الجنوب، لكنها كانت أكثر تدميراً بطريقتها الخاصة. تمت التضحية بالجماعات القائمة منذ زمن طويل وبالتقاليد القديمة وبالأصدقاء أيضاً. وفي النهاية تمت إزالة المشكلة كلها. وصار ذكر الأطفال الخالدين ممنوعاً.

لقد قابلت اثنين من الأطفال الخالدين عندما كنت أعيش مع الفولتوري، لذلك فأنا أعرف مدى جاذبيتهم. قام آرو بدراسة هؤلاء الصغار سنوات كثيرة قبل حصول الكارثة التي كانوا سبباً لها. أنت تعرفين طبيعته المدققة... لقد كان رجاؤه أن يتمكن من ترويضهم. لكن القرار كان جماعياً في النهاية: لا يجوز السماح باستمرار وجود الأطفال الخالدين».

كنت على وشك نسيان ما يتعلق بأم بنات دينالي عندما عادت القصة إليها من جديد.

قال كارلايل: «من غير الواضح تماماً ما الذي حدث لأم تانيا. لم تكن تانيا وكيت وإيرينا تعرفن شيئاً إلى أن جاء إليهن الفولتوري ذات يوم. أمهن سجينة لديهم ومعها تلك الكائنات التي خلقتها بشكل غير مشروع. الجهل هو ما أنقذ حياة تانيا وأخواتها. لقد لمسهن آرو ورأى براءتهن لذلك لم يتعرضن للعقاب الذي تعرضت له أمهن.

لم تكن أي منهن قد رأت الصبي من قبل أو حلمت بوجوده حتى رأينه يحترق بين ذراعي أمهن. أظن أنها احتفظت به سراً لحماية بناتها من هذا المصير. لكن، لماذا خلقته أصلاً؟ ومن هو؟ وما الذي كان يعنيه لها فيجعلها تفعل ذلك الأمر المحظور؟ لم تتلق تانيا وأخواتها أي إجابة على هذه الأسئلة. لكن تانيا لم تشك أبداً في أن أمها كانت مذنبة. ولا أعتقد أن أياً منهن سامحتها حقاً.

حتى مع تأكيدات آرو على براءة تانيا وكيت وإيرينا، فقد أراد كايوس

حرقهن أيضاً إذ اعتقد أنهن مذنبات بسبب أمهن. ومن حظهن أن أرو كان يشعر بنوع من الميل إلى الشفقة ذلك اليوم. تم العفو عن تانيا وأخواتها، لكن قلوبهن ظلت جريحة وظل لديهن احترام شديد للقانون. . .»

لست أعرف على وجه التحديد أين انقلبت الذكرى إلى حلم. ففي إحدى اللحظات بدا لي كما لو أنني أصغي إلى صوت كارلايل في ذاكرتي. . . كما لو أنني أنظر إلى وجهه، ثم رأيت نفسي بعد لحظة أنظر إلى حقل رمادي قاحل وأشم رائحة البخور الكثيفة في الهواء. لم أكن وحدي في ذلك المكان.

رأيت أشباح أشخاص وسط الحقل. كانوا جميعاً في عباءات رمادية. يجب أن أخاف منهم. . . لا يمكن أن يكونوا إلا من الفولتوري. . . كنت خائفة فعلاً، فبالنظر إلى ما قرروه في لقائنا الأخير كنت ما أزال بشرية. لكنني عرفت، كما يحدث لي في أحلامي أحياناً، أنهم ما كانوا قادرين على رؤيتي.

كانت تتناثر من حولي أكوام صغيرة يتصاعد منها الدخان. عرفت تلك الرائحة الحلوة في الهواء ولم أنظر إلى تلك الأكوام المحترقة عن كثب. لم أكن راغبة في رؤية وجوه مصاصي الدماء الذين أعدمهم الفولتوري. . . كنت أخشى أن أتعرف على وجه أحد منهم في تلك الأكوام المحترقة.

كان جنود الفولتوري يقفون مشكلين دائرة حول شيء أو حول شخص. . . سمعت أصواتهم الهامسة ترتفع مستثارة. اقتربت من العباءات قليلاً فقد أجبرني حلمي على رؤية الشيء أو الشخص الذين كانوا يمعنون النظر فيه إلى ذلك الحد. وعندما تسللت بحذر بين اثنتين من العباءات رأيت أخيراً موضوع خلافهم مرفوعاً فوق تلة صغيرة. . . أعلى منهم.

كان جميلاً جذاباً. . . تماماً كما تحدث كارلايل. كان الصبي صغيراً. . . لعلّه في الثانية من العمر. وكانت لفائف من الشعر البني تحيط بوجهه الجميل بوجنتيه وشفتيه الممتلئتين. لقد كان يرتعد وكانت عيناه مغمضتين كما لو أنه خائف كثيراً من رؤية الموت يقترب منه في كل ثانية تمر.

فاجأتني شدة رغبتي في إنقاذ ذلك الطفل الجذاب الجميل الخائف. لم

أعد مهتمة بالفولتوري رغم شدة خطرهم. اندفعت فتجاوزتهم دون أن أعبأ بأن يلاحظوا وجودي. وبعد أن تخلصت منهم اندفعت إلى الصبي.

لكنني توقفت متجمدة في مكاني عندما رأيت بوضوح أن التلة الصغيرة التي كان فوقها لم تكن من التراب أو الحجارة بل كانت كومة من أجساد جافة من غير حياة. لم أكن أستطيع عدم رؤية وجوههم. كنت أعرفهم جميعاً. . . أنجيلا وبنجامين وجيسيكا ومايك. . . أما تحت ذلك الصبي الجميل مباشرة فقد رأيت جسدي أمي وأبي.

فتح الصبي عينيه اللامعتين اللتين بلون الدم.

3

اليوم الكبير

انفتحت عيناي...

ظللت دقائق كثيرة راقدة أرتجف وأشهق في فراشي الدافئ محاولة أن أتحرر من ذلك الحلم. صارت السماء في الخارج رمادية، ثم صارت وردية شاحبة... رحت أنتظر قلبي ليهدأ قليلاً.

عندما عدت تماماً إلى الواقع... إلى غرفتي المضطربة المألوفة، شعرت ببعض الانزعاج من نفسي. كيف أرى حلماً كهذا ليلة زفافي؟ هذه هي نتيجة التفكير في تلك القصص المخيفة عند منتصف الليل.

كنت شديدة الرغبة في التخلص من ذلك الكابوس فارتديت ثيابي ونزلت إلى المطبخ قبل الوقت المعتاد بكثير. قمت في البداية بتنظيف الغرف رغم نظافتها. ثم أعددت الإفطار لتشارلي عندما استيقظ. كنت شديدة الانزعاج فلم أهتم بتناول إفطاري وجلست في الكرسي الهزاز.

ذكرته قائلة: «عليك أن تجلب السيد ويبر في الساعة الثالثة».

«بيلا! ليس علي أن أقوم اليوم بأشياء كثيرة باستثناء إحضار القسيس. ومن غير المعقول أن أنسى هذا الواجب الوحيد»... كان تشارلي قد أخذ اليوم كله إجازة استعداداً للزفاف... ولم يكن لديه ما يشغله طبعاً. لكن عينيه كانتا

تذهبان من حين لآخر نحو الخزانة التي تحت السلم حيث كان يحتفظ بمعدات صيد السمك.

«ليس هذا واجبك الوحيد فعليك أيضاً أن تكون حسن اللباس جميل المظهر».

حدق تشارلي في صحنه ودمدم بصوت منخفض: «ملابس القرود!»

سمعنا نقرات قصيرة على باب المنزل.

«هل تظن أن أمر الملابس كان متعباً بالنسبة لك؟»... قلت هذا مكشرة وأنا أنهض... «سوف تكون أليس مشغولة بي طيلة اليوم».

أومأ تشارلي برأسه موافقاً ومعترفاً بأن معاناته أقل من معاناتي. انحنيت فقبلت قمة رأسه عندما مررت بجانبه (احمرّ وجهه وتململ في مكانه) ثم تابعت سيري إلى الباب لأفتحه من أجل صديقتي الغالية تلك التي ستصبح قريبتي اليوم.

لم يكن شعر أليس القصير الأسود مشعثاً كعادته... كان أملس منساباً في ذؤابات صغيرة حول وجهها الجميل الذي كان يحمل تعبيراً جاداً لا يتناسب معه. سحبتني خارج المنزل قائلة من فوق كتفها: «مرحباً يا تشارلي».

راحت أليس تتفحصني عندما جلست في سيارة البورش.

قالت توبخني: «أوه! يا للبؤس! انظري إلى عينيك. ما الذي فعلته؟ هل سهرت طيلة الليل؟»

ـ «تقريباً!»

غضبت أليس: «لقد خصصت وقتاً طويلاً حتى أجعلك تتألقين يا بيلا! كان عليك أن تظهري اهتماماً أكبر بمادتي الأولية».

«لا أحد يتوقع مني أن أتألق. أعتقد أن المشكلة الكبرى هي أنني يمكن أن أسقط نائمة خلال حفل الزفاف فلا أستطيع قول عبارة «موافقة» في الوقت المناسب... وعند ذلك سيهرب إدوارد مني».

ضحكت أليس: «سوف أرمي باقة الأزهار باتجاهك عندما يحين وقت تلك العبارة».

«شكراً لك».

«على الأقل، سيكون لديك وقت طويل من أجل النوم أثناء سفرك بالطائرة غداً».

رفعت حاجبي مستغربة... غداً! إذا كنا سنخرج الليلة بعد الحفلة ثم سنكون في الطائرة غداً... إذن، لن نذهب إلى بويز في ولاية أيداهو. لم يعطني إدوارد أي تلميح عن ذلك. لم أكن شديدة الانزعاج من إبقاء الأمر غامضاً، لكن من الغريب أن لا أعرف أين سأنام ليلة الغد. أو أين... لن أنام... كما كنت آمل...

أدركت أليس أنها باحت بشيء لم يكن لها أن تبوح به فقطبت وجهها وقالت حتى تشغلني: «لقد قمت بتحضير جميع أمتعتك».

نجح الأمر... «أليس! أتمنى أن تدعيني أحزم أمتعتي بنفسي».

«لو فعلت ذلك لفاتني الكثير»

«ولخسرت فرصة الذهاب إلى التسوق».

«سوف تكونين أختي رسمياً بعد عشر ساعات فقط... حان وقت التخلص من عدم حبك للملابس الجديدة».

رحت أحدق عبر زجاج السيارة حتى كدنا نصل المنزل.

سألتها: «هل عاد إدوارد؟»

«لا تقلقي! سوف يكون هنا قبل أن تبدأ الموسيقى. لكنك لن تتمكني من رؤيته بغض النظر عن وقت عودته. نحن نقوم بهذا الأمر بالأسلوب التقليدي».

قاطعتها: «بالأسلوب التقليدي!»

«طيب! بغض النظر عن العريس والعروس».

«تعرفين أنه استرق النظر».

«أوه... لا! لهذا أنا هي الوحيدة التي رأتك في هذا الثوب. لقد حرصت كثيراً على عدم التفكير فيه عندما يكون إدوارد قريباً مني».

قلت لها عندما انعطفنا في الدرب المؤدي إلى المنزل: «طيب! أرى أنك

أعددت زينة من أجل تخرجك»... كانت الدرب التي يبلغ طولها ثلاثة أميال مضاءة كلها بآلاف الأنوار المتداخلة. وهذه المرة أضافت أليس أقواساً من الساتان أيضاً.

«الإسراف في محله أمر جميل. استمتعي بهذا لأنك لن تري الزينة في الداخل حتى يحين الوقت». توقفت السيارة داخل المرآب الكبير شمال المنزل. مازالت سيارة الجيب الكبيرة التي يقودها إيميت غائبة.

قلت محتجة: «منذ متى لا يسمح للعروس برؤية الزينة؟»

«منذ أن وضعتني في موقع المسؤولية. أريد أن أرى انطباعك كاملاً عندما تهبطين السلم».

وضعت أليس يدها على عيني قبل أن تسمح لي بدخول المطبخ. وسرعان ما نبهتني الرائحة الزكية فتساءلت بينما كانت تقودني إلى المنزل: «ما هذا؟»

ظهر القلق فوراً في صوت أليس: «هل الرائحة أكثر مما يجب؟»

«أنت أول بشري يدخل هنا... آمل أن أكون قد فعلت ذلك على الوجه الصحيح».

قلت أطمئنها وقد سحرتني الرائحة: «إنها رائحة رائعة»... كان امتزاج روائح العطور المختلفة رشيقاً ناعماً... «أزهار البرتقال... والليلك... وشيء آخر أيضاً... هل هذا صحيح؟»

«ممتاز يا بيلا. عرفتها كلها عدا الفريزيا والورد».

لم تزح أليس يدها عن عيني حتى صرنا داخل حمامها الضخم. نظرت إلى المنضدة الطويلة وقد انتشرت عليها أدوات تجميل كثيرة لا تقل عما نجده في صالون التجميل. ثم بدأت أشعر بآثار عدم النوم في الليلة الماضية.

«هل هذا ضروري حقاً؟ سوف أبدو باهتة بجانب إدوارد مهما أكثرت من تجميلي!»

دفعتني أليس فأجلستني في مقعد منخفض وردي اللون: «لن يجرؤ أحد على وصفك بالباهتة عندما أنتهي من تجميلك».

أجبتها مدمدمة: «هذا فقط لأنّهم سوف يخافون أن تمضي دمهم انتقاماً».
أسندت ظهري إلى المقعد وأغمضت عيني بأمل أن أتمكن من النوم قليلاً أثناء عمل أليس. كنت أنام قليلاً وأصحو قليلاً في حين راحت أليس تضع لي أقنعة تجميلية وتعالج وتلمع كل جزء من جسدي.

وعندما تجاوزت الساعة وقت الغداء مرت روزالي قرب باب الحمام في ثوب فضي لامع... كان شعرها الذهبي مجموعاً على شكل تاج ناعم فوق رأسها. كانت جميلة جداً إلى حد جعلتني أرغب في البكاء. ما الفائدة من كل هذا التجميل في وجود روزالي؟

قالت روزالي: «لقد عادوا»... سرعان ما تبخرت نوبة اليأس الطفولي التي داهمتني... إدوارد في المنزل الآن.

«لا تدعيه يقترب من هنا».

طمأنتها روزالي: «لن يداهمك اليوم... إنه حريص على حياته... سوف تجعلهم إيزمي ينجزون بعض الأمور خلف المنزل. هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟ أستطيع أن أصفف شعرها».

فتحت فمي مدهوشة. ثم رحت أفتش في عقلي محاولة تذكر كيفية إغلاقه. لم أكن أبداً الشخص المفضل في نظر روزالي. ومما زاد التوتر بيننا أنها كانت تشعر بإهانة شخصية بسبب الخيار الذي أنا مقدمة عليه الآن. فرغم جمالها النادر، ورغم أسرتها المحبة، ورغم وجود إيميت، لا أشك في أنها مستعدة للتخلي عن ذلك كله مقابل أن تعود بشرية. وها أنا أمامها أرمي كل ما تتمناه في الحياة دونما اهتمام كما لو أنه شيء تافه. ليس هذا مما يجعلها تحبني.

قالت أليس ببساطة: «طبعاً! يمكنك أن تبدئي تجديل شعرها. أريده محكماً... سأضع الطرحة هنا... تحته». بدأت يدها تنساب عبر شعري وتلويه يميناً وشمالاً وهي تشرح قصدها. وعندما انتهت حلت يدا روزالي محل يدها وراحتا ترتبان شعري بلمسات أخف من الريشة. أما أليس فانتقلت إلى وجهي.

بعد أن انتهت روزالي من جدل شعري ونالت ثناء أليس على عملها ذهبت لتحضر الفستان ثم ذهبت من جديد لتتفقد جاسبر الذي أرسلته حتى يحضر أمي وزوجها قبل من الفندق. وفي الأسفل كنت أستطيع سماع الباب يفتح ثم يغلق مرة بعد مرة. بدأت أصوات الناس المتجمعين في الأسفل تصل إلينا.

طلبت أليس مني أن أقف حتى تتمكن من إلباسي الفستان دون أن يصيب شعري أو وجهي. راحت ركبتاي ترتجفان من التعب حين كانت تزرر صفاً طويلاً من الأزرار اللؤلؤية على امتداد ظهري... وراحت موجات صغيرة تسري في الساتان نزولاً حتى الأرض.

قالت أليس: «تنفسي بعمق يا بيلا وحاولي أن تجعلي قلبك يهدأ قليلاً. يوشك تعرقك أن يفسد التجميل على وجهك».

حاولت إظهار أقصى تعبير تهكم على وجهي: «سأحاول ذلك».

«علي أن أذهب لأرتدي ملابسي الآن. هل تستطيعين أن تتمالكي نفسك مدة دقيقتين؟»

«مممم... ربما!»

نظرت إلي باستغراب وانطلقت خارجة من الغرفة.

حاولت التركيز على ضبط تنفسي ورحت أعد حركات رئتي وأنا أحدق في الرسوم التي يعكسها مصباح الحمام على نسيج فستاني اللامع. خفت أن أنظر في المرآة... خفت أن تجعلني صورتي في فستان الزفاف أصاب بنوبة من الرعب.

كنت أحصي أنفاسي، لكن أليس تمكنت من العودة قبل أن أبلغ المئتين... كانت ترتدي فستاناً ينساب على جسدها الرشيق مثل شلال فضي.

«أليس... هذا رائع!»

«إنه لا شيء. لن ينظر أحد اليوم إليّ. لن ألفت انتباه أحد وأنت موجودة».

«كلام فارغ!»

«والآن... هل أنت مسيطرة على نفسك أم علي أن أجعل جاسبر يأتي إلى هنا؟»

«هل عادوا؟ هل وصلت أمي؟»

«لقد دخلت باب المنزل الآن... وهي تصعد السلم في طريقها إلينا».

جاءت رينيه بالطائرة منذ يومين. وقد أمضيت كل دقيقة استطعتها معها... كل دقيقة استطعت فيها إبعادها عن إيزمي وعن الاهتمام بتزيين المنزل. أعرف أنها كانت تستمتع بهذا الأمر أكثر مما يمكن أن يستمتع طفل في ديزني لاند. لقد شعرت على نحو ما أنها غشتني وغشت تشارلي... كم قلقنا من ردة فعلها!

زعقت أمي مندفعة عبر الباب: «أوه يا بيلا! أوه يا حبيبتي... أنت جميلة جداً! آه... أوشك أن أبكي! أنت مدهشة يا أليس... يجب أن تعملي في ترتيب الأعراس أنت وإيزمي. أين وجدت هذا الفستان؟ إنه جميل جداً... رائع... أنيق. بيلا... تبدين كأنك خرجت لتوك من أحد الأفلام»... بدا صوت أمي كأنه يأتي من مسافة بعيدة... ثم صار كل شيء في الغرفة ضبابياً قليلاً... «يا للفكرة المبتكرة... لقد قمت بتصميم كل شيء انطلاقاً من خاتم بيلا. كم هذا رومانسي! كم هو رومانسي أن أفكر في أن هذا متوارث في عائلة إدوارد منذ القرن التاسع عشر!»

تبادلنا نظرة تآمرية أنا وأليس. لقد أخطأت أمي تحديد تاريخ الفستان بأكثر من مئة سنة. لم يكن ترتيب الزفاف كله متمركزاً حول الخاتم في الواقع بل حول إدوارد نفسه.

سمعنا صوت نحنحة مرتفع بباب الحمام.

قال تشارلي: «رينيه... تقول إيزمي إن عليكم النزول الآن».

«طيب يا تشارلي لا تكن مندفعاً هكذا»... قالت له رينيه بنبرة شبه منزعجة. ولعل هذا يفسر جفاف إجابة تشارلي: «هذا ما تريده أليس».

قالت رينيه لنفسها وهي تبدو متوترة: «هل حان الوقت فعلاً؟ لقد مضى ذلك كله بسرعة كبيرة... أشعر بالدوار».

صرنا الآن اثنتين تشعران بالدوار.

قالت رينيه بإصرار: «دعيني أعانقك قبل أن أنزل... حاذري أن تمزقي شيئاً».

شدت أمي على خصري برقة ثم انطلقت إلى الباب لكنها استدارت لتنظر إلي من جديد: «آه يا ربي... كدت أنسى! تشارلي... أين العلبة؟»

فتش أبي في جيوبه دقيقة كاملة ثم أخرج علبة بيضاء صغيرة ناولها إلى رينيه التي فتحتها وأعطتني إياها قائلة: «إنه شيء أزرق».

أضاف تشارلي: «شيء قديم أيضاً. كانت هذه لجدتك... لكننا جعلنا الصائغ يضع أحجار الزفير بدلاً من الزجاج».

كان في العلبة مشطان فضيان صغيران... كانت أحجار الزفير داكنة الزرقة ترسم أشكالاً نباتية فوق أسنانهما.

شعرت بغصة في حلقي: «أمي... أبي... ما كان عليكما أن...»

قالت رينيه: «لم تسمح لنا أليس بفعل أي شيء آخر. لقد منعتنا تماماً».

نهضت أليس مسرعة ووضعت المشطين في شعري تحت حواف الجدائل السميكة وقالت ممازحة: «ها هو شيء قديم... شيء أزرق». ثم تراجعت عدة خطوات ونظرت إلي بإعجاب... «أما ثوبك فهو جديد... لذلك... هذي...»

ألقت شيئاً باتجاهي... مددت يدي تلقائياً فاستقرت فيهما ربطة ساق بيضاء رقيقة.

قالت أليس: «هذه لي... وأريد أن تعيديها».

احمر وجهي.

قالت أليس راضية: «هذا جيد... لست في حاجة إلا إلى بعض الاحمرار... اكتمل كل شيء الآن»... ومع ابتسامة رضى عن النفس استدارت أليس إلى أبي وأمي: «رينيه! عليك أن تنزلي الآن».

«حاضر يا سيدتي»... قبلتني رينيه قبلة خاطفة وخرجت مسرعة من الباب.

«تشارلي! هل يمكن أن تحمل الأزهار من فضلك؟»

عندما خرج تشارلي من الغرفة أخذت أليس ربطة الساق من يدي ثم دستها تحت تنورتي. شهقت عندما مست يدها الباردة كاحلي. . . لكنها أفلحت في وضع الربطة في مكانها.

أنجزت ذلك ووقفت من جديد قبل أن يعود تشارلي حاملاً باقتين من الزهور البيضاء. . . غمرتني رائحة رقيقة من الورود وأزهار البرتقال والفريزيا.

بدأت روزالي (هي أفضل من يعزف الموسيقا في الأسرة بعد إدوارد) تعزف مقطوعة ألمانية قديمة على البيانو في الأسفل. ازداد تنفسي سرعة.

قال تشارلي: «على مهلك يا بيلا». ثم استدار صوب أليس متوتراً وقال: «تبدو مريضة بعض الشيء. هل تعتقدين أنها تستطيع المتابعة؟»

بدا لي صوته بعيداً. . . ولم أعد أشعر بساقي.

«من الأفضل لها أن تستطيع».

وقفت أليس قبالتي تماماً وشبت على رؤوس أصابعها حتى تنظر في عيني ثم أمسكت معصمي بيديها.

«ركزي يا بيلا! إدوارد ينتظرك في الأسفل».

استنشقت نفساً عميقاً وأجبرت نفسي على التركيز. تحولت الموسيقى ببطء إلى أغنية جديدة. أومأ تشارلي باتجاهي: «بيلا! علينا أن نتحرك».

سألتني أليس وهي ما تزال تحدق في عيني: «ماذا يا بيلا؟»

قلت بصعوبة: «نعم! لا بأس!». . . تركتها تسحبني من تلك الغرفة وسار تشارلي بجانبي ممسكاً بمرفقي.

كان صوت الموسيقا أكثر ارتفاعاً في القاعة. كان ينساب صاعداً السلم مع أريج مليون وردة. حاولت التركيز على فكرة أن إدوارد ينتظرني في الأسفل وذلك حتى أجعل قدمي تتحركان إلى الأمام.

كانت الموسيقا مألوفة. . . إحدى مقطوعات فاغنر التقليدية مصحوبة بسيل من التزيينات الموسيقية.

قالت أليس: «جاء دوري الآن. عدي حتى الخمسة ثم اتبعيني». بدأت

أليس تسير بحركة بطيئة رشيقة راقصة وهي تهبط السلم. بدأت أدرك الآن أن وجود أليس بجانبي في الزفاف ليس في مصلحتي. فسوف أبدو أكثر خراقة عندما أكون بجانبها.

سرت في الموسيقا المحلقة نغمة مفاجأة. أدركت أنها نغماتي أنا.

همست لتشارلي: «لا تتركني أسقط يا أبي». أمسك تشارلي بيدي وشد عليها بإحكام.

قلت في نفسي «خطوة خطوة!». . . وبدأنا نهبط السلم على وقع الموسيقا الهادئ. لم أرفع عيني حتى لمست قدماي أرض القاعة؛ لكني كنت أستطيع سماع همسات الحشد وضوضائه بينما كنت أظهر أمامه. اندفع الدم إلى وجنتيّ لسماع تلك الأصوات. . . يمكن الاعتماد علي طبعاً في مسألة احمرار الوجه.

ما أن تجاوزت قدماي درجات السلم حتى رحت أنظر بحثاً عن إدوارد. ولعدة ثوان تشتت نظري بسبب كثرة الزهور البيضاء التي كانت تتدلى على شكل عناقيد من كل مكان في الغرفة وتنساب في خطوط طويلة مع الشرائط البيضاء. لكنني انتزعت عيني من تلك المظلة من الأزهار ورحت أبحث بين صفوف الكراسي المجللة بالساتان حتى وجدته أخيراً (ازداد احمرار وجهي عندما رأيت أعين كل تلك الوجوه مصوبة نحوي). . . كان يقف قرب قوس يزدحم بمزيد من الأزهار والزينات.

لم أكد أدرك أن كارلايل كان يقف بجانبه وأن والد أنجيلا كان واقفاً خلفهما. لم أر أمي حيث كان يجب أن أراها جالسة في الصف الأمامي. . . ولم أر أفراد أسرتي الجديدة. . . ولم أر أحداً من الضيوف. كان عليهم جميعاً أن ينتظروا حتى وقت لاحق.

لم أر في الحقيقة إلا وجه إدوارد. . . كان يملأ نظري وعقلي. كانت عيناه بلون الذهب. . . وكان وجهه الجميل الكامل متوتراً بسبب عمق مشاعره. ثم. . . حين التقت عيناه بعيني المذعورتين. . . أضاءت وجهه ابتسامة عريضة جذلى.

وفجأة. . . صارت يد تشارلي التي تمسك بيدي الشيء الوحيد الذي يمنعني من السقوط في ذلك الممر.

كانت الموسيقا بطيئة جداً عندما كنت أحاول جاهدة أن أضبط خطواتي مع إيقاعها. لكن الممر كان قصيراً لحسن حظي. ثم. . . أخيراً. . . أخيراً. . . وصلت. مد إدوارد يده فدفع تشارلي يدي ووضعها في يد إدوارد. . . إنه رمز قديم قدم العالم. لمست جلد يده البارد فأحسست أنني صرت في أمان.

لم تكن عهود الزواج التي تبادلناها إلا تلك الكلمات التقليدية البسيطة التي رددها الناس ملايين المرات. . . لكن أحداً منهم لم يكن مثلنا. كنا قد طلبنا من السيد ويبر إجراء تغيير بسيط واحد. طلبنا منه تغيير عبارة «حتى يفرقنا الموت» ليضع محلها عبارة «طيلة حياتنا». . . فهي تناسبنا أكثر من العبارة الأولى.

في تلك اللحظة. . . عندما كان القسيس يتلو كلماته. . . بدا لي أن عالمي الذي كان مقلوباً رأساً على عقب منذ زمن طويل قد استقر في وضعه الطبيعي الصحيح الآن. رأيت كم كان خوفي من هذا الأمر سخيفاً. . . كما لو أنه هدية عيد ميلاد لا أحبها أو كأنه ظهور محرج على الملأ، مثل حفلة التخرج مثلاً. نظرت في عيني إدوارد البرقتين المنتصرتين وأدركت أنني قد انتصرت أيضاً. فلا شيء يهمني إلا أن أكون معه.

لم أدرك أنني أبكي حتى جاء دوري في الكلام. لكنني أفلحت في نطق كلمة «أقبل» بهمس لا يكاد يكون مفهوماً ورحت أرفرف بعيني حتى أزيح الدموع فأرى وجهه. وعندما جاء دوره في الكلام صدحت الكلمات واضحة منتصرة عندما قال مقسماً: «أقبل».

أعلننا السيد ويبر زوجاً وزوجة ثم ارتفعت يدا إدوارد لتحضنا وجهي برفق شديد كما لو أنه رقيق وهش مثل أوراق الورد البيضاء التي كانت تهتز فوق رأسينا. حاولت أن أستوعب. . . من خلال غشاوة الدموع التي أعمت

عيني. . . تلك الحقيقة العجيبة وهي أن هذا الشخص المدهش صار لي أنا. بدا لي أن الدموع توشك أن تملأ عينيه الذهبيتين أيضاً. . . فهل هذا مستحيل. مال برأسه صوبي فوقفت على رؤوس أصابعي ملقيةً ذراعي الممسكتين بباقة الزهور حول عنقه.

قبلني برقة وشغف. . . نسيت الناس المجتمعين ونسيت المكان والزمان والسبب. لم أتذكر إلا أنه يحبني وأنه يريدني وأنني صرت له.

بدأ القبلة. . . وكان عليه إنهاؤها، لكنني تمسكت به متجاهلة الهمسات والنحنحات التي صدرت عن الناس المجتمعين خلفي. وأخيراً تمكنت يداه من إبعاد وجهي. . . أسرع مما يجب. . . ونظر إلي. كانت ابتسامته في الظاهر، مرحة. . . شبه ساخرة. أما تحت تلك السخرية اللحظية بسبب إظهاري تلك المشاعر على الملأ فكان يكمن فرح عميق ردد أصداء فرحي.

انفجر الحشد مصفقاً فاستدار إدوارد وأدارني حتى أواجه الأصدقاء وأفراد الأسرة. لم أستطع إبعاد عيني عنه لأنظر إليهم.

كانت ذراعا أمي أول من وصل إلي. . . وكان وجهها الذي تغطيه الدموع أول شيء أراه عندما انتزعت نظري أخيراً من وجه إدوارد دون رغبة مني وسرعان ما صرت أنتقل من عناق إلى آخر عبر حشد الناس لكنني لم أكن أدرك من هم الذين يعانقونني إلا على نحو غائم مشوش. . . كان انتباهي مركزاً على يد إدوارد التي تمسك يدي بإحكام. بدأت أدرك الفارق بين العناق الحار الطري من أصدقائي البشر وبين العناق البارد الرقيق من أفراد أسرتي الجديدة.

لكن عناقاً واحداً تميز عن تلك المعانقات كلها. . . لقد تجرأ سيث كليرووتر على الوقوف بين مصاصي الدماء لينوب عن صديقي المفقود. . . جايكوب.

4

إيماءة

تحول الزفاف إلى حفل استقبال بكل سهولة... كان هذا إثباتاً لصحة تخطيط أليس. حل الغسق فوق النهر... استمر الحفل طيلة الوقت المقرر له تماماً... حتى غابت الشمس خلف الأشجار. كانت الأنوار تتلألأ في الأشجار عندما قادني إدوارد عبر الباب الزجاجي الخارجي جاعلاً الزهور البيضاء تتألق في ذلك الضياء. كان في الخارج عشرة آلاف زهرة أيضاً... وكانت تبث خيمة من العطر فوق حلبة الرقص المقامة على العشب تحت شجرتي أرز عتيقتين.

صارت الأمور أبطأ الآن... استرخيت قليلاً عندما ضمنا ليل آب اللطيف. تناثر الحشد الصغير في الخارج في ضوء الغسق الخافت... حيانا من جديد أولئك الضيوف الذين عانقناهم قبل قليل. صار الوقت الآن متسعاً للحديث... والضحك.

قال لنا سيث كليروونر مطلاً برأسه من تحت أحد أكاليل الزهور: «مبارك يا أصدقائي!»... كانت والدته سو بجانبه تماماً تنظر إلى الضيوف بإمعان. كان وجهها نحيلاً صارماً... وقد زادت تسريحة شعرها القصير من شدة هذا التعبير. لم يكن شعرها أطول من شعر ابنتها ليا... هل هذا نوع من إظهار التضامن بينهما؟ أما بيلي بلاك الجالس إلى جانب سيث من الناحية الأخرى فلم يكن متوتراً مثل سو.

عندما أنظر إلى والد جايكوب أشعر دائماً أنني أرى شخصين لا شخصاً واحداً. كنت أرى فيه ذلك الرجل العجوز في الكرسي المتحرك بوجهه المغضن وابتسامته البيضاء التي يراها الجميع. ثم كان هناك أيضاً شخص هو سليل مباشر لسلسلة من الزعماء الأقوياء السحريين... شخص يرتدي عباءة السلطة التي ولدت معه. صحيح أن السحر قد تخطى هذا الجيل (في غياب وسيطه)، لكن بيلي ما يزال جزءاً من تلك القوة... من تلك الأسطورة. لقد تجاوزه السحر... تجاوزه إلى ابنه الذي صار وريثاً للسحر لكنه أدار ظهره له. وهذا ما جعل سام أوليه يقوم الآن بدور زعيم الأساطير والسحر...

بدا بيلي مرتاحاً وهو ينظر إلى هذا الجمع من الناس... التمعت عيناه وكأنه تلقى أخباراً طيبة. لقد أثر عليّ مظهره. لابد أن هذا الزواج يبدو في نظره أمراً ما يمكن أن يحصل لابنة أعز أصدقائه.

كنت أعرف أن ضبط مشاعره ما كان سهلاً عليه بالنظر لما يمثله هذا الحدث بالنسبة للمعاهدة القديمة بين الكويليت وأسرة كولن... المعاهدة التي تحظر على الأسرة صنع أي مصاص دماء جديد. كان الذئاب يعرفون أن خرقاً للمعاهدة يوشك أن يحدث... لكن أسرة كولن لم تكن لديها أي فكرة عن رد فعلهم المحتمل. كان من شأن هذا، لو حدث قبل التحالف، أن يعني هجوماً مباشراً... حرباً. أما الآن، وبعد أن تعارف الجانبان بشكل أفضل، فهل سنرى نوعاً من الصفح بدلاً من الحرب؟

مال سيث صوب إدوارد ماداً يديه كما لو أنه استجاب لتلك الفكرة التي خطرت ببالي. احتضنه إدوارد بيده الحرة.

رأيت رعشة خفيفة تسري في جسد سو.

قال سيث: «أنا سعيد برؤية الأمور تجري جيداً بالنسبة لك... أنا سعيد من أجلك».

قال إدوارد: «شكراً يا سيث! هذا يعني الكثير بالنسبة لي»... ابتعد عن سيث قليلاً ونظر إلى سو وبيلي: «شكراً لكما أيضاً. شكراً لأنكما

جعلتما سيث يأتي. وشكراً لمساندتكما بيلا في هذا اليوم».

قال بيلي بصوته الجاد العميق: «على الرحب والسعة!»... فاجأني التفاؤل الظاهر في صوته. لعل هدنة أقوى تلوح في الأفق.

تشكل صف قصير من الناس خلف سيث فودعنا ودفع أمامه كرسي بيلي باتجاه طاولة الطعام. كانت إحدى يدي سو على كتف سيث والأخرى على كتف بيلي.

وبعدهم جاء بن وأنجيلا ثم جاء والدا أنجيلا، ثم مايك وجيسيكا... كانا متشابكي الأيدي، وهذا ما فاجأني. لم أسمع أنهما عادا معاً من جديد... كان هذا خبراً لطيفاً.

ومن خلف أصدقائي البشر كان يقف أنسبائي الجدد، مصاصو الدماء من عشيرة دينالي. أدركت أنني كنت أحبس أنفاسي عندما تقدمت أولاهم فعانقت إدوارد (تانيا كما افترضت بسبب الحمرة الخفيفة في شعرها الأشقر). ومن خلفها وقف ثلاثة من مصاصي الدماء ذوي العيون الذهبية ينظرون إلي بفضول واضح. كانت بينهن امرأة لها شعر أشقر باهت طويل. أما المرأة الأخرى والرجل الذي بجانبها فكان لهما شعر أسود مع مسحة من لون زيتوني تشوب بياضهما الشديد.

كانوا كلهم فائقي الجمال إلى درجة جعلتني أحس بالألم في معدتي.

مازالت تانيا تحتضن إدوارد: «آه يا إدوارد! كم اشتقت إليك!»

ابتسم إدوارد ثم أفلح في التخلص من عناقها واضعاً يده برقة على كتفها ومتراجعاً خطوة إلى الوراء كما لو أنه يريد أن ينظر إليها بشكل أفضل: «مر زمن طويل يا تانيا... تبدين في أحسن حال».

«وأنت أيضاً».

«دعيني أعرفك على زوجتي»... كانت تلك هي المرة الأولى التي ينطق فيها إدوارد هذه الكلمة... وبدا عليه أنه مشبع بالرضا عندما قالها. ضحك آل دينالي جميعاً فقال إدوارد: «تانيا! هذه هي بيلا».

كانت تانيا أجمل حتى مما توقعت في كوابيسي. نظرت إليّ نظرة فاحصة

دون أن يبدو عليها أي نفور ثم مدت يدها لتصافحني. ابتسمت وقالت: «أهلاً بك إلى الأسرة يا بيلا. نحن نعتبر أنفسنا جزءاً من أسرة كارلايل. وأنا آسفة بشأن... تلك الحادثة عندما لم يكن سلوكنا حسناً تماماً. كان يجب أن نتعرف عليك قبل هذا. هل تستطيعين مسامحتنا؟»

قلت مبهورة الأنفاس: «طبعاً! لطيف جداً أن أتعرف إليك الآن».

«تعادل الآن عدد الذكور والإناث في أسرة كولن. ولعل دورنا سيأتي بعدهم يا كيت!»... قالت هذا وهي تبتسم للشقراء الأخرى.

أجابت كيت ساخرة: «حافظي على هذا الحلم حياً. أخذت يدي من يد تانيا وضغطت عليها برقة قائلة: «أهلاً يا بيلا».

وضعت المرأة ذات الشعر الأسود يدها فوق يد كيت: «أنا كارمن، وهذا إليعازر. نحن مسرورون جداً بلقائك».

قلت متلعثمة: «وأنا... أيضاً».

التفتت تانيا إلى الناس المتجمعين خلفها: مارك (معاون تشارلي) وزوجته. اتسعت أعينهما بالدهشة عندما شاهدا أسرة دينالي.

«سوف نتعارف بشكل أفضل. لدينا متسع من الوقت لذلك!»... ضحكت تانيا وهي تقول هذه الكلمات ثم ذهبت مع أفراد أسرتها.

جرت المحافظة علي جميع التقاليد المعروفة. ثم عصب إدوارد عينيَ في حين أمسكنا نحن الاثنين بسكين كبيرة فوق قالب الحلوى الرائع بالغ الضخامة بالنسبة لحجم مجموعة الأصدقاء المجتمعين... أو هكذا ظننت. ثم أطعمني إدوارد قطعة من الحلوى وأطعمته قطعة بدوري فابتلعها برجولة في حين رحت أنظر إليه غير مصدقة. ألقيت باقة الورود التي أحملها فجاءت بين يدي أنجيلا التي أصابتها الدهشة. انفجر إيميت وجاسبر ضاحكين بسبب احمراري عندما نزع إدوارد ربطة الساق المستعارة التي كنت قد أنزلتها حتى كاحلي تقريباً... نزعها بأسنانه بحذر شديد. ثم غمز لي بعينه غمزة سريعة وألقاها مباشرة في وجه مايك نيوتن.

وعندما بدأت الموسيقا جذبني إدوارد بين ذراعيه لنؤدي الرقصة الأولى كما هي العادة. مضيت معه راغبة في الرقص رغم خوفي (خاصة خوفي من الرقص أمام الجمهور) لكني كنت سعيدة لأنه يحتضنني. قام إدوارد بالمهمة كلها فرحت أتمايل من غير جهد تحت بريق مظلة الأضواء ولمعان آلات التصوير.

همس في أذني: «هل تستمتعين بالحفلة يا سيدة كولن؟»

ضحكت: «لابد من زمن حتى أعتاد على هذا».

قال يذكرني: «لدينا الكثير من الزمن». كان صوته مستثاراً فرحاً... انحنى ليقبلني أثناء رقصنا فتصاعد صوت طقطقة آلات التصوير.

تبدلت الموسيقا الآن ورأيت تشارلي ينقر على كتف إدوارد.

لم يكن الرقص مع تشارلي في مثل سهولة الرقص مع إدوارد. ما كان رقصه أفضل من رقصي، لذلك رحنا نتمايل حذرين من جانب إلى آخر بخطوات صغيرة حذرة. أما إدوارد وإيزمي فراحا يدوران حولنا راقصين وكأنهما فريد استير وجنجر روجرز.

«سوف أفتقدك في المنزل. لقد صرت وحيداً».

أجبته وقد تشنجت حنجرتي وحاولت أن أجعل الأمر مزاحاً: «أنا مستاءة أيضاً لأنني سأتركك تطبخ طعامك وحدك... هذا إهمال إجرامي في واقع الأمر. وفي وسعك أن تعتقلني بسببه».

ابتسم تشارلي: «أظن أن طعامي لن يقتلني. اتصلي بي كلما استطعت».

«أعدك بهذا».

بدا لي أنني رقصت مع الجميع. كانت رؤية أصدقائي كلهم شيئاً جيداً، لكنني كنت أرغب حقاً في أن أكون مع إدوارد أكثر من أي شيء آخر. وكنت سعيدة عندما جاء فقاطع رقصتي الجديدة بعد نصف دقيقة من بدء الموسيقا.

قلت له وهو يأخذني بعيداً: «مازلت لا تحب مايك، أليس كذلك؟»

«ليس عندما أصغي إلى أفكاره. من حسن حظه أنني لم أطرده... أو أكثر من ذلك».

«حقاً؟»

«هل سنحت لك فرصة النظر إلى نفسك؟»

«آه!... لا!... لا أظن... لماذا؟»

«إذن، أعتقد أنك لا تدركين كم أنت جميلة اليوم... جمالك يحطم القلوب. لا يدهشني أن مايك يجد صعوبة في ضبط أفكاره غير الملائمة إزاء امرأة متزوجة. لقد خاب أملي لأن أليس لم تجبرك على النظر إلى نفسك في المرآة».

«أنت متحيز جداً... وأنت تعرف ذلك».

تنهد إدوارد وتوقف قليلاً ثم أدارني حتى واجهت المنزل. كانت الواجهة الزجاجية تعكس الحفلة كلها كما لو أنها مرآة كبيرة. أشار إدوارد إلى زوج من الأشخاص يقف قبالتنا تماماً.

«انظري! هل أنا متحيز؟»

لم أر إلا لمحة من انعكاس صورة إدوارد على الزجاج... صورة كاملة لوجهه الرائع... وبجانبه كانت تقف فتاة بارعة الجمال سوداء الشعر. كان جلدها وردي اللون... وكانت عيناها كبيرتين ملؤهما الإثارة تحيط بهما أهداب كثيفة. أما الفستان الضيق الأبيض اللامع فكان ينساب برشاقة مثل زهرة سوسن مقلوبة... كان مصنوعاً بمهارة شديدة فجعلها تبدو رشيقة... عندما تقف من غير حركة على الأقل.

وقبل أن أستطيع أن أرمش بعيني فأجعل تلك الجميلة تصبح أنا من جديد، تصلب جسد إدوارد فجأة واستدار تلقائياً في الاتجاه الآخر كما لو أن شخصاً هتف باسمه.

قال: «أوه!»... تغضن حاجبه لحظة صغيرة ثم عاد كما كان بسرعة فائقة، وفجأة... ابتسم ابتسامة متألقة.

سألته: «ما الأمر؟»

«هدية زفاف مفاجئة».

«ها!»

لم يجبني... عاد إلى الرقص من جديد منحرفاً بي في اتجاه معاكس لاتجاهنا الأصلي بعيداً عن الأضواء... ثم صرنا في ظلمة الليل المحيط بحلبة الرقص ساطعة الأضواء.

لم يتوقف حتى بلغنا الجانب المظلم من إحدى أشجار الأرز العملاقة. ثم نظر إدوارد مباشرة إلى أكثر البقاع ظلمة في ذلك الظل.

قال إدوارد مخاطباً الظلمة: «شكراً... هذا... لطف بالغ منك».

أجابه صوت أجش مألوف منبعث من الظلمة: «أنا لطيف بطبعي... هل أستطيع مقاطعتكما؟»

وضعت يدي على حنجرتي... ولو لم يكن إدوارد يمسكني لسقطت إلى الأرض.

قلت بمجرد أن استعدت أنفاسي: «جايكوب... جايكوب!»

«مرحبا يا بيلا».

سرت متعثرة باتجاه صوته. ظل إدوارد ممسكاً بي من مرفقي حتى أمسكت بي يدان قويتان في الظلمة. اخترقت حرارة كفي جايكوب أكمام فستاني الرقيق عندما شدني لأقترب منه. لم يكن يبذل أي جهد في الرقص... كان يحتضنني... وكنت أدفن وجهي في صدره. أما هو فانحنى قليلاً حتى يضع خده على رأسي.

تمتم إدوارد: «لن تسامحني روزالي إذا ضيعت عليها دورها في الرقص معي»... عرفت أنه يتركنا وحيدين... كان يقدم لي هدية... يقدم لي هذه اللحظة مع جايكوب.

«آه يا جايكوب!»... كنت أبكي الآن ولم أستطع الكلام بشكل واضح... «شكراً لك».

«كفي عن هذا يا بيلا. سوف تفسدين ثوبك. هذا أنا ولا شيء أكثر من ذلك!»

«لا شيء أكثر من ذلك! آه يا جايكوب! صار كل شيء على ما يرام الآن».

ضحك جايكوب: «نعم... يمكن أن تبدأ الحفلة الآن. تمكن مرافق العروس من المجيء».

«الآن صار كل من أحبهم حاضرين هنا».

شعرت بشفتيه تلمسان شعري: «آسف لأنني تأخرت يا عزيزتي».

«أنا سعيدة جداً لأنك جئت».

«هذا سبب مجيئي».

نظرت باتجاه الضيوف لكن نظري لم يصل إلى حيث كان يقف والد جايكوب. لا أعرف إن كان موجوداً أو أنه ذهب: «هل يعرف بيلي أنك هنا؟»

بمجرد أن سألته هذا السؤال عرفت أن بيلي يعرف بمجيئه بكل تأكيد... هذا هو التفسير الوحيد لمظهره الفرح اليوم.

«أنا متأكد أن سام أخبره. سأذهب لرؤيته عندما... عندما تنتهي الحفلة».

«سيكون سعيداً جداً بعودتك».

تراجع جايكوب قليلاً وشد قامته. ظلت يده على مؤخرة رقبتي لكنه أمسك يدي اليمنى بيده الأخرى. وضع يدينا معاً على صدره فشعرت بنبض قلبه تحت كفي. عرفت أنه لم يضع يدي على صدره مصادفة.

قال: «لا أعرف إن كنت أستطيع أن أحصل على أكثر من رقصة واحدة».

قال هذا وبدأ يدور بي راقصاً على إيقاع غير الإيقاع القادم مع الموسيقا من خلفنا... «لذلك علي أن أستفيد منها إلى أقصى حد».

صرنا راقصين على إيقاع نبضات قلبه الذي تحت يدي.

قال جايكوب بهدوء بعد لحظات: «أنا سعيد لأنني أتيت. لم أكن أعتقد أنني سأشعر بهذه السعادة. لكن رؤيتك أمر لطيف... مرة أخرى. ليس الأمر سيئاً كما توقعت أن يكون».

«لا أريد أن تشعر بالحزن».

«أعرف هذا... لست آتياً الليلة حتى أجعلك تشعرين بالذنب».

«لا! . . . يسعدني جداً أنك أتيت. هذه أفضل هدية يمكنك تقديمها لي».

ضحك جايكوب: «هذا جيد لأن وقتي لم يسمح لي بالتوقف لأجلب لك هدية حقيقية».

نظرت إليه . . . صرت قادرة على رؤية وجهه الآن . . . كان أعلى مما توقعت. هل يعقل أنه مستمر في النمو؟ لابد أن طوله قارب سبعة أقدام الآن. أراحتني كثيراً رؤية قسمات وجهه من جديد بعد كل هذا الوقت . . . كانت عيناه العميقتان مظللتين تحت حاجبيه السوداوين الكثيفين. كانت وجنتاه مرتفعتين وكانت شفتاه الممتلئتان مبتسمتين تكشفان عن أسنانه اللامعة . . . ابتسامة ساخرة تتناسب مع نبرته. كانت زاويتا عينيه متقلصتين . . . حذرتين . . . واضح أنه شديد الحذر هذه الليلة. إنه يفعل كل ما في وسعه حتى يسعدني . . . ولم يكن ليسمح لنفسه بان يكشف عن مدى كلفة مجيئه بالنسبة له.

لم أفعل في حياتي كلها شيئاً جيداً إلى حد يجعلني أستحق صديقاً مثل جايكوب.

«متى قررت العودة؟»

«في الوعي أم في اللاوعي؟» . . . استنشق نفساً عميقاً قبل أن يقدم إجابته: «حقيقة لا أعرف! أعتقد أنني كنت أتجول مقترباً من هنا منذ فترة . . . لعلي أتيت لأنني متجه إلى هنا في الواقع. لكنني لم أبدأ الجري إلا هذا الصباح. لم أكن واثقاً من قدرتي على الوصول في الوقت المناسب» . . . ضحك جايكوب . . . «لن تصدقي كم أشعر بغرابة الأمر . . . غرابة أن أمشي على ساقي من جديد. لم أكن أتوقع ذلك. لم أعد معتاداً على كل هذه الأمور البشرية».

رحنا ندور راقصين بهدوء.

«مع ذلك، من العار ألا أراك في هذا الشكل. الأمر يستحق تلك الرحلة كلها. أنت تبدين جميلة إلى حد لا يصدق يا بيلا . . . جميلة جداً».

«أنفقت أليس وقتاً طويلاً عليّ اليوم. الظلمة تساعد على ظهوري جميلة أيضاً».

«ليست الظلمة شديدة بالنسبة لعينيّ . . . أنت تعرفين!»

«صحيح» . . . إنها حواس الذئب. كان سهلاً علي أن أنسى كل الأشياء التي يستطيع أن يفعلها . . . لقد بدا لي بشرياً تماماً . . . خاصةً الآن.

قلت له: «هل قصصت شعرك؟»

«نعم! هذا أسهل كما تعلمين. مع أنني أفضل الاستفادة من يدي».

كذبت قائلة: «شكلك هكذا أفضل».

ضحك ساخراً: «صحيح! لقد قصصته بنفسي باستخدام مقص مطبخ صدئ».

ابتسم ابتسامة عريضة لحظة واحدة . . . ثم خبت ابتسامته. صار تعبير وجهه جاداً: «هل أنت سعيدة يا بيلا؟»

«نعم».

«طيب!» . . . شعرت بكتفيه يرتفعان . . . «أظن أن هذا هو الشيء الرئيسي».

«وكيف حالك أنت يا جايكوب؟ كيف حالك فعلاً؟»

«أنا بخير يا بيلا . . . أنا بخير فعلاً. لا حاجة بك للقلق علي بعد الآن. يمكنك التوقف عن إزعاج سيث».

«لست أزعجه بسببك أنت فقط . . . أنا أحب سيث».

«إنه ولد طيب . . . أفضل من غيره. أقول لك . . . لو استطعت فقط أن أتخلص من تلك الأصوات في رأسي لكان بقائي ذئباً أمراً جيداً».

ضحكت لتلك الفكرة: «نعم! لكنني لا أستطيع أيضاً أن أسكت صوتي».

قال مداعباً: «في حالتك أنت، يعني هذا أنك مجنونة. أنا أعرف طبعاً أنك مجنونة».

«شكراً».

«لعل الجنون أهون من أن يكون عقلك جزءاً من عقل القطيع. إن

أصوات المجانين لا ترسل جليسات الأطفال من أجل مراقبتهم».

«هششششش!»

«إنه سام يقف هناك، ومعه بعض الآخرين. تحسباً كما تعلمين».

«تحسباً لماذا؟»

«تحسباً لأن لا أستطيع السيطرة على نفسي... شيء من هذا القبيل... تحسباً لأن أقرر تخريب الحفلة كلها»... ألقى ابتسامة سريعة في اتجاهي وهو يعبّر عن تلك الفكرة التي لعلها أغرته حقاً... «لكنني لست هنا من أجل تخريب زفافك يا بيلا. إنني هنا من أجل...» توقف جايكوب عن الكلام.

«أنت هنا لتجعل حفلتي كاملة لا ينقصها شيء».

«هذا صعب».

«لكنك أهل له».

ابتسم جايكوب ثم تنهد: «أنا هنا حتى أكون صديقك، صديقك المفضل، للمرة الأخيرة».

«يجب أن يكون سام أكثر ثقة بك».

«حسن! لعلني صرت مفرط الحساسية. لعلهم كانوا سيأتون في جميع الأحوال... حرصاً على سيث. ثمة كثير من مصاصي الدماء هنا. سيث لا يتعامل مع هذا الأمر بالجدية اللازمة».

«يعرف سيث أنه ليس في خطر أبداً. إنه يفهم أسرة كولن أفضل مما يفهمها سام».

قال جايكوب بلهجة مسالمة قبل أن يتحول الأمر إلى شجار: «طبعاً... طبعاً!»

غريب أن يكون هو الشخص الدبلوماسي.

قلت له: «أنا آسفة بشأن تلك الأصوات. أتمنى لو كنت أستطيع جعل الأمر أفضل»... بطرق كثيرة جداً.

«أنتِ لست بذلك السوء. أنا أتذمر قليلاً فقط».

«هل أنت... سعيد؟»

«سعيد تقريباً! فيما يخصك أنت. أنت النجمة اليوم». ابتسم ثم قال: «أراهن أنك تحبين ذلك... أن تكوني في مركز الاهتمام».

«نعم... لا أستطيع الحصول على الاهتمام الكافي».

ضحك جايكوب ثم نظر من فوق رأسي. راح بشفتين مطبقتين يراقب ذلك الألق القادم من ناحية الحفلة... دوران الراقصين... أوراق الأزهار المتساقطة من الأكاليل. ورحت أنظر معه. بدا الأمر كله بعيداً جداً من هذا المكان المظلم الهادئ. كما لو كنا نراقب تلك الندفات البيضاء تحوم داخل كرة زجاجية.

قال: «أنا معجب بهم... إنهم يعرفون كيف يقيمون حفلة جيدة».

«إليس تشبه قوة من قوى الطبيعة لا يمكن إيقافها».

تنهد جايكوب: «انتهت الأغنية! هل تعتقدين أنني يمكن أن أحظى برقصة أخرى أم أنني أطلب الكثير؟»

شددت يدي على يده: «يمكنك أن تحظى بالقدر الذي تريده من الرقصات».

ضحك وقال: «هذا جميل. لكن أعتقد أن من الأفضل أن أكتفي باثنتين رغم ذلك. لا أريد أن أجعل الناس يتكلمون».

درنا دورة أخرى راقصين.

تمتم قائلاً: «تظنين أنني اعتدت وداعك الآن!»

حاولت ابتلاع الغصة في حلقي لكنني لم أستطع. نظر جايكوب إلي ولمس وجنتي بإصبعه لامساً الدموع التي عليها.

«لست الشخص الذي يفترض أن يبكي يا بيلا».

قلت بصوت مختنق: «الجميع يبكون أثناء الزفاف».

«هذا ما ترغبين فيه، أليس كذلك؟»

«صحيح».

«ابتسمي إذن».

حاولت الابتسام. . . ضحك جايكوب لتكشيرتي.

«سأحاول أن أتذكرك على هذا الشكل. سأتظاهر بأنك. . .»

«بأنني ماذا؟ بأنني مت!»

شد على أسنانه. كان يغالب نفسه. . . لقد قرر أن يجعل حضوره هنا هدية لي لا حكماً علي. كان بوسعي أن أحزر ما الذي أراد قوله.

أجابني أخيراً: «لا. . . لكنني سأراك بهذا الشكل في رأسي. وجنتان ورديتان. . . نبضات قلب. . . حركات رقص خرقاء. . . كل ذلك».

دست على قدمه عمداً بأشد ما استطعت.

ابتسم وقال: «هذه فتاتي التي أعرفها!»

همّ بقول شيء آخر ثم أغلق فمه. كان يصارع نفسه من جديد. . . كانت أسنانه المطبقة تحاول منع خروج كلمات لم يرد قولها.

كانت علاقتي مع جايكوب سهلة جداً في العادة. كانت طبيعية مثل التنفس. لكن، منذ أن عاد إدوارد إلى حياتي صارت تلك العلاقة متوترة دائماً لأنني. . . في عيني جايكوب. . . كنت باختياري إدوارد أختار قدراً أسوأ من الموت. . . أو معادلاً للموت على أقل تقدير.

«ما الأمر يا جايكوب؟ قل لي! يمكنك أن تقول لي أي شي».

«أنا. . . أنا. . . ليس لدي ما أقوله».

«أوه! أرجوك. . . قلها».

«هذا صحيح. . . هذا ليس. . . إنه. . . إنه سؤال. إنه شيء أريد أن تخبريني عنه».

«اسألني».

عاد يصارع نفسه دقيقة أخرى ثم قال: «لا يجوز لي! لا أهمية للأمر. أنا فضولي أكثر مما يجب».

فهمته. . . لأنني أعرفه جيداً فهمست له: «لن يكون الأمر اليوم يا جايكوب».

كان جايكوب مشغول البال ببشريتي أكثر من إدوارد. كان يحصي كل دقة من دقات قلبي لأنه عرف أنها باتت معدودة.

قال محاولاً إخفاء ارتياحه: «أوه. . . أوه!»

بدأت الموسيقى عزف أغنية جديدة. لكنه لم يلاحظ التغير هذه المرة.

سألني هامساً: «متى؟»

«لست أعرف بالضبط. . . ربما أسبوعاً أو أسبوعين».

تغير صوته واكتسب نبرة دفاعية مازحة: «ولماذا التأجيل؟»

«لا أريد قضاء شهر العسل في الألم».

«كيف تريدين قضاءه إذن؟ في لعب الشطرنج؟ ها ها!»

«مضحك جداً».

«أنا أمزح يا بيلا. لكنني لا أفهم الغاية من التأجيل فعلاً. لا تستطيعين قضاء شهر عسل حقيقي مع عريسك مصاص الدماء، فلماذا التأجيل؟ عليك تسمية الأشياء بأسمائها. ليست هذه بالمرة الأولى التي تؤجلين فيها الأمر. لكن هذا جيد رغم ذلك». قال هذا بصوت جاد فجأة. . . «لا تشعري بالإحراج جراء ذلك».

قلت بحدة: «لست أؤجل أي شيء. ثم نعم. . . أستطيع أن أمضي شهر عسل حقيقي! أستطيع أن أفعل كل ما أريد! كف عن ذلك».

أوقف جايكوب رقصتنا فجأة. تساءلت للحظة واحدة عما إذا كان قد أدرك تغير الموسيقا. . . رحت أبحث في رأسي عن طريقة نتابع بها حديثنا قبل أن يودعني. لا يجوز أن نفترق عند هذه النقطة.

رأيت عينيه تتسعان فجأة وفيهما نوع غريب من الانزعاج والخوف.

قال لاهثاً: «ماذا؟ ماذا قلت؟»

«عن ماذا يا جايكوب؟ ما الأمر؟»

«ما قصدك بذلك؟ ما قصدك بأنك ستمضين شهر عسل حقيقي؟ وأنت مازلت بشرية. . . هل تمزحين؟ إنها نكتة بائسة يا بيلا».

حدقت فيه غاضبة: «قلت لك أن تكف عن ذلك يا جايكوب. هذا ليس من شأنك. ما كان يجوز لي أن... ما كان يجوز لنا أن نتحدث في هذا الأمر... إنه أمر خاص...»

أمسك كفاه الضخمتان بأعلى ذراعي فطوقاهما تماماً.

«أوه يا جايكوب! انس الأمر!»

هزني جايكوب بيديه: «بيلا... هل فقدت عقلك؟ لا يمكنك أن تكوني بهذا الغباء! قولي إنك تمزحين!».

هزني من جديد. كانت كفاه ترتجفان وتبعثان ذلك الارتجاف عميقاً في عظامي.

«توقف يا جايكوب!»

سرعان ما صارت الظلمة مزدحمة بالناس.

جاء صوت إدوارد بارداً كالجليد حاداً مثل السكين: «ارفع يديك عنها!»

ومن خلف جايكوب صدرت زمجرة منخفضة في ظلمة الليل... ثم زمجرة أخرى تداخلت مع الأولى.

«جايكوب... يا أخي... تراجع». هكذا جاء صوت سيث كليرووتر... «أنت تفقد السيطرة على أعصابك».

ظل جايكوب متجمداً كما كان... كانت عيناه المذعورتان متسعتين... غريبتين.

همس سيث: «سوف تؤذيها!... اتركها!»

زمجر إدوارد: «الآن!»

سقطت يدا جايكوب فآلمني تدفق الدم المفاجئ في عروقي التي كان يشد عليها. وقبل أن أدرك شيئاً آخر شعرت بيدين باردتين تحلان محل يدي جايكوب الحارتين... وسرعان ما صارت الريح تصفر في أذني.

بعد رفة واحدة من عيني وجدت نفسي واقفة على قدمي بعيداً عدة أمتار عن المكان الذي كنت أقف فيه. كان إدوارد يقف متوتراً أمامي. ورأيت ذئبين

الضخمين يقفان بينه وبين جايكوب. لكنهما لم يبديا ما يشير إلى نية في الهجوم... كانا يحاولان فقط منع نشوب قتال ورأيت سيث... سيث الضخم ذا الخمسة عشر عاماً... يطوق جسد جايكوب المرتعش بذراعيه محاولاً سحبه بعيداً...

«تعال يا جايكوب... دعنا نذهب».

قال جايكوب: «سوف أقتلك»... كان الغضب يخنق صوته الذي خرج من فمه خافتاً كأنه همس. كانت عيناه المعلقتان بإدوارد تحترقان من الغضب. ارتجف جسمه بعنف: «سوف أقتلك بنفسي! سأقتلك الآن!»

صدرت زمجرة حادة عن الذئب الضخم... الذئب الأسود.

قال إدوارد بصوت كالفحيح: «سيث!... ابتعد من الطريق».

راح سيث يشد جايكوب من جديد. لكن الغضب كان مستحوذاً على جايكوب فلم يتمكن سيث من إبعاده إلا خطوات قليلة قائلاً: «لا تفعل هذا يا جايكوب... تعال معي... هيا!»

عند ذلك انضم سام (الذئب الأسود الكبير) إلى سيث. وضع رأسه الضخم على صدر جايكوب وراح يدفعه إلى الخلف.

اختفى الثلاثة سريعاً في الظلمة... جايكوب المرتجف... سيث يسحبه وسام يدفعه.

كان الذئب الآخر يحدق في إثرهم. لم يكن لون فرائه واضحاً في ذلك الضوء الخافت... لعله كان بنياً؟ فهل هو كويل؟

همست قائلة للذئب: «أنا آسفة!»

تمتم إدوارد: «كل شيء بخير الآن يا بيلا».

نظر الذئب إلى إدوارد. ما كانت نظراته ودية أبداً. أومأ إدوارد نحوه برأسه إيماءة باردة. نفخ الذئب ثم استدار لاحقاً بالآخرين ثم اختفى مثلما اختفوا.

قال إدوارد لنفسه: «لا بأس!» ثم نظر إلي: «فلنبتعد الآن».

«لكن... جايكوب!»

«إن سام معه. لقد ذهب».

«آسفة يا إدوارد لقد كنت حمقاء. . .»

«لم تفعلي شيئاً خاطئاً. . .»

«أنا كثيرة الكلام! فلماذا. . . ما كان يجب أن أتركه يتصرف هكذا. ما الذي كنت أفكر فيه؟»

لمس إدوارد وجهي: «لا تقلقي! علينا العودة إلى الحفلة قبل أن يلاحظ أحد غيابنا».

هززت رأسي محاولة استعادة تركيزي. قبل أن يلاحظ أحد! هل بقي من لم يلاحظ غيابنا؟

عند ذلك رحت أفكر في الأمر فأدركت أن المواجهة التي بدت كارثية في نظري كانت في الواقع هادئة جداً وقصيرة جداً هنا في هذه الظلال.

قلت أرجوه: «أعطني ثانيتين فقط!»

كان ما بداخلي مضطرباً بالرعب والأسى. . . لكن لا أهمية للأمر. . . ما يهم الآن هو مظهري الخارجي فقط. كنت أعرف أن علي الآن أن أبدو بمظهر جيد».

«كيف هو وضع ثوبي؟»

«على أحسن ما يرام. . . كل شيء في مكانه».

استنشقت نفسين عميقين: «طيب! فلنذهب».

وضع ذراعيه حولي وقادني إلى الضياء من جديد. وعندما مررنا تحت الأضواء البراقة جذبني برفق إلى حلبة الرقص فاندمجنا مع الراقصين كما لو أن شيئاً لم يقطع رقصتنا.

رحت أنظر إلى الضيوف من حولي. . . لكن الصدمة والخوف لم يظهرا على أحد منهم. لم يظهر إلا قدر بسيط من التوتر على الوجوه الأكثر شحوباً. . . كانوا يخفون توترهم جيداً. كان جاسبر وإيميت عند حافة حلبة الرقص. . . كانا متقاربين. . . حزرت أنهما كانا قريبين منا أثناء تلك المواجهة.

«هل أنت. . .؟»

قلت بصدق: «أنا بخير! لا أصدق أنني فعلت ذلك. ماذا بي؟»

«ليس بك شيء!»

كنت سعيدة جداً برؤية جايكوب هنا. أعرف مقدار ما كلفه ذلك من تضحية. لم أفسدت الأمر وحولت هديته إلى كارثة. يجب أن يضعوني تحت الحَجْر.

لم تكن حماقتي لتفسد أي شيء آخر في هذه الليلة. سأزيح ما حدث بعيداً. . . سأضعه في درج وأقفل عليه حتى أتعامل معه فيما بعد. سيكون لدي وقت طويل لأوبخ نفسي على هذا. . . لا أستطيع الآن فعل شيء بهذا الخصوص.

قلت: «انتهى الأمر! فلنمتنع عن التفكير في ما حدث الليلة».

توقعت موافقة سريعة من إدوارد، لكنه ظل صامتاً.

«إدوارد!»

أغمض عينيه ومس جبينه بجبيني هامساً: «جايكوب محق. . . ما الذي أفكر فيه؟»

حاولت المحافظة على هدوء تعابير وجهي أمام حشد الأصدقاء من حولنا: «إنه ليس محقاً. إن لدى جايكوب من التحامل ما يجعله عاجزاً عن رؤية أي شيء بوضوح».

غمغم إدوارد شيئاً بصوت منخفض. بدا لي أنه يقول: «كان علي أن أتركه يقتلني لمجرد تفكيري. . .».

قلت بعنف: «كف عن هذا». . . أمسكت وجهه بيدي وانتظرت ريثما فتح عينيه. . . «أنت وأنا! هذا هو الشيء المهم الوحيد. الشيء الوحيد الذي أسمح لك بالتفكير فيه الآن. هل تسمعني؟»

قال متنهداً: «نعم».

«انس مجيء جايكوب». . . أستطيع أن أفعل هذا. . . سأفعله. . . «من أجلي. . . عدني أنك ستنسى الأمر».

حدق في عيني لحظة ثم أجاب: «أعدك بهذا».

«شكراً يا إدوارد... أنا لست خائفة».

همس: «أنا خائف!»

استنشقت نفساً عميقاً ثم ابتسمت: «لا تخف... وبالمناسبة، أنا أحبك».

ابتسم رداً على كلمتي ابتسامة صغيرة: «هذا سبب وجودنا هنا».

قال إيميت وهو يظهر من خلف كتف إدوارد: «أنت تحتكر العروس لنفسك... دعني أرقص مع أختي الصغيرة. ستكون هذه فرصتي الأخيرة في أن أجعل وجهها يحمر».

ضحك إيميت بصوت مرتفع... كان قليل التأثر، كعادته، بأي جو متوتر.

اتضح لي أن ثمة أشخاص كثيرين لم أرقص معهم بعد وأدركت أن هذا يمنحني فرصة لأن أستعيد توازني فعلاً. وعندما يطلبني إدوارد للرقص من جديد سأجد أن ذلك الدرج الذي وضعت جايكوب فيه مازال مقفلاً. وبينما كان يلف ذراعيه من حولي تمكنت من استعادة شعوري السابق بالفرحة وثقتي من أن كل شيء في حياتي مستقر في مكانه الصحيح هذه الليلة. ابتسمت وأسندت رأسي إلى صدره فاشتد ضغط ذراعيه من حولي.

قلت: «أستطيع التعود على هذا».

«لا تقولي إنك تغلبت على مشكلاتك في الرقص!»

«ليس الرقص سيئاً... معك. لكنني كنت أفكر في أن...» التصقت به أكثر من قبل... «في أنني لم أعد مضطرة إلى الابتعاد عنك».

«إطلاقاً»... هكذا وعدني وانحنى فقبلني. كانت تلك قبلة جدية تماماً... عميقة، بطيئة، متنامية...

نسيت تماماً أين أنا لكنني سمعت صوت أليس تقول: «بيلا! بيلا! حان الوقت».

شعرت بانزعاج بسيط لأن أختي الجديدة قاطعت قبلتنا. تجاهلها إدوارد وظل يضغط بشفتيه على شفتي... كان ملحاً أكثر من ذي قبل. ازدادت سرعة قلبي وتشبث كفاي بعنقه المرمري.

قالت أليس ملحة وهي تقف بجانبنا الآن: «هل تريدان التأخر عن موعد الطائرة؟ أنا واثقة من أن شهر عسلكما سيكون جميلاً مليئاً بالانتظار في المطارات من أجل الطائرة التالية!»

أدار إدوارد وجهه قليلاً نحوها وقال: «اذهبي يا أليس»... ثم ضغط شفتيه على شفتي من جديد.

قالت بإلحاح: «بيلا هل تريدين ارتداء ذلك الثوب وأنت في الطائرة؟»

لم أكن منتبهة إليها كثيراً في الحقيقة. لم أكن لأبالي بذلك كله في تلك اللحظة.

قالت أليس مهددة بهدوء: «سوف أخبرها أين تأخذها يا إدوارد. لذلك ساعدني... سوف أخبرها!»

تجمد إدوارد. ثم رفع وجهه عن وجهي محدقاً في أخته المفضلة: «أنت صغيرة الحجم جداً، لكنك مزعجة إلى درجة هائلة».

«لم أتعب في اختيار أفضل فستان للسفر من أجل تضييعه عبثاً»... هكذا أجابته وهي تمسك بيدي وتشدني... «تعالي معي يا بيلا».

قاومت يدها التي تشدني ووقفت على أطراف أصابعي حتى أقبله مرة أخرى فقط. شدت أليس يدي نافدة الصبر وجرتني بعيداً عنه. صدرت عن الحشد بضع ضحكات. عند ذلك استسلمت وتركتها تجرني إلى المنزل الخالي.

بدا الانزعاج عليها فقلت معتذرة: «آسفة يا أليس».

تنهدت وقالت: «لست ألومك أنت... لا يبدو عليك أنك قادرة على مساعدة نفسك».

ضحكت مقهقهة بسبب التعبير الذي ظهر على وجهها فعبست منزعجة.

«شكراً يا أليس. كان هذا أجمل فستان زفاف ترتديه أي فتاة». . . كنت أتكلم بصدق. . . «كان كل شيء على أحسن ما يرام. أنت أفضل الأخوات وأكثرهن مهارة وموهبة في هذا العالم كله».

أسعدها ذلك فابتسمت ابتسامة كبيرة: «يسعدني أنه يعجبك».

كانت رينيه وإيزمي تنتظران في الأعلى. ساعدتني النساء الثلاثة على خلع فستاني وارتداء ثوب السفر الأزرق الداكن الذي أعدته أليس. شعرت بالامتنان لمن سحبت الدبابيس من شعري وتركته يتساقط حراً على ظهري متجعداً بسبب تسريحته. . . هذا سيوفر علي الصداع لاحقاً. تدفقت دموع أمي دون انقطاع طيلة ذلك الوقت كله.

قلت أعدها عندما احتضنتها مودعة: «سوف أتصل بك بمجرد أن أعرف وجهتي». أعرف أن إبقاء ما يتعلق بشهر العسل سراً كان يدفعها إلى الجنون. . . أمي تكره الأسرار. . . إلا إذا كانت طرفاً فيها.

تفوقت علي أليس وهي تبتسم ساخرة من تعبير الكبرياء المجروح على وجهي: «سوف أخبرك بوجهتها فور رحيلها». هذا ليس عدلاً أبداً. . . ليس عدلاً أن أكون آخر من يعرف.

قالت رينيه: «عليك أن تزورينا أنا وفيل في أقرب وقت. جاء دورك في السفر إلى الجنوب. . . حتى تري الشمس مرة واحدة».

قلت أذكرها حتى أتجنب الرد على كلامها: «لم يهطل المطر اليوم».

«هذه معجزة!»

قالت أليس: «كل شيء جاهز. حقائبك في السيارة. . . ذهب جاسبر ليأتي بالسيارة». جرتني من جديد عائدة صوب السلم. مازالت رينيه تتبعني وهي تحتضنني تقريباً.

همست لها ونحن نهبط السلم: «أحبك يا أمي. وأنا سعيدة جداً لأن لديك فيل. عليك أن تعتني به وعليه أن يعتني بك».

«أحبك أنا أيضاً يا بيلا. . . يا حبيبتي».

قلت من جديد وقد تقلصت حنجرتي: «وداعاً يا أمي. . . احبك».

كان إدوارد ينتظرني في أسفل السلم. أمسكت يده الممتدة صوبي لكنني ملت برأسي مبتعدة عنه لأنظر إلى الحشد الصغير الذي ينتظر رؤيتنا راحلين.

سألت فيما كانت عيناي تبحثان بين الحاضرين: «أين أبي؟»

تمتم إدوارد: «ها هو هناك». سار بي بين الضيوف الذي أفسحوا ممراً لنا. وجدنا تشارلي مستنداً إلى الجدار بطريقة غريبة خلف الجميع. بدا كأنه يختبئ. . . لكن الاحمرار من حول عينيه فسّر اختباءه.

«آه يا أبي!»

احتضنت خصره وراحت دموعي تنهمر من جديد. . . بكيت كثيراً هذه الليلة. . . راح أبي يربت على ظهري.

كان الحديث عن الحب صعباً مع تشارلي. . . كنا متشابهين كثيراً إذ نلجأ دائماً إلى الأشياء الثانوية لتفادي الإفصاح عن المشاعر التي تحرجنا. لكن هذا لم يكن وقت اهتمام المرء بنفسه.

قلت له: «أحبك إلى الأبد يا أبي. . . لا تنس هذا!»

«أحبك أيضاً يا بيلا! أحببتك دائماً وسأحبك دائماً»

قبلت خده وفي اللحظة نفسها قبل خدي قائلاً: «اتصلي بي!»

«سأتصل قريباً جداً». . . وعدته بهذا عارفة أنني لا أستطيع أن أعد بأكثر منه. مجرد اتصال هاتفي. لم يكن يمكنني السماح لأبي وأمي برؤيتي من جديد. . . سأكون مختلفة كثيراً. . . خطيرة كثيراً جداً.

قال تشارلي: «اذهبي الآن. . . لا يجوز أن تتأخري».

أفسح الضيوف ممراً جديداً أمامنا. جذبني إدوارد لأقترب منه أكثر أثناء فرارنا من بين الناس.

سألني: «هل أنت مستعدة؟»

قلت: «مستعدة!». . . كنت أعرف أن ما أقوله صحيح.

صفق الجميع عندما قبلني إدوارد عند عتبة الباب. ثم أسرع بي إلى السيارة

فيما راحت عاصفة من حبات الأرز تتساقط فوقنا. كان أكثر تلك الحبات يسقط من حولنا دون أن يصيبنا. لكن أحدهم... لعله إيميت... كان يلقيها بإحكام شديد فرأيت كثيراً منها يرتد عن ظهر إدوارد.

كانت السيارة مزينة بزهور كثيرة تمتد على شكل خطوط طولانية. وكانت أحذية كثيرة مربوطة بشرائط حريرية تتدلى من خلف السيارة... كانت تبدو جديدة تماماً....

حماني إدوارد من حبات الأرز المتساقطة حين كنت أجلس في السيارة. ثم جلس فيها وانطلق بسرعة فيما كنت ألوح بيدي وأصيح في اتجاه شرفة المنزل التي احتشد عليها الجميع ملوحين بأيديهم... «أحبكم!»

آخر صورة رأيتها هي صورة أمي التي كان فيل يحتضنها برقة. كانت تضع أحد ذراعيها حول وسطه، لكن يدها الحرة امتدت فأمسكت بيد تشارلي. ما أكثر الأنواع المختلفة من الحب... كلها منسجمة في هذه اللحظة. بدت لي تلك الصورة مفعمة بالأمل.

ضغط إدوارد على يدي قائلاً: «أحبك».

ملت برأسي على ذراعه مكررة عبارة قالها اليوم: «هذا سبب وجودنا هنا؟».

قبل إدوارد شعري.

عندما انعطفنا لنسير على الطريق السريع زاد إدوارد من سرعة السيارة فسمعت صوت ذئب يعلو على صوت المحرك... كان آتياً من الغابة خلفنا. بما أنني سمعته، فقد سمعه إدوارد أيضاً. لكنه لم يقل شيئاً... وراح الصوت يخفت ويبتعد. أما أنا فلم أقل شيئاً.

صارت تلك الزمجرة الثاقبة التي تفطر القلب خافتة .... ثم خافتة... ثم اختفت.

5

جزيرة إيزمي

عندما بلغنا بوابة المطار في سياتل سألت إدوارد بدهشة: «هاوستن؟»

ابتسم إدوارد حتى أطمئن وقال: «هذه مجرد محطةفي الطريق».

عندما أيقظني شعرت أنني سقطت في النوم لتوي. كنت نصف واعية عندما جرني عبر بوابات المطار. كنت أحاول أن أتذكر كيف أفتح عيني بعد كل رفة منهما. مرت عدة دقائق حتى استوعبت ما كاد يحدث عندما توقفنا عند شباك الرحلات الدولية حتى نستلم بطاقات الصعود إلى الطائرة التالية.

سألته وقد داهمني خوف أكثر من ذي قبل: «ريو دي جانيرو؟»

قال: «محطة أخرى أيضاً!»

كانت رحلتنا إلى أمريكا الجنوبية طويلة... لكنها كانت مريحة في مقاعد الدرجة الأولى العريضة... مريحة مع ذراعي إدوار تحتضنني. أجبرت نفسي على النوم لكنني استيقظت منتبهة على غير عادتي عندما راحت الطائرة تدور فوق المطار وعندما جاءني ضوء الشمس الغاربة عر النافذة.

لم نبق في المطار حتى نستقل طائرة أخرى كما توقعت بل أخذنا سيارة أجرة سارت بنا في شوارع ريو دي جانيرو الحية المظلمة. لم أستطع أن أفهم كلمة واحدة من التعليمات التي كان إدوارد يعطيها للسائق باللغة البرتغالية. اعتقدت أننا كنا ذاهبين للعثور على فندق ننام فيه قبل المرحلة التالية من

رحلتنا. عندما فكرت في هذا داهمني خوف مفاجئ يشبه خوف مواجهة الجمهور على المسرح. تابعت السيارة طريقها عبر الحشود الكثيفة إلى أن بدأ عدد الناس يقل وبدا أننا نقترب من الحافة الغربية للمدينة باتجاه المحيط.

توقفنا عند مرسى المراكب.

سار بي إدوارد على امتداد صف طويل من اليخوت البيضاء الراسية في ماء البحر الذي جعله الليل أسود اللون. توقف عند زورق أصغر من بقية الزوارق لكنه أكثر رشاقة. . . من الواضح أنه مبني من أجل الاستمتاع بالسرعة لا بالرحابة. لكنه كان فخماً وأكثر جلالاً من بقية المراكب. قفز إدوارد إلى الزورق بخفة رغم ثقل الحقائب التي يحملها. ألقى الحقائب على سطح الزورق ثم استدار ليساعدني على تسلق الحافة.

راقبته صامتة فيما كان يجهز الزورق من أجل الرحيل. فوجئت بما بدا عليه من مهارة فهو لم يذكر لي من قبل أنه يهتم بالزوارق. لكن. . . من جديد. . . كان إدوارد ماهراً في كل شيء.

عندما انطلقنا شرقاً في المحيط الواسع رحت أراجع معلومات الجغرافيا في رأسي. بقدر ما أستطيع التذكر. . . لا يوجد شيء إلى الشرق من البرازيل. . . حتى يصل المرء إلى أفريقيا.

لكن إدوارد مضى مسرعاً إلى الأمام وراحت أنوار ريو دي جانيرو تتلاشى خلفنا في البعيد. كانت على وجهه ابتسامة عريضة مألوفة. . . تلك الابتسامة التي يمنحه إياها أي نوع من السرعة. كان الزورق يندفع عبر الأمواج وكان رذاذ ماء البحر يسقط فوقي. وأخيراً استولى علي الفضول الذي أكتمه منذ فترة طويلة فسألته: «هل سنمضي لمسافة بعيدة أيضاً؟»

ما كان لينسى أنني بشرية، لكنني تساءلت إن كان قد خطط لعيشنا على هذا المركب الصغير زمناً طويلاً.

نظر إلى يدي القابضتين بإحكام على حافة المقعد وابتسم قائلاً: «نصف ساعة فقط».

«عظيم». . . قلت في نفسي. . . إنه مصاص دماء. . . فلعلنا ذاهبان إلى أتلانتس.

بعد عشرين دقيقة ناداني إدوارد بصوت أعلى من هدير المحرك.

كان يشير بإصبعه إلى الأمام: «انظري هناك يابيلا».

في البداية لم أر إلا الظلمة. . . وانعكاس خط من ضوء القمر على مياه البحر. لكنني رحت أحدق في البعيد حيث أشار حتى عثرت على شيء أسود منخفض يلوح بين انعكاسات القمر على الأمواج. وفيما رحت أحدق في الظلمة صار ذلك الشبح أكثر وضوحاً. . . كان يكبر ويتحول إلى مستطيل مسطح غير منتظم له ضلع أطول من الضلع المقابل ينحدر هابطاً في الأمواج. اقتربنا أكثر. . . فاستطعت رؤية نباتات تتمايل في النسيم الخفيف.

ثم استطعت استجماع الصورة فصار لها معنى: جزيرة صغيرة ناهضة من بين أمواج البحر قبالتنا تلوّح لنا بسعف النخيل. . . كان شاطئها يتألق شاحباً تحت ضوء القمر.

«أين نحن؟». . . تمتمت متعجبة عندما خفف إدوارد من السرعة متوجهاً لكي يلتف صوب الجهة الشمالية من الجزيرة.

لقد سمعني رغم صوت المحرك فابتسم ابتسامة عريضة التمعت في ضوء القمر.

«إنها جزيرة إيزمي».

تباطأت سرعة المركب فجأة وتوجه بشكل دقيق ليتوقف عند رصيف قصير مبني من ألواح خشبية. كان ضوء القمر الشاحب يصبغ تلك الأخشاب بلونه الأبيض. سكت المحرك فساد المشهد صمت عميق. ما كان من حولنا شيء إلا أمواج تصفع جوانب المركب برفق. . . وإلا نسيم عليل يداعب سعف النخل. كان الهواء دافئاً رطباً معطراً. . . تماماً كما يكون البخار المتصاعد بعد حمام ساخن.

قلت: «جزيرة إيزمي!»... كان صوتي منخفضاً لكنه بدا شديد الارتفاع في هدوء الليل.

«إنها هدية من كارلايل... وقد عرضت إيزمي أن تستعيرها منها».

هدية! من يقدم جزيرة على سبيل الهدية؟ عبست... لم أدرك من قبل أن كرم إدوارد الشديد ليس إلا سلوكاً تعلمه من غيره.

وضع إدوارد الحقائب على الرصيف ثم استدار مبتسماً تلك الابتسامة الرائعة. وبدلاً من أن يمسك بيدي انحنى فحملني بين ذراعيه.

سألته مبهورة الأنفاس عندما قفز من المركب: «هل يجوز أن تحملني الآن قبل أن نصل إلى العتبة؟»

ابتسم: «يجوز كل شيء!»

سار إدوارد وهو يمسك مقبضي الحقيبتين الضخمتين بيد واحدة ويحملني بيده الأخرى فعبر الرصيف إلى ممر رملي شاحب اللون يمضي عبر النباتات القائمة من حوله.

ظلت الظلمة مخيمة فترة وجيزة في النباتات التي تشبه الأدغال ثم استطعت رؤية ضوء دافئ أمامنا. ثم أدركت أن ذلك الضوء كان بيتاً... وكان ذلك المربعان المتألقان نافذتين تحفان بالباب الأمامي... هاجمني خوف الظهور على المسرح من جديد... أشد من ذي قبل... أشد مما كان عندما ظننت أننا ذاهبان إلى فندق.

صار وجيب قلبي مسموعاً الآن وأحسست أنفاسي تلتصق بحلقي. شعرت بعيني إدوارد على وجهي لكني رفضت إجابة نظرته. كنت أحدق أمامي ولا أرى شيئاً.

لم يسألني عما أفكر فيه... وهذا لم يكن من طبعه. عرفت أن عدم سؤاله كان لأنه متوتر مثلي.

وضع الحقائب على شرفة المنزل الأمامية حتى يفتح الباب... لم يكن الباب مقفلاً.

نظر إدوارد إلي... انتظرني حتى نظرت إليه بدوري قبل أن يعبر العتبة.

حملني عبر المنزل... كنا هادئين تماماً... وكان يبير أضواء المنزل أثناء سيره. كان انطباعي الأول الغامض عن المنزل هو أنه منزل كبير كثيراً بالنسبة لهذه الجزيرة الصغيرة... وأنه منزل مألوف تماماً. سرت معتادة على الألوان الفاتحة التي تحبها أسرة كولن... بدا هذا البيت مثل بيتهم. لكني لم أستطع التركيز على شيء محدد. غام كل شيء في نظري بسبب عنف صوت نبضات قلبي في أذني.

توقف إدوارد وأضاء النور الأخير. كانت الغرفة بيضاء كبيرة. وكان أكثر مساحة الجدار البعيد من الزجاج... هذا هو الديكور المعتاد عند أسرتي من مصاصي الدماء. وفي الخارج كان القمر يلقي ضياءه اللامع على الرمل الأبيض وعلى الأمواج التي تلمع على بعد أمتار قليلة من لمنزل. لكنني لم أنتبه لذلك الأمر إلا قليلاً. تركز انتباهي على السرير الأبيض الهائل في وسط الغرفة... كانت عليه ناموسية كبيرة تحيط به مثل غمامة.

وضعني إدوارد على قدمي.

«سوف... أذهب لإحضار الحقائب».

كانت الغرفة شديدة الدفء... أكثر من ذلك الليل الاستوائي في الخارج. انحدرت قطرة من العرق على مؤخر رقبتي. سرت إلى الأمام ببطء حتى لمست الناموسية. لا أدري ما الذي جعلني أشعر بالحاجة إلى التأكد من أن كل شيء حولي حقيقي.

لم أسمع إدوارد وهو يعود. فجأة شعرت بإصبعه لبرد يداعب رقبتي ماسحاً تلك القطرة من العرق.

قال معتذراً: «الجو حار قليلاً هنا... لقد ظننت... أنه سيكون أفضل!»

«كل شيء!» تمتمت هامسة... فضحك إدوارد ضحكة عصبية صغيرة. كان ذلك صوتاً عصبياً فعلاً... نادراً بالنسبة لإدوارد.

قال معترفاً: «لقد حاولت أن أفكر في كل شيء من شأنه أن يجعل هذا. . . أسهل».

ابتلعت ريقي بصوت مرتفع. . . مازلت مشيحة بوجهي. هل رأى أحد شهر عسل مثل هذا من قبل؟

كنت أعرف الإجابة: لا!. . . لم ير أحد مثله من قبل.

قال إدوارد بصوت متمهل: «كنت أتساءل. . . إذا. . . في البداية. . . لعلك تحبين السباحة قليلاً في الليل معي؟» أخذ نفساً عميقاً ثم خرج صوته مرتاحاً أكثر من قبل عندما تكلم من جديد. . . «سيكون الماء دافئاً جداً. الشاطئ هنا من النوع الذي يعجبك».

قلت: «يبدو هذا لطيفاً».

«لابد أنك تحبين أن تحظي بدقيقة أو دقيقتين بشريتين. . . كانت رحلتنا طويلة».

أومأت برأسي موافقة. . . متيبسة. شعرت أنني بشرية تماماً. . . لعل بضع دقائق أقضيها وحدي تكون أمراً مفيداً لي.

مست شفتاه رقبتي. . . تحت أذني تماماً. ضحك قليلاً فدغدغت أنفاسه الباردة جلدي الحار: «لا تطيلي كثيراً يا سيدة كولن!»

فاجأني سماع اسمي الجديد.

انحدرت شفتاه من رقبتي إلى كتفي: «سأنتظرك في الماء».

تجاوزني فمضى إلى باب زجاجي ينفتح مباشرة على رمال الشاطئ. وخلال سيره خلع قميصه فألقاه إلى الأرض ثم خرج من الباب ودخل الليل المقمر. . . دخل إلى الغرفة هواء البحر المالح المنعش.

هل اشتعل اللهيب في جلدي؟ كان علي أن أنظر لأتأكد. لا! لا شيء يحترق. لا شيء مرئي على الأقل.

ذكّرت نفسي بأن أتنفس؛ ثم سرت متعثرة صوب الحقيبة العملاقة التي وضعها إدوارد مفتوحة فوق منضدة الزينة البيضاء. لابد أنها حقيبتي لأن حقيبة

أدوات الزينة الصغيرة كانت فيها وكان فيها كثير من قطع الملابس الوردية، لكنني لم أتعرف على أي منها. وعندما رحت أبحث بين كدسات الثياب المرتبة بعناية للعثور على شيء مألوف مريح، بنطلون قصير مثلاً، لاحظت وجود كمية فظيعة من المخرمات والساتان اللامع بين يدي. . . كلها ملابس داخلية. . . داخلية جداً. . . عليها بطاقات فرنسية.

لست أدري كيف ومتى؛ لكن أليس ستدفع ثمن هذا في يوم من الأيام.

استسلمت ومضيت إلى الحمام. نظرت إلى الخارج عبر النوافذ الطويلة المطلة على الشاطئ. لم أستطع رؤية إدوارد لكنني أدركت أنه في الماء غير مكترث بالخروج منه من أجل التنفس. كاد القمر يصير بدراً في سماء الجزيرة. . . كان الرمل يتألق أبيض اللون تحت ضياء هذا القمر. لفتت نظري حركة صغيرة. . . كان إدوارد جالساً عند منبت إحدى أشجار النخيل المحيطة بالشاطئ، وكانت بقية ملابسه تسقط متمايلة في النسيم الخفيف.

اندفعت موجة من الحرارة في جلدي من جديد.

عببت نفساً عميقاً. . . مرتين. . . ثم مضيت إلى المرايا التي فوق الرف الطويل. بدا منظري تماماً كمن نام يوماً كاملاً في الطائرة. وجدت فرشاة الشعر فأقحمتها بعنف بين لفائف شعري خلف عنقي حتى صارت مسترسلة صقيلة وصارت الفرشاة مليئة بالشعر. نظفت أسناني بعناية بالغة. . . مرتين. ثم غسلت وجهي وألقيت الماء على مؤخرة رقبتي. . . كانت الحرارة تلهبها! شعرت بارتياح شديد فغسلت ذراعي أيضاً. . . لكنني قررت أخيراً أن أتخلى عن هذا الغسل الجزئي فأستحم. أعرف أن من السخف أن يستحم المرء قبل السباحة، لكني كنت في حاجة إلى تهدئة نفسي. الماء الساخن طريقة أكيدة للتهدئة. بدا لي أيضاً أن إزالة شعر ساقي فكرة جيدة أيضاً.

عندما انتهيت أخذت منشفة بيضاء ضخمة كانت على الرف ولففتها تحت ذراعي. ثم واجهتني مشكلة لم أفكر فيها. ما الذي أرتديه الآن؟ لن أرتدي ملابس سباحة. . . هذا واضح! ومن السخف أن أرتدي ملابسي نفسها من جديد. ما

كان لدي رغبة في التفكير في الأشياء التي وضعتها أليس في حقيبتي.

بدأ تنفسي يتسارع من جديد، وارتجفت يداي... كان هذا أكثر من المفعول المهدئ للحمام الساخن. بدأت أشعر بدوار خفيف... من الواضح أن نوبة رعب كاملة على وشك أن تصيبني. جلست على الأرض المبلطة الباردة دون أن أفك المنشفة عني ووضعت رأسي بين ركبتي. تضرعت أن لا يقرر إدوارد العودة للبحث عني قبل أن أستطيع تمالك نفسي. أستطيع تخيل ما قد يفكر فيه إذا رآني ضائعة مشتتة بهذا الشكل. لن يكون صعباً عليه إقناع نفسه بأننا نرتكب أمراً خاطئاً.

ما كنت خائفة لاعتقادي أننا مخطئان. أبداً! كنت خائفة لأنني لم أكن أعرف أبداً كيف أفعل هذا... وكنت خائفة من الخروج من الحمام ومواجهة المجهول... خاصة في ملابس داخلية فرنسية. كنت أعرف أنني لست مستعدة لذلك بعد.

كان هذا يشبه تماماً الاضطرار إلى الخروج إلى خشبة مسرح يغص بآلاف الناس دون أن تكون لديّ أدنى فكرة عن دوري.

كيف يفعل الناس هذا... كيف يبتلعون مخاوفهم كلها ويثقون بشخص آخر فيعهدون إليه ضمنياً بكل ما فيهم من مخاوف ونواقص... بل هم لا يملكون أيضاً ذلك الالتزام المطلق الذي منحني إدوارد إياه! لو لم يكن إدوارد هناك في الخارج. ولو لم أكن أعرف بكل خلية من خلايا جسدي أنه يحبني قدر ما أحبه... من غير شرط... من غير تراجع... بل من غير عقل إذا أردت الصدق... لما تمكنت أبداً من النهوض عن أرض ذلك الحمام.

لكن إدوارد كان هناك. لذلك، قلت لنفسي هامسة «لا تكوني جبانة» ووقفت على قدمي. شددت المنشفة بإحكام تحت ذراعي وسرت بتصميم خارجة من الحمام. مررت بالحقيبة وبالسرير الكبير غير ناظرة إليهما. ثم خرجت من الباب الزجاجي الكبير إلى الرمل الناعم في الخارج.

كان كل شيء باللونين الأبيض والأسود... محا ضوء القمر الألوان

كلها. سرت على الرمل الدافئ ببطء ومضيت بجانب الشجرة المنحنية التي ترك عندها ثيابه. وضعت يدي على الحافة الخشنة وتفقدت تنفسي لأتأكد من أنه مستقر... ولو قليلاً.

رحت أنظر عبر التموجات الصغيرة على سطح الماء الذي جعله الظلام أسود اللون... كنت أبحث عنه.

لم يكن العثور عليه صعباً. كان واقفاً يدير ظهره ناحيتي مغموراً بماء منتصف الليل حتى وسطه يحدق في القمر البيضاوي. كان ضوء القمر الشاحب يجعل جلده ناصع البياض... مثل الرمل... مثل القمر نفسه. ويجعل شعره المبلول أسود اللون مثل المحيط. كان من غير حركة... كانت كفاه مستقرتين على سطح الماء... وكانت الموجات الصغيرة تتكسر من حوله كما لو أنه حجر. نظرت إلى خطوط ظهره الصقيلة وإلى كتفيه وذراعيه ورقبته... إلى شكله الكامل...

لم تعد النار لهيباً مندفعاً يحرق جلدي... صارت الآن بطيئة عميقة... أذابت كل خراقتي وترددي الخجول. تركت المنشفة تسقط من غير تردد... تركتها على الشجرة عند ملابسه وسرت في الضياء الأبيض الذي جعلني شاحبة مثل ذلك الرمل الذي يشبه الثلج.

لم أستطع سماع صوت خطواتي عندما مشيت حتى الماء، لكنني توقعت أن يكون الماء بارداً. لم يستدر إدوارد. تركت الماء يشكل ثغرات الرمل الصغيرة عند أصابع قدمي... وجدت أن إدوارد كان محقاً بشأن حرارة الماء إذ كان دافئاً فعلاً... مثل ماء الحمام. تقدمت ورحت أمشي حذرة على قاع المحيط غير المرئي؛ لكن حذري كان من غير ضرورة فقد كان الرمل تحت قدمي ناعماً جداً... كان ينحدر انحداراً هيناً باتجاه إدوارد. خضت في ذلك التيار عديم الوزن حتى صرت بجانبه ووضعت يدي برفق فوق يده الباردة المستلقية على صفحة الماء.

قلت وأنا أنظر إلى القمر أيضاً: «هذا جميل!»

أجابني من غير تأثر: «جيد!»... استدار ببطء فواجهني فانبعثت عن حركته مويجات صغيرة داعبت جلدي. بدت عيناه فضيتين على وجهه الذي كان في مثل بياض الثلج. طوى يده قليلاً حتى تشابكت أصابعنا تحت صفحة الماء. كان الماء دافئاً فلم تسبب برودة جلده القشعريرة في يدي.

تابع يقول: «لكنني لن أستخدم كلمة جميل لوصف المنظر... ليس مع وجودك أنت بجانبي».

ابتسمت نصف ابتسامة ورفعت يدي الحرة... ما عادت ترتجف الآن... ووضعتها على قلبه. بياض على بياض... كنا متماثلين الآن... لهذه المرة فقط. ارتعد قليلاً تحت لمستي الدافئة. صار تنفسه أسرع الآن.

همس وقد توتر فجأة: «وعدتك بأننا سنحاول. إذا... إذا فعلت شيئاً خاطئاً... إذا آلمتك، فعليك إخباري فوراً».

أومأت برأسي صامتة وظلت نظراتي معلقة بعينيه. تقدمت خطوة أخرى عبر الأمواج فوضعت رأسي على صدره وقلت: «لا تخف. أنت لي وأنا لك».

أثر في نفسي صدق كلماتي. كانت هذه اللحظة تامة... كاملة مكتملة... رائعة... لا شك في هذا.

التفت ذراعاه حولي واحتضنني... صيف وشتاء. أحسست أن كل عصب في جسمي صار مثل سلك كهربائي حي.

قال مصدقاً على كلامي: «إلى الأبد!»... ثم شدني برفق صوب منطقة... أكثر عمقاً.

كانت الشمس حارة على جلد ظهري المكشوف فأيقظتني عند الصباح. إنه وقت متقدم من الصباح، بل لعله بعد الظهر... لست متأكدة. لكن كل شيء آخر عدا الوقت كان واضحاً تماماً رغم ذلك. كنت أعرف تماماً أين أنا... تلك الغرفة المتألقة بسريرها العريض الأبيض مع شلال من ضوء الشمس اللامع يدخل من النوافذ المفتوحة. كانت الناموسية مثل غمامة تخفف وقع أشعة الشمس.

لم أفتح عيني. كنت سعيدة فلم أرغب في تغيير أي شيء مهما يكن صغيراً. ما كنت أسمع أي صوت غير صوت الأمواج في الخارج... وصوت تنفسنا... ودقات قلبي...

كنت مرتاحة تماماً حتى تحت تلك الشمس الحارقة. كان جلده البارد ترياقاً للحر. وكان استلقائي فوق صدره الشتائي، بين ذراعيه الملتفين حولي، يمنحني شعوراً طبيعياً مريحاً. رحت أفكر بتكاسل فيما كان يخيفني الليلة الماضية. بدت مخاوفي كلها سخيفة الآن.

راحت أصابعه تسير بهدوء ورقة على امتداد ظهري ففهمت أنه أدرك يقظتي. ظلت عيناي مغمضتين لكنني شددت ذراعيّ حول عنقه واقتربت منه أكثر من قبل.

لم يتكلم... كانت أصابعه تتحرك على ظهري صعوداً وهبوطاً... كانت تمسه مساً خفيفاً جداً في حركتها على جلدي.

يسعدني أن أستلقي هكذا إلى الأبد... ألا أفسد هذه اللحظة أبداً. لكن جسدي كان له رأي آخر. أضحكتني قلة صبر معدتي. بدا غريباً أن أشعر بالجوع بعد كل ما مر بي الليلة الماضية، وكأنني هبطت من جديد إلى الأرض من ذلك الارتفاع الشاهق.

قال متمتماً ومواصلاً مداعبة ظهري: «ما الذي يضحكك؟»... جاءني صوته جاداً مبحوحاً فجلب معه طوفاناً من ذكريات الليلة الماضية وشعرت بموجة من الاحمرار تغمر وجهي وعنقي.

قرقعت معدتي كأنها تجيب على سؤاله. ضحكت من جديد: «لا يستطيع المرء أن ينسى كونه بشرياً مدة طويلة».

انتظرت... لكنه لم يضحك معي. وببطء... ببطء عبر طبقات السعادة التي كانت تلف ذهني... أدركت أن ثمة شيئاً مختلفاً خارج دائرة الفرح المتألقة التي تكتنفني.

فتحت عيني فكان أول ما شاهدته جلد رقبته الشاحب الذي يكاد يكون

فضياً. . . شاهدت فكه فوق وجهي. كان فكاه مشدودين. رفعت جسمي على مرفقي حتى أستطيع رؤية وجهه.

كان يحدق في المظلة التي فوقنا. . . لم ينظر إلي عندما رحت أتفحص قسماته الجادة. كان تعبير وجهه صدمة بالنسبة لي. . . صدمة بعثت القشعريرة في جسدي.

قلت: «إدوارد!». . . كانت في حلقي غصة غريبة. . . «ما الأمر؟ ما المشكلة؟»

جاءني صوته قاسياً ساخراً: «وهل عليك أن تسألي؟»

جعلتني غريزتي الأولى التي هي حصيلة زمن طويل من انعدام الأمان أتساءل عما أخطأت فيه. فكرت في كل شيء حدث، لكني لم أعثر على أي شيء. كان الأمر كله أبسط مما توقعت. . . لقد انسجمنا معاً كل انسجام. . . كأننا قطعتان مصنوعتان لتكونا معاً. منحني هذا شعوراً سرياً بالرضا. نحن. . . متوافقان جسدياً، تماماً مثلما نحن متوافقان في الأمور الأخرى. النار والثلج. . . متواجدين معاً دون أن يؤذي أحدهما الآخر. هذا برهان جديد على أنني أنتمي إليه.

لم أجد سبباً يجعله على هذه الحال. . . حاداً. . . بارداً. ما الذي لا أراه؟

مسدت أصابعه تجاعيد القلق على جبيني. همس: «بم تفكرين؟»

«أنت منزعج! أنا لا أفهم. . . هل فعلت. . .» لم أستطع إتمام جملتي.

غدت عيناه متوترتين: «ما الأذى الذي أصابك يا بيلا؟ أريد الحقيقة. . . لا تحاولي تهوين الأمر».

كررت كلمته: «أذى!». . . خرج صوتي أعلى من المعتاد لأن تلك الكلمة فاجأتني تماماً.

ارتفع حاجبه وتقلصت شفتاه.

أعدت تقييم الأمر في ذهني سريعاً. مددت جسدي تلقائياً وجعلت عضلاتي تتوتر ثم ترتخي. كان فيها بعض التيبس. . . وكثير من الأماكن التي تؤلمني ألماً

خفيفاً، هذا صحيح. أحسست أيضاً بذلك الإحساس القديم. . . أحسست أن عظامي كلها مفككة وأنني صرت كائناً هلامياً. لكن ذلك كله ما كان شعوراً مزعجاً.

ثم شعرت ببعض الغضب لأنه كان يفسد ذلك الصباح الأجمل بين كل صباحاتنا بافتراضاته المتشائمة.

«لماذا تفترض أشياء من عندك؟ لم أكن أحسن مما أنا الآن في يوم من الأيام».

أغمض عينيه: «كفي عن هذا».

«أكف عن ماذا؟»

«كفي عن التصرف كما لو أنني لست وحشاً لأنني وافقت على ذلك».

غدوت منزعجة حقاً الآن. . . همست: «إدوارد!». . . كان يشد ذكرياتي الجميلة إلى الظلمة. . . يفسدها. . . «لا تقل هذا أبداً».

لم يفتح عينيه. . . كأنه لا يريد أن يراني.

«انظري إلى نفسك يا بيلا. ثم قولي لي إن كنت وحشاً أم لا».

شعرت بالصدمة والجرح، لكني نفذت ما قاله. . . نفذته تلقائياً. . فشهقت.

ما الذي أصابني: «لم أفهم معنى ذلك الثلج الأبيض العالق فوق جلدي. هززت رأسي فانهمر من شعري شلال من ذلك البياض».

أمسكت بإحدى الندفات البيضاء بين أصابعي. كانت مثل قطعة من الفجر.

سألته منزعجة: «لماذا يغطيني هذا الريش؟»

انفجر نافد الصبر: «لقد مزقت وسادة، أو وسادتين، ليس هذا ما أتحدث عنه!»

«أنت. . . مزقت وسادة! لماذا؟»

قال بما يشبه الزئير: «انظري يا بيلا!» أمسك بيدي بعنف ومدها. . . «انظري إلى هذا!»

هذه المرة، فهمت قصده.

تحت ذلك الريش رأيت كدمات مزرقة كبيرة تتشكل على جلد ذراعي الشاحب. تابعت تلك الكدمات حتى كتفي ثم حتى أضلاعي. مددت يدي ولمست بإصبعي مكاناً مزرقاً حتى زال اللون منه. . . رفعت إصبعي فعاد الازرقاق من جديد. آلمني ذلك المكان قليلاً.

برقة شديدة كأنه لا يكاد يلمسني، وضع إدوارد يده على تلك الكدمة في يدي فطابق شكل يده شكلها.

قلت: «أوه!»

حاولت أن أتذكر هذا. . . أن أتذكر الألم. . . لكنني لم أستطع! لم أتذكر لحظة كانت فيها كفاه أشد مما ينبغي. لم أتذكر إلا رغبتي في أن يمسكني ويشدني بقوة أكبر. . . وسروري عندما كان يفعل ذلك. . .

همس في حين كنت أحدق في تلك الكدمات: «أنا آسف يا بيلا! . . كنت أعرف أن هذا سيحدث وما كان علي أن. . .» أصدر صوتاً خفيضاً كسيراً من حنجرته. . . «أنا آسف إلى حد لا أستطيع التعبير عنه».

غطى وجهه بذراعه وظل هكذا هادئاً تماماً.

جلست لحظة. . . طويلة. . . في ذهول تام. كنت أحاول أن أجد طريقة لتخفيف بؤسه بعد أن فهمت سببه. زالت الصدمة تدريجياً لكنها لم تخلف شيئاً محلها. . . فراغ! محض فراغ. . . كان ذهني فارغاً. لم أستطع التفكير في شيء أقوله. كيف أستطيع أن أشرح الأمر له بطريقة صحيحة؟ كيف أستطيع أن أجعله سعيداً مثلي. . . أو مثلما كنت قبل قليل؟

لمست ذراعه فلم يستجب. شبكت أصابعي حول معصمه وحاولت سحب ذراعه عن وجهه لكن ذلك كان كمن يحاول سحب ذراع تمثال من الحجر.

«إدوارد!»

لم يجبني.

«إدوارد!»

لا شيء! . . . سيكون هذا حديثاً من طرف واحد.

«آسفة جداً يا إدوارد. أنا. . . أنا لا أستطيع أن أعبر لك. . . أنا سعيدة جداً. لا! هذا لا يكفي. لا تغضب. لا تغضب. أنا بخير حقاً».

جاءني صوته ببرودة الثلج: «لا تقولي إنك بخير. إن كنت تعتبرينني سليم العقل فلا تقولي إنك بخير».

همست: «لكني بخير!»

قال بصوت كالأنين: «بيلا! لا تقولي هذا».

«بل أنت لا تقل هذا يا إدوارد».

أزاح ذراعه وراحت عيناه الذهبيتان تنظران إلي بقلق.

قلت له: «لا تفسد هذه اللحظة. أنا سعيدة!»

همس: «لقد أفسدت سعادتك»

صحت: «كف عن هذا».

سمعت صوت صرير أسنانه فقلت بأنين: «أوه! لماذا لا تستطيع قراءة أفكاري في هذه اللحظة؟ ليس من المريح أن لا تستطيع ذلك».

اتسعت عيناه قليلاً. . . لقد أفلحت في تحويل أفكاره رغماً عنه.

«هذا شيء جديد! ظننت أنك تفضلين ألا أستطيع قراءة أفكارك».

«ليس اليوم».

حدق إلي: «لماذا؟»

رفعت يدي بيأس. . . شعرت بألم في كتفي لكنني تجاهلته. سقط كفاي على صدره بشدة. . . «لأن انزعاجك هذا كله لن يكون ضرورياً إذا استطعت معرفة شعوري الآن! أو قبل خمس دقائق. لقد كنت سعيدة سعادة تامة. أما الآن فقد خاب أملي في الواقع».

«يجب أن تكوني غاضبة مني».

«نعم! أنا غاضبة. هل يجعلك هذا في وضع أفضل؟»

تنهد: «لا! لا أعتقد أن شيئاً يمكن أن يجعلني أشعر بأنني في وضع أفضل الآن».

صحت بحدة: «هذا هو! هذا هو ما يجعلني غاضبة. أنت تقتل سعادتي الآن يا إدوارد».

فتح عينيه وهز رأسه.

استنشقت نفساً عميقاً صرت الآن أشعر بألم الكدمات أكثر من ذي قبل... لكنها لم تكن مؤلمة جداً. كان ألمها يشبه الألم الذي يصيب الجسم في اليوم التالي لتمارين رفع الأثقال. لقد رفعت الأثقال مع رينيه عندما استحوذ عليها هاجس اللياقة الجسدية. خمس وستون حركة بوزن خمسة كيلوغرامات في كل يد. لم أستطع السير في اليوم التالي. لم يكن الوضع الآن مؤلماً بقدر نصف ذلك الألم.

ابتلعت انزعاجي وحاولت أن أجعل صوتي مهدئاً: «كنا نعرف أن هذا الأمر سيكون غريباً. أظن أن هذا مفترض من البداية. ثم... جاء الأمر أسهل مما توقعت. أما هذه الكدمات فهي لا شيء في الحقيقة»... مررت بأصابعي على ذراعي... «أظن أن أداءنا كان ممتازاً لأن هذه هي المرة الأولى ولأننا لم نكن نعرف ما الذي يجب أن نتوقعه بالضبط... يمكننا مع قليل من التدريب...».

صار وجهه شاحباً فجأة فتوقفت في منتصف الجملة.

«مفترض! هل كنت تتوقعين هذا يا بيلا؟ كنت تتوقعين أنني سوف أؤذيك؟ هل ظننت أن الأمر يمكن أن يكون أسوأ مما حدث؟ هل تعتقدين أن تجربتنا ناجحة لأنك مازلت تستطيعين المشي؟ لأن عظامك لم تتكسر... هل ترين هذا نصراً؟»

انتظرت حتى أجعله يعبر عما بنفسه. ثم انتظرت قليلاً حتى عاد تنفسه طبيعياً. وعندما هدأت عيناه أجبته ببطء ووضوح: «لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أتوقعه... لكنني لم أتوقع أبداً كم... كم... كم سيكون الأمر رائعاً». انخفض صوتي فصار همساً وانتقلت عيناي من وجهه إلى يدي... «أقصد، لا أعرف كيف كان الأمر بالنسبة لك، لكنه كان بالنسبة لي مثلما

هو بالنسبة لك تماماً». شعرت إصبعاً بارداً يرفع ذقني إلى الأعلى.

قال من خلال أسنانه المطبقة: «هل هذا ما يقلقك؟ أنت قلقة من احتمال أن لا أكون قد استمتعت؟»

ظلت عيناي مطرقتين: «أعرف أن الأمر ليس واحداً. فأنت لست بشرياً. إنني أحاول فقط توضيح أن الأمر بالنسبة للبشر... لا أظن أن الحياة يمكن أن تعطي أفضل من هذا».

ظل صامتاً فترة طويلة حتى اضطررت إلى رفع نظري إليه في النهاية. صار وجهه هادئاً الآن. متفكراً.

قال عابساً: «يبدو أن ثمة المزيد مما يجب أن أعتذر بسببه. لم أكن أحلم بأنك ستستطيعين تفسير طريقة شعوري بشأن ما فعلته لك فتقولين أن ما حدث الليلة الماضية لم يكن... أفضل ليلة في حياتي كلها. لكنني لا أريد التفكير في الأمر بهذه الطريقة، ليس وأنت...»

ارتفعت زوايا شفتي وسألته بصوت خافت متردد: «حقاً! أفضل ليلة على الإطلاق؟»

أمسك وجهي بين يديه... مازال غير واثق: «تحدثت مع كارلايل بعد اتفاقنا. كنت آمل أن يستطيع مساعدتي. لقد حذرني طبعاً من أن هذا يمكن أن يكون شديد الخطورة بالنسبة لك»... أظلم تعبير وجهه لحظة... «لكنه كان واثقاً بي رغم ذلك... ثقة لم أكن أستحقها».

هممت بالاحتجاج فوضع أصابعه على فمي قبل أن أستطيع الكلام.

«سألته أيضاً عما يجب أن أتوقعه. لم أكن أعرف كيف سيكون الأمر بالنسبة لي أنا... كيف يكون بالنسبة لمصاص دماء...» ابتسم نصف ابتسامة... «قال لي كارلايل إن لهذا الأمر قوة عارمة... ليس كمثلها شيء. قال لي إن الحب الجسدي شيء لا ينبغي لي أن أتعامل معه بخفة. فمع قلة تغير مزاجنا، يمكن للمشاعر العنيفة أن تغيرنا بطريقة دائمة. لكنه قال إنني لست في حاجة للقلق من هذا الأمر... فقد قمت أنت بتحويلي بشكل

كامل»... ابتسم... كانت ابتسامته هذه المرة حقيقية أكثر من ذي قبل.

«تحدثت مع إخوتي أيضاً. قالوا إنها مسرّة كبرى. لا يتقدم عليها إلا شرب الدم البشري»... تغضن حاجبه... «لكنني تذوقت دمك... لا يوجد في العالم دم أطيب منه... لا أعتقد أنهم كانوا مخطئين... فعلاً! لكن الأمر مختلف بالنسبة لنا. ثمة شيء آخر».

«لقد كان فيه شيء آخر. كان فيه كل شيء».

«هذا لا يغير حقيقة أن الأمر كان خاطئاً. حتى لو كنت قد شعرت بتلك الطريقة فعلاً».

«ما معنى هذا؟ هل تعتقد أنني أخترع هذا من عندي؟ لماذا؟»

«حتى تخففي من شعوري بالذنب. لا أستطيع عدم تصديق ما أراه بعيني يا بيلا. ولا أستطيع نسيان ما كنت تفعلينه دائماً عندما أرتكب أحد الأخطاء».

أمسكت بذقنه فانحنيت إلى الأمام حتى صار وجهانا متقاربين: «استمع إلي يا إدوارد كولن. لست أتظاهر بأي شيء من أجل إرضائك. هل فهمت؟ بل إني لم أتخيل وجود سبب يجعلني أحاول تحسين شعورك حتى بدأت بإظهار هذا البؤس كله. لم أكن في حياتي كلها سعيدة كما أنا الآن... لم أكن سعيدة بهذا المقدار إلا عندما قررت أن حبك لي أقوى من رغبتك في قتلي. ولم أكن سعيدة بهذا المقدار إلا عندما استيقظت في ذلك الصباح الأول فوجدتك تنتظرني... ولا عندما سمعت صوتك في قاعة الرقص»... ارتعد عندما تذكر لقائي مع مصاص الدماء الصياد، لكني لم أتوقف عن الكلام... «أو عندما تزوجنا فأدركت أن علي أن أحتفظ بك إلى الأبد. هذه هي أسعد لحظات حياتي التي أتذكرها... لكن هذا كان أفضل منها كلها. عليك أن تستوعب هذا الأمر».

لمس إدوارد العقدة التي تشكلت بين حاجبي: «أنا أفسد سعادتك الآن! لست أريد أن أفعل هذا».

«إذن، لا تكن بائساً! هذا هو الشيء الوحيد الخاطئ الآن».

ضاقت عيناه ثم استنشق نفساً عميقاً وأومأ برأسه: «أنت محقة. مضى ما مضى... ولست أستطيع أن أفعل شيئاً لتغييره... ولا معنى لأن أجعل مزاجي يفسد عليك هذه اللحظات. سأفعل كل ما أستطيع حتى أجعلك سعيدة الآن».

رحت أنقب في وجهه متشككة فمنحني ابتسامة صافية.

«مستعد لأن تفعل أي شيء يجعلني سعيدة؟»... كركرت معدتي لحظة نطقي بهذه الكلمات.

قال إدوارد بسرعة: «أنت جائعة!»... سرعان ما قفز من السرير مثيراً زوبعة من الريش ذكرتني بأن أسأله: «لماذا تحديداً قمت بتمزيق وسائد إزمي؟»... سألته هذا وأنا أنتصب جالسة وأزيل الريش عن شعري.

كان قد ارتدى بنطلوناً قصيراً كاكي اللون ووقف عند الباب يمسد شعره ويزيل بعض الريشات العالقة فيه.

دمدم قائلاً: «لا أعرف سبب أي شيء فعلته في الليلة الماضية. من حسن حظك أنني مزقت الوسائد ولم أمزقك أنت». استنشق نفساً عميقاً ثم هز رأسه كما لو أنه ينفض عنه أفكاراً مظلمة. تسللت إلى وجهه ابتسامة حقيقية تماماً... لكنني عرفت أنه تعمد رسمها.

انزلقت بحذر من السرير المرتفع ومططت جسمي من جديد... بحذر أكبر هذه المرة بسبب الكدمات التي فيه. سمعت إدوارد يشهق. استدار فأولاني ظهره... رأيت كفيه يتكوران فتبيض مفاصلهما.

سألته محاولة المحافظة على نبرة صوت مبتهجة: «هل يبدو منظري شنيعاً إلى هذا الحد؟»... توقف تنفسه، لكنه لم يستدر. ولعل ذلك لأنه أراد إخفاء تعابير وجهه عني. ذهبت إلى الحمام لأرى بنفسي.

رحت أنظر إلى جسدي العاري في المرآة الكبيرة خلف الباب. من المؤكد أنني مررت سابقاً بما هو أسوأ من هذا. كان ثمة ظلال باهتة على إحدى وجنتي. وكانت شفتاي متورمتين قليلاً. لكن وجهي كان على خير ما يرام...

إذا تغاضينا عن هذه الإصابات. أما بقية جسمي فكانت مزينة ببقع من اللون الأزرق والبنفسجي. تفحصت الكدمات التي يصعب إخفاؤها... كتفي وذراعي، لم تكن سيئة جداً. جلدي سهل التأثر بالكدمات. كثيراً ما أرى على جسمي كدمات لا أتذكر سببها. لكن هذه الكدمات مازالت في بدايتها طبعاً وسوف يزداد أثرها. سيبدو منظري غداً أسوأ مما هو اليوم. ولن يساعدني هذا في تهوين الأمر على إدوارد. بعد ذلك نظرت إلى شعري فصدر عني أنين مرتفع.

«بيلا!»... كان واقفاً هناك خلفي تماماً... فور صدور ذلك الصوت عني.

أشرت إلى رأسي الذي كان يبدو مثل عش الطائر: «لن أستطيع أبداً إخراج هذا الريش كله من شعري».... قلت هذا وبدأت ألتقط بعض الريشات.

غمغم إدوارد: «هل أنت قلقة على شعرك؟»... لكنه اقترب وراح يزيل الريشات بأسرع مما كنت أفعل.

«كيف تستطيع ألا تضحك لهذا المنظر؟ أبدو فظيعة الشكل!»

لم يجبني... لكنه واصل التقاطها. كنت أعرف الإجابة على أية حال... لن يجد ما يضحكه عندما يكون في هذا المزاج.

قلت بعد دقيقة: «لن يفلح الأمر.... لأن شعري جاف الآن. سوف أحاول إزالتها بالماء والصابون»... استدرت ثم شبكت ذراعي حول وسطه... «هل تريد مساعدتي؟»

أجابني بصوت هادئ وهو يفك ذراعي من حوله بلطف: «الأفضل أن أبحث عن بعض الطعام من أجلك»... تنهدت عندما رأيته يبتعد مختفياً بسرعة كبيرة.

أحسست أن شهر العسل انتهى. تركت هذه الفكرة غصة كبيرة في حلقي.

عندما تحررت من أكثر ذلك الريش وارتديت ثوباً قطنياً أبيض لم آلفه...

الان يغطي معظم الكدمات البنفسجية... سرت حافية إلى حيث تنبعث رائحة البيض واللحم والجبن.

كان إدوارد يقف عند الموقد المصنوع من الستانلس ستيل يضع البيض المقلي في صحن أزرق. اجتاحتني رائحة الطعام. شعرت أنني أستطيع أكل البيض والصحن والمقلاة أيضاً... راحت معدتي تزمجر.

قال: «الأكل جاهز»... استدار نحوي مبتسماً ووضع الصحن على الطاولة الصغيرة.

جلست على أحد الكرسيين المعدنيين وبدأت ألتهم البيض الساخن. صحيح أنه أحرق فمي لكنني لم أبال.

جلس إدوارد قبالتي: «الظاهر أنني لا أطعمك في الوقت المناسب».

ابتلعت ما بفمي ثم قلت أذكره: «كنت نائمة! البيض لذيذ حقاً! من المفاجئ أن يكون من إعداد شخص لا يأكل!»

قال مبتسماً تلك الابتسامة العابثة التي أفضلها: «إنها وصفات الطبخ».

كنت سعيدة برؤية تلك الابتسامة... سعيدة لأنه بدأ يعود إلى طبيعته المعتادة.

«ومن أين أتيت بالبيض؟»

«طلبت من فريق التنظيف ملء المطبخ بالطعام. هذه أول مرة يرى فيها هذا المطبخ طعاماً. علي أن أطلب منهم إزالة الريش أيضاً...» كف عن الكلام وجمدت نظراته عند نقطة فوق رأسي. لم أستجب... حاولت تجنب قول أي شيء يمكن أن يزعجه من جديد.

التهمت الطعام كله رغم أنه يكفي شخصين.

قلت له: «شكراً!»... انحنيت عبر الطاولة لأقبله. أجاب قبلتي بشكل آلي ثم أحسست به يتجمد ويرجع إلى الخلف.

شددت على أسناني... وخرج السؤال الذي أردت طرحه عليه وكأنه إلهام: «أعتقد أنك لن تمسني ثانية على هذه الجزيرة، أليس كذلك؟»

تردد إدوارد ثم ابتسم نصف ابتسامة ورفع يده فداعب وجنتي. كانت أصابعه شديدة الرقة على جلدي. . . لم أستطع الامتناع عن إسناد وجهي إلى تلك الكف.

«تعرف أنني لم أقصد ذلك».

تنهد وسحب يده: «أعرف! كما أنك محقة أيضاً». . . توقف عن الكلام لحظة رافعاً رأسه قليلاً ثم عاد يقول بصوت مصمم: «لن أمارس الحب معك حتى تتحولي. لن أغامر باحتمال إيذائك ثانية!»

6

مشاغل

احتلت تسليتي الأولوية في جزيرة إيزمي. سبحنا تحت الماء باستخدام جهاز التنفس (استخدمته أنا. . . أما هو فراح يتباهى بقدرته على البقاء من «لا تنفس من غير نهاية). استكشفنا الغابة الصغيرة التي تتوج القمة الصخرية المنخفضة على الجزيرة، وزرنا الببغاوات التي تعيش في الجهة الجنوبية. وجلسنا نرقب غروب الشمس من فوق الحافة الصخرية الغربية. سبحنا مع الأسماك التي تلعب في تلك المياه الضحلة الدافئة. سبحت معها أنا على الأقل لأنها كانت تختفي في وجود إدوارد كما لو أنه سمكة قرش.

عرفت ما كان يحدث. . . كان إدوارد يحاول إشغالي باستمرار. . . يحاول إلهائي. . . حتى لا أستمر في مضايقته فيما يتعلق بالجنس. وكلما حاولت الحديث معه حتى يتعامل مع الأمر ببساطة أثناء استماعنا إلى واحدة من تلك التسجيلات الموسيقية الكثيرة كان يغريني بالخروج من المنزل بكلمات سحرية من قبيل «الجروف المرجانية» و«الكهوف تحت الماء» و«سلاحف البحر» كنا نذهب ثم نذهب ثم نذهب طيلة اليوم حتى أجد نفسي مرهقة جائعة عند غروب الشمس.

كنت أكبو فوق صحني فور انتهائي من الطعام في كل ليلة. وفي إحدى المرات غرقت في النوم وأنا جالسة إلى الطاولة فكان عليه أن يحملني إلى

السرير. كان ذلك لأن إدوارد يحضّر لي كمية كبيرة جداً من الطعام، لكنني كنت أجوع فعلاً بعد السباحة وتسلق الصخور طيلة اليوم، وهذا ما جعلني ألتهم معظم ذلك الطعام. وبعد أن أكون مرهقة ثم أحشو نفسي بالطعام حشواً لا أعود قادرة على إبقاء عيني مفتوحتين. ذلك كله جزء من خطته دون شك.

لم يكن إرهاقي في صالح نجاح محاولاتي لإقناعه. لكنني لم أستسلم. حاولت استخدام المناقشة المنطقية والتوسل والضغط... لكن من غير طائل لأنني كنت أسقط في النوم دائماً قبل أن أتمكن من مواصلة كلامي. وبعدها كانت أحلامي تبدو حقيقية جداً، كان أكثرها كوابيس زادت من حيويتها تلك الألوان الساطعة البراقة على الجزيرة، فكنت أستيقظ متعبة مهما بلغت مدة نومي.

وبعد أسبوع من وصولنا إلى الجزيرة قررت محاولة التوصل إلى تسوية. لقد نجحت هذه الطريقة في الماضي.

كنت أنام الآن في الغرفة الزرقاء. وما كان وصول فريق التنظيف منتظراً قبل اليوم التالي. لذلك كانت الغرفة البيضاء ما تزال مغطاة بتلك الغمامة البيضاء من الريش. كانت الغرفة الزرقاء أصغر حجماً، وكان حجم السرير أكثر منطقية. كانت جدرانها داكنة اللون مغطاة بألواح خشبية. وكان كل شيء آخر مغلفاً بحرير أزرق فاخر.

اضطررت إلى ارتداء بعض الملابس الداخلية التي وضعتها أليس، وذلك أثناء نومي ليلاً... لم تكن مكشوفة كثيراً كمثل ملابس السباحة التي وضعتها من أجلي في تلك الحقيبة. لا أعلم إن كانت قد رأت ما سيجعلني في حاجة إليها... ارتعدت محرجة لتلك الفكرة.

بدأت بارتداء ثوب بريء المنظر مصنوع من الساتان الذي بلون العاج لأنني خفت أن يؤدي كشف المزيد من جلدي المغطى بالكدمات إلى نتيجة عكس النتيجة التي أردتها... لكنني كنت على استعداد لمحاولة أي شيء. لم يبد على إدوارد أنه لاحظ أي شيء كما لو أنني كنت أرتدي بيجامتي الرمادية القديمة التي أرتديها في بيتي.

صار لون الكدمات أفضل بكثير الآن... بدأت تصفرّ في بعض المواضع، واختفت تماماً في مواضع أخرى. لذلك أخرجت إحدى قطع الملابس «المرعبة» عندما كنت أجهز نفسي في الحمام. كانت سوداء اللون، مخرمة... يحرجني النظر إليها حتى وهي في يدي قبل أن أرتديها. حرصت على عدم النظر في المرآة قبل خروجي من الحمام وذهابي إلى غرفة النوم. لم أكن أريد أن أفقد شجاعتي.

أرضاني أن أرى عينيه تجحظان لحظة واحدة قبل أن يعود فيضبط تعابير وجهه.

سألته وأنا أستدير حتى يراني من جميع الجهات: «ما رأيك؟»

تنحنح قبل أن يقول: «جميلة... أنت جميلة دائماً».

قلت بانزعاج خفيف: «شكراً».

كنت متعبة جداً مما جعلني عاجزة عن مقاومة الإسراع للاستلقاء في السرير الوثير. وضع ذراعيه من حولي وشدني إلى صدره... لكن هذا كان أمراً معتاداً... كان الجو حاراً مما يجعلني لا أستطيع النوم دون وجود جسده البارد قريباً مني.

قلت بصوت ناعس: «سأبرم معك اتفاقاً».

أجابني: «لن أبرم معك أي اتفاق».

«أنت لم تسمع ما أريد أن أعرضه عليك».

«لا يهمني».

تنهدت: «بئس الأمر. لقد كنت أريد حقاً أن... أوه، لا بأس!»

فتح عينيه واسعتين لكنني أغمضت عيني وتركته يبتلع الطعم... ثم تثاءبت.

لم يستغرق الأمر إلا دقيقة واحدة... لم تكن كافية لأن أسقط في النوم.

«لا بأس! ماذا تريدين؟»

شددت على أسناني لحظة وأنا أقاوم ابتسامتي. إن كان ثمة شيء

لا يستطيع إدوارد مقاومته فإنه فرصة أن يقدم لي شيئاً أطلبه.

«طيب! كنت أفكر... أعرف أن قصة دارتماوث كلها كانت للتمويه، لكني أظن أن قضاء فصل في تلك الكلية لن يقتلني». قلت هذا مكررة عبارته التي قالها منذ زمن بعيد عندما كان يحاول تأجيل تحولي إلى مصاصة دماء... «سوف يستمتع تشارلي كثيراً بقصص دارتماوث... أراهن على هذا. من المؤكد أنه سيكون محرجاً لي أن لا أتمكن من مضاهاة كل من فيها من الأذكياء. لكن... ثمانية عشر... تسعة عشر... ليس هذا بالفارق الكبير. ليس هذا شيئاً خطيراً».

ظل إدوارد صامتاً فترة من الزمن. ثم قال بصوت منخفض: «تريدين الانتظار... تريدين أن تظلي بشرية!»

أمسكت لساني ريثما يستوعب عرضي.

قال عبر أسنانه المطبقة... صارت نبرته غاضبة فجأة: «لماذا تفعلين هذا بي؟ أليس الأمر صعباً بما فيه الكفاية من غير هذا كله؟»... أمسك بالقماش المخرم المنسدل فوق ساقي فظننت للحظة أنه سوف يمزقه. لكن يده استرخت من جديد: «غير مهم! لن أبرم أي صفقة معك».

«أريد أن أذهب إلى الكلية».

«لا! أنت لا تريدين ذلك. ما من شيء يستحق أن تغامري بحياتك ثانية. سوف يؤذيك هذا!»

«لكنني أريد الذهاب! طيب... ليست الكلية هي نفسها ما أرغب فيه إلى هذا حد... بل هو أن أبقى بشرية فترة إضافية من الزمن».

أغمض عينيه وقال: «أنت تسببين لي الجنون يا بيلا! ألم نخض في هذا الجدال مليون مرة من قبل... ألم تكوني تتوسلين إليّ من أجل تحويلك إلى مصاصة دماء من غير تأخير؟»

«نعم، لكن... لدي الآن سبب للبقاء بشرية لم يكن موجوداً من قبل».

«وما هو؟»

قلت وأنا أرفع نفسي عن الوسادة أقبله: «احزر».

قبلني بدوره، لكن ليس بطريقة تجعلني أرى أنني كسبت الجولة. كان الأمر كما لو أنه يحاول عدم جرح مشاعري. كان مسيطراً على نفسه تماماً... مسيطراً إلى حد يبعث على الجنون. وبعد لحظة، أبعد وجهي وعاد يحضنني إلى صدره.

قال مبتسماً: «أنت بشرية جداً يا بيلا... تحكمك هرموناتك».

«هذا هو الأمر كله يا إدوارد. أحب هذا الجزء من كوني بشرية. ولست أريد التخلي عنه منذ الآن. لا أريد أن أمضي سنوات وأنا مصاصة دماء جديدة متعطشة للدم قبل أن يعود لي هذا الأمر من جديد».

تثاءبت ثم ابتسمت.

«أنت متعبة. نامي يا حبيبتي»... بدأ يدندن المقطوعة التي ألفها من أجلي عند بداية تعارفنا.

تمتمت متهكمة: «عجيب! ما الذي يجعلني متعبة إلى هذا الحد... لا يعقل أن يكون هذا جزءاً من خطتك!»

اكتفى بضحكة صغيرة ثم عاد إلى الدندنة من جديد.

«لأنك تعتقد أنني سأنام بشكل أفضل إذا كنت متعبة إلى هذه الدرجة»... انقطعت الدندنة...

«كنت تنامين مثل الموتى يا بيلا. لم تنطقي كلمة واحدة في نومك منذ مجيئنا إلى هنا. لولا أنك تشخرين قليلاً لظننت أنك في غيبوبة».

تجاهلت كلامه عن الشخير... أنا لا أشخر: «ألم أكن أتقلب وأصرخ؟ هذا غريب! عادة ما أتقلب كثيراً في فراشي أثناء الكوابيس... وأصرخ أيضاً».

«هل تأتيك كوابيس؟»

«كوابيس فظيعة... إنها تجعلني متعبة جداً»... تثاءبت... «لا أصدق أنني لا أتحدث عنها في نومي».

«وما موضوع هذه الكوابيس؟»

«أشياء مختلفة . . . لكنها متشابهة . . . أنت تعرف . . . بسبب الألوان».

«أي ألوان؟»

«كل شيء واضح وحقيقي . . . عندما أحلم عادة أعرف أنني في حلم . . . أما في هذه الكوابيس فأنا لا أعرف أنني نائمة . . . وهذا ما يجعلها أكثر هولاً».

بدا عليه الانزعاج عندما تكلم من جديد: «ما الذي يخيفكِ؟»

ارتعدت قليلاً وقلت: «أكثر الأحيان . . .» ثم ترددت.

قال يستحثني: «أكثر الأحيان!»

لست أعرف السبب . . . لكنني لم أرد إخباره عن الطفل في كوابيسي المتكررة. ثمة شيء خاص في ذلك الرعب بعينه. لذلك، بدلاً من إعطائه وصفاً تفصيلياً . . . أعطيته عنصراً واحداً كافياً لإخافتي أو لإخافة أي شخص غيري.

همست: «الفولتوري».

احتضنني بشدة: «لن يزعجونا بعد الآن. سوف تكونين خالدة عما قريب ولن يكون لديهم سبب لإزعاجك».

تركته يهدئني شاعرة بشيء من الذنب لأنه لم يفهمني. لم تكن كوابيسي على ذلك النحو بالضبط. لم يكن الأمر هو أنني خائفة على نفسي . . . كنت خائفة على ذلك الصبي.

لم يكن ذلك هو الصبي نفسه الذي رأيته في حلمي الأول . . . الطفل مصاص الدماء بعينيه الحمراوين بلون الدم جالساً فوق كومة من جثث من أحبهم. كان الصبي الذي رأيته في حلمي أربع مرات خلال الأسبوع الماضي بشرياً بكل تأكيد . . . كانت وجنتاه متوردتين . . . كان لون عينيه أخضر بعض الشيء. لكنه، مثل الطفل الآخر، كان يرتجف خائفاً عندما راح الفولتوري يحيطون بنا.

في هذا الحلم الذي كان جديداً وقديماً معاً كان علي أن أحمي ذلك الطفل المجهول. ما كان لدي خيار غير ذلك. وفي الوقت نفسه كنت أعرف أنني ما كنت قادرة على حمايته.

رأى إدوارد الحزن الذي في وجهي: «ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك».

«إنها مجرد أحلام يا إدوارد».

«هل تريدين مني أن أغني لك؟ سأغني طيلة الليل إن كان ذلك يبعد الأحلام المزعجة عنك».

«ليست كلها مزعجة . . . بعضها أحلام لطيفة . . . كلها ألوان. تحت الماء . . . مع الأسماك والمرجان. تبدو كأنها حقيقية كلها . . . ولا أعرف أنني أحلم. لعل الجزيرة هي المشكلة . . . كل شيء متألق هنا».

«هل تريدين العودة؟»

«لا! لا! ليس بعد. ألا نستطيع البقاء هنا فترة أخرى».

«نستطيع البقاء هنا قدر ما نريد يا بيلا».

«متى يبدأ الفصل الدراسي؟ لم أنتبه لهذا الأمر من قبل».

تنهد إدوارد. ولعله بدأ الدندنة من جديد . . . لكني غفوت قبل أن أعرف ذلك.

عندما استيقظت في الظلمة في وقت لاحق كنت مصدومة. كان الحلم حقيقياً جداً . . . حياً جداً . . . مفعماً بالإحساس . . . أطلقت زفرة مرتفعة عندما فاجأني ظلام الغرفة . . . فقبل ثانية واحدة كنت تحت الشمس الساطعة.

همس إدوارد وذراعه تحيط بي وتهزني برفق: «ماذا يا بيلا؟ هل أنت بخير يا حبيبتي؟»

زفرت من جديد: «أوه!» . . . إنه مجرد حلم . . . ليس حقيقة. دهشت تماماً عندما تدفقت الدموع من عيني من غير إنذار وراحت تسيل على وجهي.

قال إدوارد بصوت أعلى وقد شعر بسوء وضعي: «بيلا! ما الأمر؟» . . . مسح دموعي عن خدي الملتهبين بأصابعه الباردة الحانية . . . لكن دموعاً أخرى تلتها.

«كان هذا حلماً» . . . لم أستطع ضبط النشيج المنخفض الذي ظهر في صوتي. كانت تلك الدموع تزعجني لكني لم أستطع السيطرة على الألم

الخارق الذي استولى علي. أردت كثيراً أن يكون ذلك الحلم حقيقة.

راح إدوارد يهدهدني. . . أسرع قليلاً مما يجب: «لا بأس عليك يا حبيبتي. أنت بخير. أنا هنا. هل جاءك كابوس آخر؟ هو ليس حقيقياً. . . ليس حقيقياً!»

هززت رأسي وأنا أفرك عيني بقبضتي يدي: «ليس كابوساً. . . كان حلماً جميلاً». . . تكسر صوتي من جديد.

سألني وقد أصابه القلق: «لماذا تبكين إذن؟»

قلت نائحة: «لأنني استيقظت!». . . لففت ذراعي حول عنقه ورحت أبكي وأنا أدس وجهي في رقبته.

ضحك لهذا المنطق، لكن صوت ضحكه كان متوتراً لشدة قلقه: «كل شيء بخير يا بيلا. . . تنفسي بعمق».

صحت: «كان حقيقياً جداً. . . أردته أن يكون حقيقياً».

قال: «قصّي علي ذلك الحلم. . . لعل هذا يساعدك».

«كنا على الشاطئ. . .» توقفت وأملت رأسي إلى الخلف لأنظر بعينين ملؤهما الدموع إلى وجهه الملائكي القلق وقد غيّبت الظلمة ملامحه قليلاً. رحت أحدق فيه بإلحاح. . . وراح أساي غير المنطقي يتراجع تدريجياً.

قال يستحثني: «ثم ماذا؟»

مسحت الدموع من عينيّ: «أوه يا إدوارد. . .»

«قولي لي يا بيلا». . . قال يرجوني وقد اتسعت عيناه قلقاً لذلك الألم في صوتي.

لكني لم أستطع. . . أحطت عنقه بذراعي من جديد وأطبقت بشفتي على شفتيه في قبلة محمومة. لم تكن رغبةً على الإطلاق. . . لقد كانت حاجة. . . حاجة حادة إلى حد الألم. كانت استجابته فورية، لكنه سرعان ما توقف.

قاوم إلحاحي بأقصى ما استطاعه من اللطف. . . فوجئ. . . فأبعدني قليلاً وهو يمسك بكتفي.

قال مصراً وهو ينظر إلي كما لو أنه قلق من أنني فقدت عقلي: «لا يا بيلا». سقطت ذراعيّ مهزومتين. . . وانهمرت موجة جديدة من الدموع الغريبة فوق وجهي. . . وتصاعد النشيج في حنجرتي من جديد. إنه محق. . . لابد أنني جننت.

نظر إلي حائراً بعينين معذبتين.

غمغمت: «أنا. . . آسفة».

لكنه شدني إليه واحتضنني إلى صدره المرمري بإحكام.

أنّ بصوت معذب: «لا أستطيع يا بيلا. . . لا أستطيع!»

«أرجوك!». . . قلتها بصوت مكتوم على صدره. . . «أرجوك يا إدوارد!»

لا أدري إن كانت الدموع التي ترتجف في صوتي هي ما حركه. . . أو لعله ما كان مستعداً للتعامل مع هجومي المفاجئ. . . أو لعل حاجته غير المحتملة كانت في مثل شدة حاجتي في تلك اللحظة. لا يهمني السبب. . . لقد شفتي من جديد إلى شفتيه. . . مستسلماً.

بدأنا من حيث توقف حلمي.

عندما استيقظت في الليلة التالية تعمدت أن أبقى ساكنة تماماً وحاولت المحافظة على استقرار تنفسي. كنت أخاف أن أفتح عيني.

كنت مستلقية على صدر إدوارد، لكنه كان هادئاً تماماً ولم تكن ذراعاه ملتفتين حولي. تلك إشارة سيئة. خفت أن اعترف باستيقاظي وأن أواجه غضبه. . . بغض النظر عمن سيتوجه إليه هذا الغضب اليوم.

استرقت النظر بحذر عبر أهدابي. كان يحدق في السقف الداكن. وكان ذراعاه خلف رأسه. نهضت قليلاً على مرفقي لأرى وجهه بشكل أفضل. كان وجهه هادئاً. . . من غير تعبير.

سألته بصوت خفيض خائف: «ما حجم المشكلة التي أوقعت نفسي فيها؟»

قال: «كبير جداً!». . . لكنه استدار بوجهه نحوي مبتسماً.

أطلقت زفرة ارتياح وقلت: «آسفة! لم أقصد. . . لا أعرف ماذا حدث

«الليلة الماضية». . . هززت رأسي عندما تذكرت دموعي الغبية وأساي الساحق.

«لم تخبريني. . . ماذا كان في حلمك؟»

«أظن أنني لم أخبرك. . . لكني جعلتك ترى ما هو». . . أطلقت ضحكة عصبية.

قال: «أوه». . . اتسعت عيناه ثم رفرفتا. . . «شيء مثير للاهتمام!»

تمتمت: «كان حلماً جميلاً جداً». . . لم يعلق. . . لذلك سألته بعد ثوان قليلة: «هل سامحتني؟»

«أنا أفكر في الأمر».

جلست وأنا اعتزم تفحص جسدي. . . لا يوجد ريش على الأقل! لكن، عندما تحركت اجتاحني دوار غريب. تمايلت قليلاً ثم سقطت على الوسائد.

«واه. . . رأسي يدور!»

احتضنني بذراعيه: «نمت زمناً طويلاً جداً. . . اثنتي عشرة ساعة!»

«اثنتا عشرة ساعة!». . . شيء غريب.

نظرت إلى جسدي مرة ثانية وأنا أقول ذلك. . . كنت أحاول عدم إظهار اهتمامي بالأمر. بدا وضعي جيداً. مازالت الكدمات على ذراعي مصفرة. . . قديمة. مططت جسمي على سبيل التجربة، لكنه كان على ما يرام أيضاً. عظيم. . . أحسن من عظيم!

«هل انتهى الجرد؟»

أومأت برأسي بخنوع: «يبدو أن الوسائد نجت كلها هذه المرة!»

«للأسف. . . لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن قميص نومك» قال هذا وهو يومئ برأسه باتجاه أسفل السرير حيث استقرت أجزاء قميص النوم الأسود المخرم فوق حرير السرير.

قلت: «خسارة! كنت أحبه».

«وأنا أيضاً».

سألته بخوف: «هل من إصابات أخرى؟»

قال معترفاً وهو يلتفت فوق كتفه: «علي شراء إطار جديد لسرير إيزمي».

تابعت نظرته فصدمت عندما رأيت قطعة كبيرة من الخشب وقد انتزعت من رأس السرير من الناحية اليسرى.

قلت عابسة: «همم! هل تعتقد أنني سمعت صوت ذلك؟»

«يبدو أنك تكونين قليلة الانتباه عندما يكون تركيزك منصباً على أمر آخر».

احمر وجهي بشدة وقلت معترفة: «كنت مستغرقة تماماً».

مسّ وجنتي الملتهبة وقال: «سوف أفتقد هذا التورد. . .»

نظرت إلى وجهه باحثة عن أي دلالة على الغضب أو الانزعاج. لكنه نظر إلي بهدوء. . . كان تعبير وجهه هادئاً. . . غير مقروء.

سألته: «ما شعورك أنت؟». . . فضحك

سألته ملحة: «ماذا؟»

«يبدو عليك الشعور بالذنب. . . كأنك ارتكبت جريمة».

تمتمت: «أشعر بالذنب فعلاً».

«لقد قمت بإغواء زوجك المستعد جداً للإغواء. ليست هذه جريمة كبيرة». . . إنه يحاول إغاظتي.

ازداد وجهي احمراراً: «إن كلمة إغواء تتضمن نية مسبقة».

قال متساهلاً: «لعل اختيار الكلمة لم يكن موفقاً».

«ألست غاضباً؟»

ابتسم مشرقاً: «لست غاضباً».

«لماذا؟»

«لأنني. . .» توقف قليلاً. . . «لأنني لم أؤذيك هذه المرة. كان الأمر أسهل هذه المرة. . . كان من الأسهل علي أن أسيطر على نفسي وأحول المبالغة إلى وجهة أخرى». . . قال هذا وألقى نظرة خاطفة على حافة السرير المكسورة. . . «لعل ذلك لأنني صرت على معرفة أفضل بما يجب علي أن أتوقعه».

بدأت ابتسامة ترتسم على وجهي: «قلت لك إن المسألة مسألة تدريب واعتياد».

نظر إلي متعجباً.

بدأت معدتي تصيح فضحك إدوارد: «صار وقت إفطار بني البشر!»

قلت: «من فضلك!»... وقفزت من السرير. تحركت أسرع مما يجب فترنحت قليلاً قبل أن أستعيد توازني. أمسك بي قبل أن أصل إلى منضدة الزينة.

«هل أنت بخير؟»

«إذا لم يصبح توازني أفضل في حياتي القادمة فسوف أطالبك بتعويض».

أعددت الطعام بنفسي هذا الصباح... قليت بعض البيض لأنني كنت أكثر جوعاً من أن أصبر على شيء أكثر تعقيداً. ومن غير انتظار وضعت البيض في الصحن بعد دقائق قليلة.

سألني: «منذ متى تأكلين البيض مقلياً من جهة واحدة فقط؟»

«منذ الآن!»

«هل تعرفين كم أكلت من البيض منذ الأسبوع الماضي؟»... قال هذا وهو يسحب سلة القمامة من تحت المجلى... كانت مملوءة بعلب البيض الزرقاء الفارغة.

ابتلعت لقمة أحرقتني وقلت: «غريب! هذا المكان يعبث بشهيتي»... وبأحلامي أيضاً... وبتوازني الذي هو سيئ أصلاً من غير تدخل... «لكني أحب هذا المكان. لعل علينا مغادرته قريباً... أليس كذلك؟... حتى نصل دارتماوث في الوقت المناسب. واو! أظن أن علينا العثور على بيت نسكن فيه... وأن نحصل على أثاث من أجله».

كان يجلس بجانبي: «تستطيعين التخلي عن التظاهر فيما يخص الكلية... لقد نلت ما أردت. نحن لم نتفق على أي صفقة...»

صحت: «لم يكن هذا تظاهراً يا إدوارد. أنا لا أنفق الوقت في رسم الخطط

التآمرية كما يفعل بعض الناس... ماذا يمكن أن نفعل حتى نجعل بيلا تموت غيظاً اليوم؟»... قلت هذا محاولة تقليد صوته... محاولة فاشلة. ضحك إدوارد دون أي إحساس بالخجل... «أنا أرغب حقاً في أن أظل بشرية لفترة أخرى»... انحنيت لأمرّ بيدي على صدره العاري... «لم أكتف بعد!»

نظر إلي نظرة شك وسألني ممسكاً بيدي التي كانت فوق بطني في تلك اللحظة: «أهذا هو السبب؟ هل الجنس هو مفتاح الأمر كله؟ لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟»... قال هذا بصوت ساخر متهكم... «لو عرفت هذا لوفرت على نفسي كثيراً من الجدال».

ضحكت وقلت: «نعم... على الأرجح!»

قال من جديد: «أنت بشرية جداً!»

«أعرف هذا».

ارتسم ظل ابتسامة على شفتيه: «هل سنذهب إلى دارتماوث حقاً؟»

«الأرجح أنني سأفشل فيها بعد فصل واحد!»

صارت ابتسامته واسعة الآن: «سوف أكون أستاذك... وسوف تحبين الكلية».

«هل تعتقد أننا يمكن أن نعثر على شقة في هذا الوقت المتأخر؟»

كشر إدوارد وبدا عليه الشعور بالذنب: «الواقع أن لدينا بيتاً هناك بالفعل... تعرفين... من باب الاحتياط».

«هل اشتريت منزلاً؟»

«العقارات استثمار جيد».

ارتفع حاجباي وأردت التعليق، لكني تجاوزت الأمر: «نحن مستعدون إذن!»

«سوف أرى إن كنت أستطيع الاحتفاظ بسيارتك فترة قصيرة إضافية».

«نعم... من غيرها لن أكون في أمان من الدبابات... لا سمح الله».

ابتسم إدوارد فسألته: «كم نستطيع البقاء هنا؟»

«الوقت في صالحنا. . . نستطيع البقاء عدة أسابيع أخرى إن أحببت ذلك. ثم نستطيع الذهاب لزيارة تشارلي قبل أن نذهب إلى نيو هامبشاير. وبإمكاننا أن نمضي عطلة عيد الميلاد مع رينيه. . .».

رسمت كلماته صورة جميلة جداً للمستقبل القريب. . . صورة لا يتألم فيها أحد. تململ «درج جايكوب» الذي لم أنسه يوماً فعدلت الفكرة: لا يتألم فيها أحد تقريباً.

إن الأمر لا يصبح أكثر سهولة بالنسبة لي. فبعد أن اكتشفت الآن تماماً كم هو جيد أن أكون بشرية صار هذا يغريني بأن أتخلى عن خطتي. ثمانية عشر أو تسعة عشر. . . أو عشرين. . . هل هذا مهم حقاً؟ لن أتغير كثيراً في سنة واحدة. سوف أبقى بشرية مع إدوارد. . . يغدو الاختيار أكثر صعوبة يوماً بعد يوم.

قلت موافقة: «بضعة أسابيع». . . لكني أضفت لأنني شعرت أن الوقت أقل مما يجب: «لذلك. . . يخطر في بالي. . . هل تذكر ما قلته لك عن التدريب؟»

ضحك إدوارد: «هل تستطيعين تأجيل الفكرة قليلاً؟ أسمع صوت قارب. لابد أنه قارب فريق التنظيف».

لقد طلب مني تأجيل الفكرة. . . هل يعني هذا أنه لن يتعبني في هذا الأمر من جديد؟. . . ابتسمت في نفسي.

«دعيني أشرح لغوستافو سبب الفوضى في غرفة النوم البيضاء. وبعد ذلك نستطيع الخروج. . . ثمة مكان في الغابة عند الناحية الجنوبية. . .»

«لا أريد الخروج. لن أتجول في الجزيرة طيلة النهار. أريد أن أبقى هنا وأشاهد فيلماً».

شد على شفتيه محاولاً عدم الضحك على نبرة صوتي المتبرمة: «لا بأس! كما تريدين. لماذا لا تذهبين لاختيار الفيلم ريثما أفتح الباب لهم؟»

«لم أسمع قرعاً على الباب».

مال برأسه مصغياً. وبعد نصف ثانية سمعت صوت قرع خافت على الباب. ابتسم إدوارد ومضى ليفتحه.

رحت أبحث على الرفوف تحت جهاز التلفزيون الضخم. وبدأت أقرأ عناوين الأفلام. كان من الصعب علي أن أعرف من أين أبدأ. ثمة أفلام تفوق كميتها ما يمكن العثور عليه في محلات تأجير الأفلام.

سمعت صوت إدوارد المخملي المنخفض وهو يعود أدراجه متحدثاً منطلقاً في حديث بلغة أظن أنها البرتغالية. أجابه صوت آخر باللغة نفسها. . . صوت بشري. . . أكثر خشونة.

قادهم إدوارد إلى داخل الغرفة مشيراً إلى المطبخ في طريقه. بدا البرازيليان بجانبه شديدي القصر والسمرة. كان أحدهما رجلاً ممتلئاً، والآخر امرأة ضئيلة الحجم. . . كان وجهاهما مغضنين. أشار إدوارد نحوي بابتسامة اعتزاز وسمعت اسمي يرد ضمن دفق من الكلمات الغريبة. احمر وجهي قليلاً عندما تذكرت الفوضى في الغرفة البيضاء. . . سوف يشاهدانها قريباً! ابتسم لي الرجل متأدباً.

لكن المرأة الضئيلة التي جلدها بلون القهوة لم تبتسم لي. نظرت إلي بمزيج من الصدمة والقلق. . . والخوف الذي جعل عينيها تتسعان. قبل أن تبدر مني أي ردة فعل أشار لهما إدوارد بأن يتبعاه صوب المطبخ. . . ذهبوا جميعاً.

عندما عاد إدوارد كان وحيداً. سار مسرعاً نحوي واحتضنني بذراعيه.

همست متعجلة وأنا أتذكر تعبير وجهها الخائف: «ماذا بها؟»

ابتسم إدوارد غير قلق: «كاوري نصف هندية من قبيلة تيكونا. لقد تربت على أن تكون أكثر تطيراً. . . أو أكثر انتباهاً. . . ممن يعيشون في العالم الحديث. إنها تشك في طبيعتي. . . أو شيء قريب من ذلك». مازال القلق غير باد عليه. . . «إن لديهم أساطيرهم هنا. أساطير عن ليبي شومن. . . شيطان يشرب الدماء ويتغذى على النساء الجميلات». . . ابتسم لي.

النساء الجميلات فقط! هذا إطراء لي.

قلت: «لقد بدا الرعب عليها».

«إنها كذلك فعلاً... لكنها قلقة عليك أنت بالدرجة الأولى».

«عليّ أنا!»

ابتسم ابتسامة مظلمة: «إنها قلقة من وجودك هنا معي... وحدنا»... ثم راح ينظر إلى رفوف الأفلام.

«أوه! لماذا لا تختاري فيلماً حتى نشاهده؟ إن مشاهدة الأفلام شيء بشري».

«نعم! لابد أن الفيلم سيقنعها بأنك بشري»... ضحكت وأحكمت وضع ذراعي على رقبته ناهضة على رؤوس أصابعي. انحنى قليلاً حتى أتمكن من تقبيله ثم تصلب ساعداه من حولي فرفعني قليلاً حتى لا يضطر إلى الانحناء.

«الفيلم! الفيلم!»... هكذا تمتمت عندما انفتحت شفتاه عند حنجرتي... ورحت أطوي أصابعي على شعره البرونزي.

سمعت شهقة... أنزلني إدوارد سريعاً. كانت كاوري تقف متجمدة بالباب والريش يملأ شعرها الأسود وفي يديها كيس كبير ممتلئ بالريش. كان تعبير الرعب بادياً على وجهها. نظرت إلي بعينين جاحظتين دهشة عندما احمر وجهي وأطرقت برأسي. تمالكت نفسها وتمتمت بكلام كان واضحاً أنه اعتذار رغم اللغة التي لا أفهمها. ابتسم لها إدوارد وأجابها بلهجة ودية. حولت كاوري عينيها الداكنتين بعيداً عني ومضت إلى الصالة.

تمتمت: «لقد ظنت ما أظن أنها ظنته... أليس كذلك؟»

ضحك إدوارد لهذه الجملة المتعثرة: «نعم!»

«هذا...» قلت له وأنا أمد يدي عشوائياً لألتقط أحد الأفلام... «ضع هذا الفيلم... سوف نتظاهر بمشاهدته».

كان فيلماً غنائياً قديماً فيه وجوه مبتسمة وفساتين منفوخة.

قال إدوارد مستحسناً: «هذا فيلم يليق بشهر العسل».

بينما كان ممثلو الفيلم يرقصون في الأغنية الافتتاحية جلست في الأريكة متجمعة بين ذراعي إدوارد.

تساءلت بكسل: «هل سنعود إلى الغرفة البيضاء الآن؟»

«لا أعرف!... لقد أتلفت سرير الغرفة الأخرى إتلافاً يصعب إصلاحه... لعل من الأفضل أن نقصر التخريب على جهة واحدة من المنزل... فقد تدعونا إيزمي إلى المجيء مرة ثانية ذات يوم».

ابتسمت ابتسامة عريضة: «سيحدث مزيد من التدمير إذن!»

ضحك لهذا التعبير: «أعتقد أن من الأكثر أماناً أن نخطط للأمر بدلاً من أن أنتظر هجومك مرة ثانية».

قلت من غير اكتراث: «هذه مسألة وقت فقط»، لكن نبض الدم تسارع في عروقي.

«هل ثمة مشكلة في قلبك؟»

«لا! سليم وقوي مثل قلب حصان»... توقفت قليلاً... «هل تريد أن نذهب إلى منطقة الدمار الآن؟»

«لعل من الأكثر تهذيباً أن ننتظر ريثما نصبح وحدنا. قد لا تلاحظين عندما أكسر الأثاث، لكن هذا سوف يرعبهم على الأرجح».

مرة أخرى... نسيت وجود الناس في الغرفة الأخرى... «صحيح!»

كان غوستافو وكاوري يتنقلان بهدوء في المنزل فيما رحت أنتظر بصبر أن ينتهيا من عملهما وحاولت تركيز انتباهي على مجريات الأحداث السعيدة على الشاشة. بدأت أشعر بالنعاس مع أن إدوارد قال إنني نمت نصف اليوم. لكن صوتاً خشناً أجفلني. انتصب إدوارد جالساً وهو مازال يحتضنني وأجاب عن سؤال غوستافو ببرتغالية سلسة. أومأ غوستافو برأسه ومضى بهدوء صوب الباب الأمامي.

قال لي إدوارد: «لقد فرغوا من العمل».

«هذا يعني أننا وحدنا الآن».

قال مقترحاً: «ما رأيك بتناول الغداء أولاً؟»

عضضت على شفتي وقد حيرتني تلك المعضلة. كنت جائعة حقاً!

أمسك إدوارد بيدي مبتسماً وقادني صوب المطبخ. كان يعرف وجهي جيداً... لا أهمية لكونه لا يستطيع قراءة أفكاري.

قلت متذمرة عندما شعرت بامتلاء معدتي أخيراً: «لم أعد أستطيع السيطرة على طعامي».

سألني: «هل تريدين السباحة مع الدلافين بعد الظهر حتى تحرقي الحريرات الزائدة؟»

«ربما في وقت لاحق! لدي فكرة أخرى لحرق هذه الحريرات».

«وما هي؟»

«مازال في إطار السرير أجزاء كثيرة غير مكسورة حتى الآن...»

لكنني لم أكمل جملتي فقد حملني بين ذراعيه وأسكتتني شفتاه في حين كان يأخذني إلى الغرفة الزرقاء بسرعة غير بشرية.

7

من غير انتظار

تحرك خط السواد مقترباً صوبي عبر الضباب الكثيف. كنت أستطيع رؤية عيونهم العقيقية الداكنة تشتعل رغبة... شهوة إلى القتل. كشرت شفاههم عن أنياب حادة رطبة... كان بعضهم يزمجر... وكان بعضهم يبتسم.

سمعت الطفل يصرخ خائفاً من خلفي لكنني لم ألتفت لأنظر إليه. ما كنت قادرة على التفريط في شيء من تركيزي الآن... رغم حرصي على التأكد من سلامته.

اقتربوا أكثر من ذي قبل... كانت أثوابهم السوداء تتمايل ببطء مع حركتهم. رأيت أكفهم تتحول إلى مخالب بلون العظام. راحوا يتفرقون حتى يحيطوا بنا من جميع الجهات. صرنا محاصرين. سوف نموت.

ثم... تغير المشهد كله فجأة مثل دفقة ضوء مفاجئة. لكن شيئاً لم يتغير رغم ذلك... ما زال الفولتوري يحيطون بنا مستعدين للقتل.

لم يتغير إلا كيفية ظهور الصورة أمامي. فجأة... صرت متلهفة للأمر. أردتهم أن يهجموا. تحول رعبي إلى شهوة للدم فجثمت مستعدة للوثب... ارتسمت ابتسامة على وجهي... وخرجت زمجرة من بين أسناني الظاهرة.

استيقظت فجأة كأن صدمة أصابتني فأخرجتني من ذلك الحلم.

كانت الغرفة مظلمة. وكان الحر شديداً. كان العرق يبلل شعري عند

صدغي وينساب حتى رقبتي. تلمست الفراش فوجدته فارغاً... «إدوارد!»

في تلك اللحظة وقعت أصابعي على شيء ناعم مسطح جامد. كان ورقة مطوية نصفين. حملتها معي وتلمست طريقي في ظلام الغرفة حتى مفتاح النور.

كانت الورقة معنونة من الخارج باسم السيدة كولن.

أمل ألا تستيقظي فتلاحظي غيابي. أما إذا استيقظت فأنا أقول لك إنني عائد سريعاً. ذهبت إلى البر من أجل الصيد. عودي إلى النوم وسوف أكون عندك عندما تستيقظين. أحبك.

تنهدت. مضى علينا الآن نحو أسبوعين في هذه الجزيرة لذلك كان يجب أن أتوقع ذهابه. لكني لم أكن أفكر في الزمن. أحسست أننا موجودان خارج الزمن هنا... موجودان على الدوام... على أحسن ما يرام.

مسحت العرق عن جبيني. شعرت أنني ما استيقظت تماماً رغم أن الساعة على منضدة الزينة كانت تشير إلى ما بعد الساعة الواحدة. عرفت أنني لن أستطيع النوم لشدة الحر والرطوبة. إن أطفأت النور وأغمضت عيني الآن، فمن المؤكد أنني سأعود إلى رؤية تلك الأشباح السوداء في منامي.

نهضت وتجولت على غير هدى في المنزل المظلم... ورحت أضيء الأنوار. بدا المنزل فارغاً شديد الضخامة من غير وجود إدوارد... كان مختلفاً.

انتهت جولتي إلى المطبخ. فقررت أنني قد أكون في حاجة إلى الطعام.

رحت أنقب في البراد حتى وجدت كل ما يلزم لإعداد الدجاج المقلي. كان صوت أزيز الدجاج وفرقعته في المقلاة لطيفاً... صوتاً منزلياً. خف توتري عندما ملأ الصوت صمت المطبخ.

انبعثت من الطعام رائحة شهية جداً جعلتني أبدأ بالتهامه وهو في المقلاة وأحرق لساني باللقمات الملتهبة. وعند اللقمة الخامسة أو السادسة صارت حرارة الطعام مقبولة إلى حد جعلني أستطيع الإحساس بطعمه. تباطأ مضغي. هل من شيء غريب في نكهة الطعام؟ تفحصت اللحم فوجدته أبيض نظيفاً من الداخل؛ لكني تساءلت إن كان قد نضج جيداً. تناولت لقمة تجريبية إضافية

ومضغتها مضغاً مضاعفاً. أوف... طعمها سيئ بالتأكيد. قفزت واقفة لأبصق ما بفمي في المجلى. وفجأة... فاحت رائحة سيئة من اللحم والزيت. أمسكت بالصحن كله فأفرغته في سلة القمامة ثم فتحت النوافذ حتى تخرج الرائحة. بدأ نسيم طري يهب في الخارج فأحسسته لطيفاً على جلدي.

سرعان ما شعرت بالإنهاك لكنني لم أرغب في العودة إلى غرفة النوم الحارة. فتحت مزيداً من النوافذ في غرفة التلفزيون واستلقيت على الأريكة تحت إحداها. شغلت الفيلم نفسه الذي كنا نشاهده في ذلك اليوم وسقطت سريعاً في النوم على إيقاع الأغنية الافتتاحية.

عندما فتحت عيني من جديد كانت الشمس قد صارت في كبد السماء... لكني لم أستيقظ بسبب ضيائها. كانت ذراعاه الباردتان تحضنانني... تشدان جسمي إليه. وفي اللحظة عينها أحسست بألم مفاجئ في معدتي يشبه الألم الذي يأتي بعد تلقي لكمة في البطن.

تمتم إدوارد وهو يمر بيده الباردة على جبهتي الحارة: «أنا آسف! الجو حار. لم أفكر في مدى الحر الذي ستشعرين به في غيابي. سوف أجعلهم يركبون مكيف هواء قبل أن أذهب مرة أخرى».

لم أستطع التركيز على كلماته فقلت له: «من فضلك!»... وحاولت التخلص من ذراعيه.

أفلتني إدوارد على نحو تلقائي: «بيلا... ما بك؟»

أسرعت إلى الحمام واضعة يدي على فمي. كان شعوري فظيعاً فلم أبال في البداية بوجوده معي عندما قرفصت فوق المرحاض... كنت أشعر بدوار عنيف.

«بيلا!... ما بك؟»

لم أستطع إجابته حتى الآن. أمسكني بقلق رافعاً شعري عن وجهي منتظراً ريثما أستطيع التنفس من جديد.

قلت بأنين: «إنه الدجاج الفاسد الملعون».

توتر صوته: «هل أنت بخير؟»

لهثت قائلة: «بخير! إنه تسمم غذائي. لا حاجة بك إلى رؤية هذا . . . اذهب!»

«لن أذهب يا بيلا».

قلت من جديد: «اذهب!». . . كافحت لأقف حتى أغسل فمي. ساعدني إدوارد بلطف متجاهلاً محاولاتي الضعيفة لدفعه عني.

بعد أن نظفت فمي حملني إدوارد إلى السرير فأجلسني برفق وهو يسندني بذراعه.

«تسمم غذائي!»

قلت: «نعم! أعددت بعض الدجاج في الليل. كان طعمه سيئاً فألقيته كله لكني أكلت بضع لقمات في البداية».

وضع يده الباردة على جبهتي فشعرت براحة: «كيف تشعرين الآن؟»

فكرت في ذلك لحظة. لقد اختفى الدوار فجأة كما جاء. صار شعوري عادياً كما في كل صباح. . . «لا أشعر بشيء الآن. بل أنا جائعة قليلاً في الواقع».

جعلني أنتظر ساعة كاملة شربت خلالها كأساً كبيرة من الماء ثم قلى لي بيضاً. كان شعوري طبيعياً تماماً. . . كنت متعبة قليلاً بسبب استيقاظي في منتصف الليل.

شغل التلفزيون ووضعه على محطة سي إن إن. كنا بعيدين جداً عن العالم. . . لعل الحرب العالمية الثالثة اندلعت ولم نعرف عنها شيئاً. جلست ناعسة في حضنه.

مللت من الأخبار فمططت نفسي لأقبله. لكن، تماماً مثلما حدث في الصباح، شعرت بألم حاد يضرب معدتي عندما تحركت. انكمشت مبتعدة عنه وأنا أشد على معدتي بيدي. أدركت أنني لن أستطيع الوصول إلى الحمام هذه المرة. . . لذلك أسرعت صوب المطبخ.

رفع إدوارد شعري عن وجهي من جديد وقال مقترحاً بقلق عندما كنت أغسل فمي: «لعل علينا الذهاب إلى ريو لنرى طبيباً».

هززت رأسي واتجهت نحو الصالة. . . الطبيب يعني حقنة. . . «سأكون بخير بعد أن أنظف أسناني».

عندما تخلصت من الطعم الكريه في فمي بحثت في حقيبة يدي عن علبة الإسعافات الأولية التي وضعتها أليس بعد أن ملأتها بأشياء بشرية كالضمادات والمسكنات ومضادات الإسهال والإقياء. قد أستطيع تهدئة معدتي وتهدئة إدوارد معها.

لكن، قبل أن أجد الدواء وجدت شيئاً آخر وضعته أليس من أجلي. حملت العلبة الزرقاء الصغيرة في يدي ورحت أحدق إليها لحظة طويلة ناسية كل شيء غيرها.

ثم بدأت العد في ذهني. مرة. مرتين. من جديد.

أجفلني قرع على الباب فسقطت العلبة من يدي عائدة إلى مكانها في الحقيبة.

سأل إدوارد من خلف الباب: «هل أنت بخير؟ هل أنت متعبة من جديد؟»

قلت: «نعم. . . ولا!». . . لكن صوتي بدا مختنقاً.

صار صوت إدوارد قلقاً الآن: «بيلا! هل أستطيع الدخول من فضلك؟»

«لا بأس!»

دخل إدوارد ونظر إلي محاولاً أن يفهم وضعي. . . كنت أجلس متربعة على الأرض قرب حقيبة اليد. . . كانت نظراتي فارغة. . . محدقة. جلس بجانبي ووضع يده على جبيني من جديد.

«ما الأمر؟»

همست: «كم يوماً مر على زفافنا».

أجابني تلقائياً: «سبعة عشر يوماً. . . ما الأمر يا بيلا؟»

كنت أعد من جديد. رفعت إصبعي طالبة منه الانتظار. . . رحت أعد

بصوت مسموع. لقد أخطأت في حساب الأيام. مضى علينا هنا أكثر مما ظننت. بدأت العد من جديد.

همس إدوارد نافد الصبر: «بيلا! أكاد أفقد عقلي».

حاولت ابتلاع ريقي... لكنني لم أستطع. لذلك مددت يدي إلى الحقيبة وبحثت عن علبة الفوط النسائية الصغيرة الزرقاء حتى وجدتها. رفعتها بيدي صامتة.

نظر إلي بحيرة: «ماذا؟ هل تظنين أن ما أصابك هو أعراض الدورة الشهرية؟»

قلت بصوت مخنوق: «لا!... لا يا إدوارد! أحاول إخبارك أن دورتي تأخرت خمسة أيام».

لم يتغير تعبير وجهه... كأنني لم أقل شيئاً.

أضفت قائلة: «لا أظن أنني مصابة بتسمم غذائي».

لم يجبني... تحول إلى تمثال ساكن.

غمغمت لنفسي بصوت مسطح: «الأحلام... كثرة النوم... البكاء... كل تلك الكمية من الطعام... أوه! أوه! أوه!»

بدت نظرة إدوارد زجاجية... كما لو أنه ما عاد قادراً على رؤيتي.

وبشكل تلقائي... دون أي قصد تقريباً... سقطت يدي إلى بطني.

صحت من جديد: «أوه!»

نهضت على قدمي مبتعدة عن يدي إدوارد الساكنتين. لم أكن قد غيرت ملابس النوم... الشورت الحريري القصير والقميص الخفيف ذو الحمالات. خلعت قميصي الآن ورحت أحدق في بطني... همست: «مستحيل!»

لم تكن لدي إطلاقاً أي خبرة فيما يخص الحمل والأطفال أو أي جزء من ذلك العالم كله، لكنني لست غبية. لقد رأيت الكثير من الأفلام والبرامج التلفزيونية وهذا ما يجعلني أعرف أن الأمور لا تجري بهذه الطريقة. لم تتأخر الدورة إلا خمسة أيام. وإذا كنت حاملاً فإن الوقت لم يتح لجسدي حتى تظهر

عليه هذه الحقيقة. لم يأت وقت الغثيان الصباحي أو وقت تغير عادات الأكل أو النوم.

وبالتأكيد، لم يأتِ وقت ظهور هذا التحدب الصغير... لكنه واضح في بطني.

رحت أحني جذعي إلى الأمام والخلف وأتفحصه من كل زاوية كما لو أن ذلك التحدب سيختفي في وضعية صحيحة أحاول اكتشافها. مررت بأصابعي فوق ذلك التحدب الخفيف.. فوجئت بمدى صلابته تحت أصابعي.

قلت من جديد: «مستحيل!»... مستحيل لأن... بوجود التحدب أو من غيره... بوجود الدورة الشهرية أو من غيرها... (من المؤكد أن تأخرها غير طبيعي. لم يسبق أن تأخرت يوماً واحداً في حياتها كلها)... من المستحيل أن أكون حاملاً. الشخص الوحيد الذي مارست معه الجنس مصاص دماء... هل أصيح بهذه الحقيقة بأعلى صوتي.

إنه مصاص دماء مازال متجمداً على الأرض من غير أي حركة.

لابد من تفسير آخر إذن. لابد من وجود خلل في جسمي. لعله مرض غريب من أمريكا الجنوبية له أعراض الحمل نفسها... لكنها أسرع منها...

عند ذلك تذكرت أمراً... تذكرت صباحاً أمضيته في البحث على الإنترنت... صباحٌ بدا لي الآن أن عمراً كاملاً يفصلني عنه. كنت أجلس إلى المكتب القديم في غرفتي في منزل تشارلي... وكان ضوء رمادي يدخل من النافذة... كنت أحدق في كمبيوتري العتيق أقرأ محتويات موقع اسمه «مصاصو الدماء من الألف إلى الياء». كان ذلك بعد أقل من 24 ساعة من محاولة جايكوب بلاك تسليتي بأساطير الكويليت التي ما كان يصدقها في ذلك الوقت... حينها أخبرني أن إدوارد مصاص دماء. كنت قد بحثت بلهفة في العناوين الأولى على ذلك الموقع المخصص لأساطير مصاصي الدماء في العالم كله: الفيليبيني كاغاناغ واليهودي إيستري والروماني فاراكولاتشي والإيطالي ستريغوني بينيفيشي (تستند أسطورة هذا الأخير في الواقع إلى أول تجارب

حماي الجديد مع الفولتوري... لكنني لم أكن أعرف شيئاً عن هذا في ذلك اليوم)... كان انتباهي يومئذ يتناقص تدريجياً مع تحول تلك القصص إلى أشياء أكثر بعداً عن قدرتي على التصديق. كنت أتذكر فقط نتفاً صغيرة من العناوين اللاحقة. بدا أكثرها مثل أعذار مختلقة من أجل تفسير أشياء من قبيل معدلات وفيات الرضع، أو الخيانة الزوجية... *لا يا حبيبتي، أنا لست على علاقة مع غيرك! كانت تلك المرأة المثيرة التي شاهدتها تتسلل خارجة من النافذة روحاً شريرة. من حسن حظي أنني بقيت على قيد الحياة! (أما الآن... بعد ما عرفته عن تانيا وأخواتها، فأظن أن بعض تلك الأعذار كان حقيقياً في الواقع).* كان *هناك بعض السيدات أيضاً... كيف تتهمني بخياناتك... ألمجرد أنك عدت بعد سنتين من الأسفار البحرية فوجدتني حبلى؟ إنها الأرواح الشريرة... لقد نومني مغناطيسياً بما لديه من قوى مصاصي الدماء العجيبة...*

كان ذلك قسماً من تعريف تلك الروح الشريرة... القدرة على إنجاب الأطفال من ضحايا لا حول لها.

هززت رأسي لأنفض الدوار منه. لكن... رحت أفكر في إيزمي وفي روزالي خاصة. لا يستطيع مصاصو الدماء الإنجاب. لو كان هذا ممكناً لتمكنت روزالي من الإنجاب الآن. ليست تلك الأسطورة إلا خرافة.

عدا عن ذلك... ثمة فارق. لا تستطيع روزالي الإنجاب لأنها تجمدت عند الحالة التي كانت عليها عندما انتقلت من بشرية إلى غير بشرية. إنها لا تتغير أبداً. أما أجسام نساء البشر فهي تتغير حتى تستطيع الحمل. إنه في البداية ذلك التغير الشهري المستمر... ثم هو أيضاً تغير أكبر لا بد منه لاستيعاب الجنين الذي ينمو. لا يستطيع جسد روزالي أن يتغير. لكن جسدي يستطيع... لقد تغير! لمست تلك الحدبة في بطني... تلك الحدبة التي لم تكن موجودة أمس.

ماذا عن الرجال من البشر؟ نعم... إنهم يبقون على حالهم من النضج حتى الموت. تذكرت بعض الأشياء العشوائية التي جاءتني... لا أدري من أين: كان تشارلي شابلن في السبعين عندما أنجب أصغر أبنائه. ليس لدى

الرجال شيء من قبيل «سنوات الخصوبة» أو «الدورات الشهرية».

لكن، كيف لأي امرئ أن يعرف ما إذا كان مصاصو الدماء الرجال يستطيعون الإنجاب طالما أن شريكاتهن غير قادرات عليه؟ أي مصاص دماء في الأرض كلها يمكن أن يتحلى بالقدر الكافي من ضبط النفس حتى يختبر الأمر مع امرأة بشرية؟

لا أعرف إلا مصاص دماء واحد يستطيع ذلك.

كان جزء من عقلي يعمل على فرز الحقائق والذكريات والتخمينات... أما الجزء الآخر... الجزء الذي يتحكم بالقدرة على تحريك العضلات، أصغر العضلات... فكان مصعوقاً غير قادر على العمل الطبيعي. لم أستطع تحريك شفتي لأتكلم رغم أنني أردت سؤال إدوارد أن يشرح لي ما يجري. كنت بحاجة إلى العودة إلى حيث يجلس... إلى لمسه، لكن جسدي لم يستجب لأوامري. ما كنت أستطيع غير التحديق في عيني المصدومتين في المرآة وفي أصابعي المشدودة على ذلك النتوء في حوضي.

ثم تغير المشهد فجأة كما تغير في كابوسي الليلة الماضية. بدا كل ما أراه في المرآة مختلفاً تمام الاختلاف رغم أن شيئاً لم يتغير في الواقع.

كأن ما حدث فغير كل شيء هو تلك الحركة الصغيرة التي دفعت يدي... من داخل بطني.

في اللحظة نفسها، رن هاتف إدوارد بصوت حاد ملح. لم يتحرك أي منا. راح الهاتف يرن ويرن. حاولت إسكاته بينما تابعت الضغط بأصابعي على بطني... منتظرة. ما عاد تعبير وجهي مذهولاً في المرآة... كان متسائلاً الآن! لم ألاحظ تقريباً تلك الدموع الصامتة الغريبة التي بدأت تسيل على وجنتي.

تابع الهاتف رنينه. تمنيت لو أن إدوارد يستجيب له... كنت أعيش تلك اللحظة التي لعلها أكبر لحظات حياتي كلها.

تابع الهاتف الرنين.

وأخيراً طغى إزعاجه على كل شيء آخر. ركعت على ركبتي بجانب إدوارد... وجدت نفسي أتحرك بحذر أكثر من ذي قبل... كنت حريصة على كل حركة أكثر ألف مرة من ذي قبل... رحت أفتش في جيوبه حتى وجدت الهاتف. توقعت أن يجيب بنفسه لكنه ظل ساكناً كما كان.

عرفت الرقم وكان بوسعي أن أخمن بسهولة ما الذي يجعلها تتصل الآن.

قلت: «مرحباً أليس». لم يكن صوتي أفضل كثيراً من ذي قبل... تنحنحت.

«بيلا! بيلا... هل أنت بخير؟»

«نعم... هممم... هل كارلايل عندك؟»

«نعم إنه هنا... ما المشكلة؟»

«لست... متأكدة... مئة بالمئة...»

سألتني بقلق: «هل إدوارد بخير؟»... هتفت باسم كارلايل وقد أبعدت فمها عن الهاتف ثم سألتني بإلحاح: «لماذا لم يجب بنفسه؟»... طرحت هذا السؤال قبل أن أستطيع إجابتها على سؤالها الأول.

«لست واثقة!»

«ما الذي يجري يا بيلا؟... رأيت منذ قليل...»

«ماذا رأيت؟»

ساد الصمت ثم قالت أليس أخيراً: «ها هو كارلايل».

شعرت ببرودة تسري في عروقي. لو كانت أليس رأتني في رؤياها مع طفل أخضر العينين ملائكي الوجه بين ذراعي... فقد أجابت على سؤالي... أليس كذلك؟

راحت الصورة التي تخيلت أن أليس رأتها تطفو خلف جفنيّ خلال جزء الثانية الذي سبق صوت كارلايل. طفل صغير جميل... أكثر جمالاً من ذلك الطفل الذي في أحلامي... إدوارد صغير بين ذراعي! تدفق الدفء في عروقي طارداً تلك البرودة.

«بيلا! أنا كارلايل. ما الذي يجري؟»

«أنا...» لم أكن أعرف كيف أجيبه. هل يسخر من استنتاجاتي فيقول لي إنني مجنونة؟ أم أنني أرى حلماً ملوناً من تلك الأحلام نفسها؟... «أنا قلقة بعض الشيء بشأن إدوارد... هل يمكن أن يصاب مصاصو الدماء بالصدمة؟»

ظهر الاهتمام والحذر في صوت كارلايل: «هل أصابه أذى؟»

«لا... لا!»... رفعت نبرتي لأطمئنه... «إنه... واقع تحت صدمة المفاجأة فقط».

«لا أفهمك يا بيلا».

«أظن... أظن أن... ربما... قد أكون...» استنشقت نفساً عميقاً... «حاملاً».

كأنما من أجل مساندتي... شعرت بضربة صغيرة جديدة في بطني. طارت يدي إليها.

بعد صمت طويل تحدث كارلايل كما يتحدث الطبيب: «متى كان اليوم الأول من دورتك الأخيرة؟»

«ستة عشر يوماً قبل الزفاف». كنت قد حسبت الأيام بانتباه كاف من قبل فاستطعت أن أجيبه إجابة واثقة.

«كيف تشعرين الآن؟»

قلت له: «أشعر بشعور غريب»... تكسر صوتي. انهمر سيل جديد من الدموع على وجنتي... «يبدو هذا جنوناً... انظر... أعرف أن الوقت ما زال مبكراً جداً على هذا. لعلي جننت! لكني أرى أحلاماً غريبة وألتهم الطعام طيلة الوقت... وأبكي... وأتقيأ... و... أقسم أنني أحس شيئاً يتحرك في بطني الآن في هذه اللحظة».

ارتفع رأس إدوارد فجأة فتنفست الصعداء.

مد إدوارد يده طالباً الهاتف... كان وجهه أبيض جامداً.

«همم. . . أظن أن إدوارد يريد التحدث معك».

قال كارلايل بصوت متوتر: «هاتيه».

لم أكن واثقة تماماً من قدرة إدوارد على الكلام لكني وضعت الهاتف في يده الممدودة.

ضغط الهاتف على أذنه ثم همس: «هل هذا ممكن؟»

راح يصغي زمناً طويلاً وهو يحدق في لا شيء. ثم سأل: «ربيلا؟». . . التف ذراعه حولي أثناء كلامه وجذبني إلى جانبه.

راح يصغي لوقت بدا لي طويلاً جداً ثم قال: «نعم. . . نعم. . . سأفعل».

أبعد الهاتف عن أذنه ثم أقفله. ثم طلب رقماً آخر.

سألته نافدة الصبر: «ما الذي قاله كارلايل؟»

أجابني بصوت لا حياة فيه: «يظن أنك حامل».

بعثت تلك الكلمات رعدة حارة في عمودي الفقري. وتململ ذلك الشيء في داخلي.

سألته وهو يضع الهاتف على أذنه: «بمن تتصل الآن؟»

«أتصل بالمطار. . . سوف نعود».

ظل إدوارد يتحدث على الهاتف أكثر من ساعة دون انقطاع. خمنت أنه يرتب أمر سفر العودة، لكني لم أكن متأكدة لأنه لم يكن يتحدث بالإنكليزية. بدا أنه يجادل شخصاً ما. . . كان يشد على أسنانه من حين لآخر.

كان يحزم حقائبنا أثناء حديثه. ويتحرك في الغرفة مثل إعصار غاضب، لكنه كان يترك الترتيب لا الفوضى في إثره. ألقى ببعض ملابسي على السرير دون أن ينظر إليها ففهمت أن وقت ارتداء ملابسي قد حان. تابع جداله على الهاتف ريثما غيرت ملابسي. . . كان يشير بيده إشارات مفاجئة مستثارة.

عندما لم أعد أستطع تحمل تلك الطاقة العنيفة التي تشع منه غادرت الغرفة بهدوء. جعلني تركيزه الشديد أشعر بغثيان في معدتي. . . ليس مثل

ذلك الغثيان في الصباح. . . كنت منزعجة فحسب. سوف أنتظر في مكان بعيد ريثما يهدأ مزاجه. لم أكن أستطيع التحدث مع هذا الإدوارد الصقيعي مشغول البال الذي أخافني قليلاً الآن.

انتهيت إلى المطبخ من جديد. كان في الخزانة كيس من البسكويت المملح. بدأت أقضم قطع البسكويت شاردة الذهن وأنا أحدق عبر النافذة في تلك الصخور والرمال والأشجار. . . وفي المحيط. . . كان كل شيء يتألق تحت الشمس.

لكزني شخص ما فقلت: «أعرف! . . . وأنا لا أرغب في الذهاب أيضاً».

حدقت في النافذة برهة من الزمن لكن من لكزني لم يستجب.

همست: «لا أفهم! ما الأمر الخاطئ هنا؟»

مفاجئ. . . بالتأكيد. مدهش. . . نعم! لكن. . . خاطئ! . . . لا!

إذن، ما الذي يجعل إدوارد غاضباً إلى هذا الحد؟ كان هو من أراد ذلك الزفاف.

حاولت التفكير في الأمر منطقياً.

لعله ليس من المستغرب في شيء أن إدوارد يريد أن نعود مباشرة. . . يريد أن نعود الآن. إنه يريد أن يقوم كارلايل بفحصي. . . وبالتأكد من صحة افتراضي. . . لكني ما عدت أشك في الأمر أبداً في هذه اللحظة. لعله يريد أن يعرف لماذا حملت بهذه السرعة. . . لماذا تحدب بطني ولماذا يلكزني الجنين. . . وكل ذلك. هذا غير طبيعي!

ما أن فكرت في هذا حتى صرت واثقة من أنني فهمت الأمر. لابد أنه شديد القلق على الجنين. لم ينشأ لدي هذا القلق بعد. عقلي يعمل أبطأ من دونه. . . مازال عقلي عالقاً بتلك الصورة التي تخيلتها من قبل: الطفل الصغير الذي له عينا إدوارد. . . عينان خضراوان. . . كما كانت عيناه عندما كان بشرياً. . . يرقد جميلاً بين ذراعي. تمنيت لو يكون له وجه إدوارد تماماً دون أي ملامح مني.

«غريب كيف صارت هذه الرؤية ضرورية كل الضرورة. منذ تلك اللمسة الأولى تغير العالم كله. كان لدي من قبل شيء واحد لا أستطيع الحياة من غيره... أما الآن فعندي شيئان اثنان. لا قسمة هنا... لم يكن حبي مقسوماً بينهما الآن. هكذا هو الأمر. كما لو أن قلبي قد كبر وانتفخ حتى صار حجمه مضاعفاً في تلك اللحظة. امتلأ ذلك المكان الإضافي كله. كان هذا التزايد يدوخني تقريباً.

لم أفهم من قبل ألم روزالي وكراهيتها. لم أتخيل نفسي أماً أبداً... لم أرغب في هذا أبداً. كان سهلاً علي كل السهولة أن أقول لإدوارد إنني لا أبالي بالإنجاب من أجله... لأنني ما كنت أبالي بالأمر فعلاً. ما كان للأطفال... كفكرة مجردة... جاذبية في عيني. كنت أراهم مخلوقات كثيرة الصخب.. مخلوقات تتساقط منها مختلف أنواع الأوساخ. ما كان لي علاقة بالأطفال. وعندما حلمت بأن رينيه جلبت لي أخاً... كنت أتصوره أخاً أكبر مني دائماً. شخصاً يهتم بي... لا شخصاً أهتم أنا به.

أما هذا الطفل... طفل إدوارد... فهو قصة مختلفة كل الاختلاف. كنت أريده تماماً كما أريد الهواء الذي أتنفسه. لم يكن خياراً... كان ضرورة.

لعل ثمة مشكلة في مخيلتي. لعل هذا هو السبب الذي جعلني غير قادرة على تصور أنني أريد الزواج حتى تزوجت فعلاً... غير قادرة على رؤية أنني أريد طفلاً حتى صار في بطني طفل فعلاً...

وضعت يدي على بطني أنتظر اللكزة التالية... وانهمرت دموعي على وجهي من جديد.

«بيلا!»

استدرت وقد أيقظتني نبرة صوته. كان صوته شديد البرودة... شديد الحذر. كان وجهه مثل صوته... فارغاً... قاسياً.

ثم رآني أبكي.

اجتاز الغرفة بلمحة خاطفة ووضع كفيه على وجهي: «بيلا!... هل تتألمين؟»

«لا... لا!»

شدني إلى صدره: «لا تخافي. سنصل خلال ست عشرة ساعة. ستكونين بخير. سيكون كارلايل مستعداً عندما نصل. سوف نهتم بكل شيء... وسوف تكونين بخير... سوف تكونين بخير».

«تهتمون بماذا؟ ما قصدك؟»

ابتعد عني قليلاً وحدق في عيني: «سوف نخرج ذلك الشيء قبل أن يستطيع إيذاءك. لا تخافي. لن أتركه يؤذيك».

شهقت: «ذلك الشيء!»

أشاح بوجهه عني بحدة ناظراً صوب الباب الأمامي: «سحقاً!... نسيت أن اليوم هو موعد مجيء غوستافو. سوف أتخلص منه وأعود إليك فوراً»...

قال هذا وانطلق خارجاً من الغرفة.

أمسكت بالطاولة لأستند إليها. ارتخت ركبتاي.

لقد سمى إدوارد الجنين الذي في بطني «شيئاً». وقال إن كارلايل سوف يخرجه.

همست: «لا!»

لقد أخطأت الفهم من قبل. إنه لا يهتم بالجنين إطلاقاً. هو يريد أن يؤذيه. تغيرت تلك الصورة الجميلة التي في رأسي تغيراً مفاجئاً... تغيرت إلى شيء مظلم قاتم. طفلي الجميل يبكي.. وذراعي الضعيفتين غير كافيتين لحمايته..

ماذا أستطيع أن أفعل؟ هل أستطيع مناقشته؟ ماذا لو لم أستطع؟ هل يفسر هذا صمت أليس الغريب على الهاتف؟ هل هذا ما رأته؟ إدوارد وكارلايل يقتلان ذلك الطفل الرائع الشاحب حتى قبل أن يستطيع الخروج إلى الحياة؟

همست من جديد بصوت أقوى: «لا!»... لا يمكن أن يحدث هذا. لن أسمح به.

سمعت إدوارد يتحدث باللغة البرتغالية من جديد... كان يجادل... ثم يجادل. اقترب صوته وسمعته ينخر غاضباً. ثم سمعت صوتاً آخر، صوتاً منخفضاً خائفاً. صوت امرأة.

دخل إلى المطبخ قبلها ومضى إلي مباشرة. مسح الدموع عن خدي وتمتم في أذني عبر شفتيه الرقيقتين الصلبتين: «إنها تصر على ترك الطعام الذي جلبته معها... لقد أعدت لنا طعام الغداء»... لو كان أقل توتراً... أقل غضباً... لسخر من الأمر... «هذه مجرد حجة... إنها تريد التأكد من أنني لم أقتلك حتى الآن». صار صوته ثلجي البرودة عند الكلمات الأخيرة.

ظهرت كاوري تتحرك متوترة وفي يدها صحن مغطى. تمنيت لو كنت أستطيع التحدث بالبرتغالية... أو لو كانت إسبانيتي أقل سوءاً... إذن لشكرت تلك المرأة التي تجرأت على إغضاب مصاص دماء حتى تطمئن على سلامتي.

راحت عيناها تتنقلان بيني وبين إدوارد. رأيتها تعاين ذلك اللون في وجهي. تلك الدموع في عيني. غمغمت بشيء لم أفهمه ثم وضعت الصحن على الطاولة.

قذفها إدوارد بعبارة حادة. لم أره قليل التهذيب إلى هذا الحد من قبل. استدارت المرأة لتمضي فجعلت تلك النسمة التي بعثتها حركة ثوبها الواسع رائحة الطعام تندفع إلى وجهي... كانت رائحة قوية... رائحة البصل والسمك. شهقت وأسرعت إلى المغسلة. شعرت بيدي إدوارد على جبيني وسمعت همسه المهدئ يخترق ذلك الصخب في أذني. اختفت يداه لحظة وسمعت صوت إغلاق باب البراد. اختفت الرائحة مع ذلك الصوت ثم عاد كفا إدوارد يبردان وجهي الملتهب من جديد. انتهى الأمر سريعاً.

غسلت فمي في المغسلة بينما راح إدوارد يداعب حافة وجهي. شعرت برفسة صغيرة ملحة في رحمي فقلت له في ذهني: «كل شيء بخير... نحن بخير!»

أدارني إدوارد صوبه وجذبني بين ذراعيه. أرحت رأسي على كتفه، لكن كفيّ استقرا على بطني بحركة تلقائية.

سمعت شهقة صغيرة فرفعت رأسي.

مازالت المرأة هنا... كانت تقف مترددة عند الباب بيدين نصف ممتدتين كأنها تبحث عن طريقة لمساعدتي. كان نظرها مستقراً على كفي... وكانت الدهشة ظاهرة في عينيها. أما فمها فتجمد مفتوحاً.

عند ذلك شهق إدوارد أيضاً واستدار فجأة فواجه المرأة وهو يدفعني برفق ليخبئني خلف ظهره. ظلت ذراعه ملتفةً حول وسطي... كأنه يمنعني من الحركة.

وفجأة بدأت كاوري تتحدث معه صائحة بصوت مرتفع غاضب وملقية كلماتها غير المفهومة عبر الغرفة كأنها سكاكين. رفعت قبضتها الصغيرة في الهواء وتقدمت خطوتين إلى الأمام وهي تهزها في وجهه. رغم شراسة غضبها... كان من السهل رؤية الرعب في عينيها.

تقدم إدوارد نحوها أيضاً فأمسكت بذراعه خائفة عليها. لكن صوته فاجأني عندما تقدم ليواجهها... خاصة بعد أن خاطبها بتلك الطريقة الحادة الفظة عندما لم تكن تصرخ عليه. كان صوته منخفضاً الآن... راجياً. ليس هذا فحسب... كان صوته مختلفاً... أكثر عمقاً... أقل حدة. لم أعد أظن أنه يتحدث البرتغالية الآن.

للحظة وجيزة حدقت المرأة فيه مستغربة ثم ضاقت عيناها وقذفته بسؤال طويل بتلك اللغة الغريبة نفسها.

صار وجهه حزيناً جاداً وأومأ برأسه مرة واحدة تراجعت المرأة إلى الخلف خطوة واحدة سريعة ورسمت إشارة الصليب على صدرها.

اقترب منها مشيراً إليّ ثم وضع يده على خدي. أجابته بغضب من جديد ملوحة بيديها المتهمتين، ثم أشارت إليه. عندما انتهت راح يرجوها من جديد بذلك الصوت المنخفض الملح نفسه.

تغيرت تعابير وجهها. استدارت إليه والشك واضح على وجهها عندما راحت تتكلم. وعادت عيناها تكرران النظر إلى وجهي المضطرب. توقف إدوارد عن الكلام... بدا أن المرأة تفكر في شيء ما. قلبت نظرها بيننا جيئة وذهاباً ثم تقدمت خطوة إلى الأمام... من غير وعي منها كما يبدو.

قامت بحركة بيديها وكأنها ترسم بالوناً عند بطنها. أجفلتني حركتها... هل تتحدث أساطيرها الخاصة بمصاصي الدماء المفترسين عن هذا الأمر أيضاً؟ هل يمكن أنها تعرف شيئاً عما ينمو بداخلي؟

تقدمت عدة خطوات إلى الأمام... مصممة هذه المرة... ثم ألقت عدة أسئلة قصيرة أجاب عليها إدوارد بتوتر. ثم صار هو من يسألها... مثل استجواب سريع. ترددت قليلاً ثم هزت رأسها ببطء. وعندما تكلم من جديد كان صوته معذباً إلى حد جعلني أنظر إليه بدهشة. كان الألم يلون وجهه.

إجابة على كلامه، تقدمت المرأة ببطء حتى صارت على مسافة سمحت لها بأن تضع يدها الصغيرة على يدي... على بطني. قالت كلمة واحدة باللغة البرتغالية.

قالت بهدوء: «ميت!»... ثم استدارت وقد تهدل كتفاها كما لو أن ذلك الحديث جعلها عجوزاً... وخرجت من الغرفة.

كان ما أعرفه من اللغة الإسبانية كافياً لكي أفهم تلك الكلمة.

كان إدوارد قد تجمد من جديد... كان يحدق في إثرها بذلك التعبير المعذب الذي استقر على وجهه. بعد لحظات قليلة سمعت صوت محرك ينبعث إلى الحياة ثم يخبو تدريجياً في البعيد.

لم يتحرك إدوارد إلا عندما هممت بالحركة صوب الحمام. عند ذلك

أمسكت كفه بكتفي. جاءني صوته هامساً متألماً: «أين تذهبين؟»

«لأنظف أسناني من جديد».

«لا تقلقي من كلامها. ليس هذا إلا أساطير... أكاذيب عتيقة من أجل التسلية».

قلت له: «لم أفهم شيئاً من كلامها»... لكن ذلك لم يكن صحيحاً كله... هل أستطيع التغاضي عن شيء لمجرد أنه أسطورة. كانت حياتي محاطة بالأساطير من كل ناحية... وكانت أساطير صحيحة... كلها.

«وضعت فرشاة أسنانك في الحقيبة. سوف أجلبها».

سبقني إلى الحمام فناديت في إثره: «هل سنغادر سريعاً؟»

«سنغادر ما أن تكوني جاهزة».

انتظر حتى يعيد فرشاة الأسنان إلى الحقيبة... كان يخطو في الغرفة صامتاً. ناولته الفرشاة عندما انتهيت فقال: «سأحمل الحقائب إلى القارب».

«إدوارد...!»

استدار: «ماذا؟»

ترددت محاولة أن أفكر في طريقة تجعلني أبقى لحظات قليلة وحدي: «هل بإمكانك... أن تحضر بعض الطعام؟ أنت تعرف... احتياطاً حتى لا أجوع من جديد».

قال: «طبعاً!»... صارت عيناه حانيتين فجأة... «لا تقلقي من أي شيء. سوف نصل إلى كارلايل في ساعات قليلة. سينتهي الأمر كله قريباً جداً».

أومأت برأسي صامتة... لم أستطع الثقة بصوتي.

استدار وغادر الغرفة حاملاً حقيبة في كل يد من يديه.

أسرعت فالتقطت الهاتف الذي تركه على الطاولة. ما كان من طبعه أن ينسى شيئاً... أن ينسى أن غوستافو آتٍ... أن ينسى الهاتف على الطاولة. كان شديد التوتر... لم يكن هو نفسه.

فتحت الهاتف ورحت أبحث في الأرقام المحفوظة فيه. كنت سعيدة لأنه كان قد جعل الهاتف صامتاً لأنني خفت أن يضبطني. هل هو في القارب الآن؟ أم هو في طريق العودة؟ هل يستطيع سماعي من المطبخ إذا تحدثت همساً؟

وجدت الرقم المطلوب. . . رقم لم أطلبه في حياتي كلها. ضغطت الزر وانتظرت راجية.

جاءني صوتها مثل جرس ذهبي: «ألو!»

همست: «روزالي! أنا بيلا. . . أرجوك. . . عليك أن تساعديني».

الكتاب الثاني

جايكوب

. . . لكن العقل والحب، إن شئتنا الحق، قليلاً ما يترافقان هذه الأيام!

ويليام شكسبير

حلم ليلة صيف

الفصل الثالث، المشهد الأول

مقدمة

الحياة سيئة. . . وبعد ذلك يموت المرء!
نعم. . . لابد أن أكون محظوظة إلى هذا الحد!

8

في انتظار بدء المعركة

«ماذا يا بول! أليس لديك منزل يخصك؟»

ابتسم لي بول الذي كان مستلقياً... محتلاً أريكتي كلها يشاهد لعبة بيسبول غبية على تلفزيوني العتيق، ثم تناول... ببطء شديد، رقاقة بطاطا كبيرة من الكيس الجاثم في حضنه وألقاها في فمه دفعة واحدة.

«من الأفضل لو أنك جلبت هذه معك».

قال وهو يمضغ ما بفمه: «لا! قالت أختك لي أن آخذ أي شيء أريده».

حاولت أن أجعل صوتي يبدو كما لو أنني لست على وشك توجيه لكمة إلى وجهه: «وهل ريتشل هنا الآن؟»

لم ينجح ذلك! لقد فهم قصدي فوضع الكيس خلف ظهره. صدرت «قرقعة» عن الكيس عندما خبأه تحت الوسادة. تحطمت الرقائق التي فيه إلى قطع صغيرة. شد بول قبضتيه ورفعهما أمام وجهه مثل ملاكم.

«هيا يا طفلي. أنا لست في حاجة إلى ريتشل لحمايتي».

قلت بغضب: «صحيح! ألن تذهب إليها باكياً على الفور؟»

ضحك بول واسترخى على الأريكة مسقطاً يديه: «لن أذهب مشتكياً لفتاة. إذا استطعت الفوز بلكمة موفقة فسوف يكون الأمر بيننا نحن الاثنين، والعكس بالعكس، أليس كذلك؟»

لطيف منه أن يقدم لي هذه الدعوة. جعلت جسدي يسترخي كما لو أنني صرفت النظر عن الأمر: «نعم!»

عادت عيناه إلى شاشة التلفزيون.

ضحكت.

صدر عن أنفه صوت تحطم أرضاني تماماً عندما اصطدمت قبضتي به. حاول أن يمسكني، لكني رقصت مبتعداً قبل أن يتمكن من ذلك... صار كيس البطاطا في يدي اليسرى الآن.

«لقد حطمت أنفي يا أحمق».

«قلنا إن الأمر بيننا، أليس كذلك يا بول؟»

مضيت لأضع الكيس بعيداً. وعندما استدرت رأيت بول يعدل وضع أنفه. توقف نزيف الدم من أنفه فبدا ذلك الخط الهابط من شفتيه حتى ذقنه من غير مصدر واضح. راح يشتمني متألماً وهو يضغط بيده على غضروف أنفه.

أنت مزعج جداً يا جايكوب أقسم أنني أفضل البقاء مع ليا».

«أوف! واو! أراهن أن ليا ستحب سماع أنك تريد قضاء بعض وقتك الثمين معها. سيدفئ هذا قلبها».

«لا تقل لأحد إنني قلت ذلك».

«طبعاً! ثق أن هذا لن يخرج من فمي».

قال متألماً: «أوه!»... ثم اعتدل في جلسته على الأريكة ومسح الدم الذي سقط على ياقة قميصه: «أنت سريع يا فتى! أعترف لك بهذا»... عاد انتباهه إلى تلك المباراة البائسة.

وقفت هناك لحظة ثم مضيت متمهلاً إلى غرفتي متمتماً شيئاً عن ذلك الأمر الغريب.

فيما مضى... كان يمكن الاعتماد على بول في القتال في أي وقت. ما كان في حاجة إلى لكمة حتى يفعل ذلك... كانت تكفيه أي إهانة بسيطة. ما كان استفزازه صعباً على الإطلاق. أما الآن... طبعاً... عندما صرت

أريد نداً شرساً مزمجراً محطماً... صار بول لطيفاً جداً.

أليس من السيئ بما فيه الكفاية أن فرداً آخر من العصبة قد صار موسوماً؟... فهذا في الواقع يجعل عددهم أربعة من عشرة الآن! متى يتوقف هذا؟ يفترض أن تكون الأساطير الغبية أمراً نادراً... أمراً لا يتحدث عنه الناس بصوتٍ مرتفع! كل هذا الحب من أول نظرة أمر مزعج تماماً!

هل كان يجب أن تكون أختي؟... وهل كان يجب أن يكون بول؟

عندما عادت ريتشل من ولاية واشنطن في نهاية الفصل الدراسي الصيفي... (تخرجت في وقت مبكر... تلك المجنونة!)... كان هاجسي الأكبر هو صعوبة كتم السر فيما يخصها. جعلني هذا متعاطفاً حقيقياً مع أولاد مثل إمبري وكولن... أولاد ما كان أهلهم يعرفون أنهم مستذئبون. ظنت والدة إمبري أن ما أصابه ليس إلا نوعاً من نوبة تمرد. كان معاقباً دائماً لأنه يتسلل إلى الخارج باستمرار... لكنه لم يكن يستطيع فعل شيء حيال ذلك الأمر بطبيعة الحال. كانت تتفقد غرفته كل ليلة... وفي كل ليلة كانت تجد الغرفة خالية. كانت تصرخ... وكان يتقبل الأمر صامتاً ثم يكرر فعلته يوماً بعد يوم. حاولنا التحدث مع سام حتى يريح إمبري ويخبر أمه بالأمر؛ لكن إمبري قال إنه يتحمل هذا الوضع... كان السر شديد الأهمية.

لذلك كنت شديد الحرص على حفظ هذا السر. ثم... بعد يومين من وصول ريتشل صادفها بول على الشاطئ. فجأة... دون سابق إنذار... نشأ حب حقيقي! لا حاجة لأي أسرار عندما تجد نصفك الآخر... لا حاجة لكل ذلك الكلام الفارغ عن وسم المستذئبين.

عرفت ريتشل القصة كلها. وذات يوم صرت أعتبر بول صهري. كنت أعرف أن بيلي ليس سعيداً بالأمر أيضاً لكنه تعامل معه أحسن مني. طبيعي أنه صار يهرب إلى أسرة كليرووتر أكثر من المعتاد. لست أدري ما الذي يجعل ذلك أفضل بالنسبة له... ليس بول موجوداً هناك، لكن ليا موجودة... بكثرة!

كنت أتساءل... هل تستطيع رصاصة في صدغي أن تقتلني حقاً أم تحدث فيه كثيراً من الفوضى التي يكون علي إعادة ترتيبها؟

ألقيت بنفسي على السرير. كنت متعباً... لم أنم منذ دوريتي الأخيرة، لكنني أعرف أنني لن أنام. كانت أشياء كثيرة تصطخب في رأسي. كانت الأفكار تقفز داخل جمجمتي قفزاً كأنها خلية نحل مجنونة، ضجيج...! كانت تلسعني من لحظة لأخرى. لا!... ليست نحلاً... إنها دبابير!، النحلة تموت بعد لسعتها. لكن الأفكار نفسها كانت تلسعني مرة بعد مرة.

كان هذا الانتظار يدفعني إلى الجنون. مضى الآن قرابة أربعة أسابيع. كنت أتوقع... لا أدري لماذا... أن الأخبار ستصل في هذا الوقت. كنت أسهر الليالي متخيلاً كيف سيكون شكل تلك الأخبار.

سمعت تشارلي يبكي على الهاتف... بيلا وزوجها مفقودان في الحادث. هل هو تحطم طائرة؟ يصعب ترتيب حادثة مزيفة من هذا النوع. إلا إذا كان هؤلاء الطفيليون لا يمانعون في قتل جمهرة من الناس لجعل الأمر يبدو حقيقياً... ما الذي يمنعهم؟ ثم... لعلها طائرة صغيرة! لا بد أن لديهم طائرة صغيرة لغايات من هذا النوع.

أو لعل القاتل عاد إلى بيته وحيداً بعد أن فشل في محاولة جعلها فرداً منهم! بل لعله لم يحاول أصلاً. لعله سحقها مثل كيس من رقائق البطاطا يحاول الحصول على بعض منه! هذا لأن حياتها أقل أهمية في نظره من متعته هو...

يجب أن تكون تلك القصة مأساوية تماماً... فقدت بيلا في حادث مرعب... هي ضحية محاولة خرجت عن السيطرة... اختنقت فماتت أثناء طعامها... حادث سيارة مثلما حدث مع أمي... هذا شيء شائع يحدث دائماً.

هل سيجلبها معه؟ هل سيدفنها هنا من أجل تشارلي؟... في تابوت مقفل بطبيعة الحال... كان تابوت أمي مغلقاً بالمسامير.

لا أريد الآن إلا أن يعود إلى هنا... أن يصير في متناولي.

ربما ليس في الأمر قصة على الإطلاق... لعل تشارلي يتصل ليسأل والدي إن كان قد سمع شيئاً من الدكتور كولن الذي لم يأت إلى عمله ولو يوماً واحداً... بيتهم مهجور. لا أحد من أسرة كولن يجيب على الهاتف. ازداد السر غموضاً بفعل ندرة الأخبار...

لعل ذلك المنزل الأبيض الكبير يحترق فتسويه النار بالأرض دون أن يستطيع أحد الخروج منه. سيكونون طبعاً في حاجة إلى أجساد من أجل تركيب هذه القصة. ثمانية أجساد بشرية بنفس الحجم تقريباً... محروقة إلى حد يجعل التعرف عليها مستحيلاً... إلى حد يتجاوز أي معلومات مسجلة.

ستكون أي قصة من هذه القصص خداعاً فاشلاً بالنسبة لي. سيكون العثور عليهم صعباً إن أرادوا ألا يعثر عليهم أحد. طبعاً... لدي زمن لا نهاية له من أجل البحث. إذا كان لديك هذا الزمن كله فبوسعك التحقق من كل قشة في كومة كبيرة من القش... واحدة فواحدة... حتى تجد الإبرة.

أنا مستعد الآن لتفحص كومة القش كلها. سيكون لدي ما أفعله على الأقل! تزعجني معرفة أنني قد أفقد فرصتي... إنني أمنح مصاصي الدماء وقتاً للهرب... إن كانت تلك هي خطتهم.

أستطيع الذهاب الليلة! يمكننا قتل كل من نصادفه منهم.

أعجبتني تلك الخطة لأنني أعرف إدوارد إلى حد يجعلني واثقاً من أنني سأواجهه إذا قتلت شخصاً من أسرته. سوف يأتي من أجل الانتقام. وسوف أعطيه الانتقام الذي يستحق... لن أجعل إخوتي يهاجمونه معي... سنكون أنا وهو وحدنا... ولينتصر الأقوى!

لا يجوز أن يسمع سام بهذا الأمر. لن نخرق المعاهدة. سنجعلهم يخرقونها بأنفسهم. هذا لأنه لا دليل لدينا على أن أسرة كولن قد ارتكبت أي شيء حتى الآن... لا بد من كلمة حتى الآن، فكلنا يعرف أن الأمر محتوم. إما أن تعود بيلا وقد صارت فرداً منهم أو لا تعود أبداً! وفي الحالين...

ستكون أسرة كولن قد أهدرت حياة بشرية! وهذا يعني حرباً.

كان بول ينخر مثل بغل في الغرفة الأخرى. لعله يشاهد برنامجاً فكاهياً الآن! لعل أحد الإعلانات في التلفزيون أضحكه! مهما يكن الأمر . . . إن نخيره هذا يتعب أعصابي.

فكرت في تحطيم أنفه مرة ثانية . . . لكنه ليس الشخص الذي أريد مقاتلته . . . ليس هو!

حاولت الإصغاء إلى أصوات أخرى . . . صوت الريح في الأشجار. لم يكن صوتها نفسه . . . ليس في الأذن البشرية. ثمة مليون صوت في الريح لا أستطيع تمييزها وأنا في هذا الجسد.

لكن حساسية هاتين الأذنين كانت كافية. كنت أستطيع سماع ما خلف الأشجار حتى الطريق . . . أصوات السيارات تجتاز المنعطف الأخير حيث تستطيع رؤية الشاطئ آخر الأمر . . . مجموعة الجزر والصخور والمحيط الأزرق الكبير المترامي حتى الأفق. كان أفراد الشرطة في لابوش يحبون الوقوف هنا عند ذلك المنعطف. ما كان السياح يلاحظون اللافتة على الجانب الآخر من الطريق . . . اللافتة التي تأمرهم بتخفيض السرعة.

كنت أستطيع سماع الأصوات القادمة من عند دكان التذكارات عند الشاطئ، وكذلك الجرس المعلق ليرن كلما فتح الباب أو أغلق؛ وكنت أسمع أيضاً صوت والدة إمبري تطبع فاتورة على آلة المحاسبة.

كنت أسمع صوت المد يصفع صخور الشاطئ. أسمع زعيق الأطفال عندما تندفع مياه البحر المثلجة بأسرع مما يستطيعون الجري هرباً منها. أسمع الأمهات يتذمرن من ابتلال ملابس الأطفال. وكنت أسمع صوتاً مألوفاً . . .

كنت أصيخ السمع إلى حد جعلني أجفل وأكاد أقع عن سريري عندما انفجر نهيق بول.

قلت مزمجراً: «اخرج من منزلي». كنت أعرف أنه لن يكترث بهذا الكلام . . . فخرجت أنا. فتحت النافذة وتسلقت نازلاً منها حتى لا أرى بول

من جديد. كان الأمر شديد الإغراء. كنت أعرف أنني سأضربه من جديد وأعرف أن ريتشل ستنزعج كثيراً. لقد رأت الدم على قميصه فاتهمتني فوراً دون أن تنتظر دليلاً. كانت محقة طبعاً . . . لكن، مع ذلك . . .

سرت إلى الشاطئ داساً قبضتيّ يديّ في جيوبي. لم ألفت انتباه أحد عندما عبرت البقعة الترابية عند أول الشاطئ. هذا من الأشياء اللطيفة في الصيف . . . لا أحد يبالي بك إن كنت ترتدي بنطلوناً قصيراً فقط.

سرت في إثر الصوت المألوف الذي سمعته فوجدت كويل بكل سهولة. كان عند الجهة الجنوبية من هلال الشاطئ متجنباً حشد السياح الكبير. كان يطلق تحذيرات متواصلة.

«ابتعدي عن الماء يا كلير. تعالي! لا، لا تفعلي ذلك . . . أوه! جيد يا طفلتي! أنا أتكلم جدياً! هل تريدين أن تصرخ إميلي عليّ؟ لن آتي بك إلى الشاطئ من جديد إذا لم . . . أوه . . . ماذا؟ لا . . . أوه! هل ترين هذا مضحكاً؟ ها! من الذي يضحك الآن . . . ها؟»

كان قد أمسك بالطفلة الصغيرة الضاحكة من كاحل قدمها عندما وصلت إليهما. كان في يدها سطل صغير وكان بنطلون الجينز الذي ترتديه مبللاً كله بالماء. أما هو، فكان أسفل قميصه مبللاً أيضاً.

قلت: «صبي عليه خمسة سطول من الماء يا بنت».

«أهلاً جايكوب!»

زعقت كلير وأفرغت سطلاً من الماء على ركبتي كويل.

«إلى الأسفل . . . إلى الأسفل!»

وضعها على قدميها برفق فأسرعت راكضة نحوي واحتضنت ساقي بذراعيها.

«عمي جايكوب!»

«كيف حالك يا كلير؟»

ضحكت كلير: «صار كويل مبللاً كله الآن!»

«أرى هذا. . . أين أمك؟»

قالت كلير بصوت غنائي: «ذهبت، ذهبت، ذهبت. . . ستمضي كلير النهار كله مع كويل. لن تذهب كلير إلى البيت». . . تركتني وجرت إلى كويل فحملها من تحت ذراعيها ووضعها فوق كتفيه.

«يبدو أن أحداً قد فوّت شيئاً ما».

صحح لي كويل: «ثلاثة أشياء في الواقع».

«لقد فوتت الحفلة. حفلة الأميرة. لقد جعلتني أضع تاجاً ثم اقترحت إميلي أن يجربوا كلهم على وجهي التجميل الجديد الذي أعدّته من أجل المسرحية».

«واو! يؤسفني حقاً أنني لم أكن موجوداً لأرى هذا».

«لا تقلق. . . لقد التقطت إميلي صوراً. والواقع أنني بدوت جميلاً جداً».

«لقد خدعتك بسهولة!»

ابتسم كويل: «لقد أمضت كلير وقتاً ممتعاً. . . تلك هي النقطة».

نظرت مستغرباً. كان من الصعب علي أن أكون قريباً من الناس الموسومين. فبغض النظر عن المرحلة التي هم فيها (على وشك القيام بأمر كبير مثل سام. . . أو مجرد جليس أطفال مُستَغَل مثل كويل) كان السلام والثقة الصادران عنهم شيئاً يثير غثياني.

كانت كلير تزعق من فوق كتفيه وتشير إلى الأرض: «انظر. . هذا الحجر يا كويل! من أجلي. . . من أجلي!»

«أي واحد يا طفلتي؟ الأحمر؟»

«كلا، ليس الحجر الأحمر!»

هبط كويل إلى ركبتيه. . . زعقت كلير وشدت شعره مثلما تشد رسن حصان.

«هل هو هذا الحجر الأزرق؟»

«لا. . . لا. . . لا. . .» راحت الطفلة تغني مستمتعة بلعبتها الجديدة.

الغريب أن كويل كان مستمتعاً بالأمر بقدر استمتاعها. لم يكن يبدو على وجهه ما يبدو على وجوه كثير من الآباء والأمهات السواح. . . تعبير «متى سينام الأطفال». لا يرى المرء أبداً أباً حقيقياً مستمتعاً باللعب مع الأطفال. . . مستمتعاً بأي لعبة حمقاء تخطر في بالهم. لقد رأيت كويل ذات مرة يلاعب طفلاً ساعة كاملة دون ملل.

لكني لا أستطيع أن أسخر منه لهذا السبب. . . أحسده كثيراً.

لكني كنت أرى فعلاً أن أمامه أربعة عشر عاماً من اللعب حتى تكبر كلير وتصير في مثل عمره. . . فبالنسبة لكويل، على الأقل، كان عدم تقدم المستذئبين في السن شيئاً جيداً. لكن ذلك الزمن كله لم يكن يزعج كويل كثيراً على ما يبدو.

سألته: «كويل. . . هل فكرت يوماً في مواعدة فتاة؟»

«ماذا؟»

صاحت كلير: «لا! لا تدفعني».

«أنت تعرف قصدي. . . فتاة حقيقية. . . هل تفهمني؟ أي في الليالي التي لا تكون مكلفاً برعاية الأطفال فيها».

نظر كويل إليّ فاتحاً فمه.

زعقت كلير عندما كف كويل عن مناولتها الحجارة: «حجر صغير. . . حجر صغير!» ثم ضربته على رأسه بقبضتها الصغيرة.

«آسف يا كلير ما رأيك بهذا الحجر الأرجواني؟»

ضحكت كلير: «لا! لا أريده».

«قولي ماذا تريدين. . . أرجوك يا صغيرتي».

فكرت كلير قليلاً ثم قالت: «أخضر!»

نظر كويل إلى الحجارة وراح يتفحصها. ثم التقط أربعة منها بدرجات متفاوتة من الخضرة وأعطاها إلى كلير.

«هل هذا ما تريدين؟»

«نعم!»

«أي واحد؟»

«كلللللهم!»

ضمت راحتيها معاً فصب كويل الحجارة فيهما. ضحكت كلير وضربته بها على رأسه فوراً. كشر بطريقة مسرحية مدعياً الألم ونهض واقفاً ثم سار عائداً إلى مكان وقوف السيارات. لعله خشي أن تصاب كلير بالبرد في ثيابها المبتلة. إنه أسوأ من أم مصابة بهوس المبالغة في الرعاية.

قلت له: «آسف يا صديقي إذا كنت قد أحرجتك بالسؤال عن الفتيات».

قال كويل: «لا! لا بأس! لقد فاجأني سؤالك. هذا كل ما في الأمر. لم أفكر في هذا الشيء من قبل».

«سوف تفهمك. . . عندما تكبر. . . لن تغضب منك لأنك عشت حياتك في حين كانت ما تزال طفلة صغيرة».

«أعرف هذا. أعرف أنها ستفهمني».

لم يقل كويل شيئاً آخر.

قلت مخمناً: «لكنك لن تفعل ذلك. . . صحيح!»

قال بصوت منخفض: «لا أستطيع رؤية ذلك. . . لا أستطيع تخيله. أنا لا. . . لا أنظر إلى أي شخص بتلك الطريقة. لم أعد ألاحظ وجود الفتيات. لا أرى وجوههن».

«أضف هذا إلى التاج والتجميل. . . فلعل كلير تجد نوعاً مختلفاً من المنافسة يثير قلقها».

ضحك كويل وأصدر صوتاً كأنه يقبلني: «هل لديك مشاغل في يوم الجمعة يا جايكوب؟»

قلت: «في أحلامك!». . . ثم اتخذت هيئة جدية: «نعم. . . أظن أني مشغول».

تردد لحظة ثم قال: «هل فكرت في مواعدة الفتيات في يوم من الأيام؟»

تنهدت. يبدو أنني عرّضت نفسي لهذا السؤال.

«أنت تعرف يا جايكوب. . . لعل عليك أن تفكر في أن تحيا».

لم يقل هذا على سبيل المزاح. كان صوته متعاطفاً. وهذا ما جعل الأمر أكثر سوءاً.

«وأنا أيضاً لا أرى الفتيات يا كويل. لا أرى وجوههن».

تنهد كويل أيضاً.

من مكان بعيد. . . أبعد من أن يسمعه أحد غيرنا فيميزه عن صوت الأمواج. . . جاء صوت ذئب من الغابة.

قال كويل: «إنه سام!». . . طارت يداه إلى كلير فلمسها كأنه يتأكد من وجودها. . . «لا أعرف أين أمها!»

قلت متعجلاً: «سأرى ما الأمر. . . وإذا كنا في حاجة إليك فسوف أخبرك». خرجت الكلمات سريعة متداخلة. . . «انظر! لماذا لا تأخذها إلى أسرة كليرووتر؟ يستطيع بيلي وسو الاهتمام بها إن لزم الأمر. لعلهم يعرفون ما الذي يجري على أي حال».

«لا بأس. . . اذهب يا جايكوب».

بدأت أجري. . . لا في اتجاه الممر الترابي الذي يخترق المنطقة المسطحة المعشوشبة بل في أقصر طريق يفضي إلى الغابة. توجهت أولاً نحو نقطة بداية جذوع الأشجار التي جرفها البحر ثم انعطفت عبر الأشجار. . . مازلت أجري. شعرت بدموع صغيرة في عيني عندما راحت الأشواك تجرح جلدي، لكني تجاهلتها. سوف تشفى هذه الوخزات قبل أن أجتاز منطقة الأشجار.

صرت خلف الدكان فاندفعت باتجاه الطريق السريع. سمعت شخصاً يصيح بالجاهي. عندما كنت في أمان بين الأشجار كنت أجري بسرعة أكبر. . . كانت خطواتي أوسع. أما في العراء فسوف يراني الناس. لا يستطيع الناس العاديون الجري بهذه السرعة. فكرت ذات مرة بأن المشاركة في سباقات الجري ستكون أمراً ممتعاً. . . من قبيل المباريات الأولمبية أو ما شابه ذلك. سيكون لطيفاً أن

أرى رؤية التعابير التي ستظهر على وجوه الرياضيين النجوم عندما أهزمهم جميعاً. لكنني كنت متأكداً من أن الاختبارات التي تجرى على الرياضيين للتأكد من عدم تناولهم المنشطات سوف تظهر شيئاً غريباً في دمي.

ما أن صرت داخل الغابة الحقيقية... من غير وجود طرق أو منازل من حولي... حتى توقفت وخلعت البنطلون القصير وبحركة سريعة لففته وربطته بالحبل الجلدي المثبت على كاحل قدمي. بدأت أتحول قبل أن أنتهي من ربط الحبل. شعرت بالنار تضطرم في ظهري مرسلة تشنجات شديدة في ذراعي وساقي. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية. غمرتني الحرارة وأحسست بالوميض الصامت الذي جعلني شيئاً مختلفاً. وضعت مخالبي على الأرض وقوست ظهري.

كان التكيف شديد السهولة عندما يكون تركيزي جيداً على هذا النحو. لم تكن لدي مشكلة مزاج بعد تلك اللحظة. إلا عندما يقف ذلك الشيء في طريقي.

تذكرت لنصف ثانية تلك اللحظة الرهيبة التي مرت بي أثناء تلك النكتة وقت الزفاف. كنت غاضباً جداً فلم أستطع أن أجعل جسدي يعمل بشكل صحيح. لقد وقعت في الفخ... مرتجفاً... محترقاً... غير قادر على إجراء التحول وقتل الوحش الواقف أمامي... على بعد خطوات قليلة مني. كان هذا مزعجاً جداً. كنت أموت رغبة في قتله. وكنت خائفاً من إيذائها. وكان أصدقائي يحولون بيننا. ثم... عندما تمكنت أخيراً من اتخاذ الهيئة التي أردت... جاءني الأمر من قائدي. جاءني الأمر من الزعيم. لو لم يكن موجوداً في تلك الليلة إلا إمبري وكويل... لو لم يكن سام موجوداً... فهل كنت سأتمكن من قتل ذلك القاتل؟

أزعجني كثيراً ذلك القانون الذي وضعه سام. كرهت إحساسي بأن لا خيار لدي. وكرهت اضطراري إلى الطاعة.

في هذه اللحظة أدركت وجود أحد غيري. لم أكن وحدي مع أفكاري تلك.

فكرت ليا... «أنت شديد الاستغراق في أفكارك طيلة الوقت».

فكرت... «نعم! ليس في هذا نفاق يا ليا».

قال لنا سام... «هل يمكن وجود نفاق يا شباب؟»

صمتنا جميعاً وأحسست أن ليا انزعجت من كلمة «شباب»... إنها شديدة الحساسية... هكذا هي دائماً.

تظاهر سام بأنه لم يلاحظ انزعاجها: «أين كويل وجارد؟»

«كويل يهتم بكلير. إنه يأخذها الآن إلى أسرة كليرووتر».

«جيد! ستهتم بها سو».

قالت إمبري: «كان جارد ذاهباً إلى منزل كيم. الأرجح أنه لم يسمعك».

سرت زمجرة منخفضة في المجموعة. وعندما ظهر جارد أخيراً لم يكن لدي شك في أنه مازال يفكر في كيم. لم يطلب أحد إجابة بشأن ما سوف يفعلونه الآن... في هذه اللحظة.

أقعى سام جالساً وأطلق زمجرة أخرى. كانت زمجرته إشارة وأمراً في وقت واحد.

كان القطيع مجتمعاً على مسافة أميال إلى الشرق من حيث كنت أنا. اندفعت عبر الغابة الكثيفة أجري صوبهم. وكان كل من إمبري وليا وبول متجهين إليهم أيضاً. كانت ليا شديدة القرب مني... سرعان ما سمعت صوت خطواتها غير بعيد بين الأشجار. تابعنا الجري في خطين متوازيين مفضلين عدم الجري معاً.

«لا بأس! لن ننتظره طيلة النهار. سيكون عليه أن يلحق بنا».

«ما الأمر يا زعيم؟»... كان بول يريد أن يعرف.

«علينا أن نتحدث. لقد طرأ أمر ما!»

أحسست بأفكار سام تتجه نحوي... ليس سام وحده بل سيث وكولن وبرادي أيضاً. كان كولن وبرادي (وهما طفلان جديدان) في دورية اليوم مع سام. لذلك فهما يعرفان ما يعرفه. لكنني لم أعرف سبب وجود سيث وسبب معرفته. لم يكن دوره.

«أخبرهم ما سمعت يا سيث».

زدت سرعتي . . . كنت أريد أن أكون هناك معهم. سمعت ليا تزيد سرعتها أيضاً. كانت تكره أن يسبقها أحد. السرعة هي المزية الوحيدة التي تستطيع ادعاءها.

همست ليا: «ادعاءها!» . . . ثم زادت سرعتها زيادة كبيرة. غرست مخالبي في الأرض واندفعت صوبها.

لم يكن مزاج سام يسمح له بتحمل تفاهاتنا المعتادة: «جايكوب . . . ليا! كفا عن هذا».

لم يبطئ أي منا جريه.

زمجر سام . . . *لكنه عاد فتجاهل الأمر وقال: «هيا يا سيث».*

«ظل تشارلي يتصل بالهاتف حتى وجد بيلي في بيتي».

قال بول: «نعم . . . لقد تحدثت إليه».

شعرت بوخزة تسري في جسدي عندما نطق سيث اسم تشارلي. هذا هو الأمر إذن. لقد انتهى انتظاري. زدت سرعتي مجبراً نفسي على التنفس رغم شعوري بتيبس رئتي على نحو مفاجئ.

أي قصة ستكون؟

«إنه مستثار إلى أقصى حد. أظن أن إدوارد وبيلا عادا الأسبوع الماضي، و . . .»

هدأ لهاث صدري.

إنها حية. أو . . . هي ليست ميتة تماماً على الأقل.

لم أكن أدرك قبل ذلك أهمية الأمر بالنسبة لي. كنت أفكر فيها باعتبارها ميتة كل هذا الوقت . . . لم أدرك هذا إلا الآن. فهمت أنني لم أكن أعتقد أبداً أنه سيعيدها حية. لكن، لا يجوز أن أهتم لهذا الأمر لأنني أعرف ما الذي سيأتي بعد هذا.

«نعم يا أخي . . . إليك الأخبار السيئة. تحدث تشارلي معها بالهاتف وقال

إنها تبدو في حال سيئة. قالت له إنها مريضة. ثم أخذ كارلايل الهاتف وأخبر تشارلي أن بيلا أصيبت بمرض محليّ نادر من أمريكا الجنوبية. وقال إنه يضعها في حجر الآن. لقد جن تشارلي لأنهم لم يسمحوا له برؤيتها. يقول إنه لا يبالي إن أصابه ذلك المرض . . . لكن كارلايل لم يتزحزح عن موقفه. الزيارات ممنوعة! . . . قال لتشارلي إن المرض خطير لكنه يفعل كل ما في وسعه. ظل تشارلي شديد الانزعاج عدة أيام، لكنه لم يتصل مع بيلي إلا اليوم. يقول إن صوتها يوحي بتدهور حالتها».

كان الصمت (الذهني) عندما أنهى سيث كلامه شديد العمق. لقد فهمنا الوضع جميعاً!

إذن، سوف تموت بيلا بسبب هذا المرض . . . هذا ما فهمه تشارلي. هل سيسمحون له برؤية الجثة؟ ذلك الجسد الأبيض الشاحب الهامد من غير تنفس! لا يستطيعون السماح له بلمس جلدها البارد . . . قد يلاحظ مدى صلابته! عليهم الانتظار ريثما تصبح قادرة على تمالك نفسها حتى لا تثب فتقتل تشارلي وبقية المعزين. كم من الوقت يلزم لذلك؟

هل سيقومون بدفنها؟ وهل ستحفر طريق الخروج بنفسها فيما بعد أم يأتون لإخراجها؟

كان الآخرون يصغون إلى تخميناتي صامتين. لقد فكرت في هذه الأشياء أكثر منهم جميعاً.

دخلنا، أنا وليا، فسحة الغابة في الوقت عينه تقريباً. لكن، رغم ذلك، كانت واثقة أنها سبقتني بمقدار مسافة أنفها. أقعت ليا قرب أخيها، أما أنا فمضيت لأقف إلى يمين سام. استدار بول ليفسح لي مكاناً.

«سبقتك من جديد» . . . هكذا فكرت ليا . . . لكنني لم أكد أسمعها.

رحت أتساءل ما الذي يجعلني وحدي واقفاً بين الجميع. كان فرو كتفي منتصباً لشدة فراغ صدري.

سألت: «ماذا ننتظر الآن؟»

لم يجبني أحد. لكني سمعت مشاعر التردد عندهم.

«أوه . . . افهموا! لقد خرقوا المعاهدة!»

«ليس لدينا دليل . . . لعلها مريضة . . . »

«أوه! . . . من فضلكم!»

«لا بأس . . . إن الأدلة الظرفية واضحة تماماً. لكن . . . يا جايكوب . . . »

هكذا جاءتني أفكار سام . . . بطيئة . . . مترددة . . . «هل أنت واثق من أن هذا ما تريده؟ هل هو الشيء الصحيح حقاً؟ نعرف كلنا ما الذي أرادته بيلا».

«لا تذكر المعاهدة أي شيء عن رأي الضحية يا سام!»

«وهل هي ضحية فعلاً؟ هل تعتبرها كذلك؟»

«نعم».

فكر سيث: «جايكوب! إنهم ليسوا أعداءك».

«اخرس يا فتى! هذا لأنك مصاب بنوع من الإعجاب المريض بذلك البطل . . . مصاص الدماء. لكن هذا لا يغير القانون! إنهم أعداؤنا! وهم في منطقتنا! علينا إخراجهم منها. لست أبالي إذا كان القتال إلى جانب إدوارد كولن كان ممتعاً لك ذات مرة».

سأل سيث: «ماذا ستفعل إذن يا جايكوب عندما تقاتل بيلا إلى جانبهم؟ ماذا؟»

«إنها ليست بيلا بعد اليوم!»

«وهل ستقتلها أنت؟»

لم أستطع منع نفسي من الارتعاد.

«لا! لن تقتلها . . . إذن . . . ماذا؟ ستجعل أحداً منا يقتلها؟ ثم ستحمل في نفسك ضغينة عليه إلى الأبد!»

«سوف لن . . . »

«لن تفعل هذا يا جايكوب! أنت لست مستعداً لهذا القتال».

تغلبت علي الغريزة فاتخذت وضعية الوثب مزمجراً صوب الذئب

النحيل الذي بلون الرمل على الناحية الأخرى من الحلقة.

حذرنا سام: «جايكوب . . . سيث . . . اسكتا لحظة!»

أومأ سيث برأسه الضخم.

فكر كويل: «هل فاتني الكثير؟» . . . وصل إلى مكان الاجتماع مبهور الأنفاس . . . «سمعت كلامكم عن اتصال تشارلي . . . »

قلت له: «نحن نستعد للانطلاق. لمَ لا تمر بمنزل كيم فتجر جارد معك بأسنانك؟ سوف نكون في حاجة إلى الجميع».

جاء صوت سام آمراً: «تعال يا كويل. لم نقرر شيئاً بعد».

زمجرت.

«اسمع يا جايكوب! . . . علي أن أفكر فيما هو خير لهذا القطيع. علي اختيار السبيل الذي يحميكم جميعاً بأفضل شكل ممكن. لقد تغير الزمن منذ أن أبرم أسلافنا هذه المعاهدة. أنا . . . أنا لا أعتقد حقاً أن أسرة كولن تشكل خطراً علينا. ونحن نعرف أنهم لن يستمروا في الإقامة هنا زمناً طويلاً. فما أن يعرف الناس قصتهم حتى يختفوا. ويمكن أن تعود حياتنا إلى وضعها الطبيعي».

«وضعها الطبيعي!»

«إذا تحديناهم الآن يا جايكوب فسوف يدافعون عن أنفسهم بقوة».

«وهل أنت خائف؟»

«وهل أنت مستعد لأن تفقد أحد إخوانك؟» . . . توقف قليلاً . . . «أو إحدى أخواتك؟»

«لست خائفاً من الموت!»

«أعرف هذا يا جايكوب. وهذا هو السبب الذي يجعلني أشكك في حكمك الآن».

حدقت في عينيه السوداوين: «هل تنوي الالتزام بالمعاهدة أم لا؟»

«أنوي الالتزام بهذا القطيع! وسأفعل ما هو خير له».

«جبان!»

توتر وجه سام وانحسرت شفتاه عن أسنانه.

تغير صوت أفكار سام... اتخذ نبرة الزعيم الغريبة التي لا نستطيع ألا نطيعها. إنه صوت الزعيم!

«كفى يا جايكوب! لقد فقدت السيطرة على نفسك»... واجه سام نظرات جميع الذئاب في الحلقة.... *«لن يهاجم قطيعنا أسرة كولن من غير استفزاز من جانبهم. مازالت روح المعاهدة كما هي.... ليسوا خطراً على شعبنا وليسوا خطراً على أهالي فوركس. لقد اتخذت بيلا سوان قرارها بنفسها، وهي تعرف طبيعته... لن نعاقب حلفاءنا السابقين بسبب خيارها»*.

فكر سيث بحماس: «هكذا!... نعم هكذا!»

أجابه سام: «أظنني قلت لك أن تخرس يا سيث!»

«أوه... آسف يا سام».

«جايكوب! أين تظن نفسك ذاهباً؟»

غادرت الحلقة ماضياً نحو الغرب حتى أستطيع أن أدير ظهري له: «سوف أذهب لوداع أبي. من الواضح أن لا معنى لبقائي طيلة هذه الفترة».

«أوه يا جايكوب!... لا تفعل هذا من جديد»

جاءت عدة أصوات: «اخرس يا سيث!»

قال لي سام وقد غدت نبرة أفكاره أكثر ليناً من قبل: «لا نريد أن تتركنا».

«إذن، عليك إجباري على البقاء يا سام. عليك أن تسلب إرادتي... أن تجعلني عبداً».

«تعرف أنني لن أفعل هذا».

«إذن، ما عاد لدينا شيء نقوله».

رحت أجري مبتعداً عنهم محاولاً قدر ما استطعت عدم التفكير في الخطوة اللاحقة. بدلاً من ذلك بدأت أركز على ذكرياتي في تلك الشهور الذئبية الطويلة... على ترك طبيعتي البشرية تخرج مني حتى يصبح الحيوان فيّ أكثر من الإنسان. أعيش في الجبال... آكل عندما أجوع... أنام عندما

أتعب... أشرب عندما أعطش... وأجري... وأجري... من أجل أن أجري فقط. رغبات بسيطة وإجابات بسيطة لهذه الرغبات. يأتي الألم بأشكال يسهل التعامل معها. ألم الجوع... ألم الجليد البارد تحت كفي. الألم في مخالبي حين تقاوم الفريسة بقوة. لكل ألم إجابة بسيطة... تصرف واضح حتى أجعله يزول وينتهي.

ليس هذا مثل أن أكون إنساناً.

لكن، بمجرد أن صرت على مسافة قريبة من بيتي عدت إلى هيئتي البشرية. عليّ أن أتمكن من التفكير وحيداً.

فككت بنطلوني القصير ثم ارتديته ورحت أجري نحو المنزل.

لقد فعلت ذلك! لقد خبأت أفكاري... ما عاد الوقت يسمح لسام بإيقافي. هو لا يستطيع سماعي الآن.

لقد اتخذ سام قراراً واضحاً جداً. لن يهاجم قطيعنا أسرة كولن... لا بأس!

لم يذكر سام شيئاً عن التصرف المنفرد.

لا! لن يهاجم القطيع أحداً في هذا اليوم.

أما أنا... فسأفعل ذلك.

9

مؤكد تماماً انني لم اره قادماً

لم أكن أنوي فعلاً أن أودع والدي. يمكنه الاتصال هاتفياً بسام فينتهي الأمر كله. سوف يقطعون الطريق أمامي ويرغموني على العودة. قد يحاولون إغضابي... وقد يحاولون إيذائي... سوف يجبروني بأي طريقة على العدول عن عزمي حتى يضع سام قانوناً جديداً.

لكن بيلي كان يتوقع مجيئي... كان يتوقع حالتي. كان جالساً في ساحة المنزل... جالساً فقط في كرسيه المتحرك وعيناه محدقتان في النقطة التي سأظهر منها بين الأشجار عندها. رأيته يحاول معرفة اتجاهي... كنت أتوجه مباشرة إلى المرآب الذي صنعته بنفسي.

«هل تسمح لي بدقيقة يا جايكوب؟»

تباطأت ثم توقفت. نظرت إليه... ثم نظرت إلى المرآب.

«تعال يا فتى! ساعدني في الدخول إلى المنزل على الأقل».

صررت على أسناني، لكنني قررت أن من الأرجح أن يثير بيلي المتاعب مع سام إذا لم أكذب عليه عدة دقائق.

«ومنذ متى أنت في حاجة إلى المساعدة أيها العجوز؟»

أطلق بيلي ضحكته المجلجلة: «ذراعاي متعبتان. لقد دفعت نفسي من بيت سو إلى هنا».

«الطريق منحدر من بيتهم إلى هنا. يكفي أن تترك الكرسي يسير وحده طول الطريق!»

دفعت كرسيه على المزلق الصغير الذي صنعته بنفسي من أجله ودخلنا غرفة المعيشة.

«لقد أمسكت بي! أظن أن سرعة الكرسي بلغت 50 كم! كان ذلك رائعاً».

«سوف تحطم ذلك الكرسي... أنت تعرف هذا. ثم ستجرجر نفسك من مكان إلى آخر على يديك».

«إطلاقاً! سيكون عملك أن تحملني».

«إذن، لن تذهب إلى أي مكان».

وضع بيلي كفيه على عجلات الدولاب واتجه نحو البراد: «هل بقي لدينا طعام؟»

«كلني إذا أردت! كان بول هنا طيلة اليوم... لا أدري إن بقي طعام».

تنهد بيلي: «علينا إذن أن نبدأ بإخفاء الطعام إذا أردنا تجنب الموت جوعاً».

«قل لريتشل أن تذهب إلى منزله».

اختفت نبرة المزاح في صوت بيلي ورقت عيناه: «لم يمض عليها هنا إلا أسابيع قليلة. هذه هي المرة الأولى التي تزورنا فيها منذ وقت طويل. الأمر صعب... كانت الفتاة أكبر منك عندما توفيت والدتكم. وكان البقاء في هذا المنزل أكثر صعوبة على الفتاتين».

«أعرف هذا».

لم تأت ريبيكا إلى المنزل منذ أن تزوجت... لكن لديها عذر وجيه. تذاكر الطائرة من هاواي مكلفة جداً. أما ولاية واشنطن فهي قريبة إلى حد لا يمكن قبول هذه الحجة من ريتشل. لقد سجلت في دروس صيفية وعملت ورديات مضاعفة في أحد مطاعم الجامعة أيام العطلة. ولولا بول لكانت ذهبت بسرعة. لعل هذا ما يجعل بيلي يمتنع عن طرده.

قلت وأنا أتجه صوب الباب الخلفي: «طيب! سأذهب للعمل على بعض الأشياء...»

«انتظر يا جايكوب! ألن تخبرني بما حدث؟ هل علي الاتصال بسام لأعرف الأخبار؟»

توقفت مديراً ظهري... كنت أخفي وجهي عنه.

«لم يحدث شيء! سام يودعهم. أعتقد أننا صرنا من محبي مصاصي الدماء الآن!»

«جايكوب!...»

«لا أريد الكلام في هذا الأمر».

«هل سترحل يا بني؟»

ظلت الغرفة هادئة فترة طويلة... كنت أفكر كيف أقول له ذلك.

«تستطيع ريتشل أن تستعيد غرفتها. أعرف أنها تكره النوم على الفراش المنفوخ».

«إنها تفضل النوم على الأرض على أن تخسرك. وأنا أيضاً!»

لم أقل شيئاً.

«أرجوك يا جايكوب! إذا كنت في حاجة... إلى استراحة. لا بأس... خذ استراحة. لكن لا تجعلها طويلة إلى هذا الحد من جديد. عد إلينا».

«ربما! ربما أهتم بالعرسان. قد أزور سام ثم ريتشل. وقد أزور أولاً جارد وكيم. ربما علي أن أرتدي بذلة رسمية أو شيئاً من هذا القبيل».

«جايكوب!... انظر إلي».

استدرت ببطء: «لماذا؟»

حدّق في عيني دقيقة كاملة... دقيقة طويلة: «إلى أين تذهب؟»

«ليس لدي خطة محددة في ذهني».

مال برأسه جانباً وضاقت عيناه: «أليس لديك خطة؟»

رحنا نتبادل التحديق. ومرت الثواني.

قال بصوت متوتر: «جايكوب! لا تفعل هذا يا جايكوب. الأمر لا يستحق ذلك».

«لا أعرف عن أي شيء تتحدث».

«اترك بيلا وأسرة كولن... سام على حق».

حدقت فيه لحظة ثم اجتزت الغرفة كلها بخطوتين طويلتين. أمسكت بالهاتف وفصلت شريطه. وضعت الشريط الرمادي في قبضة يدي.

«وداعاً يا أبي».

«انتظر يا جايكوب...» ناداني أبي... لكنني كنت قد خرجت من الباب جرياً.

لم تكن الدراجة الآلية سريعة مثل الجري، لكنها أكثر حيطة. لا أعرف كم سوف يستغرق بيلي حتى يدفع كرسيه بنفسه حتى الدكان فيتحدث بالهاتف مع شخص ما يمكنه إيصال رسالة إلى سام. مؤكد أن سام مازال على هيئة ذئب. ستكون مشكلة إذا جاء بول إلى بيتنا سريعاً. سوف يتصرف خلال ثانية واحدة ويخبر سام بما أفعله...

لن أقلق لهذا الأمر. سأذهب بأقصى سرعة... وإذا أمسكوا بي فسوف أتعامل مع الأمر في لحظته.

شغلت الدراجة وانطلقت بها عبر الدرب الموحل. لم أنظر خلفي عندما مررت بجانب المنزل.

كان الطريق السريع مزدحماً بسيارات السيّاح فرحت أتلوى بدراجتي بين تلك السيارات التي علا صوت أبواقها وشتائم سائقيها. انعطفت إلى الطريق 101 بسرعة 100 كم في الساعة... لم أهتم بأن أنظر إذ كان هناك سيارات قادمة. اضطررت إلى الخروج عن الطريق لحظة لتجنب شاحنة صغيرة كان يمكن أن تدهسني. لن يقتلني ذلك... لكنه سيبطئ حركتي. عظام مكسورة... تستغرق العظام الكبيرة أياماً على الأقل حتى تشفى تماماً... كنت أعرف هذا من تجربتي السابقة.

خف ازدحام الطريق فزدت سرعة دراجتي كثيراً. لم ألمس المكابح حتى اقتربت من الدرب الضيق. أعتقد أنني صرت في أمان الآن. لن يأتي سام إلى هنا ليوقفني. . . لقد فات الوقت.

في تلك اللحظة. . . عندما أيقنت أنني نجحت في الوصول. . . بدأت أفكر فيما كنت سأفعله الآن. خففت السرعة كثيراً ورحت أجتاز منعطفات الدرب بحذر أكثر من اللازم.

أعرف أنهم يستطيعون سماع صوت اقترابي. . . بدراجة أو من غير دراجة. . . لا مفاجأة في الأمر. لا أستطيع إخفاء غايتي. سوف يسمع إدوارد خطتي بمجرد اقترابي منه إلى الحد الكافي. لعله سمعها منذ الآن. لكنني كنت واثقاً من أن الأمر سينجح لأن كبرياءه يقف في صفي. سوف يريد منازلتي وحده. . . منفردَيْن.

لذلك. . . سأدخل بكل بساطة وأرى ذلك الدليل القاطع الذي يريده سام ثم أتحدى إدوارد فأدعوه إلى المنازلة.

لعل هذه المواقف المسرحية تشعره بالسرور.

عندما أنتهي منه سأقتل أكبر عدد منهم قبل أن يقتلوني. تساءلت ما إذا كان سام سيعتبر مقتلي استفزازاً من جانبهم. قد يقول إنني نلت ما أستحق. لن يكون راغباً في الإساءة إلى أصدقائه الأعزاء من مصاصي الدماء.

انتهى الدرب ووصلت إلى المرج أمام المنزل. صدمتني الرائحة كأنها بندورة متعفنة ألقيت في وجهي. . . أف. . . ما أبشع رائحتهم! بدأت معدتي تتلوى. ستكون الرائحة أسوأ على هذا النحو. . . من غير وجود روائح بشرية تخففها كما كان الأمر عندما أتيت إلى هنا تلك المرة. . . وسوف تكون أسوأ عندما أشمها بأنف الذئب.

ما كنت أعرف ما الذي علي أن أتوقعه. لكنني لم أر ما يشير إلى الحياة حول ذلك الوكر الأبيض الكبير. هم يعرفون طبعاً أنني هنا.

أطفأت المحرك ورحت أصغي إلى الصمت. أستطيع الآن سماع تمتمة

متوترة حانقة تأتي من خلف تلك الأبواب المزدوجة العريضة. ثمة أشخاص في المنزل. سمعت اسمي فابتسمت سعيداً لأنني سببت لهم بعض التوتر.

عببت جرعة كبيرة من الهواء. . . سيكون الوضع أسوأ في الداخل. . . واجتزت درجات المدخل بقفزة واحدة.

انفتح الباب قبل أن ألمسه. وقف الطبيب في الباب. . . كانت عيناه جادتين.

قال بصوت أهدأ مما توقعت: «أهلاً يا جايكوب! كيف حالك؟»

استنشقت نفساً عميقاً من فمي. كانت الرائحة النتنة الخارجة من الباب فظيعة. خاب أملي لأن كارلايل هو من فتح الباب. ليت إدوارد هو الذي أتى مكشراً عن أنيابه. كان كارلايل شديد الشبه. . . بالبشر. . . أو شيء من هذا القبيل. لعل السبب هو تلك الزيارات المنزلية عندما كنت مصاباً في الربيع الماضي. لكن، شعرت بعدم الراحة عندما نظرت إلى وجهه عارفاً أنني سأقتله إن استطعت.

قلت: «سمعت أن بيلا عادت حية».

«آآآ. . . جايكوب! ليس هذا بالوقت المناسب حقاً». . . بدا الطبيب غير مرتاح أيضاً، لكن ليس بالطريقة التي كنت أتوقعها. . . «هل يمكننا تأجيل هذا؟»

حدقت فيه مذهوشاً. هل يطلب مني تأجيل ذلك القتال حتى الموت إلى وقت آخر؟

ثم سمعت صوت بيلا. . . جافاً. . . متكسراً. لم أعد أستطيع التفكير في شيء غيره.

كانت تسأل أحداً في الداخل: «لم لا؟ هل نخفي أسراراً عن جايكوب أيضاً؟ لماذا؟»

لم يكن صوتها مثلما توقعت. حاولت أن أتذكر أصوات مصاصي الدماء الصغار الذين قاتلناهم في الربيع الماضي. . . لكنني لم أتذكر غير زمجرتهم.

لعل صغارهم ليس لديهم ذلك الصوت الصادح الثاقب الذي لدى الكبار. لعل أصوات مصاصي الدماء الجدد تكون خشنة دائماً.

قالت بيلا بصوت أكثر ارتفاعاً: «ادخل يا جايكوب من فضلك».

توترت عينا كارلايل.

هل هي ظمأى؟ توترت عيناي أيضاً. قلت للطبيب: «اسمح لي!»... ودخلت ملتفاً حوله. كنت أخالف غريزتي عندما أدير ظهري نحو أيّ منهم. لكن مخالفة الغريزة ليست شيئاً مستحيلاً رغم ذلك. إن كان في العالم مصاص دماء مأمون واحد فهو هذا الزعيم اللطيف على نحو غريب.

سوف أتجنب كارلايل عندما يبدأ القتال. إنهم كثر... أستطيع قتل الكثير دون التعرض له.

دخلت المنزل وأنا أخطو بشكل جانبي جاعلاً الجدار خلف ظهري باستمرار. مسحت عيناي الغرفة... كانت غير مألوفة بالنسبة لي. عندما أتيت إلى هنا آخر مرة كان المكان معداً من أجل حفلة الزفاف أما الآن فكل شيء فيه أبيض لامع. بما في ذلك مصاصو الدماء الستة الواقفين معاً عند الأريكة البيضاء.

كانوا كلهم هنا... كلهم معاً... لكن هذا لم يكن السبب الذي جعلني أتجمد حيث وقفت وقد فتحت فمي مدهوشاً.

إنه إدوارد! إنه ذلك التعبير الذي رأيته على وجهه!

رأيته غاضباً من قبل... ورأيته متعجرفاً مغروراً... ورأيته متألماً ذات مرة. أما هذا... فكان شيئاً أكثر من الألم. كانت عيناه نصف مجنونتين. لم يرفع رأسه لينظر إلي. كان مطرقاً عند الأريكة وعلى وجهه تعبير كما لو أن أحداً أشعل فيه النار. كان كفاه متيبسين على جانبيه.

لم أستطع حتى أن أستمتع بعذابه. ولم أستطع التفكير إلا في شيء واحد يمكن أن يجعله يبدو بهذا المنظر... تابعت عيناي اتجاه نظراته.

رأيتها... تماماً عندما التقطت رائحتها... رائحتها الدافئة... النظيفة... البشرية.

كانت بيلا نصف مختفية خلف ذراع الأريكة متكورة مثل جنين. كانت ذراعاها تعانقان ركبتيها. لم أر فيها للوهلة الأولى إلا بيلا التي أحببتها... مازال جلدها طرياً ناعماً شاحباً... مازالت عيناها بنيتين بلون الشوكولاته. راح قلبي ينبض عنيفاً... لعل هذا مجرد حلم كاذب لن ألبث أن أستيقظ منه!

عند ذلك رأيتها فعلاً!

كانت تحت عينيها دوائر قاتمة... سوداء بارزة لشدة إرهاق وجهها. هل ازدادت نحولاً؟ كان جلدها يبدو مشدوداً عند عظام وجنتيها التي شعرت أنها موشكة على تمزيقه والخروج منه. كان أكثر شعرها ملموماً في عقدة فوضوية... لكن خصلات قليلة كانت ملتصقة برقبتها وجبينها... ملتصقة بتلك الغلالة من العرق التي تغطي جلدها. رأيت في معصميها وأصابعها هشاشة شديدة أفزعتني.

إنها مريضة!... مريضة جداً!

لم يكن الأمر كذبة!... لم تكن القصة التي سردها كارلايل لبيلي مجرد قصة!... رحت أحدق فيها بعينين جاحظتين فرأيت لون جلدها يتحول إلى شيء من الخضرة.

انحنت مصاصة الدماء الشقراء... تلك الشقراء اللامعة... روزالي... فوق بيلا فحجبتها عن نظري... كانت تنحني فوقها وتغطيها... كأنها تحميها.

ثمة شيء خاطئ! كنت أعرف شعور بيلا تجاه كل شيء تقريباً... كانت أفكارها شديدة الوضوح... تكون أفكارها أحياناً كأنها مطبوعة على جبينها. لهذا لم تكن في يوم من الأيام في حاجة لأن تخبرني تفاصيل حتى أفهم الأمر. كنت أعلم أن بيلا لا تحب روزالي. رأيت ذلك في طريقة إطباقها شفتيها عندما تتحدث عنها. لم يكن الأمر هو أنها لا تحبها فقط!... كانت بيلا تخاف روزالي... كانت!

ما كان في نظرات بيلا أي خوف من روزالي الآن. كان تعبير وجهها...

معتذراً. . . أو شيئاًمن هذا القبيل. عند ذلك اختطفت روزالي حوضاً صغيراً عن الأرض ووضعته تحت فم بيلا تماماً في اللحظة التي بدأت تتقيأ فيه بصخب.

سقط إدوارد على ركبتيه بجانب بيلا. . . كانت عيناه معذبتين. . . مدت روزالي ذراعها محذرة إياه من الاقتراب.

لم يكن لهذا كله أي معنى!

عندما تمكنت بيلا من رفع رأسها ثانية رأيتها تبتسم لي بضعف. . . كأنها محرجة. همست تقول لي: «آسفة لهذا!»

صدر أنين هادئ عن إدوارد. وهوى رأسه على ركبتي بيلا. وضعت إحدى يديها على وجنته كأنها تحاول تهدئته.

لم أدرك أن ساقي اقتربتا بي من بيلا إلى أن أوقفتني روزالي التي ظهرت فجأة فحالت بيني وبين الأريكة. كانت مثل شخص من الأشخاص الذين نراهم في التلفزيون. لم أبال بوجودها هناك. . . ما كانت تبدو حقيقية في نظري.

همست بيلا: «لا يا روز! لا بأس».

ابتعدت الشقراء عن طريقي. . . لكني رأيت أنها ما كانت مرتاحة لابتعادها. جثمت عند رأس بيلا محدقة في اتجاهي. . . مستعدة للوثب. كان تجاهلها أسهل مما تخيلت.

همست: «بيلا!. . . ماذا بك؟». . . دون أن أفكر في الأمر وجدت نفسي على ركبتي أيضاً منحنياً عليها من فوق ظهر الأريكة. . . من فوق. . . زوجها. لم يظهر عليه ما يوحي بأنه لاحظ وجودي. . . أما أنا فلم ألتفت إليه. مددت يدي إلى يدها الحرة فضممتها بين كفي. كان جلدها بارداً كالجليد. . . «هل أنت بخير؟»

كان هذا سؤالاً غبياً. . . لم تجب عليه.

قالت: «أنا سعيدة جداً لأنك أتيت حتى تراني اليوم يا جايكوب».

رغم معرفتي أن إدوارد لا يستطيع قراءة أفكارها فقد بدا عليه أنه سمع في

جملتها شيئاً لم أسمعه. راح يئن من جديد. . . يئن دافناً وجهه في بطانيتها. . . أما هي فراحت تداعب وجنته.

قلت مصراً وأنا أضم أصابعها الباردة الهشة بكفي: «ما الأمر يا بيلا؟»

بدل أن تجيبني راحت تنظر في الغرفة كما لو أنها تبحث عن شيء. . . كان في نظراتها رجاء وتحذير. . . أجابت نظرتها ستة أزواج من العيون الصفراء القلقة. أخيراً. . . استدارت بيلا صوب روزالي وقالت: «ساعديني على النهوض يا روز!»

تقلصت شفتا روزالي فظهرت أسنانها. . . نظرت إلي كما لو أنها تريد تمزيق حنجرتي. . . أعرف أنها تتمنى ذلك.

«من فضلك يا روز!»

كشرت الشقراء. . . لكنها انحنت فوق بيلا من جديد. . بجانب إدوارد الذي لم يتحرك قيد أنملة. وضعت ذراعها خلف كتفي بيلا برفق شديد.

همست لها: «لا!. . . لا تنهضي. . .» كانت تبدو شديدة الضعف.

أجابتني بحدة: «أنا أجيب على سؤالك». . . بدا صوتها الآن أشبه بطريقة حديثها القديمة معي.

أنهضت روزالي بيلا عن الأريكة. أما إدوارد فظل حيث هو. . . تهاوى إلى الأمام حتى صار وجهه مدفوناً في وسائدها. سقطت البطانية إلى الأرض عند قدمي بيلا.

كان جسدها منتفخاً. . . كان وسطها ناتئاً مثل كرة. . . بطريقة غريبة. . . مريضة. كان بطنها يدفع القميص الرمادي الواسع الذي كانت ترتديه فيتهدل واسعاً على كتفيها وذراعيها. بدت بقية جسمها أكثر نحولاً كما لو أن تلك الكرة الناتئة في بطنها نمت مما امتصته من باقي جسدها. مرت عدة ثوان قبل أن أدرك طبيعة ذلك الجزء المشوه فيها. . . لم أفهم الأمر حتى وضعت كفيها برفق على بطنها المنتفخ. . . كف من الأعلى وكف من الأسفل. . . كما لو أنها تحضنه.

هكذا إذن!. . . لكني مازلت غير قادر على التصديق. رأيتها منذ شهر

فقط. لا يتسع الوقت لأن تصبح حبلى. . . حبلى إلى هذه الدرجة!

لكنها حبلى!

لم أرغب في رؤية هذا. . . لم أرغب في التفكير في هذا! لم أرغب في تخيله داخل بطنها. لم أرغب في معرفة أن شيئاً أكرهه إلى هذه الدرجة ينمو الآن في هذا الجسم الذي أحببت. اهتاجت معدتي. . . كان علي أن أبتلع ما حاول الخروج منها.

لكن الأمر أسوأ من هذا. . . أسوأ بكثير. جسمها المشوه. . . العظام الناتئة في جلد وجهها. كان واضحاً أنها تبدو على هذا الشكل. . . حبلى كثيراً. . . مريضة كثيراً. . لأن ذلك الذي في بطنها كان يمتص حياتها ليغذي حياته هو. . .

هذا لأنه وحش. . . تماماً مثل أبيه!

كنت أعرف دائماً أنه سيقتلها ذات يوم.

ارتفع رأسه عندما سمع أفكاري. بقينا ثانية واحدة جاثيين على الأرض، ثم وقف منحنياً فوقي. كانت عيناه مظلمتين. . . وكانت الدوائر تحتهما بنفسجية داكنة.

قال مزمجراً: «اخرج يا جايكوب!»

وقفت بدوري. رحت أحدق فيه. . . لهذا السبب أتيت.

قلت موافقاً: «فلنفعل ذلك».

اندفع ذلك الضخم. . . إيميت. . . فوقف بجانب إدوارد. أما جاسبر ذو المظهر الجائع فوقف خلفه تماماً. لم أكن أبالي بهم أبداً. لعل جماعتي يزيلون البقايا عندما ينهي هؤلاء الوحوش أمري. ولعلهم لا يفعلون ذلك! لا أهمية للأمر.

لجزء صغير من الثانية نظرت إلى الاثنين الواقفين في الخلف. . . إيزمي وأليس. . . صغيرتين. . . أنثويتين. لا بأس! لابد أن الآخرين سوف يتمكنون من قتلي قبل أن أصل إلى هاتين المرأتين. لم أكن أريد قتل نساء. . . حتى لو كن مصاصات دماء.

لكني قد أستثني تلك الشقراء!

قالت بيلا لاهثة: «لا!». . . وخطت متعثرة إلى الأمام. . . فقدت توازنها فأمسكت بذراع إدوارد. تحركت روزالي معها كما لو أن سلسلة تربط بين الاثنتين.

قال إدوارد بصوت منخفض: «أنا في حاجة إلى التحدث معه يا بيلا». . . كان يتحدث معها وحدها. رفع يده فمس وجهها ومسد وجنتها. صارت الغرفة حمراء في عيني. . . جعلتني حركته أرى النار. . . بعد كل ما فعله بها مازال مسموحاً له أن يداعب وجهها بهذه الطريقة!. . . تابع إدوارد يقول راجياً: «لا تجهدي نفسك. . . ارتاحي. . . أرجوك! سوف نعود معاً بعد دقائق قليلة».

حدقت في وجهه. . . كانت تقرأ تعابيره بانتباه. . . ثم أومأت برأسها وتهاوت على الأريكة. ساعدتها روزالي في إسناد جسمها إلى الوسائد. حدقت بيلا في وجهي محاولة التقاط عيني وقالت بإصرار: «كن حسن السلوك. . . ثم عد إلى هنا».

لم أجبها! لم أكن أقطع وعوداً في هذا اليوم. أشحت بوجهي ثم تبعت إدوارد خارجاً من الباب الأمامي.

نبهني صوت عشوائي مفكك في رأسي إلى أنني تمكنت من فصله عن جماعته. . . لم يكن هذا صعباً!

تابع إدوارد السير. . . لم يكن يلتفت ليرى إن كنت أهم بالوثب على ظهره المكشوف. أفترض أنه ليس في حاجة إلى الالتفات. سيعرف عندما أقرر مهاجمته. هذا يعني أن عليّ اتخاذ قراري بأقصى سرعة.

همس إدوارد وهو يسرع مبتعداً عن المنزل: «أنا لست جاهزاً لأن تقتلني يا جايكوب بلاك. . . عليك أن تتحلى بالصبر».

كأنني أهتم ببرنامجه الزمني! قلت مزمجراً بصوت خافت: «ليس الصبر من طبعي».

تابع إدوارد السير. . . لعله سار مئتي متر مبتعداً عن المنزل. . . كنت في

إثره تماماً. كنت متوتراً وكانت أصابعي ترتجف. كنت جاهزاً... مستعداً... منتظراً.

توقف إدوارد من غير إنذار واستدار فواجهني. صعقني تعبير وجهه من جديد.

للحظة قصيرة... كنت مجرد طفل... طفل عاش حياته كلها في بلدة صغيرة واحدة. مجرد طفل لأنني أعرف أن علي أن أعيش زمناً طويلاً جداً... أن أعاني كثيراً جداً... حتى أفهم ذلك العذاب الحارق في عيني إدوارد.

رفع كفه كما لو أنه يريد مسح العرق عن وجهه لكن أصابعه بدت كأنها تحاول اقتلاع جلد وجهه الحجري. كانت عيناه السوداوان تحترقان في محجريهما... زائغتين... لعلهما تريان أشياء ما كانت موجودة هناك! انفتح فمه كأنه موشك على الصراخ... لكن صوته لم يخرج منهما.

لابد أن وجه شخص تشتعل فيه النار فوق المحرقة يكون هكذا... مثل وجهه.

مرت لحظة دون أن أتمكن من الكلام. كان هذا حقيقياً جداً. بدا هذا الوجه... الذي رأيت ظلاً منه داخل المنزل... رأيته في عينيها وعينيه... أما الآن فقد صار نهائياً... مؤكداً. إنه آخر مسمار في نعشها.

«إنه يقتلها... صحيح! إنها تموت»... عندما قلت هذا عرفت أن وجهي صار صدى لوجهه، لكنه صدى أضعف... صدى مختلف... لأنني مازلت في حالة صدمة. لم يكن رأسي قد استوعب الأمر حتى الآن... الأمور تجري بسرعة كبيرة! لقد كان لدى إدوارد وقت كاف ليصل إلى هذه النقطة. كان الأمر مختلفاً بالنسبة لي لأنني فقدتها مرات كثيرة من قبل... بطرق كثيرة... في أفكاري. وكان مختلفاً أيضاً لأنها لم تكن لي في يوم من الأيام.

وكان مختلفاً أيضاً لأن الذنب ليس ذنبي أنا.

همس إدوارد: «إنه ذنبي!» ثم تهاوت ركبتاه. هوى على الأرض

أمامي... ضعيفاً... هشاً... أسهل هدف يمكن أن أتخيله.

لكني أحسست أنني بارد مثل الثلج... ما عادت النار تشتعل في داخلي.

قال وهو على التراب... كما لو أنه يعترف للأرض: «نعم... نعم!... إنه يقتلها».

أزعجني عجزه... كنت أريد منازلته لا إعدامه! أين هو تفوقه المتكبر الآن؟

قلت مزمجراً: «لماذا لا يفعل كارلايل شيئاً؟ إنه طبيب! فليخرجه من جسمها».

نظر إلي إدوارد وأجابني بصوت مرهق... كما لو أنه يشرح هذا الأمر للمرة العاشرة لطفل صغير: «إنها لا تسمح لنا بذلك!»

لم أستوعب تلك الكلمات إلا بعد دقيقة كاملة. يا للقرف! إنها تفعل ذلك. نعم... طبعاً... تموت من أجل طفل هذا الوحش. هكذا هي بيلا فعلاً!

همس إدوارد: «أنت تعرفها جيداً... ما أسرع فهمك لها... أنا لم أفهم ذلك... ليس في الوقت المناسب. لقد رفضت التحدث معي في طريق عودتنا. ظننت أنها خائفة... خوفها أمر طبيعي. ظننت أنها غاضبة مني لأنني كنت سبباً في هذا... سبباً في تعريض حياتها للخطر... من جديد! لكني لم أتخيل أبداً ما كانت تفكر فيه... ما كانت عاقدة العزم عليه. لم أفهم حتى استقبلتنا أسرتي في المطار فارتمت بيلا بين ذراعي روزالي. تصور!... روزالي! عند ذلك سمعت أفكار روزالي. لم أفهم الأمر حتى سمعت أفكارها. أما أنت... فقد فهمت الأمر كله في ثانية واحدة...» صدر عنه صوت... صوت بين التنهد والأنين.

«انتظر لحظة... هي... هي لا تسمح لكم!»... كان صوتي محملاً بسخرية لاذعة... «هل سبق لك ملاحظة أن قوتها لا تزيد عن قوة فتاة بشرية وزنها 55 كغ؟ ما أغباكم يا مصاصي الدماء! أمسكوها جيداً وأعطوها حقنة مخدرة».

همس إدوارد: «أردت أن أفعل هذا... كان كارلايل سوف...»

ماذا!... ما أنبلهم!

«لا!... ليس هذا نبلاً... لقد عقّدت حارستها الوضع».

أوه! لم يكن لقصته معنى من قبل. لكنها صارت منسجمة الآن. هذا ما تقوم به الشقراء إذن! لماذا تفعل ذلك؟ هل تلك الجميلة راغبة في موت بيلا إلى هذا الحد؟

قال إدوارد: «ربما!... لكن روزالي لا تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة تماماً».

«عليكم إذن التخلص من الشقراء أولاً. يمكن إصلاح وضعها فيما بعد... أليس كذلك؟ أو تحايلوا عليها... وبعد ذلك تدبروا أمر بيلا».

«إن إيميت وإيزمي يساندانها الآن. لن يسمح لنا إيميت بذلك أبداً... ولن يساعدني كارلايل ضد إيزمي...» سكت إدوارد واختفى صوته.

«كان عليك أن تترك بيلا معي».

«نعم!»

لكن أوان هذا الكلام قد فات الآن... لعله كان عليه أن يفكر في هذا كله قبل أن يزرع فيها ذلك الوحش الذي يمتص حياتها.

راح إدوارد يحدق فيّ من داخل جحيمه... رأيت أنه يوافقني الرأي.

قال إدوارد بصوت هادئ جداً: «لم نكن نعرف!... لم يخطر لي هذا حتى في أحلامي... لم تمر من قبل حالة مثل حالتي أنا وبيلا. كيف نعرف أن امرأة بشرية يمكن أن تحمل من واحد منا؟...»

«في حين يمكن أن تتمزق المرأة في هذه العملية!»

قال بهمس متوتر: «نعم!... إنهم موجودون... أولئك الساديون... الشياطين الشريرة التي تغتصب النساء... والشيطانات مغتصبات الرجال. إنهم موجودون... لكن الإغواء لا يكون إلا مقدمة للوليمة... لا يبقى أحد من الضحايا حياً بعد ذلك»... هز رأسه كأن الفكرة تفزعه... كأنه مختلف عنهم!

قلت بقرف: «لم أكن أدرك وجود اسم خاص لكم أنتم!»

نظر إلي بوجه بدا عمره ألف عام: «حتى أنت... يا جايكوب بلاك... لا تستطيع أن تكرهني بقدر ما أكره نفسي».

قلت في نفسي... «أنت مخطئ!»... لكنني كنت أكثر غضباً من أن أستطيع الكلام.

قال بهدوء: «إن قتلي الآن لا ينقذها».

«فما الذي ينقذها إذن؟»

«جايكوب... عليك أن تفعل شيئاً... من أجلي».

«لن أفعل شيئاً من أجلك أيها الطفيلي».

ظل يحدق فيّ بتلك العينين المتعبتين... المجنونتين: «من أجلها!»

شددت على أسناني بقوة: «لقد فعلت كل شيء استطعته حتى أبعدها عنك. كل شيء... تأخر الوقت الآن!»

«أنت تعرفها يا جايكوب. أنت تتواصل معها على مستوى لا أستطع فهمه. أنت جزء منها وهي جزء منك. إنها لا تصغي إليّ لأنها تعتقد أنني أقلل من شأنها... من شأن قوتها. تظن أن قوتها كافية من أجل هذا الأمر...» اختنق إدوارد بكلماته ثم ابتلع غصته... «لعلها تصغي إليك».

«ولماذا تصغي إلي؟»

نهض إدوارد واقفاً... كانت عيناه تحترقان أكثر من ذي قبل... أكثر جنوناً. لعله قد جن حقاً! هل يفقد مصاصو الدماء عقولهم؟

ردّ إدوارد على أفكاري: «ربما! لا أدري! يبدو أنني جننت»... هز إدوارد رأسه... «يجب أن أحاول إخفاء هذا أمامها لأن التوتر يزيد مرضها. لا تستطيع أن تتحمل المزيد. عليّ أن أتمالك نفسي... لا أستطيع جعل الأمور أكثر صعوبة عليها. لكن، لا أهمية للأمر الآن. عليها أن تصغي إليك».

«ليس لدي شيء أقوله لها لم تقله أنت من قبل. ما الذي تريد مني فعله؟

هل أقول لها إنها حمقاء؟ الأرجح أنها تدرك ذلك! هل أقول لها إنها موشكة على الموت؟ أراهن أنها تعرف ذلك أيضاً».

«أنت تستطيع أن تقدم لها ما تريده».

كانت جملته عديمة المعنى... هل هذا جزء من جنونه؟

قال إدوارد وقد صحا فجأة: «لا أبالي بشيء إلا بأن تظل بيلا حية. إذا كانت تريد طفلاً فلها ذلك! يمكنها أن تحصل على عدة أطفال... على أي شيء تريده»... سكت لحظة... «لها أن تحصل على جراء... إذا تطلب الأمر ذلك».

حدق إدوارد في عيني لحظة... كان وجهه أكثر جنوناً تحت تلك الطبقة الرقيقة من ضبط النفس. تراخت نظراتي الحادة عندما فهمت كلماته... وأحسست بفمي ينفتح دهشة.

«لكن... ليس بهذه الطريقة!» هكذا همس قبل أن أفلح في استجماع نفسي... «ليس هذا الشيء الذي في بطنها... الذي يمتص حياتها في حين أقف أنا غير قادر على فعل شيء... أقف لأراها تذوي وتموت... لأراه يؤذيها!»... عبّ نفساً عميقاً كما لو أن أحداً لكمه في بطنه... «عليك أن تجعلها تعود إلى عقلها يا جايكوب. لم تعد بيلا تصغي إليّ... تكون روزالي بجانبها دائماً... تغذي جنونها... وتشجعها... وتحميها... لا... تحميه هو! لا معنى لحياة بيلا في نظرها».

كان الصوت الذي خرج من حنجرتي مثل صوت من يختنق... ما الذي يقوله إدوارد؟ هل يقول إن على بيلا... ماذا؟ هل يقول إن عليها أن تلد طفلاً؟ مني أنا؟ ماذا؟ كيف؟ هل يهبني إياها؟ أم لعله يظن أنها تقبل أن نتقاسمها؟

«أي شيء! أي شيء يبقيها حية»

دمدمت: «هذا أكثر جنوناً مما سمعته في حياتي كلها».

«إنها تحبك!»

«لا يكفي».

«إنها مستعدة لأن تموت من أجل طفل. لعلها تقبل شيئاً أقل خطراً».

«ألا تعرفها على الإطلاق؟»

«أعرف! أعرف! يتطلب هذا قدراً كبيراً من الإقناع. هذا ما يجعلني في حاجة إليك! أنت تعرف طريقة تفكيرها... اجعلها تفكر بعقلها».

لم أستطع التفكير في اقتراحه. كان هذا كثيراً جداً... مستحيلاً... خاطئاً... مريضاً. هل أستعير بيلا في عطلة نهاية الأسبوع ثم أعيدها صباح الاثنين مثل فيلم مستأجر؟ هذا فظيع!

هذا مغر جداً!

لم أرد التفكير في الأمر... لم أرد أن أتخيله... لكن الصور جاءت إلى ذهني من تلقاء ذاتها. لقد فكرت في بيلا بتلك الطريقة مرات كثيرة... في الماضي... عندما كنت ما أزال أرى فرصة لأن نكون معاً... ثم بعد ذلك بزمن طويل اتضح لي أن نتيجة هذه الأفكار لن تكون إلا قروحاً مؤلمة في نفسي لأن الفرصة معدومة تماماً. لم أكن أستطيع مساعدة نفسي في ذلك الوقت... ولست أستطيع إيقاف نفسي الآن... بيلا بين ذراعي... بيلا تهمس باسمي...

بل أسوأ من هذا... هذه الصورة الجديدة التي لم تخطر في بالي من قبل... التي ما كان يجب أن توجد بالنسبة لي... ليس بعد! صورة أعرف أنها ما كانت لتخطر لي على بال قبل سنوات لو لم يقذفها في رأسي الآن. لكنها علقت هناك... داخل رأسي... راحت تنسج شباكها في عقلي كما تفعل عشبة خبيثة سامة... غير قاتلة. بيلا... معافاة... متألقة... مختلفة تماماً عما هي الآن... لكنها كما هي الآن بطريقة من الطرق: جسدها... غير مشوه... بل متبدل على نحو طبيعي... متكور... يحمل طفلي أنا!

حاولت الهروب من تلك العشبة السامة في ذهني: «كيف أجعل بيلا تفكر بعقلها؟ في أي عالم تعيش أنت؟»

«حاول على الأقل».

هززت رأسي سريعاً. انتظرني إدوارد متجاهلاً إجابتي السلبية لأنه كان قادراً على سماع ما يضطرب في رأسي.

«من أين يأتي هذا الهراء المختل نفسياً؟ هل يحدث هذا معك كثيراً؟»

«منذ أدركت ما تعتزم بيلا فعله صرت لا أفكر في شيء إلا في كيفية إنقاذ حياتها. منذ عرفت ما الذي تريد أن تموت من أجله! لكنني لم أكن أعرف كيف أصل إليك. أعرف أنك لم تكن لتصغي إذا اتصلت معك. كنت على وشك المجيء إليك لو أنك لم تأت اليوم. إن حالتها... تتبدل بسرعة كبيرة. إن ذلك الشيء... ينمو... بسرعة... لا أستطيع تركها الآن».

«ما هو ذلك الشيء؟»

«لا أحد يعرف! لكنه أقوى منها... منذ الآن».

عند ذلك فهمت الأمر فجأة... رأيت في ذهني ذلك الوحش المتنامي... يمزقها من الداخل... ليخرج منها.

همس إدوارد: «ساعدني في إيقاف ذلك... ساعدني في منعه من الحدوث».

«كيف؟ بأن أعرض عليها خدماتي الجنسية؟»... لم يجفل إدوارد عندما قلت تلك الكلمة... لكنني أجفلت... «أنت مريض فعلاً... لن تصغي بيلا إلى هذا أبداً».

«حاول! لن نخسر شيئاً. كم سيكون هذا مؤلماً؟»

سيؤلمني أنا!... ألم أتلق منها ما يكفي من الرفض... حتى من غير هذا الأمر؟

«بعض الألم من أجل إنقاذ حياتها! هل هذا ثمن مرتفع جداً!»

«لكن الأمر لن ينجح».

«قد لا ينجح... لكن... لعله يربكها قليلاً... لعله يزعزع تصميمها قليلاً... لا نحتاج إلا إلى لحظة من الشك».

«وعند ذلك تسحب البساط من تحت عرضك!... كنا نمزح فقط يا بيلا!»

«إذا كانت تريد طفلاً... فلها ذلك. لن أتراجع!»

لم أستطع تصديق أنني أفكر في الأمر. سوف تضربني بيلا... لست أبالي بهذا، لكن قد تكسر يدها من جديد! ما كان علي أن أسمح له بالحديث معي... بالعبث بعقلي. علي أن أقتله الآن.

همس إدوارد: «ليس الآن! ليس بعد. سواء كنت محقاً أو غير محق... فسوف يحطمها قتلي... وأنت تدرك ذلك. لا حاجة للتسرع. إذا لم تصغ إليك فسوف تحظى بفرصتك. عندما يتوقف قلب بيلا عن الخفقان سأتوسل إليك حتى تقتلني».

«لن تكون في حاجة إلى كثير من التوسل!»

ظهر ظل ابتسامة تحذير على زاوية فمه: «أنا أعتمد على هذا كثيراً».

«اتفقنا إذن!»

أومأ برأسه ومد يده الحجرية الباردة.

ابتلعت قرفي ومددت يدي فصافحته. أطبقت أصابعي على يده الحجرية... هززتها مرة واحدة.

قال إدوارد موافقاً: «اتفقنا».

10

لماذا لم أذهب فوراً؟ نعم... لأنني أحمق

أحسست أنني مثل... مثل... لست أعرف مثل ماذا! أحسست أن هذا لم يكن حقيقياً. أحسست أنه نسخة متخلفة من كوميديا رديئة. فبدلاً من أن أكون طالباً منطوياً يهم بدعوة أجمل فتيات المدرسة إلى حفلة التخرج صرت فجأة مستذئباً بائساً يهم بأن يطلب من زوجة مصاص الدماء أن تساكنه حتى يتناسلا! شيء لطيف!

لا... لن أفعل ذلك. هذا شيء مريض... خاطئ. سوف أنسى كل ما قاله إدوارد.

لكني سأتكلم معها. سأحاول جعلها تصغي إلي... لكنها لن تصغي... كما هو الأمر دائماً.

لم يعلق إدوارد على أفكاري هذه عندما كان يسير أمامي صوب المنزل. تساءلت عن المكان الذي اختار التوقف عنده من أجل حديثنا هذا. هل هو بعيد عن المنزل إلى حد يجعل بقية مصاصي الدماء غير قادرين على سماع حديثنا؟ هل كان هذا ما يريده؟

ربما!... عندما دخلنا من الباب، كانت نظرات أفراد أسرة كولن تنبئ بالحيرة والشك. لم يظهر على أي منهم أي غضب أو قرف. لابد أنهم لم يسمعوا ما طلبه إدوارد مني.

ترددت عند الباب المفتوح... ما كنت واثقاً مما يجب أن أفعله الآن. الوضع أفضل هنا حيث أقف... فهنا يدخل بعض الهواء النظيف من الخارج.

سار إدوارد حتى صار في وسط المجموعة... كان كتفاه متيبسين. راحت بيلا تراقبه قلقة ثم انتقلت نظراتها إليّ عدة ثوان، ثم عادت تنظر إليه من جديد.

صار وجهها الآن شاحباً... رمادياً. أفهم الآن معنى ما قاله إدوارد من أن التوتر يجعلها أسوأ حالاً.

قال إدوارد: «سوف نترك جايكوب وبيلا يتحدثان على انفراد». ما كان في صوته أي لين أو حياة... كان آلياً.

همست روزالي: «فوق جثتي!»... كانت ما تزال عند رأس بيلا... وكان أحد كفيها الباردين مستقراً على خد بيلا المصفر.

لم ينظر إدوارد إليها، لكنه قال بتلك النبرة الميتة نفسها: «بيلا!... جايكوب يريد التحدث معك. أتخشين البقاء معه وحدك؟»

نظرت بيلا إليّ بحيرة. ثم نظرت إلى روزالي: «لا بأس يا روز! لن يؤذينا جايكوب. اذهبي مع إدوارد».

قالت الشقراء محذرة: «لعلها خدعة!»

قالت بيلا: «لا... ليست خدعة».

قال إدوارد: «سنظل أنا وكارلايل تحت أنظارك»... كان صوته الخالي من التعبير متكسراً يوحي بالغضب الذي فيه... «نحن من تخشاهما بيلا الآن».

همست بيلا: «لا!»... كانت عيناها تبرقان... وكانت رموشهما مبللة... «لا يا إدوارد. أنا لست...»

هز إدوارد رأسه مبتسماً قليلاً. كان النظر إلى ابتسامته مؤلماً: «ليس هذا قصدي يا بيلا... أنا بخير! لا تقلقي من أجلي».

أمر يثير الغثيان! إنه محق... إنها تلوم نفسها على إيذاء مشاعره. الفتاة مثال حي على الشهيد التقليدي. لقد خلقت في غير زمانها تماماً. كان ينبغي

أن تعيش في الماضي حيث يمكنها أن تجعل نفسها طعاماً للأسود من أجل قضية عادلة!

قال إدوارد: «الجميع!... وأشارت يده المتيبسة باتجاه الباب... «أرجوكم!»

كان ضبط النفس الذي يحافظ عليه من أجل بيلا موشكاً على التهاوي. كنت أرى كم هو قريب الآن من ذلك الرجل المحترق الذي رأيته في الخارج قبل قليل. رأى الآخرون ذلك أيضاً فتحركوا بصمت خارجين من الباب... أما أنا فابتعدت مفسحاً لهم طريقاً. كانوا يتحركون بسرعة الآن. لم يقتض الأمر إلا نبضتين من قلبي حتى خلت الغرفة من الجميع... إلا روزالي التي ظلت تقف مترددة في وسط الغرفة... وإدوارد الذي ظل منتظراً عند الباب.

قالت بيلا بصوت هادئ: «روز!... أريد أن تذهبي».

نظرت الشقراء إلى إدوارد ثم أشارت إليه بأن يخرج قبلها. خرج إدوارد فقذفتني بنظرة تحذيرية طويلة ثم اختفت خارجة من الباب بدورها.

صرنا وحدنا الآن... مضيت لأجلس على الأرض قرب بيلا. أمسكت بيديها الباردتين ورحت أدلكهما حذراً.

«شكراً يا جايكوب... هذا شعور لطيف».

«لن أكذب عليك يا بيلا... منظرك فظيع».

تنهدت: «أعرف هذا... منظري مخيف!»

قلت موافقاً: «بل هو مرعب».

ضحكت بيلا: «حسن جداً أن تكون هنا... معي!... لطيف أن ابتسم... لست أعرف كم أستطيع المضي في تحمل هذا الجو المأساوي».

نظرت إليها مدهوشاً.

قالت موافقة: «طيب! طيب... أنا من جلبت هذا لنفسي».

«نعم... أنت! بم تفكرين يا بيلا؟ أسألك بشكل جدي!»

«هل طلب منك أن توبخني؟»

«شيء من هذا القبيل. لكنني لا أعرف ما الذي يجعله يعتقد أنك يمكن أن تصغي إلى كلامي. لم يحصل أن أصغيتِ إلى كلامي يوماً!»

تنهدت بيلا.

بدأت أقول: «لقد قلت لك...».

سألتني مقاطعة: «هل تعرف أن لعبارة.. قلت لك.. أختاً؟... اسمها.. اخرس!»

ابتسمت بيلا لي. شدت الابتسامة جلد وجهها فوق عظامها... «لم أخترع هذا من عندي... لقد سمعته في مسلسل أسرة سمبسون!»

«لم أشاهده».

«كان مضحكاً».

صمتنا دقيقة كاملة. بدأ الدفء يدب في كفيها.

«هل طلب منك فعلاً أن تتحدث معي؟»

أومأت برأسي: «طلب مني أن أجعلك تفكرين بعقلك. إنها معركة خاسرة... حتى قبل أن تبدأ».

«لماذا وافقته إذن؟»

لم أجبها. لم أكن واثقاً من أنني أعرف الإجابة.

كنت أعرف هذا... كل ثانية أمضيها معها ستزيد من الألم الذي سأعانيه فيما بعد. كنت مثل مدمن مخدرات ليس لديه إلا القليل منها... كان يوم العذاب يقترب مني. كلما تناولت المزيد الآن كلما سيكون الوضع أصعب عندما ينفذ مخزوني.

قالت بعد لحظة من الصمت: «سوف ينجح الأمر... أنت تعرف هذا!... أؤمن بهذا!»

جعلتني كلماتها أرى الغرفة حمراء من جديد فقلت بحدة: «هل الخرف من أعراض حالتك هذه؟»

ضحكت بيلا رغم أن غضبي كان حقيقياً إلى حد جعل كفيّ ترتعدان حول كفيها.

قالت: «ربما! لست أقول إن الأمر سهل يا جايكوب. لكن... كيف بقيت على قيد الحياة رغم كل ما مررت به؟ وكيف لا أؤمن الآن بالسحر؟»

«السحر!»

«بالنسبة لك خاصة». كانت تبتسم... سحبت إحدى يديها من بين يدي وضغطت بها على صدري. كانت أكثر دفئاً من ذي قبل، لكنها بدت باردة بالمقارنة مع جلدي... كما تبدو معظم الأشياء... «أنت... أكثر من أي شخص آخر... لديك سحر ينتظر حتى يجعل الأمور أسهل بالنسبة لي».

«ما هذا الكلام الفارغ؟»

مازالت تبتسم: «قال إدوارد لي ذات مرة كيف كان ذلك... كيف ستقع في الحب. قال إن الأمر مثل حلم ليلة صيف... مثل السحر. ستجد من تبحث عنها حقاً يا جايكوب... وعند ذلك قد يصبح لهذا كله معنى».

لو لم تكن تبدو بتلك الهشاشة لصرخت غاضباً.

لكني زمجرت في وجهها فعلاً: «إذا كنت تظنين أن الحب من أول نظرة يمكن أن يجعل لهذا الجنون معنى...» رحت أبحث عن الكلمات... «فهل تعتقدين حقاً أن احتمال وقوعي في حب امرأة غريبة من النظرة الأولى سيجعل الأمر صحيحاً؟ أشرت بإصبعي إلى بطنها المنتفخ... «قولي لي إذن معنى ذلك يا بيلا! ما معنى حبي لك؟ وما معنى حبك له؟... عندما تموتين»... «كيف يكون هذا صحيحاً؟ ما الغاية من هذا الألم كله؟ ألمي... ألمك... ألمه! سوف تقتليه أيضاً. لست أبالي بأن يقتل»... انكمشت بيلا على نفسها قليلاً لكني واصلت الكلام... «ما المغزى إذن في قصة حبك الغريبة... ما الهدف في النهاية؟ إذا كان لهذا كله أي معنى فأرجو أن تشرحيه لي يا بيلا... لأنني لا أراه!»

تنهدت بيلا: «لست أعرف حتى الآن يا جايكوب. لكني... أشعر...

أن هذا كله يسير في الاتجاه الصحيح... في اتجاه نهاية حسنة يصعب أن تراها من هذه النقطة. أظن أن من الممكن أن ندعو هذا إيماناً».

«أنت تموتين من أجل لا شيء يا بيلا... لا شيء!»

سقطت يدها من وجهي إلى بطنها المنتفخ فداعبته. ما كانت في حاجة إلى الكلمات حتى أفهم قصدها... إنها تموت من أجله!

قالت عبر أسنانها المطبقة... أحسست أنها تقول شيئاً قالته كثيراً من قبل: «لن أموت! سوف أحافظ على نبض قلبي. لدي قوة كافية من أجل ذلك».

«هذا كلام فارغ يا بيلا! مضى عليك زمن طويل جداً وأنت تحاولين التعايش مع أشياء خارقة للطبيعة. لا يستطيع شخص طبيعي أن يفعل هذا. ليست لديك القوة الكافية!»... أمسكت وجهها بين كفيّ. ما كنت مضطراً إلى تذكير نفسي بضرورة التأني في حركاتي. كان كل شيء فيها يصرخ بالهشاشة وسرعة العطب.

قالت: «أستطيع أن أفعل هذا... أستطيع أن أفعل هذا!»... بدت مثل طفل يؤكد أمراً يعرف أنه مستحيل.

«لا تنظري إليّ بهذه الطريقة. ما هي خطتك إذن؟ آمل أن تكون لديك خطة!»

أومأت برأسها دون أن تنظر في عيني: «هل تعرف أن إيزمي ألقت بنفسها في هاوية؟ أقصد... عندما كانت بشرية».

«ما معنى هذا؟»

«جعلها ذلك على شفير الموت فلم يهتموا حتى بأخذها إلى غرفة الإسعاف... لقد أخذوها إلى مستودع الجثث رأساً. كان نبض قلبها مستمراً عندما وجدها كارلايل....»

هذا ما كانت تقصده بأنها ستحافظ على نبض قلبها!

قلت ببلادة: «أنت إذن لا تعتزمين تحمل هذا كله مع بقائك بشرية!»

«لا! لست غبية»... قالت هذا وواجهت نظراتي... «أعتقد أن لديك رأياً في هذه النقطة رغم ذلك».

غمغمت قائلاً: «تحويلك إسعافياً إلى مصاص الدماء!»

«نجح هذا الأمر في حالة إيزمي... وإيميت... وروزالي... بل حتى في حالة إدوارد. لم يكن أحد منهم في وضع جيد. لم يقدم كارلايل على تحويلهم إلا عندما ما عاد لديهم خيار غير التحول أو الموت. إنه لا ينهي حياة أحد... بل هو ينقذها».

أحسست بوخزة ذنب مفاجئة إزاء ذلك الطبيب... مصاص الدماء الطيب... مثلما أحسست من قبل. أبعدت تلك الفكرة عن رأسي وعدت إلى بداية حديثنا.

«استمعي إلي يا بيلا! لا تفعلي الأمر بهذه الطريقة»... كما حدث من قبل عندما جاءت تلك المكالمة من كارلايل، استطعت رؤية مدى أهمية الأمر بالنسبة لي. أدركت كم أريد أن تظل حية... بأي شكل كان. استنشقت نفساً عميقاً وقلت: «لا تنتظري حتى يصبح الوقت متأخراً كثيراً يا بيلا. ليس بهذه الطريقة. عليك أن تعيشي! عيشي فقط! لا تفعلي هذا بي... لا تفعلي هذا به». صار صوتي أكثر ارتفاعاً... أكثر قسوة: «تعرفين ما الذي سيفعله إدوارد عندما تموتين. لقد رأيت ذلك من قبل. هل تريدين أن يعود من جديد إلى هؤلاء القتلة الإيطاليين؟»... انكمشت بيلا في الأريكة.

سألتها محاولاً أن أجعل صوتي أكثر رقة: «هل تذكرين عندما حطمني هؤلاء المواليد الجدد؟ هل تذكرين ما قلته لي؟»

انتظرت... لكنها لم تجبني بل شدت على شفتيها.

قلت أذكرها: «طلبتِ مني أن أكون حسن السلوك وأن أصغي إلى كلام كارلايل. فما الذي فعلته أنا؟ لقد أصغيت إلى كلام مصاص الدماء... من أجلك أنت».

«لقد أصغيت لأن ذلك هو التصرف الصحيح».

«لا بأس!... اختاري السبب الذي يعجبك».

استنشقت بيلا نفساً عميقاً: «لكنه ليس بالتصرف الصحيح الآن». استقرت

نظراتها على بطنها المنتفخ وهمست بصوت منخفض: «لن أقتله».

ارتعش كفاي من جديد: «أوه! لم أسمع الأخبار السارة من قبل... إنه صبي... هاه!... كان يجب أن أحضر بعض البالونات الزرقاء».

احمرّ وجهها... كان ذلك اللون جميلاً جداً... لقد طعنني كما لو أنه سكين في بطني. سكين صدئة مثلمة ذات أسنان...

سوف أفشل... من جديد.

اعترفت بصوت خجول: «لست أعرف أنه صبي. لن تفلح الأمواج فوق الصوتية في معرفة ذلك لأن الغشاء المحيط به قاس جداً... مثل جلودهم. لذلك، مازال الأمر غامضاً. لكني أرى دائماً صبياً في أحلامي».

«لكنه ليس طفلاً جميلاً يا بيلا».

قالت: «سوف ترى!»

قلت بحدة: «أما أنت فلن تري ذلك».

«أنت متشائم جداً يا جايكوب. ثمة بالتأكيد فرصة لأن أخرج سليمة من هذه الحالة».

لم أستطع الإجابة. أطرقت برأسي وتنفست بعمق محاولاً ضبط غضبي.

قالت وهي تمسد شعري وتداعب وجنتي: «جايكوب! سيمر الأمر بخير... شششش... لا بأس!»

لم أرفع رأسي: «لا! لن يمر الأمر بخير».

مسحت بيلا شيئاً رطباً عن خدي وقالت: «شششش!»

قلت وأنا أنظر إلى السجادة البيضاء. كانت أقدامي العارية قد خلفت عليها آثاراً: «ماذا بك يا بيلا؟ ظننت أنك تريدين حبيبك مصاص الدماء أكثر من أي شيء آخر في العالم. أما الآن فأنت تتخلين عنه! ليس هذا منطقياً. متى صرت متحمسة لأن تصبحي أماً؟ إذا كنت تريدين الأمومة إلى هذا الحد فلماذا تزوجت مصاص دماء؟»

صرت الآن قريباً إلى حد خطير من ذلك العرض الذي طلب مني إدوارد

طرحه عليها. كنت أرى كلماتي تأخذني في ذلك الاتجاه... وما كنت أستطيع تغيير اتجاهها.

تنهدت: «ليس الأمر هكذا! لم أكن مهتمة حقاً بأن يكون لدي طفل. بل لم أفكر في الأمر أصلاً. ليست المسألة مسألة الحصول على طفل... إنه... هذا الطفل تحديداً».

«إنه قاتل يا بيلا! انظري إلى نفسك».

«ليس قاتلاً! المشكلة عندي أنا... أنا ضعيفة... بشرية. لكني أستطيع تحمل هذا يا جايكوب... أستطيع...».

«كفي عن هذا يا بيلا! تستطيعين خداع مصاص الدماء، لكنك لا تستطيعين خداعي. نعرف كلانا أنك لن تفلحي في ذلك».

نظرت بيلا إلي بحدة: «لست أعرف ذلك! مع أن الأمر يقلقني طبعاً».

كررت كلمتها عبر أسناني المطبقة: «يقلقني طبعاً!»

زفرت بيلا متألمة وأمسكت ببطنها. تلاشى غضبي كما لو أنه ضوء انطفأ فجأة.

قالت لاهثة: «أنا بخير... هذا لا شيء!»

لكني لم أسمعها. كانت يداها قد أزاحتا قميصها جانباً فحدقت في بطنها مذعوراً. كانت لطخات بنفسجية سوداء كبيرة تملأه كله.

رأت بيلا نظرتي فأعادت قميصها إلى مكانه. وقالت بصوت دفاعي: «إنه قوي... هذا كل ما في الأمر».

كانت تلك اللطخات كدمات انتشرت على بطنها كله.

كدت أتقيأ... فهمت عند ذلك ما قصده إدوارد عندما تحدث عن مراقبته وهو يؤذيها. فجأة... شعرت بالجنون أنا أيضاً... قلت: «بيلا!»

لمست بيلا التغير في صوتي. نظرت إليّ... مازال تنفسها ثقيلاً... كانت الحيرة في عينيها.

«لا تفعلي هذا يا بيلا».

«جايكوب...»

«استمعي إليّ! لا تديري ظهرك! استمعي فقط. ماذا لو...؟»

«ماذا لو... ماذا؟»

«ماذا لو كان الأمر يمكن أن يجري بغير هذه الطريقة؟ ماذا لو كان الأمر ليس كل شيء أو لا شيء؟ ماذا لو أصغيت إلى كلام كارلايل وكنت فتاة طيبة وحافظت على حياتك؟»

«لن أفعل ذلك...»

«لم أنه كلامي بعد. إذا بقيت حية فبوسعك أن تبدئي من جديد. لم تنجحي هذه المرة... حاولي مرة ثانية».

عبست بيلا. رفعت يدها ولمست جبهتي... تماماً حيث انعقد حاجباي. راحت أصابعها تداعب جبهتي ريثما تستوعب معنى كلامي.

«لست أفهم... ما قصدك بأن أحاول من جديد؟ لا أحسبك تظن أن إدوارد سيتركني...! وما الفرق عند ذلك؟ لابد أن أي جنين...»

قلت بحدة: «نعم! أي جنين منه سيكون مثل هذا».

صار وجهها المتعب أكثر حيرة: «ماذا؟»

لكني ما عدت أستطيع أن أقول شيئاً. لا جدوى من هذا. لن أستطيع إنقاذها من نفسها. لم أفلح في هذا من قبل.

عند ذلك رفّت عيناها... رأيت أنها فهمت.

«أوه! أوه يا جايكوب! أرجوك... هل تظن أن علي أن أقتل طفلي ثم أضع مكانه شيئاً آخر؟ طفل أنبوب!»... صارت غاضبة جداً الآن... «ما الذي يجعلني أرغب في طفل شخص غريب؟ لا فرق... أي طفل يمكن أن يفي بالغرض!»

قلت: «لم أقصد ذلك... ليس شخصاً غريباً!»

انحنت بيلا صوبي: «ما الذي تقوله إذن؟»

«لا شيء. لست أقول شيئاً... مثلما هو شأني دائماً».

«ومن أين أتيت بهذا؟»

«انسَ الأمر يا بيلا!»

عبست بيلا وقد استبدت بها الشكوك: «هل طلب منك أن تقول لي هذا الكلام؟»

ترددت وقد فوجئت بأنها انتقلت هذه النقلة بتلك السرعة: «لا!»

«لقد طلب منك ذلك!»

«لا! لم يقل شيئاً عن طفل الأنبوب!»

رق وجهها عند ذلك واستندت إلى وسائدها من جديد وقد بدا عليها الإرهاق. وعندما تكلمت كانت تنظر جانبياً كأنها لم تكن تحدثني أنا على الإطلاق: «سيفعل أي شيء من أجلي. إني أسبب له ألماً كبيراً. . . لكن، ما الذي يفكر فيه؟ هل يظن أنني أتخلى عن هذا». . . امتدت يدها إلى بطنها. . . «مقابل طفل شخص غريب». قالت تلك الكلمات الأخيرة ثم رفض صوتها الاستمرار. . . امتلأت عيناها بالدموع.

همست لها: «لست مضطرة لأن تسببي له الألم». كان التوسل من أجله سماً في فمي، لكني كنت أعرف أن هذا الطريق قد يكون أفضل طريق للحفاظ على حياتها. لكن الفرص لا تتعدى الواحد مقابل ألف. . . «تستطيعين إسعاده من جديد يا بيلا. وأنا أظن فعلاً أنه فقد السعادة. أظن أنه فقدها حقاً».

بدا أنها غير مصغية إليّ. كانت يدها ترسم دوائر صغيرة فوق كدمات بطنها. . . وتعض على شفتيها.

خيم الهدوء زمناً طويلاً. تساءلت إن كان أفراد أسرة كولن بعيدين جداً عن المنزل. هل كانوا يصغون إلى محاولاتي البائسة من أجل إقناعها؟

«ليس شخصاً غريباً!» هكذا تمتمت بيلا فارتعدت. . . سألتني بصوت منخفض: «ما الذي قاله لك إدوارد بالضبط؟»

«لا شيء! لقد توقع أن تصغي إلي. هذا كل شيء».

«لا أقصد هذا. ما الذي قاله عن المحاولة من جديد؟»

أمسكت نظرتها عيني فأدركت أنني قلت أكثر مما ينبغي أن أقول.

«لا شيء!»

انفتح فمها قليلاً: «واو!»

ساد الصمت لحظات قليلة. نظرت إلى قدمي من جديد. . . ما كنت قادراً على مواجهة تحديقها.

همست: «إنه مستعد فعلاً لأن يفعل أي شيء. أليس كذلك؟»

«قلت لك إنه قد جن. بالمعنى الحرفي يا بيلا!»

«أستغرب أنك لم تبلغ عنه فوراً. . . أنك لم تجعله يقع في المتاعب».

عندما رفعت رأسي رأيتها تبتسم.

«لقد فكرت في الأمر». . . حاولت أن أبتسم لها لكن الابتسامة التصقت بفمي.

لقد فهمت العرض ولم تكن مستعدة للتفكير فيه. عرفت منذ البداية أنها لن تقبل التفكير فيه. لكنه مازال يلسعني!

همست بيلا: «وأنت أيضاً. . . ما من شيء لا تفعله من أجلي! لست أعرف سبب اهتمامكما. لست أستحق أياً منكما».

«لا أهمية لهذا! أليس كذلك؟»

تنهدت بيلا: «ليس في هذه المرة! أتمنى لو كنت قادرة على شرح الأمر لك الآن حتى تتمكن من الفهم. لا أستطيع إيذاءه». . . قالت هذا مشيرة إلى بطنها. . . «ليست قدرتي على إيذائه بأكثر من قدرتي على حمل بندقية وإطلاق النار عليك. . . أنا أحبه».

«ما الذي يجعلك دائماً تحبين الأشياء المؤذية يا بيلا؟»

«لا أعتقد أنني أفعل ذلك».

تنحنحت حتى أزيل الغصة التي في حلقي لأستطيع أن أجعل صوتي قاسياً كما أردت: «ثقي بي».

بدأت أنهض واقفاً.

«إلى أين أنت ذاهب؟»

«ليس وجودي هنا مفيداً».

رفعت يدها النحيلة متوسلة: «لا تذهب!»

كنت أستطيع الإحساس بذلك الإدمان يمسك بي محاولاً إرغامي على البقاء قريباً منها.

«لست أنتمي إلى هذا المكان... عليّ العودة».

سألتني وهي ما تزال مادة يدها الواهنة: «لماذا أتيت اليوم؟»

«أتيت لأرى إن كنت حية فعلاً. لم أصدق أنك مريضة كما قال كارلايل».

لم أستطع أن أعرف من وجهها إن كانت تصدق كلامي أم لا.

«هل ستأتي مرة ثانية؟ قبل...»

«لن أظل هنا حتى أراك تموتين يا بيلا!»

ارتعدت بيلا: «أنت محق... أنت محق! عليك أن تذهب».

توجهت صوب الباب.

همست بيلا من خلفي: «مع السلامة... أحبك يا جايكوب».

كدت أعود إليها. كدت أستدير وأسقط على ركبتي من جديد متوسلاً إليها. لكنني فهمت أن علي أن أتركها قبل أن تقتلني... مثلما هي ماضية إلى قتله.

غمغمت أثناء خروجي: «طبعاً! طبعاً!»

لم أر أحداً من مصاصي الدماء في الخارج. تجاهلت وجود دراجتي الواقفة وحدها في وسط المرج. ليست الدراجة سريعة بالقدر الكافي الآن. لابد أن والدي قد أصيب بالذعر... وسام أيضاً. لا أدري ماذا ستفعل جماعتي عندما تدرك أنني لم أعد؟ هل ستظن أن أسرة كولن أوقعت بي قبل أن تتاح لي أي فرصة؟ خلعت ملابسي غير عابئ بمن يمكن أن يراني... ثم بدأت الجري. ورحت أجري بأسرع ما تجري الذئاب.

كانوا ينتظرون... طبعاً كانوا ينتظرون!

هتفت ثمانية أصوات براحة ظاهرة: «جايكوب... جايكوب!»

«تعال إلى البيت الآن!» جاءني صوت الزعيم آمراً. كان سام شديد الغضب.

شعرت بخوف بول... وعرفت أن بيلي وريتشل ينتظران الآن ليعرفا ما حدث لي. كان بول شديد الحرص على إخبارهما بعودتي وبأن مصاصي الدماء لم يقتلوني فلم يطق الانتظار حتى يسمع القصة كلها.

ما كنت في حاجة إلى إخبار القطيع بأني في طريق العودة... كانوا يستطيعون رؤية الغابة تطير في ملاقاتي أثناء اندفاعي صوب بيتي. ما كنت في حاجة إلى إخبارهم بأني قد جننت أيضاً. كان الدوار في رأسي واضحاً لهم.

رأوا جميع الأهوال... بطن بيلا المنتفخ... وصوتها المتكسر: «إنه قوي... هذا كل ما في الأمر»... ووجه إدوارد المعذب: «مراقبتها تتعذب وتذوي... ورؤيته وهو يؤذيها»... وروزالي الجاثمة فوق جسد بيلا العاجز: «لا تعني حياة بيلا شيئاً في نظرها»... وفجأة... ما عاد لدى أحد منهم ما يقوله.

كانت صدمتهم صيحة صمت في رأسي... من غير كلمات!!!

صرت في منتصف طريق عودتي قبل أن يخرج أحد منهم من صدمته. ثم اندفعوا جميعاً لملاقاتي.

حل الظلام تقريباً... غطت الغيوم مغرب الشمس تماماً. غامرت بالاندفاع عبر الطريق السريع دون أن يراني أحد.

التقينا قبل نحو عشرة أميال من لابوش... في فسحة خلفها المحتطبون في الغابة. كانت تلك الفسحة خارج الطريق مزروعة بين مرتفعين جبليين حيث لا يمكن لأحد أن يرانا. وجد بول القطيع عندما وجدته... هكذا صار القطيع كاملاً.

كان ضجيج أصواتهم في رأسي فوضى مطبقة... كان الجميع يصيحون معاً!

كان شعر سام منتصباً. كان يزمجر زمجرة متواصلة وهو يسير جيئة وذهاباً عند رأس الحلقة. كان بول وجارد يسيران خلفه مثل ظله. . . وكانت آذانهما ملتصقة بجوانب رأسيهما. كانت الحلقة كلها مهتاجة. . . كان الجميع على أقدامهم يزمجرون بصوت منخفض.

لم يكن غضبهم محدداً في البداية. . . ظننت أنهم غاضبون مني. لكني ما كنت في حالة تسمح لي بأن أكترث لغضبهم. لهم أن يفعلوا بي ما يريدون بسبب عصياني أوامر سام.

لكن تلك الأفكار المضطربة المشوشة بدأت تتضح في ذهني:

«كيف يمكن هذا؟ ما معنى هذا؟ وما سوف يكون؟»

«هذا غير مأمون. . . غير صحيح. . . خطير!»

«غير طبيعي. . . فظيع. . . سيئ جداً!»

«لا نستطيع السماح به!»

كان أفراد القطيع يسيرون متوافقين الآن. . . يفكرون متوافقين. . . كلهم. . . إلا أنا وواحد غيري. جلست بجانب ذلك الأخ. . . لا أدري من يكون. . . كان في رأسي دوار جعل عيني وذهني غير قادرين على تمييزه. . . راح القطيع يدور من حولنا. . .

«المعاهدة لا تشمل هذا الأمر».

«هذا يعرض الجميع للخطر»

حاولت أن أفهم هذه الأصوات المدومة. . . حاولت متابعة الدرب المتعرج الذي رسمته أفكارهم لأرى أين يؤدي، لكني لم أفهم شيئاً. كانت الصور التي في مركز أفكارهم كلهم هي الصور التي في رأسي أنا. . . أسوأ هذه الصور. كدمات بيلا. . . ووجه إدوارد المحترق بالألم.

«إنهم يخشونه أيضاً»

«لكنهم لن يفعلوا شيئاً»

«يحمون بيلا سوان»

«سلامة عائلاتنا. . . سلامة كل واحد منا. . . أهم من بشري واحد»

«إذا لم يقتلوه فعلينا أن نقتله بأنفسنا»

«علينا حماية العشيرة»

«علينا حماية عائلاتنا»

«علينا أن نقتله قبل أن يفوت الأوان»

ثم جاءت من ذاكرتي كلمات إدوارد: «إن هذا الشيء ينمو. . . بسرعة». حاولت التركيز بأقصى ما أستطيع. . . حاولت التقاط أصوات كل منهم:

فكر جارد: *«لا نستطيع إضاعة الوقت»*.

قال إمبري محذراً: «هذا يعني قتالاً. . . قتالاً عنيفاً».

أصر بول: «نحن مستعدون».

فكر سام: «نحن في حاجة إلى عنصر المفاجأة»

فكر جارد. . . بدأ يضع الخطة الآن: «إذا تمكنا من الإمساك بهم مشتتين فسوف نستطيع إنهاءهم فرداً فرداً. سوف يزيد هذا من فرصتنا في الانتصار عليهم»

هززت رأسي ناهضاً على قدمي ببطء. شعرت بعدم التوازن. . . كما لو أن دوران الذئاب من حولي أصابني بالدوار. نهض الذئب الذي بجانبي أيضاً. احتك كتفه بكتفي فدفعني إلى الأعلى.

فكرت: «مهلاً!»

توقف دوران الذئاب لحظة واحدة. . . ثم عادوا يدورون من جديد.

قال سام: «الوقت ضيق».

«لكن. . . ما الذي تفكر فيه؟ أنت لن تهاجمهم هذا المساء بسبب خرق المعاهدة. أنت تخطط الآن لإيقاعهم في كمين. . . لكن المعاهدة لم تخرق بعد!»

قال سام: «لم تتنبأ معاهدتنا بهذا الأمر! هذا خطر على كل بشري في المنطقة كلها. لا تعرف ما نوع هذا المخلوق الذي تصنعه أسرة كولن؛ لكننا

نعرف أنه قوي وسريع النمو. وسوف يكون صغيراً إلى حد يجعله لا يلتزم بأي معاهدة. تذكر مصاصي الدماء المولودين حديثاً الذين قاتلناهم! كانوا متوحشين... عنيفين... خارج كل منطق أو ضبط. تخيل واحداً مثلهم، لكنه يحظى بحماية أسرة كولن».

حاولت مقاطعته: «لسنا على يقين!»

قال موافقاً: «لسنا على يقين! لكننا لا نستطيع المغامرة مع المجهول في هذه الحالة. لا نستطيع السماح لأسرة كولن بالوجود إلا عندما نكون واثقين ثقة مطلقة في قدرتنا على الركون إليهم وإلى أنهم لا يسببون أي ضرر. أما هذا... الشيء... فلا يمكننا الثقة فيه».

«إنهم لا يحبونه. تماماً مثلما لا نحبه!»

استحضر سام من رأسي صورة روزالي... وضعيتها الدفاعية... ثم عرضها أمام الجميع.

«بعضهم مستعد للقتال دفاعاً عنه... مهما تكن طبيعته».

«إنه مجرد طفل صغير لا يستدعي هذا كله!»

همست ليا: «ليس لوقت طويل».

قال كويل: «جايكوب... يا صاحبي... هذه مشكلة كبيرة لا نستطيع تجاهلها».

قلت مجادلاً: «أنتم تجعلون منها مشكلة أكبر مما هي في الواقع. الشخص الوحيد المعرض للخطر هو بيلا».

قال سام: «لكن هذا خيارها. وخيارها هذه المرة يؤثر علينا كلنا».

«لا أعتقد هذا».

«لا نستطيع قبول هذه المغامرة. لن نسمح لمصاص دماء أن يصطاد في أرضنا».

قال الذئب الذي مازال يؤيدني... إنه سيث... طبعاً: «قولوا لهم إذن أن يرحلوا!»

«هل نجعل الآخرين معرضين لهذا الخطر؟ عندما يأتي مصاصو دماء إلى أرضنا نقتلهم... بصرف النظر عما إذا كانوا يعتزمون الصيد فيها. إننا نحمي كل من نستطيع حمايته».

قلت: «هذا جنون! بعد الظهر كنت تخشى تعريض القطيع إلى الخطر».

«لم أكن أعرف بعد الظهر أن عائلاتنا في خطر».

«لا أستطيع تصديق هذا! كيف يمكنك قتل ذلك المخلوق دون أن تقتل بيلا؟»

ما من كلمات... لكن الصمت الذي ساد كان محملاً بالمعاني.

صحت: *«إنها بشرية أيضاً! ألا تسري حمايتنا عليها؟»*

فكرت ليا: «إنها تموت على أي حال... لن نقوم إلا باختصار احتضارها».

هكذا انتهى الأمر! قفزت مبتعداً عن سيث متوجهاً إلى أخته مكشراً عن أنيابي. كنت على وشك الإمساك بساقها الخلفية اليسرى عندما شعرت بأسنان سام في خاصرتي... تجرني إلى الخلف.

صحت متألماً... غاضباً... واستدرت إليه.

«توقف!»

... هكذا أمرني سام مستخدماً صوت الزعيم.

أحسست أن ساقي تتهاويان من تحتي. توقفت... لم أتمكن من البقاء واقفاً على قدمي إلا بقوة الإرادة وحدها.

أشاح سام بنظره عني...

«لا تكوني قاسية معه يا ليا. إن التضحية ببيلا ثمن باهظ... هذا ما نعرفه كلنا. إن قتل بشري يخالف كل مبادئنا. وسوف يكون السماح بهذا الاستثناء من القاعدة أمراً مشؤوماً. سوف نحزن كلنا كثيراً بسبب ما نحن مقدمون على فعله الليلة».

كرر سيث كلمته مصدوماً: «الليلة!... أظن يا سام أن علينا التحدث في

هذا الأمر أكثر مما فعلنا. علينا استشارة الكبار على الأقل. لا يمكن أن تكون جاداً في أن تفعل...»

«لا نستطيع تحمل تسامحك مع أسرة كولن الآن. لا وقت للمناقشة والجدل. سوف تفعل ما آمرك به يا سيث».

انطوت ركبتا قائمتي سيث الأماميتين وطأطأ رأسه تحت وطأة أمر الزعيم.

راح سام يدور في حلقة ضيقة حولنا... نحن الاثنين.

«نحن في حاجة إلى القطيع كله من أجل هذا. جايكوب... أنت أقوى مقاتلينا. سوف تقاتل معنا اليوم. أفهم صعوبة هذا بالنسبة لك... لذلك سوف تركز على أقوى مقاتليهم... على إيميت وجاسبر. لا داعي لأن تشارك في... الجزء الآخر. سوف يقاتل معك كويل وإمبري».

ارتجفت قوائمي... جاهدت حتى أظل واقفاً في حين راح صوت الزعيم يسوط إرادتي بعنف.

«بول وجارد وأنا سوف نتولى إدوارد وروزالي. حسب المعلومات التي جاء بها جايكوب سيقوم هذان الاثنان على حراسة بيلا. سوف يكون كارلايل وأليس قريبين أيضاً... وربما إيزمي! سوف يركز على هؤلاء كل من برادي وكولن وسيث وليا، من تسنح له فرصة الوصول إلى... المخلوق...»

سمعناه كلنا يتردد في ذهنه حتى لا يفكر في اسم بيلا... *«فسوف يتولى أمره. قتل ذلك المخلوق هو هدفنا الأول».*

صدرت موافقة متوترة عن أفراد القطيع. جعل التوتر شعرهم كلهم منتصباً بشدة. صارت الحركة أسرع... وصار صوت قوائمهم على الأرض القاسية أكثر حدة... كانت مخالبهم تنغرس في التراب.

وحدنا... أنا وسيث... بقينا ساكنين. كنا في مركز ذلك الإعصار من الأنياب العارية والآذان المتوترة. كان أنف سيث يمس الأرض تقريباً تحت وطأة أوامر سام. أحسست بألمه بسبب ما سيحدث. كان هذا بالنسبة له خيانة... فخلال ذلك اليوم الواحد من التحالف... عندما قاتل إلى

جانب إدوارد كولن... صار سيث صديقاً حقيقياً لمصاص الدماء.

لكنه ما كان يبدي أي مقاومة. سوف يطيع الأوامر مهما تكن مؤلمة له. ليس لديه خيار آخر!

وأنا... ما الخيارات التي لدي؟ عندما يتحدث الزعيم... يطيعه القطيع كله.

لم يسبق لسام أن مارس سلطته بهذه القوة من قبل. كنت أعرف أنه يمقت فعلاً رؤية سيث راكعاً أمامه كما يركع عبد عند أقدام سيده. ما كان ليرغمه على ذلك لو رأى أي خيار آخر. ما كان قادراً على خداعنا ونحن متصلون ذهنياً بهذه الطريقة. إنه يرى حقاً أن من واجبنا أن نقتل بيلا والوحش الذي تحمله في بطنها. كان يرى حقاً أننا لا نستطيع تضييع الوقت. كان مؤمناً بهذا كله إلى حد جعله مستعداً للموت من أجله.

رأيت أنه سوف يواجه إدوارد بنفسه. كانت قدرة إدوارد على قراءة الأفكار تجعل سام يراه الخطر الأكبر. لن يترك سام أحداً غيره يواجه ذلك الخطر.

كان سام يرى في جاسبر الخصم الثاني بعد إدوارد. وهذا ما جعله يكلفني بقتاله. كان يعرف أن فرصتي في التغلب عليه أكبر من فرصة غيري. وقد ترك أسهل الأهداف للذئاب الصغيرة ومعها ليا. لم تكن أليس الصغيرة مصدر خطر من غير رؤيتها المستقبلية. وقد عرفنا خلال فترة تحالفنا أن إيزمي ليست مقاتلة. لن يكون كارلايل هدفاً سهلاً، لكن كرهه للعنف سوف يقيّد حركته.

شعرت بالغثيان... أكثر من سيث... وأنا أراقب سام يخطط للمعركة محاولاً منح كل فرد من أفراد القطيع فرصة البقاء على قيد الحياة.

كان كل شيء مقلوباً رأساً على عقب. فقد كنت مصراً بعد الظهر على مهاجمتهم. لكن سيث كان محقاً... ما كنت مستعداً لذلك القتال. لقد أعماني ذلك الكره. لم أترك لنفسي فرصة النظر في الأمر ملياً لأنني كنت أعرف ما الذي سأراه.

كارلايل كولن! إن النظر إليه من غير ذلك الكره الذي يعمي بصيرتي

يجعلني أعترف بأن قتله جريمة. إنه طيب! طيب مثل أي بشري ممن نحميهم. . . بل لعله أفضل منهم! والآخرون أيضاً. . . كما أعتقد. . . لكن شعوري نحوهم لم يكن بتلك القوة. لم أكن أعرفهم أيضاً. كارلايل هو الذي سيكره مواجهتنا ورد ضرباتنا. . . حتى من أجل إنقاذ حياته. هذا ما سيجعلنا قادرين على قتله. . . لأنه لن يكون راغباً في قتلنا. . . مع أننا أعداؤه.

كان هذا كله خاطئاً.

لست أقول هذا لمجرد شعوري بأن قتل بيلا هو قتلي أنا. . . شيء مثل الانتحار!

أمرني سام: «تمالك نفسك يا جايكوب! . . . العشيرة أولاً!»

«لقد اعتبرتني مخطئاً اليوم يا سام».

«كانت أسبابك خاطئة عند ذلك. أما الآن فعلينا واجب لابد من القيام به».

قلت: «لا!»

زمجر سام وتوقف أمامي. حدق في عيني وانسابت من بين أسنانه زمجرة عميقة.

لقد أعطى الزعيم أوامره. كان صوته الآمر محملاً بقوة سلطانه

«بل نعم! لن أسمح بأي ثغرة اليوم. سوف تقاتل أسرة كولن معنا يا جايكوب. أنت مع كويل وإمبري سوف تهتمون بجاسبر وإيميت. أنت ملزم بحماية العشيرة. هذا سبب وجودك. وسوف تؤدي واجبك».

انكمش كتفي تحت ثقل هذا الأمر. تهاوت قوائمي. . . صرت منبطحاً على الأرض. . . تحته.

لا يستطيع أحد من أفراد القطيع عصيان أمر الزعيم.

11

أمران اثنان على رأس قائمة الأشياء التي لا أريد أن أفعلها أبداً

بدأ سام يرتب تشكيل الهجوم ويضع كل واحد في موقعه. . . أما أنا فما زلت منبطحاً على الأرض. كان إمبري وكويل يحيطان بي من الجانبين منتظرين أن أستجمع نفسي وأحتل مركزي.

كنت أشعر بدافع. . . بحاجة. . . لأن أنهض على أقدامي وأقودهم. ازداد هذا الدافع. . . رحت أقاومه من غير طائل. . . لكنني بقيت منبطحاً على الأرض.

أطلق إمبري صوتاً متوسلاً هادئاً في أذني. لم يكن يريد أن يسمح للكلمات أن تتشكل في ذهنه خشية أن يعود سام إلى التركيز علي من جديد. أحسست أنه يتوسل إلي أن أنهض. . . أن أنتهي من هذا الأمر.

كان لدى أفراد القطيع خوف. . . لا على أنفسهم بل على المجموع. لم نكن نستطيع تخيل أننا سنعود اليوم أحياء جميعاً. أي أخ يمكن أن نفقده؟ أي ذهن سيغادرنا اليوم. . . إلى الأبد؟ وأي أسرة تُنزل بها الفاجعة سنذهب لمواساتها في الصباح؟

بدأ ذهني يعمل مع أذهانهم. . . يفكر متحداً معهم عندما رحنا جميعاً

نفكر في هذه المخاوف. وبشكل تلقائي... نهضت من الأرض وهززت فرائي.

تنفس إمبري وكويل الصعداء. لمس كويل خاصرتي بأنفه لمسة خفيفة.

كانت أذهانهم مملوءة بالتحدي... بالمهمة... مهمتنا. تَذَكَّرنا الليالي التي كنا نراقب فيها أفراد أسرة كولن يتدربون من أجل المعركة مع مصاصي الدماء المولودين حديثاً. كان إيميت هو الأقوى... لكن جاسبر هو المشكلة الأكبر. إنه يتحرك مثل صاعقة... القوة والسرعة والموت متحدين معاً. كم قرناً من الخبرة لديه؟ إن لديه من الخبرة ما يكفي لأن يجعل أفراد أسرة كولن كلهم يطلبون مشورته.

«سوف أكون في المقدمة إذا كنت تفضل البقاء في الخلف»

هكذا قال كويل... كانت الإثارة في ذهنه أكبر مما لدى الآخرين كلهم. عندما كان كويل يراقب تعليمات جاسبر في تلك الليالي... كان يموت رغبة في اختبار مهاراته في مواجهة مهارات مصاص الدماء. ستكون هذه المعركة مباراة بالنسبة له. هكذا كان يراها حتى لو كانت حياته على المحك. هكذا كان بول أيضاً... وبقية الصغار الذين لم يسبق لهم خوض معركة من قبل... كولن وبرادي. لكن الأرجح أن سيث ما كان ليتعامل مع الأمر مثلهم... لو لم يكن الخصوم أصدقاءه.

لكزني كويل: «جايكوب! ما المركز الذي تريد احتلاله؟»

اكتفيت بهز رأسي. ما كنت قادراً على التركيز... كان ذلك الدافع من أجل طاعة الأوامر مثل خيوط تحريك الدمى... مربوطة إلى عضلاتي. قدم إلى الأمام... ثم الأخرى...

راح سيث يجرجر نفسه خلف كولن وبرادي. وكانت ليا قد احتلت مركزها. لقد تجاهلت سيث أثناء تخطيطها مع الآخرين. كنت قادراً على رؤية أنها تفضل تركه خارج المعركة. إن لديها شعور أمومي نحو سيث... فهو شقيقها الأصغر. كانت تتمنى أن يرسله سام إلى المنزل. لكن سيث ما كان منتبهاً إلى

[illegible] ليا... كان يحاول التأقلم مع الخيوط التي تحركه... هو أيضاً.

همس إمبري: «لو توقفت عن المقاومة... فربما... ركز على دورك فقط. عليك التعامل مع الكبار. نحن قادرون على هزيمتهم... إنهم في يدنا!»... كان كويل يشجع نفسه... مثل الكلام الحماسي بين اللاعبين قبل المباريات الكبرى.

أدركت كم سيكون الأمر سهلاً لو لم أفكر إلا في دوري. ليس من الصعب أن أتخيل مهاجمة جاسبر وإيميت. لقد اقتربنا من هذا القتال فيما مضى. لقد فكرت فيهم باعتبارهم أعداء لفترة طويلة جداً. أستطيع أن أفعل هذا من جديد... الآن.

لكن... كان علي نسيان أنهم يحمون ما أود حمايته أنا أيضاً. كان علي نسيان السبب الذي يجعلني راغباً في فوزهم...

حذرني إمبري: «جايكوب! لا تخرج عن الجماعة»

تحركت قوائمي بتثاقل... تحركت بسبب تلك الخيوط التي تشدها.

همس إمبري من جديد: «لا فائدة من المقاومة!»

لقد كان محقاً. سوف ينتهي بي الأمر إلى تنفيذ ما يريده سام... إن كان راغباً في مواصلة الأمر. من الواضح أنه راغب في ذلك!

ثمة سبب وجيه لسلطة الزعيم. فحتى قطيع قوي مثل قطيعنا لا يمكن أن يكون قوة كبيرة من غير قائد. علينا أن نتحرك معاً... أن نفكر معاً... حتى تكون قوتنا فعالة. وهذا ما يجعل الجسم في حاجة إلى رأس.

لكن... ماذا لو كان سام مخطئاً الآن؟ لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. لا أحد يستطيع معارضة قراره.

إلا...!

هذه هي!... فكرة لم أكن أريد أبداً... أبداً... أن تخطر ببالي. أما الآن... مع تلك الخيوط التي تحرك قوائمي... فقد عرفت ذلك الاستثناء بارتياح كبير... بأكثر من الارتياح... بفرحة عارمة.

«لا أحد يستطيع معارضة قرار الزعيم... إلا أنا!

لم يأتني شيء عن طريق الاكتساب! بل ثمة أشياء ولدت معي... أشياء لم أزعمها من قبل.

لم أرغب يوماً في قيادة القطيع. ولست أرغب في قيادته الآن. لا أريد حمل مسؤولية أقدارنا جميعاً على كاهلي! سام أفضل مني في هذا الأمر.

لكنه مخطئ الليلة!

وأنا لم أولد لكي أركع أمامه.

سقطت تلك القيود عن جسدي في اللحظة التي تذكرت فيها حقي المكتسب بالولادة.

شعرت بشيء يتجمع في داخلي... حرية... وقوة غريبة... فارغة! فارغة لأن قوة الزعيم تأتي من القطيع... أما أنا فليس لدي قطيع... غمرني إحساسي بالوحدة!

ليس لدي قطيع الآن!

لكنني مضيت مباشرة... بقوة... إلى حيث يقف سام... إلى حيث يخطط مع بول وجارد. التفت عندما سمع صوت تقدمي... ضاقت عيناه السوداوان.

قلت له من جديد

«*لا!*»

لقد سمع ذلك منذ اللحظة الأولى... سمع الخيار الذي اتخذته في صوت الزعيم الذي عبرت فيه عن أفكاري.

قفز نصف خطوة إلى الخلف تحت وقع المفاجأة.

«*جايكوب! ماذا فعلت؟!*»

«لن أسير خلفك يا سام! لن أسير خلفك في أمر خاطئ إلى هذه الدرجة!»

حدق بي... بدهشة: «أنت... أنت تفضل أعداءك على أسرتك!»

هززت رأسي: «*ليسوا أعدائي... ليسوا أعداءنا. لم يسبق أن كانوا أعدا*

أنا. لم أر ذلك إلى أن فكرت فعلاً في القضاء عليهم... إلى أن فكرت في الأمر!»

زمجر سام: «الأمر لا يتعلق بهم. إنه يتعلق ببيلا! لم تكن بيلا لك في يوم من الأيام... لم تخترك أبداً... لكنك تواصل إفساد حياتك من أجلها!»

كانت كلماته قاسية... لكنها صحيحة. عببت جرعة كبيرة من الهواء.

«*لعلك محق! لكنك سوف تدمر هذا القطيع من أجلها يا سام. لا أعرف كم واحداً منهم سيبقى على قيد الحياة اليوم... لكنهم سيسعون إلى قتلنا دائماً*».

«علينا أن نحمي عائلاتنا».

«أعرف قرارك يا سام. لكنه لا يسري عليّ أنا. ليس بعد الآن!»

«جايكوب... لا تستطيع أن تدير ظهرك لعشيرتك!»

سمعت صوت الزعيم الآمر. لكنه كان عديم الوزن هذه المرة. لم يعد له أثر عليّ. صرّ سام على أسنانه محاولاً إجباري على الاستجابة لكلماته.

حدقت في عينيه الغاضبتين: «*لم يولد ابن بيلي بلاك ليتبع ابن ليفي يولي!*»

«هذا هو الأمر إذن يا جايكوب بلاك!»... انتصب شعره وكشر عن أسنانه.

زمجر بول وجارد الواقفان إلى جانبيه...

«*حتى لو استطعت هزيمتي... فلن يتبعك هذا القطيع!*»

قفزت إلى الخلف مجفلاً... خرجت صرخة مبهوتة من حنجرتي.

«*هزيمتك!... لن أقاتلك يا سام*».

«ما الذي تريد فعله إذن؟ لن أتنحى جانباً وأتركك تحمي نسل مصاص الدماء على حساب العشيرة».

«لم أطلب منك التنحي».

«إذا أمرتهم أن يتبعوك فسوف...»

«*لن أقدم أبداً على سلب إرادة أي منهم*».

راح ذيله يهتز إلى الأمام والخلف لشدة انزعاجه من الحكم الذي حملته

كلماتي. ثم تقدم خطوة إلى الأمام حتى تقابل وجهانا... صارت أسنانه المكشوفة على مسافة أصابع من أسناني. لم أنتبه إلا في هذه اللحظة إلى أنني صرت أطول منه.

«لا يمكن أن يوجد إلا زعيم واحد! لقد اختارني القطيع. هل ستقسم القطيع في هذه الليلة؟ هل ستعادي إخوانك؟ أم أنك ستكف عن هذا الجنون وتنضم إلينا من جديد؟»

... كانت قوة آمرة تأتي مع كل كلمة من كلماته... لكنها لم تستطع أن تلمسني. كان دم الزعماء الصافي يجري في عروقي.

أستطيع أن أرى الآن مبرر عدم وجود أكثر من زعيم ذكر واحد في القطيع. كان جسدي يستجيب لذلك التحدي. شعرت بالغريزة التي تدفعني إلى القتال من أجل الزعامة... توتر ذلك الدافع الذئبي استعداداً للمعركة من أجل التفوق والسلطة.

وركزت طاقتي كلها حتى أضبط رد فعلي. لن أتورط في قتال مدمر عديم الجدوى مع سام. إنه أخي... حتى عندما أخالفه.

«ثمة زعيم واحد لهذا القطيع! لست أعترض على هذا. لكنني أختار الذهاب في سبيلي!»

«هل تنتمي الآن إلى مصاصي الدماء يا جايكوب؟»

انكمشت لهذا السؤال.

«لا أعرف يا سام! لكنني أعرف أن...»

انكمش سام وتراجع تحت وطأة نبرة الزعامة في صوتي. كان تأثيرها عليه أكثر من تأثير نبرته عليّ أنا. هذا لأنني ولدت لأقوده.

«... سوف أقف بينكم وبين أسرة كولن. لن أكتفي بالمشاهدة عندما يقوم القطيع بقتل ناس أبرياء...» كان صعباً إطلاق تلك الصفة على مصاصي الدماء... لكنه كان صحيحاً أيضاً... *«قطيعنا أفضل من أن يفعل ذلك. قدهم في الاتجاه الصحيح يا سام».*

أدرت ظهري إليه فشق الصمت من حولي عواء جماعي.

غرست مخالبي في الأرض ثم اندفعت أجري بعيداً عن ذلك الصخب المحتج الذي تسببت في إثارته. ما كان لدي وقت كثير. على الأقل... لا يستطيع أحد منهم أن يسبقني... إلا ليا... لكنني اندفعت قبلها.

خفت صوت العواء مع تزايد المسافة... لكنني ظللت أسمعه يعكر هدوء الليل... كنت مرتاحاً لأنهم لم يلحقوا بي.

كان علي تحذير أسرة كولن قبل أن يتمكن القطيع من إيقافي. إذا كانت أسرة كولن مستعدة... فلعل هذا يجبر سام على إعادة التفكير قبل فوات الأوان. اندفعت إلى الأمام صوب ذلك البيت الأبيض الذي مازلت أكرهه... اندفعت تاركاً بيتي من خلفي. بيتٌ ما عاد ينتمي إليّ بعد الآن. لقد أدرت ظهري له.

لقد بدأ هذا اليوم مثل أي يوم آخر. عدت من دوريتي الليلية إلى البيت عند الفجر الماطر... تناولت إفطاري مع بيلي وريتشل... وشاهدت برنامجاً تافهاً في التلفزيون... ثم خضت ذلك الجدل السخيف مع بول... كيف تغير الأمر إلى هذا الحد... كيف صار سريالياً إلى هذه الدرجة؟ كيف اضطرب كل شيء واعوجّ حتى صرت هنا الآن... وحدي... زعيماً من غير قصد... منقطعاً عن إخواني... مفضلاً مصاصي الدماء عليهم؟

قطع أفكاري المضطربة ذلك الصوت الذي كنت أخشى سماعه... صوت قوائم ذئب كبيرة تضرب الأرض مسرعة من خلفي. زدت اندفاعي إلى الأمام مندفعاً عبر الغابة السوداء. كان علي أن أصل إلى مقربة من المنزل حتى يتمكن إدوارد من سماع التحذير في رأسي. لن تتمكن ليا من إيقافي وحدها!

عند ذلك التقطت ما يدور في ذهن ذلك الذي يجري من خلفي. إنه لا يلاحقني... إنه يتبعني!

خففت سرعتي... تعثرت قليلاً ثم استقرت خطواتي من جديد.

«تمهل! قوائمي أقصر من قوائمك».

«سيث! ما الذي تظن أنك تفعله؟ اذهب إلى البيت».

لم يجبني لكني شعرت بمدى استثارته وهو يجري خلفي مباشرة. كنت أستطيع رؤية ما بذهنه مثلما يستطيع رؤية ما بذهني. كان مشهد الليل كالحاً في نظري . . . مليئاً باليأس. أما في نظره هو . . . فكان كله أمل.

لم أدرك أن سرعتي تتراجع، لكني رأيته فجأة بجانبي . . . كان يجري معي تماماً.

«لست أمزح يا سيث! مكانك ليس هنا. اذهب من هنا!»

قال ذلك الذئب النحيل: «أنا معك يا جايكوب . . . أظن أنك محق! لن أقف خلف سام عندما . . .»

«بل ستقف خلف سام! عد إلى لابوش وافعل ما يقوله لك سام».

«لا!»

«اذهب يا سيث».

«هل هذا أمر يا جايكوب؟»

أيقظني سؤاله. توقفت فحفرت مخالبي أثلاماً في الأرض.

«لست آمر أحداً بأن يفعل أي شيء! أنا أقول لك ما تعرفه مسبقاً».

أقعى سيث على قائمتيه بجانبي: «سأقول لك ما أعرفه . . . أعرف أن الهدوء قد ساد. ألم تلاحظ هذا؟»

فتحت عيني مذهولاً. اهتز ذيلي بعصبية عندما أدركت ما الذي يفكر فيه سيث خلف تلك الكلمات. لم يكن الهدوء سائداً بمعنى واحد فقط. مازال عواء الذئاب يملأ الهواء . . . بعيداً إلى الغرب.

قال سيث: «لم يتراجعوا!»

كنت أعرف هذا. سيكون القطيع في غاية الحذر الآن. لابد أنهم يستخدمون التواصل الذهني لدراسة جميع جوانب الأمر. لكني لم أكن قادراً على الإصغاء إلى أفكارهم. أستطيع سماع سيث فقط . . . لا أحد غيره.

«يبدو لي أن القطعان المختلفة لا تستطيع التواصل ذهنياً. أليس كذلك؟ لا أظن أن آباءنا قد سنحت لهم فرصة معرفة ذلك بسبب عدم وجود قطعان مختلفة من قبل. لم يكن يوجد من الذئاب عدد يكفي قطيعين. واو! يا للهدوء! إنه مخيف بعض الشيء. لكنه لطيف أيضاً . . . ألا تظن هذا؟ أعتقد أن الأمر كان أسهل بالنسبة لبيلي وكويل وليفي. يكون الضجيج قليلاً في حالة ثلاثة ذئاب فقط . . . أو اثنين».

«اخرس يا سيث!»

«حاضر يا سيدي».

«كف عن هذا! لا يوجد قطيعان. لدينا قطيع واحد فقط . . . وأنا! هذا كل شيء. لذلك تستطيع الذهاب إلى البيت الآن».

«إذا لم يوجد قطيعان فلماذا يستطيع واحدنا سماع الآخر ولا يستطيع سماع البقية؟ أعتقد أن إدارة ظهرك لسام كانت حركة هامة تماماً. كانت تغييراً. وعندما تبعتك . . . أظن أن هذا كان هاماً أيضاً».

قلت معترفاً: «معك حق في هذه النقطة. لكن ما يمكن أن يتغير مرة يمكن أن يتغير مرة أخرى فيعود كما كان».

وقف سيث وبدأ يجري نحو الشرق: «لا وقت للجدل في هذا الأمر الآن. علينا أن نتحرك قبل أن يتمكن سام . . .»

كان محقاً في هذا. لا وقت لدينا للجدل. بدأت أجري من جديد لكني لم أجر بكامل سرعتي. ظل سيث في أعقابي محتلاً مكانه التقليدي إلى جانبي . . . متأخراً عني قليلاً.

فكر سيث خافضاً رأسه قليلاً: «أستطيع الجري إلى مكان آخر! أنا لا أتبعك لأنني أبحث عن ترقية».

«اجر حيث شئت. لا فارق عندي!»

لم أسمع صوت أحد يلاحقنا. لكننا زدنا سرعتنا قليلاً في وقت واحد. كنت قلقاً الآن. إذا كنت غير قادر على الإصغاء إلى أفكار بقية أفراد القطيع

فسوف يصبح الأمر أكثر صعوبة. لن يكون لدي إنذار مسبق بالهجوم أكثر مما لدى أسرة كولن.

قال سيث مقترحاً: «سوف نقوم بدوريات».

«وماذا نفعل إذا تحدانا القطيع؟ هل نهاجم إخواننا؟ هل تهاجم أختك؟»

«لا! . . . نطلق إنذاراً ثم نتراجع».

«إجابة جيدة! لكن، ماذا بعد ذلك؟ لا أظن. . .»

قال موافقاً. . . لكنه صار أقل ثقة الآن: «أعرف! لست أظن أنني قادر على مقاتلتهم. لكنهم لن يكونوا سعداء بفكرة مهاجمتنا. . . ستكون مشاعرهم مثل مشاعرنا. لعل هذا كاف لإيقافهم! كما أن عددهم صار ثمانية فقط الآن».

«لا تكن. . .» لم أستطع العثور على الكلمة المناسبة إلا بعد دقيقة. . . «متفائلاً! تفاؤلك يثير أعصابي».

«لا مشكلة! هل تريدني أن أكون متشائماً أم تريد أن أسكت؟»

«اسكت فقط!»

«أستطيع فعل ذلك».

«حقاً! لا يبدو عليك هذا».

هدأ سيث وصمت أخيراً.

عند ذلك وصلنا إلى الطريق فعبرناه ومضينا عبر الغابة المحيطة بمنزل أسرة كولن. هل يستطيع إدوارد سماعنا من هذه المسافة.

«لعل علينا أن نفكر في شيء من قبيل: لقد أتينا مسالمين».

«فليكن ذلك».

«إدوارد!». . . نطق سيث اسم إدوارد بصوت غير واثق. . . «إدوارد! هل أنت هناك؟. . . أوه. . . أشعر أنني أحمق!»

«أنت تبدو أحمق فعلاً».

«أتظن أنه يستطيع سماعنا؟»

صرنا على مسافة كيلومتر واحد تقريباً. . .

«أعتقد ذلك. . . إدوارد! هل تستطيع سماعي. . . عليكم الاستعداد يا مصاصي الدماء. . . أنتم واقعون في مشكلة».

صحح سيث كلامي: «نحن واقعون في مشكلة».

عند ذلك خرجنا من بين الأشجار فصرنا في المرج الكبير. كان البيت مظلماً. لكنه ما كان خالياً. رأيت إدوارد واقفاً في المدخل بين إيميت وجاسبر. كان لونهم أبيض مثل الثلج في ذلك الضوء الشاحب.

«جايكوب! سيث! ما الذي يجري؟»

أبطأت قليلاً. ثم تراجعت عدة خطوات. كان الرائحة حادة جداً عبر هذا الأنف. . . أحسست أنها تحرقني. تردد سيث قليلاً ثم تراجع مثلي.

حتى أجيب على سؤال إدوارد رحت أستعيد في ذهني المواجهة مع سام وأعود بالذاكرة تدريجياً إلى ما قبلها. كان سيث يفكر معي. . . يملأ الثغرات. . . يبين المشهد من زاوية أخرى. توقفنا عندما وصلنا إلى الجزء الخاص بالجنين لأن إدوارد صاح بصوت غاضب وقفز من مدخل البيت.

زمجر إدوارد: «يريدون أن يقتلوا بيلا!»

ما كان إيميت وجاسبر قادرين على سماع المحادثة بيننا لذلك لم يفهما من عبارته إلا أننا نحن من يريد قتلها فقفزا مثله في لمح البصر مكشرين عن أسنانهما وتقدما نحونا.

قال سيث متراجعاً: «هيا. . . فلنذهب».

قال إدوارد: «إيميت! جاسبر! ليسا من يريد قتلها. . . إنهم الآخرون. . . القطيع قادم».

تراجع إيميت وجاسبر. استدار إيميت نحو إدوارد أما عينا جاسبر فظلتا معلقتين بنا.

قال إيميت: «ما مشكلتهم؟»

همس إدوارد: «هي مشكلتي نفسها. . . لكن لديهم خطة أخرى لمعالجتها. أحضر الآخرين. اتصل مع كارلايل. . . يجب أن يعود مع إيزمي الآن».

أتنت فزعاً. . . إنهم مفرقون!

قال إدوارد بذلك الصوت الميت: «ليسا بعيدين من هنا!»

قال سيث: «سأذهب لألقي نظرة. . . سأجري من الجهة الغربية».

قال إدوارد: «هل ستكون في خطر يا سيث؟»

تبادلنا نظرة سريعة أنا وسيث. وفكرنا في وقت واحد: «لا أظن!». . . ثم أضفت: «لكن ربما علي أن أذهب أنا أيضاً. . . من باب التحسب. . .

قال سيث: «من المستبعد أن يهاجموني. . . أنا مجرد طفل بالنسبة لهم».

«أنت مجرد طفل بالنسبة لي أيضاً»

«أنا ذاهب! عليك أن تنسق مع أسرة كولن».

انطلق سيث مندفعاً في الظلمة. لا أعتزم إصدار الأوامر إليه. . . لذلك تركته يذهب.

وقفنا أنا وإدوارد متواجهين في المرج المظلم. سمعت إيميت يهمس في هاتفه. كان جاسبر يراقب المكان الذي اختفى فيه سيث في الغابة. ظهرت أليس عند العتبة. . . وبعد أن حدقت إليّ بعينين مدهوشتين زمناً طويلاً ذهبت فوقفت بجانب جاسبر. فهمت أن روزالي في الداخل مع بيلا. مازالت تحميها. . . لكن ليس من الخطر الحقيقي.

همس إدوارد: «هذه ليست أول مرة أعترف فيها بجميلك يا جايكوب. . . لم أكن لأطلب منك هذا أبداً».

فكرت في ما طلبه مني في وقت سابق من هذا اليوم. يستطيع إدوارد اجتياز كل الحدود عندما يتعلق الأمر ببيلا: «نعم. . . هذا صحيح!»

قال إيميت: «كارلايل وإيزمي في طريق العودة الآن. . . عشرون دقيقة على الأكثر».

قال جاسبر: «علينا اتخاذ وضع دفاعي».

أومأ إدوارد برأسه قائلاً: «فلندخل المنزل».

«سوف أجري في الغابة حول المنزل مع سيث، وإذا ابتعدت إلى حد

يجعلك غير قادر على سماع أفكاري فعليك الإصغاء إلى عوائي».

«سأفعل ذلك».

دخلوا المنزل. . . كانت أنظارهم تبحث في كل اتجاه. . . وقبل أن يدخلوا استدرت وجريت نحو الغابة.

قال لي سيث: «مازلت لا أجد شيئاً».

«سوف أسير على شكل نصف دائرة. . . تحرك بسرعة. . . لا يجوز أن أتركهم يتسللون من خلفنا».

اندفع سيث إلى الأمام بسرعة مفاجئة.

رحنا نجري صامتين. . . ومرت الدقائق. كنت أصغي إلى الأصوات التي من حولي حتى أتأكد من صحة تقديره.

حذرني بعد خمسة عشر دقيقة من الصمت: «انتبه! . . . ثمة شيء قادم بسرعة».

«في طريقي!»

«الزم مكانك. . . لا أعتقد أن هذا صوت القطيع. إنه مختلف».

«سيث. . .»

لكنه التقط الرائحة القادمة مع النسيم. . . قرأت ما بذهنه.

«مصاصو دماء! لابد أنه كارلايل».

«تراجع يا سيث! قد يكون شخصاً غيره».

«لا! إنهم كارليل وإيزمي. أعرف رائحتهم. انتظر! سوف أذهب إليهما لأشرح الأمر».

«سيث! لا أظن. . .»

لكنه ذهب. . .

رحت أجري قلقاً على امتداد الحافة الغربية. أليس عجيباً أن لا أستطيع الاهتمام بسيث ليلة واحدة؟ ماذا لو حدث له شيء؟ سوف تمزقني ليا إرباً.

لكن الصغير لم يتأخر. فبعد دقيقتين أحسست به خلفي من جديد.

«نعم! إنهما كارلايل وإيزمي... كم فوجئنا برؤيتي! لعلهما صارا في المنزل الآن. لقد شكرني كارلايل».

«إنه شخص طيب».

«نعم! هذا أحد الأسباب التي تجعلنا محقين فيما نفعله».

«آمل هذا!»

«ما الذي يجعلك مكتئباً إلى هذا الحد يا جايكوب؟ أراهنك أن سام لن يجلب القطيع الليلة. لن يشن هجوماً انتحارياً».

تنهدت. لا أهمية للأمر... كيفما كان.

«أوه!... ليس الأمر متعلقاً بسام... صحيح!»

انعطفت عند نهاية دوريتي. شممت أثر رائحة سيث حيث وصل إلى هذه النقطة فاستدار عائداً قبل قليل. لم نترك أي ثغرة.

همس سيث: «هل تظن أن بيلا ستموت في جميع الأحوال؟»

«نعم... ستموت».

«مسكين إدوارد... لابد أنه قد جن».

«نعم لقد جن بالمعنى الحرفي للكلمة»...

جعل اسم إدوارد ذكريات أخرى تغلي على السطح. قرأ سيث تلك الذكريات بدهشة.

عند ذلك عوى سيث قائلاً: «أوه! مستحيل! لم تفعل ذلك! هذا كلام فارغ يا جايكوب! وأنت تعرف هذا أيضاً! لا أصدق أنك قلت له إنك تريد قتله. ما هذا! عليك أن تنفي ذلك».

«اسكت!... أيها الأحمق! سوف يظنون القطيع قادماً إليهم».

قطع سيث عواءه: «أوه!... آسف».

زدت سرعتي وتوجهت نحو المنزل: «لا علاقة لك بهذا يا سيث. عليك الآن أن تقوم بدورة كاملة».

انزعج سيث... لكني تجاهلته.

رحت أفكر وأنا أجري مقترباً من المنزل: «إنذار كاذب! إنذار كاذب!... آسف... سيث ما يزال صغيراً. إنه ينسى بعض الأشياء. لا أحد يهاجمكم... إنذار كاذب!».

عندما وصلت إلى المرج رأيت إدوارد ينظر من النافذة المظلمة. أسرعت مقترباً فقد أردت التأكد من أنه قد فهم رسالتي.

«لا شيء... لا شيء... هل فهمت ذلك؟»

أومأ إدوارد برأسه مرة واحدة.

لو كان التواصل بيننا في الاتجاهين لكان الأمر أسهل بكثير. لكني... رغم ذلك... كنت سعيداً بأنني غير قادر على الاستماع إلى أفكاره.

ألقى إدوارد نظرة من فوق كتفه... نظرة إلى الخلف... إلى داخل الغرفة... رأيت رجفة تسري في جسده كله. لوح لي بيده دون أن ينظر في اتجاهي ثم ابتعد عن النافذة فلم أعد أراه.

ما الذي يجري؟... ليتني أستطيع سماع إجابته.

جلست على المرج بهدوء تام... ورحت أصغي. مع هاتين الأذنين أكاد أستطيع سماع وقع خطى سيث على بعد أميال في عمق الغابة. كان من السهل أن أسمع كل صوت داخل البيت المظلم.

كان إدوارد يشرح لهم بصوته الميت مكرراً ما قلته له: «كان ذلك إنذاراً كاذباً... لقد عوى سيث بسبب شيء آخر ونسي أننا نصغي منتظرين إشارة منهما. مازال سيث صغيراً جداً!»

جاءني صوت أكثر عمقاً... أظن أنه إيميت: «لطيف أن يحرسنا الصغار!»

قال كارلايل: «لقد قدما لنا خدمة كبيرة هذه الليلة يا إيميت. هذه تضحية كبرى منهما».

«نعم! أعرف هذا... أنا أحسدهما... أتمنى لو كنت في الخارج الآن».

قال إدوارد بصوت آلي: «لا يظن سيث أن سام سيهاجمنا الآن. ليس بعد أن تم إنذارنا... ليس بعد أن فقد اثنين من أفراد القطيع».

سأله كارلايل: «وما رأي جايكوب؟»

«ليس جايكوب على هذا القدر من التفاؤل».

لم ينطق أحد. سمعت صوت نقاط سائل تقطر بصوت خفيض لم أفهمه. سمعت صوت تنفسهم المنخفض... استطعت تمييز صوت تنفس بيلا... كان أكثر خشونة... كان فيه مشقة. كان متكسراً غريب الإيقاع. استطعت سماع صوت قلبها. بدا لي... سريعاً جداً. قارنته بنبضات قلبي، لكني لم أكن واثقاً من صحة هذا القياس. فهل كان وضعي طبيعياً؟

همست روزالي: «لا تلمسها... سوف توقظها».

تنهد أحدهم.

تمتم كارلايل: «روزالي!»

«لا تبدأ هذا يا كارلايل! لقد تركناك تحاول من قبل... لكن هذا كل ما هو مسموح لك».

يبدو أن روزالي وبيلا تتحدثان بصيغة الجمع الآن... هل شكلنا قطيعاً مستقلاً عن الآخرين؟

سرت جيئة وذهاباً بهدوء أمام المنزل. كانت كل لحظة تقربني أكثر. كانت النوافذ المظلمة مثل جهاز تلفزيون يعمل في غرفة انتظار مملة... من المستحيل أن تقاومه فترة طويلة فلا تنظر إليه.

بعد دقائق قليلة صارت فروتي تمسح حافة مدخل البيت أثناء مروري.

كنت أستطيع الرؤية عبر النوافذ. كنت أرى السقف وأعلى الجدار. أرى الشمعدان غير المضاء المعلق هناك. كان طولي كافياً، فما كان علي إلا أن أمط رقبتي قليلاً... ربما أضع قائمتي على حافة المدخل أيضاً!...

استرقت النظر إلى داخل الغرفة الأمامية الكبيرة متوقعاً رؤية شيء شديد الشبه بما رأيته بعد الظهر. لكن الغرفة كانت قد تغيرت تغيراً كبيراً فشوشني منظرها في البداية. ظننت للوهلة الأولى أنني أخطأت الغرفة.

اختفت النوافذ الزجاجية الخلفية... كان شكل النوافذ يوحي الآن بأنها

معدنية. لقد أبعدوا الأثاث كله... رأيت بيلا متكورة في وضعية غريبة فوق سرير ضيق في وسط الغرفة. ما كان سريراً عادياً... كانت له حواجز مثل أسرّة المستشفيات. وكان في الغرفة أيضاً... مثل المستشفيات... أجهزة مراقبة موصولة إلى جسدها. رأيت أنابيب مغروسة في جلدها. كانت الأضواء تومض على أجهزة المراقبة... لكنني لم أسمع أي صوت. كان صوت القطرات آتياً من سيروم معلق موصول إلى ذراعها... رأيت فيه سائلاً كثيفاً أبيض غير رائق.

غمغمت بيلا في نومها المضطرب فأسرع إدوارد وروزالي إليها. انتفض جسدها وأنّت متألمة. وضعت روزالي يدها على جبين بيلا. تجمد جسد إدوارد... كنت أرى ظهره، لكن لابد أن تعبير وجهه كان غريباً جداً إذ إن إيميت أقحم نفسه بينهما في غمضة عين. رفع إيميت يديه أمام إدوارد قائلاً: «ليس الليلة يا إدوارد! لدينا أمور أخرى نهتم بها الآن».

استدار إدوارد فرأيته يحترق من جديد. التقت أنظارنا لحظة فهبطت على قوائمي الأربعة تاركاً النافذة.

عدت أجري إلى الغابة المظلمة... أجري حتى أنضم إلى سيث... أجري حتى أبتعد عما كان ورائي.

أسوأ!... نعم... وضعها الآن أسوأ.

12

لا يفهم بعض الناس معنى عبارة «غير مرغوب فيه»

كنت على وشك النوم! تماماً على وشك النوم.

أشرقت الشمس خلف الغيوم منذ ساعة. . . صارت الغابة الآن رمادية بدلاً من لونها الأسود في الليل. استلقى سيث ونام في الساعة الواحدة تقريباً. . . وكان علي إيقاظه عند الفجر حتى أنام بدوري. كنت أجد صعوبة في جعل دماغي يهدأ حتى أنام قليلاً. . . حتى بعد الجري طيلة الليل. لكن إيقاع جري سيث المنتظم كان يساعدني على النوم. واحد. . . اثنان ـ ثلاثة. . . أربعة، واحد. . . اثنان ـ ثلاثة. . . أربعة. دم. . . دم ـ دم. . . دم. اصطدام أكفه الخافت بالأرض الرطبة. . . مرة بعد مرة وهو يجري في دائرة واسعة حول أرض أسرة كولن. لقد حفرنا درباً في الغابة لكثرة ما جرينا في تلك الدائرة. كان رأس سيث خالياً من الأفكار. . . مجرد لمحات من اللونين الأخضر والرمادي مع طيران الأجمات أمام عينيه. كان هذا مريحاً. ساعدني على ملء رأسي بالمشاهد التي يراها سيث بدلاً من أن تحتل الصور التي في ذهني مركز الصدارة.

عند ذلك انطلق عواء سيث الثاقب ممزقاً هدوء الصباح الباكر.

قفزت عن الأرض. . . بدأت ساقاي الأماميتان الجري حتى قبل أن تنهض الخلفيتان عن الأرض تماماً. رحت أجري نحو المكان الذي تجمد عنده سيث وبدأت أصغي معه إلى وقع الأقدام المسرعة باتجاهنا.

«صباح الخير يا أولاد!»

انطلق صوت مخنوق عبر أسنان سيث. ثم زمجرنا معاً عندما قرأنا أفكار القادم الجديد.

قال سيث بأنين: «أوه! اذهبي يا ليا».

توقفت عندما وصلت إلى سيث الذي كان ملقياً رأسه إلى الخلف موشكاً على العواء من جديد. . . تذمراً هذه المرة.

«اصمت يا سيث!»

«صحيح! أنا آسف. . . آسف!»

. . . قال هذا بصوت متلعثم وجثم على الأرض حافراً أثلاماً عميقة في التراب.

ظهرت ليا. . . كان جسمها الرمادي الصغير يتموج بين الشجيرات المنخفضة.

«كف عن هذا النواح يا سيث! أنت طفل فعلاً!»

زمجرت في اتجاهها والتصقت أذناي برأسي. . . تراجعت ليا خطوة إلى الخلف على نحو تلقائي.

«ماذا تظنين نفسك فاعلة يا ليا؟»

أطلقت زفرة ثقيلة: «هذا واضح تماماً. . . أليس واضحاً؟ إنني أنضم إلى قطيعكما الصغير البائس! إلى كلاب حراسة مصاصي الدماء!». . . قالت هذا ثم أطلقت ضحكة ساخرة قصيرة خافتة.

«لا! لن تنضمي إلينا! اذهبي قبل أن أمزق ساقك».

ابتسمت ليا وكوّرت جسدها كأنها تستعد للوثب: «أنت لا تستطيع الإمساك بي!. . . هل تريد سباقاً أيها القائد الجسور؟»

استنشقت نفساً عميقاً... ملأت رئتي حتى انتفخت خاصرتي. ثم... عندما صرت واثقاً من أنني لن أصرخ... أفلتّ ذلك الهواء دفعة واحدة.

«سيث! اذهب وأخبر أسرة كولن أن من جاء هو أختك الحمقاء فقط»... فكرت في هذه الكلمات محاولاً جعلها فظة قدر ما استطعت... *«سوف أتعامل معها بنفسي»*.

«حاضر!»...

كان سيث سعيداً بأن يذهب. انطلق صوب المنزل... واختفى فوراً.

صدر صوت استياء عن ليا... همّت بالجري وراءه وقد انتصب الشعر على كتفيها... *«هل ستتركه يذهب إلى مصاصي الدماء وحيداً؟»*

«أنا واثق من أنه يفضل أن يقتلوه على أن يمضي دقيقة أخرى معك!»

«اسكت يا جايكوب! أوه... آسفة!... أردت أن أقول... اسكت أيها الزعيم الكبير!»

«ما الذي جعلك تأتين إلى هنا؟»

«هل تظن أنني سأجلس في بيتي بينما يتطوع أخي الصغير ليكون لعبة في أيدي مصاصي الدماء».

«سيث لا يريد حمايتك... ولا يحتاجها!... الواقع... لا أحد يريدك هنا!»

«أوه... أوه! هذا مؤثر جداً... قل لي من الذي يريدني قريبة منه وسوف أذهب فوراً».

«الأمر لا يتعلق بسيث إذن... صحيح!»

«بل يتعلق به طبعاً! أقول لك فقط إن كوني شخصاً غير مرغوب فيه ليس أمراً جديداً بالنسبة لي... ليس هذا شيئاً يحملني على الذهاب... هل تفهم قصدي؟»

شددت على أسناني محاولاً جلب بعض الصفاء إلى ذهني.

«هل أرسلك سام؟»

«لو كنت هنا نزولاً عند أوامر سام لما استطعت سماع صوت اقترابي. لم يعد ولائي له!»

أصغيت بانتباه إلى الأفكار مختلطة مع الكلمات. لو كانت هذه خدعة فعلي أن أكون شديد اليقظة حتى أكشفها. لكنني لم أر ما يريب. لم يكن في كلامها إلا الصدق. من غير رغبة منها... صدق يكاد يكون نابعاً عن اليأس.

سألتها بسخرية عميقة: «وهل ولاؤك لي الآن؟ هل هذا صحيح؟»

«خياراتي محدودة. أنا أتحرك ضمن الخيارات التي عندي. ثق بي! لست أستمتع بهذا مثلما لا تستمتع به أنت».

لم يكن هذا صحيحاً! كان في ذهنها نوع غريب من الاستثارة. لم تكن سعيدة بهذا الأمر، لكنها كانت مندفعة على نحو غريب. فتشت في أفكارها محاولاً أن أفهم...

شعرت ليا بالإهانة... انزعجت من هذا الاقتحام لأفكارها. عادة ما كنت أحاول تجاهل ليا... لم أحاول فهمها من قبل.

قاطعنا سيث... سمعناه يفكر في التوضيح الذي سيقدمه إلى إدوارد. صدر صوت قلق عن ليا. لم يظهر على وجه إدوارد الذي أطل من النافذة نفسها التي أطل منها الليلة الماضية أي رد فعل على الأنباء الجديدة. كان وجهه فارغاً... ميتاً.

فكر سيث في نفسه: «أوه! يبدو وضعه سيئاً»

... لم تبد على مصاص الدماء أي ردة فعل تجاه تلك الفكرة أيضاً. اختفى داخل المنزل. استدار سيث واندفع نحونا. استرخت ليا قليلاً.

سألتني ليا: «ما الذي يجري؟ اشرح لي».

«لا معنى لهذا! لن تظلي هنا».

«بل سأظل هنا يا سيدي الزعيم! عليّ أن أنتمي إلى أحد ما... لا تظن أنني لم أحاول الابتعاد وحدي... لكنك تعرف أن هذا لم يكن ممكناً... لقد اخترتك أنت!»

«ليا! . . . أنت لا تحبيني . . . وأنا لا أحبك».

«شكراً لتوضيحك. لا أهمية لهذا عندي. أنا باقية مع سيث».

«أنت لا تحبين مصاصي الدماء. ألا ترين بعض التناقض هنا؟»

«أنت لا تحب مصاصي الدماء أيضاً».

«لكني ملتزم بهذا التحالف . . . أما أنت فلست مثلي».

«سوف أبقي على مسافة بيني وبينهم. أستطيع القيام بدوريات هنا . . . تماماً مثل سيث».

«وهل يفترض أن أثق بك في هذه المهمة؟»

مطت ليا رقبتها وشبت على أطراف قوائمها محاولة أن تكون بمثل طولي . . . ثم حدقت في عيني . . .

«أنا لا أخون قطيعي!»

وددت لو ألقي برأسي إلى الخلف وأعوي . . . كما فعل سيث من قبل:

«هذا ليس قطيعك! بل هو ليس قطيعاً أيضاً. هذا أنا فقط . . . وحدي . . . أتصرف وحدي! ما الذي أصابكم يا أبناء كليرووتر؟ لماذا لا تتركوني؟»

صدر صوت استياء عن سيث الذي صار بجانبنا في تلك اللحظة. لقد أسأت إليه بهذا الكلام . . . عظيم . . . هذا ما ينقصني!

«لقد كنت مفيداً لك . . . أليس هذا صحيحاً يا جايكوب».

«لم تكن مزعجاً يا فتى. لكن . . . إذا كنت مضطراً إلى القبول بكما معاً . . . إذا كان السبيل الوحيد للتخلص من أختك هو أن أجعلك تعود إلى بيتك . . . فهل تستطيع لومي إذا أردت ذهابك؟»

«أوه يا ليا! أنت تفسدين كل شيء».

قالت له: *«صحيح . . . أعرف هذا» . . . كانت كلماتها مشبعة بثقل يأسها.*

أحسست بألمها في هذه الكلمات الثلاث . . . كان أكبر مما توقعت. لم أكن أريد أن أشعر بهذا الشعور. لم أكن أريد أن أشعر بالأسف من أجلها.

صحيح أن القطيع كان قاسياً معها لكنها هي التي جلبت هذا لنفسها بسبب ثقل المرارة التي تصبغ كل أفكارها وتجعل الإصغاء إلى ما في رأسها كابوساً.

كان سيث يشعر بالذنب أيضاً: «جايكوب! . . . أنت لن ترسلني إلى المنزل . . . صحيح! ليست ليا على هذه الدرجة من السوء! أقصد . . . إذا أتيت معنا نصبح قادرين على توسيع نطاق الدورية. كما أن هذا يقلل عدد الباقين مع سام إلى سبعة فقط. مستحيل أن يشن الهجوم بعد أن نقص العدد لديه إلى هذا الحد. لعل هذا شيء جيد . . .»

«تعرف أنني لا أريد قيادة قطيع يا سيث».

قالت ليا: «إذن . . . لا تقدنا».

نخرت غاضباً: «يبدو هذا جيداً بالنسبة لي! اذهبي إلى البيت الآن».

قال سيث: «جايكوب . . . أنا أنتمي إلى هذا الأمر. لست أحب مصاصي الدماء. أما أسرة كولن . . . مهما يكن . . . إنهم بشر بالنسبة لي. لست أريد حمايتهم من باب الواجب وحده».

«لعلك تنتمي إلى هذا الأمر يا فتى، أما أختك فلا! وسوف تذهب حيثما . . .»

توقفت فجأة لأني رأيت شيئاً عندما قلت ذلك. شيئاً كانت ليا تحاول عدم التفكير فيه.

لم تكن ليا ذاهبة إلى أي مكان.

فكرت بغضب: *«ظننت أن الأمر متعلق بسيث!»*

انكمشت على نفسها: «طبعاً! أنا هنا بسبب سيث».

«بل أنت هنا حتى تبتعدي عن سام».

شدت على أسنانها: «لست مضطرة لأن أشرح لك ما بنفسي! علي أن أفعل ما يطلب مني! أنا أنتمي إلى قطيعك يا جايكوب . . . انتهى!»

ابتعدت عنها . . . مزمجراً.

يا للبؤس! . . . لن أستطيع التخلص منها! فبقدر ما تكرهني . . . وبقدر ما

تمقت أسرة كولن. . . وبقدر ما سوف تكون سعيدة بأن تمضي لقتل جميع مصاصي الدماء الآن. . . وبقدر ما يزعجها أن تقوم بحمايتهم بدلاً من قتلهم. . . ما كان شيء من هذا كله يعادل إحساسها بالتحرر من سام.

ما كانت ليا تحبني. . . لذلك لم تكن رغبتي في ذهابها أمراً يزعجها.

كانت تحب سام! رغم ذلك. . . كانت رغبته في ابتعادها عنه مؤلمة لها. . . مؤلمة أكثر مما تستطيع الاحتمال. . . أما الآن فلديها الخيار. لو كان لها أي خيار آخر لاتخذته. حتى لو كان معناه الذهاب لحراسة أسرة كولن!

قالت ليا: «لا أعرف إن كنت سأمضي إلى هذا الحد». . . حاولت جعل كلماتها قاسية. . . عدائية. . . لكن تظاهرها كان مكشوفاً. . . «من المؤكد أنني سأحاول قتل نفسي أولاً!»

«انظري يا ليا! . . .»

«لا. . . انظر أنت يا جايكوب! كف عن مجادلتي فأنت لن تحصل على شيء. سأظل بعيدة عن طريقك. . . موافق! سأفعل كل ما تريد إلا أن أعود إلى قطيع سام لأكون صديقته السابقة البائسة التي لا يستطيع التخلص منها. إذا كنت تريدني أن أذهب. . .» أقعت على قائمتيها الخلفيتين وحدقت في عيني مباشرة. . . «فعليك أن تجبرني على الذهاب».

أطلقت زمجرة طويلة غاضبة. بدأت أحس بعض التعاطف مع سام رغم ما فعله بي وبسيث! لا عجب في أنه كان يدعو القطيع إلى الاجتماع دائماً. فكيف يمكنه إنجاز أي شيء من غير ذلك؟

«سيث! هل ستغضب مني كثيراً إذا قتلت أختك؟»

تظاهر سيث بالتفكير في الأمر: «آآآ. . . نعم! على الأرجح».

تنهدت.

«إذن. . . يا آنسة. . . أنا أفعل ما أريد. لماذا لا تكوني مفيدة وتقولي لنا ما لديك من معلومات؟ ماذا حدث بعد ذهابنا الليلة الماضية؟»

«عواء كثير! لكنك سمعته على الأرجح. كان شديد الارتفاع فاستغرقنا

وقتاً طويلاً حتى انتبهنا إلى أنه كان يمنعنا من سماعكما. . . كان سام. . .» خانتها الكلمات، لكننا استطعنا قراءة أفكارها. انكمشنا. . . أنا وسيث. . .

«بعد ذلك، صار واضحاً بسرعة أن علينا إعادة التفكير من جديد. كان سام يعتزم التحدث مع بقية الكبار في الصباح الباكر. كان يفترض أن نجتمع من جديد لنضع خطة اللعبة. لكني كنت واثقة من أنه لا يعتزم شن هجوم آخر. الهجوم انتحار عند هذه النقطة. . . في غيابك أنت وسيث. . . وبعد إنذار مصاصي الدماء. لست واثقة مما سيفعله القطيع، لكني لن أتجول في الغابة وحيدة لو كنت مصاصة دماء. إن دمهم مستباح الآن».

سألتها: «هل قررت عدم حضور الاجتماع هذا الصباح؟»

«عندما تفرقنا إلى دوريات في الليلة الماضية طلبت إذناً للذهاب إلى البيت. . . حتى أخبر أمي بما حدث».

زمجر سيث: «ماذا؟ هل أخبرت أمي؟»

«انس القرابة لحظة يا سيث. تابعي يا ليا».

«بعد أن عدت إلى الهيئة البشرية فكرت في الأمر كله من جديد. لقد استغرق ذلك طيلة الليل. أراهن أن الآخرين حسبوني نائمة. لكن وجود قطيعين منفصلين. . . عقلين منفصلين. . . طرح عليّ كثيراً من الأسئلة. وفي النهاية. . . وازنت بين الاهتمام بسلامة سيث. . . آآآآ. . . إضافة إلى بقية الفوائد. . . وبين فكرة أن أصبح خائنة *وأن أكون مضطرة إلى شم رائحة مصاصي الدماء البشعة لوقت لا أدري كم سيطول. أنت تعرف قراري في النهاية. تركت رسالة صغيرة لأمي. أظن أننا سنعرف عندما يكتشف سام الأمر. . .»*

نصبت ليا أذنيها ناحية الغرب.

قلت موافقاً: «نعم! أتوقع أن نعرف ذلك».

سألتني: «هل هذا كل شيء؟ ما الذي تريد معرفته؟»

راحت هي وسيث ينظران إليّ مترقبَين.

كان هذا... بالضبط... الشيء الذي لا أريد أن أضطر إلى فعله.

«أعتقد أن علينا الاكتفاء بالمراقبة الآن. هذا كل ما نستطيع فعله. لعل عليك أن تنامي قليلاً يا ليا!»

«نمت بقدر ما نمتما!»

«ظننت أنك تنفذين ما أطلبه منك!»

احتجّت ليا: «صحيح... نسيت!»... ثم تثاءبت.. «فليكن! لست أبالي».

قال سيث الذي صار شديد السرور لأني لم أجبرهما على الذهاب إلى البيت: *«سوف أقوم بجولة يا جايكوب. لست متعباً أبداً»*... كان يشع *بالإثارة التي ملأته.*

«طبعاً! طبعاً! سوف أذهب لتفقد الوضع عند أسرة كولن».

انطلق سيث في الدرب نفسه الذي ارتسم أثره في العشب الرطب. نظرت ليا في إثره مفكرة...

«ربما أقوم بدورة أو اثنتين قبل أن أتعب... انتظر يا سيث! هل تريد أن ترى بكم دورة أستطيع أن أسبقك؟»

«لا!»

عوت ليا بضحكة خافتة ثم اندفعت خلفه في الأدغال.

زمجرت من غير طائل... سأحظى الآن بشيء من السلام والهدوء!

ليا تحاول حقاً أن تحسن التصرف... حتى مع نفسها! راحت تجري في تلك الدائرة... وما كان ممكناً أن لا ألاحظ تحسّن مزاجها. فكرت فيما يقوله الناس عن «صحبة الاثنين»... لكن هذا القول لا ينطبق على حالتنا... صحبة واحد فقط كثيرة بالنسبة لي في حالتي هذه! أما عندما يكون هنا ثلاثة منا... وجدت من الصعب علي أن أمتنع عن مبادلة أي شخص بها.

فكرت ليا: «بول مثلاً؟»

قلت: «ربما!»

ضحكت في نفسها... كانت أشد استثارة وأطيب مزاجاً من أن يجعلها ذلك تشعر بالإساءة. كم يا ترى سوف تستمر محاولتها من أجل استدرار عطف سام؟

«هذا سيكون هدفي إذن! سوف أحاول أن أكون أقل إزعاجاً من بول».

«طيب!... حاولي».

تحولت إلى هيئتي البشرية عندما صرت على بعد أمتار من المرج. لم أكن أعتزم قضاء كثير من الوقت في هيئتي البشرية هنا. لكنني أردت التخلص من الاستماع إلى أفكار ليا أيضاً. ارتديت بنطلوني المهلهل وسرت عبر المرج.

انفتح الباب قبل وصولي إلى المدخل ففوجئت برؤية كارلايل يخرج لملاقاتي بدلاً من إدوارد. بدا وجهه مرهقاً... مستنزفاً.. مهزوماً. تجمد قلبي لحظة. توقفت غير قادر على الكلام.

سألني كارلايل: «هل أنت بخير يا جايكوب؟»

قلت بصوت مختنق: «هل بيلا بخير؟»

«نعم... بخير! لم يتغير وضعها كثيراً منذ الليلة الماضية. هل فاجأتك؟ آسف!... قال إدوارد إنك قادم في صورتك البشرية فخرجت لتحيتك لأنه لا يريد أن يتركها... لقد استيقظت».

ما كان إدوارد يريد تضييع فرصة قضاء أي وقت معها لأنه ما كان يرى أن أمامها زمناً طويلاً. لم يقل كارلايل هذه الكلمات بصوت مرتفع... لكن... كأنه قالها.

مضى علي وقت طويل من غير نوم. منذ ما قبل دورتي الأخيرة. أشعر بهذا الآن حقاً! تقدمت خطوة إلى الأمام وجلست على درجات المدخل متكئاً على الحاجز.

تحرك كارلايل بهدوء مثل الهمس... بهدوء لا يقدر عليه إلا مصاص دماء... وجلس على الناحية المقابلة من الدرجة نفسها واتكأ على الحاجز الآخر.

«لم تتح لي فرصة شكرك الليلة الماضية يا جايكوب. أنت لا تعرف كم أقدر... تعاطفك. أعرف أن هدفك هو حماية بيلا، لكنني مدين لك بسلامة بقية أفراد أسرتي أيضاً. أخبرني إدوارد بما كان عليك فعله حتى...»

تمتمت: «هذا لا شيء!»

«كما تريد!»

جلسنا صامتين. كنت أستطيع سماع الآخرين داخل المنزل. كان إيميت وأليس وجاسبر يتحدثون بصوت جاد منخفض في الطابق العلوي. وكانت إيزمي تهمهم في غرفة أخرى. سمعت إدوارد وروزالي يتنفسان في مكان قريب... لم أستطع تمييز تنفسه من تنفسها... لكنني كنت قادراً على تمييز الاختلاف في لهاث بيلا المرهق. سمعت قلبها أيضاً. بدا لي صوته... غير مستقر.

كأن القدر يتدخل ليجعلني أفعل كل ما أقسمت على عدم فعله... في أربعة وعشرين ساعة فقط... هذا أنا... هنا... أنتظر موتها.

ما كنت أريد الإصغاء إلى المزيد. كان الكلام أفضل من الإصغاء!

سألت كارلايل: «هل تعتبرها من أفراد أسرتك؟»... لقد انتبهت إلى عباراته عندما قال إنني ساعدت بقية أفراد أسرته أيضاً.

«نعم! صارت بيلا ابنة لي. ابنة حبيبة».

«لكنك تتركها تموت».

طال صمت كارلايل إلى درجة جعلتني أنظر إليه. كان وجهه مرهقاً... مرهقاً. كنت أفهم مشاعره.

قال أخيراً: «أستطيع أن أتخيل نظرتك إليّ بسبب هذا. لكنني لا أستطيع تجاهل إرادتها. ليس من الصواب أن أقوم بالاختيار بدلاً عنها... أن أرغمها».

أردت أن أغضب منه. لكنه كان يجعل هذا الأمر صعباً. كان كمن يلقي كلماتي نفسها في وجهي... مع تغيير ترتيبها. بدت هذه الكلمات صحيحة من قبل، لكنها لا يمكن أن تكون صحيحة الآن. ليس عندما تكون بيلا على

وشك الموت. لكن... تذكرت كيف كان شعوري عندما كنت محطماً... ملقى على الأرض تحت سام... كيف كان شعوري عندما لم يكن أمامي خيار إلا أن أشارك في قتل من أحب. ليس الأمران متماثلين... رغم ذلك. كان سام مخطئاً. أما بيلا فقد أحبت ما لا يجوز لها أن تحبه.

«هل تعتقد أنها يمكن أن تخرج سالمة؟ أقصد... أن تنجح في تحويلها إلى مصاصة دماء. لقد أخبرتني عن... عن إيزمي».

أجابني بهدوء: «أظن أن أمامها فرصاً متساوية في هذه النقطة. رأيت سم مصاصي الدماء يحقق معجزات. لكن ثمة ظروف لا يستطيع هذا السم نفسه أن يفعل شيئاً. قلبها يعمل بمشقة الآن. فإذا فشل قلبها... لن أكون قادراً على فعل شيء!»

اضطرب نبض بيلا في هذه اللحظة... كأنه يضيف تأكيداً معذباً إلى كلمات كارلايل.

لعل هذا الكوكب بدأ يدور في الاتجاه المعاكس! لعل هذا يفسر كيف صار كل شيء عكس ما كان عليه بالأمس... لعله يفسر كيف يمكن لي أن آمل الآن في إمكانية حدوث ما كنت أراه أسوأ شيء في العالم.

همست: «ما الذي يفعله ذلك الشيء لها؟ كانت أسوأ حالاً في الليلة الماضية. لقد رأيت... الأنابيب... وكل ذلك. نظرت من النافذة!»

«إن الجنين غير متوافق مع جسمها. إنه قوي جداً من ناحية، لكنها قد تكون قادرة على تحمل ذلك لفترة من الزمن. المشكلة الكبرى هو أنه لا يسمح لها بأن تحصل على ما يقيتها. إن جسدها يرفض كل شكل من أشكال التغذية. أحاول الآن تغذيتها عن طريق الوريد، لكن جسمها لا يمتص الغذاء. إن حالتها تتسارع. أنا أراقبها... لست أراقبها وحدها بل أراقب الجنين أيضاً... أراهما يموتان جوعاً من ساعة لأخرى. لا أستطيع إيقاف ذلك. ولا أستطيع إبطاءه! لا أستطيع معرفة ما يريده الجنين»... انقطع صوته المتعب عند تلك النقطة.

شعرت الآن كما شعرت بالأمس عندما رأيت الكدمات السوداء على بطنها... شعرت بغضب شديد... وبشيء من الدوار.

شددت قبضتيّ حتى أسيطر على ارتجافي. كنت أكره ذلك الشيء الذي يؤذيها. لم يكن ذلك الوحش مكتفياً بضربها من الداخل. لا! كان يجعلها تموت جوعاً أيضاً. لعله يبحث عن شيء يغرس أسنانه فيه... عن حنجرة يريد امتصاص دمها. هو ليس كبيراً بالقدر الذي يسمح له بأن يقتل أحداً غيرها... إنه قانع الآن بامتصاص الحياة منها.

كنت قادراً على إخبارهم بما يريده تحديداً: الموت والدم... الدم والموت!

شعرت بالحرارة تجتاحني... تحبحب جلدي... تنفست ببطء... ركزت على تنفسي حتى أهدئ نفسي.

تمتم كارلايل: «ليتني أستطيع معرفة طبيعته بشكل أفضل. إن الجنين محمي إلى درجة كبيرة. لم أتمكن من الحصول على صورة له بالموجات فوق الصوتية. أشك في قدرتي على إدخال إبرة عبر الكيس الذي يغلفه الآن. لكن روزالي لن تسمح لي بمحاولة ذلك أصلاً»

غمغمت: «إبرة!... وما فائدتها؟»

«كلما عرفت معلومات أكثر عن الجنين كلما صرت قادراً على تخمين ما يستطيع فعله. ليتني أستطيع الحصول على قليل من السائل المحيط به. ليتني أستطيع معرفة عدد كروموزوماته...»

«لا أفهم هذا... يا دكتور! هل تستطيع تبسيطه؟»

ضحك كارلايل... حتى ضحكته بدت مرهقة... مستنزفة: «لا بأس! إلى أين وصلت في دراسة البيولوجيا! هل درست أزواج الكروموزومات؟»

«أظن ذلك! لدينا ثلاثة وعشرون زوجاً... صحيح!»

«هذا لدى البشر!»

قلت مستغرباً: «وكم زوجاً لديكم؟»

«خمسة وعشرون».

حدقت في قبضتي لحظة ثم قلت: «ما معنى ذلك؟»

«كنت أظن أن هذا يدل على أن جنسنا مختلف تماماً عن البشر. أقل قرباً من البشر من قرب الأسد من القطة. لكن هذه الحياة الجديدة... هذا الجنين... تشير إلى أننا أقرب جينياً إلى البشر مما كنت أظن»... تنهد بحزن: «لو كنت أعرف هذا لحذرتهما!»

تنهدت أيضاً. كان سهلاً علي أن أكره إدوارد لأنه يجهل هذا. مازلت أكرهه لهذا السبب. لكن الإحساس بالأمر نفسه تجاه كارلايل كان صعباً. ربما لأنني لا أغار منه!

«قد يكون مفيداً أن نعرف عدد كروموزومات الجنين... أن نعرف إن كان أقرب إلينا أو إليها. أن نعرف ما الذي علينا توقعه»... ابتسم كارلايل... «وربما لا يفيدنا ذلك شيئاً. أظن أنني أرغب في دراسة أمر ما... في فعل شيء ما!»

قلت من غير اهتمام: «كم هو عدد كروموزوماتي يا ترى؟»... خطرت ببالي من جديد اختبارات المنشطات في الألعاب الرياضية. هل يجرون تحليل DNA؟»

سعل كارلايل وقال: «لديك أربعة وعشرون زوجاً يا جايكوب».

استدرت ببطء لأنظر إليه وقد ارتفع حاجبي.

أحس كارلايل بالإحراج: «لقد استبد بي... الفضول. سمحت لنفسي بذلك عندما عالجتك في حزيران الماضي».

فكرت في الأمر لحظة: «أظن أنني يجب أن أنزعج من فعلتك... لكني لا أبالي في الحقيقة».

«آسف!... كان علي أن أطلب إذنك».

«لا بأس يا دكتور! لم تكن تقصد سوءاً».

«لا!... أؤكد لك أنني لم أقصد أي سوء. المسألة هي أنني... أجد

جنسكم ساحراً... مثيراً للاهتمام. أظن أن عناصر طبيعة مصاصي الدماء صارت أمراً مألوفاً بالنسبة لي بعد هذه القرون كلها. أما طبيعة اختلافكم عن البشر فهي مسألة مثيرة للاهتمام إلى أقصى حد... مسألة تكاد تكون سحرية».

غمغمت: «كلام فارغ!»... كان مثل بيلا تماماً... كل هذا الهذر بشأن السحر!

أطلق كارلايل ضحكة مرهقة أخرى.

في تلك اللحظة سمعنا صوت إدوارد داخل المنزل... صمتنا لنصغي إليه.

«ساعود فوراً يا بيلا. أريد التكلم مع كارلايل لحظة. روزالي! هل يمكن أن تأتي معي؟»... بدا صوت إدوارد مختلفاً. كان فيه بعض الحياة... في صوته الميت. كان فيه شرارة شيء ما! لم يكن أملاً بالتحديد... لعله رغبة في الأمل!

سألته بيلا بصوت أجش: «ما الأمر يا إدوارد؟»

«لا شيء مقلق يا حبيبتي! لن يستغرق الأمر أكثر من ثانية. من فضلك يا رزو!»

صاحت روزالي: «إيزمي! هل تأتين قليلاً إلى جانب بيلا!»

سمعت صوت الريح عندما راحت إيزمي تشقها مسرعة في طريقها إلى الطابق السفلي.

قالت: «طبعاً!»

تحرك كارلايل ملتفتاً ونظر إلى الباب منتظراً. خرج إدوارد من الباب أولاً وفي أعقابه روزالي. كان وجهه... مثل صوته... ما عاد ميتاً كما كان. بدا عليه تركيز شديد. أما روزالي فبدا عليها الشك.

أغلق إدوارد الباب من خلفها وقال: «كارلايل!»

«ما الأمر يا إدوار؟»

«لعلنا نتعامل مع هذا الأمر بطريقة خاطئة. كنت أستمع إلى حديثكما منذ

الل، وعندما كنت تتكلم عما... يريده الجنين... خطرت في بال جايكوب فكرة أثارت اهتمامي».

أنا!... بماذا فكرت؟... ما عسى تلك الفكرة أن تكون غير كراهيتي الواضحة لذلك الشيء؟ على الأقل... لست وحدي في هذا الكره. أعرف أن إدوارد يجد صعوبة في استخدام كلمة لطيفة... كلمة جنين.

تابع إدوارد: «لم نتناول الأمر من تلك الزاوية في الحقيقة. كنا نحاول أن نقدم لبيلا ما هي في حاجة إليه. شيئاً يتقبله جسدها كما يمكن أن تتقبله أجسادنا. لعل علينا معالجة احتياجات... الجنين أولاً... لعلنا... إذا استطعنا إرضاءه... نتمكن من مساعدتها بشكل أفضل».

قال كارلايل: «لم أفهمك يا إدوارد».

«فكر في الأمر يا كارلايل. إذا كان ذلك المخلوق أقرب إلى مصاص دماء منه إلى الإنسان، فهل تستطيع تخمين ما الذي يتوق إليه؟ ما الذي لا يستطيع الحصول عليه؟ لقد خمّن جايكوب ذلك».

هل خمنت ذلك حقاً؟ استعدت الحديث في ذهني محاولاً تذكر الأفكار التي احتفظت بها لنفسي فلم أقلها. تذكرت... في اللحظة نفسها التي فهم فيها كارلايل ما يقصده إدوارد.

قال بنبرة مستغربة: «أوه! هل تظن أنه... ظمآن؟»

صدر صوت استغراب عن روزالي. ما عادت متشككة الآن. أشرق وجهها الجميل... الجميل إلى حد مزعج... اتسعت عيناها لشدة استثارتها. همست: «طبعاً! اسمع يا كارلايل... لدينا كمية كبيرة من الدم من أجل بيلا. إنها فكرة جيدة». قالت هذا دون أن تنظر إليّ.

وضع كارلايل يده على ذقنه مستغرقاً في التفكير: «همم!... وربما... وما الطريقة الأفضل لإيصال الدم إليه...؟»

هزت روزالي رأسها: «لا وقت لدينا لابتداع أفكار جديدة. أظن أن علينا أن نبدأ بتجربة الطريقة التقليدية».

همست: «لحظة! انتظروا لحظة! هل... هل تقولين إنك ستجعلين بيلا تشرب الدم؟»

قالت روزالي عابسة... من غير أن تنظر نحوي: «إنها فكرتك أنت... أيها الذئب!»

تجاهلتها ونظرت إلى كارلايل. رأيت في عينيه شبح الأمل الذي بدا على وجه إدوارد. ضغط كارلايل على شفتيه... مفكراً.

«لكن هذا...» لم أستطع العثور على الكلمة المناسبة.

قال إدوارد: «فظيع!... مقيت!»

«كثيراً!»

همس: «لكن... ماذا لو استطاع هذا أن يساعدها فعلاً؟»

هززت رأسي غاضباً: «ما الذي تعتزمون فعله؟ هل تدخلون أنبوباً في حلقها؟»

«سوف أسألها عن رأيها. أردت أن يسمع كارلايل الأمر أولاً».

أومأت روزالي: «إذا قلت لها إن هذا يمكن أن يساعد الطفل فسوف تكون مستعدة لفعل أي شيء. حتى لو اضطررنا إلى تغذيتهما عن طريق أنبوب».

أدركت عند ذلك... عندما سمعت كيف صار صوتها لطيفاً رقيقاً عندما لفظت كلمة طفل... ستقف تلك الشقراء مع أي شيء يمكن أن يساعد الوحش الذي يمتص حياة بيلا. أهذا ما يجري إذن؟ أهذا هو السر الذي يجمع الاثنتين معاً؟ هل تتمسك روزالي بالطفل؟

رأيت... من زاوية عيني... رأس إدوارد يومئ مرة من غير أن ينظر صوبي... لكني عرفت أنه يجيب على أسئلتي.

هكذا إذن! ما كنت أظن أن تلك الدمية الباردة تملك طبعاً أمومياً! ما كانت تريد حماية بيلا نفسها... ولعلها مستعدة الآن لأن تدخل ذلك الأنبوب في حلقها بيدها.

رأيت شفتي إدوارد تتوتران فعرفت أنني أصبت من جديد.

قالت روزالي نافذة الصبر: «ليس لدينا وقت نضيعه في الجلوس والمناقشة! ما رأيك يا كارلايل؟ هل نستطيع المحاولة؟»

استنشق كارلايل نفساً عميقاً ثم هب واقفاً: «سوف نسأل بيلا».

ابتسمت الشقراء مرتاحة... مرتاحة طبعاً... إذا كان الأمر متعلقاً بموافقة بيلا فهي تستطيع إقناعها.

جرجرت نفسي ناهضاً فتبعتهم إلى داخل المنزل. لم أكن أعرف ما الذي جعلني أتبعهم. لعله مجرد فضول مريض! كان هذا أشبه بفيلم من أفلام الرعب. وحوش ودماء... في أرجاء المكان.

أأكون ذلك المدمن الذي ما عاد قادراً على مقاومة تناول جرعة أخرى من مخزونه المتضائل!

كانت بيلا راقدة فوق سرير المستشفى... وكان بطنها واقفاً مثل جبل تحت الغطاء. كانت مثل الشمع... من غير لون... كانت تبدو شفافة مثله. كان منظرها يوحي بأنها ماتت... لولا تلك الحركة الضئيلة في صدرها... لولا تنفسها الضحل. رأيت نظراتها تتابع حركتنا نحن الأربعة بشك مرهق.

صار الآخرون بجانبها... تحركوا عبر الغرفة بسرعة مفاجئة. كان النظر إليهم مخيفاً. أما أنا فسرت متمهلاً.

سألت بيلا بصوت هامس متكسر: «ما الذي يجري؟»... ارتفعت يدها الشمعية كأنها تحاول حماية بطنها المنتفخ.

قال كارلايل: «خطرت لجايكوب فكرة قد تكون مفيدة لك».

تمنيت لو أنه لم يذكر اسمي. أنا لم أقترح شيئاً! فليعد الفضل إلى زوجها مصاص الدماء!... تابع كارلايل: «لن يكون هذا... ساراً... لكن...»

قاطعته روزالي بحماس: «لكنه سيفيد الطفل... لقد فكرنا في طريقة أفضل من أجل تغذيته».

رفت عينا بيلا. ثم سعلت وأطلقت ضحكة ضعيفة: «لن يكون ساراً!

عجيب... سيكون هذا تغييراً» قالت هذا وهي تنظر إلى الأنبوب المغروس في ذراعها ثم سعلت من جديد.

ضحكت الشقراء معها.

ما كان لدى الفتاة إلا ساعات من الحياة... كانت تتألم... لكنها كانت تطلق النكات! هذه هي بيلا! تحاول امتصاص التوتر... تحاول أن تجعل الوضع أفضل بالنسبة للجميع.

دار إدوارد حول روزالي. لم يخفف ذلك المزاح من تعبير وجهه المتوتر. أسعدني هذا. كان مفيداً لي... ولو قليلاً... أن أراه يعاني أكثر مما أعاني. أمسك بيدها... لا باليد التي مازالت تحمي بطنها المنتفخ... أمسك بيدها الأخرى.

قال مستخدماً الكلمات التي قالها لي: «بيلا! حبيبتي! سوف نطلب منك فعل شيء فظيع... مقيت».

جيد!... على الأقل... إنه يخبرها بالأمر بشكل مباشر.

تنفست بيلا تنفساً ضحلاً متردداً: «كم هو سيئ؟»

أجابها كارلايل: «نظن أن شهية الجنين قد تكون قريبة من شهيتنا... لا من شهيتك أنت! نظن أنه ظمآن».

رمشت عيناها: «أوه! أوه».

«إن حالتك... حالتكما... تتدهور سريعاً! ليس لدينا وقت نضيعه من أجل الوصول إلى طريقة مقبولة لفعل ذلك. إن أسرع طريقة لاختبار النظرية...»

همست بيلا: «علي أن أشربه!»... أومأت برأسها قليلاً. ما كان لديها من الطاقة ما يكفي لأكثر من إيماءة صغيرة... «أستطيع أن أفعل هذا. قد يكون تدريباً من أجل المستقبل!»... انفرجت شفتاها الحائلتان عن ابتسامة باهتة... ونظرت إلى إدوارد. لم يرد إدوارد على ابتسامتها بمثلها.

راحت روزالي تنقر الأرض بقدمها نافدة الصبر. كان هذا الصوت

مزعجاً حقاً. ماذا يمكن أن تفعل إذا قذفتها إلى الحائط الآن؟

همست بيلا: «إذن!... من الذي سيمسك دباً من أجلي؟»

تبادل إدوارد وكارلايل نظرة سريعة. توقفت روزالي عن نقر الأرض بقدمها.

سألت بيلا: «ماذا؟»

قال كارلايل: «سيكون الاختبار أفضل إذا لم نحاول تلطيفه!»

قال إدوارد موضحاً: «إذا كان الجنين يريد الدم... فهو لا يريد دم حيوان».

قالت روزالي تشجعها: «لا فرق بالنسبة لك يا بيلا. لا تفكري في الأمر».

اتسعت عينا بيلا وهمست: «من؟»... استقرت نظراتها عليّ.

قلت: «لم أدخل حتى أتبرع بالدم يا بيلا... كما أن ذلك الشيء في بطنك يريد دماً بشرياً... دمي ليس بشرياً...»

قالت لها روزالي وقد قاطعتني قبل أن أنهي جملتي كما لو أنني لست موجوداً: «لدينا دم هنا يا بيلا. حضّرناه من أجلك... تحسباً. لا تقلقي أبداً. سيكون الأمر بخير. أنا متفائلة يا بيلا. أظن أن الطفل سيصبح في وضع أفضل بكثير».

مرت يد بيلا على بطنها.

همست بصوت لا يكاد يسمع: «لا بأس! أنا جائعة كثيراً. فلابد أنه جائع مثلي»... إنها تحاول المزاح من جديد... «فلنحاول. هذا أول فعل أقوم به من أفعال مصاصي الدماء!»

13

شيء جيد أنني أستطيع مقاومة قرفي

خرج كارلايل وروزالي في لمح البصر منطلقين إلى الطابق العلوي. سمعتهما يتحدثان عما إذا كان من الأفضل أن يسخنا الدم قليلاً من أجل بيلا. يا للقرف! ما هي الأشياء المخيفة التي يحتفظون بها هنا! براد مليء بالدم؟ ماذا أيضاً؟ غرفة تعذيب! غرفة توابيت!

ظل إدوارد ممسكاً بيد بيلا. كان وجهه ميتاً من جديد. ما كانت تبدو عليه قدرة حتى على الاحتفاظ بتلك المسحة من الأمل التي بدت عليه قبل قليل. كانا يتبادلان النظرات... لكن ليس بطريقة شاعرية! كان ذلك نوعاً من الحوار بينهما... على نحو ذكرني بسام وإميلي.

لا! ما كانت نظراتهما شاعرية... لكن هذا جعل رؤيتهما أكثر صعوبة بالنسبة لي.

فهمت الآن مشاعر ليا فهي مضطرة إلى رؤية شيء مماثل طيلة الوقت... مضطرة إلى الإصغاء إليه عبر أفكار سام. كنا نشعر بالأسف من أجلها... كلنا! لسنا وحوشاً... من هذه الناحية على الأقل! لكني أظن أننا كنا نلومها على طريقة تعاملها مع هذا الأمر. نلومها على جعل معاناتها تنعكس على الجميع... على محاولتها جعلنا كلنا بائسين... مثلها.

لن ألومها بعد الآن. كيف يستطيع أحد أن يمتنع عن نشر هذا النوع من البؤس ليعمّ من حوله؟ كيف يستطيع أحد أن لا يحاول تخفيف شيء من ذلك العبء الباهظ بإلقاء بعضه على الآخرين؟

وإذا كان معنى وضعنا الآن هو أن عليّ تشكيل قطيع بقيادتي فكيف ألومها لأنها تسلب حريتي؟ لو كنت مكانها لفعلت مثلها! لو كان لدي سبيل للإفلات من هذا الألم كله لسلكته أيضاً.

هبطت روزالي مسرعة بعد ثانية وعبرت الغرفة مثل ريح عاصفة فأثارت تلك الرائحة الحارقة من جديد. توقفت روزالي في المطبخ... وسمعت صوت فتح باب خزانة.

تمتم إدوارد: «لا تجعليه ظاهراً يا روزالي».

بدا الفضول على بيلا لكن إدوارد هز رأسه لها.

اندفعت روزالي قادمة من المطبخ... ثم اختفت من جديد.

همست بيلا: «هل كانت هذه الفكرة فكرتك؟»... كان صوتها خشناً لأنها حاولت رفعه حتى أسمعها. لقد نسيَتْ أن سمعي حاد جداً. كنت أحب ذلك... أن تنسى بيلا في كثير من الأوقات أنني لست بشرياً تماماً. اقتربت منها حتى لا تشعر بحاجة إلى رفع صوتها من أجلي.

«لا تلوميني على هذه الفكرة. إن زوجك مصاص الدماء هو الذي راح يفتش في الأفكار البشعة التي خطرت ببالي».

ابتسمت قليلاً: «لم أتوقع رؤيتك من جديد».

قلت: «نعم! لم أتوقع ذلك بدوري».

شعرت بغرابة وقوفي هناك، لكن مصاصي الدماء كانوا قد أفرغوا الغرفة من الأثاث فأزاحوه جانباً من أجل التجهيزات الطبية. أتصور أن هذا لا يزعجهم... لا فارق بين الوقوف والجلوس عندما يكون جسمك من حجر. وهو لا يزعجني أيضاً... لكني مرهق جداً.

«أخبرني إدوار بما اضطررت إلى فعله... أنا آسفة!»

كذبت قائلاً: «لا بأس!... كانت مسألة وقت قبل أن أعترض على شيء من الأشياء التي يطلبها مني سام».

همست: «وماذا عن سيث؟»

«الواقع أنه سعيد بأن يمد لكم يد المساعدة».

«أكره أن أسبب لكم المشاكل».

ضحكت ضحكة قصيرة... كانت أشبه بالعواء.

أطلقت بيلا زفرة واهية: «أنا أسبب لك المتاعب دائماً».

«لا...»

قالت وهي لا تكاد تستطيع نطق الكلمات: «لست مضطراً للبقاء ومشاهدة هذا الأمر».

أستطيع الذهاب! لعلها فكرة جيدة! لكن... إن ذهبت... وهي في هذه الحالة... فقد أحرم نفسي من البقاء معها في ربع الساعة الأخير من حياتها.

قلت لها محاولاً منع صوتي من التعبير عن مشاعري: «ليس لدي مكان آخر أذهب إليه. لم يعد وجودي على صورة ذئب مغرياً بعد انضمام ليا إلينا».

زفرت بيلا: «ليا!»

سألت إدوارد: «ألم تخبرها عنها؟»

رفع إدوارد كتفيه دون أن يحول ناظريه عنها. كان واضحاً أنه لم يكن مسروراً بخبر انضمام ليا إليّ... لم يكن ذلك خبراً يستحق نقله إليها في وجود أشياء أكثر أهمية.

لم يكن وقع هذا الخبر لطيفاً على بيلا. أحسست أنه أزعجها.

همست بيلا: «لماذا؟»

لم أرد إخبارها بالقصة كلها فقلت: «حتى تهتم بشقيقها سيث».

همست: «لكن ليا تكرهنا».

... تكرهنا! شيء لطيف! إنها تعتبر نفسها واحدة منهم!... لكني رأيت أنها خائفة أيضاً.

«لن تزعجك ليا أبداً»... إنها تزعجني وحدي... «إنها ضمن قطيعي»... كشرت عندما لفظت تلك الكلمة... «هذا يعني أنها تطيع أوامري».

لم يظهر الاقتناع على بيلا.

«أنت خائفة من ليا! لكنك على وفاق تام مع تلك الشقراء المختلة عقلياً!»

سمعت صوت هسيس منخفض من الطابق الثاني. عظيم! لقد سمعتني.

عبست بيلا: «لا تقل هذا! إن روز... تفهمني».

قلت: «نعم! هي تفهم أنك سوف تموتين لكنها لا تبالي... فهي ستحصل على الجنين في النهاية».

همست بيلا: «لا تكن غبياً يا جايكوب».

بدت بيلا ضعيفة جداً... ما كنت أستطيع الغضب منها. حاولت أن أبتسم بدلاً من ذلك: «وهل أستطيع أن لا أكون غبياً؟»

حاولت بيلا ألا تبتسم، لكنها لم تستطع فانفرجت شفتاها الشاحبتان قليلاً.

عند ذلك جاء كارلايل... ومعه الشقراء المختلة عقلياً. كان يحمل كأساً بلاستيكياً في يده... من ذلك النوع المزود بغطاء وبقشة معقوفة للمص. أوه!... الآن فهمت... هذا ما قصده إدوارد عندما قال لروزالي «لا تجعليه ظاهراً». ما كان إدوارد يريد أن تفكر بيلا فيما تفعله إلا بالقدر الضروري. لم يكن محتوى الكأس ظاهراً على الإطلاق. لكني شممت الرائحة.

تردد كارلايل وهو يمد يده بالكأس. نظرت بيلا إلى الكأس... بدا عليها الذعر من جديد.

قال كارلايل بهدوء: «نستطيع تجربة طريقة أخرى».

همست بيلا: «لا! لا!... سأحاول بهذه الطريقة أولاً. ليس لدينا وقت...»

ظننت في البداية أنها أدركت خطورة حالتها أخيراً فقلقت على نفسها... لكن يدها راحت تمسح بضعف على بطنها.

مدت يدها فأخذت الكأس من كارلايل. ارتجفت يدها قليلاً فسمعت صوت السائل داخل الكأس. حاولت النهوض على مرفقها.. لكنها ما كانت تستطيع رفع رأسها... ولو قليلاً. شعرت بدفقة من الخوف تسري في ظهري عندما رأيت كم ازداد ضعفها في أقل من يوم واحد.

وضعت روزالي ذراعها خلف كتفي بيلا... وهي تسد رأسها أيضاً كما يحملون المواليد الجدد. إن هذه الشقراء تعرف كيفية التعامل مع الرضع!

همست بيلا: «شكراً»... راحت عيناها تنتقلان بيننا. مازالت مهتمة بالحفاظ على المظاهر. لو لم تكن منهكة إلى هذه الدرجة لاحمر وجهها... أنا أراهن على ذلك!

تمتمت روزالي: «لا تلقي بالاً إليهم!»

انتابني شعور غريب. كان يجب أن أذهب عندما أتاحت لي بيلا تلك الفرصة. ما كنت أنتمي إلى هذا المكان... ما كان عليّ أن أكون جزءاً مما يحدث الآن! فكرت في الخروج، ثم أدركت أن من شأن خروجي الآن أن يجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لبيلا: سيكون تجاوز الأمر صعباً عليها. ستعرف أن قرفي هو الذي منعني من البقاء. وهذا صحيح!

صحيح أنني لا أود أن تنسب هذه الفكرة إليّ... لكني لا أريد إفشالها أيضاً.

حملت بيلا الكأس وشمت طرف القشة. ارتعدت... وكشرت!

قال إدوارد وهو يمد يده ليأخذ الكأس: «بيلا... حبيبتي... نستطيع البحث عن طريقة أسهل».

اقترحت روزالي: «سدي أنفك»... حدقت في ذراع إدوارد الممتدة كما لو أنها تود كسرها. أتمنى أن تفعل ذلك. وأراهن أن إدوارد لن يقف مكتوف الأيدي. أحب أن أراه يكسر أحد أضلاع هذه الشقراء.

استنشقت بيلا نفساً عميقاً: «لا! ليس الأمر كذلك... إنه... إن رائحته شهية»... اعترفت بهذا بصوت منخفض جداً.

ابتلعت ريقي بصعوبة محاولاً جعل قرفي لا يظهر على وجهي.

قالت روزالي متحمسة: «هذا جيد! هذا يعني أننا على الطريق الصحيح. حاولي يا بيلا».

كان وجهها متهللاً... فاجأني تهلله... هل سترقص لشدة فرحها؟

وضعت بيلا القشة بين شفتيها... أغمضت عينيها وجعدت أنفها. سمعت صوت الدم يترجرج في الكأس من جديد مع ارتجاف يدها. أخذت رشفة صغيرة ثم أنّت بصوت هادئ منخفض... مازالت عيناها مغمضتين.

خطونا نحوها... أنا وإدوارد... في وقت واحد. لمس إدوارد وجهها. أما أنا فشبكت كفيّ خلف ظهري.

«بيلا... حبيبتي...»

همست بيلا: «أنا بخير!»... فتحت عينيها ونظرت إليه. كان تعب وجهها... معتذراً... متوسلاً... خائفاً!... «طعمه لذيذ... !»

تقلصت معدتي مهددة بأن تفرغ ما فيها. شددت على أسناني.

كررت الشقراء: «هذا جيد!»... مازالت فرحة... «هذه إشارة جيدة».

وضع إدوارد يده على خدها وراح يلمس عظامها الهشة.

تنهدت بيلا ثم وضعت القشة في فمها من جديد. سحبت رشفة كبيرة هذه المرة. لم تكن حركتها ضعيفة كما هي حركاتها كلها... كأن الغريزة... أي غريزة... لعبت دوراً!

سألها كارلايل: «كيف شعورك الآن؟ هل تشعرين بالغثيان؟»

هزت بيلا رأسها: «لا! لا أشعر بالغثيان»... ارتعدت قليلاً.

أشرقت روزالي: «رائع!»

قال كارلايل: «أعتقد أن الوقت مازال مبكراً على قول ذلك يا روز».

سحبت بيلا ملء فمها هذه المرة. ثم نظرت إلى إدوارد: «هل يفسد هذا سجلي؟ أم أننا سنبدأ العد بعد أن أصبح مصاصة دماء؟»

ابتسم إدوارد ابتسامة من غير حياة: «لا أحد يعد الآن يا بيلا! لا أهمية كبيرة للأمر... مازال سجلك نظيفاً».

لم أفهم شيئاً.

قال إدوارد بصوت منخفض جداً: «سأشرح لك فيما بعد».

همست بيلا: «ماذا؟»

كذب عليها إدوارد بيسر: «كنت أكلم نفسي».

إذا نجح الأمر... إذا عاشت بيلا... فلن يتمكن إدوارد من إخفاء شيء عنها بعد أن تصبح حواسها حادة مثل حواسه. سيكون عليه أن يلتزم الصدق دائماً!

اعوجّت شفتا إدوارد... كان يكبت ابتسامته.

شربت بيلا عدة رشفات جديدة وهي تحدّق خلفنا... صوب النافذة. لعلها تتظاهر بأننا لسنا موجودين... لعلها تتظاهر بأنني لست موجوداً. لا أحد غيري في هذه الغرفة يشعر بالقرف مما يجري. على العكس!... لعلهم يجدون صعوبة في منع أنفسهم من اختطاف تلك الكأس من يدها.

نظر إدوارد إليّ مستغرباً.

يا للبؤس! كيف يمكن لأحد أن يحتمل العيش معه؟ سيئ جداً أنه لا يستطيع الاستماع إلى أفكار بيلا. لو كان يستطيع الاستماع إلى أفكارها لأزعجها كثيراً... ولكرهته وابتعدت عنه.

ضحك إدوارد. تحولت نظرات بيلا إليه على الفور وابتسمت ابتسامة صغيرة عندما رأت تعبير الفكاهة على وجهه. أظن أنها لم تر هذا التعبير منذ فترة.

همست: «ما المضحك؟»

أجابها: «إنه جايكوب!»

نظرت إلي وعلى وجهها ابتسامة ضعيفة: «إنه مضحك».

عظيم!... لقد صرت مادة للتسلية الآن!

ابتسمت بيلا من جديد ثم أخذت رشفة جديدة من الكأس. ارتعشت عندما سمعت صوت الهواء في القشة... لقد فرغت الكأس!

قالت بيلا: «لقد نجحت!»... بدا عليها السرور. كان صوتها أكثر وضوحاً الآن... مازال خشناً لكنه لم يعد همساً... إنها المرة الأولى اليوم.

«إذا تابعت الشرب فهل تزيل هذه الإبر والأنابيب يا كارلايل؟»

وعدها: «سأزيلها في أقرب وقت ممكن... الواقع أنها لا تفيدك كثيراً».

ربتت روزالي على جبين بيلا ثم تبادلتا نظرة ملؤها الأمل.

كان الأمر واضحاً تماماً... لقد كان لهذه الكأس من الدم البشري مفعول فوري. بدأ اللون يعود إليها... بدأت وجنتاها تتوردان قليلاً. ما عاد يبدو عليها أنها في حاجة إلى يد روزالي التي تسندها. صار تنفسها أكثر سهولة... أقسم أن ضربات قلبها صارت أقوى... أكثر انتظاماً.

تسارع كل شيء.

صار شبح الأمل في عيني إدوارد حقيقة الآن.

قالت روزالي بإلحاح: «هل تريدين المزيد؟»

ارتخى كتفا بيلا.

قذف إدوارد روزالي بنظرة غاضبة قبل أن يقول لبيلا: «لست مضطرة إلى شرب المزيد الآن».

قالت راضية: «نعم! أعرف هذا... لكني... أريد المزيد».

تخللت أصابع روزالي النحيلة الحادة شعر بيلا الناعم: «لا تشعري بالإحراج بسبب هذا يا بيلا. إن جسدك في حاجة إليه. كلنا نفهم ذلك».

كان صوتها رقيقاً في البداية. لكنها أضافت بفظاظة: «من لا يفهمه لا يجوز أن يكون هنا».

من الواضح أنها تقصدني. لكني لن أدع تلك الشقراء تنال مني. كنت سعيداً بتحسن وضع بيلا، فما المشكلة في أن تكون الوسيلة مقرفة في نظري؟ لن أقول شيئاً.

تناول كارلايل الكأس من يد بيلا: «سأعود فوراً».

نظرت بيلا إلي... أما كارلايل فاختفى.

قالت: «جايكوب!... يبدو شكلك فظيعاً!»

«انظروا من الذي يتكلم!»

«أنا جادة!... منذ متى لم تنم؟»

فكرت لحظة في سؤالها: «همممم!... لا أعرف على وجه التحديد».

«أوه يا جايكوب! أنا أسيء إلى صحتك الآن أيضاً. لا تكن أحمق».

شددت على أسناني. يحق لها أن تقتل نفسها من أجل وحش! لكن... لا يحق لي أن أخسر نوم بضع ليالٍ حتى أراها تموت.

تابعت بيلا: «ارتح قليلاً... من فضلك!... ثمة أسرّة في الطابق الثاني. تستطيع استعمال أيّ منها».

جعلني شكل وجه روزالي أفهم أنني لا أستطيع استعمال واحد من تلك الأسرة. ما حاجة هذه الجميلة التي لا تنام إلى السرير؟ هل هي شديدة الحرص على ممتلكاتها؟

«شكراً يا بيلا لكني أفضل النوم على الأرض. بعيداً عن الرائحة!... أنت تدركين هذا!»

«صحيح!»

عاد كارلايل عند ذلك فمدت بيلا يدها إلى الكأس ذاهلة... كأنها تفكر في أمر آخر. بدأت تمص الدم وعلى وجهها ذلك التعبير الذاهل نفسه.

إنها تبدو أفضل حقاً! استطاعت الآن أن تنهض بنفسها محاذرة أن تفسد وضع الأنابيب المتصلة بالأجهزة... لكنها جلست بحركة سريعة. أسرعت روزالي... كان كفاها مستعدين للإمساك ببيلا إذا أوشكت على السقوط. لكن بيلا لم تكن في حاجة إلى مساعدتها. كانت تلتقط أنفاساً عميقة بين الرشفات... أفرغت الكأس الثانية بسرعة.

سألها كارلايل: «كيف تشعرين الآن؟»

«لا أشعر بالغثيان... أشعر ببعض الجوع... لكني لست متأكدة إن كان جوعاً أو عطشاً... أنت تعرف!»

تمتمت روزالي: «انظر إليها فقط... يا كارلايل!»... كانت مرتاحة إلى أبعد حد... «من الواضح أن هذا ما يريده جسمها. يجب أن تشرب المزيد».

«مازالت بشرية يا روزالي. إنها في حاجة إلى الطعام أيضاً. يجب أن نتيح لها بعض الوقت حتى نرى تأثير هذا عليها. عند ذلك يمكننا إعطاؤها المزيد. هل أنت راغبة في طعام معين يا بيلا؟»

قالت بيلا فوراً: «البيض!»... ثم تبادلت مع إدوارد نظرة سريعة... ومعها ابتسامة. كانت ابتسامته باهتة، لكن وجهه كان يوحي بالحياة أكثر من ذي قبل.

أغمضت عيني قليلاً في تلك اللحظة... ثم نسيت كيف أفتحهما من جديد.

تمتم إدوارد: «جايكوب!... يجب أن تنام فعلاً، كما قالت لك بيلا... تستطيع النوم حيث شئت هنا... لكني أظن أن النوم في الخارج أكثر راحة بالنسبة لك. لا تقلق على شيء... أعدك بأن أعثر عليك عند الحاجة».

غمغمت: «طبعاً! طبعاً!»... الآن، صار من الواضح أن لدى بيلا عدة ساعات إضافية... وصرت أستطيع الهرب. أستطيع الاضطجاع تحت شجرة... شجرة بعيدة لا تستطيع الرائحة أن تصل إليها. سوف يوقظني إدوارد إذا حدث شيء. إنه مدين لي بذلك.

وافقني إدوارد: «سوف أوقظك!»

أومأت برأسي ثم وضعت يدي على يد بيلا. كانت يدها باردة مثل الثلج.

سألتها: «هل تشعرين بتحسن؟»

«شكراً يا جايكوب!»... قلبت يدها وشدت على يدي. أحسست بخاتم الزفاف الذي صار متسعاً على إصبعها النحيل.

قلت وأنا في سبيلي إلى الباب: «أحضروا لها بطانية أو أي غطاء».

قبل أن أصل إلى الباب مزق هواء الصباح الساكن صوت عواء ذئبين. ثمة خطر! إن نبرة الصوت توحي بذلك بكل وضوح. ما من سوء تفاهم هذه المرة.

زمجرت وقذفت بنفسي عبر الباب. بدأت التحول إلى ذئب عند المدخل... أثناء قفزي. سمعت صوت تمزق حاد... لقد تمزق البنطلون. سيئ!... ليس عندي غيره. لا أهمية للأمر الآن. لمست الأرض بقوائمي... قوائم الذئب... وانطلقت إلى جهة الغرب.

صحت في ذهني: *«ما الأمر؟»*

أجاب سيث: «إنهم قادمون... ثلاثة على الأقل!»

«هل تفرقوا؟»

أجابت ليا: «سوف أعود إلى سيث بسرعة الضوء... لا توجد نقطة هجوم أخرى حتى الآن»

... كنت أستطيع الإحساس بالريح تصفر في رئتيها عندما اندفعت بسرعة خارقة. كانت الغابة تضطرب من حولها...

«لا تتحداهم يا سيث. انتظرني».

«إنهم يبطئون الآن... غريب أنني لا أستطيع سماعهم الآن... أظن...»

«ماذا؟»

«أظنهم توقفوا».

«لعلهم ينتظرون بقية القطيع».

«هشش! هل تحسون بذلك؟»

وصلني انطباعه... تلك الترددات الخافتة الماضية عبر الهواء من غير صوت.

«أحدهم يقترب».

قال سيث موافقاً: «أظن ذلك».

اندفعت ليا إلى الفسحة الصغيرة التي يقف فيها سيث. أنشبت مخالبها في الأرض لتتمكن من التوقف. كانت مثل سيارة سباق.

«لحقت بك يا أخي!»

قال سيث متوتراً: «إنهم قادمون... ببطء... يمشون».

قلت لهما: «كادوا يصلون».

حاولت الطيران مثل ليا. شعرت بالخوف لأنني بعيد عنهما رغم ذلك الخطر المحتمل الذي هو أقرب إليهما مني الآن. لقد أخطأت!... كان علي أن أكون معهما الآن... أن أقف بينهما وبين القادمين... كائناً من كانوا.

أجابت ليا: «انظروا!... انظروا إلى هذه المشاعر الأبوية!»

«حافظي على تركيزك يا ليا».

قال سيث مقرراً: «إنهم أربعة... ثلاثة ذئاب ورجل»... إن لهذا الفتى أذنان جيدتان.

وصلت إلى الفسحة في تلك اللحظة. وقفت أمامهما. تنهد سيث مرتاحاً ثم انتصب بجانبي عند كتفي الأيمن. أما ليا فوقفت إلى يساري... أقل حماساً من سيث.

غمغمت لنفسها: «صرت الآن أقل مرتبة من سيث!»

أجابها سيث مرتاحاً: «من يسبق يفز بالمركز. كما أنك لم تحتلي مركز يسار الزعيم من قبل... هذه ترقية بالنسبة لك».

«ليست ترقية عندما أكون في مركز أقل من مركز أخي الطفل!»

قلت متذمراً: «هشش!... لا أبالي بأماكن وقوفكما. اسكتا وكونا مستعدين».

ظهروا أمامنا بعد ثوان قليلة... كانوا يمشون كما قال سيث. جارد في المقدمة... في هيئة بشرية... رافعاً يديه. وكان خلفه ثلاثة ذئاب بول وكويل وكولن. ما كانت حركتهم توحي بأي عدوانية. وقفوا خلف جارد منتصبي الآذان... مستعدين... لكن هادئين.

لكن!... غريب أن يرسل سام كولن بدلاً من إمبري. لن أفعل هذا إذا أرسلت وفداً دبلوماسياً إلى منطقة معادية. لن أرسل طفلاً. سأرسل مقاتلاً متمرساً.

فكرت ليا: «هل هي خدعة؟»

لعل سام وإمبري وبرادي يقومون بتحرك منفصل! لا يبدو هذا مرجحاً.

«هل تريد أن أقوم بجولة تفقدية؟ أستطيع الجري حتى النهاية ثم العودة خلال دقيقتين».

تساءل سيث: «هل عليّ إخطار أسرة كولن؟»

سألته: «ماذا لو كانوا يقصدون تفريقنا؟ تعرف أسرة كولن أن شيئاً على وشك الحدوث... إنهم مستعدون».

همست ليا: «لن يكون سام بهذا الغباء!»

... أحسست الخوف في أفكارها. كانت تتخيل سام يهاجم أسرة كولن مع ذئبين فقط.

قلت حتى أطمئنها: «لا!... هو ليس غبياً»... لكنني خفت من تلك الصورة في رأسها.

خلال تلك اللحظات كلها كان جارد والذئاب الثلاثة ينظرون إلينا... منتظرين. شيء مزعج أن لا أستطيع سماع ما يدور من حديث بين كويل وبول وكولن. كانت تعابير وجوههم فارغة... غير مقروءة.

تنحنح جارد ثم أومأ برأسه وقال: «جئنا مسالمين يا جايكوب. نحن هنا لنتحدث».

سألني سيث: «هل تظنه صادقاً؟»

«معقول... لكن...»

وافقتني ليا: «نعم... لكن...»

لم ينقص توترنا.

عبس جارد: «سيكون الحديث أسهل إذا استطعت سماعكم!»

نظرت إليه. لن أتحول إلى إنسان قبل أن أطمئن إلى هذا الوضع... قبل أن أفهمه. لماذا كولن؟ كان هذا ما يقلقني خاصة.

قال جارد: «لا بأس! أظن أن عليّ أن أتحدث وحدي... جايكوب... نريد أن تعودا!»

أطلق كويل أنيناً خافتاً من خلفه... كأنه يؤكد كلامه.

«لقد مزّقت أسرتنا. هذا لا يجوز!»

لم أكن أخالفه الرأي بهذا الشأن... لكن المشكلة ليست هنا. ثمة اختلافات بيني وبين سام لم تُحلّ حتى هذه اللحظة.

«ندرك قوة مشاعرك... بشأن أسرة كولن. نعرف أن هذه مشكلة حقيقية. لكنك بالغت في ردة فعلك».

زمجر سيث: «هل بالغ؟ أليست مهاجمة حلفائنا دون إنذار مبالغة في رد الفعل أيضاً».

«انتبه يا سيث!... ألم تسمع بوجه لاعب البوكر؟ حافظ على هدوئك».

«آسف!»

انتقلت نظرات جارد إلى سيث ثم عادت إليّ: «يود سام أن يتعامل مع الأمر بهدوء يا جايكوب. لقد هدأ الآن وتحدث مع بقية الكبار. وقرروا أن التصرف بسرعة ليس من مصلحة أحد في هذه اللحظة».

فكرت ليا: «ترجمة هذا الكلام: لقد فقدوا عنصر المفاجأة».

غريب مقدار التقارب بين تفكيري وتفكيرها. لقد صار القطيع قطيع سام منذ الآن... صار «هم» بالنسبة لنا. شيئاً خارجنا... من الغريب خاصة أن تفكر ليا بهذه الطريقة... أن تكون جزءاً من «نحن».

«بيلي وسو متفقان معك يا جايكوب... قالا إن بوسعنا انتظار بيلا حتى... حتى تصبح خارج المشكلة. لا أحد منا مرتاح لفكرة قتلها».

صحيح أنني وبخت سيث قبل قليل... لكنني لم أستطع الآن منع نفسي من إطلاق زمجرة صغيرة. إذن،... فهم لا يشعرون بالراحة إزاء القتل!

رفع جايكوب يده من جديد: *«مهلك يا جايكوب! أنت تدرك قصدي. الفكرة هي أننا سوف ننتظر ونعيد تقييم الوضع. سوف نتخذ قرارنا لاحقاً بشأن المشكلة مع... ذلك الشيء».*

فكرت ليا: «ها!... يا للكلام!»

«أنت لا تصدقين ذلك!»

«أعرف ما يفكرون فيه يا جايكوب. أعرف ما يفكر فيه سام. إنهم يراهنون على موت بيلا من تلقاء نفسها. ويظنون أنك ستصاب بالجنون عند ذلك...»

«يظنون أنني سوف أقود الهجوم بنفسي في تلك الحالة».

التصقت أذناي برأسي متوترتين. بدا تخمين ليا صحيحاً كل الصحة. وهو ممكن جداً في الواقع. عندما... إذا قتل ذلك الشيء بيلا فسوف يكون سهلاً بالنسبة لي أن أنسى مشاعري تجاه أسرة كولن منذ هذه اللحظة. والأرجح هو أنني سأراهم أعداء من جديد... مصاصي دماء طفيليين... لا أكثر.

همس سيث: *«سوف أذكرك!»*

«أعرف أنك ستذكرني يا فتى. لكن... هل سأصغي إليك؟»

سألني جارد: «ماذا يا جايكوب؟»

تنهدت.

«ليا!... قومي بدورة سريعة... لنكون مطمئنين فقط. عليّ أن أتكلم معهم. وأريد أن أتأكد من عدم حدوث شيء أثناء وجودي في هيئة بشرية».

«مهلاً يا جايكوب! تستطيع التحول أمامي. لقد رأيتك عارياً من قبل رغم محاولتي تجنب ذلك... لست أهتم بهذا فلا تقلق!»

«لست أحاول حماية براءة عينيك. بل أحاول حماية ظهورنا. اذهبي من هنا».

زمجرت ليا قليلاً ثم انطلقت إلى الغابة. كنت أسمع صوت قوائمها تحفر التراب حفراً لتندفع بسرعة أكبر إلى الأمام.

العري أمر معيب... لكنه شيء لا يمكن تجنبه في حياة القطيع. لم نفكر في هذا الأمر قبل مجيء ليا. عند ذلك صار الوضع غريباً مربكاً. تتحكم ليا بمزاجها إلى حد معقول... لكنها احتاجت بعض الوقت قبل أن تكف عن خلع ملابسها كلما غضبت. لقد رأيناها كلنا. لست أقول إن النظر إليها عارية شيء مزعج... لكن المزعج حقاً هو أن تمسك بك وأنت تفكر في شكلها في وقت لاحق.

كان جارد والآخرون يحدقون في النقطة التي اختفت عندها ليا في الغابة... كان على وجوههم تعبير قلق.

سألني جارد: *«إلى أين هي ذاهبة؟»*

تجاهلت سؤاله مغمضاً عيني ومستجمعاً نفسي من جديد. كان الهواء يرتعد من حولي... يبتعد عني في موجات صغيرة. نهضت على قائمتي الخلفيتين... تماماً في اللحظة المناسبة حتى أقف على قدمي أثناء تحولي إلى صورتي البشرية.

قال جارد: «أوه! مرحباً يا جايكوب».

«أهلاً يا جارد».

«شكراً لأنك وافقت على التحدث معي».

«أهلاً!»

«نريدك أن تعود يا رجل».

صدر عن كويل صوت يشبه النواح.

«لا أعرف إن كانت العودة سهلة يا جارد».

قال وهو ينحني قليلاً إلى الأمام... متوسلاً: «هيا!... نستطيع العثور على حل. ليس مكانك هنا. دع سيث وليا يعودان أيضاً».

ضحكت: «تماماً!... إنني أتوسل إليهما حتى يعودا... منذ اللحظة الأولى».

زمجر سيث من خلفي.

راح جارد يقيّم الموقف... غدت عيناه حذرتين من جديد: «إذن!... ماذا تقول الآن؟»

فكرت قرابة دقيقة... أما هو فظل صامتاً... ينتظر.

«لا أعرف. لكني لست واثقاً من أن الأمور يمكن أن تعود إلى طبيعتها العادية يا جارد. لا أعرف كيف ستجري الأمور... لا أشعر أنني أستطيع التحكم بإحساسي بالزعامة فأجعله فعالاً أو ألغيه حسب مزاجي. أشعر أنه أمر دائم».

«لكنك مازلت تنتمي إلينا».

رفعت حاجبي: «لا يمكن وجود زعيمين في مكان واحد يا جارد تذكر كم غدا الأمر خطراً الليلة الماضية! إن هذه الغريزة مشبعة بروح التنافس».

«هل ستكتفي بقضاء الوقت مع الطفيليين بقية عمرك؟ ليس لديك بيت هنا... بل أنت من غير ملابس منذ الآن. هل ستظل ذئباً طيلة الوقت؟ أنت تعرف أن ليا لا تحب الأكل وهي على صورة ذئب».

«تستطيع ليا أن تفعل ما تريد عندما تجوع. إنها موجودة هنا باختيارها! لست آمر أحداً بأن يفعل أي شيء».

تنهد جارد: «سام آسف لما فعله بك».

أومأت برأسي: «لم أعد غاضباً منه».

«لكن!»

«لكني لن أعود... ليس الآن. سوف ننتظر ونرى كيف تجري الأمور. وسوف نظل في حراسة أسرة كولن طالما رأينا ضرورة ذلك. الأمر لا يتعلق ببيلا وحدها كما تعتقد. إننا نحمي من علينا أن نحميهم. وهذا يشمل أسرة كولن أيضاً»... معظمهم على الأقل.

عوى سيث بصوت منخفض موافقاً على كلامي.

عبس جارد: «لم أعد أستطيع أن أضيف شيئاً».

«لا يمكن قول شيء الآن. سوف نرى كيف تتطور الأمور».

استدار جارد وواجه سيث... راح يركز عليه الآن لإقناعه بالانفصال عني... «طلبت مني سو أن أقول لك... لا... طلبت أن أتوسل إليك أن تعود إلى البيت. لقد تحطم قلبها يا سيث. إنها وحيدة الآن. لا أعرف كيف تستطيعان فعل هذا بها. كيف تهجرانها بهذه الطريقة. لم يمض على وفاة والدكما إلا وقت قصير...»

صدر أنين عن سيث.

قلت محذراً: «رويدك يا جارد!»

«أنا أخبره بالوضع فقط».

قلت ساخراً: «صحيح!»... كانت سو أصلب من أي شخص أعرفه. أصلب من والدي... ومني. كانت صلبة إلى حد يجعلها قادرة على التلاعب بعواطف ابنها إذا كان هذا قادراً على جعله يعود إلى المنزل... «كم ساعة مرت على معرفة سو بالأمر؟ ألم تمض معظم هذا الوقت مع بيلي وكويل العجوز وسام؟ نعم!... لابد أنها تموت الآن لشدة إحساسها بالوحدة. أنت حر في الذهاب يا سيث... إذا أردت... أنت تعرف هذا».

نشق سيث بأنفه.

بعد ثوان قليلة نصب أذنه باتجاه الشمال. لابد أن ليا اقتربت الآن. إنها سريعة فعلاً. بعد ثانيتين رأيتها تتوقف عند شجرة على بعد أمتار قليلة. ثم اقتربت فوقفت أمام سيث. ظل أنفها مرفوعاً في الهواء... كان من الواضح أنها لا تنظر في اتجاهي.

قدرت لها ذلك.

سأل جارد: «ماذا يا ليا؟»

حدقت في عينيه وكشرتْ قليلاً عن أسنانها.

لم يفاجأ جارد بهذا التعبير العدائي: «ليا!... تعرفين أنك لا تريدين البقاء هنا».

زمجرت ليا. نظرت إليها نظرة محذرة... لكنها لم ترها. دفعها سيث بكتفه قليلاً.

قال جارد: «آسف!... أظن أنني بالغت في افتراضاتي. لكن... ليس لديك ما يربطك بمصاصي الدماء».

نظرت ليا إلى أخيها بهدوء شديد... ثم نظرت إليّ.

قال جارد: «أنت إذن تريدين البقاء من أجل الانتباه إلى سيث... أفهم هذا»... نظر إلى وجهي نظرة سريعة ثم عادت عيناه إليها. لعله يتساءل عن تلك النظرة الثانية... تماماً مثلما تساءلت أنا... «لكن جايكوب لن يسمح بأن يصيبه سوء. وهو ليس خائفاً من البقاء هنا»... ظهر تعبير ساخر على وجه جارد... «من فضلك يا ليا! نريد عودتك... سام يريد عودتك».

اهتز ذيلها.

«طلب مني سام أن أرجوك. طلب مني حرفياً أن أجثو على ركبتي إذا لزم الأمر. إنه يريد عودتك يا ليلي... إلى حيث تنتمين».

رأيت ليا تنكمش على نفسها عندما استخدم جارد الاسم الذي كان سام يناديها به سابقاً. ثم... بعد أن أضاف تلك الكلمات الأخيرة... انتصب شعر رقبتها وخرجت زمجرة طويلة من بين أسنانها. ما كنت في حاجة إلى الإصغاء إلى أفكارها حتى أعرف مدى غضبها... وما كان جارد في حاجة إلى ذلك أيضاً. كان ممكناً تخمين الكلمات التي تقولها.

انتظرت ريثما هدأت: «سوف أتدخل هنا وأقول إن ليا تنتمي إلى حيث تقرر الانتماء بنفسها».

صدرت زمجرة خفيفة عن ليا. كانت تحدق في جارد... لكنني فهمت أنها توافق على كلامي.

«انظر يا جارد... مازلنا من أسرة واحدة... أليس كذلك؟ سوف نتخطى هذا الأمر ذات يوم. لكن... حتى ذلك اليوم... عليك أن تبقى ضمن منطقتكم. حتى لا يحدث سوء تفاهم. لا أحد منا يريد عراكاً

في الأسرة... صحيح! سام لا يريد ذلك أيضاً!»

قال جارد بحدة: «لا يريد ذلك طبعاً!... سوف نلتزم حدود أرضنا. لكن... أين هي أرضكم يا جايكوب؟ هل هي أرض مصاصي الدماء؟»

«لا يا جارد!... نحن مشردون حالياً. لكن لا تقلق... لن يستمر هذا زمناً طويلاً»... كان علي أن ألتقط أنفاسي... «ما عاد أمامنا وقت كثير. ثم... من المرجح أن ترحل أسرة كولن... وسوف يعود سيث وليا إلى البيت».

صدر صوت احتجاج عن ليا وسيث في وقت واحد... التفتا نحوي في اللحظة نفسها.

«وماذا عنك أنت يا جايكوب؟»

«أظن أنني سأعود إلى الغابة. لا أستطيع البقاء في لابوش! وجود زعيمين يعني وجود توتر كبير. ثم إني كنت أعتزم ذلك من قبل... قبل هذه الفوضى كلها».

سألني جارد: «ماذا أفعل إذا أردنا الحديث معك؟»

«عليك بالعواء... لكن لا تتجاوز الخط... مفهوم! سوف نأتي إليك. لا داعي لأن يرسل سام هذا العدد كله. نحن لا نريد قتالاً».

عبس جارد... لكنه أومأ برأسه. لم يعجبه أن أضع شروطاً على سام: «نراك قريباً يا جايكوب... أم لا؟»... قال هذا وهو يلوح بيده من غير حماس.

«انتظر يا جارد... هل إمبري بخير؟»

ظهرت الدهشة على وجهه: «إمبري!... طبعاً... إنه بخير... لماذا؟»

«أستغرب أن يرسل سام كولن».

راقبت ردة فعله... مازال لدي بعض الشك. لمعت فكرة في عينيه... لكنها لم تكن الفكرة التي كنت أتوقعها.

«لم يعد هذا من شأنك يا جايكوب».

«أظن أنك محق. . . لكني شعرت بالفضول».

رأيت حركة من زاوية عيني، لكني لم أعرف ما هي لأنني ما كنت راغباً في تحويل نظري عن كويل. لقد كان مهتماً بهذا الحديث.

«سأخبر سام. . . بتعليماتك. إلى اللقاء يا جايكوب».

تنهدت: «إلى اللقاء يا جارد. اسمع!. . . قل لوالدي إنني بخير. . . وقل له إنني آسف. . . وإنني أحبه».

«سأقول له هذا».

«شكراً».

قال جارد: «هيا يا شباب!». . . استدار مبتعداً عنا. . . غاب عن أبصارنا قبل أن يتحول إلى ذئب. . . لأن ليا موجودة هنا. سار بول وكولن في أعقابه، لكن كويل ظل متردداً. عوى بهدوء. . . تقدمت خطوة نحوه.

«نعم!. . . اشتقت إليك أيضاً يا أخي».

اقترب كويل مني مطأطئاً رأسه بحزن. . . ربتت على كتفه: «ستسير الأمور على ما يرام!»

أصدر كويل صوتاً مثل النواح.

«قل لإمبري إنني أفتقد وجودكما أنتما الاثنين إلى جانبيّ».

أومأ برأسه ثم ضغط بأنفه على جبهتي.

نخرت ليا فرفع كويل رأسه لكنه لم ينظر إليها. نظر من فوق كتفه إلى حيث مضى الآخرون.

قلت له: «نعم! اذهب إلى البيت».

انطلق كويل خلف الآخرين. أراهن أن جارد لم يكن ينتظره بصبر فارغ. وما أن غاب عن الأنظار حتى استجمعت الحرارة التي في وسط جسدي وجعلتها تسري في أطرافي. سرت في جسدي كله موجة من الحرارة. . . صرت ذئباً من جديد.

قالت ليا ساخرة: «ظننت أنك ستستجيب له!»

تجاهلتها.

سألتهما: «هل سارت الأمور على ما يرام؟». . . كان يزعجني أن أتحدث نيابة عنهما عندما لم أكن قادراً على الإصغاء إلى أفكارهما. ما كنت أريد افتراض شيء من عندي. ما كنت أريد الافتراض كما فعل جارد. . . «هل قلت شيئاً لم تريدا قوله؟ وهل امتنعت عن قول شيء تريدان قوله؟»

قال سيث مشجعاً: «لقد تحدثت بشكل جيد يا جايكوب».

قالت ليا: «كان بوسعك أن تضرب جارد. . . ما كنت لأمانع أبداً!»

قال سيث: «أظن أننا نعرف سبب عدم السماح بمجيء إمبري».

لم أفهم. . . «عدم السماح!»

«هل رأيت كويل يا جايكوب؟ لقد كان ممزقاً. . . صحيح! أراهن أن إمبري منزعج أكثر منه. ليس لدى إمبري شخص مثل كلير. لا يستطيع كويل أن يترك لابوش. أما إمبري فيستطيع! لذلك. . . لم يرد سام المغامرة بخسارة إمبري. إنه لا يريد انضمام أعضاء جدد إلى قطيعنا».

«حقاً! هل تعتقد ذلك؟ أشك في أن إمبري يكره تمزيق أسرة كولن».

«لكنه أقرب أصدقائك يا جايكوب. هو وكويل يفضلان أن يكونا معك على أن يقاتلاك».

«إذن. . . يسعدني أن سام لم يسمح له بالمجيء. لدينا هنا عدد كاف. لا بأس!. . . وضعنا مستقر الآن. سيث. . . هلا بقيت في الحراسة! علينا أن ننام. . . أنا وليا. يبدو أن الوضع مطمئن. . . لكن. . . من يدري؟ لعل في الأمر خدعة!»

لم أكن كثير الوساوس إلى هذه الدرجة عادة. . . لكنني تذكرت مدى إصرار سام. كان شديد الحرص على تدمير الخطر الذي رآه. فهل يعتزم الاستفادة من نجاحه في الكذب علينا الآن؟

قال سيث: «أنا جاهز!». . . لقد كان متلهفاً لفعل كل ما يقدر عليه. . .

«هل تريد أن أذهب فأشرح ما حدث لأسرة كولن؟ لابد أنهم متوترون الآن».

«سوف أتولى الأمر بنفسي. . . أريد أن أتفقد الوضع». التقط الاثنان تلك الصور التي استحضرها دماغي المحترق. فوجئ سيث!

راحت ليا تهز رأسها إلى الأمام والخلف كما لو أنها كانت تحاول نفض تلك الصور من ذهنها: «هذا أسوأ شيء سمعته في حياتي كلها. يا للقرف! لو كان في معدتي شيء لما استطعت منعه من الخروج في هذه اللحظة».

قال سيث بعد لحظة: «أظن أنهم مصاصو دماء!». . . قال هذا متعاطفاً مع ردة فعل ليا. . . «أقصد. . . إن هذا منطقي. وإذا كان يساعد بيلا. . . فهو شيء جيد. . . صحيح!»

نظرنا إليه. . . أنا وليا.

«ماذا؟»

قالت ليا: «لقد أسقطته أمي مرات كثيرة على رأسه عندما كان صغيراً».

«على رأسه!. . . هذا واضح».

«كما كان يلعق قضبان السرير أيضاً».

«آه!. . . لقد تسمم دماغه بالرصاص الموجود في الطلاء».

قالت ليا: «هكذا يبدو!»

زمجر سيث غاضباً: «هذا مضحك! لماذا لا تسكتا وتناما الآن؟»

14

يكون الوضع سيئاً عندما تشعر بالذنب تجاه مصاصي الدماء

عندما عدت إلى البيت لم أجد أحداً ينتظر في الخارج ليسمع ما لدي من أخبار. هل مازالوا مستمتعين؟

فكرت في نفسي: «كل شيء بخير».

سرعان ما التقطت عيني تغيراً صغيراً في المشهد الذي صار مألوفاً الآن. رأيت على درجة المدخل الأولى كومة صغيرة من الملابس. اقتربت مسرعاً لأعرف ما هي. حبست أنفاسي لأن رائحة مصاصي الدماء كانت تفوح منها إلى درجة يصعب تصورها.

لابد أن إدوارد التقط الفكرة المزعجة التي خطرت ببالي لحظة خروجي من هذا الباب عندما تمزق بنطلوني. هذا لطف منه. . . وهو أمر مستغرب أيضاً.

أمسكت بالملابس بين أسناني. . . شيء مقرف. . . وحملتها عائداً إلى الأشجار. لعل هذا مزاح من جانب الشقراء المختلة عقلياً. . . لعلها ملابس نسائية. لابد أنها تحب أن ترى كيف يبدو وجهي البشري عندما أقف هناك عارياً. . . في قميص نسائي عاري الكتفين.

صرت محمياً خلف الأشجار. . . ألقيت الملابس التي تفوح برائحة

مُصاصي الدماء ثم تحولت إلى بشري. نفضت الملابس... رحت أضربها على شجرة حتى أزيل بعض الرائحة منها.

لا!... إنها ملابس رجل: بنطلون وقميص أبيض بأزرار. ما كان طولهما كافياً... لكن... يبدو أنني أستطيع ارتداءهما. لابد أنهما من ملابس إيميت. رفعت أكمام القميص إلى الأعلى... لكن... ما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً بالبنطلون... لا بأس!

علي أن أعترف!... كان شعوري أفضل عندما ارتديت هذه الملابس التي وضعوها من أجلي... حتى لو كانت تفوح بتلك الرائحة... حتى لو كانت لا تناسبني تماماً. كان أمراً مزعجاً أن لا أستطيع الذهاب إلى المنزل لأجلب بنطلوناً آخر رغم حاجتي إليه. إنها حالة التشرد من جديد. أن لا يكون لدي مكان أعود إليه. ولا ممتلكات أيضاً... لا يزعجني هذا كثيراً الآن، لكنه سرعان ما سيصبح مزعجاً فعلاً.

كنت مرهقاً فمشيت ببطء صاعداً درجات مدخل أسرة كولن في ثيابي الأنيقة المستعملة... لكنني ترددت عندما وصلت إلى الباب. هل أقرع الباب؟... يا للغباء! إنهم يعرفون بوجودي. لماذا لم يظهر أحد منهم؟ لماذا لا يأتي أحدهم فيدعوني إلى الدخول أو يطلب مني الانصراف. فليكن!... رفعت كتفي... ودخلت.

مزيد من التغيرات!... عادت الغرفة إلى طبيعتها تقريباً... خلال عشرين دقيقة فقط. كانت شاشة التلفزيون الكبيرة المسطحة مضاءة... كان الصوت منخفضاً... رأيت على الشاشة فيلماً نسائياً... لكن أحداً لم يكن يشاهده. رأيت كارلايل وإيزمي يقفان عند النوافذ الخلفية التي كانت مفتوحة من جديد باتجاه النهر. لم أر أليس وجاسبر وإيميت، لكنني سمعتهم يتمتمون بصوت منخفض في الطابق العلوي. كانت بيلا على الأريكة... مثل البارحة. لم يكن في ذراعها إلا أنبوب واحد... وكان كيس السيروم يتدلى من حامل خلف الأريكة. أنها ملفوفة بلحافين اثنين... لقد أصغوا إلى ما قلته لهم!

رأيت روزالي متربعة على الأرض عند رأس بيلا. أما إدوارد فكان جالساً على طرف الأريكة الآخر واضعاً رجلي بيلا في حضنه. رفع رأسه عندما دخلت وابتسم لي... مجرد انحناءة صغيرة في شفتيه... كما لو أن أمراً سرّه!

لم تسمعني بيلا! لكنها التفتت عندما التفت إدوارد وابتسمت أيضاً. ابتسمت بطاقة حقيقية وأشرق وجهها كله. لا أذكر المرة الأخيرة التي رأيتها فيها مسرورة بلقائي إلى هذا الحد.

ماذا بها؟ أليس هذا واضحاً؟ إنها متزوجة! سعيدة بزواجها أيضاً!... لاشك في أنها واقعة في حب مصاص الدماء إلى حد يتجاوز مدى العقل... ولاشك في أنها حبلى أيضاً... حبلى كثيراً... حتى تكتمل الصورة.

ما الذي يجعلها مبتهجة برؤيتي إلى هذا الحد؟ هل زينت يومها كله بمجرد دخولي من هذا الباب؟

ليتها لا تهتم بي!... أكثر من هذا... ليتها لا تريد وجودي! إذن، لكان ذهابي أكثر سهولة.

بدا إدوارد متفقاً مع أفكاري... غريب مدى توافقنا في الآونة الأخيرة! إنه يعبس الآن متفرساً في وجهها المبتسم لي.

غمغمت بصوت يغالبه الإرهاق: «كانوا يريدون الحديث معي فقط... لا أتوقع هجوماً».

قال إدوارد: «نعم!... سمعت القسم الأكبر من الحديث».

أيقظني هذا قليلاً... لقد كنت على مسافة خمسة كيلومترات من المنزل: «كيف؟».

«أسمعك الآن بوضوح أكبر من ذي قبل... هذا بسبب الاعتياد... وبسبب التركيز. كما أن التقاط أفكارك يكون أسهل عندما تكون في هيئتك البشرية. وهذا ما جعلني أستطيع سماع الجزء الأكبر من الحديث».

«أوه!»... أزعجني هذا قليلاً... لماذا؟... نسيت انزعاجي وقلت: «جيد!... لا حاجة إذن لإعادة الكلام».

قالت بيلا: «يجب أن تنام! لكني أظن أنك ستسقط نائماً على الأرض بعد ثوان قليلة... لذلك... لا داعي لأن أطلب منك النوم.

مدهش! كم تحسنت بيلا! كم تبدو أقوى الآن! شممت رائحة دم طازج ورأيت الكأس بين يديها من جديد. ما كمية الدم اللازمة حتى تستمر على هذا الوضع؟ هل سينطلقون إلى الصيد في أرجاء المنطقة في لحظة من اللحظات؟

توجهت إلى الباب وأنا أعد الثواني أثناء سيري: «ثانية... ثانيتان...»

قالت روزالي: «أين تذهب أيها الكلب الهجين؟»

سألتها دون أن أتوقف ودون أن أستدير لأنظر إليها: «هل تعرفين كيف يغرقون الشقراوات يا روزالي؟... يضعون مرآة في قاع البركة!»

سمعت ضحكة إدوارد عندما كنت أغلق الباب. بدا أن مزاجه يتحسن مع تحسن صحة بيلا.

صاحت روزالي في إثري: «لقد سمعت ذلك من قبل!»

سرت بخطوات واسعة هابطاً درجات المدخل. ما كان همي إلا أن أجرجر نفسي إلى مسافة كافية بين الأشجار حتى يصبح الهواء نظيفاً من الرائحة. كنت أعتزم وضع الملابس على مسافة معقولة من المنزل حتى لا أضطر إلى ربطها إلى ساقي... وحتى لا تلازمني رائحتها أيضاً. رحت أفك أزرار القميص الجديد... ليست الأزرار شيئاً مناسباً لنا!

سمعت الأصوات عندما كنت أسير متعباً عبر المرج.

سألت بيلا: «إلى أين تذهب؟»

قال إدوارد: «ثمة شيء نسيت أن أقوله لجايكوب».

«دعه ينام... تستطيع تأجيل ذلك الشيء».

نعم!... أرجوك... دعني أنام!

«لن يستغرق الأمر إلا لحظة قصيرة».

استدرت ببطء. كان إدوارد قد خرج من الباب. كان على وجهه تعبير اعتذار أثناء اقترابه مني.

«ماذا لديك الآن؟»

قال: «أنا آسف!»... ثم تردد كما لو أنه لا يعرف كيف يعبر عن أفكاره في رأسه.

«ماذا في رأسك يا قارئ الأفكار؟»

تمتم إدوارد: «عندما كنت تتحدث مع الوفد الذي أرسله سام كنت أنقل الكلام إلى كارلايل وإيزمي والآخرين لحظة بلحظة. لقد قلقوا...!»

«انظر!... لن نتخلى عن الحراسة. ليس عليكم أن تصدقوا سام كما صدقناه. إننا مستمرون على يقظتنا رغم ذلك!»

«لا! لا! يا جايكوب... لا أقصد هذا. نحن نثق في حسن تقديرك. لكن إيزمي هالتها المشقات التي تتعرضون لها. لقد طلبت مني أن أتحدث إليك على انفراد بهذا الشأن».

فاجأني هذا: «مشقات!»

«يزعجها خاصة أنكم من غير بيت الآن. وهي حزينة لأنكم... ليس لديكم شيء».

ضحكت ساخراً... غريب أمر مصاصة الدماء... هذه الدجاجة الأم!... «لا مشكلة لدينا! قل لها أن لا داعي للقلق».

«لكنها تريد أن تفعل كل ما تستطيع فعله. هي تعرف أن ليا لا تحب أن تأكل وهي على صورة ذئب!»

قلت مطالباً: «وماذا؟»

«لدينا طعام بشري طبيعي هنا يا جايكوب. من أجل المظاهر... ومن أجل بيلا أيضاً. تستطيع ليا أن تحصل على كل ما يلزمها... نرحب بكم جميعاً».

«سوف أقول ذلك لها».

«إن ليا تكرهنا».

«إذن!»

«حاول أن تنقل لها الأمر بطريقة تجعلها تفكر فيه... إذا لم يكن لديك مانع».

«سأفعل ما أستطيع».

«ثم هناك مسألة الملابس أيضاً».

نظرت إلى الملابس التي كنت أرتديها: «أوه! نعم... شكراً!»... ليس من حسن الذوق أن أقول شيئاً عن سوء رائحتها.

ابتسم إدوارد... قليلاً: «نستطيع تقديم يد المساعدة فيما يخص أي احتياجات أخرى. نادراً ما تسمح لنا أليس بارتداء الثياب نفسها مرتين. لدينا أكوام من الملابس الجديدة التي نعتزم توزيعها على المحتاجين. وأظن أن قياس ليا قريب من قياس إيزمي...»

«لست واثقاً من شعور ليا إزاء ارتداء ملابس ارتداها مصاصو الدماء. ليست لديها الروح العملية التي عندي!»

«أنا واثق من أنك تستطيع تقديم هذا العرض إليها بأفضل طريقة ممكنة. إضافةً إلى أننا جاهزون لتقديم أي شيء يمكن أن يلزمكم... أو وسيلة نقل... أو أي شيء آخر. يمكنكم الاستحمام هنا أيضاً بما أنكم تفضلون النوم في الخارج. أرجوك... لا تعتبروا أنفسكم من غير منزل».

قال الجملة الأخيرة بنعومة... لم يكن يحاول إبقاء صوته منخفضاً الآن... كانت جملته نابعة عن إحساس صادق.

حدقت فيه لحظة وأنا أطرف بعيني نعساً: «هذا لطف منك! قل لإيزمي إننا نقدر عرضها. لكن مسار دوريات الحراسة يتقاطع مع النهر في عدة أماكن... لذلك فإننا نستحم في النهر لنحافظ على نظافتنا... شكراً لك».

«مع ذلك... أرجو أن تنقل العرض إلى ليا».

«طبعاً... طبعاً!»

«شكراً لك».

استدرت مبتعداً عنه لكني تسمّرت في مكاني عندما سمعت تلك الصرخة

المتألمة القادمة من داخل المنزل. عندما التفت. كان إدوارد قد اختفى.

لماذا الآن؟...

تبعت إدوارد وأنا أجر أقدامي مثل ميت. كان عقلي ميتاً أيضاً. ليس لدي خيار... ثمة شيء سيئ!... سأذهب لأعرف ما الأمر. لن أستطيع أن أفعل شيئاً... وسوف تزيد مشاعري سوءاً.

يبدو أن لا مناص!

دخلت المنزل من جديد. كانت بيلا تلهث متكورة على نفسها... حول تلك الحدبة في بطنها. رأيت روزالي تحتضنها... أما إدوارد وكارلايل وإيزمي فكانوا يحيطون بهما. لمحت حركة سريعة... كانت أليس واقفة في أعلى السلم تحدق إلى الغرفة ضاغطة يديها على صدغيها. كان شكلها غريباً... وكأنها ممنوعة من الدخول.

لهثت بيلا: «أمهلني لحظة يا كارلايل».

قال الطبيب قلقاً: «بيلا!... سمعت صوت شيء ينكسر. يجب أن ألقي نظرة».

«صحيح!... إنه ضلع... أوه... نعم... هنا تماماً»... أشارت إلى جانبها الأيمن محاذرة لمس المكان بإصبعها.

إنه يحطم عظامها الآن...!

«لابد من إجراء صورة شعاعية. فقد ينتج عن الكسر بعض الشظايا. لا نريد أن تسبب الشظايا جروحاً لك».

أخذت بيلا نفساً عميقاً: «لا بأس!»

حملتها روزالي برفق. كاد إدوارد يجادلها... لكنها كشرت عن أسنانها وقالت: «لقد حملتها وانتهى الأمر».

صارت بيلا أكثر قوة الآن... لكن ذلك الشيء صار أكثر قوة أيضاً. لا يمكن تجويع أحدهما من غير تجويع الآخر... وهما الآن يتحسنان معاً. لا سبيل إلى الفوز...

حملت الشقراء بيلا إلى أعلى السلم بسرعة. وكان كارلايل وإدوارد في أعقابها تماماً... لم ينتبه أي منهما إلى وجودي واقفاً كالأبله عند الباب.

إذن... لديهم بنك دم وآلة تصوير بالأشعة السينية! أظن أن الطبيب أحضر مستلزمات عمله كلها.

ما كان إرهاقي يسمح لي بأن أتبعهم... ما كان يسمح لي بأن أتحرك. استندت إلى الجدار... ثم انزلقت إلى الأرض. ما زال الباب مفتوحاً... أدرت أنفي ناحية الباب شاكراً تلك النسائم النظيفة التي تهب من الخارج. أسندت رأسي إلى حافة الباب الخشبية... ورحت أصغي.

سمعت صوت آلة التصوير في الأعلى... أو، ربما افترضت أن ما سمعته كان صوتها. ثم سمعت وقع أقدام خفيف... أقدام تهبط درجات السلم. لم أنظر لأرى من هو مصاص الدماء القادم صوبي.

سألتني أليس: «هل تريد وسادة؟»

غمغمت: «لا!»... ما هذا الإلحاح على حسن الضيافة؟ كان ذلك يزعجني!

قالت أليس: «لا يبدو وضعك مريحاً».

«ليس مريحاً».

«لماذا لا تغير وضعك إذن؟»

«أنا متعب!... لماذا لم تبقي في الأعلى معهم؟»

أجابتني: «إنه الصداع».

أدرت رأسي لأنظر إليها. كانت أليس مخلوقاً ضئيل الحجم... بطول ذراعي تقريباً. بل هي تبدو أصغر حجماً الآن... كأنها تقلصت متجمعة على نفسها. رأيت وجهها الصغير منكمشاً من الألم.

«هل يصاب مصاصو الدماء بالصداع؟»

«لا يصاب به مصاصو الدماء العاديون!»

صدر عني صوت متهكم... هل يوجد مصاصو دماء عاديون؟

سألتها جاعلاً سؤالي في صيغة اتهام: «لماذا لا أراك مع بيلا إطلاقاً؟»... لم يخطر لي هذا الأمر من قبل لأن ذهني كان مشغولاً بأمور أخرى. لكن من الغريب فعلاً أنني لم أر أليس بالقرب من بيلا... منذ قدومي إلى هنا على الأقل. لعل روزالي لا تكون بالقرب منها إذا احتلت أليس ذلك المكان...

«كنت أظن أنكما صديقتان حميمتان».

«كما قلت لك»... جلست متجمعة على حافة الدرجة الأخيرة... على بعد أقدام مني... طوقت ركبتيها الهزيلتين بذراعين هزيلتين... «إنه الصداع!»

«هل تصيبك بيلا بالصداع؟»

«نعم!»

عبست!... أنا متعب إلى درجة لا تسمح لي بحل الأحجيات. تركت رأسي يستدير ناحية الهواء الطري الداخل من الباب... أغمضت عيني.

صححت أليس جملتها: «ليست بيلا في الواقع... إنه... الجنين».

آه!... ثمة من يشعر بمثل شعوري. ما كانت ملاحظة ذلك أمراً صعباً... لقد قالت تلك الكلمة بضغينة واضحة... مثل إدوارد.

قالت لي: «لا أستطيع رؤيته!»... لكن... لعلها كانت تحدث نفسها. لقد حسبتني نائماً... «لا أستطيع أن أرى أي شيء يتعلق به... مثلك أنت».

أجفلت... ثم شددت على أسناني. لم تعجبني مقارنتي مع ذلك المخلوق.

«إن بيلا تقف في طريقي. إنها تحيط به تماماً... فتجعله... غير واضح. كما يكون الأمر في حالة الاستقبال التلفزيوني السيئ... كما يكون عندما تحاول تركيز أنظارك على الأشخاص الضبابيين الذين يظهرون على الشاشة لحظة ثم يختفون. يؤلمني رأسي عندما أنظر إليها. لا أستطيع الرؤية إلا بضع دقائق في المستقبل. إن الجنين... جزء من مستقبلها... إلى حد كبير. وعندما اتخذت قرارها... عندما أدركتُ أنها تريد ذلك

الجنين. . . ما عادت تظهر لي بوضوح. . . لقد أخافتني كثيراً».

صمتت أليس لحظات ثم أضافت: «عليّ الاعتراف بأن وجودك بالقرب مني مريح جداً. . . رغم رائحة الكلاب الرطبة التي تفوح منك. مريح. . . لأن كل شيء يختفي. كما يحدث عندما أغمض عينيّ. إنه يخدر الصداع».

تمتمت: «يسعدني أن أريحك يا أليس».

«أتساءل ما الشيء المشترك بينكما!. . . ما الذي يجعلكما متشابهين من هذه الناحية؟»

شعرت بحرارة مفاجئة في عظامي. شددت على قبضتي حتى أسيطر على انزعاجي ثم قلت عبر أسناني المطبقة: «لا شيء مشترك بيني وبين من يمتص حياتها».

«لا بأس! لكن ثمة شيء في هذا الأمر!»

لم أجبها. اختفت الحرارة. . . كنت متعباً. . . متعباً. . . إلى حد لا أستطيع معه أن أحافظ على غضبي.

سألتني: «هل يزعجك بقائي جالسة هنا. . . بالقرب منك؟»

«لا أعتقد!. . . إن الرائحة في كل مكان».

قالت: «شكراً!. . . هذا أفضل ما يمكنني الحصول عليه. . . فأنا لا أستطيع تناول الأسبرين».

«هل تستطيعين الصمت؟ أنا نائم هنا!»

لم تجبني. . . لقد لزمت الصمت فوراً. ثم. . . غفوت بعد ثوان قليلة.

حلمت أنني ظمآن حقاً. كانت أمامي كأس كبيرة من الماء. . . باردة جداً. . . كانت الرطوبة تتكثف جارية على جوانبها. أمسكت بالكأس وأفرغت قسماً منها في جوفي. . . لكنني سرعان ما اكتشفت أن ذلك لم يكن ماء. . . كان سائلاً حارقاً. اختنقت. . . وقذفت ما بجوفي من السائل في كل مكان حولي. . . خرج بعضه من أنفي. . . كان حارقاً. شعرت بالنار في أنفي. . .

أيقظني هذا الألم في أنفي. . . أيقظني إلى حد تذكرت معه أين سقطت

نائماً! كانت الرائحة واخزة فعلاً. . . خاصة بالنظر إلى أن أنفي لم يكن داخل المنزل فعلاً. يا للقرف!. . . كان من حولي ضجيج أيضاً. كان احدهم يضحك بصوت مرتفع. إنها ضحكة مألوفة. . . لكنها غير منسجمة مع الرائحة. . . لا تنتمي إليها.

تنهّدت ثم فتحت عيني. كانت السماء رمادية كالحة في الخارج. . . إن الوقت نهار. . . لكن. . . ليس ثمة ما يشير إلى الوقت. لعله وقت الغروب. . . كانت السماء أقرب إلى الظلمة.

غمغمت الشقراء من مكان غير بعيد: «في الوقت تقريباً. . . كان هذا المزعج متعباً بعض الشيء».

انقلبت على جانبي ثم انتصبت جالساً. أثناء ذلك فهمت مصدر تلك الرائحة. لقد وضع أحدهم وسادة عريضة من الريش تحت رأسي. أظن أنه كان يحاول القيام بمبادرة لطيفة! إلا إذا كانت روزالي هي من وضع الوسادة!

ما أن صار وجهي بعيداً عن رائحة الريش الفظيعة حتى التقط أنفي روائح أخرى. شيء مثل اللحم والقرفة. . . روائح امتزجت برائحة مصاصي الدماء.

رفت عيناي. . . استوعبت شكل الغرفة من حولي.

لم يتغير وضع الغرفة كثيراً. . . باستثناء أن بيلا كانت الآن جالسة في منتصف الأريكة. . . ما كان في ذراعها أنابيب. كانت الشقراء جالسة عند قدميها تضع رأسها على ركبتي بيلا. كم يزعجني أنها تلمسها بهذا الشكل!. . . كان إدوارد جالساً بجانبها ممسكاً بيدها. كانت أليس جالسة على الأرض أيضاً. . . مثل روزالي. ما عاد وجهها متقلصاً من الألم الآن. كان السبب واضحاً. . . لديها الآن مسكن آخر للألم.

صاح سيث: «انظروا. . . لقد استيقظ جايكوب».

كان جالساً بجانب بيلا واضعاً ذراعه حول كتفيها وفي حجره طبق عامر بالطعام.

ما هذا؟. . .

قال إدوارد في حين كنت أنهض واقفاً: «لقد جاء بحثاً عنك! ثم أقنعته إيزمي بالبقاء لتناول الفطور».

التقط سيث تعبير وجهي فسارع إلى التوضيح: «نعم يا جايكوب!... كنت أتفقدك لأرى إن كنت بخير... لأنك لم تعد إلينا! لقد قلقت ليا. قلت لها إن الاحتمال الأغلب هو أنك سقطت نائماً في صورتك البشرية... لكنك تعرفها! على أي حال... وجدت لديهم كل هذا الطعام... الطيب»... استدار نحو إدوارد... «أنت تعد طعاماً لذيذاً!»

تمتم إدوارد: «شكراً!»

حاولت عدم الشد على أسناني... لم أستطع انتزاع عيني من ذراع سيث المحيطة ببيلا.

قال إدوارد بصوت هادئ: «لقد أصيبت بيلا بالبرد».

صحيح!... ليس هذا من شأني على أي حال! هي ليست لي!

سمع سيث ما قاله إدوارد... ثم نظر في وجهي... ثم... صار فجأة في حاجة إلى يديه الاثنتين حتى يأكل. سحب يده من على كتف بيلا ووضعها في طبقه. سرت فوقفت على مسافة خطوات قليلة من الأريكة... مازلت أحاول السيطرة على نفسي.

سألت سيث بصوت مازال ناعساً: «هل تقوم ليا بالدورية الآن؟»

قال وهو يمضغ: «نعم!»... كان مرتدياً ثياباً جديدة... أيضاً. كانت على مقاسه... عكس ثيابي... «إنها في الدورية! لا تقلق»... سوف تعوي إذا حدث شيء. تبادلنا عند منتصف الليل. لقد جريت اثنتي عشرة ساعة!»... كان فخوراً بذلك... وكان فخره بادياً في صوته.

«منتصف الليل!... لحظة... ما الساعة الآن؟»

ألقى سيث نظرة سريعة إلى النافذة: «الفجر تقريباً».

عجباً!... لقد نمت بقية النهار كله ثم نمت طيلة الليل: «آسف! آسف لأنني نمت كل هذه المدة يا سيث... حقاً... كان عليك أن توقظني».

«لا يا صديقي!... كنت في حاجة إلى هذا النوم. أنت لم تنم... منذ متى؟ منذ ليلة كاملة قبل آخر دورية مع سام! أربعون ساعة! خمسون ساعة! أنت لست آلة يا جايكوب. كما أن شيئاً لم يحدث في غيابك».

لم يحدث شيء أبداً! ألقيت نظرة سريعة ناحية بيلا. لقد عاد لونها كما أذكره. شاحبة... لكن... مع ذلك اللون الوردي خلف شحوبها. عادت شفتاها ورديتين من جديد. حتى شعرها بدا في وضع أفضل... إنه أكثر التماعاً الآن. رأتني أنظر إليها نظرة فاحصة... فابتسمت.

سألتها: «كيف ضلعك؟»

«أفضل بكثير... لم أعد أشعر به».

نظرت إليها مدهوشاً فسمعت إدوارد يشد على أسنانه وفهمت أن موقفها المكابر يزعجه بقدر ما يزعجني.

سألت بصوت متهكم قليلاً: «ماذا لديكم للإفطار؟ أي نوع من الدم؟»

مدت بيلا لسانها لي. هكذا هي تماماً... بيلا! وقالت: «بيض مقلي»... لكن عينيها اتجهتا إلى الأسفل فرأيت كأس الدم موضوعة بينها وبين إدوارد.

قال سيث: «اذهب لتناول بعض الطعام يا جايكوب. ثمة طعام كثير في المطبخ. لابد أنك جائع كثيراً!»

نظرت إلى الطعام الذي في طبقه. بدا كأنه بيض مقلي مع الجبن... ومعه الربع الأخير من فطيرة ضخمة بالقرفة. صاحت معدتي... لكني تجاهلتها.

سألت سيث بلهجة انتقادية: «وماذا تفطر ليا؟»

قال مدافعاً عن نفسه: «انظر! لقد أوصلت الطعام إليها قبل أن آكل أي شيء. قالت إنها تفضل أن تأكل أي حيوان دهسته سيارة... لكن، أظن أنها اقتنعت. إن هذه الفطائر بالقرفة...» لم يعثر سيث على الكلمة المناسبة.

«سوف أذهب للصيد معها!»

تنهد سيث عندما استدرت مغادراً.

«لحظة يا جايكوب!»... كان هذا صوت كارلايل. عندما استدرت صوبه حمل وجهي تعبير احترام لعله كان أكثر مما يمكن أن يظهر على وجهي لو أن غيره استوقفني.

«نعم!»

اقترب مني كارلايل في حين اندفعت إيزمي خارجة من الغرفة. توقف على بعد خطوات مني... أبعد قليلاً مما يكون بين بشريين يتحدثان. قدرت له إعطائي تلك الفسحة.

بدأ الكلام بطريقة جادة: «بمناسبة الحديث عن الصيد!... ستكون هذه مشكلة بالنسبة لأسرتي. أعرف أن الهدنة السابقة ما عادت سارية المفعول الآن، وهذا ما يجعلني في حاجة إلى مشورتك. هل سيترصدنا سام خارج المنطقة التي حددتها لهم؟ لا نريد المخاطرة بإيذاء أحد من أسرتكم... ولا نريد المخاطرة بفقدان أحد من أسرتنا. لو كنت مكاني... فكيف تتصرف؟»

فوجئت بعض الشيء لأنه طرح الموضوع بهذا الشكل. كيف أتخيل نفسي مكانه... مصاص دماء؟ لكني كنت أعرف سام.

قلت: «إنها مخاطرة!»... حاولت تجاهل العيون الأخرى التي أحسست بها مسلطة عليّ... حاولت أن أتكلم معه فقط... «لقد هدأ سام بعض الشيء، لكني واثق من أنه يرى المعاهدة باطلة الآن. إن رأى أن العشيرة، أو أي بشري، في خطر حقيقي فلن يطرح أسئلة قبل أن يتصرف... أنت تفهم قصدي! لكن، رغم ذلك كله، تظل لابوش أولوية بالنسبة له. ليس لديه العدد الكافي لحراسة جميع الناس والاستمرار في إرسال حملات صيد كبيرة بحيث تشكل خطراً حقيقياً. أراهن أنه يقصر نشاطه الآن على منطقة محددة.

أومأ كارلايل برأسه مفكراً.

«لذلك أفضل أن أقول... اذهبوا معاً... من باب الاحتياط! ولعل الأفضل أن تذهبوا نهاراً لأن من المتوقع خروجكم ليلاً... أنتم تتنقلون

بسرعة... اذهبوا إلى الجبال واصطادوا هناك... بعيداً... حيث لا فرصة لأن يرسل سام أحداً».

«وهل نترك بيلا وحدها من غير حماية؟»

«وماذا نفعل نحن... ألا تظن أننا قادرون على حمايتها؟»

ضحك كارلايل ثم عادت الجدية إلى وجهه: «جايكوب!... لا يمكنك أن تقاتل إخوانك».

«لست أقول أن هذا سيكون سهلاً... لكن، إذا كانوا قادمين من أجل قتلها فعلاً... فسوف أستطيع إيقافهم».

هز كارلايل رأسه قلقاً: «لا! لم أقصد أنك لن تستطيع قتالهم. أقصد أن ذلك سيكون شيئاً خاطئاً تماماً. لا أستطيع أن أحمّل ضميري هذا العبء!»

«لن يحمل ضميرك هذا العبء يا دكتور!... بل ضميري أنا. أستطيع التعامل مع هذا الأمر».

«لا يا جايكوب!... سوف نحرص على التصرف بطريقة نستطيع معها تجنب ذلك».... عبس مفكراً ثم قال: «سوف نذهب في مجموعات من ثلاثة أشخاص». ثم أضاف بعد ثوان: «لعل تلك هي الطريقة الأفضل».

«لا أعرف يا دكتور!... لا أظن أن انفصالكم فكرة صائبة».

«لدينا قدرات إضافية يمكن أن تعوض الخلل. إذا كان إدوارد واحداً من الثلاثة الذاهبين إلى الصيد فسوف يتمكن من إنذارنا عندما يصبح الخطر على مسافة خمسة كيلومترات».

في تلك اللحظة... نظرنا معاً صوب إدوارد. جعل تعبير وجهه كارلايل يتراجع سريعاً: «لا بد أن ثمة طرقاً أخرى أيضاً». من الواضح أنه ما من حاجة جسدية يمكن أن تجعل إدوارد يبتعد عن بيلا الآن... «أليس!... أظن أنك قادرة على معرفة الطرق غير الآمنة!»

قالت أليس مومئة برأسها: «نعم... هذا سهل».

استرخى إدوارد بعد توتره لسماع جملة كارلايل الأولى. كانت بيلا تنظر

إلى أليس منزعجة... رأيت ذلك التغضن الصغير بين عينيها... التغضن الذي ينبئ بتوترها.

قلت: «لا بأس إذن!... فليكن ذلك!... سوف أذهب. سيث!... سوف أنتظر قدومك عند المغيب. عليك أن تنال قسطاً من النوم في مكان ما... هل فهمت؟»

«طبعاً يا جايكوب!... سوف أعود فور استيقاظي... إلا...» تردد قليلاً وهو ينظر إلى بيلا... «هل أنت في حاجة إلى وجودي؟»

قلت بحدة: «لديها بطانيات!»

قالت بيلا بسرعة: «أنا بخير يا سيث. شكراً لك».

عند ذلك عادت إيزمي إلى الغرفة حاملة طبقاً كبيراً مغطى بين يديها. توقفت مترددة بجانب كارلايل... نظرت عيناها الواسعتان الذهبيتان الداكنتان إلى وجهي. مدت يدها بالصحن وتقدمت خطوة وجلة إلى الأمام.

قالت بصوت هادئ: «جايكوب!»... لم يكن صوتها ثاقباً مثل أصوات الآخرين... «أعرف أن تناول الطعام هنا... ليس مريحاً لك... إن الرائحة مزعجة جداً! لكني سأكون مسرورة إذا أخذت معك بعض الطعام عندما تذهب. أعرف أنك لا تستطيع الذهاب إلى البيت... بسببنا نحن. أرجوك... اقبل هذا مني... فهذا يريحني. خذ شيئاً حتى تأكل»... مدت يدها بالطبق... كان وجهها راجياً... لطيفاً! لا أعرف كيف استطاعت أن تفعل هذا... كانت تبدو في أواسط العشرينات... وكانت شاحبة اللون أيضاً... لكن شيئاً في تعبير وجهها ذكرني فجأة بأمي.

غمغمت: «أوه! بالطبع... أظن أن ليا مازالت جائعة».

مددت يدي وأخذت الطعام... أمسكته بيدي الممدودة... بعيداً عني. سوف ألقيه تحت شجرة أو في أي مكان. لست أريد إزعاجها.

عند ذلك تذكرت إدوارد!

«لا تقل لها شيئاً... دعها تظن أنني أكلت الطعام».

لم أنظر إليه لأرى إن كان يوافقني. عليه أن يوافقني... فهو مدين لي.

قالت إيزمي مبتسمة: «شكراً يا جايكوب». كيف يمكن أن يكون لهذا الوجه الحجري غمازات؟ بل هي واضحة جداً أيضاً!

قلت: «شكراً لك!»... أحسست بالحرارة تغمر وجهي... أكثر من المعتاد.

هذه هي مشكلة الوجود مع مصاصي الدماء. يعتاد المرء على الوجود معهم. يبدؤون العبث بنظرته إلى العالم! ويشعر أنهم صاروا أصدقاء.

سألتني بيلا وأنا أهم بالفرار: «هل ستعود يا جايكوب؟»

«أوه!... لا أدري».

شدت على شفتيها كأنها تحاول منع نفسها من الابتسام: «أرجوك!... قد أشعر بالبرد».

استنشقت نفساً عميقاً من أنفي. ثم أدركت... بعد فوات الأوان... أن تلك لم تكن فكرة سديدة... إنها الرائحة... «قد أعود».

نادتني إيزمي وأنا أختفي خلف الباب: «جايكوب... ثمة سلة من الملابس وضعتها عند المدخل. إنها من أجل ليا. لقد غسلتها منذ فترة وجيزة... حاولت قدر استطاعتي... عدم لمسها. هل تأخذها معك من أجلها؟»

قلت: «طبعاً!» ثم خرجت مسرعاً قبل أن يتمكن أحد من توريطي في شيء آخر.

15

تيك توك تيك توك تيك توك

«اسمع يا جايكوب! أظن أنك قلت لي أن أعود قبل المغيب. لماذا لم تجعل ليا توقظني قبل أن تنام».

«لم أكن في حاجة إليك. مازلت صاحياً».

كنا على وشك سلوك النصف الشمالي من الدائرة.

«هل من جديد؟»

«لا! لا شيء إطلاقاً».

«هل قمت بجولات استكشافية؟»

ميز سيث إحدى النقاط التي انحرفت فيها عن الطريق لأقوم بجولات استكشافية فاندفع في ذلك الدرب الجديد.

«نعم! لقد قمت ببعض الجولات الصغيرة. للتأكد فقط! . . . إذا كان أفراد أسرة كولن يعتزمون الذهاب إلى الصيد . . .»

عاد سيث إلى مساره الأصلي.

كان الجري مع سيث أسهل من الجري مع ليا. صحيح أنها تبذل جهدها . . تحاول حقاً . . . لكن ثمة شيء مزعج في أفكارها. هي لا تريد أن تكون هنا. لا تريد أن ترق مشاعرها تجاه مصاصي الدماء . . . كما يحدث معي. لا تريد التعامل مع صداقة سيث الدافئة معهم . . . صداقة تتعزز شيئاً بعد شيء.

هذا غريب! كنت أظن أن مشكلتها الأكبر هي . . . أنا! كان كل واحد منا يثير أعصاب الآخر عندما كنا في قطيع سام. لكنها لا تظهر أي عداوة تجاهي الآن . . . كانت عداوتها موجهة إلى أسرة كولن فقط . . . وإلى بيلا! أتساءل عن السبب! لعل هذا بسبب امتنانها لأني لم أجبرها على الذهاب. لعل هذا لأنني صرت أفهم عداءها بشكل أفضل الآن. مهما يكن السبب . . . ما كان الجري مع ليا مزعجاً بقدر ما كنت أتوقع.

لكنها لم تتساهل كثيراً بالطبع . . . كان الطعام الذي أرسلته إيزمي . . . والملابس . . . يسير مع مجرى النهر الآن. حتى بعد أن أكلت حصتي . . . لا لأن رائحة الطعام بدت شهية لا تقاوم بعيداً عن رائحة مصاصي الدماء . . . بل لكي أشجعها وأضرب لها مثلاً في التسامح! . . . لكنها رفضت. لم تكن قد شبعت تماماً من ذلك الظبي الصغير الذي اصطادته بعد الظهر. بل إنه جعل مزاجها أسوأ من ذي قبل . . . كانت تكره اللحم النيء!

قال سيث مقترحاً: «لعل علينا الذهاب إلى الشرق قليلاً! فلنذهب ونرَ إن كانوا كامنين هناك».

قلت موافقاً: «كنت أفكر في هذا. لكن، دعنا نؤجل الأمر حتى نكون مستيقظين جميعاً. لا أريد أن نتهاون في الحراسة. لكن علينا أن نفعل ذلك قبل خروج أسرة كولن إلى الصيد!»

«صحيح!»

جعلني هذا أفكر!

تستطيع أسرة كولن الخروج من المنطقة بسلام . . . لكن عليهم متابعة السير. لعل من الأفضل لو ذهبوا عندما جئنا نحذرهم! يستطيعون تجنب المخاطر الأخرى. ولديهم أصدقاء في الشمال. كان عليهم أن يأخذوا بيلا ويذهبوا! كان هذا يبدو حلاً واضحاً لمشكلاتهم.

لعل عليَّ أن أقترح ذلك. لكنني أخاف أن يأخذوا بهذا الرأي! لا أريد أن تختفي بيلا . . . لا أريد أن أجهل إن تمكنت من تجاوز هذه المحنة أم لا!

لا . . . هذه أفكار حمقاء. سوف أقول لهم أن يذهبوا. لا معنى لبقائهم. . . وسيكون من الأفضل لي. . . ليس أقل ألماً، لكنه شيء صحي. . . أن تذهب بيلا.

يسهل علي أن أقول هذا الآن. . . أي عندما لا تكون بيلا أمامي ناظرة إلي. . . سعيدة برؤيتي. . . ومتشبثة بالحياة بأظافرها في الوقت نفسه. . .

فكر سيث: *«أوه! لقد سألت إدوارد عن ذلك»*.

«ماذا؟»

«سألته لماذا لم يذهبوا حتى الآن. لماذا لم يذهبوا إلى منزل تانيا. . . أو غيره! . . . إلى مكان لا يستطيع سام ملاحقتهم فيه».

كان علي تذكير نفسي بأنني قررت منذ قليل أن أقدم هذه النصيحة نفسها إلى أسرة كولن. إنها النصيحة الأفضل. لا يجوز لي أن أغضب من سيث لأنه أخذ زمام المبادرة من يدي. ليس لي أن أغضب أبداً.

«وماذا قال لك؟ هل ينتظرون الفرصة المناسبة؟»

«لا! . . . لن يذهبوا».

لا يجوز أن أعتبر هذا الخبر ساراً!

«لم لا؟ هذا غباء!»

قال سيث بنبرة دفاعية: «ليس غباء! يتطلب الأمر بعض الوقت لإعداد التجهيزات الطبية التي يملكها كارلايل هنا. لقد جلب كل ما يمكن أن يلزم من أجل العناية ببيلا. ولديه هنا إمكانية الحصول على المزيد. هذا أحد الأسباب التي تحملهم على الذهاب إلى الصيد. يعتقد كارلايل أنهم سيحتاجون المزيد من الدم من أجل بيلا. . . قريباً. لقد أوشكت على استنفاد كل ما لديهم من الدم المخزن من أجلها. لا يريد كارلايل المخاطرة باستنزاف المخزون! سوف يشتري المزيد من الدم! هل كنت تعرف أنك تستطيع شراء الدم إن كنت طبيباً؟»

لم أصبح مستعداً للتفكير المنطقي بعد: «مازال الأمر يبدو غبياً!

يستطيعون حمل المؤونة معهم. . . أليس كذلك؟ ويستطيعون أن يسرقوا ما يلزمهم أينما ذهبوا! من عساه يبالي بالتوافه القانونية عندما يكون خالداً؟»

«لا يريد إدوارد المخاطرة بأي تحرك هنا».

«إنها أفضل حالاً من ذي قبل.»

وافقني سيث: «صحيح!» . . . كان. . . في رأسه. . . يقارن ذكرياتي عن منظر بيلا سابقاً بما رآه اليوم في المنزل. لقد ابتسمت له ولوحت بيدها مودعة. . . «لكنها غير قادرة على الحركة كثيراً! إن ذلك الشيء يسبب لها كثيراً من الألم.

ابتلعت تلك الحموضة التي اندفعت من معدتي إلى حلقي: *«نعم! . . . أعرف»*.

قال سيث بنبرة كئيبة: «لقد كسر لها ضلعاً آخر».

تعثرت خطواتي قليلاً قبل أن أستطيع استعادة إيقاعها من جديد.

«لقد وضع لها كارلايل بعض الجبائر من جديد. قال إنه مجرد كسر آخر. ثم قالت روزالي شيئاً من قبيل أن أجنة البشر العاديين يكسرون أضلاع أمهاتهم أحياناً. كان إدوارد على وشك اقتلاع رأسها من موضعه».

«من المؤسف أنه لم يفعل ذلك!»

كان سيث على أتم الاستعداد لنقل الأخبار الآن. . . كان يعرف مدى اهتمامي بسماعها مع أنني لم أطلب منه قول أي شيء.

«أصيبت بيلا بحمى عاودتها طيلة النهار. حمى بسيطة! . . . بعض التعرق ثم إحساس بالبرد. . . ليس كارلايل واثقاً من تفسير هذه الحمى. . . قد تكون مجرد حمى عادية. جهازها المناعي ليس في أحسن أحواله الآن».

«نعم! لابد أنها مجرد مصادفة».

«لكنها في مزاج طيب. . . رغم ذلك. لقد تحدثت مع تشارلي. . . وضحكت معه. . . وكل شيء».

«ماذا؟ . . . تشارلي! . . . ما معنى هذا؟ . . . هل تحدثت مع تشارلي؟»

تعثرت خطى سيث الآن... فاجأه غضبي الشديد: «أظن أنه يتصل كل يوم ليتحدث معها. تتصل أمها أحياناً!... يبدو صوت بيلا أفضل بكثير الآن... لذلك كانت تطمئنه إلى أن صحتها في تحسن مستمر...»

«في تحسن مستمر! فيم يفكرون؟ هل يجعلون آمال تشارلي تنمو حتى يجن تماماً عندما تموت؟ كنت أحسبهم يحاولون جعله مستعداً لتقبل فكرة موتها!... يحاولون تحضيره لذلك! فلماذا تنعش بيلا آماله على هذا النحو؟»

فكر سيث بهدوء: «لعلها لا تموت!»

أخذت نفساً عميقاً... كنت أحاول تهدئة غضبي: «اسمع يا سيث!... حتى لو تمكنت بيلا من تجاوز هذه المحنة... فهي لن تتجاوزها في صورتها البشرية. هي تعرف هذا... ويعرفه الآخرون جميعاً. إذا لم تمت فسوف يكون عليها تمثيل دور الجثة بكل نجاح. إما أن تفعل ذلك... أو تختفي! ظننت أنهم يحاولون تسهيل الأمر على تشارلي!... فلماذا...؟»

«أظنها فكرة بيلا. لم يقل أحد شيئاً، لكن ما رأيته في وجه إدوارد كان يوحي بأنه يفكر كما تفكر الآن».

من جديد... نحن على موجة واحدة... أنا ومصاص الدماء!

رحنا نجري في صمت عدة دقائق. خرجت عن الطريق سالكاً وجهة جديدة... نحو الجنوب.

«لا تبتعد كثيراً!»

«لماذا؟»

«قالت لي بيلا أن أطلب منك المرور بها قليلاً».

شددت على أسناني!

قال سيث ضاحكاً: «أليس تريدك أيضاً. تقول إنها متعبة من الجلوس في أعلى المنزل مثل خفاش يقبع في أعلى برج الجرس!... لقد تناوبنا أنا وإدوارد على تدفئة بيلا... وتبريدها... حسب موجات الحمى! إذا لم تكن تريد أن تذهب لفعل ذلك... فأنا أستطيع!»

قلت بحدة: «لا! سوف أذهب».

«لا بأس».

لم يضف سيث شيئاً. راح يركز انتباهه كله على الغابة الخالية.

تابعت سيري جنوباً... كنت أبحث عن أي شيء جديد. استدرت عائداً عندما اقتربت من أول ما يشير إلى وجود البشر. لم أقترب من البلدة كثيراً... لكنني ما كنت أريد سريان إشاعات عن وجود ذئاب... من جديد. لم يرنا أحد منذ فترة طويلة!

عدت إلى مساري الأصلي... متوجهاً نحو المنزل. كان هذا فعلاً غبياً... هذا ما أعرفه... لم أستطع التوقف. لابد أنني أستمتع بتعذيب نفسي!

«ليس بك شيء يا جايكوب!... لكن الوضع غير طبيعي».

«اسكت يا سيث... من فضلك».

«سأسكت».

لم أتردد عند الباب هذه المرة. دخلت كأني صاحب المكان. ظننت أن هذا سيزعج روزالي... لكن محاولتي كانت من غير طائل. لم أر روزالي... ولا بيلا. نظرت من حولي قلقاً... لعلهما في مكان من الغرفة لم ألاحظه!... راح قلبي يضرب على أضلاعي بطريقة غريبة... مزعجة.

همس إدوارد: «إنها بخير!... أو... على حالها... هكذا يجب أن أقول».

كان جالساً على الأريكة دافناً وجهه في كفيه. لم يرفع رأسه عندما تكلم. كانت إيزمي بجواره تطوق كتفيه بذراعها.

قال إدوارد: «أهلاً يا جايكوب!... يسعدني أنك عدت».

قالت أليس بزفرة عميقة: «وأنا أيضاً!»... جاءت تهبط السلم بخطوات حيوية متوثبة وعلى وجهها تعبير يوشك أن يقول إنني تأخرت على موعدي معها.

قلت: «مرحباً!»... ما أغرب أن أحاول أن أكون مهذباً!

«أين بيلا؟»

قالت أليس: «في الحمام!... أنت تعرف ما يسببه الطعام السائل... كما أن الحمل يساهم في الأمر أيضاً... كما يقولون».

«آه!»

وقفت حيث أنا متأرجحاً على قدمي.

قالت روزالي: «أوه! رائع!»... أدرت رأسي فرأيتها قادمة من الغرفة شبه المختفية خلف درجات السلم. كانت تحمل بيلا برفق بين ذراعيها وعلى وجهها نظرة احتقار فظة متجهة صوبي: «نعم! لقد شممت رائحة بشعة».

ثم... تماماً مثلما حدث من قبل... أشرق وجه بيلا مثلما يشرق وجه طفل صبيحة العيد. كما لو أني أحمل لها أجمل هدية في الدنيا.

ليس هذا منصفاً أبداً!

همست: «جايكوب!... لقد أتيت!»

«مرحباً يا بيلا».

نهض إدوارد وإيزمي. وضعتها روزالي برفق على الأريكة، لكن بيلا شحبت فجأة وتلوى جسدها ألماً وحبست أنفاسها... كما لو أنها لا تريد إصدار أي صوت رغم شدة الألم.

مرر إدوارد يده على جبينها ثم رقبتها. حاول أن يجعل حركته تبدو وكأنه يصحح وضع شعرها... لكنها بدت لي مثل حركة طبيب يفحص حرارة مريضه.

قال متمتماً: «هل تشعرين بالبرد؟»

«أنا بخير!»

قالت روزالي: «بيلا! تعرفين ما قاله لك كارلايل... لا تتظاهري بأن الوضع أفضل مما هو. فهذا لا يساعدنا على العناية بأي منكما».

«طيب! أشعر بالبرد قليلاً. ناولني البطانية يا إدوارد».

دهشت: «أليس هذا سبب وجودي هنا؟»

قالت بيلا: «أنت لم تدخل إلا في هذه اللحظة... بعد أن جريت طيلة اليوم! استرح دقيقة. سوف أستعيد الدفء بسرعة».

تجاهلت كلامها وذهبت لأجلس على الأرض قرب الأريكة وهي مازالت تقول لي ما أفعله. لكني... عند تلك النقطة... لم أكن واثقاً من... بدت شديدة الهشاشة... خفت أن أحركها بل خفت حتى أن أضع ذراعي حولها. لذلك اكتفيت بأن التصقت بجانبها تاركاً ذراعي تمتد على طول ذراعها ثم أمسكت يدها. وضعت يدي الأخرى على وجهها. لا أدري إن كانت تشعر بالبرد أكثر من ذي قبل!

قالت: «شكراً يا جايكوب!»... شعرت بها ترتجف.

كان إدوارد جالساً على ذراع الأريكة عند قدمي بيلا... أما عيناه فلم تفارقا وجهها.

كان من المستبعد تماماً... مع وجود كل فائقي السمع هؤلاء... أن لا يلاحظ أحد قرقعة معدتي.

قالت أليس: «روزالي! لم لا تحضرين لجايكوب شيئاً من المطبخ؟»... ما كانت أليس مرئية الآن لأنها كانت قابعة بهدوء خلف ظهر الأريكة.

نظرت روزالي غير مصدقة إلى المكان الذي انبعث منه صوت أليس.

«شكراً يا أليس! لكني لا أظن أنني أرغب في تناول شيء بصقت فيه الشقراء! أعتقد أن جسمي لن يتقبل هذا السم!»

«لن تسبب روزالي أي إحراج لإيزمي بأن تكون غير مضيافة!»

قالت الشقراء بصوت حلو مثل حلاوة السكر... صوت لم أثق فيه: «لن أحرجها أبداً!»... ثم نهضت وانطلقت خارجة من الغرفة.

تنهد إدوارد.

سألته: «هل تخبرني إذا وضعت سماً في الطعام؟»

قال يعدني: «نعم».

صدقته... لا أدري لماذا!

«سمعت قرقعة شديدة من المطبخ... وسمعت... يا للغرابة... صوتاً يشبه تكسر المعدن. تنهد إدوارد من جديد، لكنه ابتسم قليلاً أيضاً. عند ذلك عادت روزالي قبل أن يتمكن عقلي من تفسير تلك الأصوات. كانت على وجهها ابتسامة متعالية... راضية. وضعت أمامي على الأرض صحناً عميقاً فضي اللون.

«استمتع بالطعام أيها الكلب الهجين!»

لعل هذا كان وعاء كبيراً ذات يوم، لكنها أعادت تشكيله حتى صار شديد الشبه بصحن الكلب. إنها ماهرة حقاً! بل هي تعتني بالتفاصيل أيضاً... لقد حفرت على حافة الصحن كلمة «فيدو» بخط رائع.

كان الطعام يبدو شهياً جداً... كان مؤلفاً من قطع كبيرة من اللحم إضافة إلى بطاطا كبيرة مشوية... مع كل الإضافات اللازمة. قلت لها: «شكراً يا شقراء».

لم تجبني إلا بنخرة ساخرة.

سألتها: «اسمعي! هل تعرفين ماذا يسمون الشقراء التي تملك عقلاً؟»... ثم تابعت من غير توقف... «الكلب الذهبي!»

قالت: «لقد سمعت بهذا من قبل أيضاً»... لم تعد تبتسم.

«سأواصل المحاولة»... وعدتها ثم بدأت الأكل.

كشرت بقرف وهي تنظر إلي. ثم جلست في كرسي ذي ذراعين وبدأت تقلب القنوات على التلفزيون الضخم... بسرعة شديدة... لابد أنها تقلب على غير هدى... لا يعقل أنها تبحث عن قناة بعينها.

كان الطعام لذيذاً... رغم رائحة مصاصي الدماء في الهواء. لقد بدأت أتعود هذه الرائحة. أوه! ليس هذا ما أريد التعود عليه!...

عندما أنهيت طعامي (ومع أنني فكرت في لعق الصحن... لأغيظ روزالي فقط) أحسست بأصابع بيلا الباردة تتخلل شعري بنعومة. راحت تمسد الشعر خلف رقبتي.

قلت لها: «هل حان وقت حلاقة الشعر؟»

قالت: «لقد صار شعرك مشعثاً... ربما...»

«دعيني أحزر! ثمة شخص هنا كان يقص الشعر في أحد صالونات باريس!»

ضحكت: «ربما!»

قلت قبل أن تتمكن من قول شيء: «لا... شكراً!... يمكنني الانتظار عدة أسابيع».

جعلتني هذه العبارة أتساءل عن الزمن الباقي لها. حاولت التفكير في طريقة مهذبة للسؤال عن الأمر.

«إذن... هممم... ما هو... الموعد؟ أقصد موعد مجيء الوحش الصغير!»

صفعت بيلا مؤخر رأسي بقوة لا تعدو قوة ريشة تطير في الهواء... لكنها لم تجبني.

قلت لها: «أتكلم جاداً! أريد أن أعرف الوقت الذي سأمضيه هنا»... الوقت الذي ستمضيه أنت هنا... هكذا أضفت في ذهني. استدرت لأنظر إليها. كانت تفكر... ظهرت بين حاجبيها تلك العقدة التي تدل على توترها.

تمتمت: «لا أعرف! لا أعرف بالضبط!... من الواضح أننا لا نتحدث عن مدة الشهور التسعة التقليدية. ولا نستطيع الحصول على صورة بالأمواج فوق الصوتية. وهذا ما يجعل كارلايل يعتمد في تقديراته على حجم بطني من الخارج. في الحمل الطبيعي... يبلغ قياس هذه المنطقة أربعين سنتيمتراً»... أشارت بيدها إلى أسفل بطنها المنتفخ... «عندما يكتمل نمو الجنين. يكبر البطن سنتيمتراً واحداً في الأسبوع. كان قياس بطني ثلاثين سنتيمتراً هذا الصباح. وهو يزداد بمعدل سنتيمترين كل يوم... أكثر من ذلك أحياناً...»

أسبوعان في اليوم الواحد... الأيام تطير طيراناً. إن حياتها تمضي

مسرعة. كم يوماً بقي لها إذاً؟ إذا كان قياس بطنها سيصل إلى أربعين سنتيمتراً. . . أربعة أيام! أذهلني هذا.

سألتني: «هل أنت بخير؟»

أومأت برأسي. . . لم أكن واثقاً من أنني أستطيع استخدام صوتي.

كان إدوارد يشيح بوجهه عني وهو يستمع إلى أفكاري. لكنني كنت أرى انعكاس صورته في المرآة الجدارية. رأيت ذلك الرجل المحترق من جديد. . .

غريب. . . كم يزيد تحديد الموعد النهائي من صعوبة التفكير في الذهاب. . . أو في ذهابها هي. كنت مسروراً لأن سيث طرح الأمر عليهم. . . فهذا ما جعلني أعرف أنهم باقون هنا. لن أستطيع تحمل أن أمضي الوقت في التساؤل عما إذا كانوا راحلين. . . إن كانوا يعتزمون أخذ يوم أو يومين أو ثلاثة من هذه الأيام الأربعة. . . أيامي الأربعة!

وغريب أيضاً. . . رغم معرفتي بأن الأمر شارف على الانتهاء. . . غريب أن تأثيرها علي صار أكثر من ذي قبل. . . أصعب كسراً. . . كأنه يكبر مع كبر بطنها. . . كما لو أنها تكبر حجماً فتزداد قوة جاذبيتها.

حاولت. . . لدقيقة. . . أن أنظر إليها عن بعد. . . أن أفصل نفسي عن قوة الجاذبية تلك. كنت أعرف أن شعوري بالحاجة إليها صار. . . أكثر من السابق. . . لم يكن من صنع خيالي. لماذا؟ هل لأنها تموت؟ أم لأنني أعرف أنها إن لم تمت فسوف تتحول إلى شيء آخر لا أعرفه ولا أفهمه؟

مرت بإصبعها على خدي. . . كان جلدي مبللاً حيث لمسته.

قالت بصوت يشبه صوت من يدندن لحناً: «سوف تسير الأمور بخير!». . . لا أهمية لأن تكون هذه الكلمات من غير معنى. قالتها مثلما يغني الناس تلك الترانيم عديمة المعنى للأطفال حتى يناموا.

تمتمت: «صحيح!»

تكورت ملتصقة بذراعي ووضعت رأسها على كتفي: «لم أظن أنك ستأتي. قال سيث إنك قادم. . . وكذلك قال إدوارد. . . لكني لم أصدقهما».

سألتها بصوت أجش: «لم لا؟»

«أنت لست مسروراً هنا. . . لكنك تأتي!»

«أنت تريدين وجودي هنا».

«أعرف هذا! . . . لكنك لست مضطراً إلى المجيء. . . فرغبتي في وجودك ليست أمراً منصفاً! . . . سأفهم عدم مجيئك».

ساد الصمت دقيقة كاملة. استعاد إدوارد السيطرة على وجهه. راح ينظر إلى التلفزيون الذي استمرت روزالي في تقليب قنواته. لقد بلغت القناة رقم 600. كم يا ترى سيطول بها الأمر حتى تعود إلى البداية؟

همست بيلا: «شكراً لمجيئك!»

سألتها: «هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟»

«طبعاً».

لم يظهر على إدوارد أنه منتبه إلينا إطلاقاً. . . لكنه كان يعرف ما كنت أعتزم قوله. . . فلم يخدعني.

«لماذا تريدين وجودي هنا؟ يستطيع سيث تدفئتك. كما أن وجوده هنا أسهل. . . ذلك الصغير! لكن. . . عندما أدخل من هذا الباب. . . أراك تبتسمين كما لو أنني الشخص المفضل عندك في هذا العالم كله».

«أنت واحد من المفضلين».

«هذا مزعج. . . أنت تعرفين!»

تنهدت: «نعم. . . آسفة!»

«رغم ذلك. . . لماذا؟ لم تجيبي على سؤالي».

كان إدوارد مشيحاً بوجهه من جديد كما لو أنه ينظر من النافذة. أما وجهه في المرآة فكان من غير تعبير.

«عندما تكون هنا يا جايكوب. . . أشعر بأن كل شيء مكتمل. كما لو أن أسرتي كلها قد اجتمعت. أقصد. . . لابد أن هذا هو الشعور في تلك الحالة. . . لم تكن لدي أسرة كبيرة قبل الآن. إنه شيء لطيف!». . .

أبتسمت نصف ثانية. . . «لكن هذا الإحساس لا يكتمل إلا بوجودك هنا».

«لن أكون أبداً جزءاً من أسرتك يا بيلا!»

كان في وسعي أن أكون. . . كنت راغباً في أن أكون. . . لكن هذا كان مجرد مستقبل بعيد مات قبل أن تتاح له فرصة العيش.

قالت معترضة: «لقد كنت دائماً جزءاً من أسرتي».

شددت على أسناني: «هذه إجابة لا معنى لها».

«وما الإجابة الجيدة؟»

«ما رأيك بهذه: جايكوب! أحب أن أراك متألماً!»

أحسست بجسدها ينكمش. . . همست: «هل تفضل هذه الإجابة؟»

«إنها أسهل. . . على الأقل! . . . أستطيع استيعابها. أستطيع التعامل معها».

نظرت إلى وجهها من جديد. . . كان شديد القرب مني. كانت عيناها مغمضتين. . . وكانت عابسة قليلاً: «لقد خرجنا عن الطريق يا جايكوب. . . فقدنا التوازن. . . يفترض أن تكون جزءاً من حياتي. . . أستطيع أن أحس هذا. . . وأنت تستطيع أيضاً». . . وكأنها تنتظر مني إنكار هذا الأمر!

تابعت عندما لم أقل شيئاً: «لكن. . . ليس بهذه الطريقة. لقد فعلنا شيئاً غير صحيح. لا! . . . أنا فعلت! . . . لقد فعلت شيئاً خاطئاً. . . فخرجنا عن الطريق. . .»

خفت صوتها ثم انقطع. . . استرخى عبوس وجهها حتى اقتصر على تجعيدة صغيرة عند زاوية فمها. انتظرت أن تكمل سكب الليمون الحامض على جروحي. . . لكني سمعت شخيراً ناعماً يصدر من حنجرتها.

تمتم إدوارد: «إنها مرهقة. . . كان هذا اليوم طويلاً. . . شاقاً! كنت أظن أنها ستنام قبل هذا الوقت. . . لكنها كانت تنتظرك».

لم أنظر إليه.

«قال سيث إنه كسر لها ضلعاً جديداً».

«نعم! وهذا ما يجعل تنفسها أكثر صعوبة».

«عظيم!»

«أخبرني عندما تعاودها الحرارة».

«سأفعل».

مازال ذراعها بارداً. . . ذراعها البعيد عني. لم أكد أرفع رأسي لأبحث عن بطانية حتى رأيت إدوارد يلتقط بطانية مطوية على ذراع الأريكة وينشرها فوق بيلا.

أحياناً. . . تساعد هذه القراءة للأفكار على توفير الوقت. فلولاها لكنت مضطراً إلى التحدث طويلاً عن مسألة الحديث مع تشارلي. . . تلك الفوضى! لكن إدوارد يستطيع أن يدرك مدى غضبي من غير كلام.

قال موافقاً: «نعم! لم تكن فكرة جيدة».

«فلماذا إذن؟». . . لماذا تقول بيلا لوالدها إنها تتعافى في حين لن يؤدي هذا إلا إلى إحساسه بمزيد من البؤس فيما بعد؟

«لأنها لا تستطيع احتمال قلقه».

«وهل هذا يجعل الأمر أفضل. .»

«لا! . . . ليس أفضل. لكني لن أجبرها الآن على فعل أي شيء يزعجها. فمهما حدث. . . يجعلها الحديث مع والدها تشعر أنها في وضع أفضل. أما بقية الأمور فأستطيع التعامل معها فيما بعد».

هذا لا يبدو صحيحاً! لن تفكر بيلا في تأجيل ألم تشارلي حتى وقت لاحق. . . حتى يواجهه شخص غيرها. لن تفكر هكذا حتى وهي تموت! ليس هذا من طبعها! أنا أعرف بيلا. . . لابد أن في رأسها شيء آخر.

قال إدوارد: «إنها واثقة تماماً من أنها ستعيش».

قلت محتجاً: «لكن. . . ليس في صورة بشرية».

«صحيح. . . ليس في صورة بشرية. . . لكنها تأمل في رؤية تشارلي من جديد!»

آوه!... الأمر يزداد سوءاً.

«ترى تشارلي!»... نظرت إليه أخيراً بعينين جاحظتين... «هل ستراه فيما بعد؟ هل سترى تشارلي عندما تصبح بيضاء تماماً وعندما تصبح عيناها حمراوين؟ لست مصاص دماء... لذلك قد لا أفهمك... لكن اختيار تشارلي ليكون وجبتها الأولى أمر غريب!»

تنهد إدوارد: «تعرف أنها لن تتمكن من الاقتراب منه قبل سنة على الأقل، وهي تظن أنها تستطيع تأجيل الأمر! كان تقول لتشارلي إنها ذهبت إلى مستشفى خاص في الناحية الأخرى من العالم!... وأن تستمر في التواصل معه عن طريق الهاتف...».

«هذا جنون».

«نعم!»

«تشارلي ليس أحمق... حتى إذا لم تقتله... فسوف يلاحظ وجود اختلاف».

«كأنها تراهن على ذلك».

واصلت تحديقي إليه منتظراً التوضيح.

«لن يظهر عليها تقدم السن طبعاً!... وهذا ما يضع لها حداً زمنياً بطبيعة الحال حتى إذا قبل تشارلي ما تختلقه من أعذار لتفسير ما يبدو عليها من تغيرات»... ابتسم ابتسامة واهنة... «هل تتذكر عندما حاولت إخبارها عن تحولك أنت؟ هل تتذكر كيف جعلتها تخمن الأمر بنفسها؟»

شددت على قبضتي: «هل أخبرتك بذلك؟»

«نعم!... لقد كانت تشرح لي... فكرتها. لا يجوز لها أن تخبر تشارلي بالحقيقة. لكنه رجل عملي... ذكي. وهي تظن أنه سوف يتوصل إلى التفسير بنفسه. هي تفترض أنه سيخرج بتفسير خاطئ»... ضحك ساخراً... «فنحن لا نكاد نلتزم بقوانين مصاصي الدماء. سوف تكون لديه بعض الافتراضات الخاطئة فيما يخصنا... تماماً كما كانت لديها في البداية. وسوف نساير

افتراضاته. تظن بيلا إنها سوف تكون قادرة على رؤيته... من وقت لآخر».

قلت مكرراً: «هذا جنون!»

وافقني من جديد: «نعم!»

كان ضعفاً منه أن يجعلها تتصرف بهذه الطريقة... حتى لو كان الهدف إسعادها الآن. لن يكون لهذا الأمر نتيجة حسنة.

وهذا ما جعلني أرجح أنه لا يتوقع لها العيش حتى تختبر خطتها المجنونة بنفسها. إنه يحاول إرضاءها حتى يجعلها سعيدة... ولو لوقت قصير.

وقت قصير!... أربعة أيام مثلاً.

همس إدوارد: «سوف أتعامل مع الوضع»... أدار وجهه بعيداً عني مطرقاً إلى الأسفل حتى لا أستطيع رؤيته في المرآة... «لن أسبب لها أي ألم الآن».

سألته: «هل هي أربعة أيام؟»

لم يرفع رأسه: «تقريباً!»

«وماذا بعد ذلك؟»

«ماذا تقصد؟... تحديداً».

فكرت في ما قالته بيلا، في أن ذلك الشيء مغلف تغليفاً محكماً بشيء قوي... شيء يشبه جلد مصاصي الدماء. فكيف يكون الأمر؟ كيف يخرج الجنين؟

همس إدوارد: «من خلال الأبحاث القليلة التي تمكنا من إجرائها... يبدو أن هذا المخلوق يستخدم أسنانه ليشق طريق خروجه من الرحم».

كان علي أن أصمت قليلاً ريثما أستوعب الفكرة.

سألته بصوت واهن: «أبحاث!»

«هذا سبب اختفاء جاسبر وإيميت. وهذا ما يفعله كارلايل الآن. إنه يحاول فك طلاسم القصص والأساطير القديمة... بالقدر الممكن وانطلاقاً مما هو لدينا الآن... إنه يبحث عن أي شيء يمكن أن يساعدنا في توقع سلوك هذا المخلوق».

قصص! إن وجدت. أساطير. . . فإن. . .

سألني إدوارد. . . متوقعاً سؤالي: «فإن هذا الشيء ليس الأول من نوعه! . . . قد يكون الأمر غير ذلك تماماً. فمن المحتمل أن تكون الأساطير مجرد نتيجة للخوف وللمخيلة. لكن. . . ورغم ذلك. . .» تردد إدوارد. . . «تبين أن أساطيركم صحيحة. . . أليس كذلك؟ فربما تكون هذه الأساطير صحيحة أيضاً. يبدو أنها متمركزة في مكان واحد. . . مترابطة. . .»

«كيف توصلتم إلى. . . ؟»

«ثمة امرأة قابلناها في أمريكا الجنوبية. لقد نشأت على تقاليد شعبها. وقد سمعت تحذيرات تتحدث عن هذه المخلوقات. . . قصص قديمة تناقلها الناس من جيل إلى جيل».

همست: «وما هي التحذيرات؟»

«تقول التحذيرات إن من الضروري قتل المخلوق على الفور. أي قبل أن يتمكن من اكتساب قوة كبيرة».

تماماً كما يرى سام. . . هل هو محق؟

«إن أساطيرهم تقول الشيء نفسه عنا أيضاً. تقول إن من الواجب إفناؤنا! تقول إننا قتلة من غير مشاعر».

أطلق إدوارد ضحكة قصيرة. . . قاسية.

سألته: «وماذا تقول قصصهم عن. . . الأمهات؟»

ظهر العذاب في وجهه. . . جعلني أنكمش على نفسي. . . وعرفت أنه لن يجيب على سؤالي. شككت في قدرته على الكلام. . . في تلك اللحظة.

أجابتني روزالي التي كانت في غاية الهدوء منذ أن أغفت بيلا. . . نسيت وجودها.

أطلقت صوتاً يوحي بالاحتقار: «لم تبق أي أم على قيد الحياة!». . . إجابة قاطعة. . . واضحة. . . إجابة لا تراعي أي مشاعر. . . «ما كانت الولادة وسط مستنقع يعج بالأمراض. . . مع رجل طب يضرب وجه المرأة

حتى يخرج الأرواح الشريرة منها. . . أمراً يمكن الخروج منه بسلام. كان نصف الولادات الطبيعية ينتهي نهاية سيئة. . . فكيف بهذه الولادات؟ ما كان أي من الأجنة يتمتع بما يتمتع به هذا الجنين الآن. . . أشخاص يهتمون به وبأمه ولديهم فكرة عن حاجاته. . . يحاولون تلبية حاجاته. وطبيب ذو معرفة فريدة بطبيعة مصاصي الدماء. وخطة لتوليد الطفل بأقصى قدر ممكن من الأمان. وسم قادر على إصلاح أي خلل يمكن أن يحدث. سوف يكون الطفل بخير. لو توفر لتلك الأمهات هذا كله لما متن على الأرجح. هذا إذا صدقت قصة وجودهن أصلاً. فأنا لم أقتنع بهذه القصص».

الطفل! الطفل! . . . وكأن الأمر يمكن تلخيصه فيه. ما كانت حياة بيلا إلا تفصيلاً ثانوياً بالنسبة لروزالي. . . تفصيلاً يسهل تجاوزه. صار وجه إدوارد أبيض كالثلج. توترت يداه فصارت أصابعه مثل المخالب. استدارت روزالي في كرسيها لا مبالية. . . فأدارت ظهرها لنا. انحنى إدوارد إلى الأمام متخذاً وضعية الانقضاض.

قلت له: «اسمح لي!»

تجمد إدوارد رافعاً حاجبه. . . متسائلاً.

بصمت تام. . . رفعت صحن الكلب عن الأرض. ثم ألقيته بحركة قوية سريعة من معصمي فاصطدم برأس الشقراء من الخلف صدمة شديدة مصدراً صوتاً يمزق الأسماع. . . تسطح الصحن على رأسها ثم ارتد عابراً الغرفة واصطدم بقمة عمود السلم الخشبي السميكة فانتزعها من مكانها.

تلوت بيلا. . . لكنها لم تستيقظ.

قلت بحدة: «أيتها الشقراء الغبية!»

أدارت روزالي رأسها ببطء. . . كانت عيناها تشتعلان غضباً: «لقد وسخت شعري بالطعام!»

نجحت في إغضابها أخيراً!

ابتعدت عن بيلا حتى لا أزعجها، وضحكت حتى سالت الدموع

من عيني، ومن خلف الأريكة سمعت ضحكة أليس أيضاً.

لا أعرف ما الذي جعل روزالي لا تثب باتجاهي. كنت أتوقع وثبتها! ثم أدركت أن ضحكي قد أيقظ بيلا رغم أنها لم تستيقظ وقت الضجة الحقيقية.

غمغمت بيلا: «ما المضحك إلى هذا الحد؟»

قلت لها ضاحكاً من جديد: «لقد ألقيت الطعام على شعرها».

فحّت روزالي: «لن أنسى هذا... يا كلب».

أجبتها: «لكن مسح ذاكرة الشقراء سهل جداً... يكفي أن تنفخ في أذنها».

قالت بحدة: «ابحث عن نكتة جديدة!»

تدخلت بيلا: «كفى يا جايكوب... اترك روز...» توقفت عند منتصف الجملة والتقطت نفساً سريعاً. في الثانية نفسها كان إدوارد ينحني فوقها مزيحاً البطانية. كان جسمها متوتراً... تقوس ظهرها على الأريكة.

قالت لاهثة: «إنه... يتمطى».

ابيضت شفتاها وشدت على أسنانها كأنها تحاول كبت صراخها. وضع إدوارد كفيه على خديها ونادى بصوت خفيض متوتر: «كارلايل!»

قال الطبيب: «أنا هنا!»... لم أسمع صوت دخوله الغرفة.

قالت بيلا... وكانت تتنفس بصعوبة، تنفساً غير عميق: «لا بأس! أظن أن الأمر انتهى. ليس لدى الطفل المسكين فسحة كافية. هذا كل شيء. لقد كبر كثيراً».

كان هذا شيئاً يصعب تقبله... تلك النبرة المحبة التي تستخدمها في وصف الشيء الذي يمزق جسدها... خاصة بعد نشوة روزالي. هذا ما جعلني أتمنى لو كنت قادراً على قذف بيلا بشيء أيضاً!

لم تلحظ بيلا تغير مزاجي: «هل تعرف؟... إنه يذكرني بك يا جايكوب»... قالت هذا بنبرة محبة... ومازالت تلهث!

قلت عبر أسناني المطبقة: «لا تقارني بيني وبين هذا الشيء».

قالت: «لم أقصد إلا الإشارة إلى سرعة نموك»... يبدو أني جرحت مشاعرها... هذا ما ينقصني!... «لقد نموت فجأة. كنت أستطيع رؤية طولك يزداد كل دقيقة. إنه مثلك أيضاً... ينمو بسرعة كبيرة».

عضضت على لساني حتى لا أقول ما كنت راغباً في قوله... عضضت بشدة جعلتني أحس طعم الدم في فمي. سوف يشفى هذا الجرح سريعاً... قبل أن أبتلع ما بفمي. هذا ما تحتاجه بيلا... أن تكون قوية مثلي... أن تكون قادرة على الشفاء...

صار تنفسها أسهل ثم استرخت في الأريكة وهمد جسمها.

همهم كارلايل: «همم»... نظرت إليه فرأيته ينظر صوبي.

سألته: «ماذا؟»

مال إدوارد برأسه مفكراً في ذلك الذي في رأس كارلايل.

«تعرف أنني كنت أتساءل عن تركيبة الجنين الجينية يا جايكوب. عن كروموزماته».

«ما الجديد؟»

«طيب!... إذا أخذنا التشابه بينكما بعين الاعتبار...»

زمجرت: «تشابه!»... لم تعجبني هذه الفكرة.

«النمو المتسارع... وحقيقة أن أليس لا تستطيع رؤية أي منكما».

يا للهول!... لقد نسيت هذه النقطة.

«لعل هذا يعني أن لدينا إجابة! فإذا كانت نقاط التشابه ناتجة عن التركيبة الجينية...»

تمتم إدوارد بصوت منخفض: «أربعة وعشرون زوجاً».

«أنت لست متأكداً من هذا!»

قال كارلايل بصوت لطيف: «لا!... لكن التفكير في هذا الأمر يثير الاهتمام».

«نعم!... شيء ساحر!»

عاد شخير بيلا الخفيف. . . كأنه يؤكد على نبرة التهكم في صوتي.

اندفع إدوارد وكارلايل يتحدثان. وسرعان ما وصل الحديث عن الجينات إلى نقطة لم أعد عندها قادراً إلا على فهم كلمات قليلة، إضافة إلى اسمي طبعاً. انضمت إليهما أليس وهي تدلي من حين لآخر بتعليقات قصيرة بصوتها العصفوري المزقزق.

صحيح أنهم كانوا يتحدثون عني، لكني لم أحاول معرفة الاستنتاج الذي توصلوا إليه. كان في رأسي أشياء أخرى. . . بعض الحقائق التي أحاول التوفيق بينها.

الحقيقة الأولى: قالت بيلا إن هذا المخلوق محمي بشيء قوي في مثل قوة جلد مصاصي الدماء. . . شيء لا تخترقه الأمواج فوق الصوتية. . . شيء أقسى من أن تخترقه إبرة. الحقيقة الثانية: قالت روزالي إن لديهم خطة لإخراج الجنين بشكل آمن. الحقيقة الثالثة: قال إدوارد إن الوحوش التي هي مثل هذا الوحش (في الأساطير) تشق طريق الخروج بأسنانها.

ارتعدت!

إن لهذا كله معنى. . . معنى سقيم. . . لأن الحقيقة الرابعة تقول: ما من أشياء كثيرة تستطيع اختراق شيء بقوة جلد مصاص الدماء. لكن الأسطورة تقول إن أسنان هذا المخلوق المسخ قوية إلى الحد الكافي. . . أسناني أيضاً قوية إلى الحد الكافي.

كان عدم رؤية ما هو واضح أمراً صعباً. . . لكني تمنيت ألا أرى. كنت أعرف تماماً خطة روزالي لإخراج ذلك الشيء «بأمان».

16

إنذار بسبب كثرة المعلومات

خرجت مبكراً. . . قبل شروق الشمس بزمن طويل. كنت قد غفوت قليلاً مستنداً إلى حافة الأريكة. كان نوماً مضطرباً. أيقظني إدوارد عندما بدأ وجه بيلا بالاحمرار فتبادلنا الأماكن حتى يبرّدها قليلاً. تمطيت. . . ثم قررت أنني نلت كفايتي من الراحة وأن علي القيام ببعض الأعمال.

قال إدوارد بهدوء وقد سمع فكرتي: «شكراً!. . . إذا كان الطريق آمناً. . . فسوف يذهبون اليوم».

سأخبرك بالوضع.

شعرت بالارتياح عندما عدت إلى صورتي الحيوانية. كنت متيبساً من الجلوس فترة طويلة على وضعية واحدة. . . وسعت خطواتي لأزيل التيبس من عضلاتي.

حيّتني ليا: «صباح الخير يا جايكوب»

«جيد! أنت مستيقظة. منذ متى نام سيث؟»

قال سيث بصوت ناعس: «لم أنم بعد. لكني أكاد أنام. هل أنت في حاجة إلى شيء؟»

«هل تظن أنك قادر على تأجيل نومك ساعة واحدة؟»

«بالتأكيد. . . لا مشكلة عندي!». . . نهض سيث فوراً وهو ينفض فروته.

قلت لليا: «فلنقم بالتوغل في الغابة. . . وأنت يا سيث. . . اتخذ المسار المعتاد».

انطلق سيث قائلاً: «حاضر».

قالت ليا: «هل سيذهب مصاصو الدماء إلى الصيد؟»

«هل هذا مشكلة بالنسبة لك؟»

«طبعاً لا! . . . أحب حماية هؤلاء الطفيليين الأعزاء».

«جيداً! . . . فلنر الآن سرعتنا في الجري».

«أنا مستعدة تماماً لذلك».

وصلت ليا إلى نهاية الطريق من الجهة الغربية. وبدلاً من الانعطاف لتقترب من منزل أسرة كولن ظلت ملتزمة بالدائرة وراحت تجري حتى تلاقيني. أما أنا فانطلقت شرقاً عارفاً أنها سرعان ما ستتجاوزني إذا تهاونت. . . ولو ثانية واحدة. . . رغم انطلاقتي المبكرة.

«فليكن أنفك قريباً من الأرض يا ليا. . . تشممي آثار الروائح. . . هذا ليس سباقاً بل مهمة استطلاعية».

«أستطيع أن أفعل الأمرين معاً مع بقائي أسرع منك».

«أعرف هذا!». . . اعترفت لها بما تريد.

ضحكت ليا.

اتخذنا سبيلاً متعرجاً عبر الجبال الشرقية. كان دربا مألوفاً. لقد كنا نجري في هذه الجبال عندما رحل مصاصو الدماء منذ سنة. . . لقد جعلناها قسماً من مسار دورياتنا من أجل تحقيق حماية أفضل للناس. ثم تراجعنا عنها عندما عادت أسرة كولن. إنها أرضهم بموجب المعاهدة.

لكن هذه الحقيقة لا تعني شيئاً الآن بالنسبة لسام. لقد ماتت المعاهدة. السؤال الآن هو مدى استعداده للمخاطرة بتوزيع قواته. هل يسعى إلى اصطياد من يخرج منهم في أرضهم أم لا؟ وهل كان جارد صادقاً أم أنه استغل عدم قدرتي على سماع أفكاره؟

توغلنا أكثر فأكثر في تلك الجبال لكننا لم نجد أثراً يدل على القطيع. كانت آثار مصاصي الدماء في كل مكان. . . لكن هذه الرائحة صارت مألوفة الآن. كنت أستنشقها طيلة اليوم.

عثرت في أحد الدروب على منطقة اشتدت فيها روائح مصاصي الدماء. . . لم تكن قديمة. . . كانوا يمرون كلهم من هنا باستثناء إدوارد. ثمة سبب لاجتماعهم هنا. . . لكن الأرجح أنه سقط في النسيان عندما أحضر إدوارد عروسه الحبلى المحتضرة. شددت على أسناني. مهما يكن السبب. . . لا علاقة لي به.

لم تحاول ليا تجاوزي رغم أنها كانت قادرة على ذلك. كان اهتمامي بتشمم كل رائحة جديدة أكثر من اهتمامي بمنافستها في السرعة. ظلت ليا تجري إلى يميني. . . تجري معي بدلاً من أن تسابقني.

قالت: *«لقد ابتعدنا كثيراً!»*

«نعم! . . . لو كان سام يحاول اصطياد من يخرج إلى هذه المنطقة من أسرة كولن لعثرنا على آثاره هنا».

«من المنطقي بالنسبة له الآن أن يلازم لابوش. وهو يعرف أننا منحنا مصاصي الدماء ثلاثة أزواج إضافية من العيون. لن يتمكن من مفاجأتهم!»

«كانت جولتنا هذه من باب الاحتياط فقط».

«نحن لا نريد أن يتعرض هؤلاء الطفيليون الأعزاء إلى أي مخاطر لا موجب لها».

قلت موافقاً: «صحيح!». . . تجاهلت تهكمها.

«لقد تغيرت كثيراً يا جايكوب!»

«وأنت لم تعودي تماماً ليا التي أعرفها وأحبها».

«صحيح! . . . هل صرت الآن أقل إزعاجاً من بول؟»

«نعم. . . وهذا ما يدهشني».

«آه! . . . إنه نجاح!»

«أهنئك!»

عدنا نجري صامتين. لعل وقت العودة حان. . . لكن أحداً منا لم يرغب في العودة. كان يعجبني الجري بهذه الطريقة. كنا نحدق معاً في الدرب نفسه منذ فترة طويلة. كان لطيفاً أن نستخدم عضلاتنا معاً وأن نلمس الأرض الطرية. ما كنا في عجلة من أمرنا. لذلك فكرت في الصيد أثناء عودتنا. كانت ليا جائعة تماماً.

فكرت ليا بمرارة: «همم. . . همم».

قلت لها: «هذا جزء من طبيعتك. . . هكذا تأكل الذئاب. إنه أمر طبيعي. . . والمذاق لذيذ أيضاً! إذا لم تفكري في الأمر من وجهة نظر بشرية. . .»

«انس هذا كله يا جايكوب! . . . سوف أصطاد. لست مضطرة إلى أن أحب الأكل بهذه الطريقة».

وافقتها بسهولة: «طبعاً. . . طبعاً!». . . إذا أرادت أن تجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لها فهذا ليس من شأني.

لم تقل ليا شيئاً طيلة دقائق كثيرة. بدأت أفكر في العودة.

قالت ليا فجأة. . . بصوت مختلف تماماً: «شكراً لك».

«شكراً على ماذا؟»

«لأنك سمحت لي أن أكون كما أريد. لأنك تركتني أبقى. لقد كنت ألطف مما كان يمكن أن أتوقع يا جايكوب».

«لا مشكلة عندي! الواقع هو أنني تعمدت ذلك. أنا أيضاً لا أمانع في وجودك هنا كما كنت أتوقع أن أمانع».

نخرت ليا. . . لكن بصوت ممازح: «يا للمجاملة اللطيفة!»

«لا تعتمدي كثيراً على هذا».

«لا بأس! . . . إذا لم تعتمد أنت عليه كثيراً». . . صمتت لحظة ثم قالت: «أظن أنك زعيم جيد! لا بطريقة سام. . . بل بطريقتك أنت. أنت تستحق أن تكون قائداً يا جايكوب».

فوجئت. . . لم أستطع الإجابة إلا بعد لحظة.

«شكراً. . . لست واثقاً من قدرتي على منع ذلك من المضي إلى عقلي. من أين يأتي؟»

لم تجبني فوراً. . . فتابعت اتجاه أفكارها من غير كلمات. كانت تفكر في المستقبل تفكر فيما قلته لجارد ذلك الصباح. تفكر كيف سيحين الوقت قريباً وأعود إلى الغابة. تفكر كيف وعدته بأن تعود هي وسيث إلى القطيع عندما ترحل أسرة كولن. . .

قالت: «أريد أن أبقى معك».

صدمتني جملتها. . . سرت الصدمة حتى قوائمي فتيبست مفاصلي. تجاوزتني ليا في عدوها ثم توقفت وعادت ببطء إلى حيث تجمدت في مكاني.

«لن أكون مزعجة. . . أقسم على هذا. لن ألاحقك في كل مكان. تستطيع الذهاب حيث تريد. . . وأنا أذهب حيث أريد. عليك فقط أن تتحملني عندما نكون نحن الاثنين ذئاباً». . . كانت تسير أمامي جيئة وذهاباً وهي تهز ذيلها الرمادي الطويل بعصبية. . . «وبما أنني أعتزم ترك هذا بأسرع ما يمكن. . . فلعل وجودي معك لن يتكرر كثيراً».

لم أعرف ماذا يمكن أن أقول.

«أنا أكثر سعادة الآن. . . في قطيعك. . . مما كنت منذ سنوات».

فكر سيث بهدوء: «وأنا أريد البقاء أيضاً. . . أنا أحب هذا القطيع».

لم أدرك قبل أن يتكلم أنه كان يصغي إلى حديثنا أثناء جريه.

«اسمع الآن يا سيث! . . . لن يستمر هذا القطيع». . . حاولت استجماع أفكاري حتى أكون قادراً على إقناعه. . . «إن لديك هدفاً الآن. أما عندما. . . بعد أن ينتهي الأمر. . . فسوف أظل ذئباً. أنت في حاجة إلى قضية يا سيث. أنت فتى طيب. . . أنت من ذلك النوع من الأشخاص الذين يحملون قضية دائماً. ولا يمكن أن تغادر لابوش الآن. سوف تتخرج من المدرسة الثانوية

وتختار طريقك في الحياة. سيكون عليك أن تعتني بسو! لن أسمح لمشاكلي بأن تشوش مستقبلك».

«لكن. . .»

أكدت ليا على كلامي: «جايكوب محق!»

«هل أنت متفقة معي؟»

«طبعاً! . . . لكن هذا لا ينطبق علي أنا. سوف أترك لابوش في جميع الأحوال. سأحصل على عمل في مكان بعيد عن لابوش. وربما أدرس قليلاً في الكلية المحلية. وربما أتابع دروساً في اليوغا والتأمل حتى أعالج سوء مزاجي. . . لكني سأبقى جزءاً من هذا القطيع من أجل المحافظة على عقلي. جايكوب! . . . أنت قادر على إدراك معنى هذا. . . أليس كذلك؟ لن أزعجك. . . لن تزعجني. . . سنكون مرتاحين. . . كلانا!»

عدت أدراجي وبدأت أنعطف ببطء ناحية الغرب.

«يصعب استيعاب هذا كله دفعة واحدة يا ليا. دعيني أفكر. . . اتفقنا!»

«بالتأكيد. . . خذ ما يلزمك من الوقت».

استغرق طريق العودة زمناً أطول. لم أكن متعجلاً. كنت أحاول التركيز حتى لا أصطدم بإحدى الأشجار. كان سيث يتمتم قليلاً. . . لكني لم أنتبه إليه فقد استطعت تجاهله. كان يعرف أنني محق! إنه لن يهجر والدته. سوف يعود إلى لابوش ليحمي العشيرة كما هو واجبه.

لكني لم أستطع رؤية ليا تفعل مثله. هذا ما كان يخيفني حقاً.

قطيع يضمنا نحن الاثنين فقط! مهما يكن البعد الجغرافي بيننا. . . لا أستطيع تخيل مدى. . . حميمية هذا الوضع. هل فكرت في الأمر جيداً يا ترى؟ أم هي متلهفة كثيراً على الاحتفاظ بحريتها؟

لم تقل ليا شيئاً بينما رحت أجتر هذه الأفكار. وكأنها تحاول أن تثبت لي مدى سهولة الأمر. . . مدى سهولة أن نكون معاً. . . وحدنا.

صادفنا قطيعاً من الغزلان ذات الذيول السوداء. . . تماماً مع شروق

الشمس التي جعلت الغيوم تضيء من خلفنا. تنهدت ليا. . . داخلياً. . . لكنها لم تتردد. كانت وثبتها بارعة. . . رشيقة. . . بل رائعة. أمسكت بأكبر الغزلان قبل أن يتمكن من إدراك الخطر.

لم أكن أريد أن أبدو مقصراً. . . انقضضت على ثاني أكبر الغزلان حجماً فأمسكت برقبته بين فكي بحركة سريعة حتى لا يشعر بألم لا ضرورة له. كنت أحس بالصراع بين قرف ليا وجوعها فحاولت تسهيل الأمر عليها بأن جعلت الذئب الذي بداخلي يسيطر على عقلي. لقد عشت ذئباً فترة طويلة جعلتني أعرف كيف أكون حيواناً على نحو كامل. . . أعرف كيف يرى الحيوان الأمر وكيف يفكر فيه. تركت غريزتي العملية تقودني. . . وجعلت ليا تشعر بذلك أيضاً. ترددت ثانية واحدة ثم أحسست بها تتلمس أفكاري لترى طريقي. كان الأمر غريباً جداً. . . كان عقلانا أوثق ارتباطاً من ذي قبل. . . لأننا كنا. . . كلانا. . . نحاول التفكير معاً.

أمر غريب. . . لكنه ساعدها! مزقت أسنانها جلد الغزال عند الكتف وانتزعت قطعة سميكة من اللحم المدمى. وبدلاً من أن تنساق لطبيعتها البشرية فتعرض عن اللحم. . . تركت طبيعتها الذئبية تستجيب غريزياً. كان هذا شيئاً مخدراً. . . من غير أفكار. تركتها تأكل بسلام.

كان سهلاً علي أن أفعل الأمر نفسه. يسعدني أنني لم أنس ذلك. هكذا ستكون حياتي كلها من جديد. . . قريباً.

هل تكون ليا جزءاً من هذه الحياة؟ منذ أسبوع فقط. . . كنت لأجد هذه الفكرة أكثر من مخيفة! ما كنت لأستطيع احتمالها! لكني أعرفها بشكل أفضل الآن. ما كانت الذئبة نفسها بعد أن ارتاحت من ذلك الألم الدائم. . . ما كانت الفتاة نفسها.

نحن معاً حتى ينتهي الأمر.

«شكراً!». . . هكذا قالت لي فيما بعد عندما كانت تنظف فمها وأكفها بالعشب الرطب. أما أنا فلم أهتم بتنظيف نفسي. بدأ المطر يهطل خفيفاً. . .

وكان علينا أن نجتاز النهر سباحة مرتين في طريق عودتنا. سوف تنظفني مياه النهر. . . «لم يكن ذلك سيئاً. . . أن أفكر بأسلوبك».

«على الرحب والسعة».

كان سيث يجرجر نفسه تعباً عندما عدنا إلى المسار الرئيسي فرأيناه. قلت له أن يذهب للنوم قليلاً. . . سوف نتولى الدورية. . . أنا وليا. تلاشى ذهن سيث في اللاوعي بعد ثوان قليلة.

سألتني ليا: *«هل ستعود إلى مصاصي الدماء؟»*

«ربما».

«يصعب عليك أن تكون هناك. . . ويصعب عليك ألا تكون هناك أيضاً. . . أعرف هذا الشعور».

«هل تعرفين يا ليا؟. . . لعل عليك التفكير قليلاً في المستقبل. . . في الأشياء التي تريدين القيام بها. لن يكون وضعي مرتاحاً. وسوف تعانين كثيراً معي».

فكرت ليا في طريقة إجابتها: «واو!. . . سيكون هذا سيئاً! لكن. . . صدقاً. . . سيكون التعامل مع ألمك أسهل بالنسبة لي من مواجهة ألمي».

«معقول!»

«أعرف أن الأمر سيكون سيئاً بالنسبة لك يا جايكوب. أفهم ذلك. . . ربما أكثر مما تظن. لست أحبها، لكن. . . إنها بالنسبة لك مثلما هو سام بالنسبة لي. إنها كل ما تريده. . . وكل ما لا تستطيع الحصول عليه».

لم أستطع الإجابة.

«وأعرف أيضاً أن الأمر أسوأ بالنسبة لك. إن سام سعيد على الأقل. وهو حي. . . ومعافى. أحبه إلى درجة تجعلني أريد ذلك. أريد أن يحصل على ما هو خير له». . . . تنهدت. . . *«كل ما في الأمر هو أنني لا أريد البقاء لأشاهد ذلك»*.

«وهل علينا أن نتكلم في هذا الأمر؟»

«أظن أن علينا أن نتكلم! لأني أريدك أن تعرف أنني لن أزيد الأمر سوءاً بالنسبة لك. بل قد أساعدك أيضاً. أنا لم أولد مزعجة عديمة التعاطف. لقد كنت لطيفة بعض الشيء كما تعرف».

«لا تعود ذاكرتي إلى ذلك الوقت البعيد».

ضحكنا معاً.

«أنا آسفة بشأن هذا يا جايكوب. يؤسفني أنك تتألم. يؤسفني أن الأمر يمضي نحو الأسوأ لا نحو الأفضل».

«شكراً يا ليا».

راحت تفكر في الأشياء الأكثر سوءاً. . . في الصور القاتمة التي في رأسي. أما أنا فحاولت إبعادها عن هذه الأفكار من غير كبير جدوى. كانت قادرة على النظر إليها من مسافة. . . من منظور ما. . . وكان علي الاعتراف بأن هذا يساعدني. صار بوسعي أن أتخيل أنني قد أتمكن يوماً من رؤية الأمور بتلك الطريقة أيضاً. . . بعد سنوات.

كانت ليا ترى الجانب المضحك في تلك الإزعاجات اليومية الناجمة عن الوجود قرب مصاصي الدماء. كانت تستمتع عندما أضايق روزالي. . . وتضحك في سرها. . . بل تحاول استذكار بعض النكات عن الشقراوات. . . نكات قد أستطيع استخدامها. لكن أفكارها عادت جدية. . . توقفت عند وجه روزالي. . . بطريقة حيرتني.

سألتني: *«أتعرف ما هو الأمر الذي يدعو إلى الجنون؟»*

«كل شيء تقريباً يدعو إلى الجنون الآن. . . لكن، ماذا تقصدين؟»

«تلك الشقراء التي تكرهها إلى هذا الحد. . . إنني أفهمها تماماً!»

ظننت للحظة أنها تقصد المزاح. . . مزاح سقيم. ثم. . . عندما أدركت أنها جادة. . . استبد بي غضب تصعب السيطرة عليه. من حسن الحظ أننا افترقنا. . . كان كل منا يجري في طريق. لو كانت على مسافة تسمح لي بأن أعضها. . .

«رويدك! دعني أوضح لك».

«لا أريد سماعك! لست هنا».

راحت ترجوني حين كنت أحاول تهدئة نفسي: «انتظر! انتظر!... هيا يا جايكوب».

«ليا!... ليست هذه بالطريقة المثلى لإقناعي بأن أمضي معك مزيداً من الوقت في المستقبل».

«نعم!... لقد بالغت في ردة فعلك... أنت لا تعرف عن أي شيء أتحدث».

«عن أي شيء تتحدثين؟»

وفجأة... عادت ليا التي أعرفها... المملوءة ألماً: «أتحدث عن وصولي إلى طريق مسدود... جيناً... يا جايكوب».

جعلتني مرارة كلماتها أتردد قليلاً. لم أكن أتوقع أن يهدأ غضبي.

«لست أفهمك!»

«ستفهم... *إذا لم تكن مثل البقية. إذا لم تجعلك... أشيائي الأنثوية...*» *قالت هذه الكلمات بنبرة قاسية... ساخرة...* «*تتهرب وتختبئ كما يفعل أي ذكر غبي. ستفهم إذا استطعت فعلاً أن تنتبه لمعنى ذلك كله*».

«أوه!»

نعم!... إذن، لا أحد منا يريد التفكير في أشيائها تلك!... من عساه يريد؟ لقد تذكرت طبعاً رعب ليا خلال الأشهر الأولى من انضمامها إلى القطيع... وتذكرت ابتعادي عن ذلك الرعب... كما فعل الجميع. هذا لأنها ما كانت قادرة على الحمل... هذا إذا لم يكن هناك أيضاً هذر ديني غريب أيضاً. لم تصاحب أحداً بعد سام. وعند ذلك... عندما مرت الأسابيع ولم ينتج اللاشيء إلا مزيداً من اللاشيء... أدركت ليا أن جسدها ما عاد يسير وفق نظامه العادي. إنه الرعب... ما هي الآن؟ هل تغير جسدها لأنها صارت مستذئبة؟ أم أنها صارت مستذئبة لأن ثمة خللاً في جسدها؟ إنها

المستذئبة الوحيدة في التاريخ كله! هل كان هذا لأنها لم تكن أنثى كما يجب أن تكون؟

ما كان أحد منا يود التعامل مع هذه المشكلة. من الواضح أنها لم تكن مشكلة من النوع الذي نستطيع تفهمه.

فكرت... *لقد هدأت قليلاً الآن:* «*هل تعرف ما الذي يجعل سام يظن أننا موسومين؟*»

«طبعاً!... من أجل استمرار النسل».

«صحيح!... لكي تنجب مجموعة من المستذئبين الصغار الجدد. من أجل بقاء جنسنا... إنه الدافع الجيني. ينجذب المرء إلى الشخص الذي يمنحه أفضل فرصة لنقل الجينات الذئبية».

انتظرت حتى تقول لي أين تمضي بهذا الحديث.

«*لو كنت صالحة لهذا لانجذب سام إلي*».

كان ألمها كبيراً... ما كنت قادراً على حمله.

«*لكني لست صالحة!... ثمة خلل عندي... لست أستطيع نقل هذه الجينات... هذا واضح... رغم نسبي الممتاز. وهذا ما جعلني أصبح شيئاً غريباً... أصبح الفتاة ـ الذئبة... ما كنت أصلح لشيء آخر. أنا ميتة جينياً... كلانا يعرف هذا*».

رحت أجادلها: «أنا لا أعرف هذا!... إنها نظرية سام وحده... يتوسم الناس... هذا يحدث... لكننا لا نعرف السبب. يظن بيلي أن ثمة سبباً آخر».

«أعرف! أعرف! يظن أنك تتوسم لكي تنجب ذئاباً أقوى. هذا لأنكما... سام وأنت... وحشان ضخمان مهولان... أكبر من آبائنا. لكن... كيفما كان الأمر... أنا لست مرشحة لهذا الأمر. لقد... لقد دخلت سن اليأس. أنا في العشرين من عمري... لكني في سن اليأس».

أف!... ما كنت راغباً في هذا الحديث أبداً: «هذا ليس مؤكداً يا ليا. والأرجح أن حالتك ناجمة عن تجمد الزمن بالنسبة لك. وعندما تكفين عن

كونك ذئبة وتستأنفين التقدم في السن من جديد. . . لابد أن الأمور سوف. . . تعود إلى وضعها الصحيح».

«قد أظن هذا. . . لكن. . . لا أحد موسوم معي. . . رغم نسبي المغري. أنت تعرف. . .» أضافت متفكرة. . . «لو لم تكن أنت هنا لكان من المرجح أن يطلب سيث الزعامة. . . بسبب نسبه على الأقل. من الطبيعي. . . أن أحداً لن يتوقف عندي أنا. . .»

سألتها: «هل تريدين أن يكون أحد موسوماً معك. . . أو أن تكوني موسومة معه. . . أو. . . كيفما كان الأمر؟ ما العيب في الذهاب والوقوع في الحب مثل أي شيء عادي يا ليا؟ ليس هذا الوسم إلا طريقة أخرى لسلب إرادتك منك!»

«سام. . . جارد. . . بول. . . كويل. . . لا يبدو أن أحداً منهم يمانع في هذا الأمر».

«ليس لدى أحد منهم عقل يخصه».

«ألا تريد أن تكون موسوماً. . . أنت؟»

«لا. . . أبداً!»

«هذا لأنك واقع في حبها. لكن هذا سيزول. . . تعرف ذلك. . . إذا صرت موسوماً. لن يكون عليك أن تتألم من أجلها بعد ذلك».

«هل تريدين نسيان مشاعرك نحو سام؟»

فكرت قليلاً ثم قالت: «نعم. . . أظن هذا».

تنهدت. . . إنها في وضع أفضل مني. . . وضع صحي أكثر من وضعي!

«لكن. . . لنعد إلى نقطة الانطلاق يا جايكوب. أنا أفهم السبب الذي يجعل مصاصة الدماء الشقراء بهذه البرودة. . . بالمعنى المجازي! ثمة هاجس يسكنها! . . . إن عينيها معلقتان بالجائزة. . . أليس هذا صحيحاً؟ هذا لأنك ترغب أكثر من أي شيء آخر في الحصول على ما لا تستطيع الحصول عليه أبداً. . . أبداً»

«وهل تتصرفين مثل روزالي لو كنت مكانها؟ هل تقتلين أحداً. . . هذا ما تفعله روزالي. . . إنها تحرص على أن لا يتدخل أحد في موت بيلا. . . أنت لن تفعلي ذلك من أجل الحصول على طفل! فمتى كنت حريصة على الأطفال؟»

«أنا أريد الخيار الذي لم أحظ به يا جايكوب! . . . ربما. . . لو كان وضعي سليماً. . . لما كنت أهتم بالأمر إطلاقاً».

«وهل تقتلين من أجل هذا؟» . . . كررت سؤالي. . . لم أترك لها مهرباً!

«ليس هذا ما تفعله روزالي! أعتقد أنها تعيش التجربة من خلال بيلا. ولو. . . لو سألتني بيلا أن أساعدها في هذا الأمر. . .» صمتت ليا. . . مفكرة. . . «رغم أنني لا أحبها كثيراً. . . فالأغلب أني سأفعل مثلما فعلت مصاصة الدماء».

انطلقت زمجرة مرتفعة من بين أسناني.

«هذا لأنه. . . لو كانت الأمور بالعكس. . . لأردت من بيلا أن تفعل ذلك لي. . . وكذلك روزالي! سوف تتصرف مثلها. . . أنا أو روزالي!»

«عجيب! . . . أنت سيئة مثلهم».

«هذا هو الأمر العجيب عندما تعرف أنك لا تستطيع الحصول على شيء من الأشياء. . . هذا يجعلك تتصرف بيأس».

«يكفي! . . . لقد بلغت الحد! توقفي هنا. . . انتهى هذا الحديث!»

«لا بأس!»

لم أكتف بموافقتها على التوقف. أردت إنهاء أقوى لذلك الحديث.

ما كانت المسافة التي تفصلني عن المكان الذي تركت فيه ثيابي تزيد عن كيلومترين. لذلك عدت إلى صورتي البشرية ورحت أمشي. لم أفكر في حديثنا. لا لأن ما من شيء أفكر فيه. . . بل لأنني ما كنت أستطيع احتمال ذلك. لن أرى الأمر بهذه الطريقة. . . لكن ذلك كان أكثر صعوبة بعد أن وضعت ليا الأفكار والمشاعر في رأسي مباشرة.

نعم! لن أبقى معها عندما ينتهي هذا كله. في وسعها أن تذهب وتبقى

بائسة في لابوش. لن يقتل أحداً أمر صغير أصدره بصفتي زعيماً قبل أن أرحل إلى الأبد.

وصلت إلى البيت في وقت مبكر جداً. لعل بيلا لا تزال نائمة. فكرت في أن أمد رأسي من الباب لأرى ما الذي يجري ولأعطيهم الضوء الأخضر من أجل الذهاب إلى الصيد. وبعد ذلك أعثر على بقعة من العشب الطري لأنام عليها في صورتي البشرية. لن أعود ذئباً حتى تنام ليا.

لكني سمعت كلاماً كثيراً بصوت منخفض يأتي من داخل المنزل... لعل بيلا ليست نائمة! ثم سمعت صوت آلة من الطابق العلوي... هل هي آلة التصوير بالأشعة السينية؟... عظيم! الظاهر أن اليوم الأول من الأيام الأربعة الباقية قد بدأ بحدث كبير.

فتحت أليس لي الباب قبل أن أفتحه بنفسي.

أومأت برأسها تحييني: «مرحباً يا ذئب».

«مرحباً... يا قصيرة! ما الذي يجري في الأعلى؟»... كانت الغرفة الكبيرة خالية... كانت الأصوات كلها تأتي من الطابق العلوي.

رفعت أليس كتفيها الصغيرين المدببين: «قد يكون كسراً جديداً»... حاولت أن تقول هذه الكلمات بطريقة عادية. لكنني رأيت النار في أعماق عينيها. لم نكن، أنا وإدوارد، الوحيدين اللذين يحرقهما هذا الوضع. أليس تحب بيلا أيضاً!

سألتها بصوت جاف: «ضلع آخر!»

«لا!... إنه عظم الحوض هذه المرة».

غريب كيف أصاب بالصدمة دائماً! غريب كيف يفاجئني كل حدث! متى أكف عن هذا؟ لقد كانت كل كارثة جديدة مرئية سلفاً في الواقع.

كانت أليس تحدق في يدي... تراقب ارتجافهما.

ثم سمعنا صوت روزالي من الأعلى: «هل رأيت؟ قلت لك إنني لم أسمع صوت كسر. يجب أن تفحص أذنيك يا إدوارد».

لم نسمع إجابة!

زفرت أليس وقالت: «سينتهي الأمر بإدوارد إلى تمزيق روزالي إلى قطع صغيرة. يفاجئني أنها لا تنتبه إلى ذلك. أو لعلها تظن أن إيميت يستطيع إيقافه!»

قلت: «سأتولى أمر إيميت!... أما أنت فتستطيعين مساعدة إدوارد في تمزيقها».

أجابت أليس بنصف ابتسامة.

عند ذلك جاؤوا كلهم... هبطوا درجات السلم... كان إدوارد يحمل بيلا هذه المرة. وكانت تمسك بكأس الدم بين يديها... كان وجهها أبيض اللون. استطعت أن أرى شدة ألمها رغم أن إدوارد كان يوازن حركاته كلها حتى لا يهزها أثناء سيره.

همست بيلا: «جايكوب!»... وابتسمت من قلب ألمها.

حدقت فيها... لم أقل شيئاً.

وضعها إدوارد بعناية على الأريكة وجلس على الأرض... قرب رأسها. لماذا لا يتركونها في الأعلى؟ أدركت فوراً أن الفكرة فكرة بيلا. هي تريد التصرف كما لو أن كل شيء يسير على نحو طبيعي... تريد تجنب مظهر ترتيبات المستشفى! أما إدوارد، فهو يسايرها... بطبيعة الحال.

جاء كارلايل نازلاً السلم ببطء... كان آخرهم... وكان القلق يعتصر وجهه. جعله هذا القلق يبدو في سن مناسبة لأن يكون طبيباً... هذه المرة فقط.

قلت له: «كارلايل!... ذهبنا حتى منتصف المسافة إلى سياتل. لا أثر يشير إلى القطيع. يمكنكم الذهاب».

«شكراً يا جايكوب! إنه توقيت مناسب. نحن في حاجة إلى أشياء كثيرة».

استقرت عيناه السوداوان على الكأس في يد بيلا.

«أظن أن ذهاب أكثر من ثلاثة منكم أمر آمن أيضاً. وأنا واثق تماماً من أن سام يركز انتباهه على لابوش وحدها».

أومأ برأسه موافقاً. فاجأني مدى استعداده لقبول نصيحتي: «إذا كنت ترى هذا فسوف أذهب أنا وأليس وإيزمي وجاسبر. وبعد ذلك يمكن لأليس أن تأخذ إيميت وروزالي...»

قالت روزالي: «لا تحلم بهذا... يستطيع إيميت الذهاب معكم الآن».

قال لها كارلايل بصوت لطيف: «عليك أن تذهبي إلى الصيد».

لكن نبرته لم تلطف موقفها: «سوف اصطاد عندما يصطاد هو»... قالت هذا مكشرة وهي تومئ برأسها ناحية إدوارد وتزيح شعرها إلى الخلف.

تنهد كارلايل.

جاء جاسبر وإيميت في لمح البصر. انضمت إليهما أليس في اللحظة نفسها خارجة من الباب الزجاجي الخلفي. أما إيزمي فأسرعت تقف بجانب أليس.

وضع كارلايل يده على ذراعي. لم تكن برودة يده أمراً مريحاً... لكنني لم أسحب ذراعي. بقيت كما أنا... لأنني فوجئت... ولأنني لم أرد جرح مشاعره.

قال من جديد: «شكراً لك!»... ثم انطلق خارجاً من الباب برفقة الأربعة الواقفين. تابعتهم بنظري حتى عبروا المرج واختفوا بين الأشجار بسرعة كبيرة. لابد أن حاجتهم إلى الصيد ملحة... أكثر مما توقعت.

ما كان في الغرفة صوت لأكثر من دقيقة. أحسست أن أحداً يرميني بنظرات حانقة... عرفت من هو. كنت اعتزم الذهاب لأنال قسطاً من النوم، لكن فرصة إفساد صباح روزالي بدت أثمن من أن أهدرها.

وهكذا جلست على الكرسي المجاور لكرسي روزالي... جلست بطريقة جعلت رأسي مائلاً ناحية بيلا وجعلت قدمي اليسرى قريبة من وجه روزالي.

تمتمت روزالي وعلى وجهها تعبير قرف: «أوف!... أخرجوا هذا الكلب من هنا».

«هل سمعت هذه أيتها المختلة؟... كيف تموت خلية دماغ الشقراء؟»

لم تقل روزالي شيئاً.

سألتها: «كيف؟... هل تعرفين الإجابة أم لا؟»

راحت تنظر إلى شاشة التلفزيون... تجاهلتني.

سألت إدوارد: «هل سمعت ما قلته؟»

ما كان في وجهه المتوتر أي ميل إلى الفكاهة. لم يرفع نظره عن بيلا وهو يقول: «لا».

«عظيم! سوف تعجبك هذه يا مصاصة الدماء... تموت خلية دماغ الشقراء... بسبب وحدتها».

ظلت روزالي ترفض النظر إلي: «لقد قتلت أكثر منك بمئات المرات أيها الحيوان المقرف. لا تنس هذا!»

«ذات يوم ستملين... يا ملكة الجمال... من الاكتفاء بتهديدي. إنني أترقب ذلك اليوم حقاً».

قالت بيلا: «هذا يكفي يا جايكوب!»

نظرت إليها فرأيتها تقذفني بنظرة غاضبة. يبدو أن مزاجها الطيب يوم أمس قد اختفى الآن.

لم أكن أريد إزعاجها فسألتها: «هل تريدين أن أذهب؟»

قبل أن أتمكن من الأمل... أو من الخوف... في أنها ملتني أخيراً... رفرفت عيناها واختفى العبوس من وجهها. بدت عليها الصدمة لأنني توصلت إلى هذا الاستنتاج.

«لا! بالطبع لا!»

تنهدت... ثم سمعت إدوارد يتنهد مثلي... بهدوء شديد. أعرف أنه يتمنى... مثلي... لو تتمكن بيلا من تجاوزي ونسيان أمري. مؤسف جداً أنه لا يمكن أن يطلب منها فعل شيء يحزنها.

قالت بيلا: «يبدو عليك الإرهاق».

قلت معترفاً: «أنا ميت من التعب».

قالت روزالي بصوت أخفض من أن تستطيع بيلا سماعه: «أتمنى أن أراك ميتاً فعلاً».

اكتفيت بأن انزلقت في الكرسي أكثر من ذي قبل... شعرت بالراحة. صارت قدمي العارية أقرب إلى وجه روزالي... أحسست بها تتوتر في جلستها. وبعد دقائق قليلة طلبت منها بيلا أن تملأ الكأس من جديد. شعرت بريح تهب عندما اندفعت روزالي إلى الأعلى لتجلب مزيداً من الدم. كان الجو هادئاً تماماً. لم لا أنال قسطاً من النوم؟

عند ذلك قال إدوارد محتاراً: «هل قلت شيئاً؟» غريب!... لم يقل أحداً أي شيء! كان سمع إدوارد حاداً مثل سمعي... لابد أنه يعرف هذا.

كان ينظر إلى بيلا... وكانت بيلا تنظر إليه. بدت الحيرة على الاثنين.

بعد لحظة قصيرة... سألته بيلا: «أنا؟ أنا لم أقل شيئاً».

انتصب إدوارد على ركبتيه منحنياً صوبها... فجأة صار تعبير وجهه متوتراً... بطريقة مختلفة تماماً. حدقت عيناه السوداوان في وجهها.

«ما الذي تفكرين فيه... الآن... في هذه اللحظة؟»

حدقت فيه بنظرة فارغة: «لا شيء!... ما الذي يجري؟»

سألها من جديد: «ما الذي كنت تفكرين فيه قبل دقيقة؟»

«لا شيء... جزيرة إيزمي... والريش».

لم أفهم شيئاً... لكن وجه بيلا احمر فجأة... أظن أن من الأفضل لي أن لا أفهم!

همس إدوارد: «هل قلت شيئاً آخر؟»

«مثل ماذا يا إدوارد؟ ما الذي يجري؟»

تغير تعبير وجهه من جديد... ثم فعل شيئاً جعلني أفتح فمي مدهوشاً. سمعت زفرة من خلفي فعرفت أن روزالي قد عادت وأن الدهشة استبدت بها مثلما استبدت بي.

وضع إدوارد كلتا يديه... برقة شديدة... على بطنها المكور الضخم.

قال وهو يبتلع بصعوبة: «إن الجنين... إنه... إن الطفل يحب صوتك».

ساد صمت قصير. لم أستطع أن أحرك عضلة واحدة... لم أستطع أن أرمش بعيني. ثم...

صاحت بيلا: «يا ربي! هل تستطيع سماعه؟»... وفي الثانية التالية... قفزت متألمة.

تحركت يد إدوارد حتى قمة بطنها ودلكت برقة تلك البقعة التي رفسها الجنين فيها. قال متمتماً: «هششش!... لقد جعلته يجفل!»

اتسعت عيناها... كانت متعجبة. ثم ربتت على بطنها وقالت: «آسفة يا طفلي!»

كان إدوارد يصغي بشدة منحنياً برأسه نحو بطنها.

سألته بيلا بشغف: «ما الذي يفكر فيه الآن؟»

«إنه... إنها...» توقف لحظة ناظراً في عينيها. كان في عينيه خشوع... مثلها... لكنه كان أكثر حذراً... وأقل ميلاً إلى التعبير عن إحساسه... «إنه سعيد!»... قالها إدوارد بصوت غير مصدق.

تقطعت أنفاسها. كان من المستحيل أن لا يرى المرء ذلك التألق المجنون في عينيها. ذلك الحب والتفاني. راحت دمعات كبيرة تملأ عينيها... ثم تنساب صامتة على وجهها وعلى شفتيها المبتسمتين.

كان إدوارد يحدق فيها... ما عاد وجهه خائفاً... ما عاد حانقاً... ما عاد محترقاً... ما عاد فيه أي تعبير من التعابير التي حملها منذ عودتهما. كان سعيداً... معها.

هدلت بيلا: «إنه سعيد طبعاً... طفلي الجميل... إنه سعيد طبعاً!» راحت تمر بيدها على بطنها ودموعها تغسل خديها... «كيف يمكن ألا تكون سعيداً... وأنت في أمان... ودفء... وسط هذا الحب! أحبك كثيراً يا إدوارد الصغير... أنت سعيد طبعاً!»

سألها إدوارد متعجباً: «بماذا دعوته؟»

احمر وجهها من جديد: «لقد اخترت له اسماً. لم أظن أنك... أنت تعرف!»

«إدوارد الصغير!»

«كان اسم والدك إدوارد أيضاً!»

«صحيح!... ماذا...؟»... صمت إدوارد ثم قال: «همم!»

«ماذا؟»

«إنه يحب صوتي أيضاً».

«إنه يحبه طبعاً!»... كان صوتها طافحاً بالسعادة الآن... «لديك أجمل صوت في العالم! كيف يمكن ألا يحبه؟»

عند ذلك سألتها روزالي وهي تنحني على ظهر الأريكة وعلى وجهها نظرة متعجبة... سعيدة... مثل نظرة بيلا: «هل لديك خطة بديلة... إذا تبين أنه بنت؟»

مسحت بيلا الدموع عن عينيها بظهر كفها: «لقد فكرت في بعض الأشياء. فكرت في المزج بين إيزمي ورينيه... أفكر في اسم... رينيمي».

«رينيمي!»

«رينيمي... هل هو اسم غريب جداً؟»

قالت روزالي: «لا... إنه يعجبني»... كان رأساهما متجاورين... الذهبي والبني... «إنه جميل، ومناسب أيضاً».

«لكني مازلت أظن أنه... إدوارد».

كان إدوارد يحدق في الفراغ... كان يصغي بوجه خال من التعبير.

سألته بيلا بوجه مشرق: «ماذا؟ ما الذي يفكر فيه الآن؟»

لم يجبها في البداية. ثم فاجأنا جميعاً بأن وضع أذنه على بطنها.

همس إدوارد... كان مسحوراً: «إنه يحبك... يحبك كثيراً!»

في تلك اللحظة... عرفت أنني وحيد... وحيد... وحيد.

أردت أن أضرب نفسي عندما أدركت مدى اعتمادي على مصاص الدماء الكريه هذا... كم كنت غبياً... فهل يمكن الاعتماد على طفيلي؟ طبيعي أن يخونني في النهاية!

اعتمدت عليه... حتى يقف إلى جانبي. اعتمدت عليه... اعتمدت على أنه سوف يعاني أكثر مما أعاني، وأكثر من هذا كله... اعتمدت على أن يكره ذلك الشيء المقيت الذي يقتل بيلا... أكثر مما أكرهه أنا...

لقد اعتمدتُ عليه في ذلك كله!

أما الآن... فها هما معاً... منحنيان على ذلك الوحش غير المرئي... تتقد عيونهما مثل أي أسرة سعيدة.

وكنت وحيداً... مع كراهيتي... ومع الألم الذي كان شديداً... كأنه تعذيب. كما لو أن أحداً يجرني... بطيئاً... فوق نصال حادة. ألم شديد... يجعلك تلقى الموت مبتسماً لأنه يخلصك من ذلك الألم.

حررت حرارة الألم عضلاتي المتيبسة فنهضت واقفاً.

ارتفعت رؤوسهم... ثلاثتها... رأيت ألمي في عيني إدوارد وهو يستمع إلى أفكاري من جديد.

قال بصوت مخنوق: «آه!»

لم أدر ما الذي كنت أفعله... وقفت هناك... مرتجفاً... مستعداً لالتقاط أي مخرج يتيح لي الهرب.

تحرك إدوارد بسرعة... مثل لسعة الأفعى... اندفع إلى منضدة صغيرة وأخذ شيئاً من درجها. قذفه إلي فالتقطته بحركة تلقائية.

«اذهب يا جايكوب!... اذهب من هنا»... لم يقل هذه الكلمات بفظاظة على الإطلاق... لقد ألقى كلماته في اتجاهي كما لو أنه يلقي طوق نجاة. كان يساعدني على إيجاد المخرج الذي كنت أموت توقاً إليه.

كان ذلك الشيء الذي في يدي مفتاح سيارة.

17

كيف أبدو لكم؟ هل أبدو مثل ساحر أوز؟ أتريدون دماغاً؟ أتريدون قلباً؟ هيا! خذوا دماغي وقلبي! خذوا كل ما لدي

كان في ذهني ما يشبه الخطة عندما رحت أجري صوب مرآب أسرة كولن. كان الجزء الثاني من خطتي أن أحطم سيارة مصاص الدماء في طريق العودة.

لكن الحيرة استولت علي عندما ضغطت على جهاز التحكم... لم تكن أضواء سيارة الفولفو هي التي ومضت. كانت سيارة أخرى... سيارة متميزة بين السيارات الكثيرة التي يسيل أكثرها اللعاب.

هل قصد فعلاً أن يعطيني مفاتيح سيارة آشتون مارتن فانكويش؟ أم أن الأمر كان مصادفة؟

لم أتوقف لأفكر في هذا الأمر أو لأرى إن كان من شأنه أن يغير الجزء الثاني من خطتي. قذفت بنفسي على المقعد الجلدي الحريري وشغلت المحرك في حين انحشرت ركبتاي تحت المقود. كان صوت المحرك قادراً على أن يفتن لبي في غير هذا اليوم... أما الآن فما كنت قادراً إلا على حشد ما يكفي من التركيز لأجعله يعمل... وحسب!

عثرت على مقبض تحريك المقعد فدفعته إلى الخلف وفي اللحظة نفسها

ضغطت برجلي على الدواسة فانطلقت السيارة كأنها تطير في الهواء.

في ثوان قليلة اجتازت السيارة الدرب المتعرج. كانت تستجيب كما لو أن أفكاري هي التي توجهها... لا يدي. وعندما اندفعت خارجاً من ذلك النفق الأخضر لأسير على الطريق السريع، لمحت وجه ليا الرمادي ينظر قلقاً عبر الأشجار.

لنصف ثانية فقط... فكرت فيما عساها تفكر فيه... ثم أدركت أنني ما كنت أبالي.

استدرت جنوباً... ليس عندي اليوم صبر كافٍ من أجل العبّارات البحرية أو ازدحام حركة المرور أو أي شيء يمكن أن يجعلني أرفع رجلي عن دواسة الوقود.

كان هذا يوم سعدي... على نحو مريض!... غير طبيعي! إن كنت أقصد بالسعد مجرد السير على الطريق السريعة المزدحمة بسرعة 300 كيلومتر في الساعة دون أن أرى شرطياً... حتى داخل المدن الصغيرة التي تفرض سرعة قصوى لا تتجاوز خمسين كيلومتراً في الساعة. فيا للخيبة! سيكون لطيفاً أن تلاحقني الشرطة... إضافة إلى المتاعب التي سيجرها على مصاصي الدماء قيام الشرطة بتسجيل رقم السيارة. لابد أنهم سيدفعون المال اللازم حتى يتخلصوا من المشكلة... لكن من شأن هذا أن يكون إزعاجاً لهم.

لم ألمس أثراً لأي مراقبة إلا عندما لمحت فراء ذئب بني قاتم مندفعاً عبر الغابات... جارياً معي عدة أميال إلى الجنوب من فوركس. إنه كويل... هكذا بدا لي! لابد أنه رآني أيضاً فقد اختفى بعد دقيقة دون إطلاق أي إنذار.

ومن جديد... كدت أتساءل عن القصة التي سيروونها... لكنني أدركت أنني ما كنت أبالي بها أيضاً.

انطلقت مسرعاً على الطريق متجهاً إلى أكبر مدينة أستطيع الذهاب إليها. كان هذا هو الجزء الأول من خطتي.

انقضى وقت... بدا لي دهراً... ربما لأنني مازلت على حافة السكين.

لكن الزمن الفعلي لم يبلغ ساعتين قبل أن أصل. . . شمالاً. . . إلى منبسط من الأرض بين تاكوما وسياتل. أبطأت سيري. . . فأنا لا أريد أن أقتل أي عابر سبيل بريء».

إنها خطة غبية. لن تنجح! لكني. . . عندما رحت أفتش في رأسي عن أي سبيل لأبتعد عن الألم. . . قفزت إلى ذهني عبارة قالتها ليا اليوم: «سينقضي هذا كله. . . أنت تعرف. . . إذا وسمت. لن تحترق من أجلها بعد ذلك».

يبدو أن أسوأ الأشياء في العالم ليس أن تسلب خياراتك منك. لعل شعوري الآن هو أسوأ شيء في العالم!

لكني رأيت جميع الفتيات في لابوش وفي فوركس. كنت في حاجة إلى مساحة أكثر رحابة.

لماذا إذن لا أذهب بحثاً عن رفيقة روحي وسط الزحام؟ لا بأس. . . أنا في حاجة إلى الزحام أولاً! وهكذا رحت أسير بطيئاً. . . باحثاً عن بقعة مبشرة. مررت بجانب مجمعين تجاريين. . . من المحتمل جداً أن تكون المجمعات التجارية مكاناً مناسباً للعثور على فتيات في سني. . . لكني لم أستطع التوقف. فهل أريد فتاة ممن تتسكعن في المجمعات التجارية طيلة اليوم؟

واصلت سيري شمالاً. . . ازدادت المنطقة ازدحاماً. وأخيراً وجدت موقف سيارات كبيراً يعج بالأطفال والعائلات وراكبي ألواح التزلج والدراجات والمتنزهين وأشخاص يطيرون طائرات ورقية. . . وكل شيء. لم ألاحظ إلى الآن. . . أن الطقس هذا اليوم كان جميلاً. . . مشمساً. كان الناس في الخارج. . . يحتفلون بالسماء الزرقاء.

أوقفت السيارة في مكان مخصص للمعوقين. . . مازلت أرجو تسجيل مخالفة. . . وانضممت إلى الحشد. تجولت زمناً بدا لي ساعات طويلة. زمناً طويلاً مالت فيه الشمس من ناحية إلى الناحية الأخرى. حدقت في وجه كل فتاة مررت بها. . . أو مرت بي. . . كنت أجعل نفسي أنظر فعلاً لأرى من كانت جميلة. . . من كانت لديها عينان زرقاوان. . . من بدت حسنة

المظهر. . . ومن كانت تضع كثيراً من مواد التجميل. رحت أحاول العثور على شيء مثير للاهتمام في كل وجه. . . حتى أكون واثقاً من أنني حاولت فعلاً. أشياء من قبيل: «هذه الفتاة لديها أنف جميل فعلاً. . . وهذه الفتاة يجب أن تزيح شعرها عن عينيها. . . وهذه الفتاة تستطيع أن تضع أحمر الشفاه إذا كانت بقية وجهها في مثل جمال فمها. . .

كانت الفتيات تنظر إلي مثلما أنظر إليهن. . . كن ينظرن بخوف أحياناً. . . كأنهن يفكرن. . . من هذا الضخم الغريب الذي ينظر إلي بهذه الطريقة؟. . . وفي بعض الأحيان كنت ألمس بعض الاهتمام في نظراتهن. . . لكن. . . لعل اعتدادي هو ما جعلني أظن ذلك!

مهما تكن الحال. . . لا شيء! حتى عندما كانت عيني تقابلان عيني فتاة هي. . . من غير منافسة. . . أجمل فتاة في المتنزه كله، بل ربما في المدينة كلها. . . وكانت تجيب نظرتي بنظرة يبدو فيها شيء من الاهتمام. . . كان شعوري. . . لا شيء! كان هذا هو الاندفاع اليائس نفسه من أجل العثور على مخرج من الألم.

مع مرور الوقت رحت ألاحظ في وجوه الفتيات كل الأشياء التي ينبغي ألا ألاحظها. . . أشياء بيلا! هذه شعرها بلون شعر بيلا. . . وهذه عيناها لهما شكل عيني بيلا. . . وهذه وجنتاها مثل وجنتي بيلا. . . وهذه لها عقدة صغيرة بين حاجبيها مثلما عند بيلا. . . تلك العقدة التي تجعلني أتساءل عما يقلقها!. . .

عند ذلك. . . استسلمت! كان شيئاً أكثر من الغباء أن أظن أنني عثرت على مكان مناسب. . . في الوقت المناسب. . . لأصادف رفيقة روحي. . . لمجرد أنني كنت أموت رغبة في العثور عليها.

لا معنى لأن أجدها هنا على أي حال. إن كان سام محقاً فإن المكان الأفضل للعثور على رفيقتي هو لابوش. لكن، من الواضح أن أي فتاة هناك لا توافق ما برأسي. وإن كان بيلي محقاً. . . فمن يدري؟ ما الذي يمكن أن ينتج ذئباً أكثر قوة؟

عدت إلى السيارة واستندت إليها. . . ورحت أعبث بالمفتاح.

هل أنا مثلما تظن ليا نفسها؟ هل أنا ميت جبنياً ليس لي أن أعبر إلى جيل آخر؟ أو. . . لعل حياتي كلها ليست إلا نكتة كبيرة سمجة. . . لا طائل منها!

«أنت!. . . هل أنت بخير؟ مرحباً!. . . أنت. . . هناك. . . بجانب السيارة المسروقة!»

مرت لحظة حتى أدركت أن ذلك الصوت كان يتحدث معي. . . ولحظة أخرى حتى قررت أن أرفع رأسي. رأيت فتاة مألوفة الشكل تنظر إلي. كان على وجهها تعبير يشبه القلق. . . عرفت ما الذي جعل شكلها مألوفاً. . . لقد رسمت هذا الشكل في رأسي. الشعر الأحمر الذهبي. . . والبشرة الشقراء. . . وشيء من النمش الذهبي على خديها وأنفها. . . وعينان بلون القرفة.

قالت مبتسمة. . . ظهرت غمازة في ذقنها: «إذا كنت تشعر بكل هذا الندم على سرقة السيارة. . . ففي وسعك أن تذهب إلى الشرطة لتسليم نفسك».

قلت بحدة: «لقد استعرتها. . . لم أسرقها!». . . بدا صوتي فظيعاً. . . كأنني كنت أبكي. . . أو شيء من هذا القبيل. أمر محرج!

«طبعاً! سيصدقون هذا الكلام في المحكمة!»

نظرت إليها حانقاً: «هل تريدين شيئاً؟»

«في الحقيقة. . . لا! تعرف أنني أمزح بشأن السيارة. إنما. . . يبدو أن شيئاً يزعجك كثيراً. أوه. . . آسفة. . . اسمي ليزي». . . مدت يدها.

نظرت إلى يدها. . . ظللت أنظر إليها حتى تركتها تسقط.

قالت على نحو غريب: «على أي حال. . . كنت أتساءل إن كان في وسعي أن أساعدك. أحسست أنك تبحث عن شخص ما». . . أشارت بيدها إلى الزحام ورفعت كتفيها.

«نعم!. . .»

رأيتها تنتظر.

تنهدت: «لست في حاجة إلى مساعدة. . . إنها ليست هنا!»

«أوه!. . . يؤسفني هذا».

«يؤسفني أنا أيضاً».

نظرت إلى الفتاة من جديد. ليزي! إنها جميلة. ولطيفة إلى حد يجعلها تحاول مساعدة غريب سيئ المزاج. . . لابد أنه مختل العقل. لم لا تكون هي تلك الفتاة؟ لماذا يجب أن يكون كل شيء معقداً إلى حد مخيف؟ فتاة لطيفة. . . جميلة. . . ظريفة أيضاً. لم لا؟

قالت: «هذه سيارة جميلة. من المؤسف أنهم ما عادوا يصنعون مثلها. أقصد أن. . . سيارة فانتاج جميلة الشكل أيضاً، لكن في الفانكويش شيء خاص. . . مميز. . .

فتاة لطيفة تعرف الكثير عن السيارات! واو!. . . نظرت إلى وجهها بتمعن أكبر من ذي قبل. . . ليتني أعرف كيف أجعل الأمر ينجح. . . هيا يا جايكوب. . . انوسم الآن!

سألتني: «كيف هي قيادتها؟»

قلت لها: «شيء لا يمكن تصديقه».

ابتسمت ابتسامتها. . . الابتسامة ذات الغمازة على الذقن. من الواضح أنها مسرورة لأنها تمكنت من انتزاع إجابة طبيعية. . . أجبت ابتسامتها بابتسامة مترددة.

لكن ابتسامتها لم تستطع فعل شيء مع تلك النصال الحادة القاطعة التي تمزق جسمي. مهما كنت راغباً. . . لن أستطيع استجماع حياتي. . . على هذه الصورة.

ما كنت في ذلك المكان الصحي الذي كانت ليا ذاهبة إليه! لن أستطيع أن أقع في الحب مثلما يقع الناس الطبيعيون. لا!. . . ليس عندما ينزف قلبي من أجل شخص آخر. ربما. . . بعد عشر سنوات من الآن. . . بعد أن يمر وقت طويل على توقف قلب بيلا عن الخفقان. . . ربما. . . بعد أن أجرجر نفسي

عبر الأسى والحزن كله... وأخرج من هذا قطعة واحدة... ربما أستطيع عند ذلك دعوة ليزي إلى نزهة في سيارة سريعة فأتحدث معها عن أنواع السيارات... وأعرف أشياء عنها... وأرى إن كانت تعجبني. لكن هذا لن يحدث الآن.

لن ينقذني السحر! عليّ أن أتحمل العذاب وأكون رجلاً. عليّ أن أتجرع ذلك كله.

انتظرت ليزي... لعلها ترجو أن أقترح عليها الذهاب في نزهة... ربما لا!

قلت لها: «الأفضل أن أعيد هذه السيارة إلى الشخص الذي استعرتها منه».

ابتسمت من جديد: «يسعدني أنك عدت إلى جادة الصواب».

«نعم!... أنت من أقنعني».

راقبتني وأنا أدخل السيارة... مازال في نظرتها بعض القلق. الأرجح أن مظهري كان مثل مظهر شخص يوشك أن يندفع بالسيارة من فوق أحد الجروف. ربما أفعل ذلك... لو أن هذا الشيء يستطيع أن يقتل مستذئباً. لوحت لي بيدها... وتابعت عيناها السيارة المبتعدة.

في البداية... قدت السيارة ببعض التعقل في طريق العودة. لم أكن في عجلة من أمري. ما كنت أريد الذهاب إلى حيث كنت ذاهباً. العودة إلى المنزل... العودة إلى الغابة! العودة إلى الألم الذي هربت منه. العودة إلى حيث أكون وحيداً مع هذا الألم... وحيداً كل الوحدة.

لا بأس! هذه ميلودراما. لن أكون وحدي تماماً، لكن هذا أمر سيئ: سيكون على ليا وسيث مقاسمتي هذه المعاناة. يسعدني أن سيث لن يضطر إلى المعاناة طويلاً. لا يستحق الفتى تعكير صفاء حياته! ليا لا تستحق أيضاً... لكنها، على الأقل، تفهم الأمر. لا شيء جديد في الألم بالنسبة لها.

أطلقت تنهيدة كبيرة عندما فكرت فيما طلبته ليا مني... صرت أعرف الآن أنها ستنال ما تريد. مازلت غاضباً منها؛ لكني ما استطعت إنكار حقيقة

قدرتي على جعل حياتها أكثر سهولة. والآن... بعد أن عرفتها بشكل أفضل... أظن أنها يمكن أن تفعل ذلك من أجلي... لو كانت مكاني وكنت مكانها.

سيكون أمراً مثيراً للاهتمام... على الأقل... وغريباً أيضاً أن تكون ليا رفيقتي... أن تكون صديقة. سوف نتشاجر كثيراً... هذا مؤكد! ولن تسمح لي بالتمادي كثيراً. لكني أرى في ذلك أمراً جيداً. لعلي أكون في حاجة حقيقية إلى شخص يقسو عليّ من حين لآخر. أما في ساعة الجد، فهي الصديق الوحيد الذي يمكن أن يفهم ما أمرّ به الآن.

فكرت في صيدنا معاً هذا الصباح... كم كان ذهنانا متقاربين في تلك اللحظة. ما كان هذا سيئاً أبداً... لعله كان مختلفاً! غريباً بعض الشيء... مخيفاً بعض الشيء! لكنه كان لطيفاً أيضاً... بطريقة غريبة.

لن أضطر إلى البقاء وحيداً تماماً.

كنت أعرف أن لدى ليا القوة الكافية حتى تواجه معي تلك الشهور القادمة... الشهور والسنوات. يتعبني التفكير فيها. شعرت مثل من يحدق في المحيط عارفاً أن عليه السباحة من الشاطئ إلى الشاطئ الآخر دون أن يستطيع التوقف التماساً لقسط من الراحة.

سيأتي وقت طويل... سيأتي بعد وقت قصير جداً. وقت قصير قبل أن أرتمي في المحيط. ثلاثة أيام ونصف اليوم... وها أنا ذا أهدر الوقت القليل الذي بقي لي.

عدت إلى قيادة السيارة بسرعة فائقة.

رأيت سام وجارد واقفين على جانبي الطريق... مثل الحرس... عندما كنت أنهب الطريق نهباً في اتجاه فوركس. كانا مختبئين جيداً بين الأغصان الكثيفة. لكني توقعت رؤيتهما... كنت أعرف أين يجب أن أنظر. أومأت برأسي عندما مررت بهما... لم أعبأ بالتساؤل عن كيفية تفسيرهما لرحلتي هذه.

أومأت برأسي لسيث وليا أيضاً... عندما كنت أمضي في الدرب المفضي إلى منزل أسرة كولن. بدأ الظلام يرخي سدوله... كانت الغيوم كثيفة في هذه الناحية. لكني رأيت عيونهما تلمع في ضوء السيارة. سأشرح لهما لاحقاً! سيكون أمامي وقت كاف للشرح.

فاجأني أن أجد إدوارد ينتظرني في المرآب. لم أره يبتعد عن بيلا منذ أيام. عرفت من وجهه أن شيئاً سيئاً لم يحصل لها. بل... بدا أكثر ارتياحاً من ذي قبل. توترت معدتي عندما تذكرت مبعث هذا الارتياح.

أمر مؤسف تماماً... لقد نسيت أن أحطم السيارة... لشدة استغراقي في أفكاري الكئيبة... لا بأس! لعلي ما كنت أستطيع تحمل إيذاء هذه السيارة تحديداً! ولعله خمن ذلك فأعارني إياها وحدها... دون غيرها من السيارات.

قال إدوارد عندما صمت المحرك: «بعض الأشياء يا جايكوب».

استنشقت نفساً عميقاً... واحتفظت به لحظات. ثم خرجت من السيارة ببطء وألقيت المفتاح إلى إدوارد.

«شكراً على هذا الدين!»... قلتها ممتعضاً... واضح أن عليّ أن أرده له... «ماذا تريد الآن؟»

«أولاً... أعرف مدى كرهك لأن تستخدم سلطتك على قطيعك، لكن...»

أدهشني تماماً أن يتحدث إدوارد في هذا الأمر: «ماذا؟»

«إذا كنت لا تستطيع... أو لا تريد... ضبط ليا... فسوف...»

قاطعته وأنا أشد على أسناني: «ليا!... ماذا حدث؟»

كان وجه إدوارد قاسياً: «جاءت ليا لتعرف سبب ذهابك بهذه السرعة. حاولت أن أشرح لها. أعتقد أن شرحي لم يكن موفقاً».

«وماذا فعلت ليا عند ذلك؟»

«تحولت إلى هيئتها البشرية و...»

«حقاً!»... قاطعته من جديد... لقد صدمت هذه المرة. لا أستطيع فهم

هذا... هل يعقل أن تتخلى ليا عن حذرها كله وهي في وكر العدو؟

«لقد أرادت أن... تتحدث مع بيلا».

«مع بيلا!»

صار صوت إدوارد شديد الغضب الآن: «لن أترك أحداً يزعج بيلا بهذا الشكل مرة ثانية. لست أبالي بمدى اقتناع ليا بمبرراتها! لم ألحق بها أي أذى... ما كنت لأفعل ذلك... لكني سألقي بها خارج المنزل إن كررت فعلتها. سأقذف بها إلى ما وراء النهر...»

«مهلك يا إدوارد! ما الذي قالته ليا؟»... ما كان لهذا كله أي معنى.

عبّ إدوارد نفساً عميقاً... ثم تمالك نفسه: «أظهرت ليا قسوة لا مبرر لها. لست أنوي التظاهر بأنني أفهم السبب الذي يجعل بيلا غير قادرة على التخلي عنك... لكني أعرف تماماً أنها لا تتصرف بهذه الطريقة من أجل إيذائك. إنها تعاني كثيراً بسبب الألم الذي تسببه لك... ولي أيضاً... بأن أطلب منك البقاء. أما ما قالته ليا فكان شيئاً لا يحتمل... لقد أبكتها كثيراً...»

«انتظر... هل راحت ليا توبخ بيلا من أجلي؟»

أومأ برأسه: «لقد جعلت منك بطلاً... ضحية».

واو!... «لم أطلب منها أن تفعل هذا».

«أعرف».

إنه يعرف... يعرف طبعاً. إنه يعرف كل شيء.

غريب حقاً أن تفعل ليا ذلك. من يصدق هذا؟ ليا... تذهب إلى بيت مصاصي الدماء في صورتها البشرية لتحتج على كيفية معاملتي.

قلت له: «لا أستطيع أن أعدك بضبط ليا. لن أفعل ذلك. لكني سوف أتحدث معها! كن واثقاً من أنها لن تكرر فعلتها. ليست ليا من النوع الذي يبقي شيئاً في قلبه. أرجح أنها نفّست عن كل ما في صدرها اليوم».

«أظن هذا».

«لكني سوف أتحدث مع بيلا في هذا الأمر أيضاً. لا داعي أبداً لأن تشعر بالاستياء. أنا المسؤول عما حدث».

«لقد قلت لها ذلك فعلاً».

«وهل هي بخير الآن؟»

«إنها نائمة. بقيت روز معها».

هكذا إذن!... صار يدعو المختلة «روز» الآن. لقد عبر إلى الجانب الآخر... الجانب المظلم.

تجاهل فكرتي هذه، وتابع إعطائي إجابة كاملة على سؤالي: «إنها... أحسن حالاً من بعض النواحي. بمعزل عن الجدل الغاضب مع ليا وما نتج عنه من شعور بالذنب».

أحسن حالاً!... لأن إدوارد صار يستمع إلى الوحش وصار كل شيء لطيفاً محبباً في نظره... رائع!

تمتم إدوارد: «الأمر أكثر من هذا بقليل. بعد أن صرت قادراً على سماع أفكار الطفل صار واضحاً أنه... أنها... صار لديه قدرات عقلية واضحة. إنه يستطيع فهمنا... إلى حد ما».

فتحت فمي مدهوشاً: «هل تتحدث جاداً؟»

«نعم!... يبدو أن لديه الآن إحساس غامض بما يؤلم بيلا. وهو يحاول تجنبه... قدر ما يستطيع. إنه... يحبها... منذ الآن».

حدقت في إدوارد... شعرت أن عيني موشكتان على القفز من محجريهما. لكن... في ثنايا عدم تصديقي... استطعت أن أرى فوراً أن هذا هو العامل الحاسم. هذا ما غير إدوارد... لقد أقنعه الوحش بحبه. لا يستطيع إدوارد أن يكره من يحب بيلا. لعل هذا ما يجعله عاجزاً عن كرهي أيضاً. لكن... ثمة فارق كبير، فلست أنا من يقتل بيلا!

تابع إدوارد... كأنه لم يسمع شيئاً من أفكاري: «أظن أن الوضع تطور أسرع مما كنا نتصور. عندما يعود كارلايل...»

قاطعته بحدة: «ألم يعودوا بعد؟»... فكرت في سام وجارد... يراقبان الطريق. هل استبد بهما الفضول فدفعهما إلى معرفة ما يجري؟

«عاد جاسبر وأليس. أرسل كارلايل معهما كل الدم الذي تمكن من الحصول عليه. لكنه لم يكن بالكمية التي أرادها... سوف تستهلك بيلا الكمية الجديدة خلال يوم واحد إذا ظلت شهيتها على تزايدها. بقي كارلايل يحاول الحصول على الدم من مصدر آخر. لا أظن أن هذا ضروري الآن... لكنه يود الاحتياط تحسباً لأي طارئ».

«لماذا هو غير ضروري؟ إن كانت في حاجة إلى المزيد».

أدركت أنه كان شديد الانتباه إلى رد فعلي عندما راح يشرح لي: «أحاول إقناع كارلايل بتوليدها فور عودته».

«ماذا؟»

«الظاهر أن الطفل يحاول تجنب الحركات العنيفة. لكن هذا صعب عليه. لقد صار كبيراً جداً. من الجنون أن ننتظر عندما نرى بوضوح أن الجنين قد كبر أكثر مما كان كارلايل يتوقع. حالتها لا تسمح لنا بالانتظار».

تتوالى المفاجآت تباعاً! مفاجآت تزعزعني! أولاً، فشل اعتمادي على كره إدوارد لذلك الشيء. والآن... كنت أيقنت أنني كنت أرى الأيام الأربعة الباقية أمراً مؤكداً... لقد كنت أعتمد على هذه الأيام الأربعة... فخذلتني!

امتد أمامي الآن ذلك المحيط من الأسى... ذلك المحيط الذي ينتظرني.

حاولت التقاط أنفاسي.

انتظر إدوارد. حدقت في وجهه وأنا أستعيد زمام نفسي فرأيت فيه تغيراً جديداً.

همست: «هل تعتقد أنها ستنجو؟»

«نعم!... هذا هو الشيء الآخر الذي أريد الحديث معك بشأنه».

لم أستطع قول أي شيء. مرت دقيقة... ثم قال: «نعم!... كان انتظارنا حتى يصبح الطفل جاهزاً أمراً خطيراً إلى حد جنوني. يمكن أن يفوتنا

الوقت في أي لحظة. أما إذا تصرفنا استباقياً... إذا تصرفنا بسرعة... فلست أرى سبباً يمنعها من النجاة. صرنا نعرف أن عقل الطفل متجاوب إلى حد لا يصدق. إن بيلا وروز متفقتان معي لحسن الحظ! بعد أن تمكنت من إقناعهما بأن من الأسلم للطفل أن تجري الولادة الآن ما عاد لدينا شيء يمكن أن يحول دون نجاح الأمر».

سألته: «ومتى يعود كارلايل؟»... كنت أتحدث همساً... لم أستطع التقاط أنفاسي بعد.

«ظهر الغد».

تهاوت ركبتاي. كان علي أن أمسك بالسيارة حتى أظل واقفاً. مد إدوارد يده كما لو أنه يعرض المساعدة... لكنه غير رأيه وترك يده تسقط من جديد.

همس: «أنا آسف! يؤسفني حقاً ما يصيبك من ألم بسبب هذا كله يا جايكوب. أعرف أنك تكرهني... لكني أعترف أنني لا أبادلك المشاعر نفسها. أنا أعتبرك... أخاً... بأشكال كثيرة. أعتبرك رفيق سلاح... على أقل تقدير. تؤسفني معاناتك أكثر مما تظن. لكن بيلا ستعيش»... قال الجملة الأخيرة بصوت حاد... عنيف... «وأنا أعرف أن هذا هو ما يهمك حقاً».

لعله مصيب! لا أدري... بدأ رأسي يدور.

«أكره أن أفعل هذا الآن... أنت تتحمل الكثير. لكن، من الواضح أن لدينا بعض الوقت. عليّ أن أطلب منك شيئاً... أن أرجوك إذا لزم الأمر».

قلت مختنقاً: «ما عاد لدي شيء أعطيه».

رفع يده من جديد كما لو أنه يريد وضعها على كتفي. لكنه تركها تسقط ثانية كما فعل منذ قليل... وتنهد.

قال بصوت هادئ: «أعرف كم أعطيت! لكن هذا شيء تملكه فعلاً... تملكه وحدك. أطلب هذا من زعيم حقيقي يا جايكوب. أطلب هذا من وريث بيلي بلاك».

ما كنت قادراً على الاستجابة لهذه المفاجأة!

«أطلب منك الإذن لكي نخالف ما اتفقنا عليه في معاهدتنا مع أبيك. أريد منك منحنا هذا الاستثناء. أريد منك إذناً بإنقاذ حياتها. تعرف أنني سأفعل ذلك في جميع الأحوال، لكني لا أريد الإخلال بالثقة التي بيننا إن استطعت تجنب ذلك. لم نكن ننوي الرجوع عن وعدنا أبداً... ولسنا نفعل ذلك بخفة الآن. أطلب تفهمك يا جايكوب لأنك تعرف تماماً السبب الذي يحملنا على فعل ذلك. أريد أن يستمر التحالف بين أسرتينا عندما ينتهي هذا الأمر».

حاولت ابتلاع ريقي. قلت في ذهني... «سام! هل تريد سام؟»

«لا! سلطة سام ظرفية. السلطة لك أنت. أعرف أنك لن تسلبه السلطة، لكن أحداً غيرك لا يملك الحق في الموافقة على ما أطلبه الآن».

«هذا ليس قراري».

«بل هو قرارك يا جايكوب! وأنت تعرف هذا. كلمتك هي ما يديننا أو يحلنا من الإدانة. أنت وحدك من يستطيع إعطائي هذا الأمر».

«لا أستطيع التفكير... لا أدري!»

التفت صوب المنزل: «ليس لدينا وقت طويل».

لا! ليس لدينا وقت أبداً. صارت أيامي القليلة ساعات قليلة فحسب.

«لا أدري! دعني أفكر. أعطني دقيقة فقط».

«لا بأس».

رحت أسير صوب المنزل... سار خلفي. عجيبة سهولة الأمر... أن أمشي في الظلام وبجانبي مصاص دماء. لم أشعر بعدم الأمان... أو حتى بعدم الراحة. كان ذلك مثل السير بجانب أي شخص. أي شخص... ذي رائحة كريهة.

لمحت حركة في الأشجار عند طرف المرج الواسع ثم سمعت صوتاً منخفضاً. خرج سيث من بين الأغصان وجاء إلينا.

قلت له: «مرحباً يا فتى».

طأطأ رأسه عند قدمي فربتت على كتفه.

قلت كاذباً: «كل شيء بخير! . . . سأروي لك فيما بعد. آسف لأني ذهبت وتركتك بهذه الطريقة».

ابتسم لي.

«اسمع! قل لأختك أن تكف الآن. . . هل فهمت؟ قل لها: كفى!»

أومأ سيث برأسه مرة واحدة.

ضربته على كتفه هذه المرة: «عد إلى عملك. سألحق بك بعد قليل».

مال سيث صوبي ودفعني بكتفه ثم انطلق يجري بين الأشجار.

تحمّم إدوارد عندما اختفى سيث عن أنظارنا: «إن له عقلاً من أنقى وأخلص وألطف العقول التي استمعت إليها حتى الآن. أنت محظوظ بأن تقاسم هذا الفتى أفكاره».

«أعرف هذا».

اتجه إدوارد إلى المنزل. رفعنا رأسينا فجأة عندما سمعنا صوت أحد يرشف سائلاً بالقشة. أسرع إدوارد عند ذلك. . . اندفع عبر درجات المدخل واختفى داخل المنزل.

سمعته يقول: «بيلا! حبيبتي! ظننت أنك نائمة. آسف. . . لو عرفت أنك ستستيقظين لما خرجت».

«لا تقلق! لقد عطشت. . . هذا كل ما في الأمر. . . أيقظني الظمأ. جيد أن كارلايل سوف يحضر المزيد. سوف يكون هذا الصغير في حاجة إليه عندما يخرج من جسمي».

«صحيح. . . معك حق».

قالت: «لا أدري إن كان سيحتاج شيئاً آخر».

«أظن أننا سنعرف ذلك في حينه».

دخلت عبر الباب.

قالت أليس: «أخيراً!». . . لمعت عينا بيلا في اتجاهي. وارتسمت على وجهها لثانية واحدة تلك الابتسامة التي تثير غضبي. . . التي لا أستطيع

مقاومتها. ثم ذوت ابتسامتها وانطفأ وجهها. شدت على شفتيها كأنها تحاول منع نفسها من البكاء.

أردت ساعتها أن أضرب ليا على فمها الأحمق.

قلت لها بسرعة: «مرحبا يا بيلا! كيف حالك؟»

قالت: «أنا بخير».

«إنه يوم جيد! لدينا كثير من الأشياء الجديدة».

«لست مضطراً إلى هذا يا جايكوب».

قلت لها: «لا أعرف عمّ تتحدثين». . . ثم مضيت فجلست على ذراع الأريكة قرب رأسها. كان إدوارد جالساً هناك على الأرض. . . قبلي.

ألقت علي نظرة لوم: «أنا آسـ. . .»

أمسكت شفتيها بين إصبعي وإبهامي.

غمغمت محاولة دفع يدي: «جايكوب!». . . كانت محاولاتها شديدة الضعف. . . كان يصعب تصديق أنها تحاول إبعاد يدي حقاً.

هززت رأسي: «تستطيعين الكلام عندما لا تكوني حمقاء».

غمغمت كأنها تقول: «طيب! لن أقولها».

سحبت يدي.

أنهت كلمتها بسرعة: «آسفة». . . وابتسمت.

ابتسمت لها.

عندما حدقت في عينيها رأيت فيهما كل ما كنت أبحث عنه هناك. . . في المتنزه.

ستكون غداً شخصاً آخر. لكن، آمل أن تكون حية. فهذا ما يهمني حقاً! ستنظر إلي بهاتين العينين نفسهما. . . إلى حد ما. ستبتسم بهاتين الشفتين نفسهما. . . إلى حد ما. ستظل تعرفني أكثر من أي شخص لا يستطيع الدخول إلى أفكاري.

قد تكون ليا رفيقة تثير الاهتمام. . . بل لعلها تكون صديقة حقيقية. . .

شخصاً يقف إلى جانبي. لكنها ليست صديقتي المفضلة كما هي بيلا. فعلاوة على الحب المستحيل الذي أكنه لبيلا... ثمة أيضاً رابط آخر... عميق جداً... حتى العظام.

غداً... ستكون عدوتي، أو ستكون حليفتي. من الواضح أن القرار قراري.

تنهدت.

فكرت في رأسي... معطياً آخر شيء أستطيع إعطاؤه... أحسست أنني صرت فارغاً من الداخل: «لا بأس! هيا إذن!... أنقذها. بصفتي وريث بيلي بلاك... أمنحك الإذن يا إدوارد... أعطيك كلمتي... لن يعتبر هذا خرقاً للمعاهدة. لن يستطيع الآخرون لوم أحد غيري. أنت محق... لا يستطيعون إنكار أن من حقي أن أوافق على هذا».

همس إدوارد بصوت شديد الانخفاض حتى لا تسمع بيلا شيئاً: «شكراً»... لكنه قالها بحرارة صادقة... رأيت من زاوية عيني بقية مصاصي الدماء يستديرون فينظرون إلينا.

سألت بيلا... محاولة أن تتكلم بطريقة عادية: «إذن! كيف كان يومك؟»

«رائع! ذهبت في نزهة بالسيارة... تجولت في المنتزه».

«يبدو هذا لطيفاً».

«طبعاً... طبعاً!»

فجأة... كشرت بيلا وقالت: «روز!»

سمعت الشقراء تضحك: «من جديد!»

أجابتها بيلا موضحة: «أظن أنني شربت غالونين خلال الساعة الأخيرة».

ابتعدنا من الطريق... أنا وإدوارد... وحملت روزالي بيلا من الأريكة ذاهبة بها إلى الحمام.

تساءلت بيلا: «هل أستطيع المشي؟ أشعر أن ساقي متيبستان».

سألها إدوارد: «هل أنت واثقة؟»

«ستمسك بي روز إذا تعثرت. هذا ممكن فعلاً فأنا لا أستطيع رؤية قدميّ».

وضعت روزالي بيلا على قدميها بحرص شديد. لكنها أبقت يديها عند كتفي بيلا. مدت بيلا ذراعيها أمامها مكشرة من الألم قليلاً.

قالت متنهدة: «هذا جيد... أوف... لكنني صرت ضخمة كثيراً».

كانت ضخمة فعلاً. كانت كلها بطناً!

قالت وهي تمسد بطنها: «يوم آخر فقط!»

لم أستطع تجنب الألم الذي داهمني فجأة... طعنني... لكنني حاولت منعه من الظهور على وجهي. أستطيع إخفاؤه يوماً آخر... ألست أستطيع هذا؟

«إذن... لا بأس... أوه... أوه... أوه!»

سقطت الكأس التي تركتها بيلا على الأريكة، ولطخ الدم الأحمر الداكن قماشها الشاحب.

رغم وجود ثلاثة أيدي تمسكها... انحنت بيلا تلقائياً لتمسك بالكأس.

انبعث من داخل جسمها صوت تمزق مكتوم غريب.

قالت لاهثة: «أوه».

ثم ارتخى جسدها كله وهوت صوب الأرض. أمسكتها روزالي في اللحظة المناسبة... قبل أن تقع. كان إدوارد هناك أيضاً... ماداً يديه. نسي الجميع الدم الذي انسكب على الأريكة.

قال لها: «بيلا!»... ثم غامت عيناه واستولى الألم على قسمات وجهه.

بعد نصف ثانية... صرخت بيلا.

ما كانت تلك صرخة فحسب... كانت زعيق ألم يجمد الدم في العروق. قطعت ذلك الصوت المخيف غرغرة في حنجرتها... غارت عيناها... والتوى جسدها ثم تقوس بين ذراعي روزالي... ثم أفرغت من جوفها نافورة من الدم.

18

ما من كلمات تعبر عن هذا

بدأ جسد بيلا يرتعد وينتفض بين ذراعي روزالي كما لو أن تياراً كهربائياً يسري فيه. كان وجهها خالياً من التعبير... فاقد الوعي. كان ذلك التخبط في بطنها هو ما يحركها. ومع انتفاض جسدها... كانت أصوات تحطم وتمزق تأتي من بطنها... تواكب تشنجات جسمها.

تجمد كل من إدوارد وروزالي لنصف ثانية ثم تحركا. ضمت روزالي جسد بيلا بقوة بين ذراعيها وصاحت بكلمات كان الفصل بينها صعباً لسرعتها... ثم اندفعت مع إدوارد إلى الطابق العلوي.

اندفعت خلفهما.

صاح إدوارد مخاطباً روزالي: «مورفين!»

زعقت روزالي: «أليس... اطلبي كارلايل على الهاتف».

كانت الغرفة التي تبعتهما إليها أشبه بغرفة طوارئ طبية مقامة داخل مكتبة. كانت الأضواء ساطعة... بيضاء. كانت بيلا ممددة على الطاولة تحت الضوء... بدت مثل شبح في ذلك الضياء كله. انتفض جسدها كما تنتفض السمكة على الرمل. ثبتتها روزالي وهي تمزق ثيابها وتنزعها عنها. أما إدوارد فغرس حقنة في ذراعها.

كم مرة تخيلتها عارية؟ أما الآن فما كنت أستطيع النظر! أخاف أن أحمل هذه الذكريات في رأسي إلى الأبد.

«ماذا يجري يا إدوارد؟»

«إنه يختنق».

«لابد أن المشيمة انفصلت!»

في هذه اللحظة استيقظت بيلا. وردت على كلماتهم بصرخة أنشبت مخالبها في طبلة أذني.

زعقت بيلا: «أخرجوه! إنه لا يستطيع التنفس! افعلوا ذلك الآن».

رأيت بقعاً حمراء تنبجس في عينيها عندما مزق صراخها الأوعية الدموية فيهما.

صاح إدوارد: «المورفين...»

«لا! لا!...» اندفعت دفقة جديدة من الدم فخنقت كلماتها. أمسك إدوارد برأسها في محاولة يائسة لإفراغ فمها حتى تستطيع التنفس من جديد.

اندفعت أليس إلى الغرفة ووضعت سماعة زرقاء صغيرة تحت شعر روزالي، ثم تراجعت... كانت عيناها الذهبيتان واسعتين... محترقتين. راحت روزالي تتحدث في الهاتف بسرعة فائقة.

في ذلك الضوء الساطع... بدا اللون الأسود... والأرجواني أكثر من اللون الأبيض في جسد بيلا. كان لون أحمر داكن ينتشر تحت جلدها... في تلك الحدبة المتخبطة في بطنها. أمسكت يد روزالي بالمشرط.

صاح بها إدوارد: «انتظري حتى ينتشر المورفين».

فحت روزالي: «ليس لدينا وقت... إنه يموت».

هوت بيدها على بطن بيلا فانبثق الدم الأحمر القاني من حيث شقت الجلد. كان ذلك مثل سطل من الماء انقلب فجأة... أو مثل صنبور انفتح حتى آخره. انتفضت بيلا... لكنها لم تصرخ. مازالت تختنق.

في تلك اللحظة فقدت روزالي تركيزها. رأيت تعبير وجهها يتغير... كشرت شفتاها عن أسنانها ولمع الظمأ في عينيها.

زمجر إدوارد: «لا يا روز!»... لكن يديه كانتا مقيدتين... كان يحاول رفع رأس بيلا حتى تستطيع التنفس.

ألقيت بنفسي على روزالي... قفزت من فوق الطاولة دون انتظار، وعندما اصطدمت بجسدها الحجري قاذفاً به صوب الباب أحسست بالمشرط في يدها يطعنني عميقاً في ذراعي اليسرى. صفعتها بيدي اليمنى ممسكاً فمها... كاتماً أنفاسها.

استخدمت يدي الممسكة بوجه روزالي حتى أزيحها جانباً فأتمكن من توجيه ركلة شديدة إلى بطنها. كان ذلك كمن يركل جداراً من الإسمنت. طارت روزالي واصطدمت بإطار الباب فحطمت جانباً منه. تحطمت السماعة الصغيرة التي في أذنها فصارت شظايا. ثم ظهرت أليس فسحبتها من رقبتها وأخذتها إلى الصالة.

عليّ أن أعترف بهذا... لم تقاوم الشقراء أبداً. لقد أرادت أن نفوز عليها. لقد تركتني أهزمها بتلك الطريقة... من أجل إنقاذ بيلا. لا! من أجل إنقاذ ذلك الشيء.

سحبت المشرط من ذراعي.

صاح إدوارد: «أليس! أخرجيها من هنا. خذيها إلى جاسبر ودعيها تبقى هناك. جايكوب... أنا في حاجة إليك».

لم أنظر إلى أليس وهي تنهي العمل. عدت سريعاً إلى طاولة العمليات... رأيت لون بيلا يتحول إلى الزرقة... كانت عيناها واسعتين... محدقتين.

زمجر إدوارد... مسرعاً... ملحاً: «هل تعرف إجراء الإحياء القلبي الرئوي؟»

«نعم!»

نظرت إلى وجهه حتى أتبيّن وضعه بسرعة. كنت أبحث عن أي شيء

يشير إلى رد فعل كالذي أصاب روزالي. لم أر شيئاً... لم أر إلا ضراوة مصممة... لها هدف واحد.

«اجعلها تستعيد تنفسها. عليّ إخراجه منها قبل...»

سمعنا صوت تمزق جديد داخل جسدها. كان أقوى من أي صوت سمعناه من قبله... قوياً جعلنا نتجمد مصدومين... ننتظر صراخها. لا شيء!... رأيت ساقيها تمتدان مرتخيتين بعد أن كانتا مطويتين من الألم... امتدتا بطريقة غير طبيعية.

قال إدوارد مختنقاً... خائفاً: «عمودها الفقري!»

زمجرت قاذفاً المشرط إليه: «أخرجه منها الآن!... لن تشعر بأي شيء».

عند ذلك انحنيت فوق رأسها. بدا فمها نظيفاً من الدم فوضعت فمي عليه ونفخت فيه ملء رئتي. أحسست بصدرها ينتفخ... إذن، لا شيء يسد حلقها!

كان لشفتيها طعم الدم.

استطعت سماع قلبها يخفق من غير انتظام. قلت في ذهني بضراوة... مخاطباً بيلا... «دعيه يخفق»... نفخت فيها دفعة جديدة من الهواء... «لقد وعدتني... حافظي على نبض قلبك».

سمعت صوت المشرط... صوته الطري... الرطب... يشق بطنها. سال مزيد من الدم صوب الأرض.

جاء الصوت التالي فأجفلني... صوت مرعب... غير متوقع. صوت يشبه صوت تمزق المعدن. أعاد ذلك الصوت ذكريات القتال في فسحة الغابة قبل شهور كثيرة... كان مثل صوت تمزق مصاصي الدماء المولودين حديثاً... عندما كنا نمزقهم إرباً. نظرت لأرى وجه إدوارد منكباً على بطن بيلا... رأيت أسنان مصاص الدماء... إنها طريقة ناجعة لتمزيق ذلك الغلاف الذي يشبه جلود مصاصي الدماء.

ارتعدت وأطلقت دفعة جديدة من الهواء في جوف بيلا.

سعلت بيلا... رفرفت عيناها... ودارتا في أرجاء المكان... معميتين.

صحت بها: «ابقي معي يا بيلا. هل تسمعينني؟ ابقي! لن تتركيني... حافظي على نبض قلبك!»

تحركت عيناها من جانب لآخر ناظرتين صوبي... صوبه... دون أن تريا شيئاً.

لكن حدقت فيهما... جعلت عيني تلتحمان بعينيها.

ثم... هدأ جسدها تحت يدي... لكن تنفسها استمر... خشناً... وتابع قلبها الخفقان. أدركت أن هدوء جسدها يعني أن الأمر انتهى. زال ذلك التخبط في داخلها. لابد أن إدوارد أخرجه منها.

لقد أخرجه منها!

همس إدوارد: «رينيمي».

كانت بيلا مخطئة إذن! لم يكن الصبي الذي تخيلت! لا شيء مفاجئ في الأمر... ما الذي لم تخطئ فيه؟

لم أزح نظري عن عينيها المبقعتين بالأحمر... لكنني شعرت بيديها ترتفعان... ضعيفتين.

قالت بهمس متكسر: «دعني... أعطني إياها!»

كان علي أن أعرف أنه سيعطيها ما تريد... دائماً... مهما يكن طلبها سخيفاً... غبياً. لكنني لم أتخيل أنه سيصغي إليها الآن. لذلك لم أفكر في إيقافه.

لمس ذراعي شيء حار. كان يجب أن يلفت هذا انتباهي... لا شيء حار هنا.

لكنني لم أستطع انتزاع عيني من وجه بيلا. رفرف جفناها... ثم حدقت... لقد رأت شيئاً... أخيراً. أطلقت صوت أنين... هديل... غريب... منخفض.

«رينيمي!... جميلة... جداً».

ثم أطلقت زفرة عميقة... زفرة ألم!

عندما نظرت كان الوقت قد تأخر. كان إدوارد قد انتزع الشيء الحار... المدمى... من بين ذراعيها الخدرتين. نظرت إلى جلدها. كان أحمر من الدم... الدم الذي سال من فمها... الدم الذي يلطخ ذلك المخلوق... وكذلك دم جديد ينبع من عضة على شكل هلالين متقابلين صغيرين... تماماً فوق ثديها الأيسر.

تمتم إدوارد: «لا يا رينيمي!»... وكأنه يعلم الوحش الصغير أصول اللياقة.

لم أنظر إليه... أو إلى المولود. لم أنظر إلا إلى بيلا التي غارت عيناها من جديد.

تعثر قلبها... أطلق صوت نبضة أخيرة... ثم صمت.

قبل أن يحين وقت النبضة التالية وضعت كلتا يدي على صدرها وبدأت أضغط. كنت أعد في رأسي محاولاً المحافظة على إيقاع منتظم. واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة.

توقفت لحظة لأنفخ فيها دفعة جديدة من الهواء.

ما عدت أستطيع أن أرى شيئاً. كانت عيناي رطبتين... زائغتين. لكنني كنت واعياً تماماً للأصوات التي في الغرفة. كنت أسمع صوت قلبها غير المتجاوب مع يدي... أسمع وجيب قلبي... وصوت قلب آخر... نبض سريع جداً... خفيف جداً. لم أفهم هذا النبض.

دفعت مزيداً من الهواء في فمها.

«ماذا تنتظر؟»... قلت مبهور الأنفاس وأنا أعاود الضغط على صدرها. واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة.

قال إدوارد ملحاً: «خذ الطفلة!»

«ارمها من النافذة!»... واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة.

جاءنا صوت منخفض... رنان... من باب الغرفة: «أعطني إياها».

زمجرنا في وقت واحد... أنا وإدوارد.

واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة.

وعدتنا روزالي قائلة: «لقد سيطرت على نفسي... أعطني الطفلة يا إدوارد. سوف أعتني بها حتى تصبح بيلا...».

نفخت في فم بيلا من جديد... بينما كان إدوارد يعطي الطفلة إلى روزالي. توقف صوت نبضها... اختفى في البعيد.

«ارفع يديك عنها يا جايكوب».

حولت نظري عن عيني بيلا المبيضتين... مازلت أواصل الضغط على صدرها. كان في يد إدوارد حقنة... فضية كلها... كما لو أنها مصنوعة من الفولاذ.

«ما هذا؟»

دفعت يده الحجرية يدي بعيداً عن بيلا. سمعت صوت تحطم عندما كسرت ضربته إصبعي الصغير. وفي الثانية نفسها غرس الإبرة في قلبها.

أجابني وهو يضغط الحقنة: «إنه سمي».

سمعت انتفاضة قلبها... كأن إدوارد ضربها.

«تابع الضغط»... أمرني بهذا. كان صوته جليدياً... ميتاً... قاسياً... غير مفكر. كما لو أنه صوت آلة.

تجاهلت ألم إصبعي الذي بدأ يشفى وبدأت أضغط صدرها من جديد. صار أكثر قساوة الآن... كما لو أن دمها قد تصلب في تلك المنطقة... صار أكثر كثافة وأكثر بطئاً. وبينما كنت أتابع دفع الدم... الذي صار مسموماً الآن... في عروقها... رحت أراقب ما يفعله إدوارد.

بدا كأنه يقبلها... متنقلاً بشفتيه على عنقها ومعصميها... تحت إبطيها. لكنني كنت أسمع صوت تمزق جلدها تحت أسنانه التي راحت تخترقه... مرة بعد مرة... مدخلة السم في جسمها في أكثر عدد ممكن من

النقاط. رأيت لسانه ينتقل فوق الجروح النازفة. لكن... قبل أن يصيبني ما أراه بالغثيان أو بالغضب... أدركت معنى ما يفعله. حيث كان لسانه يضع السم على جلدها... كانت جروحها المفتوحة تندمل كأنها لم تكن. كانت تمسك بالسم والدم داخل جسمها.

دفعت مزيداً من الهواء في فمها... لكن من غير استجابة. لم أر إلا انتفاخ صدرها استجابة للهواء الداخل فيه... لكن من غير حياة. تابعت الضغط على قلبها... تابعت العد... وتابع إدوارد عمله الآلي محاولاً إنقاذها.

... كل خيول الملك... كل فرسان الملك... لا يستطيعون هذا. إنه عبث... عبث... عبث.

ما كان هناك شيء أبداً... أنا... وهو... فقط!

أنا وهو... نعمل على جثة هامدة.

لم نستطع إنقاذ بيلا... لم يبق من الفتاة التي أحببناها... كلانا... إلا هذه الجثة المحطمة المدماة.

كنت أعرف أن الوقت قد فات. كنت أعرف أنها ميتة لا محالة. كنت موقناً بهذا لأن شيئاً ما عاد يجذبني إليها. ما عدت أرى سبباً يجعلني أبقى إلى جوارها. ما كانت هي بيلا بعد هذه اللحظة. ما عاد في هذا الجسد ما يجذبني. اختفت تلك الحاجة المجنونة لبقائي بالقرب منها.

أو... لعل تلك الحاجة انتقلت! أحسست أن شيئاً يجذبني من الجهة الأخرى الآن. من أسفل السلم... من خارج الباب. إنه ذلك التوق إلى الخروج من هنا دون أن أعود إلى هذا المكان أبداً... أبداً.

قال إدوارد بحدة: «اذهب إذن!»... ثم ضرب يدي ليزيحهما من جديد ليحل محلي. انكسرت ثلاثة من أصابعي... هكذا أحسست.

نهضت واقفاً... مخدراً... لم يزعجني ذلك الألم النابض في يدي.

راح إدوارد يضغط قلبها الهامد بأسرع مما فعلت.

زمجر قائلاً: «هي لم تمت!... سوف تكون بخير».

ما عدت أعرف إن كان يتحدث معي!

استدرت ومضيت بطيئاً عبر الباب تاركاً إدوارد مع الجثة. ما كنت أستطيع جعل قدمَيّ تتحركان بأسرع من ذلك.

هكذا إذن!... إنه محيط الألم. الشاطئ الآخر بعيد... بعيد... بعد هذه المياه الفائرة... بعيد لا أستطيع تخيله... لا أستطيع رؤيته.

أحسست أنني صرت خاوياً من جديد... خسرت قضيتي الآن! كان إنقاذ بيلا معركتي منذ زمن بعيد. ما كان إنقاذها ممكناً. لقد ضحت بنفسها عامدة... سمحت أن يمزقها ذلك الوحش الصغير... وهكذا خسرت معركتي. انتهى الأمر كله.

ارتعدت لسماع الصوت الآتي من خلفي عندما بدأت أهبط الدرجات إلى الأسفل... صوت قلب ميت يجري إجباره على الخفقان.

وددت لو أستطيع أن أسكب الصود الكاوي داخل رأسي فأتركه يحرق دماغي. أتركه يحرق الصور... صور دقائق بيلا الأخيرة... الصراخ... والدم... صوت التمزق الرهيب عندما اخترقها الوحش ليخرج منها...

وددت أن أندفع خارجاً بأقصى سرعتي أن أقفز الدرجات عشراً فعشراً ثم أجري إلى الباب... لكن قدمَيّ كانتا ثقيلتين... مثل الحديد... وكان جسدي مرهقاً كما لم يكن من قبل. سرت هابطاً السلم مثل عجوز مقعد.

جلست أرتاح على الدرجة الأخيرة... جلست أستجمع قوتي لأخرج من الباب.

كانت روزالي جالسة على الناحية النظيفة من الأريكة. كان ظهرها باتجاهي... وكانت تتمتم وتغني وتهدل لذلك الشيء الملفوف ببطانية بين ذراعيها. لابد أنها سمعت حركتي... ثم توقفت... لكنها تجاهلتني مستغرقة كلياً في لحظة الأمومة المسروقة تلك. لعلها سعيدة الآن! نالت روزالي ما أرادت... لن تأتي بيلا أبداً لتأخذ هذا المخلوق منها.

تساءلت... هل كانت هذه الشقراء السامة تأمل في هذه النهاية منذ البداية؟

كانت تمسك في يدها شيئاً داكن اللون. وسمعت صوت امتصاص شره يأتي من القاتلة الصغيرة التي بين يديها.

رائحة الدم في الهواء... الدم البشري. كانت روزالي تطعمها! طبيعي أنها تريد الدم! فماذا يمكن إطعام هذا النوع من الوحوش... الذي يمزق أمه نفسها بكل وحشية؟ بل لعلها تشرب الآن دم بيلا. لعله دم بيلا!

عادت قوتي عندما رحت أصغي إلى صوت القاتلة الصغيرة... تتغذى.

القوة والكراهية والحرارة... حرارة حمراء تجتاح رأسي... حرارة تحرق... دون أن تمحو شيئاً! ظلت الصور التي في رأسي مثلما كانت... ظلت تنشئ ذلك الأتون... وترفض أن تحترق. أحسست رجفة عنيفة هزتني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي... لم أحاول إيقافها.

كانت روزالي منشغلة تماماً مع ذلك المخلوق... ما كانت تعيرني أي انتباه. لن تكون لديها السرعة الكافية حتى توقفني لأنها مستغرقة تماماً.

كان سام على حق! هذا المخلوق شذوذ... إن وجوده نفسه مخالف للطبيعة. شيطان أسود من غير روح. شيء لا حق له في الوجود.

شيء لا بد من تدميره.

بدا لي أن ما جذبني ما كان يجذبني صوب الباب. أحس به الآن... يشجعني... يشدني إلى الأمام. يدفعني إلى إنهاء الأمر... إلى تنظيف العالم من هذا الشذوذ.

ستحاول روزالي قتلي عندما أقتل هذا المخلوق. ولسوف أقاتلها. لست أدري... هل أظفر بالوقت الكافي للإجهاز عليها قبل أن يأتي الآخرون لنجدتها؟ ربما... وربما لا!... لست أبالي كثيراً!

لست أبالي أيضاً إذا انتقم الذئاب... أيُّ القطيعين... لمقتلي... إذا اقتصوا من أسرة كولن. لا أهمية لهذا كله. أريد عدالتي أنا! انتقامي أنا! لن أسمح للمخلوق الذي قتل بيلا بالعيش دقيقة أخرى.

لو تجت بيلا لكرهتني بسبب ما أنا ماضٍ إلى فعله الآن... لأرادت قتلي... شخصياً.

لكنني لا أبالي! هي أيضاً لم تأبه لما فعلته بي... بأن تترك نفسها للذبح... كما تذبح الحيوانات. فلماذا أدخل مشاعرها في حسابي؟

ثم هناك إدوارد أيضاً! لابد أنه شديد الانشغال الآن... مستغرق تماماً في إنكاره المجنون لموتها... يحاول إعادة الحياة إلى جثة... لن يستطيع الإصغاء إلى خططي.

... سوف أغتنم الفرصة حتى أفي بالوعد الذي قطعته له؛ إلا... ليس هذا رهاناً رابحاً... إلا إذا تمكنت من الإجهاز على روزالي وجاسبر وأليس معاً. لكن... حتى إن أجهزت عليهم... لا أظن أنني أريد قتل إدوارد.

ما عندي شفقة كافية لقتله. لماذا أتركه ينجو بعدما فعل؟ ألن يكون أكثر عدلاً... أكثر إرضاءً... أن أتركه يعيش من غير شيء... من غير شيء على الإطلاق؟

جعلني تخيل ذلك كله أبتسم... تقريباً... كنت مفعماً بالكراهية. لا وجود لبيلا... لا وجود للمسخ القاتل... لا وجود لكل من أستطيع قتله من هذه الأسرة. لكنه قد يتمكن... طبعاً... من جمع أشلائهم وإعادتهم إلى الحياة فأنا لن أكون موجوداً حتى أحرقهم. أما بيلا فلن تعود إلى الحياة من جديد.

هل يمكن إعادة هذا المخلوق إلى الحياة من جديد؟ أشك في هذا. إنه من بيلا... جزئياً... لابد أنه ورث عنها شيئاً من ضعفها وهشاشتها. كنت قادراً على سماع ذلك في نبض قلبه الضئيل الخافق.

قلب الوحش يخفق... أما قلبها فقد توقف عن الخفقان!

لم تستغرق هذه القرارات السهلة أكثر من ثانية واحدة.

صار ارتجافي أكثر شدة... أكثر سرعة. تأهبت للانقضاض... للقفز صوب مصاصة الدماء الشقراء وانتزاع هذا الشيء القاتل من بين ذراعيها... بأسناني.

عادت روزالي تهدل للمخلوق الذي بين يديها. وضعت الزجاجة المعدنية الفارغة جانباً ثم رفعت المخلوق في الهواء ووضعت وجهه على خدها.

ممتاز!... إنه وضع مثالي للهجوم. انحنيت إلى الأمام... شعرت بالحرارة تبدلني... وشعرت بتزايد القوة التي تدفعني إلى الانقضاض على هذا الشيء القاتل... قوة أشد من أي قوة أحسستها من قبل... شديدة جداً... تذكرني بقوة أمر يصدره الزعيم... قوة يمكن أن تسحقني إن لم أطعها.

أريد أن أطيعها هذه المرة.

التفتت القاتلة ونظرت إلي من فوق كتف روزالي... كانت نظرتها أكثر تركيزاً من نظرة أي مصاص دماء مولود حديثاً.

عينان بنيتان دافئتان. بشرة بلون الشوكولاتة البيضاء... تماماً مثلما كان لون بيلا.

توقف ارتجافي... اجتاحتني الحرارة... أقوى من ذي قبل... لكنها حرارة من نوع جديد... ليس احتراقاً.

بل هي توهج!

استرخى كل شيء في داخلي عندما حدقت في ذلك الوجه البورسلاني الصغير... وجه طفلة نصفها مصاصة دماء... ونصفها بشرية. انقطعت بضربة سريعة واحدة كل الخيوط التي كانت تربطني بالحياة... مثلما تنقطع خيوط مجموعة من البالونات. كل ما يجعلني ما أنا عليه... حبي للفتاة الميتة في الطابق العلوي، حبي لأبي، ولائي لقطيعي الجديد، حبي لبقية إخوتي، كرهي لأعدائي، بيتي، اسمي، نفسي... انفصل هذا كله عني في تلك الثانية... انفصل وطار في الفضاء.

لكنني ما كنت الآن أهيم على غير هدى! ثبتني خيط جديد في مكاني.

لا... ليس خيطاً! بل مليون خيط. لا... ليست خيوطاً بل هي حبال من فولاذ. صار مليون حبل فولاذي يقيدني... يربطني... إلى شيء واحد... إلى مركز الكون نفسه.

أرى هذا الآن! . . . أرى كيف يدور الكون كله حول هذه النقطة وحدها.
لم أر تناظر الكون من قبل . . . أما الآن فقد صار واضحاً كل الوضوح.

ما عادت جاذبية الأرض تربطني بالمكان الذي أقف فيه.

صارت الطفلة الصغيرة بين ذراعي مصاصة الدماء الشقراء هي ما يثبّتني هنا . . . الآن.

رينيمي!

سمعت صوتاً جديداً من الطابق العلوي . . . الصوت الوحيد الذي يمكن أن يلمسني في هذه اللحظة اللانهائية.

صوت قلب يخفق مسرعاً . . . صوت نبضات متسابقة . . .

صوت قلب يتغير!

الكتاب الثالث

بيلا

إن التعاطف الشخصي ترف لا تستطيعه إلا بعد فناء أعدائك كلهم. وحتى ذلك الوقت... يكون كل من تحبه رهينة... رهينة تذهب بشجاعتك وتفسد أحكامك.

أورسون سكوت غارد ـ الإمبراطورية

مقدمة

ما عاد هذا كابوساً فحسب! راح خط السواد يتقدم صوبنا عبر الضباب الجليدي الذي تثيره أقدامهم.

قلت في نفسي خائفة «سوف نموت». . . كنت شديدة القلق على تلك الغالية التي أحرسها. لكن. . . حتى التفكير في ذلك كان تشتيتاً للانتباه. . . لا أستطيع المغامرة به.

اقتربت أشباحهم. . . كانت أثوابهم القاتمة تخفق قليلاً مع حركتهم. رأيت أيديهم تتحول إلى مخالب بلون العظام. توزعوا. . . حتى يأتوا إلينا من جميع النواحي. كانوا أكثر منا عدداً. . . لقد انتهى أمرنا!

ثم. . . مثل دفقة ضوء ساطع. . . تغير المشهد كله. . . لكن. . . لم يتغير شيء! مازال الفولتوري يتقدمون صوبنا مصممين على قتلنا. . . ما تغير حقاً هو شكل هذا المنظر بالنسبة لي. فجأة. . . صرت جائعة لهذا الأمر. صرت أريدهم أن يهجموا. تحول الرعب إلى شهوة للدم عندما جثمت مستعدة للوثب. . . مع ابتسامة على وجهي. . . وزمجرة تنطلق من بين أسناني العارية.

19

احتراق

كان الألم محيراً!

هكذا كان تماماً... محيراً. لم أستطع الفهم... لم أستطع إدراك ما يجري.

حاول جسدي رفض الألم... لكنني وجدت نفسي ممتصةً... مرة بعد مرة... في ظلمة دامت ثواني... أو دقائق... من المعاناة... ظلمة زادت كثيراً من صعوبة التمسك بالواقع.

حاولت الفصل بين الأمرين.

كان اللاواقع أسود اللون... وما كان مؤلماً كثيراً!

أما الواقع فكان أحمر اللون... كما لو أن شيئاً ينشرني إلى نصفين... كما لو أن حافلة دهستني... كما لو أن بطل ملاكمة يضربني... كما لو أن الثيران تدوسني... كما لو أني غرقت في حمض حارق... كل هذا في وقت واحد.

كان الواقع هو شعوري بتلوي جسدي واختلاجه عندما لم أكن قادرة على التحرك بسبب الألم.

كان الواقع هو علمي بوجود شيء أكثر أهمية من كل هذا العذاب... دونما قدرة على تذكر هذا الشيء.

جاء الواقع مسرعاً... كثيراً.

في لحظة... كان كل شيء كما يجب أن يكون... كنت محاطة بأشخاص أحبهم... بابتسامات. لا أدري كيف... بدا لي أنني موشكة على الفوز بكل ما كنت أحارب من أجله.

وعند ذلك... حدث خلل... صغير... تافه... فتغير كل شيء.

رأيت كأسي تنقلب... ورأيت السائل القاتم يسيل منها فيلطخ ذلك البياض الجميل. انحنيت صوبها بحركة تلقائية. رأيت أيدي الآخرين... أسرع من يدي... لكني واصلت مد يدي... واصلت الانحناء...

وفي داخلي اندفع شيء في اتجاه معاكس.

التمزق... التحطم... الألم.

خيّمت الظلمة فوقي... ثم انزاحت فحلت محلها موجة من عذاب. ما عدت أستطيع التنفس. لقد غرقت ذات مرة... لكن هذا مختلف. شعرت بحرارة شديدة في حلقي.

أجزاء من جسمي تتحطم... تتمزق... تتقطع...

مزيد من الظلمة.

أصوات... تصيح هذه المرة... مع عودة الألم.

«لابد أن المشيمة قد انفصلت!»

راح يمزقني شيء أكثر حدة من السكاكين... الكلمات... فهمت معناها رغم بقية عذاباتي. انفصال المشيمة... أعرف معنى هذا. معناه أن طفلي بدأ يموت في داخلي.

صحت بإدوارد: «أخرجه الآن!»... لماذا لم تفعل ذلك بعد؟... «إنه لا يستطيع التنفس! أخرجه الآن!»

«المورفين...»

إنه يريد الانتظار... يريد إعطائي المسكنات... بينما يموت طفلنا!

«لا! الآن...» اختنقت بكلماتي... لم أستطع إكمالها.

غطت ضوء الغرفة بقع سوداء عندما طعنتني نقطة ألم جديد باردة...

طعنتني طعنة جليدية في بطني. ثمة شيء غير صحيح... حاولت من غير وعي حماية رحمي... طفلي... حماية إدوارد جايكوب الصغير... لكني كنت ضعيفة! الألم في رئتيّ... ما عاد فيهما أوكسجين.

زال الألم من جديد مع أنني صرت أتمسك به الآن. طفلي... طفلي... يموت...

كم مر من الوقت؟ ثوان... دقائق؟ زال الألم... إنه الخدر... ما عدت أشعر بشيء... مازلت لا أستطيع الرؤية أيضاً... لكنني أستطيع السماع. عاد الهواء إلى رئتي... عاد يسير في فقاعات خشنة عبر حنجرتي.

«ابقي معي الآن يا بيلا! هل تسمعينني؟ ابقي معي! لن تتركيني. حافظي على نبض قلبك!»

جايكوب!... مازال جايكوب هنا... مازال يحاول إنقاذي.

أردت أن أقول له... «طبعاً!» سوف أحافظ على نبض قلبي! ألم أعدهما بهذا؟

حاولت الإحساس بقلبي... حاولت العثور عليه... لكنني كنت ضائعة تماماً... في جسدي. ما كنت قادرة على الشعور بما يجب أن أشعر به... بدا لي أنه ما من شيء في مكانه الصحيح. رفت رموش عينيّ... لقد وجدت عينيّ! مازلت أستطيع رؤية النور. ما الذي كنت أبحث عنه؟

كانت عيناي تحاولان استعادة تركيزهما عندما همس إدوارد: «رينيمي!» رينيمي!

لم يأت ذلك الصبي الشاحب الجميل... كامل الجمال... الذي كان في خيالي! شعرت بلحظة من الصدمة. ثم بدفق من الدفء.

رينيمي!

حاولت إجبار شفتيّ على التحرك. حاولت إرغام فقاعات الهواء على التحول إلى همسات على لساني. أجبرت ذراعيّ الخدرتين على الامتداد.

«دعني... أعطني إياها».

تراقص الضوء منعكساً على يدي إدوارد الكريستاليتين. كان في هذا الضوء المتراقص لون أحمر... من الدم الذي على يديه. كان بين يديه شيء أكثر حمرة... شيء صغير... يتحرك... يقطر دماً. جعل ذلك الجسد الحار يلمس ذراعيّ الضعيفتين... كأنني كنت أحملها. كان جلدها الرطب حاراً... حاراً... مثل جايكوب.

صفت عيناي الآن... فجأة... صار كل شيء واضحاً تماماً.

لم تبك رينيسمي... كانت تتنفس بلهاث سريع... خائف. كانت عيناها مفتوحتين... وكان تعبير وجهها المصدوم غريباً... مضحكاً تقريباً. كانت خصلات من الشعر الملبد بالدم تكسو رأسها الصغير الجميل المستدير. وكان لون حدقتيها بنياً... مألوفاً... مدهشاً رغم ذلك. وتحت الدم الذي يكسوها... كان جلدها شاحب اللون... يشبه العاج... إلا وجنتيها... كانتا تضطرمان بلون أحمر.

كان وجهها الضئيل جميلاً جداً... فاجأني... أذهلني. كانت أكثر جمالاً... حتى من أبيها. شيء لا يصدق... شيء مستحيل.

همست: «رينيسمي! ما... أجملها».

فجأة... ابتسم ذلك الوجه المستحيل... ابتسامة عريضة متأنية. ومن خلف شفتيها الورديتين رأيت صفاً مكتملاً من الأسنان اللبنية.

مالت برأسها على صدري... اندست في الدفء. كان جلدها دافئاً... حريرياً. لكنه كان صلباً... عكس جلدي.

ثم جاء الألم من جديد... ومضة حارة واحدة من الألم...

ثم اختفت. لم أعد أرى طفلتي ذات الوجه الملائكي. ما عدت قادرة على رؤيتها... على الإحساس بوجودها.

أردت أن أصرخ: «لا!... أعيدوها إليّ».

لكن ضعفي كان شديداً. سقطت ذراعيّ مثل كيسين مطاطيين... ثم لم أعد أشعر بهما... ما عدت أشعر بنفسي.

اندفعت الظلمة إلى عيني... كانت أقوى من ذي قبل. كانت مثل عصابة سميكة... محكمة... سريعة... فوق عيني. ما كانت تغطي عيني وحدهما بل كانت تغطي ذاتي أيضاً... بوزنها الساحق. كانت مقاومتها مرهقة... مضنية. وكنت أعرف أن من الأسهل أن أستسلم لها. أن أترك الظلمة تدفعني إلى الأسفل... إلى الأسفل... إلى الأسفل... إلى مكان ليس فيه ألم ولا قلق ولا ضعف ولا خوف.

لو كان الأمر متعلقاً بي وحدي لما استطعت المقاومة طويلاً. ما كنت إلا بشرية... وما كانت قوتي أكثر من قوة البشر. إني أحاول مواكبة ما هو خارق للطبيعة... منذ وقت طويل جداً... هكذا قال جايكوب.

لكن الأمر ما كان متعلقاً بي وحدي!

إن فعلت ما هو سهل الآن... إن تركت هذا العدم الأسود يمحوني... فسوف أحزنهم جميعاً.

إدوارد... إدوارد! كانت حياتي وحياته مجدولتين معاً في حبل واحد. اقطع واحدة منهما... تقطعهما معاً! إن ذهب إدوارد فلن أستطيع العيش من بعده. وإذا ذهبت أنا... فلن يعيش من بعدي... أيضاً. بدا لي العالم من غير إدوارد عديم المعنى تماماً. لا بد أن يكون إدوارد موجوداً!

جايكوب... جايكوب الذي ودعني مرة بعد مرة ثم ظل يعود كلما احتجت إليه. جايكوب الذي جرحته مرات كثيرة... كانت جريمة! هل أجرحه من جديد؟ هل أجرحه بطريقة أسوأ مما مضى؟ لقد ظل هنا من أجلي... رغم كل شيء. ليس يطلب الآن إلا أن أبقى... من أجله.

لكن الظلام كان شديداً هنا... ما عدت أرى وجه أي منهما. ما عاد شيء يبدو حقيقياً. وهذا ما جعل مقاومة الاستسلام أكثر صعوبة.

تابعت دفع تلك الظلمة عني... لكن محاولتي ما كانت إلا انعكاساً لذلك الدفع الساحق. ما كنت أحاول رفعها عني! كنت أقاوم... فحسب! لم أسمح لها بأن تسحقني إلى النهاية. أنا لست المارد أطلس... أحس

أن وزن الظلمة يعادل وزن الأرض. . . وأكثر! ما كنت أستطيع رفعها. كل ما استطعته هو ألا أنسحق تماماً.

هكذا كانت حياتي كلها. . . ما كنت في يوم من الأيام أملك قوة كافية للتعامل مع أشياء خارج نطاق سيطرتي. . . لمهاجمة الأعداء. . . أو للتفوق عليهم. أو. . . لتجنب الألم. كنت بشرية. . . ضعيفة. . . دائماً. . . وكان الشيء الوحيد الذي استطعته هو أن أتابع السير. . . أن أتحمل. . . أن أبقى على قيد الحياة.

كفى. . . حتى هذه النقطة. يكفيني هذا. . . اليوم. سوف أتحمل هذا كله حتى يأتي العون.

أعرف أن إدوارد سيفعل كل ما في وسعه. لن يستسلم. . . ولن أستسلم.

استطعت إبقاء ظلمة العدم على بعد سنتيمترات مني.

لكن ذلك التصميم ما كان كافياً. فمع مرور الزمن بطيئاً. . . بطيئاً. . . كانت الظلمة تستولي على أجزاء. . . ثم أجزاء من هذه السنتيمترات. كنت في حاجة إلى شيء أكثر من التصميم. . . شيء أستمد منه قوتي.

لم أستطع جعل نفسي أرى وجه إدوارد. . . ولا وجه جايكوب. . . ولا أليس ولا روزالي ولا كارلايل ولا رينيه ولا تشارلي ولا إيزمي. . . لا شيء! أخافني هذا. . . لعل الوقت تأخر كثيراً!

أحسست أنني أنزلق. . . ما كان لدي شيء أتمسك به.

لا! عليّ أن أتجاوز هذا كله وأعيش. إدوارد يعتمد عليّ. جايكوب. . . كارلايل. . . أليس. . . روزالي. . . تشارلي. . . رينيه. . . إيزمي. . .

و. . . رينيمي!

عند ذلك. . . مع أنني ظللت غير قادرة على رؤية شيء. . . استطعت فجأة. . . أن أحس شيئاً. تخيلت أنني أستطيع الإحساس بذراعيّ من جديد. . . مثل أطراف شبحية. وبين ذراعيّ هاتين. . . أحسست بشيء صغير. . . قاس. . . حار. . . حار كثيراً.

طفلتي! جنيني الصغير.

لقد نجحت. نجحت رغم ضآلة فرصي. كانت لدي القوة الكافية لإنجاب رينيمي. . . للصبر عليها حتى تصير قوية. . . حتى تستطيع العيش من دوني.

بدا لي ذلك الشيء الحار بين ذراعي الشبحيتين حقيقياً تماماً. قربته مني. كان تماماً حيث يجب أن يكون قلبي. كنت أمسك بتلك الذكرى الحارة. . . ذكرى ابنتي. الآن. . . أعرف أنني أستطيع مقاومة الظلمة مهما طالت.

صار الدفء عند قلبي حقيقياً. . . أكثر فأكثر. . . ازداد دفئاً. ازداد حرارة. كانت الحرارة حقيقية. . . يصعب تصديق أنني أتخيلها.

أكثر حرارة!

حرارة مزعجة الآن. . . حرارة شديدة. . . أشد. . . أشد بكثير.

تماماً كما يكون رد فعل من يمسك المكواة من جانبها الحار. . . كانت استجابتي التلقائية أن أسقط ذلك الشيء الحار الذي بين ذراعاي. لكن. . . ما كان بين ذراعي أي شيء. ما كانت ذراعيّ مطويتين على صدري. كانتا شيئين ميتين مستلقيين إلى جانبي. كانت الحرارة في جوفي!

ازداد إحساسي بالاحتراق. . . شبّ وعلا. . . ثم شبّ من جديد. . . حتى طغى على كل إحساس مرّ بي في حياتي كلها.

أحسست. . . خلف تلك النار. . . بنبض يتلاطم في صدري فأدركت أنني عثرت على قلبي من جديد. . . عثرت عليه. . . ليتني ما عثرت عليه الآن. ليتني استسلمت للظلمة. . . عندما كانت لي فرصة الاستسلام. أردت أن أرفع ذراعي فأفتح صدري وأقتلع قلبي. . . أن أفعل أي شيء يخلصني من هذا العذاب. لكنني لم أستطع الشعور بذراعي. . . لم أستطع تحريك إصبع واحد من أصابعي التي اختفت.

جيمس الذي حطم ساقي بقدمه. . . كان لا شيء. كان ذلك مثل الاستلقاء على فراش من الريش. أستطيع تحمله الآن. . . مئة مرة. مئة كسر. . . سأقبل بها كلها. . . وأكون شاكرة!

الجنين الذي كان يرفس أضلاعي فيحطمها... يشق طريقه عبر جسدي قطعة بعد قطعة... كان لا شيء. كان ذلك مثل السباحة في بركة من الماء الدافئ. أستطيع تحمله الآن... ألف مرة. أستطيع تحملها كلها... وأكون شاكرة!

ازداد سعير النار... أردت أن أصرخ. أردت أن أتوسل حتى يقتلني أحد الآن... الآن... قبل أن أعيش ثانية أخرى في هذا الألم. لكن شفتيّ لم تتحركا. مازال ذلك الوزن الجاثم فوقي موجوداً... يسحقني.

أدركت أن الظلمة ليست هي ما يمنعني من الحركة... إنه جسدي... صار ثقيلاً جداً! كان يدفنني في ذلك اللهيب الذي راح يشق طريقه خارجاً من قلبي الآن... منتشراً... مؤلماً إلى حد غير معقول... في كتفي... في بطني... حارقاً طريقه حتى حنجرتي... لاعقاً وجهي.

لماذا لا أستطيع الحركة؟ لماذا لا أستطيع الصراخ؟ ما كان هذا جزءاً من القصص التي سمعت.

كان ذهني صافياً إلى حد لا يحتمل... زاد الألم الصاعق من حدة صفائه... رأيت الإجابة فور تشكل السؤال في عقلي.

إنه المورفين!

بدا ذلك مثل مليون موت مضى... مليون موت تحدثنا عنه أنا وإدوارد وكارلايل. كان إدوارد وكارلايل يظنان أن استخدام كمية كافية من المسكنات يمكن أن يساعد في محاربة ألم السم. لقد حاول كارلايل ذلك مع إيميت، لكن السم سبق المسكن فأغلق شرايينه... لم يتح له وقتاً للانتشار.

حافظت على هدوء وجهي وشكرت نجوم سعدي القليلة على أن إدوارد ما كان قادراً على قراءة أفكاري.

لقد عرفت أنظمة جسمي اختلاط السم بالمورفين من قبل... وهذا ما جعلني أعرف الحقيقة. كنت أعرف أن خدر المورفين كان قليل الأهمية تماماً أثناء سير السم في عروقي. لكني ما كنت لأذكر هذه الحقيقة أمامهما أبداً. فما

من شيء أكثر من ذلك كان يمكن أن يجعله يرفض تحويلي.

ما كنت أظن أن للمورفين هذا التأثير... أنه يشلني ويخنقني! إنه يشلني أثناء احتراقي.

كنت أعرف القصص كلها. كنت أعرف أن كارلايل استطاع المحافظة على هدوئه حتى يتفادى أن يكتشف الناس أمره أثناء احتراقه. وكنت أعرف... كما قالت روزالي... أن لا جدوى من الصراخ. وكنت آمل أن أستطيع أن أكون مثل كارلايل. وأن أصدق كلمات روزالي فأطبق فمي دون صراخ. كنت أعرف أن كل صرخة تفلت من بين شفتي تعذب إدوارد.

أما الآن فقد بدا تحقق آمالي كلها مثل نكتة كريهة...

إذا لم أستطع الصراخ... فكيف أستطيع أن أطلب منهم قتلي؟

ما كنت أريد إلا الموت! ليتني لم أكن... ليتني لم أولد. ما كان وجودي كله يعادل هذا الألم. ما كان يعادل استمرار هذا الألم لحظة واحدة.

دعوني أموت... دعوني أموت... دعوني أموت.

هذا كل شيء... كل شيء في فضاء لا ينتهي.

وحده العذاب الحارق... صرخاتي التي لا صوت لها... توسلي مجيء الموت! لا شيء آخر... لا شيء... حتى الوقت! صار عذابي من غير نهاية... من غير بداية أو نهاية. لحظة واحدة سرمدية من الألم.

جاء التغير الوحيد فجأة... بشكل غير معقول... تضاعف الألم! شبت النار فجأة في النصف الأسفل من جسدي... النصف الذي كان ميتاً... حتى قبل المورفين. أحسست عظماً مكسوراً يلتحم ويشفى تحت أصابع اللهب الكاوية.

مضى ذلك الحريق اللانهائي مستعراً.

لعلها ثوان... لعلها أيام... أسابيع أو سنوات، لكن... صار للوقت معنى من جديد... أخيراً.

ثلاثة أشياء حدثت معاً... تتوالد بعضها من بعض فلم أعرف أيها

جاء أولاً: عاد الزمن، تلاشى ثقل المورفين، صرت أقوى.

شعرت بسيطرتي على جسدي تعود إلي على نحو متزايد... كان هذا التزايد أول مؤشر على مرور الزمن. عرفت هذا عندما تمكنت من ثني أصابع قدمي ومن شد قبضتيّ بذيّ. عرفت هذا... لكني لم أفعل شيئاً.

لم تتراجع النار... لم تتراجع ولو درجة صغيرة! لكني صرت الآن أكثر قدرة على الإحساس بها... صارت عندي حساسية أكثر وضوحاً تجعلني أتذوق كل لسان متراقص من ألسنة اللهب يمسح عروقي... اكتشفت أنني صرت قادرة على التفكير في هذا.

أستطيع الآن تذكر ما يوجب امتناعي عن الصراخ. تذكرت السبب الذي جعلني ألتزم بتحمل هذا العذاب الذي لا يحتمل. استطعت تذكر ذلك... رغم أنه بدا غير معقول الآن... لابد أن ثمة شيئاً يستحق هذا العذاب كله.

حدث هذا تماماً في الوقت المناسب حتى أتماسك عندما زال الثقل عن جسدي. ما كان أي شخص يراقبني ليرى أي تغير. أما بالنسبة لي... عندما كنت أكافح حتى أبقي الصراخ والتخبط داخل جسدي... حيث لا يستطيعان إيذاء أحد غيري... أحسست أنني تحولت من شخص مشدود الوثاق إلى خشبة المحرقة إلى شخص آخر يمسك تلك الخشبة بنفسه ليظل في النار.

كانت لدي قوة كافية تجعلني قادرة على الاستلقاء هناك... من غير حراك... قادرة على أن أستلقي حتى أشوى حية!

صار سمعي أكثر وضوحاً... صرت أستطيع إحصاء ضربات قلبي المتقافزة... حتى أعرف الزمن.

استطعت أن أحصي تلك الأنفاس الضحلة... الشحيحة... التي تمر عبر أسناني المطبقة.

أن أحصي أنفاساً خافتة... منتظمة... قادمة من شخص يقف إلى جانبي، كانت أبطأ... فاستطعت التركيز عليها. كانت هي مقياس الوقت

الذي يمضي، وكانت أكثر انتظاماً من دقات الساعة... شدتني هذه الأنفاس عبر ثواني الاحتراق... صوب النهاية.

مازلت قوتي تزداد... مازالت أفكاري تزداد صفاء. وعندما جاءت أصوات جديدة كنت قادرة على الإصغاء إليها.

سمعت صوت خطوات خفيفة... همس الهواء الذي حركته هذه الخطوات. اقتربت الخطوات مني ثم شعرت بضغط على باطن معصمي. لم أشعر ببرودة تلك الأصابع. لقد أودت النار بكل ما أذكره عن البرودة.

«لا تغير حتى الآن!»

«إطلاقاً».

أحسست بضغط خفيف جداً... أحسست أنفاساً عند جلدي المحترق.

«لم تبق أي رائحة للمورفين».

«أعرف».

«بيلا! هل تستطيعين سماعي؟»

كنت أعرف... دون أي شك... أنني سأضيع إن فتحت فمي، سوف أصرخ وأزعق وأتلوى وأنتفض. إذا فتحت عيني... إذا حركت إصبعاً واحداً... إذا حدث أي تغير من أي نوع... فسوف تنتهي سيطرتي على نفسي.

«بيلا! بيلا! حبيبتي! هل تستطيعين فتح عينيك؟ هل تستطيعين الضغط على يدي؟»

أحسست ضغطاً على أصابعي.

كان صعباً أن لا أجيب هذا الصوت... لكني ظللت مشلولة. كنت أعرف أن الألم في صوته الآن لا يقارن بما كان يمكن أن يكون. الآن... ما عاد خائفاً إلا لأنني أعاني.

جاء صوته مخنوقاً: «كارلايل! لعلنا... لعلنا تأخرنا»... تحطم صوته عند الكلمة الأخيرة.

اهتز تصميمي لحظة واحدة.

«استمع إلى قلبها يا إدوارد. إنه أقوى حتى مما كان قلب إيميت. لم أسمع من قبل قلباً يخفق بهذه الحيوية. سوف تكون بخير».

نعم! . . . كان عليّ أن أحافظ على هدوئي. يستطيع كارلايل أن يطمئنه. لا حاجة به إلى المعاناة معي.

«وماذا عن. . . عمودها الفقري؟»

«لم تكن إصاباتها شيء يذكر بالمقارنة مع إصابات إيزمي. سوف يشفيها السم كما شفى إيزمي».

«لكنها ساكنة تماماً. لابد أنني أخطأت في شيء».

«بل أصبت يا إدوارد. . . أصبت يا بني! لقد فعلت كل ما كان يمكن أن أفعله بنفسي. لا أعرف. . . لو كنت مكانك. . . هل كنت أستطيع هذا الإصرار كله. . . هذا الإيمان كله. . . حتى أنقذها؟ كفّ عن توبيخ نفسك! ستكون بيلا بخير».

سمعت همساً خافتاً متقطعاً: «لابد أنها تعاني الآن».

«نحن لا نعرف هذا. ثمة مورفين كثير في جسمها. لا نعرف مدى تأثيره عليها».

أحسست بضغط خفيف عند باطن مرفقي. همس جديد: «بيلا! أحبك! أنا آسف يا بيلا».

وددت كثيراً أن أجيبه. لكني لن أزيد ألمه. لن أزيده مادامت لدي قوة كافية للتماسك. . . لأن أبقى هادئة.

خلال هذا كله كانت النار ماضية في إحراقي. لكن ذهني صار فيه فسحة كبيرة الآن. فسحة لأن أفهم كلامهم. . . فسحة لأن أتذكر ما جرى. . . فسحة لأن أنظر إلى المستقبل. . . وفسحة أخرى لأن أعاني.

وفسحة أيضاً لأن أقلق.

أين طفلتي؟ لماذا هي ليست هنا؟ لماذا لا يتحدثون عنها؟

همس إدوارد: «لا! أنا باق هنا. سوف يتدبرون أمرهم». . . كان يجيب على فكرة لم تنطق بها الكلمات.

أجابه كارلايل: «هذه حالة تثير الاهتمام. كنت أظن أنني رأيت كل شيء».

«سأتعامل مع الأمر فيما بعد. . . سنتعامل معه!». . . أحسست ضغطاً خفيفاً على راحة يدي المتورمة.

«أنا واثق من أننا. . . نحن الخمسة. . . قادرون على منع الوضع من التحول إلى حمام دم».

تنهد إدوارد: «لا أعرف مع من أقف. أود أن أضرب الاثنين. لا بأس. . . فيما بعد!»

تساءل كارلايل: «لا أعرف كيف ستفكر بيلا. . . في أي جانب ستقف».

سمعت ضحكة منخفضة. . . متوترة: «أنا واثق من أنها سوف تفاجئني. . . إنها تفاجئني دائماً».

ابتعدت خطوات كارلايل من جديد. لم أفهم شيئاً! هل كانوا يتحدثون بهذا الغموض كله لإزعاجي؟

عدت أحصي أنفاس إدوارد. . . حتى أدرك مرور الوقت.

عشرة آلاف. . . تسعمئة وثلاثة وأربعون بعدها. . . سمعت صوت قدمين مختلفتين تدخلان الغرفة. . . همساً. . . إنها خطوات خفيفة. . . أكثر انتظاماً.

غريب أنني قادرة على تمييز الفوارق الدقيقة بين الخطوات. . . فوارق ما كنت قادرة على سماعها قبل اليوم.

سأل إدوارد: «كم بقي من الوقت؟»

أجابته أليس: «لن يطول بعد الآن كثيراً. هل ترى كيف تصير واضحة؟ أستطيع الآن أن أراها بشكل أفضل».

«هل مازلت تشعرين ببعض المرارة؟»

«نعم. . . شكراً لأنك سألت. سوف تشعر بذلك أيضاً إذا أدركت أنك مقيد بفعل طبيعتك نفسها. أرى مصاصي الدماء بشكل جيد لأني واحدة منهم.

أرى البشر بشكل معقول. . . . لأنني كنت منهم. لكنني لا أستطيع أن أرى هذه المخلوقات المهجنة الغريبة على الإطلاق لأنني لا أعرفها من قبل».

«ركزي يا أليس».

«طيب! صرت أرى بيلا بسهولة الآن».

مرت لحظة صمت طويلة ثم تنهد إدوارد. كان هذا صوتاً جديداً. . . أكثر سعادة.

تنفس الصعداء: «سوف تكون بخير حقاً».

«طبعاً».

«لم تكوني بهذه الثقة منذ يومين».

«ما كنت أستطيع الرؤية قبل يومين. أما الآن. . . بعد أن زالت تلك النقاط المخفية. . . صارت الرؤية سهلة».

«هل تستطيعين التركيز. . . من أجلي؟ على الساعة. . . أعطني تقديراً».

تنهدت أليس: «ما أقل صبرك! لا بأس! انتظر لحظة. . .»

تنفس هادئ.

«شكراً يا أليس». . . صار صوته أكثر سعادة الآن.

كم من الوقت؟ ألا يستطيعون. . . على الأقل. . . قول ذلك بصوت مرتفع من أجلي؟ هل كثير أن أطلب هذا؟ كم ثانية أخرى سأحترق؟ عشرة آلاف؟ عشرون ألفاً؟ يوماً آخر. . . ستة وثمانون ألفاً. . . أربعمئة؟ أكثر من ذلك؟

«سوف تكون رائعة الجمال».

قال إدوارد بهدوء: «إنها رائعة الجمال دائماً».

قالت أليس بصوت نزق: «أنت تعرف قصدي. انظر إليها».

لم يجبها إدوارد، لكن كلمات أليس منحتني أملاً. . . لعل مظهري لم يكن مظهر الجمر الملتهب كما أحسست. يبدو لي أنني يجب أن أكون الآن مجرد كومة من العظام المحترقة. لقد استحالت كل خلية من خلايا جسدي رماداً.

سمعت أليس تخرج من الغرفة مثل نسمة. سمعت حفيف القماش أثناء

حركتها. . . حفيفه أثناء احتكاك ثناياه. سمعت صوت الأزيز الهادئ الصادر عن المصباح المتدلي من السقف. سمعت الريح الخفيفة خارج المنزل. كنت قادرة على سماع كل شيء.

وفي الطابق السفلي. . . كان أحدهم يتابع مباراة في التلفزيون. كان فريق مارينرز متقدماً بجولتين!

سمعت روزالي تقول لأحدهم: «إنه دوري الآن!». . . فأجابها صوت زمجرة منخفض.

سمعت صوت إيميت محذراً: «كفى الآن!»

أصغيت لأسمع المزيد. لم أسمع شيئاً إلا صوت المباراة. ما كانت لعبة البيسبول مثيرة بالنسبة لي إلى حد يشغلني عن ألمي. لذلك عدت أصغي إلى تنفس إدوارد. . . وأحصي الثواني.

واحد وعشرون ألفاً وثمانمئة وسبعون ونصف ثانية. . . تغير الألم.

الأخبار الطيبة. . . بدأ الألم يخبو في أطراف أصابع يدي وقدمي. . . يخبو ببطء. . . لكنه يفعل شيئاً جديداً. . . على الأقل. هكذا إذن. . . إن الألم في طريقه إلى الزوال.

ثم. . . الأخبار السيئة. . . ما عادت النار في حلقي مثلما كانت من قبل. كانت حنجرتي تحترق فقط. . . وهي الآن جافة أيضاً. . . جافة. ما أشد الظمأ! نار حارقة. . . ظمأ حارق.

أخبار سيئة أيضاً: صارت النار داخل قلبي أكثر حرارة.

كيف يمكن هذا؟

أما نبض قلبي الذي كان سريعاً. . . فقد ازداد سرعة. كانت النار تسرّع إيقاعه. . . إلى نبض مجنون جديد.

نادى إدوارد: «كارلايل!». . . كان صوته خافتاً. . . لكنه واضح. أعرف أن كارلايل يستطيع سماعه من أي مكان في المنزل. . . أو قرب المنزل.

تراجعت النار عن كفيّ. . . تركتهما من غير ألم أو حرارة. لكنها تراجعت

إلى قلبي الذي صار حاراً مثل الشمس... زاد تراجعها سرعة نبضه العنيفة.

دخل كارلايل الغرفة ومعه أليس. كان صوت أقدامهما مميزاً تماماً. بل أستطيع القول إن كارلايل كان إلى جهة اليمين... كان يتقدمها بخطوة واحدة.

قال لهما إدوارد: «أصغيا».

كان صوت قلبي أعلى صوت في الغرفة... كان يخفق على إيقاع النار.

قال كارلايل: «آه!... انتهى الأمر تقريباً».

طغى على ارتياحي لهذه الكلمات ذلك الألم الساحق في قلبي.

أما معصمي وكاحلي فكانا حرين من الألم تماماً. انتهت النار فيهما.

وافقته أليس متحمسة: «قريباً جداً... سوف أحضر الآخرين. هل أقول لروزالي...؟»

«نعم... دعي الطفلة بعيدة».

ماذا؟ لا... لا! ماذا يقصد بأن نتركها بعيدة؟ فيم يفكر؟ شددت على أصابعي... أفسد انزعاجي ذلك المظهر الذي حافظت عليه. غدت الغرفة ساكنة تماماً إلا من صوت قلبي. حبسوا أنفاسهم جميعاً عندما حركت أصابعي.

شدت يد على إصبعي: «بيلا! بيلا... حبيبتي!»

هل أستطيع أن أجيبه من غير أن أصرخ؟ فكرت في ذلك لحظة ثم... ازداد اضطرام النار في صدري... تجمعت فيه منسحبة من مرفقي وركبتي. من الأفضل ألا أغامر بالصراخ.

قالت أليس وفي صوتها نبرة استعجال: «سوف أحضرهم الآن»... سمعت صوت الريح عندما اندفعت أليس ذاهبة.

وعند ذلك... أوه!

أسرع نبض قلبي... صار يخفق مثل مروحة الهيلكوبتر. صار صوت النبضات متصلاً. أحسست أنه يوشك أن يقفز خارجاً من بين أضلاعي.

اشتعلت النار في صدري مستجمعة بقية اللهب في أنحاء جسمي لتغذي بها ذلك الجحيم المستعر. كان الألم كافياً لشلي... لفك قبضتي الحديدية عن خشبة المحرقة. تقوس ظهري... كأن النار تدفعني إلى الأعلى... من قلبي.

لم أسمح لأي جزء من جسدي بالحركة بعد أن هوى وسطي إلى الطاولة من جديد.

صار الأمر معركة داخل جسمي... كان قلبي المتوثب يسابق لهيب النار المهاجمة. وكان الاثنان يخسران هذه المعركة. كانت النار محكومة بالفناء بعد أن استهلكت كل ما يمكن استهلاكه. أما قلبي فكان يجري مسرعاً صوب نبضته الأخيرة.

حوصرت النار... تركزت ضمن هذا العضو البشري الوحيد الباقي في جسمي... مع نبضة أخيرة... لا تحتمل. أجاب تلك النبضة صوت صدمة عميق فارغ. انتفض قلبي مرتين... ثم مرة واحدة... فقط.

ما كان في الغرفة صوت. ولا تنفس. ما كان فيها حتى تنفسي.

مرت لحظة لم أستوعب فيها إلا زوال الألم.

ثم... فتحت عيني ونظرت إلى الأعلى مستغربة.

20

جديدة

كان كل شيء واضحاً.

محدداً... بارز المعالم.

مازال الضوء الساطع فوقي يبهر الأبصار. لكني كنت قادرة على رؤية الفتيل المتوهج داخل المصباح. كنت أرى كل لون من ألوان الطيف في ذلك الضوء الأبيض... وعند حافة الطيف... رأيت لوناً ثامناً ما كنت أعرف له اسماً.

ومن خلف الضوء استطعت تمييز الحبيبات الصغيرة في خشب السقف من فوقي. وقبل تلك الحبيبات... استطعت رؤية جزئيات الغبار في الهواء... رأيت جوانبها التي يلمسها الضوء... ورأيت جوانبها المظلمة... منفصلة... متمايزة. كانت تدور مثل كواكب صغيرة... يدور بعضها حول بعض في رقصة سماوية.

كان الغبار رائع الجمال... كان جماله مفاجئاً فشهقت. اندفع الهواء في حنجرتي فجعل جزئيات الغبار تدور مثل إعصار. ثمة خلل في تنفسي! فكرت... ثم أدركت أن المشكلة هي أن التنفس لا يمنحني راحة. لا حاجة بي إلى الهواء. ما كانت رئتاي تنتظران الهواء. كان رد فعلهما غير مبال بتدفق الهواء.

ما كنت في حاجة إلى الهواء... لكني أحب الهواء. ففي الهواء أتذوق ما في الغرفة من حولي... أتذوق دقائق الغبار الجميلة... مزيج هواء الغرفة

الراكد مختلطاً بدفق من الهواء أبرد قليلاً... قادم من الباب المفتوح. أتذوق رائحة الحرير. أتذوق نفحات خفيفة من شيء حار... محبب... شيء لابد أن يكون سائلاً... لكنه ليس سائلاً... جعلت تلك الرائحة حلقي يحرقني... كان جافاً... كان فيه أثر طفيف من حرقة السم. لكن تلك الرائحة كانت مشوبة بشيء من رائحة الكلور والنشادر. كنت أتذوق أيضاً شيئاً يشبه رائحة العسل... السوسن... ونكهة الشمس... كانت تلك الرائحة أقوى الروائح... أقربها مني.

سمعت أصوات الآخرين الآن... عادوا يتنفسون... كما فعلت. كانت أنفاسهم تمتزج بذلك الشذى الذي يشبه العسل والسوسن... والشمس... كانت تأتيني بنكهات جديدة: القرفة والخوخ والخبز المنتفخ في الفرن والصنوبر والفانيلا والتفاح والطحالب والخزامى والشوكولاتة... استعرض عقلي عشرات المقارنات... لكن أياً منها ما كان دقيقاً. كانت الرائحة طيبة... بهيجة.

كان صوت التلفزيون في الطابق السفلي قد صمت. وسمعت شخصاً... هل هو روزالي؟... يعدل جلسته في الطابق السفلي.

وسمعت أيضاً صوت إيقاع صاخب ومعه صوت يزعق غاضباً... مواكباً ذاك الإيقاع. هل هي موسيقى الراب؟ حرت لحظة... ثم خفت الصوت مبتعداً كما لو كان منبعثاً من سيارة عابرة مفتوحة النوافذ.

أدركت فجأة أن هذا يمكن أن يكون حقيقة فعلاً. هل أستطيع السماع عبر كل هذه المسافة حتى الطريق السريع؟

لم أدرك أن أحداً يمسك يدي حتى ضغط عليها ضغطة خفيفة. كانت تلك مفاجأة جعلت جسدي ينغلق دون استجابة كما كان يفعل لإخفاء الألم. كان الجلد صقيلاً تماماً، لكن حرارته كانت غريبة. ما كان بارداً.

بعد لحظة الصدمة الأولى استجاب جسدي لتلك اللمسة غير المألوفة... استجاب على نحو فاجأني أكثر من ذي قبل.

خرج الهواء من حنجرتي. . وخرج معه. . . عبر أسناني المطبقة. . . صوت مخيف. . . أشبه بصوت سرب من النحل. وقبل أن ينتهي هذا الصوت تقلصت عضلاتي مبتعدة عن ذلك المجهول. انتزعت ظهري عن الطاولة بدورة سريعة كان ينبغي أن تجعل الغرفة تغيم في عيني. . . لكن هذا لم يحدث. كنت أرى كل جزئية غبار. . . كل شظية صغيرة في الألواح الخشبية التي تغلف الجدران. . . كل خيط صغير. . . كنت أراها كلها بأدق تفاصيلها أثناء مرور نظري سريعاً عليها.

وجدت نفسي جاثمة في وضعية دفاعية عند الجدار. . . بعد جزء من الثانية فقط. . . عرفت ما الذي أجفلني. . . وفهمت أن ردة فعلي كانت أكثر مما يجب.

أوه! . . . طبعاً! . . . لن أشعر ببرودة جسم إدوارد الآن. صارت حرارة جسمي مثل حرارة جسمه.

بقيت كما أنا. . . جزءاً صغيراً من الثانية. . . ورحت أنظر إلى ما كان أمامي.

رأيت إدوارد منحنياً من فوق طاولة العمليات التي كانت محرقتي. كانت يده ممتدة صوبي. وكان في وجهه قلق.

كان وجه إدوارد أهم الأشياء. . . كلها. لكن الرؤية المحيطية استوعبت كل شيء آخر. . . تحسباً! لقد استيقظت فيّ غريزة دفاعية فرحت أبحث تلقائياً عن أي علامة تدل على الخطر.

كانت أسرتي. . . أسرة مصاصي الدماء. . . تنتظر بحذر في الجانب الآخر من الغرفة. . . عند الباب. رأيت إيميت وجاسبر واقفين في المقدمة كما لو أن خطراً كان يحيق بالآخرين. راح أنفي يتنشق الروائح باحثاً عن مصدر الخطر. لم أشم شيئاً غير طبيعي. رائحة خفيفة لشيء لذيذ. . . لكنها مشوبة بروائح كيماوية قاسية. . . دغدغ شيء حلقي من جديد فجعله يحترق. . . يؤلمني.

كانت أليس تنظر من خلف جاسبر وعلى وجهها ابتسامة واسعة. تراقص

الضوء منعكساً على أسنانها فرأيت ثامن ألوان الطيف من جديد!

بعثت ابتسامتها الاطمئنان في نفسي. . . جعلتني أستجمع شتات أفكاري. كان إيميت وجاسبر واقفين أمام الآخرين لحمايتهم. . . هكذا افترضت. أما ما لم أستطع فهمه سريعاً فهو أن مصدر الخطر كان. . . أنا!

كان هذا كله مشهداً جانبياً. أما القسم الأعظم من حواسي ومن عقلي فكان منصباً على وجه إدوارد.

لم أره أبداً قبل هذه اللحظة.

كم مرة حدقت في إدوارد مسحورة بجماله؟ كم ساعة. . . أو يوماً. . . أو أسبوعاً. . . من حياتي أمضيته في الحلم بما كنت أعتبره كمالاً. كنت أظن أنني أعرف وجهه أكثر حتى من وجهي. كنت أظن أن الشيء المادي المؤكد الوحيد في عالمي كله هو وجه إدوارد الجميل الكامل!

لقد كنت عمياء.

الآن. . . رأيت وجهه. . . للمرة الأولى. . . بعد زوال الضعف البشري. . . بعد زوال الظلال من عيني.

تنهدت، ثم رحت أفتش عن مفردات لكنني لم أستطع العثور على كلمات أفضل. كنت في حاجة إلى كلمات أفضل.

في تلك اللحظة كان الجزء الآخر من انتباهي قد تأكد من عدم وجود خطر في الغرفة. . . غيري أنا! نهضت تلقائياً متخلية عن الوضعية الدفاعية. انقضت ثانية كاملة تقريباً منذ أن كنت ممددة على طاولة العمليات.

أذهلتني فوراً طريقة تحرك جسمي. ففي اللحظة التي قررت النهوض وجدت نفسي واقفة. لم يكن هناك ولو جزء صغير من الزمن حدثت خلاله تلك الحركة. كان التغير لحظياً. . . كأن الحركة لم تكن.

تابعت النظر إلى وجه إدوارد. . . كنت ساكنة من جديد. دار حول الطاولة ببطء. . . كانت كل خطوة من خطواته تستغرق نصف ثانية. . . كانت كل خطوة تنساب مثلما تنساب مياه النهر حول حجر صقيل. . . مازال يمد يده صوبي.

راقبت جلال حركته وانسيابيتها... كنت أنظر إليه بعيني الجديدتين.

«بيلا!»... قالها بنبرة خفيضة مهدئة، لكن القلق في صوته غلّف اسمي بقدر من التوتر.

لم أستطع الإجابة فوراً... ضعت في ثنايا صوته المخملي. كان أروع سمفونية أسمعها... سمفونية تعزفها آلة واحدة... آلة أروع من أي آلة اخترعها بشر...

«بيلا... حبيبتي! آسف... أعرف أنك مشوشة. لكنك بخير... كل شيء على ما يرام».

كل شيء! عاد عقلي إلى ساعتي البشرية الأخيرة. لكن الذكرى بدت غامضة كما لو أني أنظر إليها عبر حجاب سميك قاتم... هذا لأن عينيّ البشريتين كانتا نصف عمياوين! كان كل شيء ضبابياً فيهما.

عندما قال إن كل شيء على ما يرام... هل كان يقصد رينيسمي أيضاً؟ أين هي الآن؟ هل هي مع روزالي؟ حاولت أن أتذكر وجهها. أعرف أنها جميلة... لكن، كانت الرؤية عبر ذكرياتي البشرية أمراً مزعجاً. كانت الظلمة تكتنف وجهها... كان النور قليلاً...

ماذا عن جايكوب؟ هل هو بخير؟ هل يكرهني الآن أفضل أصدقائي... الذي عانى طويلاً؟ هل عاد إلى قطيع سام؟ وهل عاد سيث، وليا أيضاً؟

هل صارت أسرة كولن في أمان الآن؟ أم أن تحولي أشعل الحرب مع القطيع؟ أم أن تأكيدات إدوارد تكفلت بالأمر؟ أم أنه يحاول تهدئتي فقط؟

ماذا عن تشارلي؟ ماذا أقول له الآن؟ لابد أنه اتصل أثناء احتراقي! ماذا قالوا له؟ ما الذي يعتقد أنه أصابني؟

فكرت جزءاً من الثانية في السؤال الذي أطرحه قبل غيري. مد إدوارد يداً مترددة فمر بإصبعه على خدي. كان إصبعه صقيلاً مثل الساتان... خفيفاً مثل ريشة... وكان الآن في مثل حرارة جلدي تماماً.

أحسست أن لمسته مضت تحت جلدي... مضت عميقاً حتى عظام

وجهي. كان ذلك الشعور مدغدغاً... مكهرباً... قفز في عظامي... في عمودي الفقري... قفز في معدتي.

انتظر! هكذا قلت في نفسي حين تحول ارتعادي إلى دفء... إلى توق. أما كان متوقعاً أن أفقد هذا؟ ألم يكن التخلي عن هذا الإحساس جزءاً من اتفاقنا؟

أنا الآن مصاصة دماء مولودة حديثاً. إن هذا الألم الحارق في حلقي يثبت والآن أعرف معنى أن أكون مصاصة دماء مولودة حديثاً. سوف تعود المشاعر البشرية إليّ... سوف يعود التوق البشري... في وقت لاحق... في صورة من الصور، لكني قبلت ألا أحسها في البداية. وحده الظمأ! هكذا كانت الصفقة... هكذا كان الثمن. وقد وافقت على دفعه.

لكن، عندما مسحت يد إدوارد على وجهي... مثل فولاذ مغلف بالحرير... استعرت الرغبة في عروقي الجافة... راحت تنشد نشيد الحب من رأسي حتى قدميّ.

رفع إدوارد حاجبه منتظراً أن أتكلم.

طوقته بذراعي.

ومن جديد، كأن الحركة لم تكن! في لحظة... كنت واقفة منتصبة القامة ساكنة مثل تمثال... وفي اللحظة نفسها، كان إدوارد بين ذراعي.

كان دافئاً... أو هكذا تصورت... على الأقل. وكانت تلك الرائحة الحلوة اللذيذة التي ما كنت قادرة من قبل على إدراكها حقاً بحواسي البشرية البليدة... لكنه إدوارد... مئة بالمئة! ضغطت وجهي على صدره الصقيل.

لكنه تحرك من غير ارتياح. مال مبتعداً عن عناقي. حدقت في وجهه... ظهر رفضه... أرعبني.

«آخ!... انتبهي يا بيلا!... آخ».

أبعدت ذراعي... وضعتهما خلف ظهري بمجرد أن فهمت.

كنت قوية جداً!

قلت: «أوه! آسفة».

ابتسم تلك الابتسامة التي تجعل قلبي يتوقف... لو كان يخفق الآن.

قال: «لا تجزعي يا حبيبتي»... ثم مد يده فلمس شفتي المفتوحتين رعباً... «أنت الآن أقوى مني... قليلاً».

انعقد حاجباي. كنت أعرف هذا من قبل... لكنه بدا خارقاً للطبيعة... تماماً مثل أي جزء آخر من هذه اللحظة الخارقة للطبيعة. أنا... أقوى من إدوارد! لقد جعلته يقول... آخ.

داعبت يده خدي من جديد فنسيت إحباطي كله واجتاحت جسدي الساكن موجة جديدة من الرغبة.

كانت هذه المشاعر أقوى... أقوى كثيراً... مما اعتدت عليه... صار من الصعب أن أحافظ على تسلسل أفكاري رغم الفسحة الكبيرة في رأسي الآن. كان كل إحساس جديد يدوخني. تذكرت قول إدوارد ذات مرة... إن ذكرى صوته الآن في رأسي ظِلٌ ضعيف بالمقارنة مع هذا الوضوح الموسيقي الذي أسمعه الآن... قال إن من السهل أن يصاب جنسه... جنسنا... بتشتت الانتباه. أفهم السبب الآن.

حاولت التركيز. ثمة شيء أريد قوله. إنه أهم شيء على الإطلاق!

بحذر شديد... بحذر شديد جعل حركتي محسوبة تماماً... أخرجت ذراعي اليمنى من خلف ظهري ثم مددت يدي لألمس خده. لم أسمح لذهني بأن يتشتت بسبب ذلك اللون الصدفي في يدي أو بسبب ملمس جلده الحريري أو بسبب تلك الشحنة المتوثبة على أطراف أصابعي.

حدقت في عينيه وسمعت صوتي للمرة الأولى.

قلت له: «أحبك!»... لكن صوتي بدا مثل الغناء. رن صوتي وترقرق مثل صوت الجرس.

دوختني ابتسامته الجوابية أكثر مما كانت تدوخني يوم كنت بشرية. الآن أستطيع رؤية ابتسامته حقاً!

قال لي: «بقدر ما أحبك».

أمسك بوجهي بين يديه وانحنى بوجهه عليه... ببطء... حتى أتذكر ضرورة الحذر. قبلني... قبلة ناعمة مثل همسة... في البداية، ثم بقوة وعنف مفاجئين. حاولت أن أتذكر ضرورة الحذر، لكن تذكر أي شيء كان صعباً مع تدفق المشاعر... كان صعباً أن أتذكر أي شيء.

كانت قبلته كما لو أنه لم يقبلني من قبل... كأنها قبلتنا الأولى. لكن الحقيقة هي أنه لم يقبلني هكذا من قبل... أبداً.

جعلني هذا أشعر بالذنب. لابد أنني خرقت الاتفاق. أما كان لي أن أنال هذا أيضاً؟

ما كنت في حاجة إلى الأوكسجين، لكن أنفاسي تسارعت... تسارعت مثلما تسارعت عند احتراقي. لكن هذا نوع مختلف من النار.

سمعت أحداً يتنحنح... إنه إيميت! ميزت ذلك الصوت العميق فوراً... كان مازحاً ومنزعجاً في وقت واحد.

نسيت أننا لسنا وحدنا! ثم أدركت أن طريقة التحامي بإدوارد الآن ليست سلوكاً مهذباً بوجود الآخرين.

شعرت بالإحراج فابتعدت نصف خطوة... بحركة لحظية... لم تستغرق زمناً.

أطلق إدوارد ضحكة صغيرة وتحرك معي مبقياً ذراعيه حول خصري. كان وجهه متألقاً كما لو أن لهباً أبيض يشع من خلف جلده الماسي.

استنشقت نفساً... ما كان ضرورياً... حتى أستجمع شتات نفسي.

كم هي مختلفة قبلاته الآن! تمعنت في تعبير وجهه وأنا أحاول مقارنة ذكرياتي البشرية غير الواضحة مع هذه المشاعر الفياضة الصافية. بدا إدوارد... راضياً مسروراً.

«لقد كنت تمتنع عن تقبيلي هكذا»... قلتها بصوت متهم... بصوت مغنٍّ!

ضحك إدوارد... كان شديد الارتياح لأن الأمر انتهى... انتهى الخوف والألم والقلق والانتظار... صار كل هذا وراءنا الآن. قال يذكرني: «كان ذلك ضرورياً... أما الآن فقد جاء دورك في الحرص عليّ»... ضحك من جديد.

عبست قليلاً عندما فكرت في ذلك... عندها ما عادت ضحكة إدوارد وحيدة في تلك الغرفة.

تقدم كارلايل من خلف إيميت وسار نحوي مسرعاً كان في عينيه توجس بسيط، لكن جاسبر سار في أعقابه. لم يسبق لي أن رأيت وجه كارلايل أيضاً... لم أره فعلاً. انتابتني حاجة غريبة لأن أغمض عيني قليلاً... كما لو أنني كنت أنظر إلى الشمس.

سألني كارلايل: «كيف تشعرين الآن يا بيلا؟»

فكرت في هذا جزءاً صغيراً من الثانية. قلت: «مذهولة. ثمة كثير من...»

قطعت جملتي مصغية إلى صوت الجرس في كلماتي من جديد.

«نعم! يمكن أن يكون هذا الوضع محيراً».

أومأت إيماءة سريعة: «لكني أشعر أنني مازلت أنا... لا أدري كيف... لم أتوقع هذا».

شد إدوارد بذراعيه على خصري وهمس: «قلت لك هذا».

سألني كارلايل: «أنت تضبطين نفسك تماماً. أكثر مما توقعت... لم أتوقع هذا على الرغم من أنك كنت مستعدة عقلياً لهذا».

فكرت في تقلبات المزاج العنيفة... في صعوبة التركيز.. ثم همست: «لست واثقة من ذلك».

أومأ برأسه جاداً. ثم لمعت عيناه مستثارتين: «يبدو أننا استخدمنا المورفين بطريقة صحيحة هذه المرة. قولي لي... ماذا تتذكرين من عملية التحول؟»

ترددت... كنت شديدة الإحساس بأنفاس إدوارد على خدي... أنفاسه التي كانت تبث نبضات كهربائية عبر جلدي: «كان كل شيء... غير واضح من قبل. أتذكر أن الطفلة لم تكن تتنفس...»

نظرت إلى إدوارد... وقد أخافتني تلك الذكرى فجأة.

قال مؤكداً: «رينيسمي معافاة... إنها بخير». رأيت في عينيه ألقاً لم أره من قبل. نطق اسمها بحرارة... بهيام... «ماذا تتذكرين بعد ذلك؟»

حاولت جعل وجهي جامداً... لا يشي بما في عقلي. لكنني لم أكن كاذبة ماهرة في يوم من الأيام: «يصعب التذكر! كان الظلام شديداً من قبل. ثم... فتحت عيني فاستطعت أن أرى كل شيء».

همس كارلايل: «مدهش!»... كانت عيناه تلتمعان.

غمرني الحرج... فتوقعت أن تلهب الحرارة وجنتي فيفتضح أمري. ثم تذكرت أن وجهي لن يحمر بعد الآن. لعل هذا يحمي إدوارد من الحقيقة.

عليّ العثور على طريقة لكي أشرح الأمر لكارلايل... رغم ذلك... في يوم من الأيام. سيفيده هذا الشرح إذا احتاج إلى صنع مصاص دماء آخر. بدت إمكانية ذلك مستبعدة تماماً، وهذا ما جعلني لا أجد كبير حرج في الكذب.

قال كارلايل مستثاراً: «أريدك أن تفكري... أن تخبريني كل ما تستطيعين تذكره»... لم أستطع منع تكشيرة سريعة في وجهي. لا أريد الاستمرار في الكذب... فقد أخطئ. لكنني لم أرد أيضاً أن أفكر في الاحتراق. فعلى خلاف ذكرياتي البشرية، كان هذا الجزء شديد الوضوح... وجدت أنني أستطيع تذكره بدقة كبيرة جداً.

اعتذر كارلايل من فوره: «أوه! آسف يا بيلا. لابد أن ظمأك مزعج كثيراً الآن. يمكننا تأجيل هذه القصة».

ما كنت غير قادرة على ضبط الظمأ... حتى أتى على ذكره. كان في رأسي متسع كبير. لكن جزءاً من دماغي كان يتابع ذلك الاحتراق في حلقي... على نحو تلقائي تقريباً. تماماً كما كان دماغي القديم يتعامل مع التنفس ورفرفة العينين.

لكن كلام كارلايل جعل الظمأ يقفز إلى مقدمة ذهني. وفجأة... ما عدت قادرة على التفكير في غير هذا الألم الجاف. كلما فكرت أكثر كلما آلمني

أكثر! أمسكت حنجرتي بيدي كما لو أنني أستطيع إطفاء اللهب فيها من الخارج. كان جلد رقبتي قوياً تحت أصابعي. وكان صقيلاً على نحو يعطي إحساساً بالطراوة. . . لكنه كان قاسياً كالحجر من تحت ذلك الإحساس.

أنزل إدوارد ذراعيه ثم أمسك بيدي الأخرى. شدها بلطف قائلاً: «فلنذهب إلى الصيد يا بيلا».

انفتحت عيناي واسعتين وتراجع ألم الظمأ مفسحاً المكان للشعور بالصدمة.

أنا! أصطاد! مع إدوارد!. . . لكن كيف؟ لا أعرف ما عليّ أن أفعل.

قرأ إدوارد ذلك في تعبير وجهي فابتسم لي مشجعاً: «هذا سهل جداً يا حبيبتي. إنه غريزي! لا تقلقي سوف أريك كيف يكون». . . وعندما لم أتحرك ابتسم لي ابتسامته المتخابثة ورفع حاجبه. . . «كان لدي انطباع أنك كنت راغبة دائماً في رؤيتي أصطاد».

ضحكت ضحكة قصيرة (راح جزء مني يستمع مستغرباً إلى ذلك الرنين الصادح في صوت ضحكتي). . . ذكرني كلامه بحديث بشري غائم قديم. بعد ذلك استغرقت ثانية كاملة حتى أستعرض سريعاً أيامي الأولى مع إدوارد. . . البداية الحقيقية لحياتي. . . حتى لا أنساها أبداً. لم أكن أتوقع أن التذكر سيكون بهذه الصعوبة. كان مثل محاولة الخوض في مياه موحلة. أعرف من تجربة روزالي أنني إذا فكرت في ذكرياتي البشرية إلى درجة كافية فسوف لن أضيعها مع الزمن. لم أكن أريد نسيان أي دقيقة أمضيتها مع إدوارد. . . حتى الآن. . . عندما صارت أمامنا الأبدية كلها. أريد أن أتأكد من تثبيت تلك الذكريات البشرية في ذهني الجديد الذي لا يعرف الخطأ.

سألني إدوارد: «هل نذهب؟». . . مد يده ليمسك يدي التي مازالت على عنقي. مسّد كفّه جانب ذلك العنق: «لا أريد أن تشعري بالألم». . . قال هذا متمتماً بصوت منخفض. ما كنت أستطيع سماع هذا الهمس من قبل.

قلت: «أنا بخير!». . . إنها بقية من إحدى عاداتي البشرية. . . «انتظر أولاً».

كان لدي الكثير! لم أنس أسئلتي أبداً. كان لدي أشياء كثيرة أهم من الألم.

جاءني صوت كارلايل الآن: «نعم!»

«أريد أن أراها. . . رينيسمي».

كان لفظ اسمها صعباً على نحو غريب. ابنتي. . . كان التفكير في هذه الكلمة أكثر صعوبة. بدا ذلك كله شديد البعد. حاولت أن أتذكر كيف كان شعوري قبل ثلاثة أيام. وعلى نحو تلقائي. . . سحبت يدي من يد إدوارد ووضعتها على بطني.

مسطح. . . فارغ! أطبقت كفي على حرير شاحب اللون يغطي جلدي. . . ذعرت من جديد. . . وفي هذه اللحظة فكر جزء صغير من دماغي في أن أليس هي التي ألبستني هذا الثوب.

عرفت أن شيئاً لم يعد بداخلي. وتذكرت على نحو مشوش ذلك المشهد الدموي. لكني مازلت أجد صعوبة في وضع يدي على الدليل المادي. ما كنت أعرف إلا حب ابنتي الصغيرة وهي في بطني. أما خارج بطني. . . فقد بدت ابنتي شيئاً من صنع الخيال. . . حلماً بعيداً. . . حلماً كان نصفه كابوساً.

بينما كنت أصارع هذا الاضطراب رأيت إدوارد وكارلايل يتبادلان نظرات حذرة.

سألتهما: «ماذا؟»

قال إدوارد مسايراً: «بيلا! ليست هذه فكرة جيدة. إنها نصف بشرية يا حبيبتي. قلبها ينبض. . . والدم يجري في عروقها. قبل أن تتمكني جيداً من السيطرة على الظمأ. . . أنت لا تريدين تعريضها إلى الخطر. . . أليس كذلك؟»

عبست. . . يجب أن لا أريد ذلك طبعاً.

هل أنا خارج السيطرة؟ إنني مرتبكة. . . مشتتة الانتباه. . . لكن، هل أنا خطرة؟. . . عليها؟ ابنتي؟ لكني ما كنت واثقة من أنني غير خطرة. عليّ

بالصَّبر. لكنه يبدو صعباً. . . عزيز المنال. لن تكون حقيقية حتى أراها من جديد. ستكون مجرد حلم بعيد. . . مجرد غريبة.

«أين هي؟». . . رحت أصيخ السمع فاستطعت التقاط نبضات قلب في الطابق السفلي. . . تحتي. سمعت صوت أكثر من شخص واحد يتنفس. . . بهدوء. كأنهم يصغون أيضاً! سمعت أيضاً صوتاً نابضاً لم أستطع تحديده. . .

كان صوت النبضات رطباً. . . جذاباً. . . بدأ اللعاب يجري في فمي.

هذا يعني أن علي تعلم الصيد قبل أن أراها. طفلتي الغريبة عني. . .

«هل روزالي معها؟»

أجابني إدوارد بنبرة واضحة: «نعم!». . . استطعت أن أرى انزعاجه من فكرة خطرت في باله. كنت أظن أنه تجاوز خلافه مع روز. هل استعرت العداوة من جديد؟ قبل أن أستطيع السؤال سحب إدوارد يدي التي وضعتها على بطني. . . المسطح. . . وشدني بلطف من جديد.

قلت محتجة من جديد: «انتظر!». . . كنت أحاول التركيز. . . «ماذا عن جايكوب؟ وتشارلي؟ قص علي كل ما فاتني. كم مر علي من الزمن وأنا. . . فاقدة الوعي؟»

لم يظهر على إدوارد أنه لاحظ ترددي عند الكلمتين الأخيرتين. كان يتبادل نظرات قلقة أخرى مع كارلايل.

همست: «ما المشكلة؟»

قال كارلايل: «ما من مشكلة!». . . سمعته يشدد على الكلمة الأخيرة بطريقة غريبة. . . «ما من تغير كبير في أي شيء. . . فقدتِ وعيك قرابة يومين. كان هذا سريعاً جداً بالقياس إلى ما تجري عليه الأمور عادة. لقد قام إدوارد بعمل ممتاز. قام بشيء مبتكر فعلاً. . . كان حقن السم في قلبك مباشرة فكرته هو». صمت قليلاً وابتسم ابتسامة اعتزاز ناظراً إلى ابنه ثم تنهد. . . «مازال جايكوب هنا. ومازال تشارلي يظن أنك مريضة. يعتقد أنك في أتلانتا الآن تخضعين لبعض الاختبارات في مركز مراقبة الأوبئة. لقد

أعطيناه رقم هاتف خاطئ. . . أصابه الإحباط والجزع. . . إنه يتحدث مع إيزمي».

تمتمت في نفسي: «هل أتصل به؟». . . لكنني أدركت الصعوبات الجديدة عندما استمعت إلى صوتي. لن يعرف أبي صوتي الآن. ولن يطمئنه هذا. عند ذلك تدخلت المفاجأة الأولى: «انتظرا! . . . هل مازال جايكوب هنا؟»

رأيتهما يتبادلان النظرات من جديد. قال إدوارد مسرعاً: «بيلا! . . . ثمة أشياء كثيرة علينا أن نتحدث فيها. لكن علينا الاهتمام بك أولاً. لابد أنك تتألمين. . .»

عندما قال هذا تذكرت الألم الذي يحرق حلقي: «لكن جايكوب. . .»

ذكرني إدوارد بلطف: «أمامنا كل ما في هذا العالم من وقت من أجل الشرح يا حبيبتي».

طبعاً! أستطيع الانتظار قليلاً قبل الحصول على الإجابة. سيكون الإصغاء أكثر سهولة عندما لا يعود هذا الألم الحاد. . . ألم الظمأ الناري. . . يحرق تركيزي: «لا بأس!»

«انتظروا! انتظروا! انتظروا!». . . جاءت أليس مبتعدة عن الباب. كانت ترقص في طريقها عبر الغرفة. . . كانت كلها رشاقة. وكما حدث عندما نظرت إلى إدوارد وكارلايل. . . أحسست بالصدمة نفسها عندما نظرت إلى وجهها للمرة الأولى. كم هي جذابة! . . . «وعدتني أن أكون حاضرة في المرة الأولى. ماذا لو مررتما قرب شيء عاكس؟»

قال إدوارد محتجاً: «أليس. . .»

قالت: «لن يستغرق هذا إلا ثانية واحدة». . . ثم انطلقت خارجة من الغرفة.

تنهد إدوارد.

«عمّ تتحدث أليس؟»

لكنها عادت في تلك اللحظة حاملة المرآة الضخمة ذات الإطار المذهب... من غرفة روزالي. كان طول المرآة ضعفي طولها. وكانت أعرض من آليس بمرات!

كان جاسبر ساكناً تماماً... صامتاً... فلم ألاحظه حتى جاء فوقف خلف كارلايل. لقد تحرك الآن من جديد ليقف عند آليس... كانت عيناه تفترسان في تعابير وجهي. أنا مصدر الخطر الآن!

أعرف أنه منتبه إلى مزاجي أيضاً. لابد أنه شعر بالصدمة التي أحسستها عندما نظرت إلى وجهه... عندما نظرت إليه عن كثب للمرة الأولى.

ما كانت عيناي البشريتان قادرتين على رؤية الندوب الباقية من حياته السابقة مع جيوش المواليد الجدد في الجنوب... كانت هذه الندوب غير مرئية تقريباً. وما كنت لأرى شيئاً منها إلا في الضوء الساطع.

لكني صرت قادرة على الرؤية الآن... كانت الندوب سمةً مسيطرة على مظهر جاسبر. واجهت صعوبة في انتزاع عينيّ من رقبته وفكه المشوهين... يصعب تصديق أنه نجا من كل تلك الأسنان التي انغرست في رقبته.

وعلى نحو غريزي... توتر جسمي حتى أدافع عن نفسي. لابد أن ردة فعل أي مصاص دماء يرى جاسبر ستكون مثل ردة فعلي الآن. كانت تلك الندوب مثل لوحة إعلانية تقول «خطر»... كانت تصرخ بتلك الكلمة! كم مصاص دماء حاول قتل جاسبر؟ مئات؟ أم آلاف؟ إنه عدد من ماتوا أثناء المحاولة... العدد نفسه!

رأى جاسبر... وأحس... تلك النتيجة التي خرجت بها... ورأى حذري... فابتسم ابتسامة ساخرة.

قالت آليس تحاول أن تجذب انتباهي بعيداً عن محبوبها المخيف: «حاولت مع إدوارد كثيراً أن أجعلك ترين صورتك في المرآة قبل الزفاف... لكن عبثاً. لن أقبل أن أتعرض للتوبيخ من جديد».

قال إدوارد مشككاً وهو يرفع حاجبه إلى الأعلى: «توبيخ!»

«لعلي بالغت في التعبير»... هكذا تمتمت شاردة الذهن وهي تدير المرآة لتواجهني.

قال إدوارد: «لعل الأمر لا علاقة له إلا بحبك للمرايا!»

غمزت له آليس بعينها.

ما كنت منتبهة إلى كلامهما إلا في جزء صغير من تركيزي. أما الجزء الأكبر فكان متجهاً إلى الشخص الذي رأيته في المرآة.

كان رد فعلي الأول إحساساً بالسرور... من غير تفكير. كانت المخلوقة الغريبة التي رأيتها في المرآة جميلة من غير ريب. كان كل ما فيها جميلاً... مثل آليس أو إيزمي. كانت رشيقة رغم سكونها... كان وجهها شاحباً يبدو مثل قمرٍ وسط شعرها الكثيف الأسود. كانت أطرافها ناعمة... طويلة. وكان جلدها يتوهج توهجاً خافتاً... كان مضيئاً مثل اللؤلؤ.

ثم كان الخوف ردة فعلي الثانية.

من هذه؟ لم أستطع للوهلة الأولى أن أجد وجهي في تلك التقاسيم الناعمة الكاملة في وجهها.

أما عيناها... أعرف أن علي توقع ذلك... كانت عيناها تبعثان الرعب في كياني كله.

كان وجهها محافظاً على هدوئه... على تماسكه... طيلة الزمن الذي أمضيته في النظر إليها... وفي ردة فعلي. كان وجهها منحوتة إلهية لا يبدو عليها شيء من الاضطراب الذي يغلي في داخلي. ثم... تحركت شفتاها الممتلئتان.

همست: «العينان!»... ما كنت راغبة في أن أقول... عيناي... «إلى متى؟»

قال إدوارد بصوت ناعم... مطمئن: «سوف يصير لونهما قاتماً خلال شهور قليلة. إن دم الحيوانات يزيل هذا اللون أسرع مما يفعل الدم البشري. سوف تصيران بلون الكهرمان في البداية... ثم بلون الذهب».

هل ستوهج عيناي مثل ألسنة النار الحمراء الرهيبة طيلة أشهر؟

قلت: «أشهر!»... كان صوتي الآن أكثر ارتفاعاً... متوتراً. وفي المرآة رأيت الحاجبين الجميلين يرتفعان غير مصدقين فوق عينيها القرمزيتين المتألقتين... عينان أكثر تألقاً من أي عينين رأيتهما من قبل.

تقدم جاسبر خطوة إلى الأمام وقد أشعرته شدة قلقي المفاجئ بالخطر. كان يعرف مصاصي الدماء الجدد معرفة ممتازة. فهل ينذر هذا الانفعال بسوء تصرف من جانبي؟

لم يجب أحد عن سؤالي. نظرت إلى إدوارد... وإلى أليس. كانت أعينهما منشغلة علي... منتبهة إلى شعور جاسبر بالخطر. كانا يصغيان إلى أفكاره... ينظران إلى المستقبل القريب.

استنشقت نفساً عميقاً... غير ضروري.

قلت: «لا! أنا بخير!»... راحت نظراتي تنتقل بينهما وبين تلك الغريبة في المرآة... «... يلزمني زمن لاستيعاب ذلك».

تغضن حاجبا جاسبر فزادت الندبتان فوق عينه اليسرى وضوحاً.

تمتم إدوارد: «لا أدري».

عبس وجه المرأة التي في المرآة: «ثمة سؤال لم أسمعه؟»

ابتسم إدوارد: «يتساءل جاسبر كيف تفعلين هذا»

«أفعل ماذا؟»

أجابني جاسبر: «تسيطرين على مشاعرك يا بيلا. لم أر من قبل مصاص دماء جديد يستطيع ذلك... يستطيع إيقاف تلك المشاعر على هذا النحو. لقد كنت منزعجة... وعندما رأيت قلقنا... كبحت انزعاجك فسيطرت عليه واستعدت زمام نفسك. كنت جاهزاً للتدخل... لكنك لست في حاجة إلى مساعدتي».

سألت: «وهل هذا أمر سيئ؟»... تجمد جسمي تلقائياً بينما انتظرت حكمه.

قال: «لا!»... لكن صوته لم يبح بالثقة.

مسح إدوارد بيده على ذراعي كما لو أنه يشجعني على الكف عن الضغط على نفسي: «هذا مؤثر يا بيلا! لكننا لا نستطيع فهمه. ولا نعرف كم يمكن أن يستمر».

فكرت في ذلك جزءاً من الثانية. هل يمكن أن أفقد السيطرة في أي لحظة فأتحول إلى وحش؟ لم أشعر أن هذا موشك على الحدوث... لعله ما من طريقة لتوقع حدوث ذلك الشيء.

سألت أليس وهي تشير إلى المرآة وقد فرغ صبرها بعض الشيء: «لكن، ما رأيك؟»

قلت: «لست متأكدة!»... ما كنت راغبة في الاعتراف بمدى خوفي.

حدقت في المرأة الجميلة بعينين خائفتين ورحت أبحث فيها عن ملامحي. ثمة شيء في شكل شفتيها. إذا نظرت بما يتجاوز هذا الجمال المدوخ فسترى فعلاً أن شفتها العليا فيها شيء من عدم الانسجام... أكثر امتلاء من الشفة السفلى. جعلني عثوري على هذا العيب المألوف بالنسبة لي أشعر بقدر بسيط من الراحة. لعل فيّ بقية من ملامحي أيضاً!

رفعت يدي على سبيل الاختبار ففعلت المرأة في المرآة مثلما فعلت ولمست وجهها. كانت عيناها القرمزيتان تنظران إلي قلقتين.

تنهد إدوارد.

أشحت بوجهي عن المرآة لأنظر إليه نظرة استفهام.

سألته: «هل خاب أملك؟»... كان صوتي الرنان خالياً من التعبير.

ضحك إدوارد واعترف قائلاً: «نعم».

أحسست بالصدمة تخترق قناع التماسك على وجهي... ثم تبعها إحساس بالجرح.

زمجرت أليس وانحنى جاسبر متأهباً من جديد. كانا ينتظران أن أفقد السيطرة على نفسي.

لكن إدوارد تجاهلهما مطوقاً جسدي المتجمد بذراعيه . . . واضعاً شفتيه على خدي: «كنت آمل أن أصبح قادراً على سماع أفكارك بعد أن تصبح أكثر شبهاً بأفكاري. لكن، ها أنذا . . . مازلت خائب الرجاء كما كنت . . . مازلت أتساءل عما يمكن أن يكون في رأسك».

أحسست بالارتياح فوراً.

قلت بخفة بعد اطمئناني إلى أن أفكاري مازالت ملكاً لي: «أوه، جيد! أظن أن عقلي لن يعمل بشكل صحيح أبداً. لكني جميلة . . . على الأقل!»

صار المزاح معه سهلاً عليّ بعد ذلك . . . صرت أستطيع التفكير بشكل مباشر . . . أستطيع أن أكون نفسي.

قال إدوارد في أذني: «لم تكوني جميلة فحسب في يوم من الأيام يا بيلا».

ثم ابتعد وجهه عن وجهي وسمعته يتنهد. قال مخاطباً أحدهم: «لا بأس! لا بأس!»

سألتهم: «ماذا؟»

«أنت تجعلين جاسبر أكثر تحفزاً في كل ثانية تمضي. لعله يسترخي قليلاً بعد أن تصطادي».

نظرت إلى تعابير جاسبر القلقة وأومأت برأسي. لا أريد أن أفقد سيطرتي على نفسي هنا . . . إن كنت سأفقدها فالأفضل أن يحدث هذا وأنا محاطة بالأشجار لا بأفراد أسرتي.

قلت موافقة: «طيب! فلنذهب إلى الصيد» . . . أحسست بارتجاف أعصابي وبالتحفز الذي جعل معدتي تتقلص. فككت ذراعي إدوارد عن وسطي وأمسكت بيده ثم أدرت ظهري للمرأة الغريبة الجميلة التي في المرآة.

21

الصيد الأول

«من النافذة!» قلت هذا وأنا أنظر من ارتفاع طابقين. لم أكن ممن يخافون المرتفعات. لكن قدرتي الجديدة على رؤية جميع التفاصيل بهذا الوضوح كله جعلت من فكرة القفز من النافذة أقل جاذبية. كانت حواف الصخور في الأسفل أكثر حدة مما تخيلت سابقاً.

ابتسم إدوارد: «إنها أفضل سبيل للخروج. أستطيع حملك إذا كنت خائفة».

«لدينا زمن أبدي! وأنت منشغل البال بالزمن الذي يستغرقه الخروج من الباب الخلفي!»

عبس وجه إدوارد قليلاً: «إن رينيمي وجايكوب في الطابق السفلي الآن . . .»

أوه!

صحيح! أنا هو الوحش الآن. علي أن أبتعد عن الروائح التي يمكن أن تطلق الجانب المتوحش. علي الابتعاد عمن أحبهم خاصة. حتى عن الذين لا أعرفهم جيداً حتى الآن.

همست: «وهل رينيمي . . . بخير . . . مع جايكوب هناك؟» . . . أدركت متأخرة أن النبض الذي سمعته من الأسفل كان قلب جايكوب. أصغيت بانتباه

من جديد لكنني ما استطعت سماع شيء إلا صوت قلب واحد ينبض بانتظام... «إنه لا يحبها كثيراً!»

شد إدوارد على شفتيه بطريقة غريبة: «ثقي بي! إنها في أمان تماماً. أعرف بالضبط ما الذي يفكر فيه جايكوب».

تمتمت: «طبعاً!»... وعدت أنظر إلى الأرض من جديد.

قال متحدياً: «مترددة؟»

«قليلاً! لا أعرف كيف...»

كنت شديدة الإحساس بوجود أفراد الأسرة من خلفي... يراقبون صامتين. صامتين... أكثرهم! سمعت إيميت يطلق ضحكة خافتة صغيرة. سيجعله خطأ صغير مني يتدحرج على الأرض ضاحكاً. عند ذلك سيبدأ ظهور النكات عن مصاصة الدماء الخرقاء...

ثم... هذا الفستان أيضاً! الفستان الذي أظن أن أليس ألبستني إياه عندما كان الحريق في داخلي يمنعني من الانتباه. لم يكن الفستان لباساً مناسباً للقفز من النافذة ولا للصيد. فستان حريري ضيق أبيض مزرق! فيم أحتاج فستاناً كهذا؟ هل سنذهب إلى حفلة كوكتيل؟

قال إدوارد: «انظري إلي!»... ثم سار عبر النافذة الطويلة المفتوحة... بطريقة عادية... وسقط إلى الأسفل.

راقبته بانتباه. حاولت ملاحظة كيف انحنت ركبتاه حتى يمتص الصدمة. كان صوت اصطدامه بالأرض منخفضاً جداً... مجرد ضربة مكتومة تشبه صوت إغلاق باب بحركة هادئة... أو صوت كتاب يوضع على الطاولة بلطف.

لا يبدو ذلك صعباً!

ركزت انتباهي... شددت على أسناني وحاولت تقليد حركة خروجه من النافذة.

ها!... بدت لي الأرض متحركة باتجاهي ببطء شديد جعل تحديد موقع

هبوط قدمي في غاية السهولة... ما هذا الحذاء الذي وضعته أليس في قدمي؟ حذاء ذو كعب مرتفع مدبب! لقد فقدت عقلها!... لكن ملامسة حذائي السخيف للأرض بشكل صحيح كانت تماماً بمثل سهولة السير خطوة واحدة على أرض مستوية.

جعلت باطن قدمي يمتص الصدمة. ما كنت أريد إتلاف كعب الحذاء الدقيق. بدا صوت اصطدامي بالأرض خافتاً... مثل صوت اصطدام إدوارد. ابتسمت له.

«أنت محق! إنه سهل».

ابتسم لي إدوارد: «بيلا!»

«نعم!»

«كان هبوطك بالغ الرشاقة... حتى بالنسبة لمصاصة دماء».

فكرت في ذلك لحظة. ثم أحسست بالسرور. لو كان هذا مجرد كلام لسمعت إيميت يضحك مني. لم يجد أحد شيئاً مضحكاً في ما قاله إدوارد... لابد أنه صحيح إذن! هذه هي المرة الأولى التي يصفني فيها أي شخص برشاقة الحركة... في حياتي كلها... أو... في وجودي كله بالأصح.

قلت له: «شكراً!»

عند ذلك خلعت الحذاء الحريري الفضي من قدمي فردة بعد أخرى ثم ألقيته إلى الداخل عبر النافذة نفسها. ربما ألقيته بقوة أكثر مما يجب قليلاً... لكنني سمعت أحداً يلتقطه قبل أن يصيب الجدار.

زمجرت أليس قائلة: «لم يتحسن ذوقها في الملابس بقدر ما تحسن توازنها».

أمسك إدوارد بيدي. ما كنت قادرة على الكف عن الإحساس بنعومة يديه... بلطف حرارة جلده. انطلقنا عبر الباحة الخلفية... حتى حافة النهر. مضيت معه من غير جهد.

كان كل فعل مادي يبدو في غاية السهولة.

سألته عندما توقفنا عند حافة النهر: «هل نجتازه سباحة؟»

«وتفسدين ثوبك الجميل! لا... سوف نقفز».

ضغطت على شفتي مفكرة فيما قاله. كان عرض النهر في هذه النقطة يقارب أربعين متراً.

قلت: «اقفز أولاً».

لمس إدوارد وجنتي بيده وعاد خطوتين واسعتين إلى الخلف ثم اندفع جارياً وقفز من فوق صخرة مستوية راسخة على ضفة النهر. راقبت حركته السريعة وهو يطير فوق النهر ثم يتشقلب في الهواء قبل أن يختفي بين الأشجار الكثيفة على الضفة الأخرى.

تمتمت: «ما هذا الاستعراض؟»... فسمعت ضحكته غير المرئية.

تراجعت عدة خطوات... تحسباً... ثم استنشقت نفساً عميقاً.

استبد بي القلق فجأة. ما كنت قلقة من السقوط أو التأذي... كنت أكثر قلقاً على الغابة.

لقد جاءت ببطء... لكني أحسها الآن... تلك القوة العاتية تصطخب في أطرافي. كنت واثقة فجأة من أنني لو أردت أن أحفر نفقاً تحت النهر... أن أشق طريقي عبر الصخور... لما استغرقني ذلك زمناً طويلاً. كانت الأشياء من حولي... الأشجار والأجمات والصخور... والمنزل... تبدو الآن شديدة الهشاشة.

آمل أن لا تكون إيزمي مولعة ولعاً خاصاً بأي شجرة على الضفة الثانية... خطوت الخطوة الأولى... لكني توقفت عندما تمزقت خياطة فستاني الحريري الضيق أكثر من عشرة سنتيمترات عند فخذي... آه يا أليس!

تتعامل أليس دائماً مع الملابس كما لو أنها أشياء تستعمل لمرة واحدة. لذلك... لن تغضب مني! انحنيت وأمسكت بالخياطة التي لم تتمزق بعد عند ساقي اليمنى. حاولت استخدام أقل قوة ممكنة ففتحت الفستان حتى

أعلى الفخذ. ثم فتحت الجهة اليسرى حتى صارت الجهتان متماثلتين.

هذا أفضل بكثير!

سمعت صوت ضحك مكتوم قادم من جهة المنزل. بل سمعت أيضاً أليس تشد على أسنانها. كان الضحك قادماً من الطابقين العلوي والسفلي... ميزت بسهولة تلك الضحكة المختلفة... الخشنة... العميقة... القادمة من الطابق السفلي.

إن جايكوب يراقبني أيضاً! لا أستطيع تخيل ما يفكر فيه الآن ولا سبب بقائه هنا حتى الآن. لقد رسمت في ذهني صورة لقائنا من جديد... إذا استطاع أن يسامحني... صورة ذلك اللقاء يجري في المستقبل عندما أصبح أكثر استقراراً... وعندما يشفي الزمن الجراح التي أصبت قلبه بها.

لم أستدر لأنظر إليه الآن... أحسست بالقلق من تقلبات مزاجي. لن يكون حسناً أن أسمح لأي مشاعر بأن تستولي على عقلي. لقد نبهتني مخاوف جاسبر أيضاً! عليّ أن أصطاد قبل أي شيء آخر. حاولت أن أنسى كل شيء حتى أستطيع التركيز.

ناداني إدوارد من الغابة. أحسست صوته يتحرك مقترباً مني: «بيلا! هل تريدين رؤيتي أقفز من جديد؟»

لكني كنت أتذكر كل شيء على أحسن وجه... طبعاً! ما كنت أريد منح إيميت سبباً جديداً للعثور على المزيد مما يضحكه في تعليمي. كان هذا فعلاً مادياً... يجب أن يكون غريزياً الآن! لذلك... التقطت نفساً عميقاً وجريت حتى النهر.

ما عاد فستاني يزعجني الآن... قفزة واحدة وصرت عند حافة الماء. كان هذا مجرد جزء صغير من الثانية... لكنه بدا وقتاً كافياً. تتحرك عيناي... ويتحرك عقلي الآن بسرعة كبيرة جعلت خطوة واحدة أكثر من كافية. كان سهلاً عليّ أن أضع قدمي اليمنى على الصخرة المستوية وأن أستخدم القوة الكافية لكي يطير جسمي عالياً في الهواء.

كان أكثر انتباهي متوجهاً إلى تحديد مساري وضبط قوتي... فأخطأت في مقدار القوة اللازمة. لكني، على الأقل، لم أخطئ فأختار الاتجاه الذي يجعلني أقع في الماء. كانت الأمتار الأربعون مسافة سهلة...

كان هذا شيئاً غريباً... مدوخاً... مكهرباً... لكنه قصير المدة. مازال أمامي ثانية كاملة... عبرت النهر. كنت أتوقع أن أجد مشكلة بسبب كثافة الأشجار. لكن هذا ساعدني بشكل مفاجئ. كان من السهل علي أن أمد يدي بحركة واثقة أثناء سقوطي صوب الأرض... عميقاً في الغابة... فأمسك بالغصن الذي أراه مناسباً. تدلى جسمي من الغصن... تحمله ذراعي... ثم هبطت على أطراف أصابع قدمي. مازلت على ارتفاع خمسة عشر متراً عن الأرض... كنت فوق غصن كبير في إحدى شجرات السرو الجبلي.

كان هذا مذهلاً!

سمعت من خلف ضحكاتي المبتهجة صوت إدوارد جارياً... يبحث عني. كانت قفزتي ضعفي قفزته طولاً. وعندما بلغ شجرتي رأيت عينيه متسعتين دهشة. قفزت من الغصن فوقفت بجانبه... لمست الأرض من غير صوت... بباطن قدمي.

«هل كانت قفزتي جيدة؟»... سألته وقد تسارع تنفسي بسبب الإثارة.

ابتسم محبذاً: «جيدة جداً!»... لكن نبرته العادية ما كانت تتناسب مع تعبير الدهشة في عينيه.

«هل نستطيع أن نفعل ذلك من جديد؟»

«ركزي يا بيلا!... نحن في رحلة صيد».

أومأت برأسي: «أوه! صحيح... صيد».

«اتبعيني... إذا استطعت!»... ابتسم إدوارد... صار تعبير وجهه متحدياً... ثم اندفع جارياً.

كان أسرع مني. لا أعرف كيف كان يحرك ساقيه بتلك السرعة التي تعمي الأبصار. هذا أمر يتجاوز قدرتي.

كنت أقوى منه. كانت كل خطوة تعادل ثلاثاً من خطواته. وهكذا... طرت معه عبر الغابة الخضراء الحية... كنت بجانبه ولم أكن أتبعه أبداً. أثناء جريي، لم أستطع منع نفسي من الضحك المبتهج لشدة المتعة. لكن الضحك لم يقلل من سرعتي ولا من تركيزي.

أفهم الآن أخيراً ما الذي يجعل إدوارد لا يصطدم بالأشجار أثناء جريه... كان هذا السؤال لغزاً بالنسبة لي. إنه إحساس فريد... إنه التوازن بين السرعة والوضوح. عندما كنت منطلقة مثل الصاروخ فوق... وتحت... وعبر هذه المتاهة الخضراء الكثيفة... بسرعة من المفترض أن تجعل كل شيء حولي يذوب في كتلة خضراء واحدة مستمرة... كنت قادرة على رؤية كل ورقة شجر صغيرة على أدق الأغصان في كل أجمة صغيرة أمر بها.

كانت الريح... ريح السرعة... تلقي بشعري وفستاني الممزق بعيداً خلفي. لكني كنت أحس الريح دافئة على جلدي رغم معرفتي أنها ليست كذلك. كانت أرض الغابة الخشنة القاسية مثل المخمل تحت أقدامي العارية... وما كان اصطدام الأغصان الصغيرة بجلدي أكثر من ريشة تداعبه مداعبة حانية رقيقة.

كانت الغابة أكثر حياة مما تخيلت في حياتي كلها. كانت أوراق الأشجار من حولي مزدحمة بكائنات صغيرة لم أكن أعرف شيئاً عن وجودها. كانت الكائنات تصمت تماماً عند مرورنا... تحبس أنفاسها مذعورة. إن لدى الحيوانات رد فعل على رائحتنا أكثر حكمة بكثير من ردة فعل البشر. من المؤكد أن لها مفعولاً عكسياً بالنسبة لي.

كنت أنتظر أن تتقطع أنفاسي، لكن تنفسي استمر سهلاً يسيراً. انتظرت أن تؤلمني عضلاتي، لكن القوة بدت في ازدياد مع تعودي على الجري. صارت وثباتي أكثر طولاً... وسرعان ما رأيت إدوارد يحاول عدم التخلف عني. ضحكت سعيدة من جديد عندما سبقته. كانت أقدامي العارية لا تلمس الأرض إلا لماماً... كنت كمن يطير لا كمن يجري.

ناداني بصوت جاف... كان صوته... متكاسلاً: «بيلا!»... لم أكن أسمع شيئاً آخر فقد توقف إدوارد.

فكرت في التمرد لحظة واحدة.

لكنني تنهدت واستدرت... عدت إليه مسرعة... كان خلفي بنحو مئة متر. نظرت إليه مستفسرة فرأيته يبتسم رافعاً حاجبيه. كان شديد الجمال... فلم أقل شيئاً واكتفيت بالتحديق فيه.

سألني مازحاً: «هل تريدين البقاء في هذه البلاد؟ أم تعتزمين الذهاب إلى كندا اليوم؟»

قلت موافقة: «هذا جيد!»... كنت قليلة التركيز على ما يقوله... لكنني كنت أكثر تركيزاً على الطريقة الساحرة التي تتحرك بها شفتاه عندما تكلم. كان من الصعب ألا يتشتت انتباهي مع رؤية كل هذه الأشياء الجديدة بعينيّ الحادتين... «ماذا تقترح من أجل الصيد؟»

«الوعل! أظن أنه شيء سهل بالنسبة لك في المرة الأولى...» قطع كلامه عندما رآني مستاءة من كلمة «سهل».

لكنني ما كنت أعتزم المناقشة... كنت شديدة الظمأ... وحالما بدأت التفكير في هذه الحرقة الجافة في حلقي لم أعد قادرة على التفكير في أي شيء آخر. الوضع يزداد سوءاً... كان فمي شديد الجفاف مثل فم من يكون في صحراء قاحلة ظهر يوم صيفي حار.

سألته: «أين؟»... وراح نظري يجوس الأشجار من حولي نافد الصبر. الآن... بعد أن ركزت انتباهي على الظمأ بدا لي أن هذا الإحساس يمسح كل فكرة أخرى في رأسي، بل يطغى على الأفكار المبهجة... الجري وشفتا إدوارد والتقبيل... إنه الظمأ الحارق. ما كنت أستطيع الإفلات منه.

قال: «قفي ساكنة تماماً»... وضع كفيه على كتفي. تراجع إلحاح الظمأ لحظة واحدة بفعل هذه اللمسة.

تمتم إدوارد: «أغمضي عينيك الآن». وعندما أطعته رفع يديه حتى وجهي

مداعباً وجنتي. أحسست بتسارع أنفاسي وانتظرت لحظة أن يأتي تورد وجنتي... الذي لن يأتي.

قال إدوارد: «أصغي جيداً! ماذا تسمعين؟»

كنت أستطيع القول «كل شيء!»... كنت أسمع صوته الجميل... تنفسه... حركة شفتيه أثناء كلامه... همسات الطيور تنظف ريشها في أعالي الأشجار... نبضات قلوبها... حفيف أوراق الأشجار... دبيب النمل الخافت... نملة بعد نملة... في خط طويل يصعد جذع شجرة كبيرة. لكنني فهمت أنه يقصد شيئاً آخر... شيئاً بعينه، فجعلت أذنيّ تصغيان إلى البعيد... تبحثان عن شيء مختلف عن همهمة الحياة الصغيرة التي تحيط بي. كان بالقرب منا منبسط صغير. كان للريح صوت مختلف فوق العشب المكشوف... وسمعت صوت جدول صغير قاعه من الحجارة. عند ذلك... قرب صوت الماء... سمعت صوت ألسنة تلعق الماء وصوت خفق قلوب مرتفع... قلوب تضخ تياراً من الدم الكثيف...

أحسست جوانب حلقي تتقلص فسألت إدوارد: «عند الجدول... إلى جهة الشمال الشرقي؟»... مازالت عيناي مغمضتين.

قال موافقاً: «نعم! الآن... انتظري مجيء النسيم صوبنا من جديد... ماذا تشمين؟»

كانت رائحته هو مسيطرة على ما أشمه... ذلك العطر الغريب من العسل والسوسن... والشمس. لكنني شممت أيضاً رائحة الأرض الغنية... رائحة الطحالب والعفونة... ورائحة الراتنج في الأشجار دائمة الخضرة... ورائحة بشعة تقريباً صادرة عن الزواحف الصغيرة الساعية عند جذوع الأشجار وجذورها. ثم... وسعت دائرة تركيزي من جديد فشممت رائحة الماء... كانت غير جذابة... إلى حد مفاجئ... رغم عطشي الحارق. انصب اهتمامي على الماء فعثرت على رائحة لابد أنها ملازمة للألسنة التي تلعق الماء وللقلوب التي تنبض. رائحة أخرى دافئة غنية حادة... أقوى من بقية الروائح.

«لكنها غير جذابة... تماماً مثل رائحة الماء». تقلص أنفي... لم يستسغها.

ضحك إدوارد ضحكة خافتة: «أعرف هذا!... يلزمك بعض الوقت حتى تعتادي هذه الرائحة».

قلت: «هل هم ثلاثة؟»

«بل خمسة! ثمة اثنان آخران في الأشجار... خلف الثلاثة»

«ماذا أفعل الآن؟»

أحسست من صوته أنه يبتسم: «ما الذي ترغبين في فعله؟»

فكرت في ذلك... مازالت عيناي مغمضتين... رحت أصغي وأستنشق الرائحة. هاجمتني نوبة جديدة من الظمأ فسيطرت على وعيي... فجأة، ما عادت تلك الرائحة الحادة الدافئة شديدة السوء! على الأقل... سيكون ذلك شيئاً حاراً رطباً في فمي الجاف. فتحت عيني.

«لا تفكري في الأمر»... هكذا اقترح إدوارد رافعاً يديه عن وجهي ومتراجعاً خطوة إلى الوراء... «اتبعي غريزتك».

تركت نفسي تقودها الرائحة. لم أمنح كبير اهتمام لحركتي عندما اندفعت هابطة المنحدر إلى ذلك المرج الضيق الذي يجري فيه الجدول. تحول جسدي تلقائياً إلى وضعية الاستعداد للوثب عندما توقفت مترددة عند حافة الأشجار الطحلبية. رأيت وعلاً ضخماً له قرنان كبيران متشعبان على رأسه واقفاً عند حافة الجدول... ورأيت أربعة غيره يتوجهون شرقاً إلى الغابة بخطى متكاسلة... رخية.

ركزت انتباهي على رائحة ذلك الذكر الضخم... تلك البقعة الحارة في عنقه الطويل حيث ينبض الدم قوياً. كان على مسافة ثلاثين متراً فقط... قفزتان أو ثلاثة قفزات تفصلنا. توتر جسمي استعداداً للقفزة الأولى.

لكن الريح غيرت اتجاهها فور تقلص عضلاتي تأهباً. صارت أكثر قوة الآن... صارت قادمة من جهة الشرق. لم أتوقف لكي أفكر... اندفعت خارجة من الأشجار في مسار عمودي على مساري الأصلي. أجفل الوعل

فاندفع إلى الغابة... أما أنا فرحت أجري خلف رائحة جديدة... شديدة الجاذبية... ما كان هذا خياراً... كنت أتحرك رغماً عني.

سيطرت علي الرائحة سيطرة تامة. رحت أجري صوبها غير عابئة بشيء آخر. ما كنت واعية إلا لتلك الرائحة وللظمأ الحارق الذي وعدتني بإطفائه. صار الظمأ أكثر شدة... صار مؤلماً الآن... شوش أفكاري كلها وبدأ يذكرني بالسم الذي أحرق عروقي.

ما كان يمكن أن يخرق تركيزي الآن إلا شيء واحد... غريزة أكثر قوة... أكثر أساسية من الحاجة إلى إخماد نار الظمأ. إنها غريزة البقاء... غريزة الدفاع عن النفس في وجه الخطر.

انتبهت فجأة إلى شيء يلاحقني. خبت قوة الجذب النابعة عن الرائحة التي لا تقاوم فحل محلها دافع يجبرني على الاستدارة خلفاً للدفاع عن طريدتي. تنامى صوت في صدري وتقلصت شفتاي كاشفتين عن أسناني. باطأت حركة قدميّ... كانت الحاجة إلى الاستدارة للدفاع عن النفس تصارع الرغبة في إطفاء الظمأ.

عند ذلك سمعت صوت مطاردي يقترب مني فانتصرت غريزة الدفاع عن النفس. استدرت وشق ذلك الصوت الذي في صدري طريقه عبر حنجرتي.

كانت الزمجرة الوحشية التي خرجت من فمي مفاجئة... أذهلتني تماماً... أفقدتني توازني. لقد جعلت رأسي يصحو لحظة... تراجع ذلك الضباب الذي يسوقه الظمأ... لكن الظمأ واصل إحراق حلقي.

تغير اتجاه الريح من جديد قاذفاً في وجهي رائحة الأرض الرطبة والمطر الوشيك فحررني أكثر من ذي قبل من القبضة النارية لتلك الرائحة الأولى... رائحة لذيذة... لذيذة... لا يمكن إلا أن تكون رائحة بشر.

وقف إدوارد متردداً على بعد خطوات مني. كانت ذراعاه مرفوعتين كما لو كان يريد عناقي... أو إيقافي. كان وجهه حذراً منتبهاً... أما أنا فتجمدت في مكاني وقد استبد بي الرعب.

أدركت أنني كنت على وشك مهاجمته، وبانتفاضة حادة... تخليت عن وضعيتي الهجومية ووقفت منتصبة. حبست أنفاسي ورحت أستعيد تركيزي... كنت خائفة من سطوة الرائحة القادمة من جهة الجنوب.

رأى إدوارد في وجهي أن عقلي استعاد السيطرة على الموقف فتقدم خطوة في اتجاهي خافضاً يديه.

قلت عبر أسناني المطبقة مستخدمة ما بقي في صدري من هواء: «عليّ أن أبتعد من هنا».

علت الدهشة وجه إدوارد: «هل تستطيعين الابتعاد؟»

ما كان لدي وقت حتى أسأله عن معنى سؤاله. أدركت أن قدرتي على التفكير الواضح لن تستمر كثيراً... لن تستمر إلا بقدر ما أتمكن من منع نفسي عن التفكير في...

اندفعت أجري من جديد... اندفعت مباشرة صوب الشمال. كنت أحصر تركيزي في ذلك الشعور المزعج... شعور افتقاد إحدى الحواس. بدا ذلك الشعور كأنه استجابة وحيدة من جسمي لحالة عدم التنفس... لافتقاد حاسة الشم... كان هدفي الأول أن أجري بعيداً إلى حد يجعل الرائحة من خلفي تختفي تماماً، إلى حد يصبح معه العثور عليها مستحيلاً... إن غيرت رأيي...

ومن جديد... شعرت أحداً يلاحقني... لكن عقلي كان صاحياً هذه المرة. قاومت غريزتي التي طالبتني بأن أتنفس... بأن أستخدم حاسة الشم لأتأكد من أنه إدوارد. ما كان علي أن أقاومها طويلاً. كنت أجري أسرع مما فعلت من قبل... كنت مندفعة مثل شهاب... ماضية في طريق شبه مستقيم عبر الأشجار... لكن إدوارد تمكن من اللحاق بي بعد دقيقة واحدة.

خطرت في بالي فكرة جديدة فتوقفت في مكاني... انزرعت أقدامي في الأرض. لابد أنني وصلت إلى مكان آمن. لكنني بقيت ممسكة أنفاسي... تحسباً!

اندفع إدوارد فتجاوزني. لقد أدهشه وقوفي المفاجئ. ثم عاد فصار بجانبي في ثانية واحدة. وضع يديه على كتفي فحدقت في عينيه... مازال تعبير الصدمة يكسو وجهه.

سألني: «كيف استطعت فعل ذلك؟»

«أنت سمحت لي بأن أسبقك، أليس كذلك؟»... هكذا سألته متجاهلة سؤاله. ظننت أنني فعلت الشيء الصحيح.

عندما فتحت فمي صرت قادرة على تذوق طعم الهواء. صار نظيفاً الآن. ما عاد فيه أثر لتلك الرائحة الساحرة التي عذبت ظمأي. استنشقت الهواء بحذر.

رفع كتفيه وهز رأسه رافضاً أن يساعدني في تغيير دفة الحديث... «بيلا! كيف استطعت فعل ذلك؟»

«هل تقصد الهرب؟ لقد حبست أنفاسي».

«لكن، كيف استطعت التوقف عن الصيد؟»

«عندما أتيت من خلفي... آسفة بشأن ذلك».

«لماذا تعتذرين؟ أنا من كان قليل الانتباه إلى حد مخيف. اعتقدت أن أحداً لن يبتعد عن الطريق إلى هذا الحد. لكن كان من واجبي أن أتحقق أولاً. إنها خطيئة حمقاء! ليس عليك أن تعتذري بسببها».

«لكنني زمجرت عليك!»... مازال الرعب يملؤني لأنني استطعت جسدياً أن أصدر هذا الصوت الشنيع.

«نعم! لقد زمجرت. هذا طبيعي. لكن لا أستطيع أن أفهم كيف جريت مبتعدة عن الرائحة؟»

سألته: «وماذا كان في وسعي أن أفعل؟»... حيرني سلوكه... ماذا يريد أن أفعل؟... «لعله شخص أعرفه!»

فاجأني إدوارد!... انفجر فجأة في نوبة من الضحك بصوت مرتفع... ألقى رأسه إلى الخلف فراح صدى صوت ضحكته يتردد في الغابة.

«لماذا تضحك مني؟»

توقف عن الضحك فوراً. رأيت قلقه من جديد.

قلت لنفسي. . . «حافظي على ضبط النفس». . . عليّ أن أراقب مزاجي، وكأني مستذئبة صغيرة لا مصاصة دماء!

«لست أضحك منك يا بيلا! أضحك بسبب الصدمة. وقد صدمت لأنني دهشت تماماً».

«لماذا؟»

«لا يفترض أن تكوني قادرة على فعل هذا الشيء. لا يفترض أن تكوني. . . منطقية إلى هذه الدرجة! لا يفترض أن تكوني قادرة على الوقوف هنا ومناقشة الأمر معي بهذا البرود والهدوء. وأكثر من ذلك كله. . . لا يفترض أن تكوني قادرة على التوقف عن الصيد مع وجود رائحة الدم البشري في الهواء. إن مصاصي الدماء المجربين يجدون صعوبة في ذلك. ونحن نحرص دائماً على اختيار مكان صيدنا حيث لا نعرض أنفسنا لهذا الإغراء. بيلا!. . . أنت تتصرفين كما لو أن عمرك عشرات السنين لا عدة أيام».

«أوه!». . . لكنني أعرف مسبقاً أن الأمر سيكون صعباً. هذا سبب انتباهي. كنت أتوقع صعوبة الأمر.

وضع كفيه على وجهي من جديد. كان العجب ملء عينيه: «أبذل أي شيء لأستطيع رؤية ما في رأسك في هذه اللحظة وحدها».

يا لقوة هذه المشاعر! كنت مستعدة لمواجهة الظمأ. . . لا لمواجهة هذا. كنت أعرف أن الأمر لن يكون كما كان عندما يلمسني. وهو ليس كما كان. . . في الحقيقة.

إنه أشد قوة!

رفعت يدي لأتلمس سهول وجهه. . . تلكأت أصابعي عند شفتيه.

«ظننت أنني لن أشعر بهذه الطريقة قبل زمن طويل!». . . جعل تردد كلماتي تبدو سؤالاً. . . «لكني مازلت أريدك».

فتح عينيه بدهشة: «كيف يمكنك التفكير في هذا؟ ألست تشعرين بظمأ لا يحتمل؟»

نعم. . . طبعاً! أشعر بهذا الظمأ الآن بعد أن ذكرتني به. حاولت ابتلاع ريقي ثم تنهدت مغمضة عيني كما فعلت من قبل حتى أستطيع التركيز. جعلت حواسي تحيط بي. . . لكنني كنت مستعدة هذه المرة لاحتمال هجوم تلك الرائحة اللذيذة المحرّمة من جديد.

أسقط إدوارد يديه. كف عن التنفس في حين رحت أصغي أبعد فأبعد عبر هذه المتاهة من الحياة الخضراء. كنت أقلب الروائح والأصوات باحثة عن شيء لا يكون كريه الرائحة. لمحت أثر رائحة مختلفة. . . إنه أثر خفيف آت من جهة الشرق.

فتحت عيني. . . لكن تركيزي ظل منصباً على حاسة الشم. استدرت ثم اندفعت صامتة صوب الشرق. كانت الأرض تعلو رويداً رويداً. وكنت أجري متخذة وضعية الانقضاض للصيد. . . منخفضة صوب الأرض. . . مقتربة من الأشجار عندما يكون ذلك أكثر سهولة. أحسست بإدوارد يتبعني مندفعاً بهدوء بين الأشجار. . . سامحاً لي بالتقدم عليه.

صارت الخضرة أقل كثافة مع صعودنا إلى الأعلى، وازدادت شدة روائح الصمغ والراتنج. . . ومعها ازدادت شدة الرائحة التي أسعى خلفها. . . كانت رائحة دافئة أكثر حدة من رائحة الوعل. . . شهية أكثر منها. بعد ثوان قليلة سمعت صوت أقدام ضخمة. . . أخفض من وقع الحوافر. كان الصوت قادماً من الأعلى. . . من الأغصان لا من الأرض. اندفعت تلقائياً لأتسلق الأغصان أيضاً. . . لأحتل موقعاً استراتيجياً أكثر ارتفاعاً. مضيت حتى منتصف ارتفاع شجرة صنوبر فضي عملاقة.

تابع صوت تلك الأكف وقعه من تحتي. كانت الرائحة الغنية شديدة القرب الآن. حددت عيناي موضع الحركة الملازمة لهذا الصوت فرأيت أسداً جبلياً ضخماً بني اللون يتحرك بهدوء على غصن كبير من أغصان شجرة سرو

جبلي. . . تحتي. . . إلى اليسار قليلاً. كان كبير الحجم. . . أربعة أضعاف حجمي. كانت عيناه مركزتين على الأرض في الأسفل. كان ذلك القط يصطاد أيضاً. شممت رائحة شيء صغير. . . لا تقارن رائحته برائحة طريدتي. كان ذلك الشيء يتجمع متوتراً في دغل صغير تحت الشجرة. راح ذيل الأسد يهتز متوتراً. . . مستعداً للقفز.

بقفزة خفيفة. . . طرت في الهواء ثم حططت على غصن الأسد. أحس الأسد باهتزاز الغصن فاستدار مزمجراً. . . دهشاً. . . مستعداً للدفاع عن نفسه. مزقت مخالبه المسافة بيننا. . . كانت عيناه تشتعلان غضباً. أفقدني الظمأ عقلي فتجاهلت المخالب العارية والأنياب المكشرة وألقيت بنفسي عليه فسقطنا معاً إلى أرض الغابة.

ما كان هذا قتالاً! كانت مخالبه مثل أصابع تداعب جلدي. لم تفلح أنيابه في اختراق كتفي أو رقبتي. . . كانت مقاومته الغريزية ضعيفة إلى حد غريب بالمقارنة مع قوتي. أطبقت فكي بسهولة على تلك النقطة تحديداً. . . حيث تركزت حرارة الدم.

كان ذلك سهلاً. . . كأني أعض على قطعة من الزبدة. كانت أسناني نصالاً فولاذية اخترقت الفراء والشحم والأوتار كما لو أنها لم تكن تخترق شيئاً.

ما كانت النكهة لذيذة. . . لكن الدم كان حاراً رطباً فهدأ الظمأ الواخز الحارق. . . رحت أشربه بلهفة. تضاءلت مقاومة الأسد وغدت أكثر ضعفاً. اختنق صراخه فصار غرغرة ضعيفة. انتشر دفء الدم مشعاً في جسدي كله. . . أحسست بالدفء حتى أطراف أصابعي.

انتهى الأسد. . . لكن الظمأ لم ينته. عاد كما كان عندما نفد دم الأسد. فألقيت بجثته المقرفة بعيداً عن جسمي. كيف يمكن أن أظل ظمأى بعد هذا كله؟

نهضت واقفة بحركة سريعة. وعندما وقفت أدركت ما فعلت بنفسي

مسحت وجهي بظاهر ذراعي وحاولت إصلاح وضع ثوبي. لقد كانت المخالب التي لم تستطع اختراق جلدي أكثر نجاحاً مع ثوبي الحريري.

قال إدوارد: «همم!». . . رفعت رأسي فرأيته مستنداً إلى جذع شجرة ينظر إلي وعلى وجهه لمحة تفكير.

«أظن أنني كنت أستطيع فعل ذلك بشكل أفضل». . . كان التراب يغطي جسمي. . . كان شعري مشعثاً متشابكاً. . . وكان ثوبي مبقعاً بالدم. . . ممزقاً! ما كان إدوارد يعود من رحلات الصيد على هذه الصورة.

قال يطمئنني: «كان أداؤك جيداً فعلاً. كل ما في الأمر هو أنني. . . كان الاكتفاء بالمراقبة أصعب مما يجب أن يكون».

رفعت حاجبي. . . حائرة.

قال موضحاً: «هذا عكس طبيعتي. . . أن أتركك تصارعين الأسود. لقد استبد بي القلق طيلة الوقت».

«هذا سخف!»

«أعرف! لكن العادات القديمة لا تموت بسهولة. رغم ذلك. . . يعجبني التحسن الذي أصاب ثوبك!»

لو كنت أستطيع التورد والاحمرار. . . لفعلت. غيرت الموضوع بسرعة: «لماذا لم يذهب الظمأ؟»

«لأنك مازلت حديثة السن».

تنهدت: «ولا أظن أن في الجوار مزيداً من الأسود الجبلية».

«ثمة الكثير من الغزلان!»

قلت مكشرة: «لكن رائحتها ليست لذيذة مثل رائحة الأسد».

«لأنها عاشبة! إن رائحة آكلات اللحوم أقرب إلى رائحة الإنسان».

قلت معترضة: «ليست شديدة القرب من رائحة الإنسان». . . حاولت أن لا أتذكر تلك الرائحة.

قال بوقار: «يمكننا أن نعود الآن». لكني رأيت في عينيه التماعاً لعوباً. . .

«لا أعرف من كان هناك. لكن، لو كانوا رجالاً، فالأرجح أنهم ما كانوا يمانعون في الموت إذا جاء عن طريقك». . . راحت نظراته تقلب ثوبي الممزق من جديد. . . «بل لعلهم يظنون أنهم ماتوا وذهبوا إلى الجنة. . . فور رؤيتك».

نظرت إليه مستاءة وقلت بحدة: «فلنذهب لصيد بعض الحيوانات العاشبة المقرفة».

وجدنا قطيعاً كبيراً من الغزلان في طريق عودتنا إلى البيت. اصطاد إدوارد معي هذه المرة. . . بعد أن أدركت كيف يتم الأمر. أوقعت بغزال كبير. . . لكنني أحدثت قدراً من الفوضى يعادل ما أحدثته عندما اصطدت الأسد. كان إدوارد قد أجهز على غزالين قبل أن أنتهي من الأول. . . لكن، من غير أن تضطرب شعرة في رأسه ومن غير ظهور أي بقعة على قميصه الأبيض. رحنا نطارد الغزلان المذعورة المبعثرة. لكنني. . . بدلاً من متابعة طعامي. . . رحت هذه المرة أراقب بانتباه لأرى كيف يستطيع إدوارد أن يصطاد بهذه الأناقة.

في الماضي. . . كلما ذهب إدوارد إلى الصيد وتمنيت أن يأخذني معه بدلاً من بقائي. . . كنت أشعر في سري بشيء من الراحة. كنت واثقة من أن رؤية هذا المشهد ستصيبني بالذعر. . . بالرعب. كنت أخاف، إن رأيته يصطاد، أن يبدو في نظري مصاص دماء فعلاً.

من الطبيعي أن الوضع صار مختلفاً الآن. . . بعد أن صرت مصاصة دماء مثله. لكني أظن أن عيني البشريتين كانتا قادرتين أيضاً على رؤية الجمال هنا.

كانت مراقبة إدوارد وهو يصطاد تجربة حسية إلى حد مفاجئ. كانت وثبته الرشيقة مثل لدغة أفعى مخاتلة. كانت يداه واثقتين كل الثقة. . . قويتين كل القوة. . . لا يمكن الإفلات منهما أبداً. كانت شفتاه الممتلئتان جميلتين رائعتين عندما تنفرجان عن أسنانه اللامعة. كان رائعاً كله. أحسست بدفق مفاجئ من الاعتزاز. . . والرغبة. إنه لي! لن يستطيع شيء أبداً أن يفرقنا بعد الآن. كنت أقوى من أن يستطيع شيء إبعادي عن إدوارد.

كان شديد السرعة. استدار إليّ محدقاً في تعبير وجهي المبتهج. . . مستغرباً.

سألني: «هل زال الظمأ؟»

رفعت كتفي: «لقد ألهيتني عن الصيد. أنت أفضل مني بكثير في هذا الأمر».

ابتسم إدوارد: «هذا حصيلة قرون من الخبرة». . . كان في عينيه بريق لعبي مذهل في هذه اللحظة.

قلت مصححة: «بل خبرة قرن واحد».

قال ضاحكاً: «هل اكتفيت اليوم؟ أم تريدين مواصلة الصيد».

«أظن أنني اكتفيت». . . كنت أشعر بامتلاء تام. لا أعرف مقدار ما يمكن أن يستوعبه جسمي بعد هذا. لكن الإحساس بالاحتراق لم يبارح حلقي. . . لقد خف فحسب. ثم إنني أعرف أن الظمأ جزء من هذه الحياة لا يمكن الهروب منه.

أحسست أنني مسيطرة على نفسي تمام السيطرة. لعل هذا الإحساس بالأمان كان كاذباً؛ لكنني كنت مرتاحة لأنني لم أقتل أحداً اليوم. إذا كنت قادرة على مقاومة روائح أشخاص غرباء تماماً، أفلن أستطيع التعامل مع الذئب والطفلة نصف مصاصة الدماء اللذين أحبهما؟

قلت: «أريد رؤية رينيمي». . . بعد أن استطعت ترويض ظمئي (من غير إزالته) صار من الصعب علي أن أنسى مخاوفي الأسبق عهداً. أردت أن أوفق بين الغريبة التي هي ابنتي وبين المخلوق الذي أحببته قبل ثلاثة أيام. كان من الغريب جداً. . . من الخاطئ جداً. . . إنها ليست في بطني حتى الآن. فجأة. . . أحسست بالفراغ. . . بالانزعاج.

مد إدوارد يده لي فأمسكت بها. أحسست بجلده أكثر دفئاً من ذي قبل. كان في خديه احمرار خفيف لا يكاد يُرى. أما الظلال تحت عينيه فقد اختفت تماماً.

ما كنت قادرة على مقاومة الرغبة في مداعبة وجهه من جديد... ثم من جديد.

عندما حدقت في عينيه الذهبيتين المتلألئتين نسيت أنني كنت أنتظر إجابته على طلبي.

كان الابتعاد عنهما في مثل صعوبة الابتعاد عن رائحة الدم البشري. لكني... لا أدري كيف... حافظت على انتباهي عندما وقفت على رؤوس أصابعي ولففت ذراعي من حوله... بلطف.

ما كان إدوارد شديد الحذر في حركته. طوقت ذراعاه خصري وجذبني إلى جسمه بقوة. أطبقت شفتاه على شفتي... لكنهما كانتا طريتين. ما عادت شفتاي مضطرتين إلى اتخاذ شكل شفتيه... إنهما قادرتين على المحافظة على شكلهما الآن.

وكما كان الأمر من قبل... أحسست أن ملمس جلده... شفتيه... يديه... يغوص عميقاً عبر جلدي... عبر جلدي الصلب... فيبلغ عظامي الجديدة... يصل إلى قلب جسدي. لم أكن أتخيل أنني أستطيع أن أحبه أكثر من ذي قبل.

لعل هذا هو الجزء الذي جلبته معي... الذي تعزز في حياتي الجديدة. تماماً مثل تعاطف كارلايل وإخلاص إيزمي! قد لا أستطيع أن أفعل شيئاً خاصاً مثيراً كما يفعل إدوارد أو أليس أو جاسبر. لكن لعلي أحب إدوارد أكثر مما أحبَّ أي شخص في تاريخ العالم كله شخصاً آخر!

حسبي هذا!

كنت أتذكر بعضاً من هذا... أصابع يدي تتخلل شعره... تجوس صدره المنبسط. لكن ثمة أشياء جديدة تماماً. لقد كان شخصاً جديداً. لقد كانت تجربة جديدة تماماً... أن يقبلني إدوارد بهذا الاندفاع وهذه القوة... دون خوف. استجبت لتلك القوة... وفجأة سقطنا إلى الأرض.

قلت: «أوه!»... فضحك إدوارد من تحتي: «لم أكن أقصد إسقاطك بهذا الشكل. هل أنت بخير؟»

داعب إدوارد وجهي بأصابعه: «بل أكثر من خير». عبّر وجهه تعبير حيرة وتردد ثم سألني متردداً: «رينيمي؟»... كان يريد التثبت مما أريده أكثر من أي شيء آخر في هذه اللحظة. ما أصعب الإجابة على هذا السؤال! كنت أريد أشياء كثيرة في الوقت نفسه.

كنت أرى أنه لن يعارض تأجيل عودتنا إلى المنزل. وما كنت أستطيع كثيراً أن أفكر في شيء غير جلده الذي يلاصق جلدي... لم يبق من ثوبي شيء كثير. لكن تذكر رينيمي... قبل مولدها وبعده... صار شيئاً مثل الحلم بالنسبة لي. شيئاً غير واقعي. كانت ذكرياتي عنها بشرية كلها... وكانت تشوبها مسحة مصطنعة. لا شيء يبدو حقيقياً إذا لم أره بعينيّ هاتين... إذا لم ألمسه بيدي هاتين.

كانت حقيقة وجود تلك الغريبة الصغيرة شيئاً يتزلق من بين أصابعي دقيقة بعد دقيقة.

«رينيمي»... قلت هذا نادمة معتذرة... ونهضت واقفة على قدميّ ساحبة إدوارد معي.

22

وعد

تفكيري في رينيمي جعلها تحتل مركز اهتمام عقلي الغريب الجديد الرحب. . . سهل التشتت. أسئلة كثيرة!

«حدثني عنها». . . قلت هذا بإصرار عندما أمسك بيدي. ما كان هذا الاتصال يبطئ حركتنا إلا قليلاً.

قال لي: «ليس مثلها شيء في العالم كله». . . لمست ذلك الوله في صوته من جديد. . . يكاد يكون ولهاً إيمانياً.

أحسست بموجة من الحسد تجاه هذه الغريبة. إنه يعرفها أما أنا فلا أعرفها. . . هذا ليس عدلاً.

«إلى أي مدى تشبهك؟ إلى أي مدى تشبهني؟ أو تشبه ما كنت عليه!»

«يبدو أنها مقسومة نصفين متعادلين».

ذكرته: «كان دمها حاراً».

«نعم! قلبها ينبض. . . لكنه أسرع قليلاً من قلب الإنسان. وحرارتها أعلى قليلاً من المعتاد. وهي تنام أيضاً».

«حقا!»

ضحك وقال: «تنام كثيراً بالمقارنة مع المواليد الجدد. نحن الأهل الوحيدون الذين ليسوا في حاجة إلى النوم. . . لكن طفلتنا تنام طيلة الليل».

أحببت طريقة قوله «طفلتنا». جعلتها هذه الكلمة حقيقية. . . أكثر.

«إن لها لون عينيك نفسه. . . لم نخسر هذا اللون في النهاية!». . . ابتسم لي. . . «عيناها جميلتان جداً».

سألته: «ماذا فيها من مصاصي الدماء؟»

«يبدو جلدها قوياً لا يخترق مثل جلودنا. لكن أحداً لن يجرؤ على اختبار ذلك».

شعرت بشيء من الصدمة. ورفت عيناي.

قال من جديد: «لن يحاول ذلك أحد طبعاً. أما طعامها. . . إنها تفضل أن تشرب الدم. يواصل كارلايل محاولة إقناعها بأن تشرب شيئاً من حليب الأطفال أيضاً، لكنها قليلة الصبر عليه. لا أستطيع أن ألومها! ما أسوأ رائحة هذا الحليب. . . حتى بالمقارنة مع طعام البشر!»

فتحت فمي في دهشة. كان يتحدث كما لو أن حواراً يجري بينهم: «يقنعها!»

«إنها ذكية. . . ذكية إلى حد مفاجئ. وهي تنمو بسرعة هائلة. صحيح أنها لا تتكلم. . . حتى الآن. . . لكنها تتواصل معنا بشكل جيد».

«لا تتكلم حتى الآن!»

جعل إدوارد سرعة سيرنا تنخفض قليلاً. . . حتى يسمح لي باستيعاب الفكرة.

سألته: «ماذا تقصد بقولك إنها تتواصل جيداً؟»

«أظن أن من الأسهل بالنسبة لك أن. . . تري بنفسك. يصعب وصف ذلك!»

فكرت في كلامه. كنت أعرف أنني في حاجة إلى الرؤية بنفسي قبل أن يصبح الأمر حقيقياً. لكني ما كنت واثقة من مدى استعدادي لذلك فغيرت موضوع الحديث.

سألته: «ما سبب بقاء جايكوب هنا؟ كيف يستطيع تحمل البقاء؟ ولماذا يكون عليه أن يتحمل ذلك؟». . . ارتجف صوتي الرنان قليلاً. . . «لماذا يكون عليه أن يعاني أكثر؟»

قال إدوارد بنبرة غريبة جديدة: «إنه لا يعاني!»... ثم أضاف عبر أسنانه المطبقة: «لكني راغب في جعله يعاني فعلاً».

شددته حتى يتوقف (شعرت بنشوة صغيرة لأنني كنت قادرة على إيقافه) وهمست: «إدوارد! كيف تستطيع قول هذا؟ لقد ضحى جايكوب بكل شيء حتى يحمينا. هل تتخيل ما سببته له...!»... كشرت لتلك الذكرى... كنت خجلة... كنت أشعر بالذنب. أستغرب الآن كيف كنت في حاجة إليه بهذا القدر. لقد اختفى الآن إحساسي بالفقد عند غيابه عني... لابد أنه كان ضعفاً بشرياً.

تمتم إدوارد: «سوف ترين بنفسك السبب الذي يجعلني قادراً على قول هذا. لقد وعدته بأن أدعه يشرح لك بنفسه، لكني أشك في أنك سترين الأمر بطريقة مختلفة عني. لكن... طبعاً كثيراً ما أكون مخطئاً بشأن أفكارك». شد على شفتيه ونظر إلي.

«يشرح لي ماذا؟»

هز إدوارد رأسه: «لقد وعدته رغم أني لا أعرف إن كنت مديناً له بأي شيء بعد الآن...» شد إدوارد على أسنانه.

ملأ الاستياء والاستنكار ذهني: «إدوارد! أنا لا أفهم».

داعب إدوارد وجنتي ثم ابتسم بلطف عندما استجاب وجهي للمداعبة فرقّ تحت أصابعه. سرعان ما تغلبت الرغبة على الانزعاج... «الأمر أصعب مما تجعلينه يبدو... أعرف هذا... أتذكر هذا».

«لا أحب الإحساس بالحيرة».

«أعرف! لذلك... دعينا نعود إلى البيت حتى ترين بنفسك»... نظرت عيناه إلى بقايا ثوبي عندما ذكر العودة إلى البيت... ثم رأيته يعبس ويقول «همم!»... وبعد نصف ثانية من التفكير فك أزرار قميصه الأبيض وحمله حتى أدخل ذراعي في كميه.

«هل الوضع سيئ إلى هذه الدرجة؟»

ابتسم إدوارد.

دسست ذراعي في كمي القميص ثم زررته فوق ثوبي الممزق. ظل إدوارد بدون قميص... كان من المستحيل ألا يشتت هذا الأمر انتباهي من جديد.

قلت: «سوف أسابقك». ثم حذرته: «لا تتعمد مراعاتي هذه المرة».

ترك يدي وابتسم: «أنا في انتظار الإشارة»...

كان عثوري على طريق العودة إلى المنزل أسهل حتى من العودة في شارع تشارلي... إلى بيتي القديم. لقد تركت رائحتنا آثاراً واضحة يسهل اقتفاؤها حتى عندما كنت أجري بأقصى سرعتي.

ظل إدوارد متقدماً عليّ حتى وصلنا إلى النهر. انتهزت الفرصة وقفزت في وقت مبكر محاولة استخدام قوتي الإضافية من أجل الفوز.

صحت منتصرة عندما سمعت قدمي تلمسان الأرض قبل قدميه.

عندما كنت أستمع إلى صوت هبوطه إلى الأرض... سمعت شيئاً لم أتوقعه. صوتاً مرتفعاً... شديد القرب مني. إنه صوت قلب نابض.

صار إدوارد بجانبي في الثانية نفسها... أمسك كتفي بقبضتين قويتين.

حذرني ملحاً: «لا تتنفسي!»

حاولت ألا أشعر بالرعب وقطعت تنفسي. ما كان شيء من جسمي يتحرك غير عيني... راحتا تبحثان غريزياً لتجدا مصدر ذلك الصوت.

رأيت جايكوب واقفاً عند الخط الفاصل بين الغابة ومرج أسرة كولن. كانت ذراعاه معقودتين فوق صدره وكان فكاه مطبقين بإحكام. ومن خلفه... سمعت صوت قلبين كبيرين غير مرئيين في الغابة من خلف جايكوب... وسمعت صوت هرس الطحالب تحت أكفٍ متحركة ضخمة.

قال إدوارد: «حذار يا جايكوب!»... جاء من الغابة صوت زمجرة ردد صدى القلق في صوت إدوارد... «لعلها ليست الطريقة المثلى...»

قاطعه جايكوب: «هل تعتقد أن من الأفضل تركها تقترب من الطفلة أولاً؟ من الأكثر أمناً أن نرى كيف تتصرف بيلا معي... فأنا أشفى سريعاً!»

هذا اختبار إذن! اختبار ليروا إن كنت أستطيع الامتناع عن عدم قتل جايكوب قبل اختباري مع رينيمي! أحسست بالغثيان بطريقة غريبة جداً... ما كان لهذا الغثيان علاقة بمعدتي... إنه عقلي فقط! هل هي فكرة إدوارد؟

التفتّ إلى وجهه قلقة. بدا كأنه يفكر لحظة... ثم تحول تعبير وجهه من القلق إلى شيء آخر. رفع كتفيه، ولمست ضغينة خفية في صوته عندما قال: «إنه عنقك أنت... كما أظن!»

صارت الزمجرة الصادرة من الغابة عنيفة الآن. إنها ليا... لست أشك في هذا أبداً.

ماذا به إدوارد؟ بعد كل ما مررنا به... أليس عليه أن يتمكن من الإحساس ببعض المشاعر اللطيفة تجاه صديقي المفضل؟ لقد ظننت... يا لحماقتي... أن إدوارد صار صديقاً لجايكوب الآن... أيضاً! لابد أنني أسأت الفهم.

لكن، ما الذي يفعله جايكوب؟ لماذا يقدم نفسه في هذا الاختبار حتى يحمي رينيمي؟

لم أفهم شيئاً من هذا. حتى لو تمكنت صداقتنا من الاستمرار...

ما إن قابلت عيناي عيني جايكوب الآن حتى رأيت أن صداقتنا مستمرة. مازال يبدو مثل صديقي المفضل. لكنه ليس الشخص الذي تغير. فكيف أبدو في نظره الآن؟

عند ذلك ابتسم جايكوب ابتسامته المعهودة... ابتسامة الروح الشقيقة... فأيقنت أن صداقتنا باقية كما هي. كان الأمر مثل الماضي تماماً عندما كنا نتفق الوقت في مرآبه الذي صنعه بنفسه... كنا صديقين يزجيان بعض الوقت. كان هذا يسيراً... طبيعياً. لكنني لاحظت من جديد أن تلك الحاجة الغريبة التي كنت أحسها نحوه قبل أن أتحول قد اختفت كلها الآن. لقد كان صديقي فحسب... مثلما يجب أن يكون.

لكنني مازلت لا أفهم ما يفعله الآن. هل هو غيريّ إلى حد يجعله يحاول حمايتي... بحياته... من فعل شيء يمكن أن أقدم عليه إذا فقدت سيطرتي

على نفسي جزءاً من الثانية... شيء أندم عليه فأعاني بسببه إلى الأبد؟ هذا يتجاوز كثيراً تقبّل ما أصبحت عليه... ويتجاوز كثيراً أعجوبة تمكنه من البقاء صديقاً لي. كان جايكوب أحد أفضل الأشخاص الذين أعرفهم... لكن هذا بدا أكثر بكثير مما أستطيع قبوله من أي شخص.

اتسعت ابتسامة جايكوب ورفع كتفيه قليلاً ثم قال: «لابد أن أقول هذا يا بيلا... شكلك عجيب!»

ابتسمت له... عدت بسهولة إلى نمط علاقتنا القديمة. كنت أفهم هذا الجانب في شخصية جايكوب.

قال إدوارد حانقاً: «انتبه لنفسك أيها الكلب الهجين!»

هبت الريح من خلفي فانتهزت الفرصة لأملأ رئتيّ بهواء من غير رائحة حتى أستطيع مواصلة الكلام: «لا! إنه محق. إن عينيّ عجيبتان حقاً... أليس كذلك؟»

«مخيفتان كثيراً! لكن الأمر ليس بالسوء الذي كنت أتوقعه».

«أوه! شكراً على هذه المجاملة المدهشة».

«أنت تعرفين قصدي. مازلت تبدين كما أنت... بعض الشيء! ربما نظرتك لم تعد مثل... نظرة بيلا. ما كنت أظن أني سأشعر بأنك مازلت موجودة هنا». ابتسم لي من جديد من غير أثر للمرارة أو الكراهية في أي زاوية من زوايا وجهه. ثم ضحك وقال: «على أي حال... أظنني سأعتاد رؤية هاتين العينين قريباً».

سألته بحيرة: «هل ستعتاد؟»... عجيب أننا مازلنا أصدقاء! لكن، لا أظن أننا سنمضي أوقاتاً طويلة معاً.

عبرت وجهه لمحة شديدة الغرابة مسحت ابتسامته مسحاً. كانت لمحة... إحساساً بالذنب... تقريباً! ثم تحولت عيناه إلى إدوارد وقال: «شكراً! لم أكن واثقاً من أنك تستطيع كتم الأمر عنها... رغم وعدك. فأنت تعطيها عادة كل ما تريد».

قال إدوارد: «لعل عندي أمل في أن تنزعج وتغضب منك فتنتزع رأسك عن جسدك».

نخر جايكوب غير مبال.

سألتهما... غير مصدقة: «ما الذي يجري؟ هل تكتمان عني أسراراً؟»

قال إدوارد: «سوف أشرح لك في وقت لاحق»... لكنه بدا غير عازم على ذلك حقاً. عند ذلك غيّر الموضوع وقال: «دعونا أولاً ننهي هذا الاستعراض»... صارت ابتسامته متحدية الآن وراح يتقدم صوبي وئيداً.

سمعت أنين احتجاج من خلفه ثم انزلق جسد ليا الرمادي خارجاً من بين الأشجار. وكان ذنب طويل رملي اللون يسير خلفها تماماً... إنه سيث.

قال جايكوب: «الزما الهدوء... لا علاقة لكما بهذا».

كنت سعيدة لأنهما لم يصغيا إليه بل تبعاه... ببطء أكبر من ذي قبل.

الريح ساكنة الآن... لن تبعد رائحته عني!

اقترب كثيراً... إلى حد صرت معه قادرة على الشعور بحرارة جسده تشع عبر الهواء الذي بيننا. استجاب الحريق في حلقي لهذه الرائحة.

«هيا يا بيلا! افعلي أسوأ ما تقدرين عليه».

فحت ليا من خلفه.

ما كنت أريد التنفس. ليس من الصواب أن أغامر هذه المغامرة الخطرة مع جايكوب حتى وإن كان هو من يعرضها عليّ. لكني لم أستطع أيضاً أن أهرب من المنطق. فكيف... بغير هذه الطريقة... أضمن أنني لن أؤذي رينيمي؟

حرّضني جايكوب: «لن أنتظر هنا حتى أتقدم في السن. لا أقصد هذا حرفياً. لكنك فهمت الفكرة... هيا... استنشقي الهواء».

قلت لإدوارد: «أمسك بي». وارتددت إلى الخلف مندسة في صدره.

اشتدت قبضتاه على كتفي.

جمدت عضلاتي كلها آملة أن أستطيع المحافظة على تجميدها. قررت أخيراً أنني أستطيع السيطرة على نفسي كما فعلت أثناء الصيد. أما في أسوأ

الأحوال فسوف أتوقف عن التنفس وأولي الأدبار هاربة. أخيراً... استنشقت نفساً صغيراً عبر أنفي... كنت مستعدة لكل شيء.

أزعجتني الرائحة قليلاً... لكن حنجرتي كانت تحترق ببطء... من غير ذلك، ما كانت رائحة جايكوب أقرب من رائحة الأسد الجبلي إلى رائحة الإنسان. كان في دمه جانب حيواني عبر عن نفسه فوراً. ومع أن صوت قلبه الخافق المرتفع كان مغرياً فقد جعلتني الرائحة المرافقة له أغضن أنفي. لقد ساعدت هذه الرائحة على تقليل ردة فعلي على صوت دمه النابض وحرارته.

استنشقت نفساً آخر ثم استرخيت: «آه! أفهم الآن ما كان يجري... رائحتك بشعة يا جايكوب».

انفجر إدوارد ضاحكاً. انزلقت يداه عن كتفي... ولف ذراعيه حول خصري. عوى سيث بضحكة منخفضة رافقت ضحكة إدوارد وتقدم قليلاً... أما ليا فتراجعت عدة خطوات. عند ذلك أدركت وجود أشخاص آخرين عندما سمعت قهقهة إيميت الخفيضة المميزة وقد خففها قليلاً الجدار الزجاجي الفاصل بيننا.

قال جايكوب: «انظروا من الذي يتكلم عن الرائحة!»... ثم سد منخريه بأصابعه بحركة مسرحية. لم يظهر أي انزعاج على وجهه عندما عانقني إدوارد... بل واصل ابتسامه حتى عندما همس إدوارد في أذني «أحبك!» جعلني هذا آمل أن تكون الأمور بخير بيننا... بخير كما لم تكن منذ وقت بعيد. قد أستطيع الآن أن أكون صديقته حقاً! وبما أنني صرت مقرفة بالنسبة له من الناحية الجسدية، فلن يستطيع أن يحبني كما كان يحبني من قبل. لعل هذا كل ما يلزمنا.

قلت: «طيب! هل نجحت في الاختبار؟ هل تخبراني الآن بهذا السر الكبير؟»

صار تعبير وجه جايكوب شديد التوتر: «لا حاجة بك إلى الاهتمام بهذا الأمر الآن... في هذه الثانية».

سمعت إيميت يضحك من جديد... كان في ضحكته شيء من الترقب.

ربما كنت سأواصل الإلحاح، لكني... عندما أصغيت إلى ضحكة إيميت، سمعت أصواتاً أخرى... أيضاً. سمعت سبعة أشخاص يتنفسون. كانت رئتا أحدهم تعملان بأسرع من رئات الآخرين. وسمعت نبض قلب واحد يخفق مثل جناحي عصفور... خفقات خفيفة سريعة!

تشتت انتباهي تماماً. إن ابنتي على الجانب الآخر من هذا الجدار الزجاجي الرقيق. ما كنت أستطيع رؤيتها لأن الضوء كان ينعكس عن النوافذ العاكسة مثل المرآة. ما كنت أستطيع إلا رؤية نفسي... رؤية شكلي شديد الغرابة... كنت شديدة البياض... شديدة السكون... بالمقارنة مع جايكوب. بل ربما بالمقارنة مع إدوارد أيضاً. كان شكله... صحيحاً!

همست: «رينيمي!» جعلني التوتر تمثالاً من جديد. لن تكون رائحة رينيمي مثل رائحة الحيوانات. هل يمكن أن أعرّضها للخطر؟

تمتم إدوارد: «تعالي لتري بنفسك. أعرف أنك تستطيعين ذلك».

همست عبر شفتي الساكنتين: «هل تساعدني؟»

«سوف أساعدك طبعاً».

«وكذلك إيميت وجاسبر... من باب التحسب!»

«سوف نهتم بك يا بيلا. لا تقلقي! نحن مستعدون. لن يغامر أحد منا بسلامة رينيمي. أظن أنك ستدهشين عندما ترين كيف تلفنا جميعاً حول إصبعها الصغير. سوف تكون في أمان تام... مهما حدث».

كسر جمودي ذلك الحنين لأن أراها. لأن أفهم تلك العبادة في صوت إدوارد. تقدمت خطوة إلى الأمام.

وقف جايكوب في طريقي... كان القلق يجلل تعابير وجهه.

قال لإدوارد بصوت... شبه متوسل: «هل أنت واثق من هذا يا مصاص الدماء؟»... لم أسمعه سابقاً يتحدث مع إدوارد بهذه الطريقة... «لا يعجبني هذا. لعل عليها أن تنتظر قليلاً...»

«لقد أجريت اختبارك يا جايكوب!»

إنه اختبار جايكوب إذن!

بدأ جايكوب يقول: «لكن...»

قال إدوارد وقد استثير فجأة: «لكن... لا شيء! إن بيلا في حاجة إلى رؤية ابنتنا. ابتعد عن الطريق».

ورشقني جايكوب بنظرة غريبة مجنونة ثم استدار واندفع إلى المنزل ليسبقنا.

زمجر إدوارد.

لم أستطع فهم هذه المواجهة بينهما، ولم أستطع التركيز عليها أيضاً. كنت أفكر فقط في صورة طفلتي الضبابية في ذاكرتي... كنت أقاوم تلك الضبابية وأحاول أن أتذكر وجهها بدقة.

قال إدوارد بصوت عادت إليه عذوبته: «هل نذهب؟»

أومأت برأسي متوترة.

أمسكت يده يدي بإحكام وتقدمني في اتجاه المنزل.

كانوا ينتظرونني جميعاً... صف من الوجوه المبتسمة... صف ترحيبي... ودفاعي! كانت روزالي تقف خلفهم بعدة خطوات. كانت عند الباب الأمامي تقريباً. وكانت تقف وحدها إلى أن انضم جايكوب إليها ثم وقف أمامها... كان قريباً منها أكثر من الحد الطبيعي. وما كان في هذا الوضع أي أثر للراحة... كلاهما بدا منزعجاً من هذا القرب.

كان جسد صغير جداً ينحني إلى الأمام بين يدي روزالي... يحاول النظر من حول جايكوب. وسرعان ما استقطبت انتباهي كله... أفكاري كلها... بطريقة لم أعرفها أبداً منذ اللحظة التي أبصرت فيها عيناي النور.

همست غير مصدقة: «لم يمض عليها غير يومين!»

أما الطفلة الغريبة بين يدي روزالي فلابد أن عمرها عدة أسابيع... أو عدة أشهر. لعل حجمها كان ضعفي حجم الطفلة التي أحتفظ بصورتها في

ذاكرتي الغائمة، بل كانت ترفع جذعها بسهولة وهي تحاول النظر إليّ. كان شعرها البرونزي اللامع متهدلاً... متعرجاً حتى كتفيها. راحت عيناها البنيتان تنظران إلي باهتمام غير طفولي على الإطلاق. كانت تبدو كبيرة... واعية ذكية. رفعت إحدى يديها مشيرة في اتجاهي لحظة قصيرة... ثم لمست بها رقبة روزالي.

لو لم يكن وجهها مدهش الجمال والكمال لما صدقت أنها الطفلة نفسها... طفلتي!

لكني رأيت إدوارد في ملامحها... ورأيت نفسي في لون عينيها وخديها. كان لتشارلي أيضاً حضور في لفائف الشعر الكثيفة مع أن شعرها كان بلون شعر إدوارد. لابد أنها طفلتنا! هذا مستحيل... لكنه صحيح.

لم تجعلني رؤية هذا الكائن الصغير غير المتوقع أرى ابنتي حقيقية أكثر من قبل. لقد رأيتها أكثر روعة!

ربتت روزالي على اليد الممتدة على رقبتها ثم همست: «نعم! هذه هي».

ظلت عينا رينيمي معلقتين بعينيّ، ثم ابتسمت لي... تماماً كما ابتسمت بعد ثوان من ولادتها. لمعة خاطفة من أسنان بيضاء جميلة.

ترنحت في داخلي... وسرت خطوة مترددة إلى الأمام.

تحرك الجميع بسرعة فائقة!

وقف إيميت وجاسبر أمامي تماماً... كتفاً لكتف، كانت أيديهما مستعدة. أمسك بي إدوارد من الخلف وشد أصابعه بإحكام على أعلى ذراعيّ حتى كارلايل وإيزمي تحركا فأحاطا بإيميت وجاسبر من الناحيتين. أما روزالي فتراجعت حتى الباب مطوقة رينيمي بذراعيها. تحرك جايكوب أيضاً محتفظاً بوقفته الدفاعية أمامهم.

كانت أليس الوحيدة التي لم تغادر مكانها.

قالت توبخهم: «أوه! ثقوا بها قليلاً. ما كانت تريد أن تفعل شيئاً. لو كنتم مكانها لأردتم إلقاء نظرة عن قرب... مثلها».

كانت أليس محقة، كنت مسيطرة على نفسي تمام السيطرة، وكنت مستعدة لكل شيء... مستعدة لرائحة يمكن أن تكون مقاومتها مستحيلة مثل رائحة البشر في الغابة. لا مجال للمقارنة بين الإغرائين. كانت رائحة رينيمي مزيجاً لطيفاً متوازناً بين رائحة عطر رائع ورائحة طعام شهي. كان فيها قدر كاف من رائحة مصاصي الدماء الحلوة... قدر يكفي لأن لا يكون العنصر البشري مهيمناً على الرائحة.

أستطيع التعامل مع هذا. أنا واثقة من ذلك.

قلت لهم: «أنا بخير!»... دققت بيدي على يد إدوارد الممسكة بذراعي لكني سرعان ما ترددت وقلت: «ابق قريباً مني رغم ذلك... فمن يدري؟»

كانت عينا جاسبر مشدودتين... مركزتين. فهمت أنه يدرس مشاعري فحاولت أن أجعلها أكثر هدوءاً. أحسست بإدوارد يفلت ذراعيّ عندما قرأ تقدير جاسبر. لكن الثقة لم تظهر على جاسبر مع أنه يتابع مزاجي لحظة بلحظة.

عندما سمعت رينيمي صوتي راحت تكافح للتخلص من ذراعي روزالي... راحت تحاول مد جسمها صوبي. لا أدري كيف تمكن نفاد الصبر من الظهور في ملامحها.

«جاسبر... إيميت! اتركاها تمر. إنها مسيطرة على الوضع».

قال جاسبر: «المخاطرة يا إدوارد...»

«المخاطرة في حدودها الدنيا! اسمع يا جاسبر... عندما كنا في الصيد شمت بيلا رائحة بعض المتنزهين في الغابة... كانوا في مكان غير مناسب... في وقت غير مناسب...»

سمعت كارلايل يشهق دهشة، وسرعان ما صار وجه إيزمي مليئاً بالجزع... والعطف. اتسعت عينا جاسبر لكنه أومأ برأسه إيماءة خفيفة كما لو أن كلمات إدوارد تجيب على أسئلة في رأسه. أما فم جايكوب فعلته

تكشيرة قرف. رفع إيميت كتفيه. أما روزالي فلم يبد عليها كبير اهتمام لأنها كانت تحاول ضبط الطفلة التي بين ذراعيها.

لكن تعبير وجه أليس أخبرني أن الأمر لم ينطل عليها! ضاقت عيناها... تركزت فيهما كثافة حارقة انصبت على قميصي المستعار... قميص إدوارد. بدا عليها أن ما فعلته بثوبها يشغل بالها أكثر من أي شيء آخر.

قال كارلايل متعجلاً: «إدوارد! كيف تكون على هذا القدر من انعدام المسؤولية؟»

«أعرف يا كارلايل! أعرف! هذه حماقة واضحة من جانبي. كان علي أن أذهب للتحقق من خلو المنطقة قبل أن أطلقها على هواها».

غمغمت قائلة: «إدوارد!»... شعرت بالإحراج بسبب طريقة نظرهم إلي. كأنهم يحاولون النظر في عيني ليروا إن كان لونهما قد تغير قليلاً.

قال إدوارد مبتسماً: «إنه محق تماماً في توبيخي يا بيلا. لقد ارتكبت خطيئة كبرى. لا تغير في هذا شيئاً حقيقة أنك أقوى من أي شخص أعرفه».

اتسعت عينا أليس: «نكتة ناجحة يا إدوارد!»

«هذه ليست نكتة. أنا أوضح لجاسبر كيف أعرف أن بيلا تستطيع التعامل مع هذا الأمر. ليس ذنبي أنهم تسرعوا في استنتاجاتهم».

قال جاسبر لاهثاً: «انتظر لحظة! ألم تصطد بيلا البشر؟»

قال إدوارد: «لقد بدأت ذلك فعلاً...» من الواضح أنه مستمتع بهذه الرواية. أما أنا فشددت على أسناني... «كان تركيزها منصباً كله على الصيد».

قاطعه كارلايل: «ماذا حدث؟»... تألقت عيناه فجأة وبدأت ابتسامة حائرة تظهر على وجهه. ذكرني هذا بما رأيته من قبل عندما أراد أن يستمع مني إلى تفاصيل تجربة التحول. إنها نشوة المعرفة الجديدة!

مال إدوارد صوبه: «سمعتني أجري خلفها فكان رد فعلها دفاعياً. وبمجرد أن أفسدت مطاردتي تركيزها على الصيد... تخلت عنه تماماً. لم أر شيئاً

مثل هذا من قبل. لقد أدركت فوراً ما كان يجري ثم... حبست أنفاسها وجرت مبتعدة».

تمتم إيميت: «واو! حقاً!»

قلت بحدة... كنت أكثر إحراجاً من ذي قبل: «إنه لا يقول الحقيقة! لقد أغفل أنني زمجرت عليه».

سأله إيميت: «وهل نلت ضربة أو ضربتين؟»... كان تواقاً إلى سماع الإجابة.

«لا! بالطبع لا».

«حقاً! ألم تهاجميه؟»

قلت محتجة: «إيميت!»

أنّ إيميت قائلاً: «آه! يا للخسارة! لعلك الشخص الوحيد الذي يستطيع التغلب عليه لأنه غير قادر على الاستماع إلى أفكارك حتى يغشك... ثم إن لديك عذراً ممتازاً أيضاً»... تنهد... «أموت رغبة في رؤية كيفية تصرفه من غير هذه المزية».

حدقت فيه بنظرة جليدية: «لا يمكن أن أهاجمه».

جذبت تقطيبة جاسبر انتباهي... بدا أكثر قلقاً مما كان.

مسّ إدوارد كتفه بقبضته مساً خفيفاً... بحركة تشبه اللكمة: «هل تفهم قصدي الآن؟»

قال جاسبر: «هذا غير طبيعي».

قالت إيزمي تقرع إدوارد: «كان يمكن أن تهاجمك... إن عمرها ساعات فحسب». وضعت يديها على قلبها... «أوه! كان يجب أن نذهب معكما».

ما كنت شديدة الانتباه إلى كلامهم الآن بعد أن تجاوز الأمر نكتة إدوارد. كنت أحدق في الطفلة الرائعة عند الباب... وكانت تواصل النظر إلي. امتدت يدها الممتلئة صوبي كأنها تعرف تماماً من أكون. وبحركة عفوية... ارتفعت يدي تقلد يدها!

قلت: «إدوارد... أرجوك!»... قلت هذا وأنا أميل عن جاسبر الواقف أمامي... حتى أراها.

لكن جاسبر كان يشد على فكيه... لكنه لم يتحرك!

قالت أليس بهدوء: «جاسبر! هذا شيء لم تره من قبل... ثق بي!»

التقت نظراتهما ثانية واحدة فأومأ جاسبر برأسه. ابتعد عن طريقي لكنه وضع يده على كتفي وتحرك معي... رحت أسير متقدمة ببطء.

كنت أفكر في كل خطوة قبل أن أخطوها... أحلل مزاجي وأدرس الاحتراق في حنجرتي وأراقب مواضع الآخرين من حولي. ما أغرب شعوري بالنظر إلى أنهم مستعدون لاحتوائي بهذا الشكل. كان تقدمي بطيئاً.

عند ذلك... بعد أن كافحت الطفلة بين يدي روزالي طيلة هذا الوقت وصار تعبير وجهها أكثر انزعاجاً... أطلقت عويلاً مرتفعاً رناناً. كانت ردة فعل الجميع... مثل ردة فعلي... كما لو أنهم لم يسمعوا صوتها قبل هذه اللحظة.

تجمعوا من حولها في ثانية واحدة... تركوني واقفة وحدي... متجمدة في مكاني. كان صوت بكاء رينيمي يخترقني... يثبتني في مكاني مثل رمح. شعرت بالحرقة في عيني بطريقة غريبة... كما لو أنهما موشكتان على البكاء. بدا أن الجميع يضعون أيديهم عليها... يربتون عليها... يهدئون بكاءها. كلهم... إلا أنا!

«ماذا حدث؟ هل أصابها سوء؟ ماذا حدث؟»

كان هذا صوت جايكوب الذي ارتفع فوق أصوات الآخرين. فوجئت عندما رأيته يمد يديه إلى رينيمي. ثم أصابني الذعر عندما رأيت روزالي تسلمه إياها من غير قتال وتقول حتى تطمئنه: «لا! إنها بخير».

روزالي تطمئن جايكوب!

انتقلت رينيمي إلى جايكوب راضية تماماً. وضعت يدها الضئيلة على خده ثم انقلبت بين ذراعيه لتمد جسمها صوبي من جديد.

قالت له روزالي: «هل ترى؟ إنها تريد بيلا!»

همست: «تريدني!»

كانت عينا رينيمي... عيناي... تحدقان صوبي بصبر نافد.

عاد إدوارد إلى جانبي. وضع كفيه على ذراعيّ ودفعني إلى الأمام.

قال لي: «إنها تنتظرك منذ ثلاثة أيام تقريباً».

صرنا على بعد أقدام منها فقط. أحسست أن موجات من الحرارة تندفع منها فتلمسني.

أو لعله جايكوب... يرتجف! رأيت يديه ترتعشان مع اقترابي. لكن... رغم قلقه الواضح... كان وجهه أكثر هدوءاً من أي لحظة مضت... منذ فترة طويلة.

قلت له: «جايكوب!... الوضع على ما يرام»... خفت عندما رأيت رينيمي بين يديه المرتعشتين، لكنني كافحت حتى أحافظ على ضبط نفسي.

عبس إدوارد بعينين مشدودتين... كما لو كان... مثلما كنت... خائفاً من فكرة وجودها بين يدي.

تلوّت رينيمي بين يديه ومدت جسمها. كانت تشد قبضتي يديها الصغيرتين... مرة بعد مرة.

شيء في داخلي استقر في مكانه الصحيح عند تلك اللحظة. صوت بكائها... ألفة عينيها... نفاد صبرها الذي بدا أشد من نفاد صبري في انتظار هذا اللقاء... اجتمع هذا كله معاً بصورة طبيعية حين راحت تضرب الهواء بيننا. فجأة... صارت طفلتي حقيقية إلى أقصى حد. أنا أعرفها طبعاً! كان طبيعياً تماماً أن عليّ أن أقوم بهذه الخطوة الأخيرة لأصل إليها، أن أضع يديّ حيث يجب أن تكونا... وأشدها برفق صوبي.

مد جايكوب ذراعيه الطويلتين حتى أتمكن من احتضانها؛ لكنه لم يتركها. ارتعد قليلاً عندما تلامس جلدانا. كنت أحس جلده شديد الحرارة فيما مضى. أما الآن فقد بدا لي مثل لهيب النار. كان في مثل حرارة رينيمي تقريباً. ربما كان الفارق درجة واحدة أو درجتين.

«أما رينيمي فلم يظهر عليها أنها انتبهت لبرودة جلدي. لعلها صارت معتادة على هذا.

نظرت إلى وجهي وابتسمت من جديد. فظهرت أسنانها المربعة الصغيرة... وغمازتان في خديها. ثم، مدت يدها إلى وجهي بحركة متعمدة تماماً.

لحظة فعلت ذلك توترت جميع الأيدي التي تمسك بي... توترت تحسباً لردة فعلي، لكني لم أكد ألاحظها.

كنت ألهث... كنت مصدومة... خائفة من تلك الصورة المفزعة الغريبة التي ملأت ذهني. كانت ذكرى شديدة القوة... وكنت أراها في رأسي مع مواصلة الرؤية بعينيّ... لكنها كانت غير مألوفة إطلاقاً. حدقت عبرها في تعبير رينيمي المترقب، وحاولت فهم ما يحدث... كافحت يائسة حتى أحافظ على هدوئي.

كانت تلك الصورة صادمة... غير مألوفة، لكنها كانت خاطئة على نحو ما. تعرفت فيها على وجهي، لكنها كانت ماضياً... مستعاداً. سرعان ما أدركت أنني كنت أرى وجهي كما رآه الآخرون... لم أكن أتذكره بنفسي.

كان هذا الوجه يتلوى ألماً... كان محطماً مجللاً بالدم والعرق. رغم هذا... تحول تعبير وجهي في هذه الرؤيا إلى ابتسامة محبة. توهجت عيناي البنيتان من خلف الدائرتين العميقتين المحيطتين بهما. تضخمت الصورة... اقترب وجهي ثم اختفى فجأة.

سقطت يد رينيمي عن خدي. ابتسمت من جديد... ابتسامة أكثر اتساعاً... وظهرت غمازتاها.

ساد الغرفة صمت تام. ما عاد شيء مسموعاً إلا نبضات القلوب. ما كان أحد يتنفس إلا جايكوب ورينيمي. طال الصمت. كأنهم ينتظرون أن أقول شيئاً.

أفلحت أخيراً في نطق كلمات مختنقة: «ما... ما كان هذا؟»

سألت روزالي بفضول وهي تتحنى من خلف جايكوب الذي بدا كأنه يسد طريقها تماماً... بدا كأنه في غير مكانه هذه اللحظة: «ماذا رأيت؟ ماذا جعلتك ترين؟»

همست: «هل هي من جعلني أرى ذلك؟»

تمتم إدوارد في أذني: «قلت لك إن شرح الأمر صعب. لكن هذا وسيلة تواصل فعالة!»

سأل جايكوب: «ماذا رأيت؟»

رمشت بجفني عدة مرات: «هممم! رأيت نفسي كما أظن. لكن شكلي كان فظيعاً».

قال إدوارد موضحاً: «إنها الذكرى الوحيدة التي تحملها عنك». من الواضح أنه رأى بنفسه ما جعلتني أراه. مازال إدوارد منكمشاً على نفسه. مازال صوته جافاً بسبب تلك الذكرى التي أعيد إحياؤها... «إنها تجعلك الآن تدركين أنها حققت التواصل معك... إنها تعرف من أنت».

«لكن كيف تفعل هذا؟»

بدت رينيمي غير عابئة بعينيّ المذهولتين المترددتين. كانت تبتسم ابتسامة صغيرة وتشد خصلة من خصلات شعري.

«كيف أستطيع سماع الأفكار؟ وكيف ترى أليس المستقبل؟»... هكذا سألني إدوارد... متفاصحاً... ثم رفع كتفيه... «إن لديها هذه القدرة».

قال كارلايل لإدوارد: «إنه تطور مثير للاهتمام... كأنها تفعل عكس ما تستطيع فعله أنت».

وافقه إدوارد: «مثير للاهتمام!... أتساءل...»

عرفت أنهما ماضيان في التخمين... لكنني لم أبال.

كنت أنظر إلى أجمل وجه على الأرض. كانت حارة بين ذراعي... تذكرني باللحظة التي كادت الظلمة تكسب الجولة فيها... عندما لم يبق شيء في العالم أتمسك به. عندما لم يبق لدي قوة كافية تشدني عبر تلك الظلمة

«الساحقة. إنها اللحظة التي فكرت فيها برينيمي فوجدت شيئاً لن أفلته أبداً.

قلت لها بصوت هادئ: «أنا أتذكرك أيضاً».

بدا لي طبيعياً جداً أن انحني فأضع شفتي على جبينها. كانت رائحتها رائعة. جعلت رائحة جلدها لهيب حنجرتي يستعر. لكن تجاهله كان سهلاً يسيراً. ما كان يستطيع أن يسلبني فرحة هذه اللحظة. رينيمي حقيقية... وأنا أعرفها: إنها تلك التي كافحت من أجلها منذ البداية. إنها الجنين الذي كان في بطني... الذي كان يحميني من داخلي أيضاً. كانت نصفها إدوارد! جميلة... قريبة إلى القلب. وكانت نصفها أنا. عجيب أن هذا جعلها أفضل ولم ينقص منها شيئاً.

لقد كنت محقة طوال الوقت... إنها تستحق ذلك الكفاح.

تمتمت أليس... لعلها تخاطب جاسبر: «إنها على خير ما يرام». شعرت بترددهما... شعرت أنهما لا يثقان بي.

قال جايكوب: «ألا يكفي هذا القدر من التجربة اليوم؟»... جعل التوتر صوته مرتفعاً بعض الشيء... «لا بأس! بيلا تتصرف بشكل جيد... لكن دعونا لا نبالغ كثيراً.»

رميته بنظرة ملتهبة... لقد أزعجني! كان جاسبر يتقلقل بجانبي من دون راحة. وكنا متجمعين... متلاصقين... مما جعل كل حركة تبدو كبيرة جداً.

سألته: «ما مشكلتك يا جايكوب؟»... شددت رينيمي من بين يديه قليلاً فاقترب مني أكثر. صار ملتصقاً بي تماماً. وصار جسم رينيمي يلمس صدرينا معاً.

قال له إدوارد غاضباً: «صحيح أنني أفهم لكن هذا لا يعني أنني لن أقذف بك إلى الخارج يا جايكوب. بيلا تتصرف بشكل ممتاز. لا تفسد هذه اللحظة عليها».

وعدته روزالي بصوت يغلي غضباً: «سوف أساعده في قذفك إلى

الخارج... يا كلب. أنت مدين لي برفسة قوية في بطنك». من الواضح أن علاقتهما لم تتغير، بل لعلها صارت أسوأ من ذي قبل.

نظرت إلى تعبير جايكوب القلق نصف الغاضب. تعلقت عيناه بوجه رينيمي. كنا نقف متزاحمين كثيراً... لابد أن جسمه كان يلمس ستة مصاصي دماء على الأقل في تلك اللحظة. لكن الظاهر أن ذلك ما كان يزعجه أبداً.

هل يمكن حقاً أن يتحمل هذا كله من أجل حمايتي من نفسي؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث خلال تحولي... خلال تبدلي إلى شيء يكرهه... ما الشيء الذي جعلته ضرورته يتهاون إلى هذا الحد؟

فكرت في هذا محتارة وأنا أنظر إليه يحدق في ابنتي. كان يحدق فيها مثل... مثل أعمى فتح عينيه فرأى الشمس أول مرة!

صحت: «لا!»

انطبق فكا جاسبر وأحاطت ذراعا إدوارد بصدري مثل حاجز يمنعني من الحركة. سحب جايكوب رينيمي من بين ذراعي في اللحظة نفسها فلم أحاول الإمساك بها لأنني شعرت بقدوم تلك النوبة التي كانوا ينتظرونها جميعاً.

قلت عبر أسناني بصوت متمهل واضح كل الوضوح: «روز! خذي رينيمي».

مدت روزالي يديها فناولها جايكوب ابنتي من فوره. وتراجع الاثنان مبتعدين عني.

قلت: «إدوارد! لا أريد إيذاءك. اتركني أرجوك».

تردد إدوارد فاقترحت عليه: «اذهب وقف أمام رينيمي».

فكر لحظة ثم أفلتني.

اتخذت وضعية الهجوم وتقدمت خطوتين باتجاه جايكوب.

زمجرت قائلة: «أنت لم تفعل ذلك!»

تراجع جايكوب رافعاً يديه محاولاً مناقشتي بالمنطق: «تعرفين أن هذا ليس شيئاً أستطيع التحكم فيه».

«أيها الغبي الأحمق! كيف استطعت ذلك؟ طفلتي!»

تراجع جايكوب خارجاً من الباب الأمامي عندما اقتربت منه أكثر. خرج نصف راكض إلى الخلف... هابطاً الدرجات: «لم تكن فكرتي يا بيلا!»

«لقد حملتها في بطني ثم أتيت أنت لتظن أن لك حقاً فيها! إنها لي».

قال بصوت متوسل وهو يتراجع عبر المرج: «أستطيع المشاركة!»

قال إيميت من خلفي: «ادفع الثمن الآن»... تساءل جزء من عقلي إن كان يراهن على هذه النتيجة. لكني لم التفت إلى الأمر كثيراً... كان غضبي شديداً.

«كيف جرؤت على وسم طفلتي؟ هل فقدت عقلك؟»

قال جايكوب بإصرار: «حدث هذا تلقائياً!» وواصل تراجعه بين الأشجار.

عندها لم يعد جايكوب وحيداً. ظهر الذئبان الضخمان فأحاطا به من الجانبين. عوت ليا في اتجاهي.

انطلقت زمجرة مخيفة من حنجرتي رداً عليها. شوشني هذا الصوت، لكن ليس إلى درجة تجعلني أكف عن التقدم.

توسل جايكوب: «بيلا! هل تستطيعين محاولة سماعي ثانية واحدة؟ أرجوك!... تراجعي يا ليا».

كشرت ليا في اتجاهي لكنها لم تتحرك.

قلت بصوت كالفحيح: «ولماذا أستمع إليك؟»... عاد الغضب الشديد فسيطر على عقلي وغطى كل ما عداه.

«لأنك أنت من قال لي هذا. هل تذكرين؟ قلت لي إن كلاً منا ينتمي إلى حياة الآخر، صحيح! قلت إننا أسرة واحدة. قلت إن هذا ما يجب أن يكون عليه حالنا... أنا وأنت. هكذا نحن الآن. هذا ما أردتِه أنتِ».

حدقت فيه غاضبة. تذكرت هذه الكلمات بشكل غامض. لكن عقلي السريع الجديد كان متقدماً خطوتين على هذا الكلام الفارغ.

صحت: «وهل تظن أنك ستكون جزءاً من عائلتي بأن تصبح صهراً

لي؟»... كان صوتي حاداً جداً... لكنه بدا مثل صوت الموسيقى... رغم حدته.

ضحك إيميت.

تمتمت إيزمي: «أوقفها يا إدوارد. سوف تحزن إذا أصابته بأي أذى».

لكني لم أشعر بإدوارد يتقدم لإيقافي.

في اللحظة نفسها كان جايكوب يقول بإلحاح: «لا! كيف يمكن أن تنظري إلى الأمر بهذه الطريقة؟ إنها مجرد طفلة!»

صحت فيه: «هذا ما أقوله».

«تعرفين أنني لا أفكر فيها بتلك الطريقة! هل تظنين أن إدوارد يمكن أن يتركني حياً طيلة هذا الوقت إذا فكرت هكذا؟ لا أريد إلا أن تكون آمنة سعيدة... فهل هذا سيئ إلى تلك الدرجة؟ هل هو مختلف عما تريدينه أنت؟»... كان يصيح الآن في وجهي.

ما عدت قادرة على الكلام... أطلقت زمجرة صوبه.

سمعت إدوارد يتمتم: «مدهشة... أليست مدهشة؟»

وافقه كارلايل... كان يبدو مذهولاً: «لم تحاول الانقضاض على عنقه ولا مرة واحدة».

قال إيميت منزعجاً: «عظيم! لقد ربحت هذا الرهان».

قلت لجايكوب: «عليك أن تبقى بعيداً عنها».

«لا أستطيع».

قلت عبر أسناني المشدودة: «حاول! اعتباراً من هذه اللحظة».

«هذا مستحيل! هل تذكرين مقدار حاجتك إلى وجودي قبل ثلاثة أيام؟ كم كان صعباً بعدنا؟ لقد زال هذا عنك الآن، أليس كذلك؟»

حدقت فيه غير واثقة من أنني أفهم قصده.

قال لي: «هي السبب! من اللحظة الأولى. كان علينا أن نكون معاً... حتى في تلك اللحظة».

«أيها الغبي الأحمق! كيف استطعت ذلك؟ طفلتي!»

تراجع جايكوب خارجاً من الباب الأمامي عندما اقتربت منه أكثر. خرج نصف راكض إلى الخلف... هابطاً الدرجات: «لم تكن فكرتي يا بيلا!»

«لقد حملتها في بطني ثم أتيت أنت لتظن أن لك حقاً فيها! إنها لي».

قال بصوت متوسل وهو يتراجع عبر المرج: «أستطيع المشاركة!»

قال إيميت من خلفي: «ادفع الثمن الآن!»... تساءل جزء من عقلي إن كان يراهن على هذه النتيجة. لكني لم ألتفت إلى الأمر كثيراً... كان غضبي شديداً.

«كيف جرؤت على وسم طفلتي؟ هل فقدت عقلك؟»

قال جايكوب بإصرار: «حدث هذا تلقائياً!» وواصل تراجعه بين الأشجار.

عندها لم يعد جايكوب وحيداً. ظهر الذئبان الضخمان فأحاطا به من الجانبين. عوت ليا في اتجاهي.

انطلقت زمجرة مخيفة من حنجرتي رداً عليها. شوشني هذا الصوت، لكن ليس إلى درجة تجعلني أكف عن التقدم.

توسل جايكوب: «بيلا! هل تستطيعين محاولة سماعي ثانية واحدة؟ أرجوك!... تراجعي يا ليا».

كشرت ليا في اتجاهي لكنها لم تتحرك.

قلت بصوت كالفحيح: «ولماذا أستمع إليك؟»... عاد الغضب الشديد فسيطر على عقلي وغطى كل ما عداه.

«لأنك أنت من قال لي هذا. هل تذكرين؟ قلت لي إن كلاً منا ينتمي إلى حياة الآخر، صحيح! قلت إننا أسرة واحدة. قلت إن هذا ما يجب أن يكون عليه حالنا... أنا وأنت. هكذا نحن الآن. هذا ما أردته أنت».

حدقت فيه غاضبة. تذكرت هذه الكلمات بشكل غامض. لكن عقلي السريع الجديد كان متقدماً خطوتين على هذا الكلام الفارغ.

صحت: «وهل تظن أنك ستكون جزءاً من عائلتي بأن تصبح صهراً

لي؟»... كان صوتي حاداً جداً... لكنه بدا مثل صوت الموسيقى... رغم حدته.

ضحك إيميت.

تمتمت إيزمي: «أوقفها يا إدوارد. سوف تحزن إذا أصابته بأي أذى».

لكني لم أشعر بإدوارد يتقدم لإيقافي.

في اللحظة نفسها كان جايكوب يقول بإلحاح: «لا! كيف يمكن أن تنظري إلى الأمر بهذه الطريقة؟ إنها مجرد طفلة!»

صحت فيه: «هذا ما أقوله».

«تعرفين أنني لا أفكر فيها بتلك الطريقة! هل تظنين أن إدوارد يمكن أن يتركني حياً طيلة هذا الوقت إذا فكرت هكذا؟ لا أريد إلا أن تكون آمنة سعيدة... فهل هذا سيئ إلى تلك الدرجة؟ هل هو مختلف عما تريدينه أنت؟»... كان يصيح الآن في وجهي.

ما عدت قادرة على الكلام... أطلقت زمجرة صوبه.

سمعت إدوارد يتمتم: «مدهشة... أليست مدهشة؟»

وافقه كارلايل... كان يبدو مذهولاً: «لم تحاول الانقضاض على عنقه ولا مرة واحدة».

قال إيميت منزعجاً: «عظيم! لقد ربحت هذا الرهان».

قلت لجايكوب: «عليك أن تبقى بعيداً عنها».

«لا أستطيع».

قلت عبر أسناني المشدودة: «حاول! اعتباراً من هذه اللحظة».

«هذا مستحيل! هل تذكرين مقدار حاجتك إلى وجودي قبل ثلاثة أيام؟ كم كان صعباً بعدنا؟ لقد زال هذا عنك الآن، أليس كذلك؟»

حدقت فيه غير واثقة من أنني أفهم قصده.

قال لي: «هي السبب! من اللحظة الأولى. كان علينا أن نكون معاً... حتى في تلك اللحظة».

حاولت التذكر . . . تذكرت . . . ثم فهمت. ارتاح جزء من عقلي لأنني وقعت على تفسير لهذا الجنون. لكن تلك الراحة جعلتني أكثر غضباً. هل يظن أن هذا كاف بالنسبة لي؟ هل يجعلني هذا التفسير الصغير أتقبل الأمر؟

قلت مهددة: «اذهب طالما أنت قادر على الذهاب».

قال مصراً: «هيا يا بيلا! نيسي تحبني أيضاً».

تجمدت في مكاني. توقفت أنفاسي. ومن خلفي سمعت صمتهم . . . قلقهم انتظاراً لردة فعلي.

«ماذا . . . ماذا دعوتها؟»

تراجع جايكوب خطوة أخرى . . . تمكن من اتخاذ مظهر الخنوع . . . وتمتم: «إن الاسم الذي منحتها إياه طويل جداً و . . .»

زعقت: «لقد أطلقت اسم تحبب على ابنتي تيمناً باسم وحش لوك نيس!»

عند ذلك انقضضت على عنقه.

23

ذكريات

«آسف جداً يا سيث. كان عليّ أن أكون أكثر قرباً».

مازال إدوارد يعتذر. وما كنت أرى اعتذاره مناسباً ولا منصفاً! فليس إدوارد هو من فقد السيطرة على مزاجه على نحو كامل . . . على نحو لا يغتفر. ليس إدوارد هو من حاول انتزاع رأس جايكوب . . . جايكوب الذي لم يحاول حتى حماية نفسه . . . ليس إدوارد هو من كسر كتف سيث وترقوته من غير قصد عندما وثب سيث ليحول دون إصابة جايكوب. ليس إدوارد هو من كاد يقتل صديقه المقرب.

لا يعني هذا أن ليس على ذلك الصديق المقرب أن يجيب على بعض الأسئلة، لكن شيئاً مما فعله جايكوب لا يمكن أن يبرر سلوكي . . . هذا واضح!

إذن، ألست أنا من يجب أن يعتذر؟ حاولت من جديد.

«سيث . . . أنا . . .»

«لا تشغلي بالك بالأمر يا بيلا. أنا بخير تماماً» . . . هذا ما قاله سيث في نفس اللحظة التي قال فيها إدوارد: «بيلا . . . حبيبتي . . . لا أحد منا يدينك. أنت تتصرفين جيداً».

لم يسمحا لي حتى بإكمال جملتي!

لكن ما زاد الأمر سوءاً هو أن إدوارد كان يحاول جاهداً منع الابتسامة من الظهور على وجهه. أعرف أن جايكوب ما كان يستحق ردة فعلي المبالغ فيها، لكن الظاهر أن إدوارد كان راضياً بها. لعله يتمنى لو كان هو المولود الجديد ليكون لديه عذر يسمح له بالتعبير بطريقة ملموسة عن انزعاجه من جايكوب!

حاولت محو الحنق من عقلي كلياً، لكن هذا كان صعباً لأنني كنت أعرف أن جايكوب الآن في الخارج مع رينيمي! إنه يحرص على سلامتها بعيداً عني... عن أمها المجنونة.

وضع كارلايل جبيرة أخرى على ذراع سيث. كشر سيث متألماً.

تمتمت: «آسفة! آسفة!»... كنت أعرف أنني لن أستطيع التعبير عن أسفي بشكل كامل.

قال سيث: «لا تجزعي يا بيلا!»... وربت على ركبتي بيده السليمة في حين كان إدوارد يمسك بيدي من الجهة الأخرى.

ما كان يظهر على سيث أي انزعاج من جلوسه بالقرب مني على الأريكة في حين راح كارلايل يعالجه: «سأعود إلى وضعي الطبيعي خلال نصف ساعة»... مازال يربت على ركبتي كما لو أنه لا يشعر ببرودتها وقساوتها...

«لو كان أي شخص غيرك لفعل مثلك، إن ما يتعلق بجايكوب ونيس...» سكت في منتصف الكلمة وغير الموضوع سريعاً... «أقصد، أنت لم تعضيني... أو أي شيء من هذا القبيل. ولو حدث هذا لكان سيئاً».

دفنت وجهي بين كفيّ مرتجفة لتلك الفكرة... لمجرد كونها احتمالاً حقيقياً. كان يمكن أن يحدث هذا بكل سهولة. ليست ردة فعل أجسام المستذئبين على سم مصاصي الدماء مماثلة لردة فعل البشر. لم أعرف هذا إلا الآن. إن السم يقتلهم.

«أنا سيئة!»

بدأ إدوارد يقول: «لا! لست كذلك. كان عليّ أن...»

تنهدت وقلت: «كف عن هذا!»... ما كنت أريد أن يحمّل إدوارد نفسه

أي لوم جراء ما حدث... هكذا هو... يلقي بكل شيء على كاهله.

قال سيث بعد لحظة من الصمت الغريب: «من حسن الحظ أن نيس... رينيمي... ليست سامة... فهي تعض جايكوب طيلة الوقت».

سقطت يداي في حضني: «هل تعضه فعلاً؟»

«طبعاً! إنها تعض إذا لم يضع جايكوب أو روز الطعام في فمها بالسرعة الكافية. تظن روز أن هذا أمر مضحك كثيراً».

نظرت إليه شاعرة بالصدمة... وبالذنب أيضاً... كان عليّ الاعتراف بأن هذا يسرني قليلاً... بطريقة غريبة غير طبيعية.

طبعاً! أعرف أن رينيمي ليست سامة. لقد كنت أول شخص تعضه. لم أقل هذا بصوت مرتفع لأنني كنت أدعي عدم تذكر تلك الأحداث الأخيرة.

قال كارلايل وهو ينتصب واقفاً ويبتعد عنا: «طيب يا سيث! أظن أن هذا كل ما أستطيع فعله. حاول ألا تتحرك مدة... أوه... عدة ساعات... كما أظن». ضحك كارلايل ضحكة صغيرة وتابع يقول: «أتمنى لو كانت نتائج معالجة البشر سريعة الظهور إلى هذا الحد». وضع يده لحظة على شعر سيث الأسود وأمره قائلاً: «ابق هادئاً!»... ثم اختفى في الطابق العلوي. سمعت صوت إغلاق باب مكتبه، وتساءلت إن كانوا قد أزالوا آثار الفترة التي أمضيتها هناك.

قال سيث بعد أن ذهب كارلايل: «أظنني أستطيع الجلوس هادئاً بعض الوقت»... ثم تثاءب. تحرك سيث واضعاً رأسه على ظهر الأريكة محاولاً عدم تحريك كتفه ثم أغمض عينيه. وبعد ثوان قليلة انفتح فمه مرتخياً... لقد نام!

حدقت في وجهه الهانئ بعض الوقت. يبدو أن لدى سيث، مثل جايكوب، القدرة على النوم عندما يريد. أدركت أنني لن أتمكن من تكرار اعتذاري حتى يستيقظ، لذلك نهضت. لم يسبب نهوضي أي حركة في الأريكة على الإطلاق. كان كل شيء جسدي شديد السهولة، أما غير الجسدي... أف!

لحق بي إدوارد حتى النوافذ الخلفية وأمسك بيدي.

كانت ليا تسير مع النهر... تتوقف من حين لآخر فتنظر إلى المنزل. كان من السهل معرفة متى تكون نظرتها باحثة عن أخيها ومتى تكون باحثة عني. كانت نظراتها تتقلب بين نظرات قلقة وتحديق قاتل.

كنت أسمع جايكوب وروزالي في الخارج عند الدرجات الأمامية يتشاجران بصوت هادئ من أجل إطعام رينيمي. مازالت علاقتهما عدائية كما كانت! لكن الشيء الوحيد الذي كانا متفقين عليه الآن هو وجوب إبقائي بعيدة عن طفلتي حتى أشفى تماماً من تقلبات المزاج. لقد عارض إدوارد هذا القرار، لكني قبلت به. أردت أن أكون واثقة أيضاً. لكن ما يقلقني كان عدم ثقتي في اتفاقنا على معنى عبارة «أشفى تماماً».

وإلى جانب شجارهما... كنت أسمع تنفس سيث البطيء ونباح ليا المنزعج. أما ما عدا ذلك فكان السكون مخيماً. كان إيميت وأليس وإيزمي في الصيد. ظل جاسبر هنا حتى يراقبني. كان يجلس غير ظاهر خلف دعامات السلم محاولاً ألا يكون حضوره مزعجاً.

انتهزت فرصة الهدوء حتى أفكر في كل ما قاله لي إدوارد وسيث عندما كان كارلايل يعالج ذراعه. لقد فاتتني أشياء كثيرة أثناء احتراقي فكانت هذه أول فرصة حقيقية لتعويض ما فاتني.

الشيء الأهم هو أن الخصومة مع قطيع سام قد انتهت. هذا ما جعل الآخرين يشعرون بالأمان ويستطيعون الدخول والخروج على هواهم من جديد. صارت الهدنة الآن أقوى مما كانت. أو صارت أكثر إلزاماً... هذا يعتمد على وجهة نظرك كما أظن.

كانت ملزِمة لأن أهم قوانين القطيع على الإطلاق يقضي بعدم جواز أن يقتل أي ذئب شخصٌ وَسِمَ من ذئب آخر. أما عقاب هذا الفعل فهو عقاب شديد الوطأة على القطيع كله. لا يمكن غفرانه أبداً سواء كان مقصوداً أو غير مقصود. كان على الذئبين المعنيين القتال حتى الموت... وما من حل آخر.

حدث هذا مرة واحدة منذ زمن بعيد... هكذا قال سيث... لكنه حدث مصادفة! لن يقدم أي ذئب على قتل أخيه عامداً بتلك الطريقة.

وهكذا صارت رينيمي حصينة بسبب شعور جايكوب نحوها الآن. حاولت تركيز انتباهي على الراحة التي تبعثها هذه الحقيقة في نفسي وليس على الأسى الذي تشيعه فيها، لكن الأمر ما كان سهلاً. كان في ذهني متسع كاف لأن أعيش الشعورين معاً.

وما كان لسام أن يغضب بسبب تحولي أيضاً لأن جايكوب... متحدثاً بصفته زعيماً شرعياً... هو من سمح به. يا لمرارة إدراكي مرة بعد مرة كم أنا مدينة لجايكوب... عندما جننت غضباً منه.

تعمدت تحويل أفكاري إلى وجهة أخرى حتى أتمكن من ضبط مشاعري. فكرت في ظاهرة أخرى مثيرة للاهتمام: رغم استمرار عدم القدرة على التواصل بين قطيعي الذئاب، اكتشف جايكوب وسام أن الزعماء قادرون على تبادل الحديث عندما يكونون في هيئة الذئاب. لم يكن الأمر مثلما كان من قبل فهما غير قادرين على سماع جميع الأفكار كما كانا يسمعانها سابقاً. كان ذلك يشبه التحدث بصوت مرتفع... هكذا قال لي سيث. كان سام قادراً على سماع الأفكار التي يريد جايكوب إيصالها إليه، والعكس بالعكس. لقد اكتشفا أنهما يستطيعان التواصل على مسافة بعيدة أيضاً بعد أن عادت علاقتهما من جديد.

لم يكتشف الاثنان ذلك حتى مضى جايكوب وحيداً (رغم اعتراضات سيث وليا) حتى يوضح أمر رينيمي لسام. كانت تلك المرة الوحيدة التي يترك فيها رينيمي منذ أن وقعت عيناه عليها.

وما أن أدرك سام التغير الشديد الذي حدث حتى جاء بصحبة جايكوب ليتحدث مع كارلايل. لقد تحدث معه في صورته البشرية لأن إدوارد رفض أن يترك جايكوب يقوم بالترجمة بينهما. تم تجديد المعاهدة. لكن مشاعر الصداقة في هذه العلاقة لم تعد إلى سابق عهدها.

زال الآن مصدر كبير من مصادر القلق.

لكن ثمة مصدراً آخر مازال يبدو شديد الإلحاح في نظري مع أنه ليس خطراً مادياً تقارب خطورته خطورة قطيع غاضب من الذئاب.

إنه تشارلي!

لقد تحدث مع إيزمي هذا الصباح. لكن هذا لم يمنعه من معاودة الاتصال... مرتين... منذ دقائق قليلة عندما كان كارلايل يعالج سيث. ترك كارلايل وإدوارد الهاتف يرن من غير إجابة.

ماذا علي أن أقول له؟ هل كان رأي أسرة كولن صائباً؟ أم أن إخباره بأنني قد مت هو السبيل الأفضل والأكثر لطفاً؟ وهل أستطيع الاستلقاء ساكنة في التابوت في حين يذرف أبي وأمي الدموع على موتي؟

لم أر هذا صحيحاً! لكن تعريض تشارلي ورينيه للخطر الناجم عن هوس الفولتوري بالسرية أمر غير وارد على الإطلاق.

لكن هناك فكرتي أيضاً!... فلأدع تشارلي يراني عندما أكون مستعدة. فلأدعه يخرج باستنتاجات خاطئة. ليس في هذا خرق لقواعد مصاصي الدماء، من الناحية الفنية! أليس من الأفضل لتشارلي أن يعرف أنني حية... على نحو ما... وأنني سعيدة؟ حتى إن كنت غريبة... مختلفة... بل مخيفة في نظره؟

كانت عيناي مخيفتين فعلاً في هذه اللحظة. فكم يلزم من الزمن حتى يصبح لون عينيّ وضبطي لنفسي مناسبين لتشارلي؟

سألني جاسبر بصوت هادئ: «ما الأمر يا بيلا؟»... لقد شعر بازدياد توتري... «لا أحد غاضب منك»... عارض حكمه هذا صوت زمجرة خفيض جاء من صوب النهر، لكنه تجاهله وتابع بقول: «ولا أحد يشعر بالدهشة أيضاً. الواقع... أظن أننا نشعر بالدهشة! نشعر بالدهشة من قدرتك. أنت تتصرفين جيداً. تتصرفين أفضل كثيراً مما توقع أيّ منا».

صارت الغرفة شديدة الهدوء أثناء حديثه. تحول تنفس سيث البطيء إلى

شخير لا يكاد يسمع. أحسست بقدر من هدوء النفس لكنني لم أستطع نسيان ما كان يقلقني.

«الواقع أنني كنت أفكر في تشارلي».

هكذا انقطع الجدل الفارغ سريعاً.

تمتم جاسبر: «آه!»

سألته: «علينا أن نرحل حقاً، أليس كذلك؟ لفترة من الزمن على الأقل. علينا أن نتظاهر أننا في أتلانتا أو في أي مكان آخر».

أحسست بنظرات إدوارد منصبة على وجهي لكنني نظرت إلى جاسبر. كان هو من أجابني... بنبرة جدية: «نعم! إنها الطريقة الوحيدة لحماية والدك».

ترددت لحظة ثم قلت: «سوف أفتقده كثيراً. سوف أفتقد كل شيء هنا».

فكرت في جايكوب... رغماً عني. رغم أن ذلك التوق قد اختفى الآن... كم أنا مرتاحة لاختفائه... مازال جايكوب صديقي! مازال شخصاً يعرفني على حقيقتي ويقبلني. حتى عندما صرت وحشاً.

فكرت فيما قاله جايكوب.... حين كان يتوسل إليّ قبل أن أهاجمه...

«لأنك أنت من قال لي هذا. هل تذكرين؟ قلت لي إن كلاً منا ينتمي إلى حياة الآخر، صحيح! قلت إننا أسرة واحدة. قلت إن هذا ما يجب أن يكون عليه حالنا... أنا وأنت. هكذا نحن الآن. هذا ما أردته أنت».

لكن الوضع الآن لا يبدو لي مثلما كنت أريده. ليس تماماً. عدت بذاكرتي إلى ما قبل ذلك... إلى الذكريات الغائمة الضعيفة من حياتي البشرية. عدت إلى أصعب الأشياء تذكراً... إلى الوقت الذي أمضيته من غير إدوارد... وقتٌ كان شديد الظلمة... وقتٌ حاولت دفنه في رأسي. لم أستطع استعادة الكلمات كما هي. لم أتذكر إلا أنني تمنيت أن يكون جايكوب أخي حتى يستطيع أحدنا أن يحب الآخر من غير تشويش أو ألم. أسرة!.. لكنني ما كنت أتصور وجود ابنة لي تكون طرفاً في هذه المعادلة.

تذكرت بعد قليل مرة من تلك المرات الكثيرة التي وعدت فيها جايكوب،

تذكرت كيف كنت أتساءل عمن سينتهي به المطاف معها... عمن تعيد حياته إلى نصابها بعدما فعلته بها. لقد قلت شيئاً آنذاك... مهما تكن تلك فهي لن تكون جيدة بالقدر الذي يستحق.

صدرت عني زفرة فرفع إدوارد حاجبه متسائلاً. لكني اكتفيت بأن هززت رأسي له.

لكن، بقدر ما يمكن أن أفتقد صديقي... أعرف أن ثمة مشكلة أكبر من ذلك. هل سبق لسام أو جارد أو كويل الغياب ليوم واحد من غير رؤية من تحتل قلوبهم... إيميلي وكيم وكلير؟ هل يستطيعون هذا؟ ما الذي يمكن أن يسببه لجايكوب فراق رينيمي؟ هل يبعث هذا الألم فيه؟

مازال في عقلي قدر قليل من الغضب يكفي لأن يجعلني سعيدة... لا لألمي بل لفكرة وجود رينيمي بعيداً عنه. كيف أتعامل مع انتمائها إلى جايكوبِ حين أراها لا تنتمي إلا لي أنا؟

قطع صوت حركة عند الباب الأمامي تسلسل أفكاري. سمعتهم ينهضون، ثم دخلوا من الباب. في الوقت نفسه تقريباً جاء كارلايل نازلاً من الطابق العلوي بيدين تملأهما أشياء غريبة... شريط قياس وميزان! اندفع جاسبر فوقف إلى جانبي. هل من إشارة لم ألاحظها؟ حتى ليا... جاءت فجلست في الخارج محدقة عبر النافذة وعلى وجهها تعبير من يتوقع شيئاً مألوفاً وغير مثير للاهتمام في وقت واحد.

قال إدوارد: «إنها السادسة».

سألته: «ما معنى هذا؟»... تعلقت أنظاري بروزالي وجايكوب ورينيمي. كانوا واقفين بالباب، وكانت رينيمي بين ذراعي روزالي. بدا انشغال البال على روزالي، وبدا القلق على إدوارد. أما رينيمي فبدت جميلة نافدة الصبر.

قال كارلايل: «حان وقت قياس نيس... رينيمي».

«أوه! هل تفعلون هذا كل يوم؟»

صحح كارلايل عبارتي بذهن شارد وهو يشير للآخرين بالمضي إلى

الأريكة: «أربع مرات في اليوم»... أظن أنني رأيت رينيمي تتنهد.

«أربع مرات! كل يوم! لماذا؟»

همس إدوارد لي: «مازالت تنمو بسرعة كبيرة»... كان صوته هادئاً متوتراً. شد على يدي، أما يده الأخرى فالتفت حول وسطي كما لو أنه يريد الاستناد إليّ.

لم أستطع رفع عيني عن رينيمي لأنظر إلى تعبير وجهه.

كانت رائعة... في أحسن صحة. كان جلدها يتوهج كأن فيه نوراً... وكان لون وجنتيها وردياً على خلفية ذلك النور. ما كان في هذا الوجه المتألق أي عيب. لن يكون في حياتها كلها شيء أكثر خطراً من أمها!

إن الفارق بين الطفلة التي أنجبتها وبين الطفلة التي رأيتها منذ ساعة واحدة واضح لأي شخص. أما الفارق بين رينيمي منذ ساعة واحدة وبين رينيمي الآن فهو أقل بكثير. لن تلاحظ عين بشرية هذا الفارق. لكنه موجود!

كان طول جسمها قد ازداد قليلاً. وصارت أنحف قليلاً. ما عاد وجهها تام الاستدارة... صار الآن بيضوياً... بنسبة بسيطة جداً. أما خصلات شعرها فصارت أطول بميليمترات قليلة فوق كتفيها. كانت تمد جسمها بين ذراعي روزالي حين وضع كارلايل شريط القياس عليها ثم استخدمه لقياس محيط رأسها. لم يسجل شيئاً... ذاكرته ممتازة.

انتبهت إلى أن ذراعي جايكوب كانتا معقودتين على صدره مثلما كان ذراعا إدوارد من حولي. كان حاجباه الكثيفان ملتحمين في خط واحد فوق عينيه الغائرتين.

لقد كبرت رينيمي من خلية واحدة فصارت مثل طفلة طبيعية الحجم عمرها عدة أسابيع. يبدو أنها على وشك أن تحبو بعد أيام من ولادتها. إذا استمر نموها على هذا المعدل...

ما كان عقلي... عقل مصاصة الدماء... ليجد صعوبة في الحساب.

همست خائفة: «ماذا نفعل؟»

اشتدت ذراعا إدوارد إحكاماً. لقد فهم سؤالي تماماً فقال: «لا أعرف».

قال جايكوب عبر أسنانه المطبقة: «إن نموها يتباطأ».

«نحن في حاجة إلى قياسها عدة أيام أخرى حتى نكتشف ذلك يا جايكوب. لا أستطيع أن أعد بشيء».

«ازداد طولها البارحة خمسة سنتيمترات. أما زيادة اليوم فهي أقل».

قال كارلايل بصوت هادئ: «أقل بربع سنتيمتر... إذا كانت قياساتي دقيقة».

قال جايكوب: «فلتكن دقيقة يا دكتور»... جعل كلماته تحمل نبرة تهديد... تصلبت روزالي.

طمأنه كارلايل: «تعرف أنني أبذل جهدي».

تنهد جايكوب: «لا أظنني أستطيع أن أطلب أكثر».

شعرت بالانزعاج من جديد... كأن جايكوب يسرق دوري ثم يؤديه بشكل خاطئ.

بدا الانزعاج على رينيمي أيضاً. بدأت تتململ ثم مدت يديها إلى روزالي نافدة الصبر. خفضت روزالي رأسها قليلاً حتى تستطيع رينيمي لمس وجهها. وبعد لحظة... تنهدت روزالي.

قال جايكوب: «ماذا تريد؟»... إنه يسرق دوري من جديد.

قالت له روزالي: «تريد بيلا طبعاً»... جعلتني كلماتها أشعر بحرارة في داخلي. نظرت روزالي إلي: «كيف أنت الآن؟»

اعترفت: «قلقة!»... فشد إدوارد على خصري.

«نحن قلقون جميعاً. لكني لم أقصد هذا».

قلت مؤكدة: «أنا مسيطرة على نفسي تماماً». ثمة الكثير مما هو أهم من الظمأ الآن. ثم إن رائحة رينيمي طيبة على نحو لا يشبه رائحة الطعام إطلاقاً.

عض جايكوب على شفته لكنه لم يتحرك لإيقاف روزالي عندما قدمت رينيمي إليّ. تململ جاسبر وإدوارد لكنهما لم يتدخلا. رأيت مدى توتر روز.

كيف تبدو الغرفة في نظر جاسبر الآن؟ لعل تركيزه منصب عليّ وحدي إلى حد يجعله لا يشعر بالآخرين!

مدت رينيمي جسمها نحوي عندما مددت يديّ إليها. كانت على وجهها ابتسامة ساطعة. اتخذت مكانها بين ذراعي... كأنهما مصنوعتين من أجلها تماماً. وعلى الفور... وضعت يدها الصغيرة الحارة على خدي.

كنت مستعدة... لكني تنهدت عندما رأيت الذكريات تمر مثل الرؤيا في رأسي. كانت متألقة ملونة... وشفافة أيضاً.

كانت رينيمي تتذكر هجومي على جايكوب في المرج الأمامي وتتذكر كيف قفز سيث بيننا. لقد رأت وسمعت ذلك بوضوح تام. لم تكن المرأة المهاجمة تشبهني... تلك المفترسة الرشيقة التي وثبت على فريستها مثل انطلاق السهم من القوس. لابد أنها واحدة غيري. جعلني ذلك أشعر بقدر أقل من الذنب عندما وقف جايكوب هناك غير مدافع عن نفسه... عندما وقف رافعاً يديه أمامه... ما كانت يداه ترتعشان.

أطلق إدوارد ضحكة صغيرة... كان يشاهد أفكار رينيمي مثلي. ثم تقلص وجهانا ألماً عندما سمعنا صوت تكسر عظام سيث.

ابتسمت رينيمي ابتسامتها المشرقة... لم تفارق عيون ذاكرتها جايكوب طيلة الفوضى التي أعقبت ذلك. تذوقت نكهة جديدة في هذه الذكرى عندما راحت تراقب جايكوب. كان لدي انطباع واضح بأنها كانت سعيدة لأن سيث اعترض وثبتي. ما كانت تريد أن يصاب جايكوب بأي أذى... إنه لها.

قلت بصوت مثل الأنين: «أوه! رائع... عظيم!»

«هذا فقط لأن طعمه أقل سوءاً من طعمنا بالنسبة لها»... كان إدوارد يحاول طمأنتي لكن صوته كان متيبساً لشدة انزعاجه.

قال جايكوب معابثاً: «قلت لك إنها تحبني»... كانت عيناه معلقتين برينيمي. ما كانت مزحته نابعة من قلبه كله. مازال حاجباه منعقدين... لم ينبسطا.

ربتت رينيمي على خدي نافدة الصبر. . . كانت تطلب مني الانتباه إليها. ذكرى أخرى: روزالي تمرر فرشاة الشعر في خصلاتها. . . بدا هذا لطيفاً.

ثم رأيت كارلايل وشريط القياس. كانت تعرف أن عليها أن تمد جسمها وأن تظل ساكنة. ما كان هذا مثيراً بالنسبة إليها.

همس إدوارد في أذني معلقاً على تلك الصور: «يبدو أنها تقدم لك جرداً بالأحداث التي فاتتك».

تغضن أنفي عندما أعطتني صورة جديدة. . . الرائحة الآتية من فنجان معدني غريب الشكل. . . فنجان قاس لا تستطيع أسنانها اختراقه بسهولة. . . جعلت تلك الرائحة دفقة مفاجئة من الاحتراق تسري في حلقي. أوه!

في تلك اللحظة صارت رينيمي بعيدة عن ذراعي. . . وصار ذراعاي مثبتين خلف ظهري. لم أقاوم جاسبر. . . نظرت فقط إلى وجه إدوارد الخائف.

«ماذا فعلت؟»

نظر إدوارد إلى جاسبر الواقف خلفي ثم نظر إليّ من جديد.

تمتم إدوارد وقد تغضن جبينه: «لكنها كانت تتذكر ظمأها. كانت تتذكر طعم الدم البشري».

ازداد ضغط جاسبر على ذراعي. لاحظ جزء من عقلي أن هذا الوضع ما كان مزعجاً بشكل خاص. . . وما كان مؤلماً أبداً مثلما يكون بالنسبة لبشري. كان مزعجاً. . . فحسب. كنت واثقة من قدرتي على الإفلات من قبضته، لكنني لم أقاوم.

«نعم. . . وماذا؟»

عبس إدوارد ثانية واحدة ثم استرخت أسارير وجهه وضحك: «لا شيء على الإطلاق كما يبدو. أنا من بالغ في ردة الفعل هذه المرة. اتركها يا جاسبر».

أفلتني جاسبر فمددت يديّ إلى رينيمي فور تحرري، ووضعها إدوارد بين ذراعي من غير تردد.

قال جاسبر: «لا أفهم هذا. . . لا أستطيع احتمال هذا».

نظرت إليه بدهشة وهو يخرج من الباب الخلفي. تحركت ليا لتفسح له مجالاً واسعاً. أما هو فاندفع صوب النهر ثم اجتازه بقفزة واحدة.

لمست رينيمي خدي مكررة مشهد ذهاب جاسبر على الفور. لمست سؤالاً في أفكارها. . . كان سؤالها صدى للسؤال الذي في رأسي.

لقد تجاوزت صدمة اكتشاف هذه القدرة لديها. بدت لي الآن جزءاً طبيعياً منها. . . جزءاً يمكن توقعه. لعلي لا أكون متشككة من جديد بعد أن صرت خارقة للطبيعة.

لكن. . . ما به جاسبر؟

قال إدوارد. . . يخاطبني أو يخاطب رينيمي. . . لا أدري: «سوف يعود. إنه في حاجة إلى البقاء وحيداً بعض الوقت حتى يصحح نظرته إلى الحياة». . . رأيت طيف ابتسامة على زاويتي شفتيه.

ذكرى بشرية أخرى. . . تذكرت عندما قال لي إدوارد أن نظرة جاسبر إلى نفسه سوف تتحسن إذا كان تكيفي صعباً. كان هذا أثناء نقاش بيننا عن عدد الأشخاص الذين سأقتلهم في سنتي الأولى.

سألته بهدوء: «هل هو غاضب مني؟»

اتسعت عينا إدوارد دهشة: «لا! لماذا يغضب؟»

«فماذا به إذن؟»

«إنه حانق على نفسه يا بيلا، لا عليك أنت! إنه قلق بشأن نبوءة تحقيق الذات. . . كما يمكن أن تسميها».

سأله كارلايل قبل أن أستطيع التكلم: «كيف هذا؟»

«يتساءل جاسبر ما إذا كان جنون المتحوّلين حديثاً أمراً صعباً حقاً بقدر ما كنا نظن دائماً، أم أن أي شخص يمكن أن يتعامل معه مثلما تتعامل بيلا الآن إذا كان لديه القدر اللازم من التركيز والعزيمة. ولعله. . . حتى الآن. . . يعاني هذه الصعوبة لأنه يرى الأمر طبيعياً لا مهرب منه. أما كان يستطيع أن

يحقق هذا لو طلب المزيد من نفسه؟ أنت تجعلينه يضع قناعات عميقة الجذور موضع الاستفهام الآن يا بيلا».

قال كارلايل: «لكن هذا ليس عدلاً! الناس مختلفون، ولكل منهم تحدياته. لعل ما تفعله بيلا الآن يتجاوز الشيء الطبيعي. لعل هذه قدرةٌ خاصة لديها... هبة».

جمدتني المفاجأة. شعرت رينيمي بهذا التغيير فلمستني من جديد. كانت تتذكر اللحظات الماضية وتتساءل عن سبب هذا التغير.

قال إدوارد: «إنها نظرية مثيرة... مقنعة فعلاً!»

أحسست بالخيبة لحظة قصيرة. ماذا؟ ألن تكون لدي رؤية سحرية أو قدرات هجومية مرعبة مثل أن أطلق الصواعق من عيني أو شيء من هذا القبيل؟ أليس لدي شيء مفيد أو ظريف على الإطلاق؟

بعد ذلك أدركت ما يمكن أن يكون معنى ذلك... إذا كانت «قدرتي الخارقة» لا تتجاوز مقدرتي الاستثنائية على ضبط النفس.

لكن لدي قدرة خاصة. هذا أفضل من لا شيء... كان يمكن أن لا أتميز بأي قدرة خاصة.

بل... أكثر من هذا! إذا كان رد إدوارد مصيباً فأنا قادرة على تجاوز المرحلة التي أخشاها أكثر من أي شيء آخر.

ماذا لو أنني لست مولودة (متحوّلة) حديثاً؟ لست مولودة حديثاً بمعنى أنني لست آلة قتل مجنونة! ماذا لو كنا غير مضطرين إلى الاختباء في مكان بعيد سنة كاملة ريثما «أكبر»؟ ماذا لو لم أقتل إنساناً واحداً... مثل كارلايل؟ ماذا لو استطعت أن أكون مصاصة دماء طيبة منذ الآن؟

تخيلت تشارلي!

تنهدت عندما داخل الواقع آمالي. لم أستطع رؤية تشارلي رأساً. العينان... والصوت... والوجه. ماذا يمكن أن أقول له؟ كيف أبدأ؟ كنت مسرورة في سري عندما كان لدي عذر لتأجيل الأمور حيناً من الزمن...

لتأجيلها قدر ما أريد ريثما أعثر على طريقة تبقي على حياة تشارلي؟ كنت خائفة من ذلك اللقاء الأول... خائفة من رؤية عينيه الجاحظتين بسبب وجهي الجديد وجلدي الجديد. خائفة من رؤيته خائفاً! خائفة مما يمكن أن يخطر بباله من تفسير.

كان خوفي كافياً لجعلي أنتظر سنة كاملة حتى يهدأ لون عينيّ. كنت أظن أنني لن أخاف بعد أن أصبح عصية على التدمير.

سأل إدوارد كارلايل: «هل رأيت في حياتك ما يكافئ ضبط النفس من حيث القدرات الخاصة؟ هل تظن حقاً أنها قدرة فريدة عندها أم أنها مجرد نتيجة لاستعدادها المسبق؟»

رفع كارلايل كتفيه: «هذا يشبه قليلاً ما كانت سيوبهان قادرة على فعله دائماً... لكنها لا تعتبره قدرة خاصة».

سألته روزالي: «سيوبهان! هل هي صديقتك في مجموعة مصاصي الدماء الإيرلندية؟ لم أنتبه إلى أن لديها قدرات خاصة. ظننت أن ماجي هي صاحبة القدرات الخاصة في تلك الجماعة».

«نعم! هكذا تظن سيوبهان أيضاً. لكنها تستطيع تحديد أهدافها ثم... تجعلها تتحقق بإرادتها. إنها تعتبر هذا نوعاً من حسن التخطيط لكني كنت أتساءل دائماً عما إذا كان في الأمر ما يتجاوز ذلك. عندما ضمت ماجي إلى الجماعة مثلاً، أصيب ليام بخوف شديد، لكن سيوبهان أرادت أن ينجح الأمر... فنجح».

جلس إدوارد وكارلايل وروزالي وتابعوا حديثهم. وجلس جايكوب بالقرب من سيث كأنه يحميه... بدا عليه الملل. لكني فهمت من ارتخاء جفونه أنه سيكون نائماً خلال وقت قصير.

رحت أصغي إليهم، لكن انتباهي كان موزعاً. مازالت رينيمي تقص علي أحداث يومها. كنت أحملها بجانب النافذة وكانت ذراعاي تهزانها... واصلنا تبادل النظرات.

أدركت أن الآخرين ما كان لديهم سبب يدعوهم إلى الجلوس. كنت مرتاحة تماماً لوقوفي. كان هذا مريحاً مثل التمدد على السرير. كنت أعرف أن في وسعي أن أقف على هذا النحو أسبوعاً دون حركة ثم أكون في نهاية الأسبوع مرتاحة كما كنت في بدايته.

لابد أنهم جالسون بفعل العادة. سوف يلفت نظر البشر شخص يقف ساعات طويلة من غير نقل وزنه من قدم لأخرى. حتى في هذه اللحظة... رأيت روزالي تمرر أصابعها في شعرها ورأيت كارلايل يضع ساقاً على ساق. إنها حركات صغيرة من أجل تجنب البقاء على وضعية واحدة من أجل تجنب الظهور بمظهر مصاصي الدماء أكثر مما يجب. علي أن أنتبه إلى ما يفعلون حتى أبدأ التدريب أيضاً.

نقل وزن جسمي إلى قدمي اليسرى... بدت هذه الحركة سخيفة.

لعلهم يحاولون منحي بعض الوقت مع طفلتي... وحدنا... وحدنا إلى الحد المقبول.

قصت علي رينيمي أحداث كل دقيقة من هذا اليوم. أحسست من تعاقب قصصها الصغيرة أنها تريد أن تعرفني على نفسها... بقدر ما كنت أريد الشيء نفسه. لم يعجبها أنني فوت رؤية بعض الأشياء... ذلك الشحرور الذي رفرف مقترباً عندما كان جايكوب يحملها... عندما كانا بالقرب من تلك الشجيرة. إن الطيور لا تأتي ناحية روزالي أبداً. لم يعجبها أنني لم أر تلك المادة البيضاء الدبقة المزعجة... حليب الأطفال... التي وضعها كارلايل في كأسها. كانت رائحتها مثل رائحة تراب وسخ. لم يعجبها أنني لم أسمع إدوارد يغني لها تلك الأغنية التي كررتها على مسامعي مرتين... لقد أدتها على نحو ممتاز. أدهشني أنني رأيت نفسي في خلفية تلك الذكريات كلها... كنت واقفة من غير حركة لكنني كنت أبدو معذبة. ارتعدت عندما تذكرت ذلك الوقت من منظوري أنا. تلك النار الفظيعة...

بعد ساعة تقريباً... مازالوا غارقين في نقاشهم ومازال جايكوب وسيث

يشخران على الأريكة... راحت ذكريات رينيمي تتباطأ. صارت قصصها ضبابية غير مركزة. كنت على وشك مقاطعة إدوارد لشدة خوفي... هل أصابها شيء؟... لكنها أغمضت عينيها. تثاءبت فرسمت شفتاها الممتلئتان الورديتان دائرة صغيرة... نامت ولم تفتح عينيها.

سقطت يدها عن وجهي فور نومها... كانت جفونها بلون الخزامى الشاحب... بلون تلك الغيوم الخفيفة عند مغيب الشمس. رفعت تلك اليد إلى وجهي من جديد... حرصت على عدم إزعاجها... أبقيتها على وجهي وقد انتابني فضول كبير. لم أر شيئاً في البداية... ثم... بعد دقائق قليلة... بدأت تتناثر من أفكارها ألوان متلألئة تشبه حفنة مرفرفة من الفراشات.

رحت أراقب أحلامها مسحورة. ما كان لتلك الأحلام معنى... رأيت وجهيّ: الوجه البشري المشوه والوجه الخالد الرائع... رأيتهما مترافقين في لا وعيها. كانا حاضرين أكثر من وجهيْ إدوارد وروزالي. لكن حضوري كان يوازي حضور جايكوب. حاولت ألا أشعر بالضيق بسبب ذلك.

الآن فقط عرفت كيف كان إدوارد قادراً على مراقبتي في نومي ليلة مملة بعد ليلة مملة... فقط حتى يسمعني أتكلم في نومي. أستطيع الآن أن أراقب أحلام رينيمي إلى الأبد. لفت انتباهي تغير في نبرة إدوارد عندما قال «أخيراً» ثم استدار لينظر من النافذة. كان في الخارج ليل بلون أرجواني عميق لكنني كنت أستطيع الرؤية كما من قبل. ما كان في تلك الظلمة شيء غير مرئي... تغيرت ألوان الأشياء فحسب.

مازالت ليا في مكانها... محملقة. لكنها نهضت وذهبت بهدوء إلى الأشجار عندما ظهرت آليس على الناحية الأخرى من النهر. كانت آليس تتأرجح على غصن الشجرة مثلما يتأرجح لاعبو السيرك. كانت تلمس يديها بأصابع رجليها ثم قذفت بجسمها طائرة فوق النهر. أما إيزمي فقفزت بطريقة أكثر تقليدية. اندفع إيميت عبر الماء... كان الماء يتناثر من حوله... وصلت قطرات منه حتى نوافذ البيت الخلفية. فاجأني ظهور جاسبر من

خلفهم. كانت قفزته البسيطة الكافية تبدو أقل من عادية بعد الآخرين.

كانت تلك الابتسامة الضخمة على وجه أليس مألوفة على نحو غامض غريب. فجأة... ابتسم الجميع لي... عذوبة إيزمي واستثارة إيميت وترفّع روزالي وعطف كارلايل وتأهب إدوارد.

دخلت أليس الغرفة قبل الجميع. كانت يدها ممتدة أمامها وكان نفاد الصبر يرسم هالة شبه مرئية من حولها. كانت تحمل في يدها مفتاحاً نحاسياً ملفوفاً بشريط وردي ضخم.

مدت لي المفتاح فأحكمت وضع ذراعي اليمنى حول رينيمي بحركة تلقائية حتى أستطيع أن أمد يدي اليسرى. أسقطت أليس المفتاح في يدي.

قالت مزقزقة: «عيد ميلاد سعيد!»

فتحت عيني واسعتين: «ألا يبدأ العد من لحظة الولادة! ويكون عيد الميلاد بعد سنة من ذلك؟».

كبرت ابتسامتها: «أنت لا تحتفلين الآن بعيد ميلاد مصاصة الدماء. لكنه الثالث عشر من أيلول يا بيلا. اليوم صار عمرك تسعة عشر عاماً».

24

مفاجأة

«لا... مستحيل!»

هززت رأسي بعنف ثم ألقيت نظرة حادة على وجه زوجي المبتسم ذي السبعة عشر عاماً: «لا! هذا لا يجوز. لقد توقفت عن التقدم في السن منذ ثلاثة أيام. سأظل في الثامنة عشر إلى الأبد».

قالت أليس وهي تسقط احتجاجاتي كلها بهزة من كتفيها: «مهما يكن... إننا نحتفل بك... سايرينا!»

تنهدت... لا أمل لي في الجدل مع أليس.

اتسعت ابتسامتها إلى حد غير معقول عندما قرأت القبول في نظراتي. قالت بصوت كالغناء: «هل أنت مستعدة لفتح الهدية؟»

«الهدايا»... صحح إدوارد عبارتها وأخرج من جيبه مفتاحاً آخر. كان هذا المفتاح فضي اللون أكثر طولاً من المفتاح السابق... وكان عليه شريط أزرق أقل بهرجة من سابقه.

حاولت عدم إظهار مشاعري. عرفت فوراً قصة هذا المفتاح... إنها «سيارة ما بعد». لا أدري إن كنت سأشعر بالإثارة عندما أراها. يبدو أن تحولي إلى مصاصة دماء لم يكسبني اهتماماً مفاجئاً بالسيارات الرياضية.

قالت أليس: «هديتي أولاً!»... ثم مدت لسانها لإدوارد متوقعة إجابته.

قال لها: «هديتي أقرب!»

«لكن... انظر إلى ملابسها!»... قالت هذه الكلمات بصوت يكاد يكون أنيناً... «شكلها يقتلني طيلة النهار. من الواضح أن الأولوية تكمن هنا».

كيف يمكن أن يجعلني هذا المفتاح أرتدي ثياباً جديدة؟ هل أحضرت لي شاحنة من الثياب؟

قالت أليس: «فلنلعب... صخرة، ورقة، مقص».

ضحك جاسبر وتنهد إدوارد.

قال إدوارد ساخراً: «لماذا لا تقولين لي من هو الفائز منذ الآن؟»

أشرق وجه أليس: «سأخبرك!... أنا فزت... رائع!»

«لعل من الأفضل أن أنتظر حتى الصباح على أي حال»... ابتسم إدوارد ابتسامته اللعوب ناظراً صوبي ثم أومأ برأسه إلى جايكوب وسيث... كان واضحاً أنهما مستمران في النوم حتى الصباح... كم من الوقت مر عليهما من غير نوم هذه المرة؟... «أظن أن الأمر سيكون أكثر متعة عندما يكون جايكوب مستيقظاً ليرى هديتي. ألا تظنين هذا؟ بهذه الطريقة سيكون لدينا من يستطيع التعبير عن مستوى الحماسة المناسب!»

ابتسمت له. إنه يعرفني جيداً!

صدح صوت أليس: «بيلا! دعي روزالي تحمل نيس... رينيمي».

«أين تنام رينيمي عادة؟»

رفعت أليس كتفيها: «تنام بين ذراعي روز أو بين ذراعي جايكوب أو إيزمي. هكذا هو الوضع. لم يتركوها طيلة حياتها. سوف تكون أكثر نصف مصاصة دماء دلالاً في هذا الوجود».

ضحك إدوارد حين كانت روزالي تضع رينيمي بين ذراعيها بحركة خبيرة. قالت روزالي: «إنها أيضاً أكثر نصف مصاصة دماء غير مدللة في هذا الوجود. هنا مكمن جمال أن تكون فريداً من نوعك».

ابتسمت لي روزالي. أسعدني أن أرى في ابتسامتها تلك أن الرفقة مستمرة

بيننا. ما كنت في السابق واثقة تماماً من استمرارها إلى ما بعد ولادة رينيمي... ما كنت واثقة من استمرارها حتى انفصالها عني. لكن، لعلنا قاتلنا معاً في جبهة واحدة مدة كافية لجعلنا صديقتين دائماً. لقد أقدمتُ في النهاية على الخيار الذي لا بد أنها تقدم عليه لو كانت مكاني. يبدو أن هذا غسل استياءها من خياراتي الأخرى كلها.

وضعت أليس المفتاح في يدي ثم أمسكت بمرفقي ودفعتني صوب الباب الخلفي قائلة: «فلنذهب! فلنذهب!»

«هل هي في الخارج؟»

قالت أليس وهي تدفعني: «نوعاً ما!»

قالت روزالي: «استمتعي بالهدية. إنها مقدمة منا جميعاً... من إيزمي خاصة».

لاحظت أن أحداً لم يتحرك خلفنا: «ألستم قادمين؟»

قالت روزالي: «سوف نمنحك فرصة الاستمتاع بالأمر وحدك. يمكنك إخبارنا بانطباعاتك... فيما بعد».

أطلق إيميت ضحكة صاخبة. ثمة شيء في ضحكته جعلني أشعر بما يشبه الاحمرار. لكني لم أعرف السبب!

لاحظت أن بضعة أشياء متعلقة بي... من قبيل كره المفاجآت وعدم محبة الهدايا كثيراً... لم تتغير أبداً. كان أمراً مريحاً أن أكتشف مقدار ما بقي من شخصيتي الأصلية... مقدار ما انتقل منها إلى جسدي الجديد.

لم أتوقع أن أكون أنا نفسي! ابتسمت ابتسامة عريضة.

شدتني أليس من مرفقي. لم أستطع التوقف عن الابتسام عندما مشيت خلفها في الليل الأرجواني. لم يأت معنا غير إدوارد.

تمتمت أليس باستحسان: «هذه هي الحماسة التي كنت أنتظرها!»... ثم تركت ذراعي... قفزت قفزتين... ثم وثبت فعبرت النهر.

نادتني من الضفة الأخرى: «هيا يا بيلا».

قفز إدوارد مع قفزتي. كانت القفزة ممتعة كما كانت بعد الظهر. لعلها كانت ممتعة أكثر لأن الليل غيّر كل شيء... جعل كل شيء في ألوان جديدة... أكثر غنى.

انطلقت أليس... ونحن في أعقابها. كانت متجهة شمالاً. وكان من الأسهل أن نتابع صوت همس قدميها على أرض الغابة وأن نتعقب رائحتها. هذا أسهل من متابعتها بالنظر عبر تلك الخضرة الكثيفة.

لم أر أي إشارة... لكنها استدارت واندفعت صوبي حيث توقفت. قالت تحذرني: «لا تهاجميني!»... وقفزت فوقي.

قلت لها مستاءة عندما جلست فوق كتفي وغطت وجهي بيديها: «ماذا تفعلين؟»... أحسست بشيء يدفعني إلى رميها عني... لكني سيطرت على نفسي.

«أحرص على ألا تري شيئاً!»

قال إدوارد: «أستطيع تولي هذا الأمر من غير حاجة إلى حركاتك المسرحية».

«قد تسمح لها بالغش! امسك يدها وسر بها إلى الأمام».

«أليس! أنا...»

«لا تقلقي يا بيلا. نحن الآن نقوم بهذا الأمر على طريقتي الخاصة».

أحسست بأصابع إدوارد تلتف حول يدي: «إنها ثوانٍ قليلة يا بيلا. ثم تذهب أليس لتزعج أحداً غيرك». شدني إلى الأمام فسرت من غير صعوبة. لم أكن خائفة من الاصطدام بإحدى الأشجار... الشجرة هي من يتأذى في هذه الحالة.

قالت له أليس بصوت لائم: «يمكنك أن تكون أكثر تقديراً... الهدية لك بقدر ما هي لها».

«صحيح! أشكرك من جديد يا أليس».

«نعم... نعم... لا بأس!»... انقطع صوت أليس فجأة لفرط

الإثارة... «توقفا هنا. أدرها قليلاً إلى اليمين. نعم! هكذا». ثم قالت بصوتها الحاد: «هل أنت مستعدة؟»

«مستعدة»... شممت روائح جديدة هنا... روائح أثارت اهتمامي وزادت فضولي. كانت روائح لا علاقة لها بقلب الغابة. روائح زهور ودخان وشجيرات شذية الرائحة ونشارة خشب! شممت رائحة شيء معدني أيضاً. شممت الرائحة الغنية... رائحة التراب العميق... رائحة أرض محفورة. سرت باتجاه ذلك اللغز.

قفزت أليس عن ظهري رافعة يديها عن عيني.

حدقت في الظلمة البنفسجية. هناك... في فسحة صغيرة في الغابة... رأيت كوخاً حجرياً ضئيلاً يبدو رمادياً مثل الخزامى تحت ضوء النجوم.

إنه ينتمي إلى هذا المكان كل الانتماء... كأنه نبت من تلك الصخور... كأنه تكوين طبيعي. كانت نباتات متسلقة تؤطر أحد الجدران... تسير متعرجة حتى السقف فتغطي عوارضه الخشبية السميكة. وكانت زهور صيفية متأخرة تتفتح في حديقة صغيرة بحجم منديل الجيب... تحت النوافذ العميقة في الجدران. وكان أمام الكوخ ممر ضيق من حجارة مسطحة تبدو أرجوانية ضاربة إلى الزرقة في ذلك الليل. كان الممر يفضي إلى باب خشبي مقوس ذي مظهر عتيق.

شددت يدي على المفتاح الذي أحمله... إنها مفاجأة كبيرة!

قالت أليس بصوت ناعم ملائم تماماً لهدوء ذلك المشهد المأخوذ من الحكايات: «ما رأيك؟»

فتحت فمي، لكني لم أقل شيئاً.

همس إدوارد: «رأت إيزمي أننا قد نحب أن يكون لنا بيتنا الخاص فترة من الزمن، لكنها لم ترد أن نبتعد عنها كثيراً. إنها تحب استغلال أي عذر لإجراء التغييرات. هذا المكان الصغير هنا يتداعى منذ مئة سنة على الأقل».

واصلت تحديقي فاغرة فمي مثل سمكة.

«هل أعجبك؟»... بدأت الخيبة تظهر على وجه أليس... «أقصد... لابد أننا نستطيع تعديله إذا أردت ذلك. كان إيميت متحمساً لإضافة عدة مئات من الأمتار المربعة، وطابق آخر، وأعمدة، وبرج... لكن إيزمي رأت أنك ستفضلين المنزل بحجمه الأصلي». بدأ صوتها يرتفع... بسرع... «نستطيع العودة إلى العمل إذا كانت إيزمي مخطئة. لن يستغرق الأمر زمناً طويلاً حتى...»

أفلحت في النطق أخيراً: «ششش!»

أطبقت فمها وراحت تنتظر. لم أستطع الكلام إلا بعد عدة ثوانٍ.

همست: «أتقدمون لي منزلاً في عيد ميلادي؟»

صحح إدوارد قولي: «يقدمون لنا! وهو ليس أكثر من كوخ. أظن أن كلمة منزل تدل على مساحة أكبر».

همست لهما: «لا تغيروا شيئاً في منزلي».

أشرق وجه أليس: «لقد أعجبك!»

هززت رأسي.

«هل أحببته؟»

أومأت برأسي.

«لا أطيق الانتظار حتى أخبر إيزمي!»

«لماذا لم تأت معنا؟»

خبت ابتسامة أليس قليلاً... تغيرت قليلاً عما كانت عليه... كما لو أن الإجابة على سؤالي أمر صعب... «أوه! تعرفين... إنهم يتذكرون جميعاً موقفك من الهدايا. لا يريدون الضغط عليك لجعلك تظهرين إعجابك بهذه الهدية».

«لكنها تعجبني! كيف لا تعجبني؟»

ربتت على ذراعي: «سوف يسرهم هذا... كما أن خزانتك مليئة بالثياب. استخدميها بحكمة. و... أظن أن هذا كل شيء».

«ألن تدخلي؟»

تراجعت أليس بعفوية عدة خطوات إلى الوراء: «إدوارد يعرف الطريق. سوف أمر بكم... فيما بعد. اتصلي بي إذا واجهت مشكلة في اختيار الثياب». قالت هذا وهي تلقي نظرة شك ثم ابتسمت... «جاسبر يريد الذهاب إلى الصيد. إلى اللقاء».

انطلقت تجري عبر الأشجار بسرعة الرصاصة.

قلت عندما اختفى صوت طيرانها: «هذا غريب! هل أنا على هذه الدرجة من السوء؟ ما كان عليهم البقاء بعيداً. أشعر الآن بالذنب. حتى أنني لم أشكرها كما يجب. علينا العودة... علينا أن نقول لإيزمي...»

«لا تكوني سخيفة يا بيلا. لا أحد منهم يعتبرك غير منطقية».

«إذن، لماذا...»

«إن بقاءنا وحدنا بعض الوقت هدية أخرى منهم. حاولت أليس أن تلمح إلى هذا الأمر».

«أوه!»

كان هذا كافياً لجعل المنزل يختفي. يمكن أن نكون في أي مكان! لم أعد أرى الأشجار أو الحجارة أو النجوم... وحده إدوارد!

قال وهو يشد يدي: «دعيني أريك الآن ما فعلوه بهذا المنزل»... ألم ينتبه إلى ذلك التيار الكهربائي النابض في جسمي مثل دم يلهب الأدرينالين اندفاعه؟

أحسست بعدم التوازن من جديد... كنت أنتظر ردود أفعال ما عاد جسدي قادراً عليها. يجب أن يخفق قلبي الآن مثل قطار بخاري موشك على دهسنا. يجب أن يخفق بصوت يصم الآذان. يجب أن تتوهج وجنتي احمراراً.

بل يجب أيضاً أن أكون مرهقة. هذا أطول يوم في حياتي كلها.

أطلقت ضحكة مرتفعة... ضحكة واحدة قصيرة سببتها الصدمة... عندما أدركت أن هذا اليوم لن ينتهي أبداً.

«هل أستطيع سماع النكتة؟»

قلت له وهو يتقدمني باتجاه الباب الصغير المقوس: «ليست نكتة عظيمة! كنت أفكر... اليوم هو أول أيام الأبدية وآخرها. أجد بعض الصعوبة في استيعاب الأمر رغم تلك المساحة الإضافية في عقلي»... ضحكت من جديد.

ضحك إدوارد معي. مد يده إلى مقبض الباب منتظراً أن أقوم بدوري. وضعت المفتاح في القفل ثم أدرته.

«أنت طبيعية جداً في هذا الأمر يا بيلا. لقد نسيت كم يجب أن يكون هذا كله غريباً بالنسبة لك. ليتني أستطيع سماعك»... انحنى فحملني بين ذراعيه بسرعة منعتني من توقع حركته... «هذا جميل!»

قال يذكرني: «قلت لي ذات مرة إنك تحبين أن أحملك عبر باب البيت. لكن لدي فضولاً... أخبريني بم تفكرين الآن».

دفع الباب فانفتح بصرير لا يكاد يسمع، ثم دخل إلى غرفة المعيشة الحجرية الصغيرة.

قلت له: «أفكر في كل شيء»... في وقت واحد. أفكر في أشياء جميلة وفي أشياء تقلقني... وأشياء جديدة، إنني أستخدم قدرات عقلي الجديدة. الآن، في هذه اللحظة، أفكر في أن إيزمي فنانة. البيت جميل جداً».

كانت تلك الغرفة شيئاً مأخوذاً من القصص والحكايات. كانت أرضها بساطاً مجنوناً من حجارة مسطحة ملساء. كانت عوارض السقف الطويلة ظاهرة... منخفضة حتى أن شخصاً طويلاً مثل جايكوب يمكن أن يصدم رأسه بها. وكانت الجدران من خشب في بعض الأماكن ومن تشكيلات حجرية في أماكن أخرى. أما الموقد الذي يشبه خلية النحل فكانت فيه بقايا نار بطيئة متراقصة. كانت نار الأخشاب التي جرفتها الأمواج... وكانت ألسنة اللهب القصيرة تبدو خضراء وزرقاء بفعل الملح.

كان في الغرفة قطع أثاث كثيرة... وما كان أي منها يناسب الآخر... لكنها معاً، كانت متناسبة متناغمة. بدا أحد الكراسي كأنه من العصور

الوسطى... أما الأريكة العثمانية قرب الموقد فكانت أكثر حداثة. ذكرني رف الكتب عند النافذة البعيدة بما كنت أراه في الأفلام الإيطالية. لا أدري كيف كانت كل قطعة متلائمة مع القطع الأخرى مثل أحجية كبيرة ثلاثية الأبعاد. كان على الجدران بضع لوحات أعرفها... بعض اللوحات التي أفضلها من المنزل الكبير. لا شك في أنها نسخ أصلية لا تقدر بثمن؛ لكنها بدت منتمية إلى هذا المكان أيضاً... مثل غيرها.

هذا مكان يستطيع إقناع أيّ كان بوجود السحر. مكان تتوقع فيه دخول بياض الثلج في أي لحظة حاملة تفاحتها في يدها... تتوقع فيه توقف وحيد القرن ليقضم قليلاً من شجيرات الورد.

كان إدوارد يظن على الدوام أنه ينتمي إلى عالم قصص الرعب. لكنه يعرف أنه مخطئ تماماً. من الواضح أنه ينتمي إلى هذا المكان... إلى عالم الحكايات.

أما الآن فقد صرت داخل الحكاية... معه.

كنت على وشك انتهاز فرصة أنه لم يستدر حتى يضعني على قدمي، وأن وجهه الجميل المذهل كان على بعد سنتيمترات مني... لكنه قال: «الحسن حظنا أن إيزمي فكرت في إضافة غرفة إلى المنزل. ما كان أحد يتوقع مجيء نيس... رينيمي».

نظرت إليه عابسة... انتقلت أفكاري إلى مكان أقل جمالاً.

قلت متذمرة: «ألم تكن تفكر مثلهم أنت أيضاً!»

«آسف يا حبيبتي! أسمع هذا في أفكارهم طيلة الوقت... تعرفين ذلك. وهذا يؤثر عليّ».

تنهدت... طفلتي... لعل أحداً لن يساعدني في هذا. لكنني لن أستسلم!

«لابد أنك تموتين شوقاً لرؤية خزانة الملابس. أو... سأقول لأليس على الأقل إنك كنت تموتين شوقاً لرؤيتها... حتى أسعدها».

«هل يجب أن أشعر بالخوف من خزانة الملابس؟»

«بل بالرعب!»

سار بي في ممر حجري ضيق له أقواس صغيرة في سقفه... كأن هذه قلعتنا الصغيرة الخاصة.

قال مومئاً برأسه صوب غرفة فارغة لها أرضية من الخشب الشاحب: «ستكون هذه غرفة رينيمي. ما كان لديهم وقت لفعل أشياء كثيرة فيها... كانت الذئاب غاضبة...»

ضحكت بهدوء... كيف تغير كل شيء سريعاً فصار على أحسن ما يرام بعد أن كان يبدو كابوساً منذ أسبوع واحد.

كيف جعل جايكوب كل شيء يسير بهذه الطريقة الرائعة!

«ها هي غرفتنا. حاولت إيزمي أن تستحضر أشياء من جزيرتها من أجلنا. لقد خمنت أننا نفضل سريراً مزدوجاً».

كان السرير أبيض اللون هائل الحجم... وكانت فوقه غلالة تتدلى من السقف إلى الأرض مثل غمامة. كانت أرض الغرفة مثل أرض الغرفة السابقة... رأيت الآن أن لونها يشبه تماماً لون رمال شاطئ بيضاء لم يمسها أحد. كانت الجدران بلون أبيض مزرق مثل يوم مشرق الشمس. وكان في الجدار الخلفي أبواب زجاجية كبيرة تنفتح على حديقة صغيرة مخفية. زهور متسلقة وبركة مستديرة صغيرة... صقيلة مثل مرآة... محاطة بحجارة لامعة. إنها محيط صغير هادئ من أجلنا.

«أوه!»... هذا كل ما استطعت قوله.

همس إدوارد: «أعرف».

وقفنا دقيقة هناك... كنا نتذكر. صحيح أن هذه الذكريات كانت بشرية... ضبابية، لكنها استولت على عقلي تماماً.

ابتسم ابتسامة متألقة عريضة ثم ضحك: «الخزانة خلف هذه الأبواب المزدوجة. يجب أن أحذرك... فهي أكبر من هذه الغرفة».

لكنني لم ألتفت صوب تلك الأبواب. ما عاد في العالم كله غير إدوارد. كانت ذراعاه تحتي... وكانت أنفاسه الحلوة على وجهي... شفتاه على بعد سنتيمترات من شفتي... لا شيء يمكن أن يحول انتباهي الآن!

«ستقول لأليس إنني جريت إلى الخزانة فوراً»... هكذا همست وأنا أدخل أصابعي في شعره فأشد رأسه صوبي... «ستقول لها إنني أمضيت ساعات هنا أجرب ثوباً بعد ثوب. سوف نكذب عليها!»

التقط إدوارد حالتي في لحظة واحدة... أو لعله كان هناك أصلاً لكنه يحاول أن يتركني أستمتع بهدية عيد ميلادي. شد وجهي صوب وجهه بعنف مفاجئ وخرج من حنجرته أنين منخفض. جعل ذلك الصوت الكهرباء تسري في جسدي فتصيبه بالجنون... كأنني لم أكن قادرة على الاقتراب منه بالسرعة الكافية.

سمعت صوت تمزق القماش تحت أيدينا. كنت سعيدة لأن ثيابي... على الأقل... كانت ممزقة أصلاً. فات أوان الحرص على الثياب. لكنني أحسست أن من الوقاحة أن نتجاهل السرير الأبيض الجميل. لكن، هل نسير كل هذه المسافة؟

ما كان شهر عسلنا الثاني مثل الأول أبداً!

كان الوقت الذي أمضيناه على الجزيرة خلاصة حياتي البشرية وختامها. كان أفضل ما فيها. كنت مستعدة تماماً لإطالة تلك الحياة البشرية... حتى أتمسك بما كان بيننا فترة أخرى من الزمن. هذا لأن الجانب الجسدي لن يبقى على حاله بعد تحولي.

لكن، لابد أن أعرف بعد هذا اليوم أن ذلك الجانب سيكون أفضل من ذي قبل.

أستطيع الآن حقاً أن أقدر جمال إدوارد... أستطيع أن أرى كل خط جميل في وجهه الرائع... أن أرى جسمه الطويل بعيني القويتين الجديدتين... أن أرى كل زاوية وكل مساحة فيه. أستطيع الآن تذوق رائحته

الثقية الحية على لساني وأن أشعر بنعومة جلده الحريرية التي لا تصدق تحت أطراف أصابعي.

كان جلدي شديد الحساسية تحت يديه أيضاً.

كان جديداً كله... شخصاً مختلفاً... عندما التحم جسدانا في جسد واحد فوق تلك الأرضية التي بلون الرمل. ما عاد لدينا حذر... ما عاد لدينا ما يكبحنا. ما عاد لدينا خوف. نستطيع الآن أن نحب معاً... أن يكون كل منا مشاركاً فاعلاً... أن نكون متكافئين أخيراً.

وكما كانت قبلتنا في الغابة... كانت كل لمسة أكثر مما اعتدت عليه. عرفت الآن أنه كان يمسك نفسه إلى حد كبير. كان هذا ضرورياً في ذلك الوقت، لكني لم أصدق مقدار ما فاتني.

حاولت أن أظل متنبهة إلى أنني أقوى منه، لكن التركيز على أي شيء كان أمراً شديد الصعوبة في وجود هذه الأحاسيس المركزة الشديدة التي تستلفت انتباهي إلى مليون مكان في جسدي كل ثانية. لن يتذمر... حتى إذا سببت له بعض الألم.

راح جزء صغير... صغير... من عقلي يفكر في تلك المشكلة العصية التي ظهرت في هذا الوضع. لن أشعر بالتعب أبداً ولن يشعر بالتعب أبداً. ليس علينا أن نلتقط أنفاسنا أو أن نستريح أو أن نأكل... أو حتى أن نذهب إلى الحمام. ما عادت لدينا تلك الحاجات الدنيوية. كان لديه أجمل جسد في العالم... وكان لدي هذا الجسد كله... لا أظن أنني سأجد نقطة أقول عندها «يكفينا هذا اليوم». سوف أرغب في المزيد دائماً. ولن ينتهي يومنا أبداً. فكيف نتوقف إذن؟

ما كنت أعرف الإجابة... لكن هذا لم يزعجني إطلاقاً.

انتبهت عندما بدأ لون السماء يتغير. تحول لون محيطنا الصغير في الخارج من الأسود إلى الرمادي... ثم صدحت قبرة في مكان شديد القرب... لعل لديها عشاً بين الورود.

عندما انتهت أغنية القبرة سألته: «هل افتقدت ذلك؟»

ما كانت هذه المرة الأولى التي نتكلم فيها، لكنه ما كان حديثاً متصلاً أيضاً.

تمتم: «افتقدت ماذا؟»

«كل شيء... الدفء، والجلد الطري، والرائحة الشهية... أنا لم أفقد شيئاً من ناحيتي لكني أتساءل إن كنت حزيناً بعض الشيء بسبب ما فقدته».

ضحك إدوارد بصوت منخفض لطيف: «من الصعب أن أجد شخصاً أقل حزناً مني. بل هذا مستحيل! لا يحصل أشخاص كثيرون على كل شيء يريدونه، إضافة إلى الأشياء التي لم يخطر لهم التفكير في الحصول عليها... في يوم واحد».

«هل تتهرب من الإجابة على سؤالي؟»

وضع يده على وجهي قائلاً: «أنت دافئة!»

كان هذا صحيحاً... بمعنى من المعاني. كنت أحس بدفء يده أيضاً. ما كان ذلك مثل لمس جلد جايكوب الملتهب... بل هو أكثر راحة... أكثر طبيعية!

عند ذلك جرت أصابعه متمهلة على وجهي متنقلة بخفة من فمي إلى رقبتي ثم إلى وسطي. لم أستطع كتم دهشتي.

«ما زال جلدك طرياً!»

كانت أصابعه مثل الحرير على جلدي... فهمت قصده.

«أما الرائحة... لا أستطيع القول إنني خسرتها. هل تذكرين رائحة الأشخاص الذين كانوا في الغابة أثناء صيدنا؟»

«ما زلت أحاول نسيانها».

«تخيلي أنك تقبلين تلك الرائحة».

اشتعلت النار في حلقي... «أوه!»

«تماماً! لذلك أقول لك لا... لم أخسر شيئاً. أنا سعيد جداً لأنني لم أخسر شيئاً. لدي الآن ما لا يملكه غيري».

كنت على وشك إخباره بأن ثمة استثناء من هذا الحكم... لكن شفتاي صارتا في غاية الانشغال.

عندما تحول لون البركة الصغيرة إلى اللؤلؤي بفعل أشعة الشمس... فكرت في سؤال آخر أطرحه عليه.

«كم يمكن أن يستمر هذا؟ أقصد... كارلايل وإيزمي... إيميت وروز... أليس وجاسبر. إنهم لا ينفقون اليوم كله في غرفهم. إنهم يخرجون مرتدين كامل ثيابهم... طيلة الوقت. هل... يخف هذا التعلق؟»... التصقت به أكثر من قبل حتى أوضح سؤالي جيداً.

«يصعب قول ذلك. الناس مختلفون... وأنت أكثر اختلافاً! يكون مصاص الدماء الجديد عادة شديد الانشغال بظمئه فلا يلاحظ غيره... فترة من الزمن. لكن هذا لا يبدو أنه يعبّر عن حالتك. عادة ما يبدأ مصاص الدماء يحس حاجاته الأخرى بعد انقضاء السنة الأولى. إن الظمأ لا يتلاشى في الحقيقة... ولا تتلاشى بقية الحاجات. الأمر، ببساطة، يتعلق بتعلم الموازنة بين هذه الحاجات... تعلم وضع الأولويات...»

«إلى متى؟»

ابتسم إدوارد فتغضن أنفه قليلاً: «كانت حالة روزالي وإيميت أسوأ الحالات. اقتضى الأمر عشر سنوات حتى صرت قادراً على تحمل الوجود على مسافة كيلومترات منهما. حتى كارلايل وإيزمي وجدا صعوبة في تحمل ذلك. لكنهما تجاوزا الأمر في النهاية. بنت لهما إيزمي منزلاً أيضاً. كان أكبر من هذا المنزل... لكن إيزمي تعرف ما تحبه روز... وتعرف ما تحبينه أنت».

«إذن... بعد عشر سنوات... ثم!»... كنت متأكدة تماماً من عدم التشابه بيننا وبين روزالي وإيميت. لكن، سيكون غريباً إن استمر الأمر معي أكثر منهما... «وهل عاد الجميع إلى الوضع الطبيعي؟ كما هم الآن؟»

ابتسم إدوارد من جديد: «لا أعرف معنى كلمة طبيعي بالنسبة لك. لقد

رأيت أفراد أسرتي يعيشون حياتهم بطريقة بشرية إلى حد كبير. لكنك كنت نائمين ليلاً!»... غمز بعينه ثم تابع: «ثمة كمية هائلة من الوقت الفائض عندما لا تكونين في حاجة إلى النوم. وهذا ما يجعل الموازنة بين الحاجات المختلفة أمراً سهلاً. ثمة سبب كامن خلف كوني أفضل موسيقي في الأسرة. وثمة سبب جعلني أقرأ معظم الكتب... إضافة إلى كارلايل... وأدرس معظم العلوم... وأتقن كثيراً من اللغات... قد يجعلك إيميت تظنين أنني أعرف هذا كله لأنني أقرأ أفكار الآخرين. لكن الحقيقة هي أني كنت أملك الكثير الكثير من الوقت الفائض».

ضحكنا معاً. كان أثر ضحكنا واضحاً على طريقة اتصال جسدينا. وفي النهاية... انتهى ذلك الحديث.



25

خدمة

بعد ذلك بزمن قليل ذكرني إدوارد بأولوياتي. لم يقتض ذلك إلا كلمة واحدة.

«رينيمي. . .»

تنهدت. لابد أنها على وشك الاستيقاظ. لابد أن الوقت شارف على السابعة صباحاً. أتراها تبحث عني الآن؟ فجأة. . . أحسست شيئاً يشبه الخوف جعل جسمي يتجمد. كيف هو شكلها اليوم؟

أحس إدوارد بمدى تشتتي وتوتري: «الوضع بخير يا حبيبتي. ارتدي ثيابك. . . وسوف نكون في المنزل خلال ثانيتين».

لعل شكلي كان كاريكاتيرياً عندما نهضت ثم نظرت إليه من جديد. . . كان جسده الماسي يتلألأ بشكل خافت في الضوء المكتوم. . . ثم، هناك إلى الغرب، كانت رينيمي تنتظرني. . . ثم نظرت إليه من جديد. . . ثم نظرت صوبها. . . تأرجح رأسي بين الجهتين. . . عدة مرات في الثانية الواحدة. ابتسم إدوارد لكنه لم يضحك. . . رجل قوي!

«إنه موضوع التوازن يا حبيبتي. أنت جيدة جداً في هذا كله. لا أظن أن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن يستقر كل شيء».

«لدينا الليل كله. . . صحيح!»

اتسعت ابتسامته: «هل تظنين أنني أجرؤ على تركك ترتدين ثيابك الآن لو لم يكن لدينا الليل كله؟»

هذا يكفيني لقضاء ساعات النهار كلها. سوف أتمكن من موازنة هذه الرغبة العارمة وسوف يكون سلوكي حسناً. . . يصعب التفكير في هذه الكلمة. ما زالت فكرة كوني أماً غريبة على عقلي مع أن رينيمي صارت الآن حقيقة حية في وجودي. أظن أن هذا الشعور يصيب كل أم. . . لكنني لم أحظ بتسعة أشهر حتى أتعود هذه الفكرة. . . خاصة في وجود طفلة تتغير من ساعة لأخرى.

جعلتني فكرة سرعة نمو رينيمي أتوتر من جديد. لم أتوقف عند الأبواب المزدوجة لألتقط أنفاسي قبل أن أكتشف ما الذي وضعته أليس هناك. اندفعت فوراً معتزمة ارتداء أول ما تقع يدي عليه. لكن، كان علي أن أتوقع مدى صعوبة ذلك.

سألت إدوارد: «أيها ثيابي؟»

كانت الغرفة أكبر من غرفة نومنا. بل لعلها أكبر من البيت كله. . . لكن علي قياسها حتى أكون واثقة من ذلك. تخيلت لحظة قصيرة كيف تمكنت أليس من إقناع إيزمي بتجاهل التناسب التقليدي والسماح بهذه الغرفة العجيبة. كيف تمكنت من ذلك؟

كان كل شيء مغلفاً بأكياس جديدة بيضاء. . . صفاً بعد صف بعد صف!

لمس إدوارد صفاً يمتد حتى نصف الغرفة إلى يسار الباب: «حسب علمي. . . كلها لك ما عدا هذا الصف».

«كل هذا!»

رفع إدوارد كتفيه.

«أليس!». . . نطقنا اسمها معاً. قاله على سبيل الشرح. . . أما أنا فقلته كأنني أشتمها. فتحت سحاب الكيس الأول فرأيت فيه ثوباً حريرياً طويلاً وردي اللون.

قد أنفق نهاري كله في محاولة العثور على شيء طبيعي أرتديه!

قال إدوارد: «دعيني أساعدك. راح يتشمم الهواء منتبهاً ثم تبع الرائحة حتى نهاية تلك الغرفة الطويلة. كان هناك منضدة زينة. تشمم الهواء من جديد ثم فتح الدرج. وبابتسامة منتصرة أخرج منه بنطلون جينز باهت اللون.

أسرعت إلى جانبه: «كيف فعلت هذا؟!»

«لهذا القماش رائحته الخاصة تماماً مثل بقية الأقمشة. الآن... سأبحث عن شيء قطني».

أرشده أنفه إلى أحد الرفوف فأخرج منه قميصاً أبيض اللون طويل الأكمام ألقاه صوبي.

قلت متحمسة: «شكراً!»

رحت أشم النسيج لأتذكر رائحته حتى تساعدني في البحث مرة قادمة. كنت أتذكر رائحة الحرير والساتان... سوف أتجنبهما.

عثر إدوارد على ثيابه في ثوانٍ قليلة. لو لم أكن قد رأيته دون ثياب لأقسمت أن لا شيء أكثر جمالاً من مظهره في بنطلونه الكاكي وقميصه البني الفاتح اللون... أمسك بيدي فانطلقنا عبر الحديقة وقفزنا فوق الجدار الحجري ثم انطلقنا في الغابة بأقصى سرعة. سحبت يدي من يده حتى نتسابق في طريق العودة. سبقني هذه المرة.

كانت رينيمي مستيقظة. رأيتها جالسة على الأرض ومعها روز وإيميت. كانت تلعب بكومة صغيرة من أدوات المائدة الفضية المشوهة. كانت تحمل في يدها ملعقة معوجة. وعندما رأتني عبر النافذة الزجاجية قذفت بالملعقة إلى الأرض فأحدثت ثقباً في الأرضية الخشبية... ثم أشارت إلي بحركة استحواذية آمرة. ضحك الجالسون كلهم... كانوا... أليس وجاسبر وإيزمي وكالارايل... جالسين على الأريكة ينظرون إليها كما لو أنها فيلم ممتع لا يستطيعون رفع أنظارهم عنه.

عبرت الباب قبل أن تبدأ ضحكتهم. قفزت عبر الغرفة ورفعتها عن الأرض في مثل لمح البصر. تبادلنا ابتسامة واسعة.

كانت مختلفة الآن... لكن الاختلاف لم يكن كبيراً. لقد ازداد طولها قليلاً... وتحول تناسب جسمها ووجهها من تناسب الرضع إلى تناسب الأطفال... قليلاً. ازداد طول شعرها أكثر من سنتيمتر واحد... كانت خصلاته اللولبية تتقافز مثل النوابض مع كل حركة من حركاتها لقد أطلقت العنان لمخيلتي أثناء رحلة العودة فتخيلت أسوأ من هذا. كانت هذه التغيرات الصغيرة مبعث راحة بعد ما كنت أتخيله. كنت واثقة من أن التغير قد تباطأ قليلاً اليوم... واثقة حتى من غير قياسات كارلايل.

ربتت رينيمي على وجهي... إنها جائعة!

سألتهم بينما توجه إدوارد إلى المطبخ: «متى استيقظت؟»... كنت أعرف أن إدوارد ذاهب لإحضار فطورها بعد أن رأى أفكارها. أظن أنه ما كان ليلاحظ قدرتها الفريدة الصغيرة لولا وجود الآخرين. فلعلها كانت ستبدو بالنسبة له مثل استماعه إلى الأفكار... سيظن أنه يسمع أفكارها فحسب.

قالت روز: «استيقظت منذ دقائق فقط. كنا على وشك الاتصال بك. إنها تريدك أنت... إنها تطالب بك. لقد ضحت إيزمي بمجموعة أدوات المائدة الفضية من أجل تسلية هذا الوحش الصغير»... ابتسمت روز لرينيمي بعاطفة ظاهرة جعلت وصفها بالوحش عديم الأثر تماماً... «ما كنا نريد... إزعاجكما».

عضت روزالي على شفتها وأشاحت بوجهها محاولة منع نفسها من الضحك. أحسست بضحك إيميت الصامت من خلفي... كان يبعث الاهتزاز في أساسات المنزل.

لم أسمح للخجل بالتأثير عليّ. قلت لرينيمي: «سوف تكون غرفتك جاهزة سريعاً. سوف تحبين الكوخ. إنه سحري!»... نظرت إلى إيزمي وقلت: «شكراً يا إيزمي! شكراً جزيلاً... إنه رائع».

قبل أن تستطيع إيزمي الرد ضحك إيميت من جديد... ما كانت ضحكته صامتة هذه المرة.

أفلح في أن يقول أثناء ضحكه: «مازال الكوخ قائماً إذن! كنت أظن أنه صار حطاماً الآن. ماذا كنتما تفعلان في الليلة الماضية؟ هل كنتما تتحدثان في الاقتصاد؟»... ثم انفجر ضاحكاً من جديد.

شددت على أسناني ورحت أذكر نفسي بالنتائج السلبية التي حصدتها عندما لم أستطع ضبط نفسي أمس. لكن إيميت ليس سريع العطب مثل سيث...

عندما خطر سيث ببالي تساءلت: «أين الذئاب اليوم؟»... ثم نظرت عبر النافذة فلم أجد أثراً يدل على ليا.

قالت روزالي وقد ظهر على جبينها شيء من العبوس: «ذهب جايكوب في الصباح الباكر. ثم لحق به سيث».

عاد إدوارد من المطبخ حاملاً كأس رينيسمي وسألها: «ما الذي أزعجه؟»... لابد أنه لمس في ذاكرة روزالي شيئاً لم ألمسه في تعابير وجهها.

وضعت رينيسمي بين ذراعي روزالي دون أن أتنفس. لعلي أبالغ في ضبط نفسي... لكنني ما كنت قادرة أبداً على إطعامها... ليس بعد!

زمجرت روزالي في البداية قائلة: «لا أعرف... لست أبالي!»... ثم أجابت على سؤاله بمزيد من التفصيل: «كان يراقب رينيسمي في نومها... فاغراً فمه الغبي. ثم قفز واقفاً من غير سبب واضح... لم ألاحظ سبباً على أي حال... وانطلق خارجاً. يسعدني التخلص منه. كلما زاد بقاؤه هنا كلما قلّت فرصة التخلص من رائحته».

أنّبتها إيزمي بلطف: «روز!»

هزت روزالي شعرها: «أظن أن لا أهمية للأمر! لن نظل هنا طويلاً!»

قال إيميت: «مازلت أقول إن علينا الذهاب إلى نيوهامشاير مباشرة ونستقر هناك»... من الواضح أنه يواصل حديثاً كان يجري قبل مجيئنا... «لقد انتسبت بيلا إلى كلية دارتماوث. والظاهر أنها ليست في حاجة إلى زمن طويل حتى تتمكن من الذهاب إليها». ثم استدار فنظر إلي نظرة معابثة...

«أنا متأكد من أنك ستكونين متفوقة في الدراسة... من الواضح أنك لن تجدي شيئاً مثيراً تفعلينه في الليل... عدا الدراسة!»

قهقهت روزالي.

رحت أقول في نفسي «لا تفقدي أعصابك... لا تفقدي أعصابك». ثم أحسست بالفخر لأنني لم أفقد أعصابي.

لكنني فوجئت لأن إدوارد فقد أعصابه.

زمجر إدوارد... أطلق صوتاً مفاجئاً مرعباً... وتجمع غضب أسود في وجهه كما تتجمع السحب قبل العاصفة.

قبل أن يستطيع أحد منا فعل أي شيء هبت أليس واقفة على قدميها.

«ما الذي يفعله؟ ما الذي فعله ذلك الذئب الغبي فأودى ببرنامجي لهذا اليوم كله؟ لا أستطيع أن أرى شيئاً!»... قذفتني بنظرة معذبة... «انظري إلى نفسك يا بيلا! يجب أن أعلمك كيف تستخدمين خزانة الملابس».

للوهلة الأولى كنت شديدة الامتنان لما فعله جايكوب... مهما يكن.

ثم رأيت إدوارد يشد قبضتيه ويقول مزمجراً: «لقد تحدث مع تشارلي. وهو يظن أن تشارلي قادم خلفه. إنه قادم إلى هنا... اليوم!»

نطقت أليس بشتيمة بدت غريبة جداً... بصوتها الناعم الأنثوي... ثم انطلقت في لمح البصر خارجة من الباب الخلفي.

قلت لاهثة: «هل أخبر تشارلي؟ لكن... ألا يفهم الوضع؟ كيف استطاع أن يفعل ذلك؟»... لا يجوز أن يعرف تشارلي شيئاً عني... عن مصاصي الدماء! سوف يضعه هذا الأمر على قائمة الإعدام التي لن تستطيع أسرة كولن كلها إنقاذه منها... «لا!»

تكلم إدوارد عبر أسنانه المطبقة: «سيدخل جايكوب الآن».

لابد أنها تمطر في جهة الشرق. دخل جايكوب من الباب هازاً شعره الرطب كما يفعل الكلب... ملقياً قطرات الماء فوق السجادة والأريكة حيث أحدثت بقعاً رمادية مستديرة فوق ذلك البياض. كانت أسنانه تلمع بين شفتيه

الداكنتين. وكانت عيناه متألقتين مستثارتين. دخل الغرفة بحركات متقافزة كأن فكرة تدمير حياة أبي تثيره.

حيانا مبتسماً: «مرحباً يا ناس».

قابله الجميع بالصمت المطبق!

انزلق سيث وليا داخلين الغرفة من خلفه في هيئتهما البشرية. كانت أيديهما ترتعد بسبب التوتر في الغرفة.

قلت وأنا أمد ذراعي: «روز!»... ناولتني روز رينيمي من غير كلام. شددتها إلى قلبي الهامد... حملتها مثل أيقونة سحرية تحميني من السلوك الطائش. سوف أبقيها بين ذراعي حتى أصبح واثقة من أن قراري بقتل جايكوب قائم على المنطق العقلي تماماً... لا على الغضب.

كانت رينيمي هادئة تماماً... كانت تراقب وتصغي. كم تفهم مما يجري يا ترى؟

قال جايكوب متحدثاً إليّ بشكل طبيعي: «سوف يصل تشارلي قريباً. خذي حذرك! أظن أن أليس ذهبت لتجلب لك نظارات شمسية... أو شيئاً من هذا القبيل!»

قلت بحدة عبر أسناني المطبقة: «أنت تظن أشياء كثيرة من عندك!... ما الذي فعلته يا جايكوب؟»

ترددت ابتسامة جايكوب لكنه ما كان قادراً على الإجابة بجدية: «أيقظني إيميت والشقراء هذا الصباح وهما يتحدثان ويتحدثان عن انتقالكم جميعاً إلى الجهة الأخرى من البلاد. فهل أستطيع أن أترككم تذهبون؟ تشارلي هو المشكلة الرئيسية هنا! أليس هذا صحيحاً؟ لقد قمت بحل هذه المشكلة».

«هل تدرك ما فعلت؟ هل تدرك الخطر الذي وضعت تشارلي فيه؟»

قال باستخفاف: «لم أضعه في خطر! إلا خطرك أنت! لكن لديك قدرة فائقة على ضبط النفس... أليس كذلك؟ هي ليست مثل قراءة الأفكار إذا أردت رأيي. بل هي أقل إثارة بكثير!»

عند ذلك تحرك إدوارد... اندفع عبر الغرفة فوقف في مواجهة جايكوب. كان أقصر من جايكوب بمقدار الرأس لكن جايكوب تراجع أمام غضبه المتقد.

زمجر إدوارد: «هذه مجرد نظرية أيها الكلب الهجين! فهل تظن أن علينا استخدام تشارلي لاختبار صحتها؟ هل فكرت في الألم الجسدي الذي ستعانيه بيلا... حتى إذا استطاعت المقاومة؟ وهل فكرت في ألمها النفسي إذا لم تستطع المقاومة؟ أظن أنك ما عدت تهتم بما يحدث لبيلا».

ضغطت رينيمي على خدي بأصابعها قلقة... كان القلق يصبغ إجابة إدوارد في رأسها.

تمكنت كلمات إدوارد أخيراً من اختراق عقل جايكوب المستثار على نحو غريب. عبس وجهه وقال: «هل سوف تتألم بيلا؟»

«كما لو أنك تصب حديداً مصهوراً في حلقها!»

همس جايكوب: «ما كنت أعرف هذا».

رد إدوارد عبر أسنانه: «إذن... كان عليك أن تسأل قبل أن تتصرف».

«لو سألت لمنعتني!»

«كان يجب منعك...»

قاطعتهما: «الأمر لا يتعلق بي أنا!»... كنت واقفة بهدوء كامل متشبثة برينيمي وبالمنطق... «الأمر متعلق بتشارلي يا جايكوب. كيف يمكنك تعريضه للخطر بهذه الطريقة؟ هل تدرك أن ليس أمامه الآن إلا الموت أو التحول إلى مصاص دماء؟»... ارتجف صوتي بسبب تلك الدموع التي ما عادت عيناي تستطيع أن تذرفها.

مازال جايكوب مضطرباً تحت وقع اتهامات إدوارد... لكن كلماتي لم تقلقه فيما يظهر: «استرخي يا بيلا! لم أقل له شيئاً غير ما كنت عازمة على قوله بنفسك».

«لكنه قادم إلى هنا».

«نعم... هذه هي الفكرة! ألم تكن خطتك هي أن تتركيه يخرج بما يشاء

من الاستنتاجات الخاطئة؟ أظن أنني أعطيته شيئاً مضللاً تماماً. إذا جاز لي أن أقول هذا!»

ابتعدت أصابعي عن رينيمي. . . لكنني أعدتها طلباً للأمان: «تحدث بشكل واضح يا جايكوب. ليس لدي صبر الآن».

«لم أقل له شيئاً عنك يا بيلا. الواقع هو أنني قلت له شيئاً عني أنا! لعل كلمة جعلته يرى هي الكلمة الأصح».

همس إدوارد: «هل تحولت أمام تشارلي؟»

همست بدوري: «هل فعلت ذلك؟»

ضحك جايكوب مبتهجاً: «إنه رجل شجاع! شجاع مثلك! لم يفقد الوعي ولم يفرغ ما بجوفه. . . لم يفعل شيئاً. لقد أذهلني! كان عليك أن تري وجهه عندما بدأت أخلع ملابسي أمامه!»

«أنت غبي تماماً! كان يمكن أن تسبب له نوبة قلبية».

«لا تقلقي. . . تشارلي بخير! إنه رجل صلب. إذا فكرت في الأمر لحظة واحدة فسوف تجدين أنني قدمت لك خدمة كبيرة».

«الديك نصف دقيقة يا جايكوب!». . . كان صوتي معدنياً من غير تعبير. . . «الديك ثلاثون ثانية حتى تقول لي كل كلمة دارت بينكما قبل أن أضع رينيمي بين يدي روزالي وأقتلع رأسك البائس من مكانه. لن يتمكن سيث من إيقافي هذه المرة».

«أوه يا بيلا! لم تكوني مأساوية بهذا الشكل سابقاً. هل هذا من خصائص مصاصي الدماء؟»

«الديك ستة وعشرون ثانية».

اتسعت عينا جايكوب مستاءتين ثم جلس على أقرب كرسي. تحرك قطيعه الصغير فأحاط به من الجانبين. ما كان يبدو على سيث وليا ذلك الاسترخاء الذي بدا على جايكوب. كانت عينا ليا مثبتتين عليّ. . . رأيت شفتيها منفرجتين قليلاً عن أسنانها.

«قرعت باب تشارلي هذا الصباح وطلبت منه أن يخرج معي في نزهة صغيرة في الغابة. حيّره ذلك، لكنني قلت له إن الأمر يتعلق بكِ وإنك عدت إلى البلدة فتبعني إلى الغابة. قلت له إنك ما عدت مريضة وإن الأمر غريب بعض الشيء. . . لكن الوضع جيد. كان على وشك المجيء فوراً ليراك، لكنني قلت له إن عليّ أن أجعله يرى شيئاً قبل ذلك. عند هذه النقطة تحولت إلى ذئب أمامه».

أحسست أن ملزمة تشد على أسناني: «أريد أن أسمع كل كلمة يا حيوان».

«طيب! قلت لي إن لدي ثلاثين ثانية فقط. . . لا بأس. . . لا بأس!». . . لابد أن تعبير وجهي أقنعه بأنني ما كنت لأحتمل مزاحه. . . «دعيني أرى. . . تحولت إلى إنسان من جديد وارتديت ثيابي ثم. . . بعد أن التقط أنفاسه. . . قلت له شيئاً من قبيل. . . تشارلي، أنت لا تعيش في العالم الذي تظن أنك تعيش فيه. الخبر الجيد هو أن شيئاً لم يتبدل. . . غير أنك صرت تعرف الآن. سوف تستمر الحياة مثلما كانت على الدوام. ويمكنك أن تعود فوراً إلى التظاهر بأنك لا تصدق شيئاً من هذا كله.

لم يستوعب الأمر إلا بعد دقيقة. . . ثم أراد أن يعرف ماذا حدث لك فعلاً. . . كل ما يتعلق بذلك المرض الغريب النادر. قلت له إنك كنت مريضة فعلاً. . . وإنك شفيت الآن. لكنك اضطررت إلى التغير قليلاً أثناء شفائك. أراد أن يعرف ما أقصده بكلمة تغير فقلت له إنك صرت تشبهين إيزمي أكثر مما تشبهين رينيه».

حدقت فيه بعينين فزعتين. . . هذا يعني أن الأمر يسير في اتجاه خطير.

«بعد دقائق قليلة سألني تشارلي. . . بهدوء تام. . . إن كنتِ قد تحولت إلى حيوان. . . مثلي. فقلت له: ليتها فعلت!». . . ضحك جايكوب.

صدر عن روزالي صوت يوحي بالاشمئزاز.

«رحت أخبره المزيد عن المستذئبين. . . لكنه لم يسمح لي بالاستمرار. لقد قاطعني قائلاً إنه يفضل ألا يعرف شيئاً محدداً. ثم سألني إن كنت تدركين

ما تورطين نفسك فيه عندما تزوجت إدوارد فقلت له: طبعاً! لقد كانت تعرف كل شيء منذ سنوات... منذ قدومها إلى فوركس. لم يعجبه ذلك كثيراً. تركته ينفس عن غضبه. وبعد أن هدأ من جديد ما عاد يريد سوى أمرين اثنين. أراد أن يراك فقلت له إن من الأفضل أن يجعلني أسبقه حتى أشرح لك الأمر».

استنشقت نفساً عميقاً: «وما الشيء الآخر الذي طلبه؟»

ابتسم جايكوب: «سوف يعجبك هذا! كان طلبه الرئيسي هو إعطاؤه أقل ما يمكن من المعلومات عن كل هذا الأمر. وإذا لم يكن ضرورياً تماماً أن يعرف شيئاً من الأشياء فمن الأفضل أن تحتفظي به لنفسك... الشيء الضروري فقط».

شعرت بالراحة للمرة الأولى منذ لحظة دخول جايكوب: «أستطيع التعامل مع هذا الأمر».

«ثمة شيء آخر! إنه يريد التظاهر بأن كل شيء طبيعي». صارت ابتسامة جايكوب راضية الآن. لابد أنه يتوقع مني الآن أن أشعر بالعرفان نحوه.

«وماذا قلت له عن رينيسمي؟...» حاولت المحافظة على حدة صوتي... كنت أقاوم شعوري بأنه فعل أمر جيداً. مازال الوقت مبكراً على هذا الشعور. مازال الوضع غير صحيح. حتى مع أن تدخل جايكوب أنتج لدى تشارلي ردة فعل أفضل مما كنت آمل...

«أوه، نعم! قلت له إنك وإدوارد صار لديكما فم جديد في العائلة»... ألقى نظرة سريعة صوب إدوارد ثم تابع: «إنها يتيمة... لا أظن أنكما ستنزعجان من كذبي. الكذب جزء من هذه اللعبة، أليس كذلك؟»... لم تصدر عن إدوارد أي استجابة فتابع جايكوب يقول: «فوجئ تشارلي بهذا الأمر... فوجئ إلى حد كبير. لكنه سألني إن كنتما تعتزمان تبنيها رسمياً. كانت كلماته بالضبط: هل ستكون ابنتهما؟ وهل سأصبح جداً؟... قلت له: نعم! تهانينا أيها الجد... لقد ابتسم قليلاً!»

عاد الشعور بالوخز في عيني... لكنه ما كان بسبب الخوف أو الأسى

هذه المرة. لقد ابتسم تشارلي لفكرة أنه سيصبح جداً! هل سيرى رينيسمي؟»

همست: «لكنها تتغير بسرعة فائقة!»

قال جايكوب بصوت ناعم: «قلت له إنها أكثر خصوصية منا كلنا مجتمعين»... نهض جايكوب وسار صوبي مشيراً بيده إلى سيث وليا عندما رأى أنهما يهمان باللحاق به... «قلت له: ثق بي! أنت لا تحب أن تعرف شيئاً عن هذا. أما إذا استطعت تجاهل الأشياء الغريبة فسوف تصيبك الدهشة فعلاً. إنها أروع شخص في العالم كله... ثم قلت له إنه إذا استطاع التعامل مع الأمر فسوف تظلون معاً فترة من الزمن حتى تسنح له فرصة التعرف عليها جيداً. أما إذا كان الأمر صعباً بالنسبة له فإنكم راحلون. عند ذلك قال لي إنه قادر على التلاؤم مع هذا الوضع إذا لم يجبر على تلقي معلومات أكثر مما يلزمه».

نظر جايكوب إليّ نصف مبتسم... كان ينتظر.

قلت له: «لن أشكرك! مازلت تعرّض تشارلي لخطر كبير».

«أنا آسف لأن الأمر مؤلم بالنسبة لك. لم أكن أعرف أنه كذلك. لقد تغير الوضع الآن يا بيلا... لكنك تظلين أعز أصدقائي... وسوف أحبك دائماً. لكني أحبك بطريقة صحيحة الآن. لقد تحقق التوازن أخيراً. لدينا معاً من لا نستطيع العيش من غيرها».

ابتسم ابتسامته... ابتسامة جايكوب الحقيقية: «مازلنا أصدقاء!»

كان علي أن أبتسم له... مهما تكن شدة مقاومتي. ابتسامة صغيرة فقط. مد لي يده.

استنشقت نفساً عميقاً ونقلت ثقل رينيسمي إلى ذراع واحدة. وضعت يدي اليسرى في يده... لم يظهر عليه أي انزعاج من برودة يدي. قلت له: «إذا لم أقتل تشارلي الليلة... فسوف أفكر في الصفح عنك».

«إذن، لا تقتلي تشارلي الليلة... سوف تكونين مدينة لي بالكثير».

حدقت فيه بدهشة.

مد يده الأخرى نحو رينيمي. . . كان يطلبها هذه المرة: «هل يمكنني؟»

«في الواقع. . . أنا أحمل رينيمي حتى تكون يدي مشغولة. . . حتى لا أقتلك يا جايكوب. ربما فيما بعد».

تنهد جايكوب لكنه لم يواصل الإلحاح. هذا تصرف حكيم من جانبه.

دخلت أليس الغرفة جرياً. كانت تحمل أشياء في يديها. . . وكان على وجهها ما ينذر بالعنف.

قالت بحدة وهي تنظر إلى المستذئبين: «أنت وأنت وأنت. . . إذا كنتم تريدون البقاء فاذهبوا إلى تلك الزاوية وظلوا فيها. أنا في حاجة إلى القدرة على الرؤية. بيلا! من الأفضل أن تعطيه الطفلة أيضاً. سوف تكونين في حاجة إلى يديك على أي حال».

ابتسم جايكوب ابتسامة انتصار.

اخترقني خوف شديد عندما فكرت في جسامة ما سيصيبني الآن. سوف أقامر على شيء مشكوك فيه. . . على ضبط النفس. . . وسوف يكون أبي البشري فأر تجارب. عادت إلى ذهني كلمات قالها إدوارد منذ قليل.

تذكرت كلمات إدوارد. . . «هل فكرت في الألم الجسدي الذي ستعانيه بيلا. . . حتى إذا استطاعت المقاومة؟ وهل فكرت في ألمها النفسي إذا لم تستطع المقاومة؟»

لكني لم أستطع تخيل ألم الفشل. صار تنفسي لهاثاً.

همست وأنا أضع رينيمي بين ذراعي جايكوب: «خذها».

أومأ برأسه وقد غضّن القلق جبينه. أشار بيده إلى الآخرين فمضوا جميعاً إلى الزاوية البعيدة من الغرفة. جلس سيث وجايكوب على الأرض من فورهم لكن ليا هزت رأسها وشدت على شفتيها.

قالت بحدة: «هل أستطيع الذهاب؟». . . بدت غير مرتاحة في جسدها البشري. . . كانت ترتدي القميص القذر نفسه والبنطلون القطني القصير نفسه. . . إنها الملابس التي كانت ترتديها عندما زمجرت عليّ في ذلك اليوم.

كان شعرها القصير مشعثاً ناتئاً في كل اتجاه. مازالت ذراعاها ترتجفان.

قال لها جايكوب: «طبعاً!»

أضافت أليس: «التزمي جهة الشرق حتى لا تمري في طريق تشارلي».

لم تنظر ليا إلى أليس. خرجت من الباب الخلفي ومضت متثاقلة الخطى صوب الأشجار حتى تتحول.

عاد إدوارد إلى جانبي وراح يمسح بأصابعه على وجهي: «تستطيعين فعل هذا. أعرف أنك تستطيعين. وسوف أساعدك. سنساعدك كلنا».

قابلت نظرات إدوارد بصراخ الرعب الصامت في تعابير وجهي. هل لديه القوة الكافية لإيقافي إذا قمت بحركة خاطئة؟

«لو لم أكن مؤمناً بأنك تستطيعين التعامل مع هذا الأمر لرحلنا اليوم. . . لرحلنا في هذه الدقيقة. لكنك تستطيعين! وسوف تكونين أكثر سعادة إذا استطعت جعل تشارلي حاضراً في حياتك».

حاولت تقليل سرعة تنفسي.

مدت أليس يدها. رأيت في كفها علبة صغيرة بيضاء: «إنها عدسات لاصقة. سوف تضايق عينيك لكنها غير مؤذية. وسوف تجعل الرؤية غائمة قليلاً. إنها مزعجة! كما أنها لن تعطي عينيك لونهما القديم نفسه. . . لكن هذا أفضل من اللون الأحمر اللامع. أليس كذلك».

رمت العلبة في الهواء فالتقطتها.

«متى استطعت أن. . .»

«قبل أن تسافري في شهر العسل. لقد احتطت لعدة أشكال مختلفة من المستقبل».

أومأت برأسي وفتحت العلبة. لم أضع عدسات لاصقة من قبل. . . لكن، هل يمكن أن يكون الأمر صعباً؟ أمسكت العدسة البنية المحدبة بين أصابعي وضغطتها على عيني.

رحت أرمش بعيني. . . شوشت العدسة نظري. كنت أرى من خلالها

طبعاً، لكنني كنت أرى أيضاً بنيتها نفسها. ظلت عيناي تركزان على الخدوش المجهرية وعلى الأجزاء المعيبة في العدسة.

تمتمت وأنا أضع العدسة الثانية: «فهمت قصدك الآن»... حاولت ألا أرمش هذه المرة. أرادت عيني... تلقائياً... أن تتخلص من هذا الإزعاج.

«كيف أبدو الآن؟»

ابتسم إدوارد: «رائعة... طبعاً...»

أكملت أليس فكرته نافدة الصبر: «نعم... نعم... إنها تبدو رائعة دائماً. هذا أفضل من اللون الأحمر... لكنني لا أستطيع امتداحها أكثر من ذلك. لونها بني موحل... أما اللون البني الذي كان في عينيك فهو أجمل كثيراً. تذكري أن هذه العدسات لا تدوم طويلاً... سوف يتلفها السم في عينيك خلال ساعات قليلة. لذلك، إذا أطال تشارلي البقاء هنا فسوف يكون عليك الاعتذار والخروج من الغرفة قليلاً لاستبدالها. لكنها فكرة جيدة في جميع الأحوال... لأن البشر يحتاجون الذهاب إلى الحمام»... راحت تهز رأسها... «إيزمي! هل تعطين بيلا بعض النصائح فيما يخص التصرف بطريقة بشرية ريثما أضع مزيداً من العدسات في الحمام؟»

«كم بقي من الوقت؟»

«سيصل تشارلي بعد خمس دقائق. تصرفي ببساطة».

جاءت إيزمي وأمسكت بيدي: «الشيء الرئيسي هو أن لا تجلسي ساكنة تماماً وألا تتحركي بسرعة شديدة».

تدخل إيميت: «اجلسي إذا جلس. لا يحب البشر الوقوف طويلاً».

أضاف جاسبر: «يجب أن تحركي عينيك كل نصف دقيقة، أو نحو ذلك. لا يحدق البشر في شيء واحد فترة طويلة».

قالت روزالي: «ضعي ساقاً فوق ساق خمس دقائق... ثم ضعي قدماً فوق قدم في الدقائق التي تليها».

أومأت برأسي جواباً على كل اقتراح. لقد لاحظتهم يقومون ببعض

هذه الأشياء نهار أمس. أظن أنني أستطيع تقليد حركاتهم.

قال إيميت: «وعليك أيضاً أن ترمشي بعينيك عدة مرات في الدقيقة»... تجهم وجهه ثم انطلق فالتقط جهاز التحكم عن الطاولة ووضع التلفزيون على مباراة كرة قدم جامعية.

قال جاسبر: «عليك أن تحركي يديك أيضاً. يمكن أن تمسدي شعرك أو تتظاهري بأنك تحكين مكاناً في جسمك».

قالت أليس متذمرة عندما عادت: «قلت إيزمي فقط... سوف تربكونها!»

قلت: «لا! أظن أنني استوعبت كل ما قيل. عليّ أن أجلس وأنظر من حولي وأرمش بعيني وأتململ في جلستي».

قالت إيزمي مستحسنة: «صحيح!»... واحتضنت كتفيّ.

عبس جاسبر: «سوف تحبسين أنفاسك بالقدر الممكن... لكنك في حاجة إلى تحريك كتفيك قليلاً بشكل يشبه حركة التنفس».

استنشقت الهواء ثم أومأت برأسي.

احتضنني إدوارد من الجهة الأخرى مكرراً: «تستطيعين فعل هذا»... كان يهمس بهذا التشجيع في أذني.

قالت أليس: «بقي دقيقتان! لعل من الأفضل أن تجلسي على الأريكة... لقد كنت مريضة... لا تنسي هذا. وعلى هذا النحو لن يراك متحركة منذ البداية».

دفعتني أليس إلى الأريكة. حاولت التحرك ببطء... حاولت أن أجعل حركة أطرافي خرقاء بعض الشيء... ظهر العجب على وجهها... لابد أنني لم أحسن القيام بذلك.

قلت: «جايكوب! أريد رينيمي».

تجهم وجهه... ولم يتحرك.

هزت أليس رأسها: «بيلا! هذا لا يساعدني على الرؤية».

«لكنني في حاجة إليها. إنها تساعدني على الاحتفاظ بهدوئي». كان الخوف في صوتي ظاهراً.

قالت أليس بصوت كالأنين: «لا بأس! عليك حملها بحيث تكون ساكنة بالقدر الممكن. وسوف أحاول الرؤية... من حولها»... تنهدت قلقة مثل من طلبوا منه أن يعمل ساعات إضافية في يوم العطلة. تنهد جايكوب أيضاً لكنه أحضر رينيمي ثم تراجع سريعاً تحت وقع نظرات أليس.

جلس إدوارد بجانبي واضعاً ذراعيه حولي وحول رينيمي. حنى إلى الأمام ونظر في عيني رينيمي بجدية تامة.

قال بصوت وقور: «رينيمي! سوف يأتي شخص لرؤيتك ورؤية أمك»... كان يتكلم كما لو أنه يتوقع منها أن تفهم كل كلمة من كلماته... فهل تفهم فعلاً؟... نظرت رينيمي إليه بعينين صافيتين جادتين... «لكنه ليس مثلنا... وليس مثل جايكوب أيضاً. علينا أن نكون حذرين تماماً. وعليك ألا تخبريه بالأشياء كما تخبريننا».

لمست رينيمي وجهه بيدها.

قال: «تماماً! وسوف يجعلك وجوده تشعرين بالظمأ. لكن... لا يجوز أن تعضيه. فهو لن يشفى كما يشفى جايكوب».

همست: «هل تفهمك؟»

«إنها تفهمني. سوف تكونين محترسة يا رينيمي أليس كذلك؟ سوف تساعديننا!»

لمست رينيمي وجهه من جديد.

«لا! لا أبالي بأن تعضي جايكوب. لا بأس في هذا».

ضحك جايكوب.

«لعل عليك الذهاب يا جايكوب»... هكذا قال له إدوارد بصوت بارد محدقاً في اتجاهه بغضب. لم يسامح إدوارد جايكوب لأنه يعرف أنني سوف أتألم... كيفما جرى الأمر الآن. أما أنا... فسوف أتلقى ألم

الاحتراق بسرور إذا تمكنت من جعله أسوأ ما أواجهه اليوم.

قال جايكوب: «قلت لتشارلي إنني سأكون حاضراً. إنه في حاجة إلى المساندة المعنوية».

قال إدوارد ساخراً: «المساندة المعنوية!... أنت أسوأ الوحوش هنا حسب معلومات تشارلي!»

احتج جايكوب... ثم راح يضحك لنفسه بهدوء.

سمعت صوت عجلات السيارة تترك الطريق العام لتدخل الدرب الترابية الرطبة الهادئة المؤدية إلى المنزل. تسارعت أنفاسي من جديد. يجب أن يخفق قلبي عنيفاً الآن... ما كان لجسدي ردات الفعل الطبيعية... وهذا ما زاد من قلقي.

رحت أركز انتباهي على نبض قلب رينيمي... حتى أهدئ نفسي. كان لهذا مفعول سريع.

همس جاسبر مستحسناً: «جيد يا بيلا!»

شد إدوارد ذراعيه حول كتفي.

سألته: «هل أنت متأكد؟»

ابتسم وقبلني قائلاً: «متأكد... تستطيعين القيام بأي شيء».

لم تكن قبلته قبلة خاطفة على الشفتين... فاجأتني ردة فعلي. كانت قبلة إدوارد مثل حقنة من مادة أدمنت عليها... حقنة في جهازي العصبي. استبد بي توق عنيف. استنجدت بتركيزي كله حتى أتذكر الطفلة التي بين ذراعي.

شعر جاسبر بتغير حالتي: «إدوارد! لا يجوز أن تشتت انتباهها في هذه اللحظة. عليها أن تستطيع التركيز».

ابتعد إدوارد قائلاً: «أوه! آسف».

ضحكت. هكذا هو وضعي منذ البداية نفسها... منذ القبلة الأولى.

قلت له: «فيما بعد!»... جعل الترقب جسمي يتوتر كله.

قال جاسبر يحثني: «ركزي يا بيلا».

دفعت بتلك المشاعر بعيداً. تشارلي... هذا هو الشيء الرئيسي الآن. عليّ المحافظة على سلامته اليوم. ثم لدينا الليل كله...

«بيلا!»

«آسفة يا جاسبر».

ضحك إيميت!

صار صوت سيارة تشارلي أقرب... ثم أقرب. مضى وقت المزاح... سكن الجميع الآن. وضعت ساقاً فوق ساق ورحت أتمرن على الرمش بعيني.

توقفت السيارة أمام المنزل... ظل محركها دائراً عدة ثوان. هل تشارلي متوتر مثلي يا ترى؟ انطفأ المحرك وسمعت صوت صفق الباب. ثلاث خطوات على العشب... ثماني خبطات على الدرجات الخشبية... أربع خطوات مجلجلة في المدخل... ثم صمت. استنشق تشارلي نفساً عميقاً.

طرق الباب!

استنشقت الهواء... لعلها المرة الأخيرة. تغلغلت رينيمي عميقاً بين أحضاني وخبأت وجهها في شعري.

فتح كارلايل الباب. تغير تعبير التوتر في وجهه إلى تعبير بشوش مرحب... كان ذلك مثل تغيير قناة التلفزيون.

قال: «أهلاً يا تشارلي»... وبدا على وجهه المقدار المناسب من الشعور بالإحراج. أليس يفترض أن نكون في مركز مراقبة الأوبئة في أتلانتا؟ يعرف تشارلي أننا كذبنا عليه.

حياه تشارلي بجفاف: «كارلايل! أين بيلا؟»

قلت: «أنا هنا يا أبي».

أوه! صوتي غير مناسب إطلاقاً. كما أنني استهلكت قسماً من الهواء الذي خزنته في رئتي. استنشقت الهواء من جديد... لم تنتشر رائحة تشارلي في الغرفة بعد.

أنبأني تعبير وجه تشارلي بمدى غرابة صوتي. تركزت نظراته عليّ واتسعت عيناه.

قرأت المشاعر التي عبرت وجهه: الصدمة... عدم التصديق... الألم... الفقدان... الخوف... الغضب... الشك... مزيد من الألم.

عضضت شفتي. غريب! كان وقع أسناني الجديدة أكثر حدة على شفتي الحجريتين مما كان وقع أسناني الطبيعية على شفتي البشريتين الطريتين.

همس تشارلي: «هل هذه أنت يا بيلا؟»

«نعم!»... أجفلني صوتي الرنان... «مرحباً يا أبي».

استنشق نفساً عميقاً حتى يستطيع تهدئة نفسه.

حياه جايكوب من الزاوية: «مرحباً يا تشارلي! كيف حالك؟»

نظر تشارلي إلى جايكوب نظرة واحدة ثم ارتعد للذكرى... ثم نظر إلي من جديد.

سار تشارلي عبر الغرفة ببطء حتى صار على مسافة قصيرة مني. قذف إدوارد بنظرة اتهام ثم عادت عيناه إليّ. كانت حرارة جسمه تخفق مع كل نبضة من نبضات قلبه.

سأل من جديد: «بيلا؟»

تكلمت بصوت أكثر انخفاضاً... حاولت إبعاد الرنين عنه: «هذه أنا حقاً».

شد فكيه.

قلت: «آسفة يا أبي».

سألني: «هل أنت بخير؟»

قلت مؤكدة: «نعم! أنا بخير تماماً. أنا في صحة جيدة... مثل حصان!»

انتهى ما لدي من هواء!

«قال لي جايكوب إن هذا كان... ضرورياً... قال إنك كنت تموتين».
نطق تشارلي هذه الكلمات بشكل يوحي أنه لا يصدق منها شيئاً.

حاولت تثبيت نفسي... حاولت التركيز على وزن رينيمي الدافئ بين ذراعي... ملت صوب إدوارد ملتمسة مساندته... ثم استنشقت نفساً عميقاً. كانت رائحة تشارلي لهيباً أحرقني... لهيباً سرى في حنجرتي. لكن الأمر كان أكثر من الألم. كان طعنات حارقة من الرغبة أيضاً. كانت رائحة تشارلي ألذ من كل ما يمكن أن أتخيله. كانت مثل رائحة هؤلاء المجهولين الذين كانوا في الغابة أثناء صيدنا... بل ألذ منها بمرتين، وما كان بعيداً عني إلا خطوة واحدة... كان يشع بتلك الحرارة وتلك الرائحة التي تسيل اللعاب.

لكنني لست في الصيد الآن. هذا أبي!

شد إدوارد على كتفي متعاطفاً ونظر إليّ جايكوب نظرة اعتذار من زاوية الغرفة.

حاولت استجماع شتات نفسي وتجاهل الألم... وتجاهل الظمأ. كان تشارلي ينتظر إجابتي.

«لقد قال لك جايكوب الحقيقة».

جأر تشارلي: «أنت الملومة إذن!»

تمنيت لو أن تشارلي يستطيع رؤية ما هو خلف التغيرات في وجهي... تمنيت لو يستطيع قراءة الأسى في داخلي.

ومن تحت شعري... راحت رينيمي تتنشق الهواء... لقد وصلتها رائحة تشارلي أيضاً. أحكمت ذراعي من حولها.

رأى تشارلي نظرتي القلقة فنظر إلى حجري. قال: «أوه!» وزال غضبه كله... ما عاد في وجهه إلا تعبير الدهشة... «هذه هي! اليتيمة التي قال جايكوب إنكم تعتزمون تبنيها».

قال إدوارد: «ابنة أخي!»... لقد كذب بكل يسر. لابد أنه يرى الشبه بينه وبين رينيمي كبيراً إلى حد لا يمكن إنكاره. يستحسن الزعم أنهما قريبان منذ البداية.

قال تشارلي وقد عادت نبرة الاتهام إلى صوته: «حسبتك فقدت أفراد أسرتك كلهم».

«فقدت والديّ، ثم تبنى أخي الأكبر... مثلي. لم أره بعد ذلك. لكن المحكمة عثرت عليّ عندما توفي مع زوجته في حادث سيارة تاركين طفلتهما الوحيدة من غير أقارب».

كان إدوارد شديد البراعة في هذا. كان صوته متوازناً... فيه القدر الصحيح من البراءة. عليّ أن أتمرن حتى أستطيع أن أفعل مثله.

نظرت رينيمي من تحت شعري وراحت تتشمم الهواء من جديد. نظرت بحياء إلى تشارلي من تحت أهدابها الطويلة... ثم اختبأت.

«إنها... إنها... جميلة».

قال إدوارد: «نعم».

«لكنها مسؤولية كبيرة! مازلتما في بداية الطريق».

مسح إدوارد على خد رينيمي برقة قائلاً: «وماذا نستطيع أن نفعل؟»... رأيته يلمس شفتيها... لحظة واحدة... للتذكير!... «هل ترفضها لو كنت مكاننا؟»

هز تشارلي رأسه شارداً: «معك حق! قال جايكوب إنكم أطلقت عليها اسم نيسي».

قلت بصوت حاد: «لا! لم نطلق عليها هذا الاسم. اسمها رينيمي».

عادت نظرات تشارلي إليّ: «ما هو شعورك تجاهها؟ لعل كارلايل وإيزمي يستطيعان...»

قاطعته: «إنها لي... وأنا أريدها».

عبس تشارلي: «وهل تجعلينني جداً في هذا العمر المبكر؟»

ابتسم إدوارد: «صار كارلايل جداً... أيضاً».

نظر تشارلي إلى كارلايل غير مصدق... مازال كارلايل واقفاً عند الباب. كان يبدو كأنه شقيق زيوس الأصغر... والأكثر جمالاً.

ضحك تشارلي: «أظن أن هذا يجعلني أشعر بشعور أفضل»... عادت عيناه إلى رينيمي... «إنها بهجة للعين». جاءت أنفاسه الحارة فملأت الفراغ بيننا.

مالت رينيمي صوب تلك الرائحة خارجة من تحت شعري ونظرت إلى وجهه بشكل مباشر... للمرة الأولى. شهق تشارلي.

أعرف ما رآه! رأى عيني... عينيه... منقولتين إلى وجهها الجميل.

ازدادت سرعة تنفس تشارلي. ارتجفت شفتاه... استطعت قراءة الأرقام التي كان يقولها. كان يحسب الزمن رجوعاً... محاولاً التوفيق بين تسعة أشهر وشهر واحد. كان يحاول استجماع الأمر لكنه لم يستطع الخروج بنتيجة.

نهض جايكوب وجاء فربت على ظهر تشارلي ثم انحنى فهمس شيئاً في أذنه. كان تشارلي وحده جاهلاً أننا نستطيع سماع ذلك الهمس كلنا.

«هل تريد أن تعرف يا تشارلي؟ هذا ممكن... لا مشكلة... أؤكد لك».

ابتلع تشارلي ريقه وأومأ برأسه. ثم اتقدت عيناه وتقدم خطوة صوب إدوارد... كانت قبضتاه مشدودتين.

«لا أريد أن أعرف كل شيء، لكني سئمت الأكاذيب».

قال إدوارد بهدوء: «أنا آسف! لكنك في حاجة إلى معرفة القصة التي نقولها للناس أكثر من حاجتك إلى معرفة الحقيقة. إذا أردت أن تكون جزءاً من هذا السر فلا أهمية إلا للقصة التي تقال للناس. إنها من أجل حماية بيلا ورينيمي... وحمايتنا كلنا. فهل تستطيع تحمل الأكاذيب من أجلهما؟»

كانت الغرفة ملأى بالتماثيل... فحركت ساقي قليلاً.

تنفس تشارلي بصعوبة ثم اتجهت نظراته صوبي: «كان بإمكانك إعطائي إنذاراً!»

«وهل كان سيجعل الأمر أكثر سهولة؟»

عبس تشارلي ثم ركع على الأرض قبالتي. كنت أرى حركة الدم في

رقبته... تحت جلده. أحسست بالحرارة مشعة من تلك النقطة.

كانت رينيمي مثلي. ابتسمت ومدت كفها الوردية صوبه. أمسكت بها «وضعت يدها الأخرى على رقبتي... رأيت في أفكارها ظمأها وفضولها ووجه تشارلي. وأحسست أنها فهمت كلمات إدوارد كل الفهم. كانت ظمأى... لكنها تغلبت على ظمئها... في الفكرة نفسها.

لهث تشارلي: «واو! كم عمرها؟»... كان ينظر إلى أسنانها المكتملة.

«همم...»

قال إدوارد: «ثلاثة أشهر»... ثم أضاف ببطء «بالأحرى... هي بحجم طفلة عمرها ثلاثة أشهر... تقريباً. لكنها أصغر سناً من بعض النواحي وأكبر سناً من نواح أخرى».

لوحت له رينيمي بيدها... بحركة بطيئة واعية.

رمشت عينا تشارلي غير مصدقتين.

لكزه جايكوب بمرفقه: «قلت لك إنها خاصة... ألم أقل هذا؟»

ابتعد تشارلي عن هذا التماس مع جايكوب.

قال جايكوب: «أوه! هيا يا تشارلي. أنا هو ذلك الشخص نفسه... الشخص الذي تعرفه. تظاهر أن ما حدث بعد الظهر لم يحدث».

جعل هذا التذكير شفتي تشارلي تبيضان، لكنه أومأ برأسه: «ما هو دورك في هذا يا جايكوب؟ وما مقدار ما يعرفه بيلي؟ وماذا تفعل أنت هنا؟»... نظر إلى وجه جايكوب... المشرق لأنه ينظر إلى رينيمي.

«أستطيع إخبارك كل شيء... بيلي يعرف كل شيء... لكن القصة تتضمن كلاماً كثيراً عن المستذئ...»

قال تشارلي محتجاً وهو يسد أذنيه: «أوه! لا بأس».

ابتسم جايكوب: «سيكون كل شيء على ما يرام يا تشارلي. عليك فقط أن تحاول عدم تصديق شيء مما تراه».

غمغم والدي بكلام غير مفهوم.

صاح إيميت فجأة بصوت عميق: «واو! رائع. . . . هيا يا تماسيح!»

قفز جايكوب وتشارلي معاً. . . أما البقية فتجمدوا في أماكنهم.

استوعب تشارلي الأمر فنظر إلى إيميت من فوق كتفه: «هل يتقدم فريق فلوريدا؟»

أجابه إيميت: «لقد سجلوا الهدف الأول». . . ألقى إيميت نظرة صوبي وهو يحرك حاجبيه إلى الأمام والخلف كما يفعل الشرير في مسرحية للأطفال. . . «حان الوقت لأن يسجل أحد هدفاً هنا».

كتمت زمجرة أوشكت على الخروج من فمي. ما هذه البذاءة في حضور أبي؟ لقد تجاوز الأمر الحد!

لكن تشارلي ما كان قادراً على ملاحظة ذلك التلميح. استنشق نفساً آخر. . . عبّ الهواء كما لو أنه يحاول إيصاله حتى أصابع قدميه. هل أحسده؟ هب واقفاً على قدميه ودار حول جايكوب ثم سقط جالساً فوق أحد الكراسي. قال متنهداً: «جيد! أظن أن علينا أن نرى. . . هل يستطيعون الصمود حتى النهاية».

26

متالقة

قال تشارلي متردداً وهو يضع قدماً واحدة خارج الباب: «لا أعرف مقدار ما يجب قوله لرينيه عن هذا الأمر!». . . قال هذا ثم قرقعت معدته.

أومأت برأسي: «أعرف! لا أريد أن أخيفها. من الأفضل أن نحميها. هذا الأمر ليس مناسباً لضعاف القلوب».

قال مبتسماً ابتسامة عوج لها شفته: «لو كنت أعرف كيف أحميك أنت لحاولت. لكني أظن أنك لست من فئة ضعاف القلوب إطلاقاً».

ابتسمت له وأنا أستنشق نفساً حارقاً جديداً عبر أسناني.

امتدت يد تشارلي إلى بطنه بذهن شارد: «سأفكر في شيء ما. لدينا وقت كاف لمناقشة هذه الأمور. . . صحيح!»

قلت له مؤكدة: «صحيح».

كان هذا النهار طويلاً على نحو ما. . . شديد القصر على نحو ما! تأخر تشارلي عن موعد عشائه. . . إن سو كليرووتر تعد الطعام من أجله ومن أجل بيلي. ستكون أمسيته معهما غريبة في هذا اليوم. . . لكنه سيأكل طعاماً حقيقياً على الأقل. كنت سعيدة لأن ثمة من يحاول حمايته من الموت جوعاً. . . فهو عاجز عن الطبخ.

طيلة هذا اليوم. . . جعل التوتر الدقائق تمر بطيئة. لم يفارق التوتر

تشارلي، لكنه لم يكن يستعجل الذهاب أيضاً. لقد شاهد مباراتين كاملتين. كان، لحسن الحظ، مستغرقاً في أفكاره فلم ينتبه أبداً إلى تلميحات إيميت ونكاته التي راحت تزداد بذاءة وابتعاداً عن مباراة كرة القدم مع كل تعليق أثناء المباراة وبعدها. ثم جاءت الأخبار فلم يتحرك تشارلي حتى ذكّره سيث بالوقت.

«ستجعل بيلي وأمي يجوعان يا تشارلي! هيا بنا. سوف ترى بيلا ونيسي غداً. دعنا نذهب لنأكل».

بدا واضحاً في عيني تشارلي أنه لم يصدق ما قاله سيث تمام التصديق، لكنه سار خلفه صوب الباب. مازال الشك في عينيه عندما وقف الآن. انتهى المطر وصارت الغيوم أخف من ذي قبل. ربما تظهر الشمس لحظة المغيب.

قال لي تشارلي: «يقول جايكوب إنكم راحلون».

«ما كنت أرغب في الرحيل إن تمكنت من تجنبه. هذا سبب بقائنا حتى الآن».

«يقول إنك تستطيعين البقاء بعض الوقت، لكن هذا لن يكون إلا إذا كنتُ متماسكاً تماماً... وإذا أبقيت فمي مغلقاً».

«نعم... لكنني لا أستطيع أن أعدك بعدم الرحيل يا أبي. الأمر معقد بعض الشيء...»

«أخبريني عندما ترحلين!»

«سوف أفعل».

«لكنك ستزورينني... إذا كان عليك الرحيل؟»

«أعدك بهذا يا أبي. الآن، بعد أن صرت تعرف قليلاً... أظن أن هذا صار ممكناً. سأظل قريبة منك بالقدر الذي تريده».

عض على شفته نصف ثانية ثم مال صوبي ببطء ماداً يداً حذرة. نقلت ثقل رينيمي... لقد نامت الآن... إلى ذراعي اليسرى وشددت على أسناني وحبست أنفاسي ولففت ذراعي اليمنى حول وسطه الحار الطري.

غمغم قائلاً: «ابقي قريبة مني حقاً... قريبة حقاً».

همست من خلال أسناني المطبقة: «أحبك يا أبي».

ارتعد جسمه قليلاً ثم ابتعد عني. خففت ذراعي.

«وأنا أحبك يا ابنتي. لن يتغير هذا مهما حدث من تغيرات». لمس خد رينيمي الوردي بإصبعه قائلاً: «إنها تشبهك كثيراً».

حافظت على هدوء تعابير وجهي... لكن مشاعري كانت غير ذلك: «أظن أنها تشبه إدوارد أكثر مني»... ترددت ثم قلت: «إن شعرها أجعد مثل شعرك».

فوجئ تشارلي ثم قال: «فعلاً! هذا صحيح... هوه... صرت جداً!»... هز رأسه متشككاً: «هل أستطيع حملها؟»

فوجئت تماماً لكني تمالكت نفسي. فكرت في الأمر نصف ثانية ثم قررت أنني أستطيع المراهنة على حظي الطيب... قررت هذا اعتماداً على مظهر رينيمي لأنها كانت تبدو مستغرقة في النوم... لقد جرت الأمور اليوم على أحسن ما يرام...

قلت له: «خذها»... ومددتها صوبه. تحركت ذراعاه تلقائياً فشكلتا ما يشبه المهد. وضعت رينيمي في هذا المهد. ما كان جلده بمثل حرارة جلدها... لكن حنجرتي تشنجت قليلاً عندما أحسست بالدفء يسري تحت جلده. تحبحب جلد ذراعه حيث مسّ جلدي. لا أعرف إن كانت برودة جلدي هي السبب في ذلك أم أنه رد فعل نفسيّ تماماً.

قال تشارلي مستغرباً عندما شعر بوزنها: «إنها... ضخمة!»

عبست قليلاً. كانت مثل الريشة بين ذراعي.

قال تشارلي عندما رأى تعبير وجهي: «هذا جيد»... ثم قال لنفسه: «عليها أن تكون صلبة لأنها محاطة بهذا الجنون كله». راح يهز ذراعيه برفق متمايلاً من جانب لآخر... «إنها أجمل طفلة أراها في حياتي... بما في ذلك أنت. آسف، لكن هذه هي الحقيقة».

«أعرف هذا».

قال من جديد: «طفلة جميلة!»... لكن صوته صار أقرب إلى الهديل الآن.

رأيت ذلك في تعابير وجهه... رأيته يتنامى فيه. كان تشارلي كمن لا حَوْلَ له أمام سحرها... تماماً مثلنا. لقد استحوذت عليه في ثانيتين فقط.

«هل أستطيع المجيء غداً؟»

«طبعاً يا أبي! طبعاً! سوف تجدنا هنا».

قال بنبرة صارمة: «من الخير لكم أن أجدكم»... لكن تعبير وجهه كان لطيفاً... مازال يحدق في رينيمي... «أراك غداً يا نيس».

«أنت أيضاً يا أبي!»

«ماذا؟»

«اسمها رينيمي! إنه من رينيه وإيزمي معاً. لا أقبل تغييره». حاولت تهدئة نفسي من غير تنفس عميق هذه المرة... «هل تريد أن تعرف اسمها الأوسط؟»

«نعم».

«اسمها كارلي. إنه مأخوذ من تشارلي وكارلايل... معاً».

أضاءت وجهه ابتسامة غضنت حواف عينيه... ابتسامة فاجأتني: «شكراً يا بيلا».

«شكراً لك يا أبي. لقد تغير الكثير... بسرعة كبيرة. رأسي لا يكف عن الدوران. لو لم تكن هنا الآن لما عرفت كيف أحافظ على إدراك الواقع»... أوشكت أن أقول: إدراك طبيعتي. لعل هذا أكثر مما يجب أن يسمعه.

قرقعت معدته من جديد.

«اذهب لتأكل يا أبي. وسوف تجدنا هنا».

تذكرت كيف شعرت عندما كنت مثله... عند أول احتكاك لي مع هذه العجائب... إحساس بأن كل شيء سيختفي مع شروق الشمس.

أومأ تشارلي برأسه ثم أعاد رينيمي من غير حماس. نظر إلى داخل

المنزل... من فوقي. حارت عيناه قليلاً في تلك الغرفة البيضاء الكبيرة. كان الجميع ساكنين... إلا جايكوب الذي كنت أستطيع سماعه مغيراً على البراد في المطبخ. كانت أليس جالسة على الدرجة السفلية من السلم المؤدي إلى الطابق العلوي. وكان جاسبر يضع رأسه في حجرها. كان كارلايل منكباً على كتاب ضخم بين يديه. أما إيزمي فكانت تدندن شيئاً لنفسها وهي ترسم شيئاً في دفترها في حين كان إيميت وروزالي يبنيان بيتاً ضخماً من أوراق اللعب... تحت السلم. وكان إدوارد جالساً إلى البيانو يعزف لحناً شديد الرقة. ما كان شيء في الغرفة يشير إلى قرب نهاية ذلك اليوم... إلى اقتراب وقت الطعام أو وقت السهرة. تغير شيء غير ملموس في جو الغرفة. ما عادت أسرة كولن تحاول التظاهر كما تفعل في العادة... لقد سقطت تلك الواجهة البشرية... قليلاً. قليلاً... إلى الحد الكافي لأن يشعر تشارلي بشيء من الفرق.

ارتعد جسم تشارلي قليلاً... هز رأسه ثم تنهد: «أراك غداً يا بيلا». عبس قليلاً ثم أضاف: «أقصد... لا أظن أن وضعك لا يبدو... جيداً! سوف أعتاد الأمر».

«شكراً يا أبي».

أومأ برأسه وسار وئيداً صوب سيارته. راقبت ابتعاد السيارة. لم أدرك أنني نجحت حتى سمعت صوت العجلات على الطريق السريع... لقد تمكنت حقاً من قضاء ذلك اليوم كله من غير إيذاء تشارلي. تمكنت من ذلك وحدي. لابد أن لدي قدرة خارقة!

هذا جيد إلى حد لا يصدق. هل أستطيع حقاً أن أحظى بأسرتي الجديدة وقسم من أسرتي القديمة معاً؟ كم كان هذا اليوم أفضل من الأمس!

قلت: «واو!»... ثم رمشت عيناي فأحسست بالزوج الثالث من العدسات يذوب.

توقف صوت البيانو... صارت ذراعا إدوارد حول وسطي... وضع ذقنه على كتفي. «هذا ما كنت موشك على قوله».

«إدوارد! لقد نجحت».

«نعم... نجحت! كنت رائعة. لقد تجاوزت دفعة واحدة كل المخاوف... كل مخاطر كونك مولودة حديثاً»... راح يضحك بهدوء.

صاح إيميت من تحت السلم: «أنا لست واثقاً حتى من أنها مصاصة دماء! إنها أليفة جداً».

تذكرت كل تعليقاته المحرجة التي أطلقها أمام أبي. كنت أحمل رينيمي... لعل هذا كان أمراً جيداً. لكنني لم أتمكن من ضبط ردة فعلي فزمجرت بصوت خفيض.

ضحك إيميت: «أوه! هذا مخيف».

زمجرت من جديد فتململت رينيمي بين ذراعي. رمشت عيناها عدة مرات ثم راحت تنظر من حولها حائرة. تشممت الهواء ثم مدت يدها إلى وجهي.

قلت أطمئنها: «سيعود تشارلي غداً».

قال إيميت: «رائع!»... ضحكت روزالي معه هذه المرة.

قال إدوارد بازدراء وهو يمد يديه ليأخذ رينيمي مني: «هذا ليس ظريفاً يا إيميت!»... عندما رآني مترددة غمزني بعينه فوضعتها بين يديه... كنت مترددة قليلاً.

قال إيميت متحدياً: «ماذا تقصد؟»

«ألا تظن أن من الحماقة مضايقة أقوى مصاصي الدماء في هذا البيت؟»

مال إيميت برأسه إلى الخلف ونخر قائلاً: «من فضلك!»

تمتم إدوارد يخاطبني في حين كان إيميت يصغي عن كثب: «بيلا! هل تتذكرين... منذ عدة أشهر... طلبت منك أن تفعلي شيئاً من أجلي... عندما تصبحين مصاصة دماء؟»

إنها ذكرى بعيدة. رحت أفتش في ذكرياتي البشرية. وبعد لحظة تذكرت: «أوه!»

أطلقت أليس ضحكة حادة طويلة. ومد جايكوب رأسه من خلف الزاوية... كان الطعام ملء فمه.

زمجر إيميت: «ماذا؟»

سألت إدوارد: «هل تقصد هذا حقاً؟»

قال لي: «ثقي بي».

استنشقت نفساً عميقاً: «إيميت! ما رأيك في رهان صغير بيننا؟»

هبّ واقفاً على قدميه فوراً: «رائع! هاتي رهانك».

عضضت شفتي لحظة قصيرة... إنه ضخم فعلاً.

قال إيميت: «إلا إذا كنت شديدة الخوف...!»

تمالكت نفسي وقلت: «أنت وأنا... مكاسرة بالأيدي... طاولة الطعام... الآن».

ملأت ابتسامته وجهه.

قالت أليس متعجلة: «بيلا! أظن أن إيزمي شديدة الولع بتلك الطاولة. إنها أثرية!»

قالت لها إيزمي: «شكراً».

قال إيميت بابتسامة مشرقة: «لا مشكلة. تعالي من هنا يا بيلا».

سرت خلفه فخرجنا من الباب الخلفي ومضينا صوب المرآب. كنت أسمع أصوات الآخرين قادمين كلهم خلفنا. رأيت قرب النهر صخرة غرانيتية ضخمة تقف منفردة بجوار مجموعة من الصخور... لابد أنها وجهة إيميت. كانت الصخرة مدورة بعض الشيء... لكنها وافية بالغرض.

وضع إيميت مرفقه على الصخرة وأشار لي أن أتقدم.

توترت من جديد عندما رأيت العضلات الضخمة في ذراع إيميت لكنني حافظت على هدوء تعابير وجهي. لقد وعدني إدوارد بأنني سأكون أقوى من الجميع حيناً من الزمن. وقد بدا شديد الثقة الآن... شعرت بالقوة! هل أنا على ذلك القدر من القوة؟ رحت أتساءل وأنا أنظر إلى ذراع إيميت المفتول.

ما كان عمري إلا يومين اثنين... لابد أن لهذا أثراً كبيراً. إلا إذا كنت غير طبيعية!... قد لا تكون لي قوة مصاصي الدماء المولودين حديثاً. ولعل هذا يفسر قدرتي على ضبط نفسي!

حاولت أن أبدو غير مضطربة عندما وضعت مرفقي على الصخرة.

«اسمع يا إيميت! إذا فزت فلن يحق لك أن تقول أي كلمة بشأن حياتي الجنسية... حتى لروزالي. لا تلميحات ولا إشارات... ولا شيء إطلاقاً».

تقلصت عيناه: «اتفقنا. وإذا فزت أنا فسوف تسمعين تعليقات أسوأ من كل ما قلته حتى الآن».

سمع تنفسي يتوقف فجأة فابتسم ابتسامة شريرة. ما كان في عينيه أثر للكذب.

قال متحدياً: «سوف أهزمك بسهولة شديدة... يا أختي الصغيرة! لست عنيفة أبداً! أراهن أن أي خدش لم يصب ذلك الكوخ»... ضحك ثم قال: «هل أخبرك إدوارد بعدد البيوت التي حطمناها أنا وروزالي؟»

صررت على أسناني وأمسكت يده الضخمة: «واحد... اثنان...»

«ثلاثة»... قالها إيميت وبدأ يضغط على يدي.

لم يحدث شيء.

أوه!... يا لهذه القوة في ذراعي. بدا عقلي الجديد ذا قدرة جيدة على إجراء الحسابات. لو لم يكن يواجه مقاومة لغاصت يده في الصخرة من غير صعوبة. تزايد الضغط... هل يكون اندفاع شاحنة إسمنت على طريق حاد الانحدار بسرعة سبعين كيلومتراً في الساعة بهذه القوة؟ مئة كيلومتر في الساعة... مئة وخمسون... أكثر...

كانت هذه القوة كافية لتحريكي من مكاني. راحت يده تضغط على يدي بقوة ساحقة... لكن الأمر كان ممتعاً! نعم... كان ممتعاً على نحو غريب! لقد كنت أتوخى الحرص الشديد منذ أن فتحت عينيّ... كنت أحاول جاهدة ألا أحطم شيئاً. كم يريحني الآن أن أستخدم عضلاتي...

أن أسمح لهذه القوة بالتدفق بدلاً من المكافحة من أجل لجمها.

لهث إيميت... تغضن جبينه وتوتر جسده كله فصار كتلة واحدة صلبة في مواجهة تلك العقبة... في مواجهة يدي التي ترفض التحرك. تركته يتعرق قليلاً (مجازاً) حتى أستمتع بأحاسيس القوة المجنونة التي راحت تجري في ذراعي.

لكنني شعرت بالملل بعد ثوان قليلة. ضغطت على يده... تراجعت ذراعه عدة سنتيمترات.

رحت أضحك... خرجت زمجرة عنيفة من بين أسنان إيميت.

قلت أذكره: «عليك أن تطبق فمك»... ثم سحقت يده على الصخرة. صدر عن الصخرة صوت تحطم يصم الآذان رددت صداه الأشجار. ارتجفت قليلاً ثم انفصلت قطعة كبيرة منها فهوت إلى الأرض. سقطت فوق قدم إيميت فضحكت ضحكة استهزاء. كنت أسمع ضحكات جايكوب وإدوارد المكتومة.

ركل إيميت القطعة التي سقطت من الصخرة فقذف بها إلى الجهة الأخرى من النهر حيث اصطدمت بشجرة فتية فشطرتها نصفين قبل أن تستقر في جذع شجرة سرو جبلي ضخمة تمايلت ثم سقطت بدورها.

«سنعيد المباراة غداً».

قلت له: «لن تتلاشى قوتي بهذه السرعة. لعل عليك أن تنتظر شهراً».

زمجر إيميت مكشراً عن أسنانه: «غداً!»

«لا بأس! فليكن ما تريد يا أخي الأكبر».

استدار إيميت ليذهب فضرب الصخرة بقبضته. تناثر سيل من الشظايا والغبار. كان هذا جميلاً... على نحو طفولي.

كنت مسحورة بذلك البرهان على أنني أقوى من أقوى مصاص دماء أعرفه. وضعت كفي على الصخرة فاتحة أصابعي إلى آخرها. ثم جعلت أصابعي تغوص فيها... تسحق الصخر بدلاً من أن تحفر فيه. ذكرني قوام الصخرة بالجبن القاسي. خرجت يدي بقبضة من الحصى.

تمتمت: «جميل!»

علت الابتسامة وجهي فاستدرت بحركة سريعة وضربت الصخرة بحافة يدي مثلما يفعل لاعبو الكاراتيه... زعقت الصخرة... آنت... وانشطرت نصفين مطلقة دفقاً من الغبار.

بدأت أضحك.

ما كنت منتبهة كثيراً لتلك الضحكات التي تتعالى من خلفي. رحت أضرب وأركل ما بقي من الصخرة... أفتته إلى أجزاء صغيرة. كنت شديدة الاستمتاع... كنت أضحك طيلة الوقت. لم تنتشلني من لعبتي السخيفة إلا ضحكة جديدة مختلفة... ضحكة مثل أجراس ناعمة.

«هل ضحكت رينيمي؟»

كانوا يحدقون جميعاً في رينيمي وعلى وجوههم تعبير الصدمة والمفاجأة... لابد أنه كان على وجهي أيضاً.

قال إدوارد: «نعم!»

قال جايكوب: «من منا لم يضحك؟»

قال إدوارد ليغيظ جايكوب: «لقد نلت نصيبك من هذه القوة... منذ البداية... يا كلب». ما كان في صوته عداء على الإطلاق.

قال جايكوب: «هذا شيء مختلف!»... أصابتني الدهشة عندما رأيته يلكم إدوارد على كتفه ممازحاً... «يفترض أن بيلا صارت كبيرة... متزوجة... صارت أماً... وكل ذلك. أليس عليها أن تحترم نفسها قليلاً؟»

عبست رينيمي ولمست وجه إدوارد.

سألته: «ماذا تريد؟»

قال مبتسماً: «تريد منك الاستمرار. إنها مستمتعة كثيراً بمشاهدة ما كنت تفعلين... مثلي».

اندفعت إليها ومددت يدي صوبها في اللحظة نفسها التي مدت يدها صوبي. سألتها: «هل أنا مضحكة؟»... أخذتها من بين ذراعي إدوارد قدمت

لها قطعة من الصخرة كانت في يدي: «هل تريدين المحاولة؟»

ابتسمت لي ابتسامتها المتألقة وأمسكت الحجر بين يديها ثم راحت تضغط عليه وقد تشكلت عقدة صغيرة بين حاجبيها لفرط تركيزها.

سمعت صوت تحطم خافت ورأيت بعض الغبار. تغضن وجهها ثم ناولتني الحجر.

قلت لها: «سأكسره أنا»... وضغطت عليه فصار رملاً وتراباً.

صفقت رينيمي وضحكت. جعلتنا حلاوة ضحكتها نشاركها كلنا.

ظهرت الشمس من خلف الغيوم على نحو مفاجئ... راحت ترسل أشعة طويلة من العقيق والذهب صوبنا كلنا. سحرني جمال جلدي في ضوء المغيب... دوخني.

مرت رينيمي بإصبعها على تلك النقاط المتلألئة مثل الماس ثم وضعت ذراعها بجانب ذراعي. كان في جلدها تلألؤ خافت... تلألؤ سحري خفيف. لم يكن ذلك التلألؤ الذي يمنعها من الخروج في الأيام المشمسة. لمست وجهي... كانت تفكر في هذا الفارق بيننا وتشعر بالخيبة والانزعاج.

قلت لها: «أنت أجمل مني».

قال إدوارد: «لست واثقاً من أنني أقبل بهذا الرأي»... وعندما استدرت لأجيبه سحرني ضوء الشمس على وجهه فأسكتني.

كان جايكوب يضع يده أمام وجهه متظاهراً بحماية عينيه من وهج الشمس. لكنه قال: «أنت عجيبة يا بيلا».

تمتم إدوارد... كأنه يوافقه على كلامه... كما لو أن جايكوب يمتدحني: «إنها مخلوق عجيب... مدهش». كان مسحوراً وساحراً في آن واحد.

كان شعوراً غريباً... ليس مفاجئاً على ما أظن لأن كل شيء كان غريباً الآن... ذلك الشعور بأنني طبيعية في شيء من الأشياء. عندما كنت بشرية لم أكن متميزة في أي شيء. كنت أجيد التعامل مع رينيه، لكن لعل أكثر

الناس يستطيعون التصرف أحسن مني لو كانوا في مكاني... كان فيل أحسن مني في هذا. كنت طالبة جيدة، لكني لم أكن متفوقة أبداً. ومن الواضح أيضاً أنني لم أكن شيئاً مذكوراً في أي نوع من أنواع الرياضة. ما كنت ذات ميول فنية أو موسيقية... وما كانت عندي مواهب أستطيع المفاخرة بها. لا أحد ينال جوائز عن قراءة الكتب! وبعد ثمانية عشر عاماً من هذا الوضع العادي، صرت معتادة عليه تماماً. أدرك الآن أنني تخليت منذ زمن بعيد عن أي طموح في التألق في أي شيء. كنت أستخدم ما هو لدي وحسب... ولم أكن شديدة الانسجام مع عالمي.

لذلك كان ما أعيشه الآن مختلفاً حقاً. أنا مدهشة الآن... مدهشة لهم ولنفسي. كأنني ولدت لأكون مصاصة دماء. خلَقَتْ لديّ هذه الفكرة رغبة في الضحك... لكنها خلقت لدي رغبة في الغناء أيضاً. لقد وجدت مكاني في العالم... مكاناً يناسبني... مكاناً أتألق فيه.

27

خطط السفر

أتعامل الآن مع الأساطير بجدية أكبر بعد أن صرت مصاصة دماء.

كثيراً ما أتخيل... عندما أستعيد مجرى حياتي خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حياتي الخالدة... كيف يمكن أن يبدو مسار هذه الحياة في عين القدر... من يدري... لكن حياتي موجودة حقاً. كنت واثقة من أن لون هذا الخيط الذي هو مسار حياتي قد تغير. لعله كان في البداية بنياً دافئاً لطيفاً... شيئاً لا يحب المواجهة... شيئاً يبدو جيداً في نظرة عامة. أما الآن فلابد أنه قرمزي لامع... أو لعله ذهبي متوهج.

كانت تلك السجادة المزينة من حولي... أسرتي وأصدقائي... شديدة الجمال... متألقة... تملؤها ألوانهم الساطعة وتكملها.

تفاجئني بعض الخيوط التي كان عليّ إدراجها في مسار حياتي. ما كان المستذئبون بألوانهم الغابية العميقة شيئاً متوقعاً... جايكوب طبعاً... ثم سيث أيضاً. لكن أصدقائي القدامى... كويل وإمبري صاروا جزءاً من ذلك النسيج بعد انضمامهم إلى قطيع جايكوب. بل إن مشاعر سام وإميلي صارت ودية أيضاً. ارتخى التوتر بين أسرتينا... يعود الفضل كله إلى رينيسمي... ما أسهل أن يحبها المرء!

دخلت سو وليا كليرووتر في حياتنا أيضاً... وما كنت لأتوقع دخولهما.

الظاهر أن سو أخذت على عاتقها مهمة تسهيل دخول تشارلي إلى هذا العالم الذي لا يصدق. كانت تأتي معه إلى منزل كولن أكثر الأيام رغم أنها ما كانت تبدو مرتاحة فعلاً هنا... أي بقدر راحة ابنها ومعه أكثر أفراد قطيع جايكوب. كانت قليلة الكلام... لكنها كانت تحوم قرب تشارلي دائماً... تحميه. وكانت أول شخص ينظر إليه تشارلي عندما تفعل رينيسمي شيئاً جديداً... مفاجئاً... وهذا ما كان يحدث كثيراً. كانت تردّ على هذه النظرات بأن ترمي سيث بنظرة ذات مغزى كما لو أنها تقول... «نعم! حدثني عن هذا».

كانت ليا أقل راحة من سو. وكانت الشخص الوحيد في أسرتنا... التي اتسعت مؤخراً... الذي يعبر علناً عن عدم راحته لهذا الاندماج. لكن رفقة جديدة نشأت بينها وبين جايكوب جعلتها تظل قريبة منا جميعاً. سألته عن الأمر ذات مرة... كنت مترددة لأنني ما كنت أريد التطفل. لكن تلك العلاقة كانت شديدة الاختلاف عن ذي قبل... وهذا ما جعلني أسأل. رفع جايكوب كتفيه قائلاً لي إن هذا أمر يخص القطيع. كانت نائبته... الشخص الثاني في القطيع.

قال جايكوب مفسراً: «قلت في نفسي: إذا كنت سأصبح زعيماً حقاً فمن الأفضل أن أتقيد بالشكليات».

جعلت هذه المسؤولية الجديدة ليا في حاجة إلى المجيء معه أكثر الأوقات... وبما أنه يمضي أكثر وقته مع رينيسمي...

ما كانت ليا سعيدة بهذا القرب منا... لكنها كانت استثناءً من قاعدة عامة غالبة. صارت السعادة أكبر مكونات حياتي الآن... صارت اللون المسيطر في السجادة. نعم!... صارت علاقتي حتى مع جاسبر أكثر قرباً مما كنت أحلم.

لكن ذلك أزعجني في البداية...

قلت لإدوارد متذمرة ذات ليلة بعد أن وضعنا رينيسمي في مهدها الحديدي: «إذا كنت لم أقتل تشارلي أو سو حتى الآن... فالأرجح أن هذا لن يحدث أبداً. ليت جاسبر لا يحوم حولي بعد الآن».

ـ «لا أحد يشك فيك يا بيلا... إطلاقاً. أنت تعرفين كيف هو

جاسبر... لا يستطيع مقاومة جو المشاعر الطيبة. أنت سعيدة طوال الوقت يا حبيبتي... وهو منجذب إليك من غير تفكير».

احتضنني إدوارد بشدة... ما كان شيء يسعده أكثر من سعادتي الطاغية في هذه الحياة الجديدة.

كانت سعادتي غامرة أكثر الوقت. ما كان النهار يكفيني لأشبع من ابنتي المعبودة... وما كانت ساعات الليل كافية لإشباع حاجتي إلى إدوارد.

لكن ثمة وجه آخر للفرحة. فإذا قلبت سجادة حياتنا على وجهها الآخر... أتخيل أنني سأراه مطرزاً بألوان رمادية من الشك والخوف.

نطقت رينيسمي أول كلمة عندما بلغ عمرها أسبوعاً. كانت كلمتها الأولى... ماما... وكان هذا كفيلاً بإسعادي طيلة اليوم لولا أن سرعة تقدمها أرعبتني فاضطررت إلى إجبار وجهي المتجمد على الابتسام لها. لم يقلل من دهشتي أنها تابعت كلمتها الأولى فقالت جملتها الأولى على الفور. «ماما... أين جدي؟»... طرحت هذا السؤال بصوت مرتفع واضح صداح. ما كانت تحدث بصوت مرتفع إلا لأني كنت في الناحية الأخرى من الغرفة. لقد سألت روزالي قبل أن تسألني، لكنها سألتها بطريقتها العادية (بل غير العادية) في التواصل. ما كانت روزالي تعرف الإجابة فصار على رينيسمي أن تسألني.

وعندما مشت أول مرة بعد أقل من ثلاثة أسابيع... كان الأمر مماثلاً. لقد نظرت إلى أليس قليلاً... راحت تراقب عمتها وهي تنسق باقات الزهور في الغرفة... ترقص متقدمة ثم متراجعة عبر الغرفة بيدين تملأهما الزهور. نهضت رينيسمي على قدميها... لم تكن تهز وتتمايل إطلاقاً... ومضت في الغرفة بمثل رشاقة أليس تقريباً.

صفق لها جايكوب... من الواضح أن هذه هي الاستجابة التي تريدها رينيسمي كانت طريقة ارتباطه بها تجعل ردود أفعاله الخاصة أمراً ثانوياً... كانت استجابته الأولى دائماً هي إعطاء رينيسمي ما تريد. لكن أعيننا تلاقت فرأيت في عينيه صدى كل المخاوف التي تشغل بالي. جعلت يدي تصفقان

أيضاً محاولة إخفاء خوفي عنها. راح إدوارد يصفق بهدوء إلى جانبي. ما كنا في حاجة إلى التعبير عن أفكارنا بالكلمات الآن. . . كانت متماثلة!

كان إدوارد وكارلايل مستمرين في البحث. . . كانا يبحثان عن أي إجابة. . . عن أي شيء يمكن أن نتوقعه. ما كان مقيضاً لهما أن يعثرا على الشيء الكثير. . . وما كان يمكنهما التحقق مما يجداه.

كانت أليس وروزالي تفتتحان نهارنا بعرض للأزياء. ما كانت رينيمي ترتدي الملابس نفسها مرتين. . . لأنها تنمو فتصبح أكبر منها على الفور تقريباً، ولأن أليس وروزالي كانتا تحاولان صنع ألبوم صور لها. . . صور بدت كأنها تغطي سنوات من عمرها. . . لا أسابيع.

التقطتا آلاف الصور. . . ووثقتا كل مرحلة من مراحل طفولتها المتسارعة.

عند اكتمال شهرها الثالث كانت رينيمي تبدو أكبر من طفلة في الثانية وأصغر من طفلة في الثالثة. لكن تكوينها ما كان شديد الشبه بتكوين الأطفال. . . كانت أكثر رشاقة. . . وكانت نسب جسمها متوازنة. . . مثل البالغين. وصلت حلقات شعرها حتى خصرها. . . ما كنت أطيق أن أقصها حتى وإن سمحت أليس بذلك. كانت رينيمي قادرة على التكلم ببلاغة من غير أغلاط، لكنها نادراً ما كانت تهتم بالكلام. . . كانت تفضل أن تجعل الناس يرون ما تريده منهم. كانت تمشي وتجري وترقص. . . بل تستطيع القراءة أيضاً.

كنت أقرأ لها أشعار تينيسون ذات ليلة لأن إيقاع شعره يبث الراحة في النفس (كان عليّ أن أبحث عن مواد جديدة على الدوام لأن رينيمي ما كانت تحب تكرار القصص مثل غيرها من الأطفال). مدت يدها فلمست خدي. . . كانت الصورة التي رأيتها في رأسها صورتنا. . . نحن الاثنتين. . . لكنها كانت هي من يحمل الكتاب. . . أعطيتها الكتاب مبتسمة.

قرأت من غير تردد: «ثمة موسيقى جميلة هنا. . . شلالات أنعم من ورقات الورد يلقيها النسيم على العشب. . . أنعم من ندى الليل على صخور تغلقها الظلال. . . في ممر يتألق. . .»

تحركت يدي آلياً فأخذت الكتاب منها. سألتها بصوت لم أستطع إخفاء ارتجافه: «إذا كنت تقرئين. . . فكيف يمكن أن تنامي؟»

كان معدل نموها يتباطأ. . . وفق حسابات كارلايل، لكن نموها العقلي واصل تطوره السريع. حتى لو ظل معدل نموها على انخفاضه. . . فسوف تصبح كبيرة في أقل من أربع سنوات.

كبيرةً بعد أربع سنوات. . . ثم عجوزٌ بعد خمس عشرة سنة!

خمس عشرة سنة من الحياة. . . فقط!

لكن صحتها ممتازة! إنها نشيطة حيوية متألقة سعيدة. كانت شكوكي تجعلني سعيدة معها في هذه اللحظة. . . تجعلني أترك مخاوف المستقبل للمستقبل.

كان كارلايل وإدوارد يناقشان خياراتنا المستقبلية من كل زاوية بصوت خفيض حاولت عدم سماعه. إنهما يتجنبان خوض هذا النقاش في وجود جايكوب. ثمة طريقة مضمونة وحيدة لوقف تقدمها في السن. . . لكن جايكوب ما كان ليقبل بها أبداً. وما كنت لأقبل بها أنا. . . فهي خطيرة جداً! كانت غريزتي ترفضها. بدا لي جايكوب ورينيمي متشابهين من نواح كثيرة. كان كل منهما مخلوقاً «بين - بين». . . شيئين في وقت واحد! كانت قصص المستذئبين كلها مصرة على أن سم مصاصي الدماء يعتبر حكماً بالإعدام لا طريقاً إلى الخلود. . . استنفد كارلايل وإدوارد كل إمكانيات البحث عن بعد. وكنا نستعد الآن لمتابعة الأساطير حتى مصدرها. كنا نعتزم الذهاب إلى البرازيل لنبدأ من هناك. كانت لدى قبيلة التيكوناس أساطير عن أطفال يشبهون رينيمي. . . إن وجد أطفال مثلها في وقت من الأوقات فلعلنا نستطيع العثور على بقايا حكايات تنبئنا بأعمار هؤلاء الأطفال نصف الخالدين. . .

كان توقيت السفر السؤال الحقيقي الوحيد الباقي أمامنا.

وكنت أنا سبب التأخير. كنت راغبة في البقاء قريبة من فوركس حتى نهاية العطلة. . . من أجل تشارلي. لكن السبب الأهم هو أن لدي رحلة أخرى

أعرف أنني يجب أن أقوم بها أولاً. . . إن لها أولوية واضحة. لكن عليّ أن أكون وحدي في هذه الرحلة.

هذا هو الخلاف الوحيد الذي نشأ بيني وبين إدوارد منذ أن صرت مصاصة دماء. كان ذهابي وحيدة هو مدار خلافنا. لكن الحقائق حقائق. . . كانت خطتي هي الخطة المعقولة الوحيدة. عليّ أن أذهب لرؤية الفولتوري. . . وعليّ أن أذهب وحدي تماماً.

كان نسيان الفولتوري مستحيلاً حتى بعد تخلصي من كوابيسي القديمة. . . من الأحلام كلها. . . . ولن يتركنا الفولتوري من غير تذكير.

لم أكن أعرف أن أليس أرسلت تخبر قادة الفولتوري بزواجنا إلا عندما وصلت هدية آرو. كنا بعيدين. . . في جزيرة إيزمي. . . عندما جاءت أليس رؤيا. . . رأت جنود الفولتوري، ومن بينهم التوأم المدمر جين وأليك. كان كايوس يعتزم إرسال جماعة صيد ليرى إن كنت ما أزال بشرية. . . خلافاً لقراره (كنت أعرف الكثير عن عالم مصاصي الدماء السري. . . إما أن أنضم إليهم وإما أن أسكت. . . إلى الأبد). لذلك، بعثت أليس برسالتها إذ رأت أنها يمكن أن تؤخرهم بعض الوقت ريثما يحللون معناها. لكنهم آتون في النهاية. . . لا شك في هذا.

ما كانت الهدية تحمل تهديداً مكشوفاً. لكنها كانت هدية باذخة. . . باذخة إلى حد يبعث الخوف في النفس. لكن التهديد كان ماثلاً في الجملة الختامية من تهنئة آرو. . . كانت التهنئة مكتوبة بحبر أسود على ورق أبيض ثقيل. . . كانت بخط يده:

. . . *إنني أتطلع إلى لقاء السيدة كولن الجديدة شخصياً*

جاءت الهدية في علبة خشبية قديمة عليها زخارف محفورة. . . كانت مرصعة بالذهب واللؤلؤ ومزينة بقوس قزح من الأحجار الكريمة. قالت أليس إن العلبة نفسها كنز لا يقدر بثمن. . . كنز نفيس يفوق أي قطعة من المجوهرات إلا القطعة التي جاءت فيه.

قال كارلايل: «كنت أتساءل دائماً أين اختفت جواهر التاج بعد أن رهنها جون ملك إنكلترا في القرن الثالث عشر. لا يفاجئني أن الفولتوري نالوا حصة منها!»

كان العقد بسيطاً: ذهب منسوج على هيئة حبل غليظ يتسلق سلسلة ذهبية. . . مثل أفعى توشك أن تلتف على العنق. كانت جوهرة وحيدة تتدلى معلقة من ذلك الحبل. . . ماسة بيضاء بحجم كرة الغولف.

أثار التذكير غير الخفي في رسالة آرو اهتمامي أكثر من الهدية نفسها. يريد الفولتوري التأكد من أنني صرت مصاصة دماء. ويريدون التأكد من أن أسرة كولن نفذت أوامرهم. وهم يريدون رؤيتي قريباً. لا يمكن السماح بمجيئهم إلى فوركس. ثمة سبيل واحد إلى المحافظة على حياتنا الآمنة هنا.

«لن تذهبي وحدك!» هكذا قال إدوارد مصراً. . . قالها عبر أسنانه المطبقة وقد تكورت قبضتاه.

قلت أهدئه قدرما استطعت: «لن يصيبوني بأذى». . . أرغمت صوتي على أن يبدو واثقاً. . . «لا سبب لديهم لهذا. أنا مصاصة دماء. انتهى الأمر!»

«لا! على الإطلاق».

«إنها الطريقة الوحيدة لحمايتها يا إدوارد».

ما كان يستطيع مجادلتي في هذه النقطة. كان منطقي محكماً!

أدركت. . . حتى خلال الفترة القصيرة التي عرفت فيها آرو. . . أنه من هواة جمع المقتنيات. كانت القطع الحية أثمن مقتنياته. كان يطمع في الجمال والموهبة والندرة عند أتباعه الخالدين أكثر مما يطمع في الجواهر التي غصت خزائنه بها. يكفينا أنه بدأ يطمع في قدرات أليس وإدوارد. لن أعطيه سبباً جديداً للغيرة من أسرة كارلايل. إن رينيمي جميلة. . . فريدة. . . ذات قدرات خاصة. . . إنها فريدة نوعها. لا يجوز أن نسمح له برؤيتها. . . حتى من خلال أفكار شخص آخر.

كنت أنا الشخص الوحيد الذي يعجز آرو عن قراءة أفكاره. سأذهب وحيدة بالطبع.

لن ترى أليس أي مشكلة في رحلتي لكن عدم وضوح رؤاها كان يقلقها. تقول إن رؤاها تكون ضبابية على نحو متماثل عند وجود قرارات خارجية يمكن أن تكون متضاربة. . . من غير الوصول إلى حل واضح لهذا التضارب. جعل هذا الغموض إدوارد. . . وهو متردد أصلاً. . . شديد المعارضة لما كنت أعتزم القيام به. كان يريد الذهاب معي حتى لندن. لكن، هل نترك رينيسمي من غير والديها؟ سيأتي كارلايل بدلاً من إدوارد. ارتحنا. . . أنا وإدوارد. . . لهذا الحل. . . لأن كارلايل سيكون على بعد ساعات مني فقط.

ظلت أليس تبحث عن المستقبل. . . لكنها كانت تعثر على أشياء لا علاقة لها ببحثها. ميول جديدة في سوق الأسهم، وزيارة مصالحة تقوم بها إيرينا رغم أنها لم تتخذ قراراً نهائياً بعد، وعاصفة ثلجية ستأتي بعد ستة أسابيع، ومكالمة هاتفية من رينيه (كنت أتمرن على التحدث معها بصوت «خشن»، وكنت أتحسن في هذا كل يوم. كل ما عرفته رينيه هو أنني مريضة. . . لكني أتحسن قليلاً).

اشترينا تذاكر السفر إلى إيطاليا بعد يوم واحد من إتمام رينيسمي شهرها الثالث. كنت أعتزم أن أجعل رحلتي قصيرة جداً فلم أخبر تشارلي عنها. لكن جايكوب كان يعرف. . . وقد تبنى وجهة نظر إدوارد. لكن جدالنا اليوم كان بشأن ذهابي إلى البرازيل. كان جايكوب مصراً على الذهاب معنا.

خرجنا إلى الصيد معاً: جايكوب ورينيسمي وأنا. ما كانت رينيسمي تحب دماء الحيوانات. هذا سبب سماحي بمجيء جايكوب معنا. لقد جعل الأمر نوعاً من المباراة بينهما، وهذا ما أثار حماستها للصيد.

كانت رينيسمي مدركة تماماً للخير والشر. . . فيما يتعلق بصيد البشر. لكنها كانت ترى في الدم الذي تشربه في المنزل تعويضاً مقبولاً عن صيد البشر. كان طعام البشر العادي يشبعها. . . الظاهر أنه متوافق مع جسدها، لكن ردة فعلها تجاه جميع أنواع الطعام الصلب كانت أشبه بمن هو مضطر لأمر كريه. . . تماماً مثل ردة فعلي عندما أكلت فول الصويا ذات مرة. إن دماء الحيوانات

أفضل من ذلك. . . على الأقل. كان طبعها تنافسياً فجعلها تحدي جايكوب متحمسة للصيد.

كانت رينيسمي ترقص متقدمة علينا في تلك الفسحة الطويلة في الغابة مفتشة عن رائحة تعجبها. قلت: «جايكوب! لديك التزامات هنا. . . سيث وليا. . .».

«ليسوا في حاجة إلى رعايتي. لديهم مسؤوليات في لابوش على أي حال».

«ولديك مسؤولياتك أيضاً! هل تنوي ترك المدرسة؟ إذا كنت تريد ألا تتفوق عليك رينيسمي فعليك بالدراسة الجادة».

«هذه إجازة فقط. سأعود إلى المدرسة عندما. . . تهدأ الأمور».

فقدت تركيزي على هذا النقاش عندما قال هذه العبارة فنظرنا معاً إلى رينيسمي. كانت تنظر إلى ندفات الثلج تتطاير فوق رأسها فتذوب قبل أن تستقر على العشب المصفر في ذلك المرج الذي يشبه رأس السهم حيث كنا نقف. كان لون ثوبها العاجي المتموج قريباً إلى لون الثلج نفسه، وكانت لفائف شعرها البني المحمر تتألق رغم اختفاء الشمس عميقاً خلف السحب.

وفيما نحن نراقبها، جثمت لحظة ثم قفزت نحو خمسة أمتار في الهواء. أطبقت يدها على ندفة ثلج ثم سقطت بخفة على قدميها.

استدارت صوبنا بابتسامتها الساحرة. . . لا يمكن الاعتياد عليها. . . وفتحت يدها لترينا نجمة ثلجية ثمانية الرؤوس قبل أن تذوب في يدها.

قال لها جايكوب معبراً عن إعجابه: «إنها جميلة! لكني أظنك تماطلين يا نيسي».

قفزت نحو جايكوب فمد ذراعيه صوبها لحظة وصولها إليه. كانت حركتهما متناسقة كل التناسق. إنها تفعل ذلك عندما تريد أن تقول شيئاً. لكنها مازالت تفضل عدم استخدام صوتها.

لمست وجهه ثم عرا وجهها عبوس ساحر عندما سمعنا صوت قطيع صغير من الوعول يتحرك في الغابة.

قال لها جايكوب بصوت ساخر قليلاً: «طبعاً! أنت لست ظمأى يا

نيسي»... تحول صوته قليلاً... «أنت تخشين أن أمسك بأكبر الوعول من جديد».

تملصت من بين ذراعي جايكوب وهبطت واقفة على قدميها. فتحت عينيها على اتساعهما... تكون شديدة الشبه بإدوارد عندما تفعل ذلك. ثم انطلقت صوب الأشجار.

قال جايكوب عندما رآني أميل قليلاً كأنني أهم بالانطلاق خلفها: «سألحق بها أنا». خلع قميصه وبدأ يجري خلفها في الغابة صائحاً: «انتبهي... لا تغشي».

ابتسمت لأوراق الأشجار التي ظلت تهتز من خلفهما ورحت أهز رأسي. يكون جايكوب طفلاً أكثر من رينيسمي بعض الأحيان.

توقفت لأمنح الصيادين بضع دقائق قبل انطلاقي. سيكون اللحاق بهما شديد السهولة. وسوف تستمتع رينيسمي عندما تفاجئني بحجم طريدتها. ابتسمت من جديد.

كان ذلك المرج الضيق هادئاً جداً... فارغاً جداً. صارت ندف الثلج أخف من ذي قبل... كادت تنتهي. لقد تنبأت أليس بأن الثلج لن يعلق على الأشجار قبل عدة أسابيع.

عادة ما كان إدوارد يأتي معي في رحلات الصيد. لكنه مع كارلايل اليوم يخططان لرحلة البرازيل... يتحدثان من خلف ظهر جايكوب. عبست لهذه الفكرة. عندما نعود سوف أقف إلى جانبه. يجب أن يذهب معنا. الأمر يهمه مثلما يهمني... مثلما يهم أي واحد منا جميعاً... إنه مهم لحياته كلها... مثلي.

بينما كانت أفكاري تائهة في ذلك المستقبل القريب كانت عيناي تجوبان سفوح الجبال من حولي على نحو تلقائي... تفتشان عن فريسة... تبحثان عن الخطر. ما كنت أفكر في ذلك... كان الدافع إليه تلقائياً.

لكن، لعل ثمة سبب حملني على ذلك البحث... شيء التقطته حواسي الحادة قبل أن يدركه وعيي!

عندما عبرت عيناي حافة جرف بعيد واقف بلونه الأزرق الرمادي على خلفية الغابة الخضراء لمحت شيئاً فضياً... أو لعله ذهبي! شيئاً أثار انتباهي.

تركز نظري على ذلك اللون الذي ما كان يجب أن يظهر هناك. كان بعيداً جداً... بعيداً إلى حد يجعل عيني النسر غير قادرتين على تمييزه. لكنني واصلت التحديق.

رأيتها تحدق في اتجاهي!

لا شك في أنها مصاصة دماء. كان جلدها في مثل بياض الرخام... كان ذلك النسيج أكثر نعومة من جلد البشر بمليون مرة. وكان جلدها يتلألأ قليلاً... رغم الغيوم. لو لم يشِ جلدها بأمرها لوشى به سكونها. لا يستطيع هذا السكون إلا مصاصو الدماء... والتماثيل.

كان شعرها أشقر اللون شاحباً... شبه فضي. هذا هو اللون الذي التقطته عيناي في البداية. كان ينحدر حتى حافة ذقنها منفرجاً قليلاً فوق وجهها.

ما كنت أعرفها... إنها غريبة. كنت شبه موقنة من أنني لم أرها من قبل... حتى عندما كنت بشرية. لم أجد في ذاكرتي البشرية الموحلة وجهاً يشبه وجهها. لكني عرفتها فوراً... عرفتها من عينيها الذهبيتين القاتمتين.

لقد قررت إيرينا أن تأتي أخيراً.

حدقت فيها برهة... وحدقت فيّ. هل ستعرفني على الفور؟ هممت برفع يدي لألوح لها لكن شفتها اعوجّت قليلاً فبدا العداء على وجهها فجأة.

سمعت صيحات رينيسمي المنتصرة تأتي من الغابة... وسمعت زمجرة جايكوب تردد صدى صيحاتها... ورأيت وجه إيرينا يستدير ناحية الصوت عندما بلغها صداه بعد ثوانٍ قليلة. اتجهت أنظارها صوب اليمين فعرفت ما تراه. كانت ترى ذئباً هائل الحجم بني اللون... لعله هو ذلك الذئب الذي قتل لورنت. منذ متى تراقبنا؟ كنت واثقة من أنها تراقبنا منذ فترة كافية لرؤية مدى العلاقة بيننا.

تقلص وجهها ألماً.

فتحت يديّ... على نحو غريزي... أمام جسمي في حركة توحي بالاعتذار. لكنها أدارت ظهرها صوبي وكشرت عن أسنانها. ثم فتحت فمها وزمجرت.

عندما بلغني صوت زمجرتها الخافت كانت قد استدارت واختفت في الغابة.

اندفعت أجري في الغابة خلف رينيمي وجايكوب. ما كنت أريد أن يغيبا عن نظري. لم أعرف وجهة إيرينا ولم أعرف مدى غضبها الآن. إن هاجس الانتقام شائع لدى مصاصي الدماء... هاجس لا تسهل تهدئته!

كنت أجري بأقصى سرعتي فوصلت إليهما في ثانيتين.

سمعت رينيمي تقول مصرة عندما اندفعت من بين الأشجار إلى الفسحة الصغيرة حيث يقفان: «وعلي أكبر من وعلك!»

التقط جايكوب تعبير وجهي الغريب فجثم مكشراً عن أسنانه... كان على خطمه دم فريسته. راحت عيناه تجوسان الغابة. سمعت زئيراً يتجمع في حنجرته.

انتبهت رينيمي مثلما انتبه جايكوب فتركت الوعل المرمي عند قدميها وقفزت بين ذراعي واضعة كفيها على وجنتي.

قلت سريعاً لأطمئنهما: «لقد بالغت في ردة فعلي. لا بأس! انتظرا قليلاً».

أخرجت هاتفي الخليوي وطلبت إدوارد. أجابني من الرنة الأولى. راح جايكوب ورينيمي يصغيان لما أقوله.

قلت له بسرعة شديدة... لا أعرف إن استطاع جايكوب ملاحقتها: «تعال! وأحضر كارلايل. رأيت إيرينا، وقد رأتني. لكنها رأت جايكوب فجنت غضباً وراحت تجري... كما أظن. لم تظهر من جديد حتى الآن. لكنها بدت شديدة الانزعاج... يمكن أن تأتي إلينا. وإذا لم تأت فإن عليكما اللحاق بها للحديث معها. أشعر بالقلق!»

زمجر جايكوب بصوت مثل قصف الرعد.

طمأنني إدوارد: «سوف نكون عندك بعد نصف دقيقة»... سمعت صوت الريح عندما بدأ يجري.

عدت مسرعة إلى ذلك المرج الطويل وانتظرت صامتة... ورحت أصغي بانتباه... مع جايكوب... إلى صوت شيء يقترب لم نستطع تمييزه.

لكن الصوت اقترب فأدركنا أنه صوت مألوف. فجأة، صار إدوارد بجانبي وتبعه كارلايل بعد ثوانٍ قليلة. فوجئت بسماع صوت قوائم ذئاب ثقيلة من خلف كارلايل. أظن أن لا شيء مفاجئ في هذا. عندما تكون رينيمي في خطر... ولو بسيط... لابد أن يستدعي جايكوب التعزيزات.

قلت لهم من فوري مشيرة إلى ذلك الجرف: «كانت واقفة هناك على ذلك المرتفع». لو فرت إيرينا فلابد أنها ابتعدت كثيراً الآن. هل يمكن أن تتوقف لتصغي إلى كارلايل؟ جعلني التعبير الذي رأيته على وجهها أشك في ذلك... «ربما كان عليكما إحضار إيميت وجاسبر أيضاً. لقد بدت... غاضبة جداً. لقد زمجرت في اتجاهي».

قال إدوارد غاضباً: «ماذا؟»

وضع كارلايل يده على ذراع إدوارد: «إنها تتألم! سوف ألحق بها».

قال إدوارد مصراً: «أنا قادم معك».

تبادل الاثنان نظرة طويلة. لعل كارلايل كان يوازن بين غضب إدوارد من إيرينا وبين فائدة قدرته على قراءة أفكارها. أومأ كارلايل برأسه أخيراً فانطلق الاثنان في إثرها من غير استدعاء جاسبر أو إيميت.

راح جايكوب يلهث نافذ الصبر ويدفعني في ظهري بأنفه. أظن أنه يريد إعادة رينيمي إلى أمان البيت... من باب الاحتياط! وافقته على ذلك فعدنا مسرعين إلى البيت وكان سيث وليا يحفان بنا من الجانبين.

كانت رينيمي هادئة بين ذراعي. مازالت تضع كفها على وجهي. لقد فشلت رحلة الصيد... وسوف تتناول الآن دماً بشرياً في البيت. أحسست أنها مرتاحة لهذه النتيجة.

28

المستقبل

لم يستطع كارلايل وإدوارد اللحاق بإيرينا قبل أن يضيع أثرها في النهر. سبحا إلى الضفة الأخرى ليبحثا عن أثرها هناك. لكنهما لم يعثرا على شيء.

الذنب ذنبي! لقد جاءت... هكذا رأت أليس... من أجل المصالحة مع أسرة كولن. لكن صداقتي مع جايكوب أغضبتها. ليتني رأيتها أبكر من ذلك... قبل أن يتحول جايكوب. ليتنا ذهبنا إلى الصيد في مكان آخر.

ما كنا نستطيع فعل شيء. أبلغ كارلايل تانيا بهذه الأخبار المحبطة. لم تر تانيا وكيت إيرينا منذ قررتا المجيء إلى زفافي. وقد أزعجتهما فكرة وصولها إلى هذه المسافة القريبة من غير أن تعود إلى البيت. ما كانت خسارة شقيقتهما أمراً سهلاً عليهما... مهما يكن ذلك الفراق مؤقتاً. لا أدري إن كان هذا يعيد لهما تلك الذكرى المريرة... ذكرى فقد والدتهما منذ قرون كثيرة.

استطاعت أليس التقاط بعض الصور من مستقبل إيرينا القريب. ما كان في هذه الصور شيء ملموس تماماً. إنها غير عائدة إلى دينالي... هكذا رأت أليس. كان الصورة ضبابية. كل ما استطاعت أليس رؤيته هو أن إيرينا غاضبة. كانت تجوس البراري الثلجية... إلى الشمال! إلى الشرق!... كانت تعابير وجهها ضائعة... مشتتة. لم تتخذ بعد قراراً بشأن وجهتها... مازالت تتجول في كل اتجاه.

مرت الأيام. لم أنس شيئاً بطبيعة الحال، لكن إيرينا وألمها ما عادا يتصدران أفكاري. ثمة أشياء أكثر أهمية أفكر فيها الآن. سوف أذهب إلى إيطاليا بعد أيام معدودة. وعندما أعود سنذهب كلنا إلى أمريكا الجنوبية.

جرت دراسة كل تفصيل مئات المرات. سوف نبدأ من هنود التيكوناس... نتتبع أساطيرهم إلى منابعها. الآن... بعد أن اتفقنا على مجيء جايكوب معنا صار له موقع مهم في خططنا... من المستبعد أن يقبل هؤلاء الناس الذين يؤمنون بوجود مصاصي الدماء أن يتحدثوا معنا عن أساطيرهم. إذا لم نتوصل إلى شيء لدى التيكوناس فثمة كثير من العشائر الأخرى في تلك المنطقة. كان لدى كارلايل بعض الأصدقاء القدامى في الأمازون. إذا استطعنا العثور عليهم فقد تكون لديهم معلومات تفيدنا. لعل لديهم نصيحة ترشدنا إلى حيث نجد الإجابة. من المستبعد أن يكون لدى مصاصي الدماء الثلاثة في الأمازون أي شيء بشأن الأطفال الهجائن... بين البشر ومصاصي الدماء... فكلهم إناث. ما من سبيل لمعرفة الزمن الذي سوف يستغرقه بحثنا.

لم أخبر تشارلي عن رحلتنا الطويلة إلى البرازيل حتى الآن. وعندما كنت أرى إدوارد وكارلايل ماضيين في نقاشهما كان يؤرقني التفكير فيما يمكن أن أقوله لتشارلي. كيف أخبره بالأمر؟

رحت أنظر إلى رينيمي وأنا أناقش الأمر في داخلي. كانت متكورة على الأريكة الآن. كان تنفسها بطيئاً لأنها غارقة في نوم عميق. وكانت لفائف شعرها مبعثرة فوق وجهها. عادة ما نأخذها إلى الكوخ لنضعها في السرير. أما الليلة فقد تأخرنا قليلاً مع أسرتنا... كان إدوارد غارقاً في التخطيط مع كارلايل.

وكان إيميت وجاسبر أكثر استغراقاً في التخطيط للصيد أثناء هذه الرحلة. تتيح لنا منطقة الأمازون تغيير خياراتنا المعتادة... فيها فهود على سبيل المثال. كانت لدى إيميت رغبة في مصارعة أفعى الأناكوندا! أما إيزمي وروزالي فكانتا تتحدثان بشأن محتوى الحقائب أثناء السفر. كان جايكوب

غائباً. . . لقد ذهب إلى قطيع سام لكي يرتب الأمور استعداداً لسفره.

كانت أليس تتحرك ببطء. . . بالمقارنة مع حركتها المألوفة. . . تدور في الغرفة الكبيرة ترتب المكان من غير ضرورة وتعدل من وضع ورود إيزمي المعلقة. كانت تعيد ترتيب مزهريات إيزمي على الرف في تلك اللحظة. كنت أرى من تقلبات وجهها. . . التفكير. . . ثم الفراغ. . . ثم التفكير. . . أنها تنقب في المستقبل. لابد أنها تحاول الرؤية عبر النقاط العمياء التي يسببها وجود جايكوب ورينيمي. . . تحاول أن ترى ما ينتظرنا في أمريكا الجنوبية.

لكن جاسبر قال لها: «دعي الأمر يا أليس! أمرها لا يهمنا». . . عند ذلك عمت الغرفة غيمة من الصفاء. . . غيمة صامتة غير مرئية. لابد أن أليس تفكر في إيرينا من جديد.

مدت لسانها لجاسبر ثم حملت مزهرية كريستالية فيها ورود حمراء وبيضاء واتجهت بها صوب المطبخ. كان شيء لا يذكر من الذبول ظاهراً على إحدى الورود البيضاء. الظاهر أن أليس تبحث عن الكمال حتى تشغل نفسها عن نقص الرؤية الذي يصيبها الآن.

رحت أحدق برينيمي من جديد. لم أنتبه عندما انزلقت المزهرية من بين أصابع أليس. سمعت صوت الهواء يصفر ماراً بالكريستال. نظرت فرأيت المزهرية تتفتت إلى ألف شظية ماسية عند حافة أرضية المطبخ المرمرية.

كنا ساكنين تماماً عندما قفزت شظايا الكريستال وانداحت منتشرة في كل اتجاه برنين غير موسيقي. انصبت أعيننا كلها على ظهر أليس.

كانت أول فكرة غير منطقية تخطر في بالي هي أن أليس تمازحنا. لا يمكن أن تسقط المزهرية من يدها مصادفة. كنت قادرة على الاندفاع عبر الغرفة لألتقط المزهرية لو لم أفترض أنها سوف تلتقطها. كان الزمن أكثر من كاف لأن أفعل ذلك. ثم كيف تسقط من بين أصابعها أصلاً؟ كيف تسقط من بين أصابعها الواثقة؟. . .

لم أر أبداً شيئاً يسقط من يد مصاص دماء مصادفة. . . أبداً.

عند ذلك استدارت أليس فواجهتنا. استدارت بحركة سريعة. . . كأنها لم تكن.

كانت عيناها. . . نصفٌ هنا ونصفٌ في المستقبل. . . كانتا متسعتين محدقتين. . . متسعتين ملء وجهها الصغير. . . طاغيتين عليه كله. كان النظر في عينيها مثل النظر من قبر مفتوح. . . من داخله. غمرني ذلك الرعب واليأس والعذاب في نظرتها.

سمعت لهاث إدوارد. . . كان صوتاً متكسراً نصف مختنق.

صاح جاسبر: «ماذا؟». . . ثم قفز مثل البرق فوقف بجانبها. سمعت صوت تحطم شظايا الكريستال تحت قدميه. أمسك بكتفيها وراح يهزها بعنف. . . «ماذا يا أليس؟»

رأيت إيميت يتحرك. . . بطرف عيني. . . كان مكشراً عن أسنانه وكانت عيناه تنظران من النوافذ مترقبتين هجوماً.

أما إيزمي وكارلايل وروز فتجمدوا جميعاً صامتين. . . مثلي.

هز جاسبر أليس من جديد: «ما الأمر؟»

همس إدوارد وأليس في وقت واحد: «إنهم قادمون إلينا! كلهم!»

صمت!

كنت أسرعهم فهماً هذه المرة. . . ثمة شيء في هذه الكلمات أثار رؤاي الخاصة. كانت تلك ذكرى بعيدة لحلم باهت قديم. . . حلم صار شفافاً غير واضح المعالم. . . كنت أنظر إليه مثلما ينظر المرء عبر طبقة سميكة من الشاش. . . رأيت صفاً من السواد يتقدم صوبي. . . إنه خيال حلمي البشري نصف المنسي! لم أستطع رؤية بريق أعينهم العقيقية في تلك الصورة المضطربة. . . لم أستطع رؤية لمعان أسنانهم الحادة الرطبة. . . لكنني كنت أعرف أين يجب أن يكون هذا اللمعان. . .

جاءتني ذكرى إحساسي. . . أقوى من ذاكرتي البصرية. . . أحسست حاجة ملحة إلى حماية ذلك الشيء الثمين الذي خلفي.

وددت أن أختطف رينيمي فأحملها بين ذراعي... أن أخبئها تحت جلدي... خلف شعري... أن أجعلها غير مرئية. لكني لم أستطع حتى الاستدارة لكي أنظر إليها. لم أشعر أنني من حجر... بل من جليد. وللمرة الأولى منذ أن ولدت مصاصة دماء... شعرت بالبرد!

ما كنت أسمع تأكيد مخاوفي. ما كنت في حاجة إلى تأكيد. كنت أعرف سلفاً.

قالت أليس: «الفولتوري».

أنّ إدوارد قائلاً في الوقت نفسه: «كلهم معاً».

همست أليس لنفسها: «لماذا؟... كيف؟»

همس إدوارد: «متى؟»

رددت إيزمي صدى كلمته: «متى؟»

كرر جاسبر بصوت يشبه تشقق الجليد: «متى؟»

لم تتحرك عينا أليس... لم ترمشا... لكن شيئاً مثل حجاب غطاهما... كانتا الآن فارغتين تماماً. فمها وحده ظل يحمل تعبيراً عن رعبها.

قالت مع إدوارد في وقت واحد: «قريباً»... ثم تكلمت وحدها: «ثمة ثلج على الغابة... ثلج في المدينة... أكثر من شهر!»

«لماذا؟»... كان كارلايل هو السائل هذه المرة.

أجابت إيزمي: «لابد أن لديهم سبباً. لعلهم قادمون لكي يروا...»

قالت أليس بصوت فارغ: «ليسوا قادمين من أجل بيلا! إنهم قادمون جميعاً... آرو وكايوس وماركوس... جميع أفراد الحرس... حتى الزوجات».

عارضها جاسبر بصوت مسطح: «لا تغادر الزوجات البرج أبداً. لم تغادر الزوجات البرج أثناء العصيان الجنوبي. ولا حتى عندما حاول الرومانيون الإطاحة بهم. ولا حتى عندما كانوا يصطادون الأطفال الخالدين... أبداً».

همس إدوارد: «إنهن قادمات الآن».

قال كارلايل من جديد: «لكن لماذا؟ لم نفعل شيئاً! وحتى لو فعلنا فما الذي فعلناه حتى يحل بنا هذا كله؟»

أجابه إدوارد بصوت كليل: «عددنا كبير... لابد أنهم يريدون التأكد من...» لم يكمل جملته.

«هذا لا يجيب على السؤال الأساسي... لماذا؟»

أحسست أنني أعرف إجابة سؤال كارلايل. لكنني أحسست أنني لا أعرفها... في الوقت نفسه. رينيمي هي السبب... كنت واثقة. لا أدري كيف عرفت منذ البداية أنهم سيأتون من أجلها. لقد حذرني لاوعيي من هذا الأمر حتى قبل أن أعرف أنها في بطني. أحسست أنني أتوقع ذلك الآن. كما لو أني عرفت دائماً أن الفولتوري سيأتون ليسلبوا فرحتي.

لكن هذا لا يجيب على السؤال!

رجاها جاسبر: «عودي يا أليس... انظري... ابحثي عن السبب... ابحثي».

هزت أليس رأسها ببطء وقد تهدل كتفاها: «لا أدري من أين جاءني هذا يا جاسبر... لم أكن أبحث عنهم... لم أكن أبحث عنا... كنت أبحث عن إيرينا وحدها. لم أجدها حيث توقعت العثور عليها...» صمتت أليس وقد غامت عيناها من جديد. راحت تحدق في لا شيء... طويلاً.

ثم انتفض رأسها مرتفعاً من جديد. كانت عيناها قاسيتين مثل الصوان. سمعت إدوارد يحبس أنفاسه.

قالت أليس: «لقد قررت أن تذهب إليهم... قررت إيرينا أن تذهب إلى الفولتوري. عندها سوف يقررون... كأنهم ينتظرونها. كأن قرارهم قد اتخذ فعلاً وما عادوا ينتظرون إلا وصولها...»

ساد الصمت من جديد فيما راح الجميع يفكرون في هذه الكلمات. ما الذي يمكن أن تقوله إيرينا للفولتوري فتنجم عنه رؤيا أليس المخيفة؟

سأل جاسبر: «هل نستطيع إيقافها؟»

«مستحيل! كادت تصل إليهم».

سمعت كارلايل يسألها: «ماذا تفعل الآن؟»... لكنني ما عدت مصغية إلى المناقشة في هذه اللحظة. انصب اهتمامي كله على الصورة التي كانت تتجمع ملحةً في رأسي.

تصورت إيرينا واقفة على ذلك الجرف... تراقب. ماذا رأت؟ مصاصة دماء وذئب يبدو أنهما صديقان حميمان! لقد كنت أركز انتباهي على هذه الصورة... صورة تفسر ردة فعلها. لكنها لم تر ذلك وحده!

لقد رأت طفلة أيضاً. طفلة رائعة الجمال تتباهى بقدراتها تحت الثلج المتساقط... من الواضح أنها أكثر من طفلة بشرية...

إيرينا... الشقيقات اليتيمات... لقد قال لي كارلايل إن ذهاب والدتهن ضحية عدالة الفولتوري جعل كيت وتانيا وإيرينا شديدات الحرص على التقيد بالقوانين.

منذ نصف دقيقة فقط نطق جاسبر الكلمات التالية... «ليس حتى عندما كانوا يصطادون الأطفال الخالدين»... الأطفال الخالدون... ذلك البلاء الرهيب... ذلك التابو المخيف...

كيف يمكن... مع ماضي إيرينا... الخروج بأي قراءة أخرى لما رأته ذلك اليوم في تلك الفسحة الضيقة في الغابة؟ ما كانت قريبة إلى حد تستطيع معه سماع قلب رينيسمي... إلى حد يجعلها تشعر بالحرارة التي يشعها جسدها. لعلها رأت في وجنتيّ رينيسمي الورديتين خدعة قمنا بها لسبب تدركه إيرينا جيداً.

فبعد كل حساب... كانت أسرة كولن متحالفة مع المستذئبين... ومن وجهة نظر إيرينا، قد يعني هذا أنه ما من شيء مستبعد عنهم...

ما كانت إيرينا تعصر كفيها في تلك البرية الثلجية حزناً على لورنت... كانت تعرف أن واجبها يقضي بأن تشي بأسرة كولن... كانت تعرف ماذا

سيصيبنا إن هي فعلت! من الواضح أن إحساسها بالواجب تغلب على صداقة عمرها قرون.

أما استجابة الفولتوري لهذا النوع من المخالفة فهي شيء تلقائي... شيء مقرر سلفاً!

استدرت فسترت بجسدي جسد رينيسمي النائمة... غطيتها بشعري ودفنت وجهي في لفائف شعرها.

قلت بصوت منخفض مقاطعة ما كان إيميت يهم بقوله: «فكروا فيما رأته إيرينا ذلك اليوم! ماذا يمكن أن تبدو رينيسمي في عين من فقدت أمها بسبب الأطفال الخالدين؟»

حل صمت مطبق من جديد عندما التقط الآخرون فكرتي.

همس كارلايل: «طفلة خالدة!»

أحسست بإدوارد يركع بجانبي ويلفنا معاً بذراعيه.

تابعت القول: «إنها مخطئة. ليست رينيسمي مثل بقية هؤلاء الأطفال. لقد كانوا مجمدين أما هي فتكبر كل يوم. كانوا خارج كل سيطرة... أما هي فلم تؤذ تشارلي أو سو... بل لم تظهر لهما أي شيء يمكن أن يخيفهما. إنها قادرة على ضبط نفسها. بل هي أكثر ذكاء من معظم الكبار. لن يكون لديهم سبب...»

مضيت في كلامي... كنت أنتظر أن يتنفس أحدهم الصعداء... كنت أنتظر أن يسترخي هذا التوتر الجليدي الذي عم الغرفة كلها... أن يسترخي عندما يدركون أنني على صواب. لكنني أحسست ببرودة الغرفة تزداد. أخيراً... تقطع صوتي الخافت... وصمت.

لم يتكلم أحد... زمناً طويلاً.

بعد ذلك همس إدوارد في شعري: «هذه ليست جريمة من النوع الذي تقام محكمة من أجله يا حبيبتي». تابع بصوت هادئ: «لقد رأى آرو في أفكار إيرينا البرهان على ما تقوله. إنهم آتون للتدمير... لا للنقاش».

قلت معاندة: «لكنهم مخطئون!»

«لن ينتظروا حتى تثبت لهم ذلك».

مازال صوته هادئاً... لطيفاً... مخملياً... لكن الألم واليأس كانا ظاهرين تماماً. كان صوته مثلما كانت عينا أليس قبل قليل... مثل داخل القبر.

سألته: «ما الذي نستطيع فعله؟»

كانت رينيسمي شديدة الدفء والهدوء بين ذراعي... كانت تحلم بسلام... هل كنت شديدة القلق من سرعة نموها؟ هل كنت قلقة من احتمال أن لا تتجاوز حياتها عشر سنين؟ ما أسخف هذا القلق الآن!

ما عاد أمامها إلا شهر... أو أكثر بقليل.

أهذا هو الحد إذن؟ لقد نلت سعادة أكثر مما يمكن أن يتوقعه أكثر الناس. هل ثمة قانون طبيعي يفرض حصصاً متساوية من السعادة والبؤس في العالم؟ هل أدت فرحتي إلى اضطراب الميزان؟ هل هذه الأشهر الأربعة هي نصيبي كله؟

كان إيميت هو من أجاب على أسئلتي.

قال بصوت هادئ: «سوف نقاتل!»

زمجر جاسبر: «لا نستطيع الفوز»... أستطيع تخيل كيف سيبدو وجهه عند ذلك. كيف سيكون جسده متكوماً فوق جسد أليس... يحميها!

صدر عن إيميت صوت يدل على القرف: «لا بأس! لا نستطيع الهرب. ليس مع وجود ديمتري معهم»... عرفت بالغريزة أنه ما كان منزعجاً من فكرة تعقب الفولتوري لنا أثناء هربنا... بل من فكرة الهرب نفسها... «لا يمكن الجزم بأننا لا نستطيع الفوز في هذا القتال. ثمة خيارات أمامنا. لسنا مضطرين إلى القتال وحدنا».

انتفض رأسي فجأة عندما سمعت ذلك: «ليس لنا أن نحكم على الكوليليت بالموت يا إيميت!»

«اهدئي يا بيلا!»... ما كان تعبير وجهه مختلفاً عما رأيته عندما كان

يفكر في مصارعة أفعى الأناكوندا. وما كان خطر الفناء نفسه قادراً على تغيير رأي إيميت... على التقليل من قدرته على الانتشاء بالتحدي... «لم أكن أقصد القطيع! كوني واقعية... هل تظنين أن جايكوب أو سام يمكن أن يتجاهلا هذا الغزو؟ حتى لو لم يكن الأمر متعلقاً بنيسي؟ حتى من غير ذلك... إن آرو يعرف، بفضل إيرينا، كل شيء عن تحالفنا مع القطيع. لكني كنت أفكر في بقية أصدقائنا».

همس كارلايل معي: «ليس لنا أن نحكم على بقية أصدقائنا بالموت».

قال إيميت بنبرة مسترضية مهدئة: «بل ندعهم يقررون بأنفسهم... لست أقول إن عليهم أن يقاتلوا معنا». كنت أرى خطته تتضح في رأسه مع كلامه... «إذا وقفوا بجانبنا... فحسب... إذا وقفوا الزمن الكافي لجعل الفولتوري يترددون! بيلا مصيبة حقاً! إذا استطعنا إجبارهم على التوقف والإصغاء...! عند ذلك سيزول كل سبب للقتال...»

ظهر طيف ابتسامة على وجه إيميت الآن. أستغرب أن أحداً لم يضربه حتى الآن. لقد أردت أن أضربه بنفسي.

قالت إيزمي متحمسة: «نعم! هذا منطقي يا إيميت. لسنا في حاجة إلا إلى جعل الفولتوري يتوقفون لحظة واحدة. لحظة تكفي، لحظة يصغون فيها إلينا».

قالت روزالي بفظاظة... بصوت حاد مرتجف: «سوف نكون في حاجة إلى حشد من الشهود!»

أومأت إيزمي برأسها موافقة كما لو أنها لم تسمع السخرية في نبرة صوت روزالي: «نستطيع أن نطلب هذا من أصدقائنا... أن يكونوا شهوداً فقط».

قال إيميت: «لو كنا محلهم لفعلنا ذلك!»

تمتمت أليس: «علينا أن نسألهم سريعاً»... نظرت فرأيت أن عينيها صارتا قاتمتين... فارغتين... من جديد... «يجب أن نريهم ما لدينا بحذر شديد».

سألها جاسبر: «أتريهم؟»

نظر أليس وإدوارد إلى رينيمي. ثم غامت عينا أليس من جديد وقالت: «أسرة تانيا... جماعة سيوبهان... جماعة آمون... بعض مصاصي الدماء الرحل... غاريت وماري بالتأكيد. ربما أليستير أيضاً».

سأل جاسبر بما يشبه الخوف: «ماذا عن بيتر وشارلوت؟»... كما لو أنه يأمل في إجابة سلبية... يأمل في إبعاد أخيه عن المذبحة الوشيكة!

«ربما!»

سأل كارلايل: «والذين في الأمازون!... كاشيري وزافرينا وسينا؟»

في البداية بدت أليس شديدة الاستغراق في رؤياها... شديدة الاستغراق إلى حد يجعلها غير قادرة على الإجابة... ثم ارتعد جسمها أخيراً وعادت عيناها إلينا. نظرت إلى عيني كارلايل نظرة خاطفة ثم أطرقت برأسها.

«لا أستطيع الرؤية».

سألها إدوارد بهمس آمر: «ماذا كان ذلك؟ ذلك الجزء في الأدغال! هل سنذهب بحثاً عنهم؟»

أجابت أليس دون أن تنظر في عينيه: «لا أستطيع الرؤية»... عبرت وجه إدوارد لمحة من الاضطراب... «علينا أن نتوزع... وأن نسرع... قبل أن يغطي الثلج الأرض. علينا أن نمر على الجميع حتى نجلبهم إلى هنا ونجعلهم يرون ما لدينا»... عادت إلى التركيز من جديد... «اسألوا إليزار... الأمر يتعدى مسألة طفل خالد!»

ساد صمت مشؤوم لحظة طويلة... تابعت أليس غيابها الذاهل. وعندما انتهى... رفت عيناها ببطء... صارتا مظلمتين رغم أنها عادت إلى الحاضر الآن.

همست: «أمامنا عمل كثير. علينا أن نسرع».

سألها إدوارد: «ماذا يا أليس؟ كان ذلك شديد السرعة... لم أستطع فهمه. ماذا كان...؟»

انفجرت تجيبه: «لا أستطيع الرؤية!... جايكوب على وشك الوصول الآن».

تحركت روزالي خطوة صوب الباب: «سوف أتعامل مع...»

قالت أليس بسرعة... كان صوتها يزداد توتراً مع كل كلمة: «لا! فليدخل»... أمسكت بيد جاسبر وراحت تشده صوب الباب الخلفي... «سوف أرى بشكل أفضل إذا ابتعدت عن نيسي أيضاً. يجب أن أذهب. يجب أن أتمكن من التركيز. يجب أن أرى كل ما أستطيع رؤيته. عليّ أن أذهب. هيا يا جاسبر... ليس لدينا وقت».

سمعنا كلنا صوت جايكوب في مدخل البيت. جذبت أليس يد جاسبر نافدة الصبر. تبعها سريعاً... كانت الحيرة في عينيه... مثل إدوارد! انطلقا خارجين من الباب إلى الليل الفضي.

التفتت أليس تقول لنا: «أسرعوا! علينا أن نعثر عليهم جميعاً».

سأل جايكوب وهو يغلق الباب خلفه: «نعثر على ماذا؟ أين تذهب أليس؟»

لم يجبه أحد. رحنا نحدق فيه جميعاً.

نفض جايكوب البلل عن شعره، ثم ارتدى قميصه. كانت عيناه على رينيمي: «مرحباً يا بيلا! كنت أظنكم في بيتكم الآن...»

نظر إلي أخيراً... رمش بعينيه... ثم راح يحدق. راقبت تعبير وجهه عندما بدأ يلتقط الجو المسيطر على الغرفة. أطرق برأسه ناظراً إلى البقعة الرطبة على الأرض بعينين متسعتين... إلى الورود المتبعثرة... إلى شظايا الكريستال. ارتجفت أصابع يديه.

سأل بصوت جامد: «ماذا؟ ماذا حدث؟»

لم أعرف من أين أبدأ الكلام. لم يجد أحد الكلمة المناسبة.

عبر جايكوب الغرفة بثلاث خطوات ثم هبط على ركبتيه بجانب رينيمي... بجانبي. أحسست بالحرارة تنبعث من جسده مترافقة مع ارتجاف سرى هابطاً في ذراعيه حتى بلغ كفيه.

سألني وهو يلمس جبهتها: «هل هي بخير؟»... راح يميل برأسه حتى يستمع إلى قلبها... «لا تعبثي بي يا بيلا... أرجوك!»

قلت بصوت مختنق... كانت كلماتي تتكسر على نحو غريب: «لم يصب رينيمي شيء».

«ماذا إذن؟»

همست: «كلنا يا جايكوب!»... لقد كان ذلك في صوتي أيضاً... صوت القبر من الداخل... «لقد انتهى الأمر. صدر حكم الموت علينا جميعاً».

29

مخالفة

جلسنا هناك طيلة الليل... تماثيل من الرعب والأسى. أما أليس فلم ترجع أبداً!

كنا متوترين جميعاً... إلى أقصى حدود التوتر... جمّدنا توترنا تماماً. كان كارلايل لا يكاد يستطيع تحريك شفتيه حتى يشرح الأمر لجايكوب. كأن إعادة الحديث تزيد الأمر رعباً... بل إن إيميت نفسه وقف ساكناً صامتاً منذ ذلك الحين.

لم أبدأ التفكير فيما يمكن أن يكون قد جعل أليس تتأخر كل هذا التأخير إلا عندما أشرقت الشمس وأدركت أن رينيمي موشكة على التململ بين ذراعي. ليتني أعرف المزيد قبل أن يواجهني فضول ابنتي. ليتني أحصل على بعض الأجوبة... على قليل... قليل... من الأمل حتى أستطيع أن أبتسم لها فأمنع الحقيقة العارية من إفزاعها.

بدا القناع الثابت الذي ارتداه وجهي طيلة الليل كأنه باق عليه إلى الأبد. لم أعرف إن كانت لدي قدرة على الابتسام بعد الآن.

كان جايكوب يشخر في الزاوية... جبل من الفراء على الأرض... كان يتململ قلقاً في نومه. إن سام يعرف كل شيء... الذئاب يحضرون أنفسهم لما هو آتٍ. ماذا يمكن أن تفيدهم هذه الاستعدادات إلا أن يقتلوا مع بقية أسرتي.

اقتحم ضوء الشمس النوافذ الخلفية فتلألأ على جلد إدوارد. لم تفارقه عيناي منذ ذهاب أليس. كنا نتبادل التحديق طيلة الليل. كان كل منا يحدق في من لا يستطيع العيش بعده... في الآخر. رأيت انعكاس صورتي في عينيه المعذبتين عندما لامسني ضياء الشمس.

تحرك حاجباه حركة لا تكاد ترى... ثم شفتاه: «أليس!»

كان صوته مثل صوت تكسر الجليد عندما يبدأ الذوبان. تكسر جليد كل واحد منا... بعض الشيء... صار أقل وطأة بعض الشيء، وتحركنا من جديد.

تمتمت روزالي بدهشة: «مضى وقت طويل على ذهابها».

تقدم إيميت خطوة نحو الباب متسائلاً: «أين يمكن أن تكون؟»

وضعت إيزمي يدها على ذراع روز: «يجب ألا نزعج...»

قال إدوارد: «لم تتأخر بهذا الشكل من قبل»... تخللت قناع الهدوء الذي رسمه على وجهه نثرات من الشك. عادت ملامحه حية من جديد... واتسعت عيناه فجأة بفعل مخاوف جديدة... رعب كبير: «كارلايل! هل تظن أنهم قاموا... بفعل استباقي؟ هل كان لدى أليس الوقت الكافي لتعرف إن كانوا قد أرسلوا شخصاً خلفها؟»

ملأ وجه آرو رأسي... كان جلد وجهه شفافاً... مشعاً. آرو... الذي رأى كل زاوية من زوايا ذهن أليس... الذي يعرف قدراتها كلها...

شتم إيميت بصوت مرتفع جعل جايكوب يهب على قوائمه مزمجراً. ردد قطيعه المنتظر خارج البيت صدى زمجرته. وسرعان ما كانت أسرتي كلها مثل خلية النحل.

صحت بجايكوب وأنا مندفعة خارج الباب: «ابق مع رينيسمي».

مازلت أقوى من الجميع... استخدمت قوتي حتى أدفع نفسي بمزيد من السرعة. لحقت بإيزمي بعد قفزات قليلة... ثم بروزالي بعد قفزات أخرى. رحت أجري في الغابة الكثيفة حتى صرت خلف إدوارد وكارلايل.

سأل كارلايل: «هل تظن أنهم تمكنوا من مفاجأتها؟»... كان صوته هادئاً مستقراً لا كمن يجري بل كمن يقف ساكناً من غير حركة.

أجابه إدوارد: «لا أرى هذا ممكناً... لكن آرو يعرفها أكثر من غيره... يعرفها أكثر مني».

صاح إيميت من خلفنا: «هل هذا فخ؟»

قال إدوارد: «ربما! ما من رائحة هنا إلا رائحة أليس وجاسبر. أين كانوا ذاهبين؟»

كانت آثار أليس وجاسبر تمضي في مسار يشبه قوساً واسعاً... اتجهت إلى شرق المنزل في البداية لكنها عادت فاتجهت شمالاً على ضفة النهر الأخرى ثم انعطفت غرباً مسافة عدة أميال. عبرنا النهر... قفزنا... كانت ثانية واحدة تفصل بين واحدنا والآخر. كان إدوارد يجري في الطليعة... في أقصى حالات تركيزه.

نادتنا إيزمي بعد لحظات من عبورنا النهر للمرة الثانية: «هل انتبهتم إلى تلك الرائحة؟»... كانت الأخيرة بيننا... إلى أقصى يسار المجموعة. كانت تشير بيدها إلى جهة الجنوب الشرقي.

أمرنا إدوارد بصوت صارم جاف: «سيروا على الدرب الرئيسي... كدنا نبلغ حدود الكويليت. ابقوا معاً. وانظروا إن كانوا قد انعطفوا شمالاً أو جنوباً».

لم أكن أعرف حدود المعاهدة كما يعرفها الآخرون، لكنني شممت أثر رائحة الذئاب في النسيم الذي راح يهب من ناحية الشرق. أبطأ كارلايل وإدوارد سرعتهما... بفعل العادة. رأيت رأسيهما ينوسان من جهة لأخرى... ينتظران انعطاف مسار أليس وجاسبر.

فجأة، صارت رائحة الذئاب قوية. انتفض رأس إدوارد إلى الأعلى. توقف فجأة... وتجمدنا في أماكننا جميعاً.

قال إدوارد بصوت مسطح: «سام! ما هذا؟»

جاء سام عبر الأشجار . . . كان على بعد مئات الأمتار منا، وكان يسير مسرعاً . . . في هيئته البشرية، رأيت ذئبين كبيرين يرافقانه . . . بول وجارد. استغرق سام بعض الوقت حتى يصل إلينا . . . جعلني بطء خطواته البشرية نافذة الصبر، ما كنت في حاجة إلى الوقت حتى أفكر فيما يجري. أردت أن أتحرك . . . أن أفعل شيئاً. أردت أن أطمئن على أليس . . . أن أوقن أنها سالمة آمنة.

رأيت وجه إدوارد يبيض تماماً عندما قرأ أفكار سام. لكن سام تجاهله ماضياً إلى كارلايل. توقف وبدأ الكلام.

«بعد منتصف الليل مباشرة جاء جاسبر وأليس إلى هذا المكان وطلبا الإذن بعبور أرضنا حتى المحيط. أعطيتهما الإذن ورافقتهما بنفسي حتى الشاطئ. مضيا إلى الماء فوراً . . . ولم يعودا. وأثناء سيرنا قالت لي أليس إن من المهم إلى أقصى حد ألا أقول شيئاً لجايكوب قبل أن أتحدث معك. كان عليّ انتظار مجيئك باحثاً عنها حتى أعطيك هذه الرسالة. قالت لي أليس أن أطيعها كما لو أن أرواحنا جميعاً متوقفة على هذه الطاعة».

كان وجه سام كالحاً عندما ناول كارلايل ورقة مطوية. رأيت على الورقة نصاً مطبوعاً باللون الأسود. إنها صفحة من كتاب! قرأت عيناي الحادتان الكلمات المطبوعة عندما فتح كارلايل الورقة ليرى جانبها الآخر. إنها صفحة العنوان من كتاب تاجر البندقية. شممت أثراً من رائحتي عندما هز كارلايل الورقة ليفتحها. أدركت أن الورقة منزوعة من أحد كتبي. كنت قد جلبت بعض الأشياء من منزل تشارلي فوضعتها في الكوخ . . . قليل من الملابس العادية . . . ورسائل أمي كلها . . . وكتبي المفضلة. كانت مجموعة مسرحيات شكسبير على رف الكتب في غرفة المعيشة في الكوخ صبيحة أمس . . .

همس كارلايل: «قررت أليس أن تتركنا».

صاحت روزالي: «ماذا؟»

أدار كارلايل الورقة حتى نتمكن من قراءتها جميعاً.

لا تبحثوا عني. ليس لديكم وقت! تذكروا: تانيا وسيوبهان وآمون واليازر . . . وكل من تستطيعون العثور عليه من الرحّل. سوف نبحث عن بيتر وشارلوت في طريقنا. نحن آسفون جداً لأن علينا ترككم بهذه الطريقة من غير وداع أو تفسير. إنه السبيل الوحيد أمامنا!

نحبكم

وقفنا متجمدين في أماكننا. كان الصمت مطبقاً . . . إلا تنفس الذئاب. لابد أن أفكارهم ذهبت في كل اتجاه . . . مثلنا. كان إدوارد أول من تحرك . . . أول من نطق مجيباً على ما سمعه في رأس سام: «نعم! إن الوضع بهذه الخطورة فعلاً».

سأله سام بصوت مرتفع فيه نبرة استنكار: «هل هو خطير إلى درجة تجعلك تترك أسرتك؟» . . . من الواضح أنه لم يقرأ الرسالة قبل أن يسلمها لكارلايل. إنه غاضب الآن . . . يبدو نادماً على إصغائه إلى أليس.

كان تعبير وجه إدوارد جامداً . . . لعله يبدو في نظر سام غاضباً أو متغطرساً! لكني كنت أرى الألم في قسمات وجهه.

قال إدوارد: «لا تعرف ما رأته أليس. إنها ليست جبانة ولا معدومة الإحساس. لكن لديها معلومات أكثر مما لدينا».

بدأ سام يقول: «نحن لن . . .»

قال إدوارد بحدة: «أنت ملتزم ومقيد بطريقة تختلف عنا. مازال كل منا محتفظاً بإرادته الحرة».

انتفض رأس سام إلى الأعلى وبدت عيناه فجأة مسطحتين . . . سوداوين.

تابع إدوارد: «لكن عليك أن تتعامل مع إنذارها بجدية. ليس لك أن تتورط في هذا الأمر. مازال في وسعك تفادي ما رأته أليس».

ابتسم سام: «لسنا ممن يهربون!» . . . نخر بول من خلفه مؤيداً.

تدخل كارلايل بهدوء: «لا تجعل أسرتك تتعرض للذبح بسبب الكبرياء».

نظر سام إلى كارلايل وقد رقّت تعابير وجهه: «كما قال إدوارد . . .

«ليست لدينا تلك الحرية التي تتمتعون بها. رينيمي واحدة من أسرتنا الآن بقدر ما هي واحدة من أسرتكم. لا يستطيع جايكوب التخلي عنها... ولا نستطيع أن نتخلى عنها». التفتت عيناه إلى رسالة أليس فأطبق شفتيه غاضباً.

قال إدوارد: «أنت لا تعرفها!»

سأله سام مستفزاً: «وهل تعرفها أنت؟»

وضع كارلايل يده على كتف إدوارد: «علينا عمل كثير يا بني! مهما يكن قرار أليس... سنكون حمقى إذا لم نأخذ بنصيحتها الآن. فلنعد إلى البيت حتى نبدأ العمل».

أومأ إدوارد برأسه... مازال الألم يعتصر وجهه. ومن خلفه... سمعت نشيج إيزمي الهادئ... من غير دموع.

لا أعرف كيف أبكي في هذا الجسد. ما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً... غير التحديق. لا مشاعر حتى الآن! بدا كل شيء غير حقيقي... كما لو أنني عدت أحلم من جديد بعد هذه الأشهر كلها... كما لو أنه كابوس.

قال كارلايل: «شكراً يا سام».

أجابه سام: «أنا آسف! ما كان يجب أن ندعها تمر من أرضنا».

قال له كارلايل: «بل فعلتم الشيء الصحيح. إن أليس حرة في أن تفعل ما تريد. لا أستطيع إنكار هذه الحرية عليها».

كنت أعتبر أسرة كولن جسماً واحداً... وحدة لا تقبل التقسيم. وفجأة تذكرت أن الوضع لم يكن على هذا النحو دائماً. لقد صنع كارلايل إدوارد وإيزمي وروزالي وإيميت، ثم صنعني إدوارد. نحن مرتبطون جسدياً... رابطة الدم والسم. لم يسبق لي أن اعتبرت جاسبر وأليس شيئاً مختلفاً... لم يسبق لي اعتبارهما شخصين تبنتهما هذه الأسرة. لكن، الحقيقة هي أن أليس تبنت أسرة كولن. لقد ظهرت ومعها ماضيها الذي لا صلة لهم به... ومعها جاسبر وماضيه أيضاً... ثم اندمجا في هذه الأسرة القائمة. يعرف جاسبر حياة أليس خارج أسرة كولن... وتعرف أليس حياته. هل اختارت

حقاً أن تعيش حياة جديدة أخرى بعد أن رأت نهاية حياة أسرة كولن؟

إذن، نحن محكومون بالفناء! لا أمل أبداً! لا شعاع من الأمل... لا بارقة يمكن أن تقنع أليس بأن لها فرصة في البقاء معنا.

بدا هواء الصباح المتألق ثقيلاً مظلماً على حين غرة... كما لو أن يأسي جعله قاتماً.

زمجر إيميت بصوت منخفض: «لن أستسلم من غير قتال. لقد قالت لنا أليس ما علينا فعله. فلنفعله إذن!»

أومأ الآخرون وقد علا التصميم وجوههم فأدركت أنهم معتمدون على ما أعطتنا أليس من فرصة. أدركت أنهم لن يستسلموا لليأس وينتظروا الموت.

نعم! سنقاتل كلنا. ماذا يمكن أن نفعل غير ذلك؟ ومن الواضح أننا سنجعل غيرنا مشتركاً في الأمر أيضاً لأن أليس قالت هذا قبل أن تتركنا. كيف لا نعمل بإنذارها الأخير؟ والذئاب أيضاً!... سوف يقاتلون معنا من أجل رينيمي.

سوف نقاتل... وسوف يقاتلون... وسوف نموت جميعاً! ما كنت أشعر بما بدا على الآخرين من تصميم. كانت أليس تعرف فرصنا... وقد بينت لنا الفرصة الوحيدة التي استطاعت أن تراها. لكنها رأت هذه الفرصة أصغر من أن تستطيع المراهنة عليها.

شعرت بالهزيمة منذ الآن... عندما أدرت ظهري لوجه سام الحانق فتبعت كارلايل باتجاه المنزل.

كنا نركض على نحو آلي الآن... ما كان لدينا ذلك الاستعجال الخائف الذي أتى بنا إلى هنا. ارتفع رأس إيزمي عندما قاربنا النهر.

«هنا كان الأثر الآخر... إنه حديث العهد».

أومأت برأسها إلى الأمام... باتجاه النقطة التي حاولت عندها لفت انتباه إدوارد أثناء مجيئنا... عندما كنا مسرعين لإنقاذ أليس...

قال إدوارد بصوت لا حياة فيه: «لابد أن هذه الرائحة تعود إلى

ساعة مبكرة من هذا اليوم. إنها رائحة أليس. . . من غير جاسبر».

تغضن وجه إيزمي وأومأت برأسها.

انعطفت قليلاً إلى اليمين متأخرة عن الآخرين بعض الشيء. . . كنت واثقة من أن إدوارد محق. . . لكن، في الوقت نفسه. . . كيف كتبت أليس رسالتها على ورقة من كتابي؟

«بيلا!». . . جاءني صوت إدوارد عندما وقفت مترددة. . . جاءني صوته ميتاً لا حياة فيه.

قلت له: «أريد أن أتعقب هذا الأثر». رحت أتشمم رائحة أليس الخفيفة التي تفارق في هذه النقطة مسار فرارها هذا الصباح. كنت جديدة في هذا الأمر، لكن رائحة أليس كانت واضحة. . . وما كانت رائحة جاسبر تخالطها.

كانت عينا إدوارد الذهبيتان فارغتين: «الأرجح أن هذه الرائحة ستقودك إلى البيت».

«إذن، أراك هناك».

ظننت في البداية أنه سيتركني أذهب وحدي لكن الحياة لمعت فجأة في عينيه الفارغتين بعد خطوات من تحركي.

قال بصوت هادئ: «أنا قادم معك. نراكم في البيت يا كارلايل».

أومأ كارلايل برأسه ثم انطلق مع الآخرين. انتظرت حتى اختفوا عن أنظارنا ثم نظرت إلى إدوارد مستفهمة.

قال بصوت خفيض: «ما استطعت تركك تبتعدين عني وحيدة. يؤلمني مجرد التفكير في هذا الأمر».

ما كنت في حاجة إلى مزيد من الشرح حتى أفهم. فكرت في احتمال فراقنا فأدركت أنني سأشعر بمثل ألمه. . . مهما يكن الفراق قصيراً.

ما عاد لدينا وقت طويل معاً.

مددت يدي إليه فأمسك بها.

قال: «فلنسرع! سوف تستيقظ رينيمي».

أومأت برأسي. . . وانطلقنا مسرعين.

لعل ما نقوم به الآن سخيف حقاً! أن نضيع الوقت بعيداً عن رينيمي من أجل إشباع فضولي وحده. لكن رسالة أليس أقلقتني. كانت قادرة على حفر رسالتها على صخرة أو على جذع شجرة إن هي أعوزتها مستلزمات الكتابة. وكانت قادرة أيضاً على سرقة أوراق للكتابة من أي منزل على الطريق. لماذا أخذت الورقة من كتابي؟ ومتى أخذتها؟

لم أفاجأ عندما قادنا الأثر إلى كوخنا عبر طريق متعرج سار في الغابة بعيداً عن المنزل وعن أرض الذئاب القريبة. انعقد حاجبا إدوارد حيرةً عندما أدرك أين يذهب بنا الطريق.

راح يحاول تحليل الأمر منطقياً: «هل تركت جاسبر ينتظرها وجاءت إلى هنا؟»

كدنا نصل الكوخ. . . كنت مضطربة. وكنت سعيدة لأنني أمسك بيد إدوارد في يدي. لكنني شعرت الآن أن عليّ أن أكون هنا وحدي. مستغربٌ أن تأخذ أليس صفحة من كتابي وتعود بها إلى جاسبر. أحسست أن ثمة رسالة في طريقة تصرفها هذه. . . رسالة ما استطعت فهمها إطلاقاً. لكنه كتابي! هذا يعني أن الرسالة موجهة لي. لو كانت شيئاً تريد أن يعرفه إدوارد لأخذت ورقة من أحد كتبه. . .؟

سحبت يدي من يده عندما اقتربنا من الباب وقلت له: «أعطني دقيقة واحدة».

تغضن جبينه: «بيلا!»

«أرجوك! ثلاثون ثانية فقط».

لم أنتظر إجابته. اندفعت داخلة من الباب وأغلقته من خلفي. مضيت مباشرة إلى رف الكتب. كانت رائحة أليس هناك. . . طازجة. . . لم يمض عليها إلا أقل من يوم. كانت النار التي لم أخمدها أمس ما تزال تشتعل ببطء في الموقد. سحبت كتاب تاجر البندقية من الرف وفتحته.

هناك. . . إلى جانب الحافة الباقية من الورقة الممزقة. . . تحت كلمات «تاجر البندقية بقلم ويليام شكسبير». . رأيت كتابة:

أتلفي هذا!

تحت هاتين الكلمتين رأيت اسماً وعنواناً في سياتل.

عندما دخل إدوارد بعد ثلاث عشرة ثانية، لا بعد ثلاثين، كنت أراقب الكتاب يحترق في النار.

«ماذا يجري يا بيلا؟»

«كانت هنا! لقد مزقت صفحة من كتابي لتكتب رسالتها عليها».

«لماذا؟»

«لا أعرف السبب».

«ولماذا تحرقين الكتاب؟»

«أنا. . . آ. . .»

عبست تاركة كل ما لدي من ألم وإحباط يظهر على وجهي. لا أعرف ما كانت أليس تحاول أن تقوله لي. . . لست أعرف إلا أنها حاولت قدر المستطاع أن تكون رسالتها لي بعيدة عن الآخرين. أنا الشخص الوحيد الذي لا يستطيع إدوارد قراءة أفكاره. إذن، لا بد أنها تريد أن يظل جاهلاً بالأمر. . . ولابد أن لديها سبب وجيه. . . «بدا لي إحراقه مناسباً».

قال بهدوء: «لا نعرف ما تفعله أليس».

رحت أحدق في ألسنة اللهب. أنا الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يكذب على إدوارد. فهل هذا ما أرادته أليس؟ هل هو طلبها الأخير؟

همست له: «عندما كنا في الطائرة الذاهبة إلى روما». . . ما كان هذا كذباً إلا من حيث سياقه. . . «عندما كنا ذاهبين من أجل إنقاذك. . . كذبت أليس على جاسبر حتى لا يلحق بنا. كانت تعرف أنه إذا واجه الفولتوري فسوف يموت. كانت مستعدة للموت بدلاً من تعريضه للخطر. وكانت مستعدة لتعريضي للموت أيضاً. . . ولتعريضك أنت». لم يجبني إدوارد.

قلت: «الديها أولوياتها». . . أحسست بالألم في قلبي الهامد عندما أدركت أن تفسيري ما كان يبدو كاذباً بأي شكل من الأشكال.

قال إدوارد: «لست أصدق هذا». . . لم يقل هذه الجملة مكذباً كلامي بل قالها كمن يناقش نفسه. . . «ربما كان جاسبر هو المعرض للخطر. ربما تنجح خطتها بالنسبة للبقية، لكنه سيموت إذا بقي هنا. . . ربما. . .»

«كان في وسعها أن تقول لنا ذلك. . . أن تجعله يذهب».

«وهل كان يمكن أن يذهب ويتركها؟ لعلها تكذب عليه من جديد».

تظاهرت بالموافقة: «ربما! علينا الذهاب إلى المنزل. . . ليس لدينا وقت».

أمسك إدوارد بيدي. . . وجرينا.

لم تبعث رسالة أليس الأمل في نفسي. لو كانت ترى سبيلاً إلى تجنب المذبحة الوشيكة لظلت هنا. ما كنت قادرة على رؤية احتمالات أخرى. لابد إذن أنها تقول لي شيئاً آخر. ليس طريقاً للفرار. لكن، ما عساها تظن أنني أريد غير ذلك؟ لعلها تدلني على طريقة لإنقاذ شيء ما؟ هل مازلت قادرة على إنقاذ شيء؟

ما كان كارلايل والبقية قاعدين في غيابنا. سوف يرحلون خلال خمس دقائق. . . وقد استعدوا فعلاً للذهاب. كان جايكوب في الزاوية. . . بشرياً من جديد. . . واضعاً رينيمي في حضنه. وكان الاثنان ينظران إلينا بعيون متسعة.

كانت روزالي قد بدلت ثيابها فارتدت بنطلون جينز متين المظهر وحذاء للجري وقميصاً ذا أزرار. . . من ذلك النوع الذي يلبسه الرحالة في رحلاتهم الطويلة. كانت ملابس إيزمي مثل ملابسها. وكان على الطاولة مجسم للكرة الأرضية، لكنهم فرغوا من النظر فيه. . . كانوا ينتظرون وصولنا.

صار الجو الآن أكثر إيجابية من ذي قبل. أراحهم شعورهم بأنهم يفعلون شيئاً. كانت آمالهم معلقة بتوجيهات أليس.

نظرت إلى الكرة الأرضية وتساءلت... ما هي وجهتهم الأولى؟

نظر إدوارد إلى كارلايل: «هل نبقى هنا؟»... ما كان سعيداً بهذا.

قال كارلايل: «قالت أليس إن علينا أن نجعل الناس يرون رينيمي، وإن علينا توخي الحذر في ذلك. سوف نرسل إليكم كل من نستطيع أن نجده. إدوارد!... أنت أقدرنا على التعامل مع هذا الحقل من الألغام».

أومأ إدوارد برأسه... مازال غير سعيد: «إنه حقل ألغام كبير!»

قال إيميت: «سوف نتوزع... سنذهب أنا وروز للبحث عن الرحّل».

قال كارلايل: «سوف تكونون مشغولين هنا. ستصل أسرة تانيا في الصباح... ليست لديهم فكرة عن السبب. عليك إقناعهم أولاً بألا تكون ردة فعلهم مثل ردة فعل إيرينا. ثانياً، عليك اكتشاف ما كانت أليس تقصده عندما تحدثت عن إليازر. ثم... بعد ذلك كله... ستفهم منهم إن كانوا يعتزمون البقاء ليشهدوا معنا. ثم تبدأ الدورة نفسها من جديد عندما يأتي الآخرون... إذا استطعنا إقناع أحد منهم بالمجيء»... تنهد كارلايل... «لعل مهمتك هي المهمة الأصعب. وسوف نعود لمساعدتك بأسرع ما نستطيع».

وضع كارلايل يده على كتف إدوارد ثانية واحدة ثم قبّل جبهتي. احتضنتنا إيزمي... وودعنا إيميت بلكمة على كتف كل منا. أجبرت روزالي نفسها على الابتسام لنا ثم بعثت في الهواء قبلة إلى رينيمي وتكشيرة وداع إلى جايكوب.

قال لهم إدوارد: «حظاً طيباً!»

قال كارلايل: حظاً طيباً لكم أيضاً... نحن في حاجة إليه... جميعاً».

راقبتهم يرحلون... تمنيت لو كنت قادرة على الإحساس بالأمل الذي يحدوهم... تمنيت أيضاً لو أستطيع أن أكون وحدي مع الكمبيوتر... ثواني قليلة. يجب أن أعرف من هو ج. جينكس... ولماذا فعلت أليس كل ذلك حتى تعطيني هذا الاسم وحدي.

انقلبت رينيمي بين ذراعي جايكوب لتلمس خده.

همس لها: «لا أعرف إن كان أصدقاء كارلايل قادمين. آمل ذلك. يبدو أن عددنا صار قليلاً الآن».

هي تعرف إذن! إنها تفهم ما يجري بوضوح تام. إن جايكوب يخبرها بكل شيء. ألم تكن حمايتها أهم من الإجابة على أسئلتها.

نظرت إلى وجهها بانتباه. ما كان في وجهها خوف... كان فيه قلق... وجدية كبيرة... عندما راحت تكلم جايكوب بلغتها الصامتة.

قال لها جايكوب: «لا! لا نستطيع المساعدة في شيء. علينا البقاء هنا. سوف يأتي أشخاص من أجل رؤيتك أنت... لا من أجل رؤية المناظر هنا».

نظرت إليه رينيمي عابسة.

قال لها: «لا! ليس عليّ الذهاب إلى أي مكان». ثم نظر إلى إدوارد وقد داهمته فجأة فكرة أنه قد يكون مخطئاً... «هل علي الذهاب؟»

تردد إدوارد.

قال جايكوب بصوت متوتر: «تكلم!»... كان على وشك الانفجار... مثلنا.

قال إدوارد: «إن مصاصي الدماء القادمين لمساعدتنا ليسوا مثلنا. أسرة تانيا هي المجموعة الوحيدة التي تحترم الحياة البشرية... لكنها لا تقيم كبير شأن للمستذئبين. أظن أن من الأكثر أماناً...»

قاطعه جايكوب: «أستطيع الاهتمام بنفسي».

تابع إدوارد: «من الأكثر أماناً بالنسبة لرينيمي إذا لم يتأثر قرارهم بتصديق قصتنا بأي أمر ذي صلة بالمستذئبين».

«أي أصدقاء هم؟ هل ينقلبون عليكم بسبب من تخالطونهم الآن؟»

«أظن أنهم سيكونون متسامحين لو كانت الظروف عادية. لكن عليك إدراك أن قبول نيسي لن يكون أمراً سهلاً عليهم. فلماذا نجعله أكثر صعوبة... ولو قليلاً؟»

كان كارلايل قد شرح لجايكوب في الليلة الماضية قوانين مصاصي الدماء

الخاصة بالأطفال الخالدين. سأل جايكوب: «هل كان هؤلاء الأطفال بهذا السوء حقاً؟»

«لن تستطيع تخيل عمق الجراح التي تركوها في روح جماعة مصاصي الدماء».

«إدوارد. . .» مازال غريباً بعض الشيء أن أسمع جايكوب يستخدم اسم إدوارد من غير مرارة.

«أعرف يا جايكوب! أعرف مدى صعوبة بقائك بعيداً عنها. سوف تكون حذرين جداً. . . سنرى ردة فعلهم تجاهها. وفي جميع الأحوال، سيكون على نيسي أن تختفي أحياناً خلال الأسابيع القادمة. عليها أن تظل في الكوخ حتى تحين اللحظة المناسبة لتقديمها إلى الناس. طالما استطعت المحافظة على مسافة آمنة من البيت. . .»

«أستطيع أن أفعل هذا. سيصل أول الزوار عند الصباح. . . أليس كذلك؟»

«نعم! إنهم أقرب أصدقائنا. في هذه الحالة قد يكون من الأفضل أن تكون الأمور واضحة بأسرع ما يمكن. يمكنك البقاء هنا لأن تانيا سمعت عنك. بل هي قابلت سيث أيضاً».

«صحيح».

«عليك أن تخبر سام بما يجري هنا. فقد يأتي غرباء إلى الغابة قريباً».

«معك حق! لكنه يستحق ألا أخبره شيئاً لأنه لم يخبرني عما جرى في الليلة الماضية».

«عادة ما يكون الإصغاء إلى كلام أليس تصرفاً سليماً».

صرّ جايكوب على أسنانه. أدركت الآن أنه يشاطر سام رأيه في فعلة أليس وجاسبر.

فيما كانا يتحدثان رحت أنظر من النافذة الخلفية وأحاول أن أبدو قلقة مشغولة البال. ليس هذا صعباً! ملت برأسي إلى الجدار الذي ينحني مبتعداً عن غرفة المعيشة باتجاه غرفة الطعام. . . تماماً قرب طاولات الكمبيوتر.

جرت أصابعي على المفاتيح. . . مازلت أحدق في الغابة. . . أحاول أن أجعل حركتي تبدو شاردة من غير هدف. هل يفعل مصاصو الدماء شيئاً من غير هدف؟ لا أظن أن أحداً كان يتنبه إليّ. . . لكني لم أستدر لأتأكد. أضاءت الشاشة. وضعت أصابعي على المفاتيح من جديد. ثم رحت انقر على المفاتيح بهدوء شديد حتى أجعل حركتي تبدو عفوية.

نظرت إلى الشاشة من زاوية عيني.

لا وجود لشخص يدعى ج. جينكس! لكني وجدت جيسون جينكس. إنه محام! تابعت النقر على لوحة المفاتيح بالطريقة نفسها كما يفعل المرء عندما يتابع التمسيد على قطعة نسي أنها جالسة في حضنه. إن لدى جيسون جينكس موقعاً باذخاً على الإنترنت. . . لشركته. لكن العنوان ليس هو العنوان الصحيح. إنه في سياتل، لكنه في منطقة مختلفة. نظرت إلى أرقام الهاتف ثم تابعت النقر على لوحة المفاتيح. رحت أبحث عن العناوين هذه المرة، لكني لم أجد شيئاً. . . كما لو أن هذا العنوان غير موجود. ليتني أنظر إلى الخريطة الآن. . . لكنها مغامرة! نقرت على اللوحة من جديد لأمسح بحثي من ذاكرة الجهاز. . .

تابعت النظر من النافذة. . . وتابعت النقر على اللوحة بعض الوقت. سمعت صوت خطوات خفيفة تجتاز الغرفة صوبي. استدرت وعلى وجهي التعبير نفسه.

مدت رينيسمي يدها صوبي ففتحت لها ذراعيّ. ألقت بنفسها بين ذراعيّ. . . كانت تفوح منها رائحة ذئب. . . وضعت يدها على رقبتي.

لا أعرف إن كنت أستطيع الاحتمال. مهما أكن خائفة على حياتي وعلى حياة إدوارد. . . وكل أفراد أسرتنا. . . ما كان ذلك الخوف شيئاً بالمقارنة مع الرعب الذي يقطع الأحشاء. . . رعبي على ابنتي. لابد من طريقة لإنقاذها. . . حتى إذا كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله.

وفجأة أدركت أنني ما عدت أريد شيئاً غير هذا. سوف أحتمل كل ما عداه

- إذا اضطررت إلى الاحتمال. لكني لا أقبل أن تتعرض حياتها للخطر. . . أبداً!
هي الشيء الوحيد الذي عليّ أن أحميه.

هل كانت أليس تعرف أنني سأشعر بهذا؟

مست يد رينيمي خدي برفق.

راحت تريني وجهي ووجه إدوارد وجايكوب وروزالي وإيزمي وكارلايل وأليس وجاسبر. . . راحت تتنقل عبر وجوه أفراد الأسرة كلهم. . . أسرع. . . ثم أسرع. سيث وليا. تشارلي وسو وبيلي. مرة بعد مرة! كانت قلقة مثلنا جميعاً. كانت قلقة فقط. لم يخبرها جايكوب بالجزء الأسوأ من القصة. . . على ما أظن! ذلك الجزء الذي يقول إن لا أمل لدينا. . . إننا سنموت كلنا بعد شهر.

أصرت رينيمي على صورة وجه أليس. . . كانت مشتاقة. . . حائرة. أين ذهبت أليس؟

همست لها: «لست أدري! لكنها أليس. . . إنها تفعل الصواب. . . كشأنها دائماً».

إنه الوقت المناسب لها على أي حال. أكره التفكير في أليس بهذه الطريقة، لكن. . . كيف يمكن أن أفسر ذهابها بغير هذا؟

تنهدت رينيمي واشتد الشوق في عينيها.

«أنا مشتاقة إليها أيضاً».

حاول وجهي رسم تعبير يتناسب مع الأسى في داخلي. أحسست بغرابة. . . بجفاف في عيني. راحتا ترمشان بسبب ذلك الشعور المزعج. عضضت شفتي. وعندما تنفست أحرق الهواء حنجرتي. . . كما لو كان يخنقني.

تراجعت رينيمي إلى الخلف حتى تنظر إلى وجهي. رأيت وجهي منعكساً في أفكارها وفي عينيها. بدا مثلما كان وجه إيزمي هذا الصباح.

هكذا إذاً يكون الشعور بالحاجة إلى البكاء!

لمعت الدموع في عيني رينيمي وهي تنظر إلى وجهي. داعبت وجهي لكنها لم ترني شيئاً. . . إنها تحاول مواساتي. . . فحسب!

لم أتوقع أبداً أن أرى الرابطة بين الأم والابنة تنقلب بيننا. . . مثلما كانت الحال دائماً بيني وبين رينيه. لكنني ما كنت أرى المستقبل بأي قدر من الوضوح.

تدحرجت دمعة من طرف عين رينيمي فمسحتها بقبلة سريعة. لمست عينها بدهشة ثم نظرت إلى البلل على أصابعها.

قلت لها: «لا تبك! ستسير الأمور على ما يرام. وسوف تكونين بخير. سأجد مخرجاً من هذا الوضع».

إن لم أستطع فعل شيء. . . فإن لديّ رينيمي! أنا واثقة الآن أكثر من أي وقت مضى من أن هذا هو ما أرادت أليس إعطاءه لي. إنها تعرف! لابد أنها تركت لي مخرجاً.

30

سحر لا يقاوم

ما كان عندي الكثير مما يمكن التفكير فيه.

كيف أستطيع أن أكون وحدي بعض الوقت حتى أبحث عن ج. جينكس؟ ولماذا تريد أليس أن أبحث عنه؟

إذا كان الدليل الذي تركته أليس لا علاقة له برينيمي، فما الذي أستطيع أن أفعله حتى أنقذ ابنتي؟

كيف سنشرح الأمر. . . أنا وإدوارد. . . لأسرة تانيا في الصباح؟ ماذا لو كانت ردة فعلهم مثل ردة فعل إيرينا؟ ماذا إن تحول الأمر إلى قتال بيننا؟

ما كنت أعرف كيف أقاتل! كيف أتعلم ذلك في شهر واحد؟ هل لدي فرصة لأن أتمرن فأصبح قوية إلى حد أستطيع معه أن أشكل خطراً على واحد فقط من الفولتوري؟ أم أنني محكومة بأن أكون عديمة النفع؟ أن أكون مجرد مولود جديد آخر يمكن التخلص منه بكل سهولة!

ما أكثر ما أريد من إجابات. . . لكنني لم أحظ بفرصة طرح أسئلتي!

أردت المحافظة على قدر من إيقاع الحياة العادي. . . من أجل رينيمي. كنت مصرة على أخذها إلى الكوخ وقت النوم. إن البقاء على هيئة ذئب أكثر راحة لجايكوب في هذه اللحظة. يكون تعامله مع التوتر أكثر سهولة عندما يشعر أنه مستعد للقتال. ليتني أشعر الشعور نفسه. . . ليتني أشعر أنني مستعدة

للقتال! ذهب جايكوب ليجري في الغابة. . . جولة حراسة جديدة.

بعد أن غرقت رينيمي في نومها. . . وضعتها في سريرها ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس لأطرح أسئلتي على إدوارد. ذهبت أطرح الأسئلة التي أستطيع طرحها على الأقل. ما أصعب أن أخفي شيئاً عنه. . . حتى إن كان لا يستطيع قراءة أفكاري.

كان واقفاً مديراً ظهره صوبي. . . ينظر إلى النار.

«إدوارد! أنا. . .»

استدار سريعاً واجتاز الغرفة في لحظة واحدة. . . من غير زمن على الإطلاق. . . ولا حتى جزء بسيط من الثانية. لم يسمح لي الوقت إلا لرؤية تعبير وجهه العنيف قبل أن يطبع شفتيه على شفتي وتلفني ذراعاه مثل حبال فولاذية.

لم أعد إلى التفكير في أسئلتي طيلة تلك الليلة. لم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن أعرف سبب حالته هذه. . . ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى أكون في الحالة نفسها.

كنت أظن أنني في حاجة إلى سنوات حتى أتمكن من تنظيم هذه العاطفة الغامرة نحوه. . . جسدياً!. . . ثم لدي قرون بعدها حتى أستمتع بها. أما إن كان لدينا شهر واحد. . . فلا أدري كيف أستطيع احتمال أن ينتهي الأمر الآن. ما كنت أستطيع إلا أن أكون أنانية في هذه اللحظة. ما أردت إلا أن أحبه إلى أقصى حد ممكن ضمن الزمن المتاح.

عندما أشرقت الشمس كان ابتعادي عنه صعباً، لكن لدينا عمل. . . عمل قد يكون أكثر صعوبة من كل ما مرت به أسرتنا حتى الآن. وما إن سمحت لنفسي بالتفكير فيما هو قادم حتى غمرني التوتر. . . صارت أعصابي مثل أوتار مشدودة.

تمتم إدوارد عندما أسرعنا نرتدي ثيابنا في غرفة الخزانة الضخمة التي تذكرني الآن بأليس أكثر مما أريد: «أتمنى لو أستطيع العثور على طريقة

تجعلني أحصل على المعلومات من إليازر قبل أن تجعلهم يرون رينيمي... من باب الاحتياط فقط».

قلت له: «لكنه لن يفهم السؤال حتى يستطيع الإجابة عليه. هل تظن أنهم سيتيحون لنا فرصة للشرح؟»

«لست أدري!»

حملت رينيمي من سريرها... مازالت نائمة. ضممتها إلى صدري فغطت لفائف شعرها وجهي. شممت رائحتها الحلوة... شديدة القرب... أقوى من أي رائحة أخرى.

لا أستطيع تضييع أي ثانية في هذا اليوم. أنا في حاجة إلى إجابات. لا أدري كم من الوقت يمكن أن يتاح لنا بمفردنا في هذا اليوم. إذا سارت الأمور على ما يرام مع أسرة تانيا فقد يبقون معنا فترة طويلة من الزمن.

سألته من جديد: «إدوارد! هل تعلمني القتال؟»... شعرت بالتوتر وأنا أنتظر ردة فعله... كان ممسكاً بالباب حتى أخرج منه.

هذا ما توقعت! تجمد إدوارد ثم نظر إلي نظرة عميقة كأنه يراني أول مرة. توقفت عيناه عند ابنتنا الغافية بين ذراعي.

قال: «إذا حدث قتال فلن يستطيع أحد منا أن يفعل شيئاً مهماً».

حافظت على اتزان صوتي: «وهل تتركني عاجزة عن الدفاع عن نفسي؟»

ابتلع ريقه بصعوبة. اهتز الباب... صرخت مفاصله... عندما شد بيده عليه. ثم أومأ برأسه: «معك حق... أظن أن علينا الاهتمام بهذا الأمر بأسرع ما يمكن».

أومأت برأسي موافقة وانطلقنا صوب المنزل الكبير. لم نكن مسرعين.

هل يمكن أن أفعل شيئاً مهماً... شيئاً ذا قيمة وتأثير؟ إن لدي قدرة خاصة... على طريقتي... إذا كان يمكن اعتبار هذه الجمجمة السميكة شيئاً خاصاً. كيف يمكن أن أستفيد من هذا؟

«ما هي نقطة قوتهم الرئيسية؟ هل لديهم نقطة ضعف؟»

ما كان إدوارد في حاجة إلى سؤالي عمن أعنيهم بسؤالي... إنه الفولتوري!

قال غير متحمس: «أليك وجين هما المهاجمان الأكثر أهمية»... قالها كمن يتحدث عن فريق لكرة القدم... «نادراً ما يجد لاعبو الدفاع أنفسهم في حاجة إلى التصرف الحقيقي».

«هذا لأن جين تستطيع إحراقك حيث تقف... عقلياً على الأقل. فماذا يفعل أليك؟ ألم تقل ذات مرة إنه أكثر خطراً حتى من جين؟»

قال: «نعم! إنه نقيض جين إذا جاز القول؟ تجعلك جين تشعرين بألم لا يصدق... أما أليك فيجعلك لا تشعرين بشيء. لا شيء إطلاقاً. وفي بعض الأحيان... عندما يشعر الفولتوري بشيء من الشفقة... يجعلون أليك يخدر شخصاً قبل إعدامه... إذا كان قد استسلم لهم أو أرضاهم بطريقة أو بأخرى».

«يخدره! كيف يكون أكثر خطراً من جين؟»

«لأنه يلغي حواسك كلها. لا ألم ولا نظر ولا سمع ولا شم. حرمان تام من جميع الحواس. يصبح المرء وحيداً في الظلمة. بل هو لا يشعر بشيء عندما يحرقونه».

ارتعد جسمي. هل هذا أفضل ما نستطيع توقعه؟ أن لا نرى الموت ولا نشعر به عندما يأتي!

تابع إدوارد بذلك الصوت المتقطع نفسه: «لا يجعله هذا إلا مكافئاً لجين من حيث الخطورة. كلاهما قادر على جعلك عاجزة... على جعلك هدفاً لا حول له ولا قوة. لكن الفارق بينهما يشبه الفارق بيني وبين آرو. يستطيع آرو الاستماع إلى أفكار شخص واحد في وقت واحد. وتستطيع جين إحداث الألم عند الشخص الذي تركز ذهنها عليه. أما أنا فأستطيع سماع الجميع في الوقت نفسه».

شعرت بالبرد عندما فهمت قصده: «ويستطيع أليك شلنا جميعاً في وقت واحد».

قال: «نعم! إذا استخدم قدرته ضدنا فسوف نقف عمياً صماً إلى أن

يقتلونا. . . ولعلهم يكتفون بإحراقنا دون أن يمزقونا إرباً! ربما نحاول القتال. . . لكن الأرجح أن يصيب بعضنا بعضاً بدلاً من إصابتهم».

صرنا صامتين عدة ثوانٍ.

كانت فكرة تتشكل في رأسي. ليست فكرة واعدة تماماً. . . لكنها أفضل من لا شيء.

سألته: «هل تعتقد أن أليك مقاتل ماهر؟ أقصد. . . إضافة إلى قدرته تلك! إذا اضطر إلى القتال من غير استخدام هذه القدرة. . . أشك في أنه حاول أن يفعل ذلك ولو مرة واحدة».

قذفني إدوارد بنظرة حادة: «فيم تفكرين؟».

رحت أنظر أمامي: «لعله لا يستطيع أن يفعل ذلك معي! إذا كان ما يفعله يشبه ما تفعله أنت أو آرو أو جين. . . فربما. . . إذا لم يسبق له أن اضطر إلى الدفاع عن نفسه. . . وإذا تمكنت من تعلم بعض الخدع. . .».

قاطعني وقد كسا الرعب وجهه فجأة. لعله كان يرى الصورة نفسها التي تخيلتها: أفراد أسرتنا واقفين عاجزين. . . أعمدة معدومة الحواس واقفة في حقل الإعدام. . . كلهم إلا أنا. سأكون الوحيدة القادرة على القتال بينهم: «لقد أمضى قروناً مع الفولتوري. نعم! أنا واثق من أنك حصينة أمام قوته، لكنك مازلت مولودة حديثاً يا بيلا! لا أستطيع أن أجعل منك مقاتلة شديدة البأس في أسابيع قليلة. لابد أنه تدرب على القتال».

«لعله تدرب. . . ولعله لم يتدرب! هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله ولا يستطيعه غيري. حتى إذا استطعت إشغاله فترة قصيرة. . .» هل أستطيع الصمود وقتاً كافياً لأن يحظى الآخرون بفرصتهم؟

قال إدوارد عبر أسنانه المطبقة: «أرجوك يا بيلا! دعينا لا نتحدث في هذا الأمر».

«كن منطقياً!».

«سوف أحاول تعليمك قدر ما أستطيع، لكن، أرجوك. . . لا تجعليني

أفكر في أنك يمكن أن تضحي بنفسك حتى تشغليه قليلاً. . .» اختنق بكلماته فلم يكملها.

أومأت برأسي. سوف أحتفظ بخططي لنفسي! في البداية أليك. . . ثم، إذا شاء حظي العجيب أن أفوز. . . سأتولى أمر جين. ليتني أستطيع تسهيل الأمر. . . ليتني أتمكن من إزالة المزية الهجومية الهائلة لدى الفولتوري! قد تكون لنا فرصة بعد ذلك. . . راح عقلي يجري إلى الأمام. ماذا لو استطعت إلهاءهم؟ ماذا لو استطعت التغلب عليهم؟ هذا صحيح حقاً! ما الذي يجعل أليك أو جين في حاجة إلى تعلم مهارات القتال؟ ما كنت قادرة على تخيل جين الصغيرة الشكسة تتخلى عن مزيتها. . . حتى من أجل التعلم!

إذا تمكنت من قتلهم. . . فماذا يمكن أن يكون الفارق؟

تمتمت: «يجب أن أتعلم كل شيء. . . كل ما تستطيع حشره في رأسي طيلة الشهر المقبل».

تظاهر إدوارد بعدم سماعي.

من يكون دوره بعدهما؟ يجب أن أضع خطتي حتى لا أتردد في توجيه ضربتي التالية بعد القضاء على أليك. حاولت التفكير في حالات أخرى يمكن أن تجعل سماكة جمجمتي مفيدة. ما كنت أعرف الكثير عن قدرات الآخرين. من الواضح أن مقاتلاً ضخماً مثل فيليكس يتجاوز قدراتي. عليّ أن أحاول منح إيميت فرصة قتال متكافئ معه. ما كنت أعرف الكثير عن بقية حرس الفولتوري. . . إلا عن ديمتري. . .

كان وجهي خالياً من أي تعبير عندما رحت أفكر في ديمتري. لابد أنه مقاتل شرس. لا يمكن من غير ذلك أن يبقى حياً كل هذه الفترة. . . على رأس الهجوم دائماً. عليه أن يقودهم دائماً لأنه قادر على اقتفاء الأثر. . . إنه أفضل من يقتفي الأثر في العالم من غير شك. لو كان في العالم من هو أفضل منه لاستبدله الفولتوري به. لا يقبل آرو بأن يحيط نفسه بأشخاص ليسوا من المرتبة الأولى.

- لو لم يكن ديمتري موجوداً لاستطعنا الهرب. . . لاستطاع الهرب من يبقى منا حياً. ابنتي. . . ابنتي الدافئة بين ذراعي. . . يمكن أن يهرب أحد منا بها! جايكوب أو روزالي. . . من يبقى حياً!

و. . . إذا لو لم يكن ديمتري موجوداً. . . يمكن أن يبقى جاسبر وأليس في أمان إلى الأبد. أهذا ما رأته أليس؟ هل رأت أن هذا الجزء من الأسرة قادر على الاستمرار؟ هما الاثنان. . . على أقل تقدير!

هل يحق لي أن أنكر عليها ذلك؟

قلت: «ديمتري. . .»

قال إدوارد بصوت قاس: «إنه لي». . . نظرت إليه سريعاً فرأيت تعبيراً عنيفاً على وجهه.

همست: «ماذا؟»

لم يجبني أول الأمر. وصلنا إلى النهر عندما قال أخيراً: «من أجل أليس! هذا هو الشكر الوحيد الذي أستطيع تقديمه لها الآن بعد خمسين عاماً. . .»

إذن. . . إن أفكاره تسير في مجرى أفكاري نفسه!

سمعت صوت قوائم جايكوب الثقيلة تدق الأرض المتجمدة. وبعد ثوان قليلة رأيته بجانبي، تركزت عيناه الداكنتان على رينيمي.

أومأت له مرة. . . ثم عدت إلى أسئلتي. ما كان لدي وقت كثير.

«إدوارد! برأيك. . . لماذا قالت لنا أليس أن نسأل إليازر عن الفولتوري؟ هل كان في إيطاليا مؤخراً أم ماذا؟ ما الذي يمكن أن يعرفه؟»

«يعرف إليازر كل ما يتعلق بالفولتوري. نسيت أنك لا تعرفين ذلك. . . لقد كان واحداً منهم».

صدر عني صوت تعجب لا إرادي. زمجر جايكوب من خلفي.

«ماذا؟». . . سألت إدوارد ورحت أتصور ذلك الرجل الجميل ذا الشعر القاتم. . . الذي جاء إلى زفافنا ملتفاً بعباءة طويلة بلون الرماد.

رق وجه إدوارد الآن. . . ابتسم قليلاً: «إليازر شخص فائق التهذيب. لم

يكن سعيداً مع الفولتوري كل السعادة، لكنه يحترم القانون ويدرك الحاجة إلى التمسك به. كان يعتقد أنه يعمل من أجل الخير الشامل. وهو غير نادم على الزمن الذي قضاه معهم. لكنه، عندما وجد كارمن. . . أدرك أنه وجد مكانه في هذا العالم. إنهما متشابهان إلى حد كبير. . . كلاهما شديد العطف على مصاصي الدماء». . . ابتسم من جديد. . . «لقد التقيا تانيا وشقيقتيها فلم ينظر أحد منهم إلى الخلف بعد ذلك. إنهم مناسبون تماماً لهذا النمط من الحياة. لو لم يجدا تانيا لاكتشفا بنفسيهما طريقة للعيش من غير دماء البشر».

تلاطمت الصور وتضاربت في رأسي. ما كنت قادرة على التوفيق بينها. جندي شديد العطف بين جنود الفولتوري!

التفت إدوارد إلى جايكوب مجيباً على سؤاله الصامت: «لا! ما كان واحداً من محاربيهم إن جاز لي القول. إن لديه قدرة مفيدة لهم».

لابد أن جايكوب قد سأل السؤال الذي لا بد أن يسأل بعد ذلك الحديث.

«إن لديه إحساساً غريزياً بما يملكه الآخرون من قدرات. . . تلك القدرات الفائقة التي يتميز بها بعض مصاصي الدماء. كان قادراً على إعطاء آرو فكرة عامة عن قدرات أي مصاص دماء. . . يكفيه لذلك أن يكون قريباً منه. . . أو منها. كان هذا شديد الفائدة عندما يمضي الفولتوري إلى المعركة. كان يستطيع تحذيرهم إذا كان لدى أحد أفراد المعسكر الخصم مهارة أو قدرة يمكن أن تسبب لهم بعض الارتباك. لكن هذا كان أمراً نادراً. . . لابد من قدرات كبيرة حتى من أجل إرباك الفولتوري لحظة واحدة. أما في أكثر الأحيان فقد كانت فائدة هذا التحذير هي أن يمنح آرو فرصة لعدم قتل من قد يجده مفيداً له. إن هذه القدرة لدى إليازر صالحة مع البشر أيضاً. . . بعض الشيء! عليه أن يركز أكثر مع البشر لأن القدرة الكامنة تكون في حالة سديمية. كان آرو يجعله يختبر الأشخاص الراغبين في الانضمام إليه ليرى إن كان لديهم إمكانيات متميزة. لقد أزعج ذهابه آرو».

سألته: «كيف تركوه يذهب؟ أبهذه السهولة؟»

صارت ابتسامته قاتمة الآن. . . معوجة قليلاً: «ليس من المفترض أن يكون الفولتوري أشراراً كما يبدون لك الآن. إنهم أساس سلامنا وحضارتنا. لقد اختار كل فرد من أفراد الحرس أن يخدم فيه. . . بإرادته الحرة! إنها مرتبة رفيعة. . . وكلهم فخور بالانتماء إلى الحرس. . . لا أحد منهم مجبر على الانتماء إليه».

حدقت في الأرض.

«وحدهم المجرمون يزعمون أن الفولتوري أشرار. . . يا بيلا».

«نحن لسنا مجرمين!».

همهم جايكوب موافقاً.

«إنهم لا يعرفون هذا».

«هل تعتقد حقاً أننا قادرون على جعلهم يتوقفون قليلاً ليستمعوا إلينا؟».

تردد إدوارد لحظة صغيرة ثم ابتسم: «ربما! . . . إذا استطعنا جعل عدد كاف من الأصدقاء يقف في صفنا».

ربما! . . . شعرت فجأة بالأهمية الكبرى لما ينتظرنا اليوم. رحنا نتحرك بسرعة أكبر. . . ثم بدأنا الجري. . . لحق بنا جايكوب سريعاً.

قال إدوارد: «لن تتأخر تانيا كثيراً. علينا الاستعداد».

لكن، كيف نستعد؟ فكرنا. . . ثم فكرنا. . . استعددنا. . . ثم استعددنا. هل نجعل رينيمي مرئية لهم؟ أم نخبئها أول الأمر؟ وهل يكون جايكوب داخل الغرفة؟ أم في الخارج؟ لقد قال لأفراد قطيعه أن يكونوا موجودين قرب المنزل. . . من غير أن يراهم أحد. فهل عليه أن يفعل مثلهم؟

وفي النهاية. . . جلسنا. . . أنا ورينيمي وجايكوب (في صورته البشرية) عند زاوية غرفة الطعام من ناحية الباب. . . جلسنا إلى طاولة الطعام اللامعة الكبيرة. تركني جايكوب أحمل رينيمي حتى يتمكن من التحول بسرعة إذا تطلب الأمر.

كنت سعيدة بوجودها بين ذراعي. هذا ما جعلني أشعر بفائدتي. ذكرني

هذا بأنني لست إلا هدفاً سهلاً إذا حدث قتال مع مصاصي الدماء البالغين. . . لست في حاجة إلى يدين غير مشغولتين!

حاولت أن أتذكر تانيا وكيت وكارمن وإليازر. . . يوم زفافنا. كانت وجوههم غائمة مشوشة في ذاكرتي المعتمة. ما كنت أعرف إلا أنهن جميلات. . . . لم أستطع أن أتذكر إن كان في عيونهم رقة!

اتكأ إدوارد إلى النافذة الخلفية وراح يحدق في الباب الأمامي. . . دون حركة. ما كان يبدو عليه أنه يرى الغرفة أمامه. رحنا نستمع إلى أصوات السيارات تمر بعيداً على الطريق السريع. لم يتباطأ أي منها!

حشرت رينيمي نفسها عند رقبتي واضعة يدها على خدي. . . من غير صور. ما كان لديها صور تصف مشاعرها في هذه اللحظة.

همست: «ماذا يحدث إذا لم أعجبهم؟». . . اتجهت عيوننا صوب وجهها.

بدأ جايكوب يقول: «طبعاً سوف. . .» لكنني أسكته بنظرة مني.

قلت لها: «إنهم لا يفهمونك يا رينيمي. . . لأنهم لم يروا أحداً مثلك من قبل». . . ما كنت أريد أن أكذب عليها بوعود قد لا تتحقق. . . «المشكلة هي أن نجعلهم قادرين على فهمك».

تنهدت رينيمي وجعلت صورنا كلنا تمر في رأسي بسرعة البرق. . . مصاصو دماء وبشر وذئاب. رأت أنها لا تنتمي إلى أي فئة من هذه الفئات.

«أنت فريدة يا رينيمي. . . وهذا ليس بالأمر السيئ».

هزت رأسها غير موافقة. راحت تفكر في وجوهنا المتوترة ثم قالت: «إنه ذنبي!».

«لا!». . . قالها جايكوب وإدوارد. . . وأنا. . . في وقت واحد. لكن، قبل أن نستطيع قول أي شيء سمعنا الصوت المرتقب. . . صوت محرك سيارة يتباطأ على الطريق السريع. . . صوت عجلات تنتقل من الطريق المعبد إلى الطريق الترابي.

اندفع جايكوب ليقف عند الباب. اختبأت رينيسمي في شعري. تبادلنا النظرات أنا وجايكوب. . . كانت الترقب في وجهينا.

مضت السيارة سريعة بين الأشجار. . . أسرع من قيادة تشارلي أو سو. سمعناها تدخل المرج ثم تتوقف عند باب البيت. انفتحت أربعة أبواب ثم أغلقت. لم يتكلم أحد منهم أثناء اقترابهم من الباب. فتح إدوارد الباب قبل أن يقرعوه.

حياه صوت نسائي متحمس: «إدوارد!»

«أهلاً تانيا. . . كيت. . . إليازر. . . كارمن».

رد تحيته ثلاثة منهم.

قال الصوت الأول. . . إنها تانيا: «قال كارلايل إنكم تريدون التحدث معنا سريعاً». . . أدركت أنهم مازالوا واقفين خارج الباب. تخيلت إدوارد واقفاً أمامهم يسد المدخل. . . «ما المشكلة؟ هل من متاعب مع المستذئبين؟»

فتح جايكوب عينيه واسعتين.

قال إدوارد: «لا! إن معاهدتنا معهم أقوى من أي وقت مضى».

سمعت صوت امرأة تضحك.

سألت تانيا: «ألن تدعونا إلى دخول المنزل؟». . . ثم تابعت دون انتظار إجابته. . . «أين كارلايل؟»

«لقد اضطر إلى الذهاب».

ساد صمت قصير.

سألته تانيا: «ماذا يجري يا إدوارد؟»

أجابها: «أريدكم أن تستمعوا إلي بضع دقائق. ثمة شيء يصعب شرحه. أرجو أن تكونوا منفتحي العقول ريثما تفهمون!»

سأله صوت ذكوري قلق: «هل كارلايل بخير؟». . . كان هذا إليازر.

قال إدوارد: «لا أحد منا بخير يا إليازر». . . ثم ربت على شيء. . . لابد أنه كتف إليازر. . . «أما من الناحية الجسدية. . . فإن كارلايل بخير».

سألته تانيا بصوت حاد: «من الناحية الجسدية! ماذا تقصد؟»

«أقصد أن أسرتنا كلها واقعة في خطر عظيم. لكني أريد منكم وعداً قبل أن أشرح لكم. استمعوا جيداً إلى كل ما أقوله لكم قبل إبداء أي ردة فعل. أرجوكم. . . اسمعوني حتى أفرغ من كلامي».

قوبل طلبه بصمت طويل. وخلال هذا الصمت المتوتر رحنا نتبادل النظرات. . . أنا وجايكوب. . . شحبت شفتاه القاتمتان.

قالت تانيا أخيراً: «كلنا آذان صاغية! سوف نستمع إلى الأمر كله قبل أن نقرر شيئاً».

قال إدوارد مندفعاً: «أشكرك يا تانيا! ما كنا لنورطكم في هذا الأمر لو كان لدينا خيار آخر».

تحرك إدوارد. سمعنا صوت أقدامهم تجتاز باب المنزل.

راح أحدهم يتشمم الهواء. . . ثم تمتمت تانيا: «كنت أعلم أن للمستذئبين علاقة بما يجري».

«نعم! وهم في صفنا. . . من جديد».

أسكتها بهذا التذكير.

قال أحد الأصوات النسائية: «أين بيلا؟ كيف حالها؟»

«سوف تنضم إلينا عما قريب. هي بخير. . . شكراً! لقد تأقلمت مع الخلود بسرعة مذهلة».

قالت تانيا بصوت هادئ: «أخبرنا عن الخطر يا إدوارد. سوف نصغي. وسوف نكون في صفك. . . حيث يجب أن نكون».

استنشق إدوارد نفساً عميقاً: «أريد منكم أن تشهدوا أولاً. استمعوا جيداً. . . في الغرفة الأخرى! ماذا تسمعون؟»

ساد الهدوء. . . ثم سمعت صوت حركة.

قال إدوارد: «استمعوا أولاً. . . أرجوكم!»

قالت تانيا: «أعتقد أنه أحد المستذئبين. أستطيع سماع قلبه».

سألها إدوارد: «ماذا أيضاً؟»

ساد صمت قصير.

سألته كيت وكارمن: «ما هذا الصوت الخافق؟ هل هو... نوع من الطيور؟»

«لا! لكن، تذكروا أنكم سمعتم هذا الصوت. الآن... ماذا تشمون؟ عدا رائحة الذئب».

همس إليازر: «هل لديكم بشري هنا؟»

قالت تانيا معترضة: «لا!... ليس بشرياً... لكن... أقرب إلى رائحة البشر من جميع الروائح الأخرى الموجودة هنا. ما هو يا إدوارد؟ لا أظن أنني شممت هذه الرائحة من قبل».

«صحيح! لم تشمي هذه الرائحة من قبل يا تانيا. أرجوكم... أرجوكم... تذكروا أن هذا شيء جديد تماماً بالنسبة لكم. تخلوا عن أي أفكار مسبقة».

«وعدناك بأن نستمع يا إدوارد».

«حسن إذن... يلا! أحضري رينيمي من فضلك».

أحسست بالخدر يسري في ساقيّ، لكني أدركت أن هذا الشعور موجود في رأسي فقط. أرغمت نفسي على عدم التراجع... وعلى عدم التحرك بشكل أخرق. نهضت واقفة على قدمي وخطوت خطوات قليلة حتى الزاوية. غمرتني حرارة جسد جايكوب عندما سار في أعقابي.

خطوت خطوة واحدة في الغرفة الكبيرة ثم تجمدت في مكاني غير قادرة على إرغام نفسي على التقدم أكثر من ذلك. استنشقت رينيمي نفساً عميقاً ثم استرقت النظر من تحت شعري. كان كتفاها الصغيران متصلبين متوترين... كانت تتوقع أن أرغمها على العودة حيث كانت.

ظننت أنني مستعدة لتلقي ردة فعلهم. مستعدة لتلقي الاتهامات والصياح... مستعدة لذلك الصمت شديد التوتر.

تراجعت تانيا مسرعة عدة خطوات... راحت لفائف شعرها الأحمر ترتجف... مثل إنسان واجهته أفعى سامة أما كيت فقفزت كل المسافة حتى الباب واستندت إلى الجدار. انطلق فحيح من بين أسنانها المطبقة. ألقى إليازر بنفسه أمام كارمن متخذاً وضعية دفاعية... كان يحميها.

سمعت صوت جايكوب متذمراً هامساً: «أوه! من فضلكم».

وضع إدوارد ذراعه حولي وحول رينيمي. وقال يذكرهم: «وعدتم بأن تصغوا».

قالت تانيا: «ثمة أشياء لا يمكن سماعها. كيف فعلت هذا يا إدوارد؟ ألا تعرف معناه؟»

قالت كيت قلقة وهي تضع يدها على مقبض الباب: «علينا أن نخرج من هنا».

«إدوارد...» خانت الكلمات إليازر.

قال لهم إدوارد وقد صار صوته قاسياً: «انتظروا! تذكروا الصوت الذي سمعتموه... تذكروا الرائحة! رينيمي غير ما تظنون».

ردت تانيا بحدة: «لا استثناء من هذه القاعدة يا إدوارد».

أجابها بحدة: «تانيا! تستطيعين سماع صوت قلبها! كفي عن هذا وفكري في معنى ما تسمعين الآن».

همست كارمن وهي تسترق النظر من خلف كتف إليازر: «دقات قلبها».

قال إدوارد محولاً انتباهه إلى وجه كارمن الذي بدا أقل عدائية: «هي ليست مصاصة دماء تماماً... إنها نصف بشرية».

راح مصاصو الدماء الأربعة ينظرون إلى إدوارد كما لو كان يتحدث لغة لا يعرفونها.

تحول صوت إدوارد إلى نبرة إقناع ناعمة: «استمعوا إليّ... رينيمي فريدة جنسها. أنا والدها... لم أصنعها... أنا والدها الحقيقي».

رأيت رأس تانيا يهتز... حركة لا تكاد ترى. لا أظنها انتبهت إلى حركتها.

بدأ إلبازر يقول: «إدوارد! لا يمكنك أن تتوقع منا...»

«أعطني تفسيراً آخر يا إلبازر. أنت قادر على الإحساس بحرارة جسدها... بالدم الذي يجري في عروقها. تستطيع أن تشم رائحته يا إلبازر!»

همست كيت: «كيف؟»

قال لها إدوارد: «بيلا أمها الحقيقية. لقد حبلت بها وحملتها ثم ولدتها وهي ما تزال بشرية. كاد ذلك يقتلها فكان عليّ أن أحقن السم في قلبها حتى أنقذ حياتها».

قال إلبازر: «لم أسمع بشيء مثل هذا من قبل!»... مازال كتفاه متيبسين... مازالت قسمات وجهه باردة.

أجابه إدوارد وفي صوته دعابة سوداء: «إن العلاقة الجسدية بين مصاصي الدماء والبشر ليست أمراً شائعاً. ومن النادر جداً أن تجد بشرياً نجا من هذا الاجتماع. هل هذا صحيح يا ابن عمي؟»

نظرت إليه كيت وتانيا مستغربتين.

«هيا يا إلبازر! لابد أنك قادر على رؤية مدى التشابه بيننا».

استجابت كارمن لكلمات إدوارد. دارت حول إلبازر متجاهلة تعبير وجهه المنذر بالخطر. ثم مشت بحذر فوقفت أمامي تماماً. انحنت قليلاً وهي تنظر في وجه رينيمي بإمعان.

قالت بصوت منخفض هادئ: «يبدو أن لك عينا والدتك. لكن لك وجه أبيك!»... ثم ابتسمت لرينيمي... كأنها لم تستطع منع نفسها من الابتسام.

أجابتها رينيمي بابتسامة مدوخة. لمست وجهي بيدها دون أن ترفع عينيها عن كارمن. كانت تتخيل لمس وجه كارمن وتسألني إن كنت أسمح لها بلمس وجهها.

سألت كارمن: «هل تمانعين في أن تخبرك رينيمي عن نفسها... بنفسها؟»... مازال توتري لا يسمح لي إلا بالتكلم همساً... «إن لديها قدرة فريدة على شرح الأمور».

مازالت كارمن تبتسم لرينيمي: «هل تستطيعين الكلام أيتها الصغيرة؟»

أجابتها رينيمي بصوتها الحاد المرتفع: «نعم!»... أجفل جميع أفراد أسرة تانيا لسماع صوتها... إلا كارمن... «لكنني أستطيع أن أجعلك ترين... أكثر من الكلام».

وضعت يدها الصغيرة الممتلئة على وجنة كارمن.

تجمدت كارمن كما لو أن صدمة كهربائية سرت فيها. صار إلبازر بجانبها في لحظة واحدة ووضع يديه على كتفيها كما لو أنه يريد إبعادها عن رينيمي.

قالت كارمن مبهورة الأنفاس: «انتظر!»... التحمت عيناها بعيني رينيمي.

راحت رينيمي «تري» كارمن زمناً طويلاً. كان وجه إدوارد متوتراً وهو يصغي إلى ما تقوله لها. تمنيت أن أستطيع الإصغاء أيضاً. نقل جايكوب وزن جسمه من قدم لأخرى نافد الصبر... فهمت أنه يتمنى ما أتمناه.

تمتم بصوت منخفض: «ماذا تقول لها؟»

أجابه إدوارد همساً: «كل شيء».

مرت دقيقة أخرى فأبعدت رينيمي يدها عن وجه كارمن ثم ابتسمت لمصاصة الدماء المذهولة ابتسامة المنتصر.

همست كارمن محولة عينيها البنيتين صوب إدوارد: «إنها ابنتك حقاً... أليس كذلك؟ يا للقدرة الرائعة! لا يمكن أن تأتي قدرة مثلها إلا من أب لديه قدرات متميزة».

سألها إدوارد متوتراً: «هل تصدقين ما رأيت؟»

قالت كارمن ببساطة: «من غير شك».

ظهرت الخيبة على وجه إلبازر: «كارمن!»

وضعت كارمن يديه بين يديها وراحت تضغط عليها: «أعرف أن هذا لا يصدق... لم يقل لك إدوارد إلا الحقيقة. دع الطفلة تريك بنفسها».

دفعت كارمن إلبازر ليقترب مني ثم أومأت إلى رينيمي: «دعيه يرى يا عزيزتي».

ابتسمت رينيمي... أسعدها قبول كارمن... ثم لمست جبين إليازر.

«ما هذا!»... ابتعد عنها بعنف.

سألته تانيا قلقة وقد اقتربت منه: «ماذا فعلت لك؟»... اقتربت كيت قليلاً بدورها.

قالت له كارمن بصوت لطيف: «إنها تحاول أن تجعلك ترى روايتها للقصة».

عبست رينيمي نافدة الصبر. وقالت له بصوت آمر: «انظر... أرجوك!»... مدت يدها إليه لكن أصابعها توقفت قبل مسافة صغيرة من وجهه... كانت تنتظر.

نظر إليها نظرة شك ثم أشار إلى كارمن طالباً مساعدتها. أومأت برأسها تشجعه. استنشق نفساً عميقاً ثم مال برأسه حتى مست جبهته أصابعها من جديد.

ارتعد في البداية لكنه أمسك نفسه هذه المرة. أغمض عينيه مركزاً...

تنهد إليازر عندما فتح عينيه بعد دقائق قليلة: «آه!... أرى ذلك الآن».

ابتسمت له رينيمي. تردد قليلاً ثم أجاب ابتسامتها بابتسامة قلقة صغيرة.

سألته تانيا: «ماذا يا إليازر؟»

«القصة صحيحة كلها يا تانيا. هذه ليست طفلة خالدة. إنها نصف بشرية. تعالي لتري بنفسك».

وقفت تانيا أمامي صامتة قلقة... وبعدها جاءت كيت. ظهرت الصدمة على كل منهما عند رؤية الصورة الأولى، وبعد ذلك... كما حدث مع كارمن وإليازر... بدا أن رينيمي تمكنت من أسر قلبيهما فور انتهائها من عرض قصتها.

ألقيت نظرة على وجه إدوارد. هل يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة حقاً؟ كانت عيناه الذهبيتان صافيتين تماماً من غير ظل من قلق أو خوف. لا لبس في الأمر إذن.

قال بصوت هادئ: «شكراً لأنكم أصغيتم».

قالت تانيا: «لكن، ماذا عن الخطر الجسيم الذي حذرتنا منه؟ إنه لا يأتي من هذه الطفلة كما أرى... بل من الفولتوري! كيف عرفوا بأمرها؟ ومتى يأتون؟»

لم تفاجئني سرعة إدراكها. فما الذي يمكن أن يكون خطراً على أسرة بقوة أسرتي... غير الفولتوري؟

قال إدوارد موضحاً: «عندما رأت بيلا إيرينا في الجبال ذلك اليوم... كانت رينيمي معها».

صفرت كيت... ضاقت عيناها حتى صارتا شقين ضيقين: «هل فعلت إيرينا هذا؟ هل فعلت هذا لكم؟ هل فعلت هذا لكارلايل؟... إيرينا!»

همست تانيا: «لا! شخص آخر...»

قال إدوارد: «لقد رأتها أليس ذاهبة إليهم»... هل انتبه الآخرون إلى تلك التكشيرة الخفيفة في وجهه عندما نطق اسم أليس؟

سأله إليازر فوراً: «كيف استطاعت أن تفعل هذا؟»

«تخيل أنك رأيت رينيمي من مسافة بعيدة. ثم تخيل أنك لم تنتظر سماع توضيحنا».

ضاقت عينا تانيا: «لا أهمية لما فكرت فيه... أنتم أسرتنا».

«لا نستطيع فعل شيء حيال قرار إيرينا في هذه اللحظة. لقد فات الوقت. أعطتنا أليس شهراً».

مال رأسا تانيا وإليازر، وانعقد حاجبا كيت.

سأل إليازر مستغرباً: «أكل هذه المدة؟»

«إنهم قادمون جميعاً. لابد لهم من بعض الاستعداد».

قال إليازر لاهثاً: «الحرس كله؟»

قال إدوارد: «ليس الحرس فحسب... آرو وكايوس وماركوس... والزوجات أيضاً».

ظهرت الصدمة في عيونهم جميعاً.

قال إلياز بصوت لا نبرة فيه: «مستحيل!»

قال إدوارد: «قلت الكلمة نفسها منذ يومين».

عبس إلياز ثم تحدث بصوت مزمجر: «لكن، لا معنى لهذا. لماذا يعرضون أنفسهم وزوجاتهم للخطر؟»

«لا معنى له من تلك الزاوية. قالت أليس إن الأمر يتجاوز مسألة معاقبتنا على ما يظنون أننا فعلناه. وهي تظن أنك قادر على مساعدتنا».

«يتجاوز مسألة المعاقبة! ماذا يمكن أن يكون؟»... بدأ إلياز يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وصل حتى الباب ثم عاد كأنه وحيد في الغرفة... كان محدقاً في الأرض معقود الحاجبين.

سألت تانيا: «أين الآخرون يا إدوارد؟ أين كارلايل وأليس والبقية؟»

كان تردد إدوارد غير ملحوظ تقريباً. لم يجب إلا على جزء من سؤالها: «إنهم يبحثون عن أصدقاء قادرين على مساعدتنا».

مالت تانيا صوبه مادة يديها: «إدوارد! مهما يكن عدد الأصدقاء الذين يتمكنون من جمعهم فلن نكون قادرين على مساعدتكم من أجل الفوز في هذه المعركة. نستطيع أن نموت معكم... فقط! يجب أن تعرف هذا. ربما كنا، نحن الأربعة، نستحق هذا المصير بعدما فعلته إيرينا بكم... بعد خذلاننا لكم في الماضي... من أجلها أيضاً!»

هز إدوارد رأسه بسرعة: «لسنا نطلب منكم القتال والموت معنا يا تانيا. تعرفين أن كارلايل لا يمكن أن يطلب هذا إطلاقاً».

«ماذا إذن يا إدوارد؟»

«نحن نريد شهوداً فحسب! إذا استطعنا جعلهم يتوقفون قليلاً... لحظة واحدة. إذا سمحوا لنا بأن نشرح لهم...» لمس خد رينيمي فأمسكت بيده وضغطتها على جلدها... «يصعب التشكيك في روايتنا بعد أن رأيتموها بأنفسكم».

أومأت تانيا ببطء: «هل تعتقد أنهم سيهتمون بماضيها إلى هذا الحد؟»

«سيهتمون بقدر ما يحدد هذا الماضي مستقبلها. غاية الحظر هي حمايتنا من الانكشاف... حمايتنا من الإفراط في صنع الأطفال الذين لا يمكن ضبط سلوكهم».

تدخلت رينيمي في الحديث: «أنا لست خطيرة على الإطلاق»... استمعت إلى صوتها الواضح الصافي بأذنين جديدتين! رحت أتخيل كيف يمكن أن يبدو هذا الصوت في آذان الآخرين... «لم أصب جدي بأذى... ولا سو... ولا بيلي... أنا أحب البشر! وأحب الناس/الذئاب مثل جايكوب»... تركت يد إدوارد ثم استدارت وربتت على ذراع جايكوب.

تبادلت تانيا وكيت نظرة سريعة.

قال إدوارد: «لو لم تأت إيرينا بهذه السرعة لاستطعنا تجنب هذا الأمر كله. إن رينيمي تكبر بسرعة عجيبة. بعد شهر من الآن ستكون قد كبرت بمقدار نصف سنة».

قالت كارمن بنبرة تصميم: «حسن! هذا شيء نستطيع الشهادة عليه من غير شك. سوف نقسم على أننا رأيناها تكبر أمام أعيننا. كيف يمكن أن ينكر الفولتوري هذا الإثبات؟»

غمغم إلياز: «حقاً... كيف؟»... لكنه لم يرفع رأسه. واصل سيره في الغرفة كأنه غير منتبه لكل ما يقال.

قالت تانيا: «نعم! نستطيع أن نشهد من أجلكم. نستطيع أن نشهد بالتأكيد. وسوف نفكر فيما قد نتمكن من فعله غير الشهادة».

قال إدوارد محتجاً عندما لمس في أفكارها شيئاً أكثر مما قالته كلماتها: «تانيا! لا ننتظر منكم القتال إلى جانبنا».

قالت تانيا مصرة: «إذا رفض الفولتوري التوقف للاستماع إلى الشهود فلن نتمكن من الوقوف متفرجين. أنا أتكلم باسمي وحدي بالتأكيد».

قالت كيت: «هل تشكين فيّ إلى هذا الحد يا أختي؟»

أجابتها تانيا بابتسامة عريضة: «إنها مهمة انتحارية رغم كل شيء».

ابتسمت كيت ابتسامة سريعة ثم رفعت كتفيها بحركة لا مبالية: «أنا معك!»

قالت كارمن: «وأنا أيضاً... سوف أفعل كل ما أستطيع فعله لحماية الطفلة»... ثم... كأنها ما عادت قادرة على ضبط نفسها... مدت يديها صوب رينيمي: «هل تقبلين أن أحملك يا طفلتي الجميلة؟»

رمت رينيمي بنفسها بين ذراعيها... كانت مسرورة بصديقتها الجديدة. حضنتها كارمن إلى صدرها متمتمة لها بلغتها الإسبانية.

هذا ما حدث مع تشارلي... وما حدث مع جميع أفراد أسرة كولن من قبله. ما كان أحد يستطيع مقاومة سحر رينيمي. ما الذي يجذب الجميع إليها؟ ما الذي يجعلهم مستعدين حتى للتضحية بأرواحهم دفاعاً عنها؟

فكرت لحظة أن ما نحاوله قد يكون ممكناً حقاً. لعل رينيمي تستطيع أن تفعل المستحيل فتكسب قلوب الأعداء كما كسبت قلوب الأصدقاء.

لكني تذكرت أن أليس تركتنا... تبخرت آمالي بأسرع مما جاءت.

31

قدرة فريدة

عند ذلك، سألت تانيا وهي تنظر إلى جايكوب نظرة فاحصة: «ما دور المستذئبين في هذا؟»

تكلم جايكوب قبل أن يفلح إدوارد في الإجابة: «إذا لم يتوقف الفولتوري ليستمعوا إلى قصة نيسي... أقصد رينيمي...» صحح قوله متذكراً أن تانيا يمكن ألا تفهم هذا الاسم الغريب... «فسوف نوقفهم عند حدهم».

«شجاع جداً أيها الطفل، لكن هذا مستحيل حتى على مقاتلين مجربين أكثر منكم».

«أنت لا تعرفين ما نستطيع القيام به».

رفعت تانيا كتفيها: «إنها حياتكم بالتأكيد... ولكم أن تتصرفوا فيها كما تريدون».

انتقلت عينا جايكوب إلى رينيمي مازالت بين ذراعي كارمن ومازالت كيت تحوم حولهما... كان التوق في عينيه جلياً.

قالت تانيا: «إنها مميزة... تلك الصغيرة! ما أصعب مقاومة جاذبيتها!»

تمتم إليازر أثناء مروره بها: «أسرة فيها مواهب خارقة كثيرة». كان إيقاع حركته في تزايد. كان يسير سريعاً من الباب حتى كارمن ثم يعود كل ثانيتين... «أبوها قارئ أفكار... وأمها درع... ثم ذلك السحر العجيب

الذي ألقته هذه الطفلة الاستثنائية علينا! لا أدري إن كان ثمة اسم لما تقوم به... أو لعله شيء عادي ملازم لهجائن مصاصي الدماء!... كأن من الممكن اعتبار شيء من هذا النوع عادياً!»

قال إدوارد بصوت ملؤه الدهشة: «عفواً! ماذا دعوت زوجتي؟»... مد يده فأمسك بكتف إليازر عندما كان يهم بالاستدارة صوب الباب من جديد.

نظر إليازر إلى إدوارد نظرة فضول... نسي سيره المحموم لحظة: «دعوتها درعاً! إنها تصدّني الآن، لذلك... لست متأكداً».

نظرت إلى إليازر وقد تقطب حاجباي حيرة... درع! ماذا يقصد بأنني أصده؟ كنت واقفة بجانبه غير متخذة أي وضعية دفاعية.

ردد إدوارد من خلفه مستغرباً: «درع!»

قال له إليازر: «هيا يا إدوارد! إذا كنت لا أستطيع قراءتها... أشك في قدرتك على ذلك أيضاً. هل تستطيع سماع أفكارها الآن؟»

تمتم إدوارد: «لا! لكني لم أكن قادراً على سماع أفكارها من قبل... حتى عندما كانت بشرية».

قال إليازر مستغرباً: «لم تستطع سماعها أبداً! هذا مثير للاهتمام! هذا يشير إلى قدرة استثنائية جبارة كامنة... إذا كانت واضحة كل هذا الوضوح حتى قبل التحول. لا أستطيع النفاذ عبر درعها لأعرف ما هو. لكنها ما تزال غضة العود رغم ذلك... لم يتجاوز عمرها بضعة أشهر»... نظر إلى إدوارد نظرة شبه غاضبة... «ومن الواضح أنها لا تكاد تعرف شيئاً عما تستطيع فعله. غير مدركة إطلاقاً! يا للمفارقة! لقد أرسلني آرو إلى جميع أنحاء العالم باحثاً عن هذه الغرائب... أما أنت فعثرت عليها مصادفة... ولست تدرك ما صار بين يديك». راح إليازر يهز رأسه غير مصدق.

قطبت وجهي قائلة: «ما الذي تتحدثون عنه؟ كيف يمكن أن أكون درعاً؟ ثم... ما معنى ذلك؟»... ما كنت قادرة على تصور غير ذلك الدرع السخيف الذي كان يضعه الفرسان في القرون الوسطى!

مال رأس إليازر جانباً بينما راح يتفحصني: «أظن أننا كن نبالغ في الشكليات عندما كنت في الحرس. والواقع أن تصنيف القدرات الفريدة ضمن فئات مسألة ذاتية... مسألة مصادفة! كل موهبة فريدة في ذاتها... لا يتكرر الشيء نفسه مرتين. أما أنت يا بيلا فمن السهل تصنيفك. ثمة قدرات دفاعية محض... إنها تحمي شيئاً لدى صاحبها... وهي تدعى دروعاً. هل اختبرت قدراتك من قبل؟ هل استطعت صد أحد غيرنا... أنا وزوجك؟»

استغرق الأمر عدة ثوان حتى أستطيع أن أرتب أفكاري وأجيبه... رغم سرعة عمل عقلي الجديد.

قلت له: «إنه فعال تجاه أشياء بعينها. رأسي... خاص نوعاً ما. لكني لا أستطيع منع جاسبر من العبث بمزاجي... ولا منع أليس من رؤية مستقبلي».

قال إليازر لنفسه: «دفاع ذهني محض... إنه محدود لكنه قوي!»

تدخل إدوارد: «لم يستطع آرو سماعها مع أنها كانت بشرية عندما التقيا».

اتسعت عينا إليازر دهشة.

قلت: «حاولت جين إيذاء إدوارد لكنها لم تستطع. يظن إدوارد أن ديمتري لا يستطيع العثور عليّ وأن أليك لا يستطيع إزعاجي أيضاً... فهل هذا جيد؟»

مازال إليازر فاتحاً فمه لشدة دهشته... أومأ برأسه وقال: «جداً!»

قال إدوارد: «درع!»... كانت نبرته مشبعة برضى عميق... «لم يسبق لي التفكير فيه بهذه الصورة. الشخص الوحيد الذي قابلته في حياتي هو ريناتا... وكان ما تفعله شيئاً مختلفاً تماماً».

زال بعض الدهشة عن إليازر: «نعم! ما من موهبة استثنائية تكرر الأخرى تماماً لأنه ما من أحد يفكر مثل غيره تماماً».

سألتهما: «من هي ريناتا؟ وماذا تفعل؟»... كانت رينيمي مهتمة بالحديث أيضاً... كانت تمد جسمها محاولة أن ترى من خلف كيت.

قال لي إليازر: «ريناتا هي المكلفة بحراسة آرو شخصياً. إنها درع عملي جداً... وقوي جداً».

تذكرت على نحو ضبابي جمهرة صغيرة من مصاصي الدماء المتجمعين حول آرو في برجه المخيف... بعضهم ذكور وبعضهم إناث. ما كنت قادرة على استعادة وجوه النساء في تلك الذكرى المخيفة المرعبة. لابد أن ريناتا واحدة منهن.

قال إليازر متسائلاً: «يا ترى... أنت تعرف أن ريناتا درع قوي ضد أي هجوم مادي. إذا اقترب أحد منها... أو من آرو... فهي تقف ملاصقة له في حالات الخطر... وهكذا يجد المهاجم نفسه... وقد انحرف! ثمة قوة حولها تصده رغم أنها غير ملحوظة تقريباً. تجد نفسك ذاهباً في غير الاتجاه الذي كنت تعتزم الذهاب فيه... ولا تتذكر ما الذي جعلك تذهب في ذلك الاتجاه أصلاً. إنها قادرة على نشر هذا الدرع عدة أمتار حولها. وهي تحمي كايوس وماركوس أيضاً... عند الحاجة. لكنها تحمي آرو أولاً».

«ورغم أن ما تفعله أمر مادي... فهو، مثل أكثر قدراتنا، أمر يحدث في الدماغ. من يمكن أن يفوز يا ترى إذا حاولت منعك من الاقتراب؟»... هز رأسه ثم قال: «لم أسمع أبداً أن أحداً استطاع التغلب على قدرات آرو وجين».

قالت رينيسمي من غير أن يبدو عليها أي قدر من الدهشة: «ماما... أنت فريدة!»... قالتها ببساطة كأنها تتحدث عن ألوان ثيابي.

شعرت بشيء من التشوش. ألست أعرف قدرتي من قبل؟ لدي تحكم فائق بنفسي سمح لي بتجاوز السنة الأولى المخيفة كلها. عادة ما يكون لدى مصاصي الدماء قدرة فريدة واحدة... أليس كذلك؟

هل كان إدوارد على حق منذ البداية؟ قبل أن يشير كارلايل إلى أن قدرتي على ضبط نفسي يمكن أن تكون شيئاً خارقاً كان إدوارد يظن أن هذا الضبط ليس إلا نتيجة الاستعداد الجيد... التركيز والوضوح... هكذا قال!

من منهما كان مصيباً؟ وهل أستطيع أن أفعل أكثر؟ وهل من اسم لما أستطيع فعله؟

سألتني كيت باهتمام: «هل تستطيعين مده؟»

سألتها: «ماذا تقصدين؟»

«هل تستطيعين مد هذا الدرع خارج جسمك... لحماية شخص آخر مثلاً؟»

«لا أعرف! لم أحاول هذا من قبل. ما كنت أعرف أن علي المحاولة».

قالت كيت مسرعة: «أوه! ربما لا تستطيعين! أنا أحاول منذ قرون... لكن كل ما استطعت فعله هو أن أجعل تياراً كهربائياً يسري على جلدي».

نظرت إليها بحيرة.

قال إدوارد: «إن لدى كيت قدرة هجومية... شيء يشبه قدرة جين».

ابتعدت عنها بحركة تلقائية فضحكت.

قالت تطمئنني: «أنا لست سادية. إنه شيء يأتي فيصير في متناولي ساعة القتال».

كانت كلمات كيت تغوص في عقلي... بدأت كلماتها توضح بعض الأمور. لقد سألتني إن كنت أستطيع مد درعي ليحمي غيري أيضاً... كما لو أن لدي طريقة تجعلني أحمي شخصاً آخر برأسي الغريب... الصامت.

تذكرت إدوارد يرتد عن الصخور العتيقة في برج قلعة الفولتوري. كانت تلك ذكرى بشرية، لكنها أكثر حدة من بقية الذكريات... أكثر ألماً من أكثرها... كأنها محفورة في أنسجة دماغي.

ماذا لو كنت قادرة على منع ذلك من الحدوث مرة أخرى؟ ماذا لو كنت قادرة على حمايته؟ على حماية رينيسمي؟ ماذا لو كان عندي أمل في إمكانية تمكنني من حمايتهم جميعاً؟

قلت بإصرار... من غير تفكير... وأمسكت بذراع كيت: «عليك تعليمي. يجب أن تجعليني أرى كيف أفعل ذلك».

كشرت كيت عندما أمسكت ذراعها: «قد أعلمك إذا توقفت عن محاولة كسر ذراعي».

«أوه! آسفة».

قالت كيت: «أنت تصدين تأثيري منذ الآن. كان يجب أن يؤدي إمساكك بذراعي على ذلك النحو إلى قذف يدك بعيداً عني. لكنك لم تشعري بشيء!».

قال إدوارد هامساً: «ما كان هذا ضرورياً يا كيت. ما كانت تقصد أن تزعجك»...

«لا! لم أشعر بشيء. هل كنت تقومين بذلك... التيار الكهربائي؟».

«نعم! همم...! لم أصادف من قبل شخصاً لا يشعر بهذا التيار... لا من الخالدين ولا من غيرهم».

«قلت لي إنك تستطيعين مده... على جلدك!».

أومأت برأسها: «عادة ما تكون هذه القدرة محصورة في كفيّ فقط... مثلما عند آرو».

تدخل إدوارد: «أو مثلما عند رينيمي!».

«لكنني... بعد تدريب كثير... صرت قادرة على جعل التيار يسري على جسمي كله. إنه دفاع جيد! كل من يلمسني يسقط مثل إنسان صعقته عصا كهربائية. لا يدوم التأثير أكثر من لحظة... لكنها كافية».

كنت أستمع إلى كيت نصف مصغية... كانت أفكاري تتخيل أنني قد أكون قادرة على حماية أسرتي كلها إذا استطعت التعلم بالسرعة الكافية. تمنيت كثيراً أن أتمكن من مد هذه القدرة... مثلما تمكنت بشكل غريب من إجادة جميع جوانب حياتي الجديدة. لم تكن حياتي السابقة قد أعدتني للأشياء التي تأتي بشكل طبيعي. وما كنت قادرة على الثقة في سرعة تعلمي إطلاقاً.

أحسست أنني لم أرغب في شيء... في حياتي كلها... قدرما أرغب في هذا الآن: أن أتمكن من حماية أحبتي.

كنت غارقة في أفكاري فلم ألاحظ الحديث الصامت الذي جرى بين إدوارد وإليازر حتى صار حديثاً منطوقاً.

سأله إدوارد: «لكن، هل تستطيع التفكير ولو في استثناء واحد؟».

نظرت لأفهم معنى هذه الجملة فأدركت أن الجميع كانوا ينظرون إلى الرجلين مثلي. كانا متقاربين... وكانت تعابير وجه إدوارد طافحة بالشك... كان الانزعاج والتردد ظاهرين على وجه إليازر.

قال إليازر: «لا أريد التفكير فيهم بتلك الطريقة»... أدهشني ذلك التغير المفاجئ في مزاجه.

بدأ إليازر يقول من جديد: «إذا كنت محقاً...».

قاطعه إدوارد: «كانت الفكرة فكرتك... لا فكرتي!».

«إذا كنت محقاً... لا أستطيع إدراك ماذا يعنيه ذلك. سوف يغير هذا كل شيء في العالم الذي خلقناه. سوف يغير معنى حياتي ومعنى ما كنت جزءاً منه حتى الآن».

«كانت نواياك طيبة دائماً يا إليازر».

«وهل من أهمية لهذا؟ ماذا فعلت؟ كم من الأرواح...؟».

وضعت تانيا يدها على كتف إليازر محاولة تهدئته: «ما الذي فاتنا يا صديقي؟ أريد أن أعرف حتى أستطيع مناقشة هذه الأفكار التي تزعجك. لم تفعل أبداً شيئاً يستحق أن تلوم نفسك عليه بهذا الشكل».

تمتم إليازر: «أوه! أولم أفعل؟»... ثم أبعد كتفه عن يدها وراح يسير في الغرفة من جديد... أسرع من ذي قبل.

راحت تانيا تنظر إليه لحظات قليلة ثم نظرت إلى إدوارد قائلة: «اشرح لي».

أومأ إدوارد برأسه... كانت عيناه المتوترتان تتابعان إليازر: «كان يحاول أن يفهم سبب قدوم هذا العدد كله من الفولتوري من أجل معاقبتنا. ما هكذا يتصرفون عادة. صحيح أننا أكبر مجموعة يتعاملون معها، لكن الماضي شهد

تكتل مجموعات أخرى لحماية نفسها، ولم يمثلوا أي تحد حقيقي للفولتوري رغم كثرة عددهم. صحيح أننا على صلات وثيقة فيما بيننا . . . لكنه ليس بالأمر المهم كثيراً. كان إليازر يتذكر حالات معاقبة بعض المجموعات . . . لسبب أو لآخر . . . فرأى نهجاً واحداً فيها كلها. إنه نهج لا يستطيع بقية أفراد الحرس ملاحظته لأن إليازر هو من كان ينقل المعلومات إلى آرو شخصياً. إنه نهج يتكرر كل قرنين تقريباً».

سألته كارمن وهي تنظر إلى إليازر . . . مثله: «وما هذا النهج؟»

«عادة . . . لا يشارك آرو بنفسه في الحملات التأديبية. أما في الماضي . . . عندما كان يريد شيئاً . . . يرغب فيه بشكل خاص . . . فما كان الزمن يطول قبل أن تتوفر أدلة تقول إن هذه الجماعة أو تلك ارتكبت جريمة لا يمكن اغتفارها. وكان القدامى يقررون الذهاب مع الحرس لمراقبة تطبيق العدالة. بعد ذلك . . . بعد هزيمة الجماعة المعاقبة . . . يمنح آرو عفواً لفرد واحد منها قائلاً إن أفكاره نادمة على ما ارتكبته جماعته. ثم يتضح دائماً أن لدى هذا الشخص قدرة فريدة . . . موهبة . . . أعجب بها آرو! وكان هذا الشخص ينال دائماً حق الانتماء إلى الحرس. سرعان ما يجري اكتساب مصاص الدماء الحزين على جماعته لأن الانتماء إلى الحرس شرف كبير. لم ير إليازر أي استثناء من هذه القاعدة».

قالت كيت: «لابد أنه شيء فظيع أن يجري اختيار المرء».

قال إدوارد شارحاً ردة فعل إليازر الغاضبة: «ثمة شخص بين صفوف الحرس . . . واحدة اسمها تشلسي. إن لديها قدرة على التأثير في الروابط العاطفية بين الناس. تستطيع تقوية هذه الروابط أو إضعافها. وهي تستطيع أن تجعل أي شخص يشعر أنه مرتبط عاطفياً بالفولتوري . . . أنه يريد الانتماء إليهم . . . يريد إرضاءهم . . .»

توقف إليازر فجأة: «كنا ندرك جميعاً أهمية تشلسي. فأثناء القتال . . . نستطيع هزيمة من نقاتلهم بسهولة كبيرة إن نحن تمكنا من إحداث انشقاق بين

الجماعات المتحالفة. يمكننا تطبيق العدالة من غير وحشية زائدة لا مبرر لها إذا استطعنا إبعاد أفراد الجماعة الأبرياء عن المذنبين . . . . ثم نتمكن من معاقبة المذنبين من غير تدخل أحد . . . مع الإبقاء على الأبرياء. من غير ذلك يستحيل منع الجماعة من القتال متحدة ضدنا. وهكذا كانت تشلسي تضعف الروابط بينهم . . . وكان هذا يبدو لي بادرة لطف رائعة من جانب آرو . . . كنت أراه دليلاً على رحمته. كنت أشتبه في أن تشلسي تحافظ على متانة الروابط بيننا أيضاً، لكن ذلك كان شيئاً جيداً. كان يجعلنا أكثر فعالية. وكان يساعدنا على التعايش بسهولة أكبر».

جعل كلامه ذكرياتي القديمة أكثر وضوحاً. ما كنت أفهم من قبل كيف يطيع أفراد الحرس قادتهم بهذا القدر من السعادة . . . يطيعونهم بنوع من الحب أو العبادة.

سألت تانيا بصوت متوتر: «وما مدى قوة هذه القدرة عند تشلسي؟» . . . راحت عيناها تتنقلان بين أفراد أسرتها كلهم.

رفع إليازر كتفيه: «لقد تمكنت من مغادرتهم مع كارمن» . . . ثم هز رأسه: «لكن كل رابطة أدنى من رابطة الرجل بالمرأة تكون موضع خطر . . . في الجماعات العادية على الأقل! تكون العلاقات في الجماعات العادية أضعف من العلاقة بين أفراد أسرتنا أو أفراد أسرة كارلايل. إن امتناعنا عن دم البشر يجعلنا أكثر تحضراً . . . يسمح بوجود رابطة من الحب بيننا. أشك في أنها قادرة على تمزيق تحالفنا يا تانيا».

بدا الارتياح على تانيا . . . ومضى إليازر في تحليله: «أظن أن ما جعل آرو يقرر القدوم بنفسه وجلب هذا العدد الكبير معه هو أن هدفه الاستحواذ . . . لا العقاب. وهو في حاجة إلى الحضور بنفسه حتى يضبط الوضع. لكنه في حاجة إلى وجود الحرس كاملاً لحمايته من هذه الأسرة الكبيرة ذات القدرات الخاصة. أما من ناحية أخرى فإن هذا يترك القدامى من غير حماية في فولتيرا. هذا خطر كبير . . . فقد يحاول أحد الاستفادة من هذا

الوضع. هذا ما يجعلهم يأتون جميعاً. فكيف يمكن بغير ذلك أن يضمن المحافظة على القدرات التي يريد الاستحواذ عليها؟ لابد أنه شديد الحرص على اقتناصها!»

قال إدوارد بصوت شديد الانخفاض: «ما أعرفه من إصغائي إلى أفكار آرو في الربيع الماضي هو أنه لا يرغب في شيء قدر رغبته في الحصول على أليس».

انفتح فمي دهشة... تذكرت الصور الكابوسية التي كنت أتخيلها منذ زمن بعيد: إدوارد وأليس في عباءات سوداء... بعيون حمراء مثل الدم... ووجوه باردة... بعيدة... رغم وقوفهما قريبين مني... مثل ظلين... آرو يضع يديه على يديها... هل رأت أليس هذه الصورة في الآونة الأخيرة؟ هل رأت تشلسي تحاول محو حبها لنا... تحاول أن تربطها إلى آرو وكايوس وماركوس؟

سألت: «هل هذا سبب رحيل أليس؟»... تكسر صوتي عندما ذكرت اسمها.

وضع إدوارد يده على خدي: «هذا سبب رحيلها كما أظن. حتى تمنع آرو من الحصول على مراده. حتى تبقي قدراتها بعيداً عن متناوله».

سمعت تانيا وكيت تتمتمان بصوتين قلقين وتذكرت أنهما لم تعلما برحيل أليس.

همست: «إنه يريدك أنت أيضاً».

رفع إدوارد كتفيه غير مبال... راق وجهه فجأة: «ليس بقدر ما يريد أليس. إنه يملك ما أستطيع تقديمه له. كما أن الأمر يتعلق أيضاً بقدرته على العثور على طريقة لإجباري على تنفيذ إرادته. إنه يعرفني... ويعرف مدى بعد هذا الاحتمال».

تجهم وجه إليازر عندما رأى لامبالاة إدوارد: «إنه يعرف نقاط ضعفك أيضاً»... ثم نظر إلي.

قال إدوارد مسرعاً: «لا حاجة للكلام في هذا الأمر الآن».

تجاهل إليازر تلميحه وتابع يقول: «لعله يريد رفيقتك أيضاً. لابد أنه شديد الرغبة في الاستحواذ على قدرة استثنائية تمكنت من تحدي قدرته حتى عندما كانت في صورتها البشرية».

كان هذا الحديث مزعجاً لإدوارد. وأنا... لم أحبه أيضاً. إذا كان آرو يريد مني شيئاً... أي شيء... فما عليه إلا أن يهدد إدوارد بالخطر فأطيعه من غير نقاش. والعكس بالعكس.

أيكون الموت أهون الشرور؟ وهل علينا أن نخاف الأسر أكثر من الموت؟

غير إدوارد الموضوع: «أظن أن الفولتوري كانوا ينتظرون هذا... ينتظرون الذريعة. ما كانوا يعرفون الذريعة التي ستأتيهم، لكن خطتهم كانت جاهزة تنتظر توفر الذريعة. هذا ما جعل أليس ترى قرارهم قبل أن تصل إليه إيرينا. كان القرار متخذاً... وكان ينتظر توفر مبرراته».

تمتمت كارمن: «إذا كان الفولتوري يسيئون استخدام الثقة التي منحهم إياها الخالدون كلهم...»

سألها إليازر: «وما أهمية هذا؟ من يصدق هذا؟ حتى إذا أمكننا إقناع الآخرين بأن الفولتوري يستغلون سلطاتهم... فماذا ينتج عن ذلك؟ لا يستطيع أحد الوقوف في وجههم».

قالت كيت: «رغم أن عدداً منا لديه من الجنون ما يكفيه للمحاولة».

هز إدوارد رأسه: «أنت هنا من أجل الشهادة فقط يا كيت. مهما يكن هدف آرو فلست أظن أنه مستعد للتفريط بسمعة الفولتوري من أجل تحقيقه. إذا استطعنا نقض حجته ضدنا فلن يكون أمامه من خيار إلا أن يتركنا في سلام».

تمتمت تانيا: «طبعاً!»

لم يظهر الاقتناع على أي منهم. ولم يقل أحد شيئاً دقائق طويلة.

عند ذلك سمعت صوت عجلات سيارة تترك الطريق المعبد وتسلك الدرب المفضي إلى المنزل.

قلت: «أوه! إنه تشارلي... هل يمكن أن تصعد أسرة دينالي إلى الطابق العلوي ريثما...»

قال إدوارد بصوت بعيد: «لا!»... كانت عيناه سابحتين بعيداً تحدقان في الباب بنظرة فارغة: «هذا ليس والدك»... تركزت أنظاره عليّ: «لقد أرسلت أليس بيتر وشارلوت. علينا أن نستعد لجولة جديدة».

32

زوار

بلغ ازدحام منزل أسرة كولن الضخم بالزوار حداً غير مريح. لم يكن هذا ممكناً إلا لأن أحداً من هؤلاء الزوار ما كان في حاجة إلى النوم. كانت أوقات الطعام مشكلة... رغم ذلك. لقد كان زوارنا متعاونين إلى أقصى ما يستطيعون. حافظوا على أمان منطقة فوركس ولابوش وما يجاورهما فلم يمارسوا الصيد إلا خارج حدود الولاية. كان إدوارد مضيفاً لبقاً كريماً... كان يعير سيارته لكل من يحتاجها دون أدنى تذمر. لكن ذلك جعلني غير مرتاحة رغم محاولتي إقناع نفسي بأنهم كانوا يصطادون في أماكن مختلفة من العالم قبل مجيئهم إلينا.

كان جايكوب أكثر انزعاجاً مني! إن حماية أرواح البشر غاية وجود المستذئبين... وها هي جرائم كبرى يتغاضون عنها لمجرد أنها ترتكب خارج حدود منطقة القطيع. لكنه... في ظل هذه الظروف... وفي ظل الخطر المحيق برينيمي... حافظ على صمته وراح يحدق في الأرض بدلاً من التحديق في هؤلاء الضيوف.

لكنني فوجئت بسهولة قبول مصاصي الدماء الزوار بوجود جايكوب... لم تواجهنا المشكلة التي توقعها إدوارد. كأن جايكوب ما كان مرئياً لهم... ما كان شخصاً على وجه التحديد... لكنه ما كان طعاماً أيضاً... لقد

عاملوه كما يعامل من لا يحبون الحيوانات كثيراً تلك الحيوانات الأليفة التي يصادفونها عند أصدقائهم.

كان سيث وليا وكويل وإمبري مكلفين بملازمة قطيع سام في هذه الفترة. لو استطاع جايكوب أن ينضم إليهم لكان سعيداً، لكنه ما كان يطيق الابتعاد عن رينيمي التي كانت بدورها منشغلة عنه بممارسة سحرها على تلك المجموعة العجيبة من ضيوف كارلايل.

كررنا مشهد تقديم رينيمي إلى أسرة دينالي عدة مرات. قدمناها في البداية إلى بيتر وشارلوت اللذين أرسلهما جاسبر وأليس دون إعطائهما أي إيضاح. لكنهما، مثل أكثر معارف أليس، كانا يثقان بتوجيهاتها حتى من غير معلومات. لم تقل لهما أليس شيئاً عن وجهتها... هي وجاسبر. ولم تعدهما باللقاء مرة أخرى في المستقبل.

لم يسبق لبيتر أو شارلوت رؤية أطفال خالدين من قبل. كانا يعرفان القانون، لكن ردة فعلهما السلبية كانت أخف من ردة فعل أسرة دينالي أول مجيئها. حملهما الفضول على قبول «تفسير» رينيمي... فانتهى الأمر! وهما الآن ملتزمان بالشهادة كما التزمت أسرة تانيا.

أرسل كارلايل أصدقاء من إيرلندا ومصر.

وصل الإيرلنديون أولاً... كان إقناعهم شديد السهولة. كانت زعيمتهم سيوبهان امرأة شديدة الحضور ضخمة الجسم جميلة ساحرة عندما تتحرك في سيرها اللين المتموج. لكنها، ومعها رفيقها ليام ذو الوجه القاسي، كانا معتادين على الثقة في أحكام أحدث أفراد جماعتهما عهداً... الصغيرة ماجي ذات الشعر الأحمر المتموج التي ما كان حضورها شديد التأثير مثل حضور شريكيها، لكنها كانت تتمتع بقدرة على كشف الكذب... وما كانت أحكامها لتخطئ أبداً! قالت ماجي إن إدوارد يقول الحقيقة فقبل ليام وسيوبهان قصتنا قبولاً مطلقاً حتى قبل أن تلمسهما رينيمي.

أما آمون وبقية مصاصي الدماء المصريين فكانوا حكاية أخرى! فحتى بعد

اقتناع أصغر أفراد جماعتهما، تيا وبنجامين، بتفسير رينيمي، ظل آمون يرفض لمسها... بل أمر جماعته بالرحيل فوراً.

لكن بنجامين (وهو مصاص دماء لطيف المعشر إلى حد غريب يوحي مظهره بأنه مجرد صبي، لكنه يبدو شديد الثقة بالنفس وشديد الطيش في وقت واحد) أقنع آمون بالبقاء من خلال تهديده الخفي بفك تحالفه معه. بقي آمون! لكنه ظل رافضاً لمس رينيمي وظل يمنع رفيقته كيبي من لمسها أيضاً. بدت تلك الجماعة غريبة... كانوا متشابهين جميعاً بشعرهم الأسود الفاحم وشحوبهم الزيتوني إلى حد يمكن معه الظن بأنهم أقرباء في الأصل. كان آمون كبيرهم وزعيمهم المعلن. وكانت كيبي تلازمه مثل ظله... لم أسمعها تتفوه بكلمة واحدة طيلة وجودها. أما تيا... رفيقة بنجامين... فكانت امرأة هادئة أيضاً، لكنها إن تكلمت خرجت الكلمات منها شديدة الوضوح والجاذبية. لكنهم بدوا جميعاً دائرين في فلك بنجامين كما لو أنه يملك نوعاً من الجاذبية الخفية يعتمد توازن البقية عليها. رأيت إليازر ينظر إلى ذلك الصبي بعينين متسعتين فأدركت أن لديه قدرة جذب الآخرين إليه.

قال لي إدوارد عندما صرنا وحدنا تلك الليلة: «ليس الأمر كذلك! إن لديه قدرة فريدة تجعل آمون يخشى خسارته. ومثلما نحاول نحن إخفاء أمر رينيمي عن آرو... يحاول آمون إخفاء بنجامين أيضاً. لقد صنع آمون بنجامين عارفاً أنه سيكون متميزاً».

«ما الذي يستطيع فعله؟»

«إنه يفعل شيئاً لم يره إليازر من قبل. شيئاً لم أسمع به من قبل أبداً. شيئاً لا يستطيع درعك أن يفعل شيئاً حياله»... ابتسم ابتسامته المعابثة الخبيثة... «إنه يستطيع التحكم بالعناصر... التراب والريح والماء والنار. يتحكم بها حقيقة... ليس في ذلك أي خداع للعقل. مازال بنجامين يختبر هذه القدرة... أما آمون فيحاول أن يحوله إلى سلاح في يده. لكنك ترين مدى استقلالية بنجامين! لن يقبل أن يستخدمه أحد».

«أنت تحبه!». . . هذا ما استنتجته من نبرة صوت إدوارد.

«إن لديه إحساساً شديد الوضوح بالحق والباطل. أعجبني موقفه من قضيتنا».

لكن موقف آمون كان مختلفاً. . . لقد نأى بنفسه عن الآخرين، ومعه كيبي. لكن بنجامين وتيا نسجا صداقة مع أسرة دينالي ومع جماعة الإيرلنديين. كنت آمل أن تساهم عودة كارلايل في تخفيف ذلك التوتر مع آمون.

أرسل إيميت وروز بعض الأشخاص. . . كانوا يرسلون كل من يستطيعون العثور عليه من أصدقاء كارلايل الرحل.

جاء غاريت أولاً. . . إنه مصاص دماء نحيل ممشوق القامة طويل الأطراف له عينان عقيقيتان وشعر طويل بلون الرمل كان يربطه بعصابة جلدية. كان واضحاً منذ البداية أنه شخص مغامر. أظن أننا لو واجهناه بأي تحد لقبله. . . حتى يختبره نفسه فقط! سرعان ما انسجم مع الشقيقتين دينالي وراح يطرح أسئلة لا تنتهي عن نمط حياتهما غير المألوف. هل يعتبر العيشة «النباتية» تحدياً آخر يمكن أن يجربه حتى يرى إن كان قادراً عليه؟

جاءنا أيضاً ماري وراندال. . . كانا صديقين رغم أنهما لا يرتحلان معاً. أصغيا إلى قصة رينيمي وبقيا من أجل الشهادة. . . مثل الآخرين. وقد طرحا أيضاً فكرة ما يمكن عمله إذا لم يتوقف الفولتوري للإصغاء إلينا. كان الرحل الثلاثة مستعدين لفكرة الوقوف معنا.

ازداد مزاج جايكوب سوءاً مع كل وافد جديد! كان يحافظ على مسافة تفصله عنهم. . . قدر استطاعته. أما عندما لا يستطيع ذلك فكان يتذمر ويشتكي لرينيمي قائلاً إنه في حاجة إلى قائمة بالأسماء حتى يستطيع تذكر أسماء الجميع.

عاد كارلايل وإيزمي بعد أسبوع واحد من رحيلهما. وعاد إيميت وروزالي بعدهما بأيام معدودة. شعرنا بالراحة لعودتهم جميعاً. جلب كارلايل معه صديقاً جديداً. . . إن جازت تسميته صديقاً! كان ألستير مصاص دماء إنكليزياً

يكره الناس. إنه يعتبر كارلايل أقرب معارفه، لكنه ما كان يستطيع تحمل زيارته إلا مرة كل مئة سنة. كان يفضل التجول وحيداً. . . وكان مجيؤه مع كارلايل منة كبيرة. كان يتجنب الحاضرين. . . وكان من الواضح أن أحداً منهم لا يحبه.

قبل هذا الشخص الغريب ذو الشعر الأسود والتفكير العميق قصة كارلايل كلها بشأن أصل رينيمي لكنه رفض لمسها. . . مثل آمون. قال إدوارد لكارلايل وإيزمي ولي أيضاً إن ألستير كان خائفاً منها. . . لكنه كان أكثر خوفاً من عدم معرفة النتيجة. كان شديد الشك في جميع السلطات. . . فكان طبيعياً أن يشك في الفولتوري أيضاً. وكان يرى فيما يحدث الآن تأكيداً لجميع شكوكه ومخاوفه.

سمعناه يتمتم لنفسه في علّية المنزل (كانت المكان المفضل لإظهار سوء طبعه): «طبعاً! سيعرفون الآن أنني كنت هنا. ما عدت أستطيع إخفاء الأمر عن آرو. لن تكون نتيجة هذا إلا قروناً من الهرب! سيضعون على قائمتهم أسماء كل من تحدث إليهم كارلايل خلال العقد الأخير! لا أصدق أنني ورطت نفسي في هذه الفوضى كلها! يا للطريقة الرائعة في معاملة الأصدقاء!».

هل كان محقاً في أنه سيضطر إلى الهرب من مطاردة الفولتوري! إن حظه في الإفلات منهم أكبر من حظنا بكثير! كان ألستير قادراً على اقتفاء الأثر. . . لكن قدرته ما كانت بمثل دقة وكفاءة ديمتري. كان يشعر بنوع من الانجذاب إلى الشيء الذي يبحث عنه. لكن هذا الانجذاب لا ينبئه إلا بالاتجاه الصحيح. . . الاتجاه المعاكس لمكان وجود ديمتري!

جاء بعد ذلك زوج آخر من الأصدقاء غير المتوقعين. . . غير متوقعين لأن كارلايل وروزالي لم يستطيعا الاتصال بمصاصي الدماء في الأمازون.

كان ضيفانا امرأتين طويلتين. وعند وصولهما حيث أطولهما كارلايل. كان شكلهما يوحي بأنهما ممطوطتان. . . أذرع طويلة وسيقان طويلة وأصابع طويلة وضفائر شعر طويلة ووجهان طويلان وأنفان طويلان! كانت ملابسهما

من جلود الحيوانات. . . صدارين صغيرين وبنطلونين ضيقين مشدودين بخيوط جلدية. ما كانت ثيابهما العجيبة وحدها سبباً في جعل شكلهما برياً متوحشاً. . . بل كل شيء فيهما كان ينبئ بذلك. . . من عيونهما التي لا تعرف الهدوء إلى حركاتهما المفاجئة المندفعة. لم أر من قبل مصاص دماء على هذه الدرجة من البعد عن المدنية!

لكن أليس هي التي أرسلتهما. كان هذا خبراً مثيراً للاهتمام! لماذا ذهبت أليس إلى أمريكا الجنوبية؟ ألمجرد علمها أن أحداً غيرها لا يستطيع الوصول إليهما؟

خاطبهما كارلايل: «زافرينا وسينا! لكن، أين كاشيري؟ لم أركم متفرقين من قبل!»

أجابته زافرينا بصوتها الخشن العميق الذي يلائم مظهرها: «قالت لنا أليس إن علينا أن نفترق. لا يريحنا البعد عن كاشيري، لكن أليس أكدت لنا أنكم في حاجة إلى وجودنا هنا وأنها في حاجة ماسة إلى وجود كاشيري في مكان آخر. لم تقل لنا غير ذلك. . . إلا أن نسرع إلى أقصى حد ممكن. . .؟»

تحول كلام زافرينا إلى نوع من السؤال. . . فذهبت لإحضار رينيمي حتى تراها. . . لم يفارقني توتر الأعصاب الذي يداهمني كلما ذهبت لإحضارها!

على الرغم من مظهرهما العنيف. . . أصغت زافرينا وسينا إلى قصتنا بكل هدوء ثم سمحتا لرينيمي بأن تقدم الدليل على كلامنا. لقد سحرتهما رينيمي مثلما سحرت الآخرين. لكني لم أستطع دفع القلق عني عندما كنت أنظر إلى حركتهما السريعة المتوثبة بالقرب منها. كانت سينا تلازم زافرينا على الدوام. . . ولا تتكلم أبداً. لكن وضعهما لم يكن مثل وضع آمون وكيبي. كان سلوك كيبي تجاه آمون سلوك طاعة، أما سينا وزافرينا فكانتا مثل عضوين من جسد واحد. . . لكن زافرينا هي عضو النطق في هذا الجسد.

بعثت أخبار أليس في نفسي راحة غريبة. من الواضح أنها ذهبت في مهمة غامضة تخصها ربما تفادي ما أعده آرو لها.

كانت سعادة إدوارد كبيرة بوجود الأمازونيتين معاً لأن زافرينا تتميز بقدرات هائلة. كانت موهبتها سلاحاً هجومياً رهيباً. ما كان يطلب منها أن تقف إلى جانبنا في المعركة. لكن. . . إذا لم يتوقف الفولتوري ليسمعوا شهودنا، فلعلهم يتوقفون عندما يشاهدون منظراً مختلفاً تمام الاختلاف!

عندما لم أشعر بشيء من قدرة زافرينا. . . كالعادة، فسر لي إدوارد ذلك بقوله: «إن ما تفعله وهم بكل معنى الكلمة». حيرت مناعتي زافرينا. . . لم تر شيئاً مثل هذا من قبل. راحت تحاول. . . من غير جدوى. . . وراح إدوارد يشرح لي ما لم أكن أراه. غامت عيناه قليلاً. . . لكنه تابع الكلام: «إنها قادرة على جعل أكثر الناس يرون ما تريد لهم أن يروه. . . يرون ذلك وحده ولا شيء آخر! إنها الآن تجعلني أرى نفسي وحيداً في غابة استوائية. الصورة واضحة تماماً إلى حد يجعلني قادراً على تصديقها. . . لكنني مازلت أشعر بوجودك بين ذراعي!»

التوت شفتا زافرينا لترسما ابتسامة غريبة المظهر مثل صاحبتها. وبعد ثانية واحدة غامت عينا إدوارد من جديد. . . ثم ابتسم لها.

قال: «شيء مؤثر فعلاً».

سحر هذا الحديث رينيمي فمدت يديها إلى زافرينا من غير خوف وسألتها: «هل أستطيع أن أرى ذلك؟»

سألتها زافرينا: «ما الذي تريدين رؤيته؟»

«أريد أن أرى ما رآه أبي».

أومأت زافرينا برأسها موافقة. أما أنا فرحت أراقب رينيمي بقلق ورأيت عينيها تحدقان بنظرة فارغة. بعد ثانية واحدة ظهرت ابتسامة رائعة على وجهها.

قالت لزافرينا: «أريد المزيد».

بعد ذلك، صار من الصعب إبقاء رينيمي بعيدة عن زافرينا وعن «صورها الجميلة». كنت قلقة لأنني كنت أعرف أن زافرينا قادرة على خلق صور ليست

جميلة على الإطلاق. لكني كنت أرى صور زافرينا من خلال يد رينيمي... كانت شديدة الوضوح كأنها أشياء رأتها رينيمي بعينيها فعلاً... كأنها حقيقية. وهكذا صرت قادرة على مراقبة ما تراه رينيمي من صور لأعرف إن كانت ملائمة أم لا!

صحيح أنني ما كنت قادرة على التخلي عن رينيمي بسهولة، لكن قدرة زافرينا على تسليتها وإشغالها بدت لي أمراً جيداً. كنت في حاجة إلى يدي. علي أن أتعلم أشياء كثيرة... جسدياً وعقلياً... وكان الوقت المتاح لي قصيراً جداً!

لم تجر أول محاولاتي لتعلم القتال على نحو ناجح! ثبتني إدوارد على الأرض عدة ثوان. لكنه، بدلاً من أن يجعلني أصارعه حتى أحرر نفسي من قبضته (هذا ما كنت أستطيع فعله بالتأكيد) وثب ناهضاً وتركني. فهمت فوراً أن ثمة شيء على غير ما يرام. وقف ساكناً مثل صخرة وراح يحدق في المرج حيث كنا نتدرب.

قال: «آسف يا بيلا!»

قلت: «لا! لم يصبني سوء... فلنتابع».

«لا أستطيع».

«ماذا تعني بأنك لا تستطيع؟ ما كدنا نبدأ!»

لم يجبني.

«انظر يا إدوارد! أعرف أنني لست ماهرة. لكنني لن أتحسن إذا لم تساعدني».

لم يقل شيئاً. قفزت عليه لكنه لم يبد أي مقاومة فسقطنا معاً على الأرض. ظل من غير حراك عندما لمست رقبته بشفتي.

قلت له: «لقد فزت!»

ضاقت عيناه لكنه لم يقل شيئاً.

«إدوارد! ماذا بك؟ لماذا لا تعلمني؟»

مرت دقيقة كاملة حتى تكلم إدوارد: «لا أطيق هذا... إيميت وروزالي يعرفان بقدر ما أعرف. ولعل تانيا وإليازر يعرفان أكثر منهما. اطلبي ذلك من أحد غيري!»

«هذا ليس عدلاً! أنت ماهر في القتال. لقد ساعدت جاسبر ذات مرة... لقد قاتلت معه ومع الآخرين أيضاً. لماذا لا تعلمني؟ أين أخطأت؟»

تنهد إدوارد حانقاً. كانت عيناه مظلمتين... ما كان الذهب يلمع في سوادهما إلا قليلاً.

«لا أستطيع النظر إليك بتلك الطريقة... لا أستطيع معاملتك كأنك هدف للهجوم. لا أستطيع رؤية الطرق التي يمكن أن أقتلك من خلالها...» ارتعد إدوارد... «هذا يجعل الأمر حقيقياً أكثر مما أطيق. ليس لدينا وقت كاف... لا أهمية إن علمك القتال هذا أو ذاك! يستطيع أي منهم أن يعلمك الأساسيات».

تجهم وجهي.

لمس إدوارد شفتي الممطوطة وابتسم: «ثم إن هذا أمر غير ضروري. سوف يتوقف الفولتوري. سوف نجعلهم يصغون إلينا».

«إذا لم يتوقفوا! عليّ أن أتعلم القتال».

«ابحثي عن مدرّب غيري».

ما كان هذا آخر حديث لنا في موضوع التدريب، لكني لم أستطع زحزحته عن موقفه.

كان إيميت أكثر من راغب في تقديم المساعدة. لكن تدريبه بدا لي أشبه بمحاولة الانتقام مني عن هزائمه المتكررة معي. لو كان جسمي قابلاً لظهور الكدمات لصار الآن أزرق اللون كله. كان إليازر وروز وتانيا صبورين معي. ذكرتني دروسهم بتعليمات القتال التي أعطاها جاسبر للآخرين في حزيران الماضي رغم أن تلك الذكريات كانت مشوشة بعيدة عني الآن. وجد بعض زوارنا تدريباتي القتالية مسلية لهم... بل قدم بعضهم يد المساعدة أيضاً.

جرت عدة جولات بيني وبين مصاص الدماء الرحالة غاريت... لقد كان معلماً جيداً إلى حد مدهش... كان تواصله مع الآخرين سهلاً بشكل عام مما جعلني أتساءل عن سبب عدم عثوره على جماعة ملائمة ينضم إليها. وفي إحدى المرات خضت جولة قتال مع زافرينا وكانت رينيسمي بين ذراعي جايكوب تراقبنا. تعلمت حيلاً كثيرة منها لكني لم أطلب مساعدتها مرة ثانية. لقد أحببتها كثيراً وكنت واثقة من أنها لا يمكن أن تؤذيني... لكن تلك المرأة المتوحشة كانت تخيفني حتى الموت.

تعلمت أشياء كثيرة من هؤلاء المدربين، لكني شعرت أن معرفتي مازالت بدائية إلى حد كبير. ما كنت أعرف عدد الثواني التي ستكون متاحة أمامي في مواجهة أليك وجين. لكني كنت آمل أن تفي بالغرض.

خصصت كل دقيقة خارج التدريب على القتال... وكل دقيقة لم أكن مع رينيسمي خلالها... من أجل قضاء الوقت في العمل مع كيت خلف المنزل... كنت أحاول دفع ذلك الدرع الداخلي خارج دماغي حتى أستطيع حماية غيري أيضاً. ساعدني إدوارد في هذا التدريب وشجعني. أعرف أنه كان يرجو أن أعثر على طريقة مشاركة ترضيني وتقنعني لكنها تبقيني خارج القتال الفعلي.

لكن ذلك كان شديد الصعوبة. ما كان لدي شيء أسترشد به... ما كان لدي شيء ملموس أعمل بموجبه. ما كان لدي غير رغبتي الشديدة في أن أكون مفيدة... في أن أتمكن من تحقيق الأمان لإدوارد ورينيسمي ولأكبر عدد ممكن من أفراد أسرتي. حاولت مرة بعد مرة أن أجعل هذا الدرع السديمي يمتد خارج جسمي لكني لم أحقق إلا نجاحاً بسيطاً... متقطعاً.

أحسست أنني أكافح من أجل توسيع غلاف مطاطي غير مرئي... غلاف يمكن أن يتحول من شيء محسوس ملموس إلى دخان يتلاشى في أي لحظة.

كان إدوارد مستعداً للعب دور فأر التجارب... مستعداً لتلقي صدمة بعد صدمة من كيت في حين كنت أبحث عاجزة في ثنايا دماغي. كنا نعمل عدة ساعات كل مرة... كنت أشعر أن العرق يجب أن يغطي جسمي كله لشدة إجهادي. لكن جسمي لم يكن يخونني بتلك الطريقة طبعاً! كان إرهاقي ذهنياً كله.

كانت معاناة إدوارد تقتلني... كنت أحتضنه بذراعي... من غير جدوى وهو يتلوى مرة بعد مرة تحت لسعات كيت الكهربائية «الضعيفة». حاولت بأقصى ما استطعت أن أدفع ذلك الدرع حتى يضمنا معاً. كنت أنجح في ذلك مصادفة... ثم ينزلق ذلك النجاح فيفلت مني.

كرهت هذا التمرين وتمنيت لو أن زافرينا تساعدني بدلاً من كيت. لن يكون على إدوارد في تلك الحالة إلا أن ينظر إلى صور زافرينا الخيالية ريثما أتمكن من حجبها عنه. لكن كيت أصرت على أنني في حاجة إلى دافع أقوى... كانت تقصد بالدافع ذلك الألم الذي ينتابني كلما رأيت إدوارد متألماً. بدأت أشك في تأكيدها يوم مجيئها على أنها لا تجد متعة سادية في استخدام قدرتها. أحسست أنها تستمتع بما يحدث.

قال إدوارد مبتهجاً... محاولاً إخفاء الألم في صوته... محاولاً أن يفعل أي شيء لإبعادي عن التدريب القتالي: «هيه! هذه كانت خفيفة جداً! أحسنت يا بيلا».

استنشقت نفساً عميقاً... حاولت أن أستعيد بالضبط ما فعلته الآن. وسعت ذلك الغلاف المطاطي المرن... حاولت أن أجبره على البقاء في مكانه كما هو... متسعاً... بعيداً عني.

قلت أستحثها: «مرة أخرى يا كيت».

وضعت كيت يدها على كتف إدوارد فتنفس الصعداء: «لم أشعر بشيء هذه المرة».

قالت مستغربة: «لم تكن اللسعة ضعيفة!»

قلت مبتهجة: «جيد!»

قالت لي: «استعدي»... ثم مدت يدها إلى إدوارد من جديد.

ارتعد إدوارد هذه المرة وزفر ببطء متألماً.

قلت له: «آسفة! آسفة!»... عضضت على شفتي. لماذا لم أتمكن من حمايته هذه المرة؟

قال إدوارد وهو يشدني إليه: «أنت تحققين إنجازاً مذهلاً يا بيلا. أنت تتدربين على هذا منذ أيام قليلة فقط... وقد صرت قادرة على حمايتي من حين لآخر. كيت! أخبريها بمدى تقدمها».

شدت كيت على شفتيها: «لست أدري! من الواضح أن لديها قدرات هائلة... أعرف أننا لم نلمس إلا جزءاً منها حتى الآن. في وسعها أن تفعل أفضل من ذلك... أنا واثقة. إنها في حاجة إلى حافز أكبر».

حدقت فيها غير مصدقة... كشرت عن أسناني بحركة عفوية. كيف تستطيع أن تظن أن الحافز غير كاف عندما أراها تصعق إدوارد أمامي؟

سمعت همهمة في حشد المتفرجين الذي ازداد عدداً مع تواصل التدريب... كان يضم إليازر وكارمن وتانيا في البداية... ثم جاء غاريت ثم بنجامين وتيا وسيوبهان وماجي... بل صار ألستير نفسه الآن يسترق النظر إلينا من نافذة في الطابق الثالث. رأيت هؤلاء المتفرجين يؤيدون إدوارد... لقد رأوا أنني أتقدم بشكل جيد.

قال إدوارد بصوت محذر: «كيت...» أحس أنها موشكة على فعل شيء مختلف... لكنها تحركت بالفعل. انطلقت صوب منعطف النهر حيث كانت زافرينا وسينا ورينيمي يمشين ببطء. كانت يد رينيمي في يد زافرينا... كانتا تتبادلان الصور. وكان جايكوب يسير على مسافة قصيرة خلفهما.

قالت كيت: «نيسي»... ما أسرع هؤلاء القادمين الجدد في التقاط ذلك الاسم المزعج!... «هل تأتين معي لتساعدي أمك؟»

قلت مزمجرة: «لا!»

احتضنني إدوارد ليهدئني. نفضته عني عندما جاءت رينيمي صوبي ومعها كيت وزافرينا وسينا.

قلت بصوت كالفحيح: «لا أقبل أبداً يا كيت».

مدت رينيمي يدبها صوبي ففتحت لها ذراعي بحركة تلقائية. تكورت في حضني ودست رأسها تحت إبطي.

قالت بصوت مصمم: «ماما! أريد أن أساعدك»... وضعت يدها على رقبتي... كانت تعبر عن رغبتها في مساعدتي بصور تظهرنا نحن الاثنتين معاً... فريقاً واحداً.

قلت وأنا أتراجع من جديد: «لا!»... تقدمت كيت خطوة في اتجاهي وهي تمد يدها صوبنا.

حذرتها: «ابقي بعيدة عنا يا كيت».

«لا!»... بدأت تتحرك إلى الأمام من جديد. كانت تبتسم مثل صياد يحاصر طريدته. دفعت رينيمي حتى صارت معلقة خلف ظهري وواصلت التراجع بخطوات مكافئة لخطوات كيت. صارت يداي حرتين الآن. إذا أرادت كيت أن تظل يداها متصلتين بذراعيها فعليها ألا تقترب مني.

لعل كيت لم تفهمني... لعلها لم تفهمني لأنها لم تكن أماً ولم تعرف عاطفة الأم تجاه أبنائها! لابد أنها لم تدرك أنها مضت أكثر مما يجب... أكثر من كثير!

كان غضبي شديداً واصطبغ كل شيء بلون أحمر غريب في عيني. أحسست بشيء يشبه الحديد المصهور فوق لساني. صارت القوة التي أحاول كبحها دائماً تسري الآن في عضلاتي فعرفت أنني أستطيع أن أسحق كيت فأجعلها فتاتاً إذا اضطررت إلى ذلك.

جعل ذلك الغضب كل جوانب وجودي أكثر تركيزاً من قبل. صرت أشعر بمرونة درعي تماماً... صرت أحسه مثل طبقة. مثل غشاء رقيق يغطيني من رأسي حتى قدمي. ومع ذلك الغضب الذي عصف بجسدي صار لدي

إحساس أفضل بهذا الدرع. . . تحكم أفضل بذلك الدرع. مددته حتى يغطيني. . . حتى يتجاوز جسدي فيلف رينيمي كلها. . . قد تفلح كيت في تجاوز رقابتي!

تقدمت كيت خطوة محسوبة أخرى فاندفع من حنجرتي زئير وحشي.

حذرها إدوارد: «كوني حذرة يا كيت».

تقدمت كيت خطوة أخرى. . . ثم ارتكبت خطيئة يستطيع إدراكها حتى من كان قليل الخبرة مثلي. لم تفصلها عني إلا مسافة وثبة واحدة قصيرة، لكنها حولت نظرها عني. . . حولت انتباهها إلى إدوارد.

كانت رينيمي في أمان خلف ظهري فهممت بالوثب.

في تلك اللحظة سألت كيت إدوارد بصوت هادئ: «هل تستطيع سماع أفكار نيسي؟»

اندفع إدوارد فوقف بيننا قاطعاً طريق وثبتي في اتجاهها.

أجابها: «لا! لا أسمع شيئاً. دعي بيلا تهدأ قليلاً يا كيت. ما كان عليك استفزازها إلى هذا الحد. أعرف أنها أكبر من عمرها، لكن عمرها لم يتجاوز عدة أشهر. . . رغم ذلك».

«ليس لدينا الوقت الكافي حتى نتصرف بلطف يا إدوارد. علينا دفعها دفعاً. ما عاد أمامنا إلا أسابيع قليلة. إن لديها إمكانيات من أجل. . .»

«تراجعي دقيقة واحدة يا كيت».

عبست كيت لكنها تعاملت مع تحذير إدوارد بجدية. . . أكثر من تحذيري!

صارت يد رينيمي على رقبتي. كانت تتذكر الآن هجوم كيت وتوضح لي أنها لم تكن تقصد شراً. . . توضح لي أن إدوارد كان يعرف ما في رأسها. . .

لكن هذا لم يفلح في تهدئتي. مازال اللون الأحمر يصبغ طيف الضوء الذي أراه. لكني صرت أكثر سيطرة على نفسي فاستطعت أن أرى الحكمة في

كلمات كيت. لقد ساعدني هذا الغضب. سوف أتعلم بشكل أسرع إذا كنت تحت ضغط كبير.

زمجرت: «كيت!». . . وضعت يدي على ظهر إدوارد. مازلت أحس بدرعي مثل ملاءة مرنة قوية تحيط برينيمي وبي. . . وسعتها أكثر من قبل وجعلتها تحيط بإدوارد. لم أر ما يشير إلى ثغرة في هذه الملاءة. . . لا تمزق. . . لا خطر. لهثت لفرط الجهد. خرجت الكلمات من فمي متقطعة لا غاضبة. . . قلت لكيت: «من جديد! إدوارد وحده».

نظرت كيت إلينا مستغربة ووضعت كفها على كتف إدوارد.

قال إدوارد: «لا شيء!». . . أحسست بالابتسامة في صوته.

سألته كيت: «والآن؟»

«لا شيء!»

«والآن؟». . . ظهر بعض التوتر في صوتها هذه المرة.

«لا شيء إطلاقاً».

زفرت كيت وخطت متراجعة.

سألتنا زافرينا بصوتها العميق المتوحش. . . كانت تحدق فينا جميعاً: «هل ترون هذا؟». . . كانت نبرة أجنبية واضحة تشوب لغتها الإنكليزية، وكانت كلماتها تتدافع على غير انتظام.

قال إدوارد: «لا أرى شيئاً غير طبيعي».

«وأنت يا رينيمي؟»

ابتسمت رينيمي وهزت رأسها.

تلاشى غضبي كله. . . أو كاد! شددت على أسناني ورحت ألهث. . . دفعت ذلك الدرع أبعد من ذي قبل. كنت أحس بثقله يزداد مع الزمن. ثم. . . تراجع وصار في داخلي.

حذرت زافرينا المجموعة الصغيرة التي تراقبنا: «لا تخافوا! أريد أن أرى المدى الذي تستطيع بيلا مد درعها إليه».

صدرت شهقة عن كل واحد من المحتشدين... إليازر وكارمن وتانيا وغاريت وبنجامين وتيا وسيوبهان وماجي... إلا سينا التي بدت مستعدة لما يمكن أن تفعله زافرينا. صارت أعين الآخرين فارغة وعلا القلق وجوههم.

قالت لهم زافرينا: «فليرفع يده كل من يعود إليه بصره! الآن يا بيلا... دعينا نرى كم شخصاً يمكن أن يستوعب درعك؟»

كانت كيت أقرب الأشخاص إليّ بعد إدوارد ورينيمي... لكنها كانت على مسافة ثلاثة أمتار تقريباً. شددت على أسناني وضغطت محاولة دفع الدرع الذي أحسسته مطاوعاً... مقاوماً. رحت أدفعه صوب كيت شبراً بعد شبر وأقاوم ردة فعله التي تحاول إرجاعه كلما كبر قليلاً. رحت أراقب تعابير وجه كيت القلقة... ثم تنفست الصعداء عندما رفرفت عيناها وعادت نظرتها طبيعية من جديد ورفعت يدها.

همس إدوارد: «رائع! هذا يشبه نظارة تسمح بالرؤية في اتجاه واحد فقط. أستطيع قراءة أفكارهم جميعاً لكن أحداً منهم لا يستطيع بلوغي خلف هذا الدرع. كما أستطيع قراءة أفكار رينيمي في حين لم أستطع قراءتها عندما كنت في الخارج. أراهن أن كيت قادرة على صدمي كهربائياً الآن لأنها معي تحت هذه المظلة. لكني مازلت غير قادر على سماع بيلا... هممم! كيف يعمل هذا الشيء؟ هل يا ترى...»

واصل إدوارد غمغمته مع نفسه لكني ما كنت قادرة على الإصغاء. شددت على أسناني من جديد محاولة دفع الدرع صوب غاريت الذي كان قريباً من كيت. رفع غاريت يده.

شجعتني زافرينا: «جيد جداً... والآن...»

لكنها استعجلت أكثر مما يجب. صدرت عني زفرة حادة وأحسست بالدرع يرتد مثل شريط مطاطي استطال أكثر من طاقته فارتد إلى شكله الأصلي. أما رينيمي التي تجرب لأول مرة ذلك العمى الذي تلقيه زافرينا على

بصائر الآخرين فارتجفت خلف ظهري. رحت أحاول جاهدة إعادة مد الدرع.. إجباره على تغليفها من جديد.

قلت لاهثة: «هل لي بدقيقة واحدة؟»... منذ أن أصبحت مصاصة دماء لم أشعر بحاجة إلى الراحة قبل هذه اللحظة. أزعجني حقاً أن أشعر بهذا التعب... لكنني كنت أشعر بالقوة في الوقت نفسه!

قالت زافرينا: «طبعاً!»... تنفس المجتمعون الصعداء عندما عادت إليهم أبصارهم من جديد.

علت همهمات الجميع وتراجعوا قليلاً إلى الخلف بعد أن أشاعت لحظة العمى الاضطراب في نفوسهم. ما كان مصاصو الدماء معتادين على الشعور بأي ضعف. كان غاريت الطويل ذو الشعر الذي بلون الرمل أول مصاصي الدماء من غير أصحاب القدرات الخاصة ينجذب إلى تماريني هذه. ما الذي يجذبه يا ترى؟

قال غاريت: «كيت!»

حذره إدوارد: «إياك يا غاريت!»

لكن غاريت تابع سيره صوب كيت رغم تحذيره. كانت شفتاه مشدودتين: «يقولون إنك تستطيعين جعل أي مصاص دماء يقع على ظهره».

قالت له: «نعم!»... ثم ابتسمت وأشارت بأصابعها إليه: «هل استبد بك الفضول؟»

رفع غاريت كتفيه: «هذا شيء لم أره من قبل. أظن أنهم يبالغون...»

قالت كيت وقد صار وجهها جدياً على نحو مفاجئ: «ربما! ربما لا أستطيع فعل ذلك إلا مع الضعفاء والصغار. لست واثقة! تبدو عليك القوة! وقد تكون قادراً على مقاومة قدرتي». مدت يدها صوبه فاتحة كفها في دعوة واضحة. شدت على شفتيها... كنت واثقة تماماً من أن ذلك التعبير الجاد على وجهها كان من أجل استفزازه.

ابتسم غاريت لهذا التحدي. وبثقة كاملة... لمس كفها بإصبعه.

عند ذلك... أطلق زفرة حادة وانثنت ركبتاه ثم هوى على ظهره. اصطدم رأسه بحجر غرانيتي فحطمه بصوت يصم الآذان. كان ذلك مخيفاً... استنفرت حواسي الغريزية كلها لرؤية مصاص دماء مسلوب القوة على هذا النحو... هذا شيء خاطئ من أساسه.

تمتم إدوارد: «ألم أقل لك؟»

رفت عينا غاريت عدة ثوان ثم انفتحتا واسعتين. نظر إلى كيت المبتسمة ولاحت على وجهه ابتسامة عجب.

قال: «واو!»

سألته مرتابة: «هل استمتعت بهذا؟»

«لست مجنوناً»... ضحك غاريت هازاً رأسه ونهض ببطء على ركبتيه: «لكنها تجربة حقاً!»

«هذا ما يقوله الناس لي».

نظر إدوارد إليهما مستغرباً.

عند ذلك سمعنا هرجاً ومرجاً من أمام المنزل. سمعت صوت كارلايل يعلو فوق خليط من الأصوات المدهوشة.

«هل أرسلتكما أليس؟»... كان كارلايل يسأل أحداً ما... وكان صوته غير واثق... بل كان فيه شيء من الانزعاج.

هل جاءنا ضيوف جدد غير متوقعين؟

اندفع إدوارد داخلاً المنزل... ولحق به معظم الموجودين. مشيت خلفهم ببطء... مازالت رينيمي معلقة على ظهري. سوف أمنح كارلايل بعض الوقت حتى يرحب بالقادمين الجدد ويحضرهم لما سيأتي.

وضعت رينيمي بين ذراعي وسرت بحذر حول المنزل حتى أدخل من باب المطبخ... كنت أصغي إليهم.

أجاب كارلايل صوت عميق هامس: «لم يرسلنا أحد»... ذكرني هذا

الصوت بصوت القدامى... آرو وكايوس... فتجمدت في مكاني... في المطبخ.

كنت أعرف أن الغرفة الأمامية مزدحمة... لقد دخلها الجميع تقريباً لرؤية الزائرين الجدد... لكني ما كنت أسمع أي صوت تقريباً. مجرد صوت تنفس خفيف.

كان صوت كارلايل قلقاً عندما أجاب: «إذن، ما الذي جاء بكما الآن؟»

أجابه صوت مختلف... لكنه كان ريشياً مثل الصوت الأول: «تنتقل الأخبار من مكان إلى آخر! سمعنا تلميحات إلى أن الفولتوري يعتزمون مهاجمتكم. وسمعنا همساً عن أنكم لن تكونوا وحدكم. من الواضح أن هذا الهمس كان صادقاً. إني أرى هنا تجمعاً ملفتاً للأنظار».

أجابه كارلايل بنبرة نزقة: «لسنا نتحدى الفولتوري. ثمة سوء تفاهم... ليس غير. صحيح أنه سوء تفاهم خطير جداً، لكننا نأمل في أن نتمكن من توضيحه. ما تراهم هنا شهود فقط. نريد أن نجعل الفولتوري يصغون إلينا. نحن...»

قاطعه الصوت الأول: «لا يهمنا ما يقوله الفولتوري عنكم. ولا نبالي إن كنتم خرقتم القانون أم لا».

قال الصوت الثاني مؤكداً: «مهما يكن خرقاً شنيعاً!»

عاد الأول إلى القول: «نحن ننتظر فرصة تحدي هؤلاء الحثالة الإيطاليين منذ ألف وخمسمئة سنة! فإذا كان ثمة فرصة لهزيمتهم فسوف نكون هنا لنرى ذلك».

أضاف الثاني: «بل لنشارك في هزيمتهم أيضاً... إن رأينا أن أمامكم فرصة في النجاح»... كانا يتحدثان بتناسق واضح. وكان صوتاهما متشابهين تماماً... ما كانت أي أذن أقل حساسية من آذان مصاصي الدماء لتحسبهما صوتين لشخصين مختلفين...

ناداني إدوارد بصوت قاس: «بيلا! أحضري رينيمي من فضلك. لعل علينا أن نختبر ما يقوله زائرانا الرومانيان».

سوف يهب نصف مصاصي الدماء المحتشدين في تلك الغرفة للدفاع عن رينيمي إذا حاول هذان الرومانيان إيذاءها... لم أحب صوتيهما... ولم أحب ذلك الشؤم القاتم في كلامهما. دخلت الغرفة فرأيت أنني لم أكن الوحيدة التي لديها هذا الإحساس نحوهما. كان عدد من مصاصي الدماء الساكنين في أماكنهم ينظرون إليهما نظرة كراهية. ورأيت عدداً آخر منهم... كارمن وتانيا وزافرينا وسينا... يتحركون خفية لاتخاذ مواقع دفاعية بين رينيمي والقادمين الجدد.

كان مصاصا الدماء الواقفين بالباب قصيرَيْن نحيلَيْن. كان أولهما أسود الشعر، أما الثاني فكان شعره أشقر رمادياً. كان على جلديهما مسحة غبارية... مثل جلود الفولتوري... لكني أظنها أقل وضوحاً. ما كنت واثقة من هذا لأنني لم أر الفولتوري إلا بعينيّ البشريتين. لا أستطيع إجراء مقارنة دقيقة. كانت أعينهما الحادة الضيقة بلون نبيذي قاتم... ما كانت عليها تلك الغشاوة الحليبية التي على عيون الفولتوري. كانت ملابسهما سوداء شديدة البساطة تبدو حديثة الطراز مع مسحة من القدم.

ابتسم ذو الشعر الأسود عندما ظهرت: «ما هذا يا كارلايل؟ يبدو أنك تشاقى... أليس كذلك؟».

«هي ليست كما تظن يا ستيفان!».

أجابه الأشقر: «لسنا نهتم بهذا أيضاً... كما قلنا لك من قبل».

بدأ ستيفان يقول: «سوف نحاول التفاؤل...».

أكمل فلاديمير جملته: «... ونأمل أن يحالفنا الحظ».

تمكنا في نهاية الأمر من الحصول على سبعة عشر شاهداً: الإيرلنديون... سيوبهان وليام وماجي؛ والمصريون... آمون وكيبي وبنجامين وتيا؛ والأمازونيتان... زافرينا وسينا؛ والرومانيان... فلادمير وستيفان؛

والرحالة... شارلوت وبيتر وغاريت وألستير وماري وراندال. هذا إضافة إلى أحد عشر فرداً هم أفراد أسرتنا... لقد أصر إليازر وتانيا وكيت وكارمن على اعتبارهم جزءاً من أسرتنا!

لعل هذا أكبر تجمع ودي لمصاصي الدماء في التاريخ... بمعزل عن جماعة الفولتوري!

بدأنا جميعاً نشعر بشيء من الأمل. حتى أنا... لم أستطع تجنب ذلك! لقد اكتسبت رينيمي كثيراً من الأنصار في هذا الوقت القليل. ليس على الفولتوري إلا الإصغاء ثانية واحدة...

ما كان الرومانيان ـ آخر الباقين من الرومانيين ـ مهتمَّين إلا بحقدهما المرير تجاه من أطاحوا بحكمهم قبل ألف وخمسمئة عام... لقد قبلا أقوالنا دفعة واحدة. لم يقبلا لمس رينيمي... لكنهما لم يظهرا أي نفور منها. كما بدا عليهما حبور خفي لتحالفنا مع المستذئبين. راحا يراقبانني أتمرّن على درعي مع زافرينا وكيت... وراقبا إدوارد يجيب عن أسئلة طرحت عليه من غير كلام. وشاهدا بنجامين يجتذب دفقات حارة من مياه النهر الباردة... أو دفقات قوية من الريح، يحرّكها من الهواء الساكن... بقوة ذهنه وحدها. تألقت أعينهما بأمل حارق... برجاء أن يواجه الفولتوري من هو ند لهم.

ما كنا نأمل في الأمر نفسه... لكن الأمل كان يحدونا جميعاً.

33

تزوير

«تشارلي! مازال لدينا هؤلاء الضيوف الذين لا تحب أن تعرف شيئاً عنهم. أعرف أنك لم تر رينيمي منذ أكثر من أسبوع. لكن زيارتنا الآن ليست بالفكرة السديدة. ما رأيك في أن أجلبها إليك لتراها؟»

ظل تشارلي صامتاً عدة لحظات... هل لمس توتراً في صوتي؟

لكنه تمتم: «لا أحب أن أعرف شيئاً! أوف...» أدركت أن فزعه هو ما جعله يصمت طويلاً قبل أن يجيبني.

قال تشارلي: «لا بأس يا طفلتي! هل تستطيعين أن تأتي بها هذا الصباح؟ ستحضر سو لي طعام الغداء. إن طبخي يرعبها... تماماً كما أرعبك عند مجيئك أول مرة».

ضحك تشارلي ثم تنهد متحسراً على تلك الأيام.

«يناسبني أن نأتي هذا الصباح». هذا أفضل! فأنا أؤجل هذا الأمر منذ فترة طويلة.

«هل سيأتي جايكوب معكما؟»

ما كان تشارلي يعرف شيئاً عما يربط بين جايكوب ورينيمي... لكن ذلك الرابط كان واضحاً.

قلت: «ربما»... ما من طريقة لجعل جايكوب يتخلى طوعاً عن رفقة رينيمي بعيداً عن مصاصي الدماء.

قال تشارلي: «ربما أدعو بيلي أيضاً. لكن،... همم! ربما في مرة قادمة».

كنت أصغي إلى كلام تشارلي نصف منتبهة... لاحظت ذلك التردد الغريب في صوته عندما ذكر بيلي. لكنه ما كان شيئاً يستحق التوقف عنده. إنهما كبيران... فإذا كان بينهما شيء من الخلاف فلابد أنهما قادران على تسويته من غير تدخل. كانت تشغل بالي أمور أخرى أكثر أهمية.

قلت له: «أراك قريباً!»... ثم وضعت السماعة.

لم تكن غاية هذه الزيارة لتقتصر على حماية أبي من سبعة وعشرين مصاص دماء مجتمعين في منزلنا. لقد أقسموا كلهم على عدم قتل أي إنسان ضمن دائرة نصف قطرها خمسمئة كيلومتر! لكن، من الواضح أن من غير الجائز أن يقترب أي بشري من هذه المجموعة. كان هذا هو العذر الذي قدمته لإدوارد... سوف آخذ رينيمي إلى تشارلي حتى لا يأتي بنفسه إلى هنا. كان هذا سبباً وجيهاً لمغادرتي المنزل، لكنه ما كان السبب الحقيقي على الإطلاق.

قال جايكوب متذمراً عندما صرنا في المرآب: «لماذا لا نأخذ سيارة الفيراري؟»... كنت قد جلست في سيارة إدوارد... الفولفو... ومعي رينيمي.

لقد كشف لي إدوارد عن سيارتي الجديدة. وكما كان يتوقع... لم أستطع إظهار القدر المُرضي من الحماسة. صحيح أنها سيارة جميلة سريعة.. لكني كنت أفضل الجري.

قلت لجايكوب: «إنها باذخة زيادة عن اللزوم. تستطيع الذهاب على الأقدام... لكن هذا سوف يخيف تشارلي».

ظل جايكوب على تذمره لكنه جلس في المقعد الأمامي. انتقلت رينيمي من حضني إلى حضنه.

سألته عندما خرجنا من المرآب: «كيف حالك أنت؟»

سألني بنبرة لاذعة: «كيف تظنين حالي؟ سئمت مصاصي الدماء وروائحهم السيئة»... رأى تعبير وجهي فقال بسرعة قبل أن أتمكن من الإجابة... «نعم! أعرف... أعرف! إنهم طيبون... وهم هنا لمساعدتنا... سوف ينقذوننا جميعاً... إلخ... إلخ. قولي ما شئت... لكنني مازلت أرى أن دراكولا الأول ودراكولا الثاني... الرومانيين... مخيفَيْن تماماً».

كان عليّ أن أبتسم! فما كنت أحب هذين الشخصين بدوري: «لست أخالفك الرأي».

هزت رينيمي رأسها لكنها لم تقل شيئاً. لقد وجدت الرومانيين شخصيتين ساحرتين على نحو غريب! لقد قبلت التحدث إليهما بلسانها بعد أن رفضا السماح لها بلمسهما. وأخذت تسألهما عن اللون الغريب في جلديهما. خفت أن يزعجهما هذا السؤال لكنني كنت مسرورة لأنها سألت. كان الفضول يستبد بي... أنا أيضاً.

لكن إلحاحها لم يزعجهما. لعل شيئاً من الحزن بدا عليهما!

أجابها فلاديمير... وكان ستيفان يهز رأسه موافقاً من غير تعليق على عبارات فلاديمير: «كنا جالسين من غير حركة فترة طويلة من الزمن... كنا نتأمل في قداستنا! كان مجيء الجميع إلينا دليلاً على سلطاننا... كانت تأتينا قرابيننا... ويأتينا الدبلوماسيون... ومن يطلبون خدماتنا. كنا جالسين على عروشنا... حسبنا أنفسنا آلهة. مر زمن طويل قبل أن نلاحظ أننا نتغير... كأننا كنا نتحجر! أظن أن الفولتوري أحسنوا إلينا من ناحية واحدة عندما أحرقوا قلعتنا. ما عدنا نتحجر بعد ذلك... أنا وستيفان على الأقل! أما الآن فقد غطت طبقة من الغبار أعين الفولتوري... لكن أعيننا صافية. أظن أن هذا يمنحنا بعض التفوق عندما نقتلع عيونهم من محاجرها».

حاولت إبقاء رينيمي بعيدة عنهما بعد هذا الحديث!

سألني جايكوب: «كم من الوقت يمكن أن نبقى عند تشارلي؟»... قطع

أفكاري بهذا السؤال. كان استرخاؤه واضحاً عندما ابتعدنا عن المنزل بسكانه الجدد. أسعدني أنه لا يعدني من مصاصي الدماء. مازلت بيلا في نظره.

«سنبقى عنده وقتاً طويلاً».

لفتت نبرة صوتي انتباهه.

«هل ثمة شيء غير زيارة والدك؟»

«جايكوب أنت تعرف مقدار مهارتك في ضبط أفكارك فيما يتعلق بإدوارد».

رفع حاجبه مستغرباً: «نعم... ماذا؟»

أومأت برأسي مشيرة بعيني إلى رينيمي. كانت تنظر من النافذة... لا أدري مدى إصغائها إلى حديثنا! لكنني قررت عدم المخاطرة بقول أي شيء.

انتظر جايكوب أن أواصل كلامي... ثم مط شفتيه وهو يفكر في الكلمات القليلة التي سمعها مني.

مضت السيارة بنا... وكنا صامتين. كنت أنظر بصعوبة عبر عدساتي اللاصقة المزعجة... أنظر إلى المطر البارد. ما كانت البرودة كافية لجعله ثلجاً. ما عادت عيناي الآن فظيعتي اللون مثلما كانتا في البداية... صارتا أقرب إلى لون برتقالي محمر. سوف أتمكن من الاستغناء عن العدسات اللاصقة عما قريب. آمل ألا يزعج التغير تشارلي.

مازال جايكوب يفكر في كلماتي الغامضة. وصلنا إلى بيت تشارلي. لم نتكلم أثناء سيرنا بخطى بشرية سريعة تحت المطر. كان والدي ينتظرنا وقد فتح الباب لنا قبل أن نتمكن من قرعه.

«أهلاً بكم! أشعر أنني لم أركم منذ سنين! نيسي... تعالي إلى جدك! أقسم أنك كبرت أكثر من عشرة سنتيمترات... تبدين هزيلة يا نيسي»... رماني بنظرة ساخطة: «ألا يطعمونك هناك؟»

قلت له: «هذا بسبب سرعة نموها»... صحت من فوق كتفه: «مرحباً يا سو!»... شممت رائحة الدجاج والبندورة والثوم والجبن... كانت صادرة

من المطبخ. لعلها تبدو روائح لذيذة لغيري! شممت أيضاً رائحة الصنوبر وبعض الغبار.

ابتسمت رينيمي فظهرت غمازاتها... ما كانت تتكلم أمام تشارلي أبداً.

«ادخلوا يا أولاد! أين صهري؟».

قال جايكوب: «إنه يسلي أصدقاءه. أنت محظوظ جداً لأنك لست هناك يا تشارلي... لن أقول أكثر من هذا».

لكزت جايكوب لكزة خفيفة في خاصرته... أما تشارلي فانكمش على نفسه مكشراً.

تذمر جايكوب هامساً: «آخ!»... غريب! أظن أن لكزتي كانت خفيفة.

«الواقع يا تشارلي أن لدي بعض المشاغل التي يجب أن أنجزها».

نظر جايكوب إليّ لكنه لم يقل شيئاً.

«ألم تشتري هدايا عيد الميلاد حتى الآن يا بيلا؟ لم يعد أمامك إلا أيام قليلة».

قلت: «نعم! هدايا عيد الميلاد!»... هذا يفسر رائحة الغبار. لابد أن تشارلي قد أخرج الزينات القديمة وعلقها.

همس في أذن رينيمي: «لا تقلقي يا نيسي سوف أعطيك هدايا إذا نسيت أمك أن تجلب هدية لك».

رميته بنظرة استنكار... لكني لم أفكر في هذا الأمر أبداً من قبل.

نادت سو من المطبخ: «الغداء جاهز... تفضلوا!»

قلت له: «أراك عندما أعود يا أبي». تبادلت نظرة سريعة مع جايكوب. إذا لم يستطع الامتناع أمام إدوارد عن التفكير في سبب ذهابي... فليس عنده ما يوحي بشيء لإدوارد. إنه لا يعرف ما كنت ذاهبة من أجله.

جلست في السيارة... هل أعرف حقاً ما أنا ذاهبة من أجله؟»

كانت الطرقات زلقة مظلمة، لكني ما عدت أخاف قيادة السيارة كما كنت سابقاً. صارت ردود أفعالي سريعة جداً... نادراً ما كنت أهتم بتفاصيل

الطريق. كانت مشكلتي الوحيدة هي ألا أسرع على نحو يجذب الانتباه. أريد الانتهاء من مهمتي هذا اليوم... أريد أن أستوضح هذا الأمر حتى أستطيع العودة إلى التعلم. يجب أن أتعلم حماية نفسي... وقتل الآخرين.

صار تحكمي بدرعي أفضل من ذي قبل. ما عادت كيت تشعر بحاجة إلى تحفيزي. كان سهلاً بالنسبة لي أن أجد سبباً يجعلني أغضب. صرت أعرف الآن أن الغضب هو المفتاح... لذلك صرت أعمل مع زافرينا أكثر الوقت. كانت مسرورة بتقدمي فقد صرت قادرة على تغطية مسافة تتجاوز ثلاثة أمتار مدة أكثر من دقيقة... لكن هذا مازال يرهقني. كانت تحاول هذا الصباح أن تعرف مدى قدرتي على إبعاد الدرع عن نفسي. لم أفهم فائدة ذلك، لكن زافرينا رأت أن هذا يمكن أن يقويني... تماماً مثل تمرين عضلات الظهر والمعدة بدلاً من تقوية عضلات الذراعين. ففي النهاية يصبح المرء قادراً على حمل ثقل أكبر بعد أن تصبح عضلاته كلها أكثر قوة.

لم أحقق كبير نجاح في هذا الأمر. استطعت أن أرى لمحة واحدة من ذلك النهر الذي حاولت أن تجعلني أراه.

لكن ثمة طرق كثيرة من أجل الاستعداد لما هو آت... ما عاد أمامنا إلا أسبوعان فقط. قلقت من إهمالي هذا الأمر الهام. سوف أتدارك هذا الأمر اليوم.

حفظت في ذاكرتي خريطة المكان. كان سهلاً أن أصل إلى العنوان الذي لم أجده على الإنترنت... عنوان ج. جينكس! وسوف تكون خطوتي التالية الذهاب إلى جيسون جينكس في العنوان الآخر... العنوان الذي لم تسجله أليس.

لا يمكن الاكتفاء بالقول إن تلك المنطقة ما كانت منطقة لطيفة. تبدو أكثر سيارات أسرة كولن تواضعاً باذخة زيادة عن الحد المقبول في هذا الشارع. لعل سيارتي الشاحنة القديمة كانت لتبدو مناسبة هنا. لو كنت بشرية لأغلقت نوافذ السيارة وأقفلت أبوابها وأسرعت لأخرج بها من هذا الحي بأسرع ما

أستطيع. أما الآن فكنت مسحورة بعض الشيء. حاولت أن أتخيل سبب قدوم أليس إلى هذا المكان. . . لكنني فشلت!

كانت بيوت الشارع قديمة مقسمة إلى شقق متعددة. . . كانت كلها مباني ضيقة من ثلاثة طوابق. . . وكانت كلها مائلة قليلاً كأنها انحنت تحت ثقل المطر. يصعب تخمين اللون الأصلي للطلاء المتقشر عليها. صارت الألوان كلها لوناً رمادياً موحداً متعدد الدرجات. كان في بعض المباني محلات ومتاجر في الطابق الأول: بار قذر دهنت نوافذه باللون الأسود؛ ومحل لأدوات العرافة والسحر رسمت عليه بأضواء النيون يدين ممسكتين بأوراق اللعب؛ وصالون للوشم؛ ودار رعاية نهارية للأطفال يمسك نافذتها المتخلعة حبل طويل. لم أر إنارة داخل البيوت رغم أن ضوء الشمس كان خافتاً في الشارع بسبب الغيوم. . . خافتاً إلى حد يجعل البشر في حاجة إلى إنارة. سمعت أصواتاً تهمهم في البعيد. . . لابد أنه صوت صادر عن جهاز تلفزيون.

كان في الشارع بعض الناس. رأيت شخصين يسيران تحت المطر في اتجاهين مختلفين. . . وكان شخص آخر جالساً إلى مكتب خشبي عتيق في مدخل أحد البيوت يقرأ جريدة مبللة ويصفر. كان صوت الصفير أكثر بهجة من هذا الشارع.

شد هذا الرجل الصافر انتباهي فلم أدرك في البداية أن المبنى المهجور الذي يجلس في مدخله هو العنوان الذي أبحث عنه. ما كان على هذا المبنى المتداعي أي رقم، لكن الرقم الذي على صالون الوشم يتجاوزه برقمين فقط.

أوقفت السيارة بجانب الرصيف وأبقيت المحرك دائراً. سوف أخرج تحت المطر، لكن كيف أجعل هذا الرجل الصافر لا يلاحظني؟ أستطيع إيقاف السيارة في الشارع المجاور ثم أعود مشياً من الخلف. . . لكن، قد أجد شهوداً أكثر في الشارع الآخر! هل استخدم السطح؟ هل صارت الظلمة كافية من أجل ذلك؟

ناداني الرجل الصافر: «يا سيدة!»

أنزلت زجاج السيارة كما لو أنني لم أسمع ما قاله.

وضع الرجل الجريدة جانباً ففاجأتني ملابسه عندما صرت قادرة على رؤيتها. كان حسن الملبس فعلاً من تحت معطفه الطويل. كان الهواء ساكناً فلم أستطع شم الرائحة، لكن لمعة قميصه الأحمر الداكن بدت مثل لمعة الحرير. كان شعره المجعد مشعثاً ماضياً في كل اتجاه لكن جلده الأسمر كان نظيفاً ناعماً. وكانت أسنانه بيضاء مستقيمة. . . يا للتناقض!

قال: «لا يستحسن أن توقفي هذه السيارة هنا يا سيدة. فقد لا تجدينها عندما تعودين».

قلت له: «شكراً على هذا التحذير».

أطفأت المحرك وخرجت من السيارة. لعل صديقي الصافر قادر على إعطائي الإجابات اللازمة! فتحت مظلتي الرمادية الكبيرة. . . لا لأني أبالي بالمطر. . . بل لأحمي فستان الكشمير الضيق الطويل. هذا ما يفعله البشر.

نظر الرجل إلى وجهي عبر المطر المنهمر ثم رأيت عينيه تتسعان دهشة. رأيته يبتلع ريقه وسمعت قلبه يتسارع مع اقترابي منه.

قلت له: «أبحث عن شخص!»

قال مبتسماً: «أنا شخص! بماذا أخدمك أيتها الجميلة؟»

سألته: «هل أنت ج. جينكس؟»

تغير تعبير وجهه. . . صار متفهماً بعد أن كان متأهباً. . . مترقباً.

نهض واقفاً وراح يتفحصني: «لماذا تبحثين عنه؟»

«هذا شأني! هل أنت جينكس؟»

«لا».

رحنا نتبادل النظر لحظة طويلة. جرت عيناه على فستاني الضيق الطويل لؤلؤي اللون. عادت عيناه إلى وجهي أخيراً: «لا يبدو شكلك مثل الزبائن العاديين».

قلت له: «قد لا أكون عادية! لكني في حاجة إلى رؤيته بأسرع ما يمكن».

قال: «لا أعرف ماذا أفعل لك».

«لماذا لا تقول لي اسمك؟»

ابتسم وقال: «اسمي ماكس».

«لطيف أن أقابلك يا ماكس! الآن... لماذا لا تخبرني بما تفعله للزبائن العاديين؟»

تحولت ابتسامته إلى عبوس: «الواقع أن زبائن ج. العاديين لا يكون لهم مظهرك. من هم مثلك لا يأتون إلى هذا المكتب. إنهم يذهبون مباشرة إلى مكتبه الفاخر في ناطحة السحاب».

قلت له العنوان الآخر الذي حفظته... ذكرت ذلك العنوان على سبيل التساؤل.

قال وقد بدا على وجهه الشك من جديد: «نعم! هذا هو العنوان. لماذا لم تذهبي إلى هناك؟»

«لقد دلوني على هذا المكان... دلني مصدر موثوق!»

«لو كنت تريدين خيراً لما أتيت إلى هنا».

ضغطت على شفتي. ما كنت ماهرة في الخداع، لكن أليس لم تترك لي خياراً غير هذا: «لعلي لا أريد خيراً!»

ظهرت في عينيه نظرة اعتذار: «انظري... يا سيدة...»

«اسمي بيلا»

«انظري يا بيلا!... أنا في حاجة إلى هذه الوظيفة. يعطيني ج راتباً جيداً حتى أمضي معظم نهاري هنا. أريد مساعدتك... أريد مساعدتك، لكن... أنا أتكلم على سبيل الافتراض وأرجو أن لا تنقلي هذا الكلام على لساني... إذا سمحت لأحد بالمرور ثم سبب له أي مشكلة فسوف أفقد عملي. هل تدركين مشكلتي؟»

فكرت لحظة قصيرة وأنا أعض على شفتي: «ألم تر في هذا المكان أحداً

يشبهني من قبل؟ أحداً يشبهني بعض الشيء... أختي أقصر مني بكثير ولها شعر أسود مشعث».

«هل يعرفها ج؟»

«أظن أنه يعرفها».

فكر ماكس في هذا لحظة من الزمن. ابتسمت له فتسارع تنفسه: «سأقول لك ماذا سأفعل. سوف أتصل مع ج وأصف شكلك له. فليقرر بنفسه».

ما الذي يعرفه ج. جينكس؟ وهل يعني وصف شكلي أي شيء بالنسبة له؟ أربكتني هذه الفكرة.

قلت لماكس: «اسمي بيلا كولن». هل أفصحت عن معلومات أكثر مما يجب أن أفصح؟ بدأت أشعر بالانزعاج من أليس. هل كان من الضروري أن تتركني عمياء إلى هذا الحد؟ ليتها أعطتني كلمة أو اثنتين...

«كولن! سأقول له».

رحت أنظر إليه وهو يطلب الرقم. حفظت الرقم طبعاً. أستطيع الاتصال مع ج. جينكس بنفسي إذا لم ينجح اتصال ماكس.

«مرحباً ج! أنا ماكس. أعرف أنني لا يجوز أن أتصل معك على هذا الرقم إلا في الحالات الطارئة...»

سمعت صوتاً خافتاً من السماعة: «وهل هذه حالة طارئة؟»

«لا أدري على وجه التحديد! إنها فتاة تريد رؤيتك...»

«لا أرى شيئاً طارئاً في هذا! لماذا لم تتقيد بالإجراءات العادية؟»

«لم أتقيد بها لأنها لا تبدو عادية...»

«هل هي شرطية؟»

«لا...»

«لا يمكنك أن تكون واثقاً من ذلك! هل تبدو واحدة من جماعة كوباريف؟»

«لا... دعني أتكلم من فضلك! تقول إنك تعرف أختها... أو شيء من هذا القبيل».

«أستبعد هذا. كيف يبدو شكلها؟»

«إنها تبدو مثل. . . » جرت عيناه مجدداً من وجهي حتى قدمي. . . «إنها تبدو جميلة جداً. . . كأنها من عارضات الأزياء. . . هكذا تبدو!». . . ابتسمت له فغمز لي بعينه ثم تابع يقول: «جسمها مذهل. . . وهي بيضاء شاحبة. . . شعرها بني داكن يصل حتى خصرها. . . والظاهر أنها تعاني قلة النوم. . . هل يبدو شيء من هذا مألوفاً لديك؟»

«لا. . . لا يبدو لي هذا! لست مسروراً لأنك سمحت لضعفك أمام الجميلات بأن يقاطع. . . »

«نعم! أنا ضعيف أمام الجميلات! ما العيب في هذا؟ آسف لأنني أزعجتك. . . أرجو أن تنسى الأمر».

همست: «قل له اسمي».

قال ماكس: «آه صحيح! انتظر! تقول إن اسمها بيلا كولن! هل لهذا معنى؟»

مرت لحظة من الصمت المطبق. . . ثم بدأ الصوت في السماعة يصرخ مستخدماً كلمات كثيرة لا يسمعها المرء عادة إلا في أماكن وقوف سيارات الشاحنة. تغيرت تعابير وجه ماكس تماماً. اختفى المزاح كله وغدت شفتاه شاحبتين.

زعق ماكس في السماعة برعب: «لأنك لم تسألني!»

حلّ صمت جديد ريثما التقط ج أنفاسه. سأله بصوت أهدأ من ذي قبل: «هل قلت إنها جميلة شاحبة؟»

«نعم. . . قلت ذلك».

جميلة وشاحبة!. . . ماذا يعرف هذا الرجل عن مصاصي الدماء؟ أيكون مصاص دماء؟ ما كنت مستعدة لهذا اللقاء! شددت على أسناني. . . بماذا تورطني أليس؟

انتظر ماكس دقيقة كاملة ريثما انتهت موجة ثانية من الشتائم الزاعقة

والأوامر. . . ثم التفت إلي بعينين يكاد الخوف يملأهما وقال له: «لكنك لا تقابل زبائن مركز المدينة إلا يوم الخميس. . . طيب. . . طيب! سأفعل ذلك». أغلق الهاتف.

سألته مبتسمة: «هل يريد رؤيتي؟»

نظر إلي ماكس حانقاً: «أما كنت تستطيعين أن تخبريني أنك من الزبائن الذين لهم الأولوية دائماً؟»

«لم أعرف أنني واحدة منهم!»

قال: «ظننت أنك يمكن أن تكوني شرطية! أقصد. . . لا يبدو من شكلك أنك شرطية، لكنك تتصرفين بشكل غريب بعض الشيء. . . وأنت جميلة!»

رفعت كتفي.

«عصابة مخدرات؟»

سألته: «من؟ أنا!»

«نعم!. . . أو صديقك. . . أو أي شيء».

«لا. . . آسفة! أنا لا أحب المخدرات. . . ولا يحبها زوجي. . . لا!»

دمدم ماكس لنفسه هامساً: «متزوجة!. . . لا فرصة أمامي».

ابتسمت.

«مافيا!»

«لا».

«تهريب الماس؟»

«أرجوك!. . . هل هذا نوع الناس الذين تتعاملون معهم يا ماكس؟ لعل من الأفضل أن تجد لنفسك وظيفة أخرى».

علي أن أعترف. . . كنت مستمتعة بهذا بعض الشيء. لم أتحدث منذ فترة مع أي بشري عدا تشارلي وسو. من المسلي فعلاً أن أرى ارتباكه! كنت مسرورة أيضاً لسهولة تمكني من الامتناع عن قتله.

قال متسائلاً: «لابد أنك على علاقة بشيء كبير. . . سيئ».

«ليس الأمر كذلك حقاً»

«هذا ما يقوله الجميع. لكن، من عساه يحتاج وثائق مزورة غير هؤلاء؟ ومن يستطيع أن يدفع الأسعار التي يطلبها ج ثمناً لها غير هؤلاء؟ لكن، هذا ليس من شأني»... ثم همس لنفسه من جديد... «متزوجة!»

أعطاني عنواناً جديداً تماماً وزودني بالتوجيهات اللازمة للذهاب إليه. ثم راح ينظر إليّ بعينين شاكتين متحسرتين عندما انطلقت بسيارتي.

عند هذه النقطة صرت مستعدة لأي شيء تقريباً... لم يبد لي منفراً أن أفعل شيئاً من قبيل الذهاب إلى وكر أحد أشرار جيمس بوند! لعل ماكس أعطاني عنواناً خاطئاً! أو لعل ذلك الوكر قابع تحت الأرض... تحت هذه المجموعة من المحلات التجارية الواقعة في حي سكني لطيف!

أوقفت السيارة في فسحة فارغة ونظرت إلى لوحة صغيرة رفيعة الذوق كتب عليها «جيسون سكوت، محامي».

كان أثاث المكتب بنياً فيه لمسات نباتية خضراء لطيفة لا يكاد المرء يلاحظها. لم أشم رائحة مصاصي الدماء هنا وهذا ما ساعد أعصابي على الاسترخاء. لا شيء عدا رائحة بشر لا أعرفهم. كان في الصالة حوض أسماك وموظفة استقبال شقراء جميلة جالسة خلف مكتبها.

حيتني قائلة: «أهلاً! بم أخدمك؟»

«جئت لأرى السيد سكوت».

«هل لديك موعد؟»

«لا... ليس بالضبط».

ابتسمت ابتسامة صغيرة متعالية: «قد تضطرين إلى الانتظار في هذه الحالة. اجلسي ريثما...»

«إيبرل!»... زعق صوت خشن ملح من السماعة الموضوعة على مكتبها: «أنتظر وصول السيدة كولن».

ابتسمت مشيرة إلى نفسي.

«أدخليها فوراً. هل تفهمين؟ لا يهمني إن كان لدينا موعد آخر».

سمعت شيئاً آخر في صوته... عدا نفاد الصبر. لعله التوتر... القلق!

قالت إيبرل فور تمكنها من الكلام: «لقد وصلت الآن».

«ماذا؟ أدخليها! ماذا تنتظرين؟»

نهضت إيبرل ملوحة بيديها وهي تقول: «حالاً يا سيد سكوت»... قادتني عبر ممر قصير وهي تسألني إن كنت أحب أن أشرب القهوة أم الشاي أو شيء آخر.

قالت وهي ترشدني إلى باب مكتب باذخ فيه طاولة خشبية ضخمة: «تفضلي».

أمرها صوت مرتفع أجش: «أغلقي الباب خلفك».

رحت أنظر إلى الرجل الجالس خلف المكتب. أما إيبرل فتراجعت مسرعة وأغلقت الباب. كان قصيراً فيه بعض الصلع. لعله في الخامسة والخمسين... وله كرش. كان يرتدي ربطة عنق حريرية حمراء فوق قميص مخطط بالأبيض والأزرق... رأيت سترته الزرقاء معلقة على ظهر مقعده. كان يرتعد أيضاً... كان شاحب اللون... وكانت حبات من العرق ظاهرة على جبينه. تخيلت قرحة تقرض معدته تحت ذلك الكرش.

تمالك نفسه ونهض عن كرسيه بحركة غير مستقرة. مد يده من فوق المكتب.

«سيدة كولن! تشرفنا».

مضيت إليه وصافحته بسرعة. انكمش قليلاً لبرودة جلدي لكنها لم تبد مفاجئة له.

«سيد جينكس! أو... هل تفضل أن أدعوك سكوت؟»

كشر مبتسماً من جديد: «كما تريدين».

«لم لا تدعوني بيلا وأدعوك ج؟»

«مثل أصدقاء قدامى!» مسح جبهته بمنديل حريري. أشار لي بالجلوس ثم

جلس بدوره: «عليّ أن أسأل هذا السؤال. . . هل أنت زوجة السيد جاسبر الجميلة؟»

فكرت في ذلك لحظة. إنه يعرف جاسبر ولا يعرف أليس. يعرف جاسبر. . . ويبدو خائفاً منه أيضاً. . . «أنا زوجة أخيه في الواقع»

ضغط على شفتيه كأنه يبحث عن معنى هذا. . . تماماً مثلما كنت أبحث يائسة.

سألني بحذر: «آمل أن يكون السيد جاسبر في صحة جيدة».

«إنه في صحة ممتازة. إنه مسافر في إجازة طويلة».

يبدو أن هذه الجملة خففت شيئاً من ارتباكه. أومأ برأسه وجمع أصابعه: «هكذا! كان يجب أن تأتي إلى المكتب الرئيسي. لو ذهبت إليه لوصلك الموظفون بي مباشرة. . . لا داعي لسلوك طرق أقل راحة!»

أومأت برأسي. لا أعرف لماذا أعطتني أليس ذلك العنوان!

«لكنك هنا الآن. بم أخدمك؟»

قلت له: «وثائق!». . . حاولت أن أجعل صوتي يوحي بأنني أعرف عمّ أتحدث.

أجابني من فوره: «بالتأكيد! هل هي شهادات ميلاد أم وفاة أم قيادة أم جوازات سفر أم بطاقات أمنية خاصة. . .؟»

استنشقت نفساً عميقاً ثم ابتسمت. شكراً لماكس!

لكن ابتسامتي خبت بعد ذلك. أرسلتني أليس إلى هنا لسبب محدد. أعرف أنها أرسلتني من أجل حماية رينيمي. إنها هديتها الأخيرة لي. هدية تعرف أنني في حاجة إليها.

لن تحتاج رينيمي وثائق إلا في حالة الفرار. ولن يكون لديها سبب للفرار إلا إذا خسرنا المعركة.

إذا فررنا معها أنا وإدوارد فلن تكون في حاجة إلى هذه الوثائق. لابد أن إدوارد يعرف كيف يصنع الوثائق اللازمة بنفسه. ولابد أنه يعرف سبلاً للفرار

من غير حاجة إلى وثائق. نستطيع أن نجري معها آلاف الكيلومترات. ونستطيع السباحة معها لاجتياز المحيط.

هذا إذا كنا موجودين من أجل إنقاذها!

ثم هذه السرية كلها بحيث لا يعرف إدوارد شيئاً! ثمة فرصة كبيرة لأن يعرف آرو كل ما يعرفه إدوارد. إذا انهزمنا فسوف يحصل آرو على كل ما يريد من معلومات قبل أن يقتل إدوارد.

هكذا كنت أظن! لن نستطيع الفوز! لكن علينا أن نتمكن من قتل ديمتري قبل أن ننهزم حتى تمنح رينيمي فرصة للهرب.

أحسست أن صخرة ضخمة استقرت في صدري مكان قلبي الهامد. صخرة هائلة الوزن! خبت آمالي كلها كما يذوب الضباب تحت ضوء الشمس. أحسست بالحرقة في عيني.

أي اسم أضع في هذه الوثائق؟ تشارلي!. . . لكنه بشري لا يستطيع دفاعاً عن نفسه. ثم كيف أستطيع أن أجعل رينيمي تصل إليه؟ لن يكون قريباً من ميدان المعركة. ليس أمامي إلا شخص واحد. ما كان أمامي غيره منذ البداية.

دارت هذه الأفكار في رأسي بسرعة كبيرة جعلت ج لا يلاحظ أي انقطاع في كلامي. . . قلت له بصوت منخفض واضح: «أريد شهادتي ميلاد وجوازي سفر ورخصة قيادة».

لعله لاحظ تغيراً في قسمات وجهي. . . لكنه تظاهر بعدم ملاحظة شيء.

«أعطني الأسماء».

«جايكوب. . . وولف. و. . . فانيسا وولف». يبدو اسم نيسي تصغيراً ملائماً لفانيسا. وسوف يحتفظ جايكوب في اسمه بشيء من الذئب.

سجل قلمه هذه الأسماء على ورقة رسمية أمامه. . . «أريد الاسم الأوسط».

«ضع اسماً تراه ملائماً».

«كما تريدين. العمر؟»

«سبعة وعشرون عاماً للرجل وخمسة أعوام للفتاة». يستطيع جايكوب أن يتدبر أمره على هذا النحو. إنه ضخم. ومع سرعة نمو رينيمي... أظن أنه يستطيع أن يكون أباها بالتبني».

قال ج مقاطعاً أفكاري: «أنا في حاجة إلى الصور إذا كنت تريدين وثائق مكتملة. لكن السيد جاسبر يحب عادة أن يكمل الوثائق بنفسه».

آه!... لهذا لا يعرف شكل أليس.

قلت له: «انتظر لحظة».

حظي طيب! كان في محفظتي عدد من صورنا العائلية... وما كان عمر صورة جايكوب حاملاً رينيمي أكثر من شهر واحد. لقد أعطتني إياها أليس قبل أيام قليلة... أوه! لعل الحظ لا شأن له بهذا! كانت أليس تعرف أنني في حاجة إلى هذه الصورة. بل لعلها كانت تعرف أنني سأحتاجها حتى قبل أن تعطيني إياها.

«تفضل».

نظر ج إلى الصورة لحظة ثم قال: «ابنتك تشبهك تماماً».

توترت: «بل تشبه والدها أكثر مني».

«هذا ليس والدها»... لمس صورة جايكوب بإصبعه.

ضاقت عيناي فنفرت حبات عرق جديدة من جبينه.

«لا! إنه من أصدقاء الأسرة المقربين».

غمغم: «سامحيني!»... وبدأ قلمه يكتب من جديد... «متى تريدين هذه الوثائق؟»

«هل تكون جاهزة بعد أسبوع؟»

«هذه طلبية مستعجلة إذن! سوف تكون الكلفة مضافة... لكن، سامحيني. نسيت مع من أتحدث الآن».

واضح أنه يعرف جاسبر.

قلت: «اعطني رقماً».

بدا متردداً في نطق الرقم بصوت مرتفع مع أني كنت واثقة... لأنه تعامل مع جاسبر... من يقينه أن السعر ليس مشكلة... فالإضافة إلى تلك الحسابات المصرفية الضخمة المنتشرة في العالم كله بأسماء أفراد الأسرة جميعاً... ثمة في المنزل أموال مكدسة تكفي بلداً صغيراً سنوات كثيرة. كان هذا يذكرني بمئات خطافات صيد الأسماك التي كنت أجدها في أي درج في منزل تشارلي. أشك في أن أحداً يمكن أن يلاحظ غياب تلك الحزمة الصغيرة التي أخذتها استعداداً لهذا اليوم.

سجل ج الرقم على ورقة أمامه. أومأت برأسي موافقة... بكل هدوء. أحمل أكثر من هذا المبلغ! فتحت حقيبتي وعددت المبلغ اللازم... خمسة آلاف دولار. عددتها بسرعة كبيرة.

«تفضل!»

«أوه! بيلا! لا داعي لدفع كامل المبلغ الآن. يمكنك الاحتفاظ بنصفه لتضمني استلام الوثائق».

ابتسمت لذلك الرجل المتوتر ابتسامة باهتة: «لكني واثقة فيك يا ج... وسوف أعطيك مبلغاً إضافياً... سأعطيك المبلغ نفسه عندما أستلم الوثائق».

«أؤكد لك أن لا حاجة إلى هذا».

«لا تشغل بالك بهذا الأمر. إذن، أراك هنا في الأسبوع القادم... في نفس التوقيت!»

رماني بنظرة مذعورة: «الواقع... أفضل تسليم الوثائق في مكان لا علاقة له بأعمالي».

«مفهوم! لابد أنني أتصرف بغير الطريقة التي تتوقعها».

«اعتدت على عدم توقع أي شيء عند التعامل مع أسرة كولن»... كشر مبتسماً ثم استعاد هدوء وجهه من جديد: «هل أراك في الثامنة مساء بعد أسبوع من الآن في مطعم باسيفيكو؟ إنه عند البحيرة... وطعامه شهي».

«ممتاز!». . . لن أتناول طعامي معه. . . من المؤكد أنه لن يستمتع بذلك.

نهضت وصافحته من جديد. لم ينكمش لبرودة يدي هذه المرة. لكن شبح قلق جديد ظهر على وجهه. تقلص فمه وتوتر ظهره.

سألته: «هل من مشكلة بسبب ضيق الوقت؟»

«ماذا؟». . . رفع رأسه وقد فاجأه سؤالي. . . «ضيق الوقت. . . أوه! لا. إطلاقاً. سوف تكون الوثائق جاهزة بكل تأكيد».

ليت إدوارد كان هنا لأعرف السبب الحقيقي لقلق هذا الرجل. تنهدت. . . ما أسوأ كتم الأسرار عن إدوارد. . . وما أسوأ الابتعاد عنه هذه الفترة كلها.

«إذن، أراك بعد أسبوع».

34

إعلان مواقف

سمعت صوت الموسيقى قبل أن أخرج من السيارة. لم يلمس إدوارد البيانو منذ ليلة رحيل أليس. بعد أن أغلقت باب السيارة سمعت الموسيقى تتبدل عند إحدى الوصلات. . . جاءني الآن صوت أغنيتي. كان إدوارد يرحب بعودتي!

مشيت ببطء. . . كنت أحمل رينيمي غارقة في نوم عميق. لقد أمضينا طيلة اليوم في الخارج. تركنا جايكوب عند تشارلي. قال إنه ذاهب إلى البيت مع سو. لعله كان يحاول ملء رأسه بقدر من التوافه يكفي لأن يطرد منه صورة وجهي عندما دخلت إلى بيت تشارلي.

في سيري البطيء نحو المنزل أدركت أن تلك النفحة من الأمل التي كانت مثل هالة مرئية تحيط بالمنزل الكبير كله ما كانت إلا هالة تفاؤل هذا الصباح. أما الآن فقد أحسستها غريبة عني.

وددت لو أستطيع البكاء من جديد عندما سمعت إدوارد يعزف من أجلي. لكني تمالكت نفسي. لم أرد إثارة شكوكه. لن أترك في ذهنه شيئاً يمكن أن يجده آرو فيستفيد منه.

أدار إدوارد رأسه مبتسماً عندما دخلت من الباب. . . لكنه واصل العزف. قال. . . وكأن هذا اليوم يوم عادي مثل بقية الأيام: «أهلاً بعودتك». . .

كما لو أن الغرفة لا تحوي اثني عشر مصاص دماء منشغلين بأمور شتى. . . واثني عشر غيرهم موزعين. . . لست أدري أين! . . . «هل أمضيت وقتاً طيباً مع تشارلي؟»

«نعم! آسفة لغيابي هذه المدة كلها. لقد ذهبت لأشتري هدية عيد الميلاد لرينيمي. أعرف أن هذه المناسبة ليست هامة الآن، لكن. . .» صمت ورفعت كتفي.

مط إدوارد شفته. توقف عن العزف واستدار فصار جسده قبالتي تماماً. وضع يده على خصري وشدني صوبه: «لم أفكر في هذا الأمر. إذا كنت تريدين أن نحتفل. . .»

قاطعته: «لا!». . . انكمشت في داخلي لفكرة التظاهر بأكثر من الحد الأدنى من الحماسة. . . «لكني لا أريد أن تمر هذه المناسبة من غير هدية لرينيمي».

«هل أستطيع رؤيتها؟»

«إذا أردت! إنها شيء بسيط».

كانت رينيمي نائمة تشخر شخيراً لطيفاً عند رقبتي. هل أحسدها؟ ما أحسن أن يستطيع المرء الهروب من الواقع. . . ولو عدة ساعات فقط.

فتحت حقيبتي المخملية الصغيرة. . . فتحتها قليلاً حتى لا يرى إدوارد المال الذي معي: «لفتت نظري عندما رأيتها في واجهة أحد المحلات أثناء مروري بالسيارة».

وضعت العلبة الذهبية الصغيرة في كفه. كانت مستديرة لها حافة رقيقة محفور عليها ما يشبه الكرمة على حافتها الخارجية. فتحها إدوارد ونظر في داخلها. كان فيها متسع لصورة صغيرة. . . وكانت كتابة فرنسية منقوشة على وجهها الآخر.

سألني بنبرة صوت مختلفة. . . أكثر حزناً من ذي قبل: «هل تعرفين ما تقوله هذه العبارة؟»

«قال لي البائع إنها تقول شيئاً من قبيل. . . أكثر من حياتي نفسها. . . هل هذا صحيح؟»

«نعم. . . هذا هو معناها».

رفع رأسه ناظراً إلي. . . اخترقتني عيناه البنيتان. واجهت نظراته لحظة ثم تظاهرت بالنظر إلى التلفزيون وتمتمت: «أتمنى أن تعجبها».

قال بصوت عادي: «ستعجبها طبعاً». . . لكنني كنت واثقة في تلك اللحظة من أنه أدرك أنني أكتم عنه أمراً. كنت واثقة أيضاً أنه لم يحدس ذلك الأمر.

رفع كتفيه وهو يقف ويضع ذراعيه حول كتفي: «فلنأخذها إلى كوخنا».

ترددت قليلاً فسألني: «ماذا؟»

«كنت أريد أن أتدرب قليلاً مع إيميت. . .» لقد أهدرت هذا اليوم كله من أجل مهمتي الضرورية. وهذا ما جعلني أشعر بالتقصير.

كان إيميت جالساً على الأريكة مع روزالي ممسكاً بجهاز تحكم التلفزيون. رفع رأسه ونظر مستبشراً: «رائع! إن الغابة بحاجة إلى تحطيم بعض الأشجار».

نظر إدوارد متجهماً صوب إيميت ثم صوبي.

قال: «ثمة متسع من الوقت غداً».

قلت متذمرة: «لا تكن سخيفاً. ليس لدينا متسع من الوقت بعد الآن. لم يعد هذا المفهوم موجوداً! لدي أمور كثيرة أتعلمها. . .»

قاطعني بصوت جازم: «غداً!»

كان شديد الجزم إلى درجة منعت إيميت نفسه من مجادلته.

فوجئت بمدى صعوبة عودتي إلى نمط حياتي الروتيني الذي كان جديداً تماماً. . . بعد كل حساب. لكن التخلي عن ذلك الأمل الواهي الذي كنت أرعاه جعل كل شيء يبدو غير معقول في نظري.

حاولت التركيز على الإيجابيات. ثمة فرصة طيبة لنجاة ابنتي من ذلك

الآتي... ولنجاة جايكوب أيضاً. إذا كان لهما مستقبل فسوف يكون هذا نصراً لنا! سوف تستمر مجموعتنا الصغيرة في تماسكها إذا حظي جايكوب ورينيمي بفرصة للهرب. نعم!... لا معنى لاستراتيجية أليس إذا لم نتمكن من القتال جيداً. وسوف يكون هذا نوعاً من الانتصار أيضاً... لم يسبق أن تحدى أحد الفولتوري تحدياً جدياً منذ أكثر من ألف عام.

لكن هذا لن يكون نهاية العالم. سيكون نهاية أسرة كولن... فقط. نهاية إدوارد... ونهايتي.

كنت أفضل الأمر على هذا النحو... الجزء الأخير على الأقل! لن أعيش من غير إدوارد. إذا غادر هذا العالم فسوف ألحق به.

رحت أتساءل من حين لآخر... متكاسلة... إن كان ثمة شيء من أجلنا على الناحية الأخرى. أعرف أن إدوارد لا يؤمن بهذا... لكن كارلايل يؤمن به. ما كنت أستطيع تخيله أيضاً. لكني ما كنت أستطيع تخيل أن لا يكون إدوارد موجوداً في مكان ما. إذا استطعنا أن نكون معاً في ذلك المكان، فسوف تكون نهاية سعيدة إذن!

هكذا... استمرت أيامي... لكنها كانت أقسى من ذي قبل.

ذهبنا لرؤية تشارلي يوم الميلاد... أنا وإدوارد ورينيمي وجايكوب. كان قطيع جايكوب كله مجتمعاً في بيت تشارلي. ما أحسن وجودهم هناك في غرف بيت تشارلي الصغيرة... كانت أجسادهم الحارة الضخمة موزعة في زوايا المكان من حول شجرته بزيناتها القليلة (كان واضحاً تماماً أين داهم الملل تشارلي فكف عن تزيينها) كانت قطع الأثاث تضيق بأجسادهم. يمكن الاعتماد دائماً على صخب واستثارة المستذئبين قبيل المعركة... مهما تكن معركة انتحارية. كانت كهرباء وجودهم نفسه تبث تياراً لطيفاً خبأت قلة بهجتي من خلفه. أما إدوارد فكان... كعادته... ممثلاً أحسن مني.

وضعت رينيمي الإطار الذي جلبته لها حول رقبتها منذ الصباح الباكر. وفي جيب سترتها كان جهاز (MP3) الذي جلبه لها إدوارد... شيء صغير

فيه خمسة آلاف أغنية... كلها من أغاني إدوارد المفضلة. وحول معصمها التف سوار من جدائل جلدية دقيقة... كان هذا ما يقابل خاتم الوعد بالخطبة عند الكويليت. صر إدوارد على أسنانه غاضباً عندما رآه... لكني لم أكترث لوجوده.

قريباً... قريباً جداً... سوف أعطيها لجايكوب حتى يحفظها. فكيف يزعجني هذا الرمز... ورمز الالتزام الذي أراهن عليه؟

أنقذني إدوارد... لقد جلب هدية لتشارلي أيضاً... وصلت الهدية مساء أمس فأمضى تشارلي طيلة الفترة الصباحية في قراءة دليل الاستخدام... كانت الهدية نظاماً بالسونار لصيد الأسماك.

لابد أن طعام سو كان شهياً... هذا واضح من جلسة المستذئبين. كيف يبدو هذا المشهد لمراقب خارجي؟ هل نؤدي أدوارنا بشكل جيد؟ ألا يظننا شخص غريب جماعة سعيدة من الأصدقاء تحتفل بالمناسبة بالقدر المعتاد من البهجة؟

أظن أن راحة جايكوب وإدوارد لحظة حان وقت الذهاب ما كانت أقل من راحتي. ما كنت مرتاحة لإنفاق طاقتي على ادعاء هذا المظهر البشري في حين كانت لدي أشياء هامة كثيرة أفعلها. لكن... قد تكون هذه آخر مرة أرى فيها تشارلي! لعل من الخير أنني كنت ذاهلة فلم أنتبه لهذه الحقيقة.

لم أر أمي منذ زفافي، لكني سعيدة الآن لهذا البعد التدريجي الذي بدأ ينمو بيننا منذ عامين. إنها أضعف من أن تتعامل مع عالمي الجديد. ما كنت أريد أن يكون لها أي دور في هذا كله. أما تشارلي... فهو أقوى منها.

لعل قوته كافية من أجل الوداع الآن... لكن قوتي ليست كافية أبداً.

كنا هادئين تماماً أثناء عودتنا بالسيارة. وفي الخارج كان المطر يهطل رذاذاً... يحوم عند الحد الفاصل بين المطر والثلج. كانت رينيمي جالسة في حضني تلهو بالإطار المعلق في رقبتها... تفتحه ثم تغلقه. رحت أنظر إليها

وأتخيل ما كان يمكن أن أقوله لجايكوب الآن لولا أنني أريد بقاء كلماتي بعيداً عن متناول ذهن إدوارد.

إذا نعمتما بالأمان من جديد فخذها إلى تشارلي. أخبره بالقصة كلها يوماً من الأيام. قل له كم أحبه... كم كان فراقه صعباً حتى بعد أن انتهت حياتي البشرية. قل له إنه أفضل الآباء جميعاً. قل له أن ينقل حبي إلى رينيه... كم آمل أن تكون سعيدة...

عليّ تسليم الوثائق إلى جايكوب قبل أن يتأخر الوقت. سأعطيه رسالة لتشارلي أيضاً. ورسالة من أجل رينيمي. شيئاً تقرأه عندما لا أعود قادرة على إخبارها بمدى حبي.

ما كان شيء غير طبيعي يبدو على منزل أسرة كولن من الخارج عندما بلغنا المرج. لكنني سمعت صوت جدل يدور بصوت خفيض في الداخل. سمعت أصواتاً خافتة تتمتم وتزمجر. بدا ذلك الجدل متوتراً. استطعت التقاط صوتي كارلايل وآمون!

أوقف إدوارد السيارة أمام المنزل بدلاً من الذهاب بها إلى المرآب. تبادلنا نظرات قلقة قبل أن نترجل من السيارة.

تغير وضع جايكوب... صار وجهه جاداً... حذراً. لابد أنه انتقل إلى مزاجه الآخر... الزعيم! واضح أن شيئاً حدث... وسوف يحصل على المعلومات التي يجب أن يعرفها هو وأن يعرفها سام أيضاً.

تمتم إدوارد عندما صعدنا الدرجات المؤدية إلى الباب: «لقد رحل ألستير».

دخلنا الغرفة... كانت المواجهة الرئيسية واضحة تماماً. كان عدد من المتفرجين يقفون عند الجدار... كل مصاصي الدماء الذين انضموا إلينا... عدا ألستير وعدا الثلاثة المتجادلين. كانت إيزمي وكيبي وتيا واقفات أقرب إلى مصاصي الدماء الثلاثة في وسط الغرفة. وكان آمون يهمس متوتراً لكارلايل وبنجامين.

شد إدوارد على أسنانه وذهب سريعاً ليقف إلى جانب إيزمي... جرني من يدي. أحكمت شد رينيمي إلى صدري.

قال كارلايل بصوت هادئ: «اسمع يا آمون... إذا كنت تريد الذهاب فلن يجبرك أحد على البقاء هنا».

زعق آمون: «أنت تسرق نصف جماعتي يا كارلايل». أشار بإصبعه إلى بنجامين... «ألهذا دعوتني؟ لتسرقهم مني؟»

تنهد كارلايل وراح بنجامين ينظر إلى آمون مستغرباً ضجراً.

قال بنجامين متهكماً: «نعم! لقد اخترع كارلايل مشكلة مع الفولتوري وعرّض أسرته كلها إلى الخطر حتى يغريني بالقدوم إلى هنا لمواجهة الموت. كن منطقياً يا آمون! أعتزم أن أفعل ما أراه صواباً... لست أنضم إلى جماعة أخرى. في وسعك أن تفعل ما تريد طبعاً... كما قال لك كارلايل».

زمجر آمون: «لن تكون لهذا نهاية حسنة. كان ألستير الشخص الوحيد العاقل بيننا. علينا أن نفر جميعاً».

تمتمت تيا بصوت خفيض: «فكر في ذلك الذي تدعوه عاقلاً!»

«سوف تذبحون جميعاً!»

قال كارلايل بصوت حازم: «لن يصل الأمر إلى القتال».

«أنت تتخيل هذا!»

«إذا جرى قتال... يمكنك الانتقال إلى المعسكر الآخر يا آمون. أنا واثق من أن الفولتوري سيقدرون لك ذلك».

زمجر آمون: «لعل هذا هو الحل!»

جاءت إجابة كارلايل لطيفة صادقة: «لن أحسب عليك هذا الموقف يا آمون. نحن أصدقاء منذ زمن طويل... لكنني لن أطلب منك التضحية بحياتك من أجلي».

جاء صوت آمون مضبوطاً أكثر من ذي قبل: «لكنك تجعل بنجامين يموت معك».

وضع كارلايل يده على كتف آمون فنفضها آمون عنه.

«سوف أبقى يا كارلايل... لكن بقائي قد لا يكون في مصلحتك. سوف انضم إليه إذا كان هذا طريق نجاتي. أنتم حمقى جميعاً إن ظننتم أنكم قادرون على عصيان الفولتوري»... قال هذا عابساً ثم نظر إليّ وإلى رينيمي وأضاف بنبرة حانقة... «سوف أشهد أن الطفلة كبرت أمامي. إنها الحقيقة. وقد رآها الجميع».

«لم نطلب منك غير هذا».

قال آمون مكشراً: «لكنك حصلت على ما هو أكثر من هذا... كما يبدو»... استدار ناحية بنجامين... «لقد وهبتك الحياة... أما أنت فتهدرها»!

بدا وجه بنجامين أكثر برودة مما بدا لي في أي وقت سابق. كانت أسارير وجهه نقيض قسماته الطفولية: «من المؤسف أنك لم تستطع وضع إرادتك محل إرادتي أثناء تلك العملية. لعلك كنت ترضى عني في تلك الحالة!»

ضاقت عينا آمون وأشار إلى كيبي ثم خرجا من الباب الأمامي.

قال إدوارد لي بصوت هادئ: «ليسوا راحلين! لكنه سيظل مبتعداً... أكثر من ذي قبل. ما كان مازحاً عندما تحدث عن الانضمام إلى الفولتوري».

همست: «لماذا رحل ألستير؟»

«لا أحد يعرف الإجابة على وجه الدقة. لم يترك أي رسالة. يفهم من كلامه أنه يرى المعركة أمراً حتمياً، على الرغم من سلوكه الظاهري... لا يسمح له حبه لكارلايل بأن يقف في صف الفولتوري. أعتقد أنه قرر أن الخطر كبير جداً».

كان الجميع قادرين طبعاً على سماعنا رغم أن خصوصية حديثنا كانت واضحة تماماً. أجاب إليازر على ملاحظة إدوارد كما لو أنها موجهة إليه.

«فهمت من كلامه أن الأمر يتجاوز ذلك قليلاً. لم يتحدث كثيراً عن

برنامج الفولتوري، لكنه يظن أنهم لن يصغوا إلينا مهما تكن قوة حجتنا. يظن أنهم سيجدون حجة يحققون أهدافهم من خلالها».

راح مصاصو الدماء يتبادلون نظرات قلقة. ما كانت فكرة تلاعب الفولتوري بقانونهم المقدس من أجل تحقيق المكاسب فكرة مقبولة عندهم. أما الرومانيان فقد حافظا على هدوئهما... كانت على وجهيهما ابتسامة صغيرة ساخرة. كأنهما وجدا شيئاً مسلياً في رغبة الآخرين في المحافظة على فكرة جيدة عن أعدائهم القدامى.

بدأت مناقشات كثيرة منخفضة الصوت في تلك اللحظة، لكنني رحت أصغي إلى الرومانيين. ربما لأن فلاديمير ذا الشعر الأشقر كان ينظر إليّ من لحظة لأخرى.

قال ستيفان لفلاديمير: «آمل أن يكون ألستير مصيباً في توقعه. سوف ينتشر الخبر مهما تكن النتيجة. حان الوقت لكي يرى العالم الفولتوري على حقيقتهم. لن يسقطوا أبداً إذا ظل الجميع مصدقين هذا الكلام الفارغ عن محافظتهم على نمط حياتنا».

أجابه فلاديمير: «عندما كنا في الحكم، كنا صادقين ولم نموه أنفسنا على الأقل».

أومأ ستيفان موافقاً: «ما كنا أبداً نضع قبعات بيضاء وندعو أنفسنا قديسين».

قال فلاديمير: «أظن وقت المعركة قد حان. هل تتخيل أن نجد قوة أكبر من هذه حتى نقف معها؟ هل تتخيل فرصة أخرى كمثل هذه الفرصة؟»

«لا شيء مستحيل... ربما... ذات يوم...»

«نحن ننتظر منذ ألف وخمسمئة عام يا ستيفان! وهم يزدادون قوة مع مر السنين»... توقف فلاديمير قليلاً ونظر إليّ من جديد. لم تظهر عليه أي دهشة عندما رآني أنظر إليهما بدوري... «إذا انتصر الفولتوري في هذه المعركة فسوف يصبحون أكثر قوة. إن قوتهم تزداد مع كل نصر. فكر فيما

يمكن أن تمنحهم إياه هذه المولودة حديثاً». . . أشار بذقنه ناحيتي. . . «مازالت في بداية تعرفها على قدراتها. ولديك هذا الذي يحرك الأرض». . . أشار إلى بنجامين الذي تجمد فجأة. كانت آذان جميع الحاضرين تقريباً معلقة بحديثهما. . . مثلي. . . «فإذا أضفت إليهما هاتين الساحرتين فلن يعود ثمة حاجة إلى ذلك المخادع المضلل وتلك الحارقة اللذين مع الفولتوري الآن». . . قال هذا وهو يشير بعينيه إلى زافرينا وكيت.

نظر ستيفان إلى إدوارد: «صحيح أن قارئ الأفكار لن يكون ضرورياً لهم. لكني أفهمك تماماً. سوف يربحون كثيراً إذا انتصروا».

«هذا أكثر مما نستطيع السماح به. . . ألست توافقني».

تنهد ستيفان: «أظن أن علي أن أوافقك. وهذا يعني. . .»

«يعني أن علينا مواجهتهم طالما أن لدينا أملاً».

«إذا تمكنا من إعاقتهم قليلاً. . . أو من كشفهم قليلاً. . .»

«عند ذلك. . . سيأتي غيرنا ذات يوم لينجزوا المهمة كلها».

«وسوف نحقق انتقامنا الذي طال انتظاره».

التحمت أعينهما لحظة قصيرة ثم تمتما معاً: «يبدو أنه السبيل الوحيد».

قال ستيفان: «سنقاتل إذن!»

كنت أراهما ممزقين. . . كنت أرى غريزة البقاء تصارع غريزة الانتقام. . . لكن الابتسامة التي تبادلاها كانت مفعمة بالأمل.

أجابه فلاديمير: «سوف نقاتل».

أظن أن هذا أمر جيد. كنت واثقة، مثل أليستير، أن تجنب المعركة أمر مستحيل. في تلك الحالة، يفيدنا وجود مقاتلَيْن إضافيين معاً. لكن قرار الرومانيين جعلني أرتعد. . . رغم ذلك.

قالت تيا: «سوف نقاتل أيضاً». . . كان صوتها الجاد أكثر جدية من أي وقت مضى. . . «نعتقد أن الفولتوري سوف يتجاوزون سلطاتهم. لسنا نريد الانتماء إليهم بعد الآن». اتجهت عيناها نحو رفيقها.

نظر بنجامين إلى الرومانيين نظرة خبيثة مداعبة: «من الواضح أنني سلعة مرغوب فيها. يبدو أن علي القتال حتى أفوز بحقي في أن أكون حراً».

قال غاريت بصوت متاكف: «لن تكون المرة الأولى التي أقاتل فيها حتى أظل بعيداً عن سلطان الملوك». . . سار إلى بنجامين وربت على ظهره. . . «من أجل الخلاص من الاضطهاد».

قالت تانيا: «نحن مع كارلايل. وسوف نقاتل معه».

الظاهر أن ما قاله الرومانيان جعل الآخرين راغبين في التعبير عن مواقفهم أيضاً.

قال بيتر: «لم نقرر بعد». . . . نظر إلى رفيقته الصغيرة. . . كانت شفتا شارلوت تعبران عن عدم رضاها. يبدو أنها اتخذت قرارها. . . فما هو يا ترى؟

قال راندال: «وأنا أيضاً».

أضافت ماري: «وأنا أيضاً».

قال جايكوب فجأة: «سوف يقاتل قطيع الذئاب مع أسرة كولن». ثم أضاف مبتسماً: «نحن لا نخاف مصاصي الدماء».

تمتم بيتر: «أولاد!»

قال راندال مصححاً: «بل أطفال!»

ابتسم جايكوب ابتسامة استخفاف.

قالت ماجي وهي تنفلت من تحت يد سيوبهان: «أنا مع كارلايل أيضاً. أعرف أن الحقيقة والصواب في صفه. لا أستطيع تجاهل هذا».

نظرت سيوبهان إلى أصغر أفراد جماعتها بعينين قلقتين. قالت كما لو أنها وحدها. . . تجاهلت الطابع الرسمي المفاجئ لهذا الاجتماع. . . تجاهلت ذلك الفيض غير المتوقع من التصريحات: «كارلايل! لا أريد أن يتحول الأمر إلى معركة».

أجابها كارلايل نصف مبتسم: «وأنا لا أريد هذا... مثلك يا سيوبهان. تعرفين أن هذا أبعد الأشياء عما أريد. لعل من الأفضل أن تركزي على المحافظة على الطابع السلمي للقائنا معهم».

قالت: «تعرف أن هذا لن يكون مجدياً».

تذكرت حديث روز وكارلايل عن زعيمة الإيرلنديين. يظن كارلايل أن سيوبهان تملك قدرة خفية... لكنها جبارة... على جعل الأمور تسير في الاتجاه الذي تريده هي... لكن سيوبهان غير واثقة من نفسها.

قال كارلايل: «لن تضرنا محاولتك».

قالت سيوبهان بنبرة مستغربة... متسائلة... ساخرة: «فهل أتخيل النتيجة التي أرغب فيها؟»

ابتسم كارلايل ابتسامة عريضة: «إذا لم يكن لديك مانع».

قالت: «إذن، لا حاجة لأن تعلن جماعتي موقفها، أليس كذلك؟ لن تكون هناك فرصة لنشوب قتال». عادت تضع يدها على كتف ماجي... شدتها لتقترب منها. كان رفيق سيوبهان، ليام، يقف صامتاً لا يشي وجهه بشيء.

بدا كل من الغرفة تقريباً مسحوراً بمزاح كارلايل وسيوبهان. لكنهم لم يعلنوا مواقفهم.

هكذا انتهت تلك الكلمات الدرامية في ذلك اليوم. تفرقت الجماعة بطيئاً... ذهب البعض إلى الصيد... وذهب البعض الآخر لتزجية الوقت مع كتب كارلايل أو التلفزيون أو الكمبيوتر.

ذهبنا إلى كوخنا. وسار جايكوب معنا.

راح يتمتم لنفسه عندما خرجنا من البيت... «يا للطفيليين الأغبياء! يظنون أنهم متفوقون جداً».

قال إدوارد: «سوف يصابون بصدمة كبيرة عندما ينقذ الأطفال أرواحهم المتفوقة، ألا تظن ذلك؟»

ابتسم جايكوب وضربه على كتفه: «نعم!... سوف تكون مفاجأة».

ما كانت هذه آخر رحلة صيد لنا. سوف نصطاد من جديد قبيل الوقت المتوقع لوصول الفولتوري. ما كان وقت وصولهم محدداً بدقة. كنا نعتزم البقاء عدة ليال في فسحة البيسبول التي شاهدتها أليس في رؤياها... من باب التحسب! كنا نعرف أنهم سيأتون يوم يلتصق الثلج بالأرض دون أن يذوب. ما كنا نريد أن يقترب الفولتوري من البلدة كثيراً. سوف يتقدمهم ديمتري... يدلهم على مكان وجودنا. من عساه يقتفي؟ أظن أنه سيقتفي إدوارد... فهو لا يستطيع اقتفاء أثري!

رحت أفكر في ديمتري أثناء صيدي... ما كنت أفكر كثيراً في طريدتي أو في تدفقات الثلج المتدافعة التي ظهرت أخيراً... لكنها كانت تذوب قبل أن تلمس الأرض الصخرية. هل سيدرك ديمتري أنه لا يستطيع اقتفاء أثري؟ ماذا يمكن أن يستنتج من ذلك؟ وماذا يمكن أن يستنتج آرو؟ هل يمكن أن يكون إدوارد مخطئاً؟ ثمة استثناءات قليلة لما أستطيع فعله... ثمة ثغرات قليلة في درعي. كل ما هو خارج رأسي معرض للخطر... معرض لكل ما يستطيع جاسبر وأليس وبنجامين فعله. بل ربما يتضح أيضاً أن قدرات ديمتري تعمل بطريقة مختلفة قليلاً!

ثم خطرت في بالي فكرة جعلتني أتجمد في مكاني. سقط الأيل من بين يدي فاصطدم بالأرض الصخرية. راحت تدفقات الثلج تتبخر قبل سنتيمترات قليلة من وصولها إلى جسده الحار مصدرة صوت فرقعة خفيف. رحت أحدق بنظرات فارغة إلى يدي الملطختين بالدماء.

سألني إدوارد بصوت منخفض: «ما الأمر؟»... راحت عيناه تجوسان الغابة من حولنا تبحثان عما جعلني أفعل ذلك.

قلت بصوت مختنق: «رينيمي!»

قال يطمئنني: «إنها خلف تلك الأشجار. أسمع أفكارها وأسمع جايكوب... إنها بخير».

قلت: «لم أقصد هذا! كنت أفكر في درعي... هل تظن أن له قيمة حقاً... هل تظن أنه سيفيدنا بطريقة من الطرق؟ أعرف أن الجميع يأملون في أن أتمكن من حماية زافرينا وبنجامين... حتى إن لم أستطع حمايتهم إلا ثواني قليلة كل مرة. ماذا لو كنا مخطئين؟ ماذا لو كانت ثقتك في قدراتي سبباً لفشلنا؟»

كان صوتي متوتراً... متجهاً نحو حالة هستيرية... لكن لدي من القدرة ما يكفي لأن أبقيه منخفضاً. ما كنت أريد إخافة رينيمي.

«ما الذي يجعلك تفكرين هكذا يا بيلا؟ رائع طبعاً أن تتمكني من حماية نفسك، لكنك غير مسؤولة عن إنقاذ غيرك. لا تعذبي نفسك من غير طائل».

همست لاهثة: «ماذا لو كنت غير قادرة على حماية أي شيء؟ ماذا لو كان ما أفعله هشاً... موهوماً؟ لا منطق في هذا كله. قد لا يفلح هذا في مواجهة أليك على الإطلاق».

«هشش! لا تخافي. ولا تقلقي بشأن أليك. لا يختلف ما يفعله عما تفعله جين أو زافرينا. إنه وهم... وهو غير قادر على دخول ذهنك أكثر مما أقدر على ذلك بنفسي».

همست بصوت مجنون: «لكن رينيمي تستطيع اختراقي. بدا ذلك طبيعياً جداً فلم أتساءل عنه قبل الآن. كان هذا جزءاً من طبيعتها منذ البداية. لكنها قادرة على وضع أفكارها في رأسي تماماً كما تفعل مع الجميع. إن في درعي ثغرات يا إدوارد».

رحت أحدق فيه بائسة... أنتظر موافقته على ما أقول. كانت شفتاه مطبقتين كما لو أنه يقرر كيفية صياغة كلامه. لكن قسمات وجهه كانت هادئة كل الهدوء.

سألته: «أنت تفكر في هذا منذ وقت بعيد!»... شعرت أنني حمقاء لأنني لم أر ما هو واضح أمامي منذ شهور.

أومأ برأسه وعلى زاوية فمه ابتسامة باهتة: «فكرت في هذا منذ لمستك رينيمي للمرة الأولى».

تنهدت... يا لغبائي! لكن هدوءه خفف توتري: «ألا يقلقك هذا؟ ألا ترى أنه مشكلة؟»

«لدي نظريتان! واحدة أكثر احتمالاً من الأخرى».

«أعطني الأبعد احتمالاً».

قال: «إنها ابنتك! نصفها منك... من الناحية الوراثية. هل تتذكرين مزاحي عندما قلت لك إن دماغك يعمل على موجة مختلفة عن موجة أدمغتنا؟ لعل رينيمي تعمل على الموجة نفسها».

لم أقتنع بهذا: «لكنك تسمع أفكارها جيداً! يستطيع الجميع سماع أفكارها. ماذا لو كان دماغ أليك يعمل على موجة مختلفة؟ ماذا لو...؟»

وضع إصبعه على شفتي: «فكرت في هذا! وهو ما يجعلني أرى النظرية الأخرى أقرب احتمالاً».

شددت على أسناني... وانتظرت.

«هل تذكرين ما قاله كارلايل لي عن رينيمي؟ تماماً بعد أن جعلتك ترين أفكارها أول مرة».

كنت أتذكر ذلك طبعاً: «قال كارلايل: هذا تحول مثير للاهتمام! كما لو أنها تفعل نقيض ما تستطيعين فعله تماماً».

«نعم! وهذا ما جعلني أسأل نفسي: لعلها ورثت قدرتك... لكن مقلوبة!»

رحت أفكر في هذا.

بدأ يقول: «تستطيعين صد الجميع».

أكملت جملته مترددة: «ولا يستطيع أحد صدها».

قال: «هذه نظريتي! وإذا كانت قادرة على دخول رأسك... فلا أظن أن في الأرض درع يستطيع صدها! سوف يساعدنا هذا. ألم تر أن أحداً لم يستطع

الشك في حقيقة أفكارها بعد أن سمح لها بلمسه حتى يرى ما في رأسها؟ أظن أن أحداً لا يستطيع منعها من ذلك... إذا اقتربت منه إلى الحد الكافي! فإذا تركها آرو تشرح له...»

ارتعدت عندما تخيلت رينيمي قريبة إلى هذا الحد من عيني آرو الجشعتين... الحليبيتين.

قال وهو يدلك كتفي: «طيب! على الأقل... لا شيء يستطيع منعه من رؤية الحقيقة».

تمتمت: «وهل الحقيقة كافية لإيقافه؟»

ما كان لدى إدوارد إجابة عن هذا السؤال.

35

الموعد

سألني إدوارد بنبرة لا مبالية: «هل أنت خارجة؟»... كان في قسمات وجهه نوع من الهدوء القسري. احتضن رينيمي إلى صدره... أقوى من المعتاد قليلاً.

أجبته بنبرته نفسها: «نعم! لدي بعض الأشياء المستعجلة...»

ابتسم لي ابتسامته المفضلة: «عودي سريعاً إليّ».

«دائماً!»

أخذت سيارة الفولفو من جديد... هل ألقى إدوارد نظرة على مقياس المسافة في السيارة بعد رحلتي الأخيرة؟ كم يا ترى استطاع أن يستخلص حتى الآن؟ هل عرف أن لدي سراً؟ بالتأكيد! هل استنتج سبب عدم بوحي؟ هل حزر أن آرو يمكن أن يعرف كل ما في رأسه قريباً؟ أظن أن إدوارد يمكن أن يتوصل إلى هذا الاستنتاج، وهذا ما يفسر عدم مطالبتي بأي تفسير. أظن أنه يحاول عدم الإكثار من التفكير والتخمين... يحاول إبقاء سلوكي خارج عقله. هل ربط بين ما أفعله الآن وبين سلوكي الغريب في الصباح الذي تلا رحيل أليس عندما أحرقت كتابي في النار؟ لا أدري إن كان قد استطاع تحقيق هذه القفزة كلها!

كان الجو كئيباً كالحاً بعد الظهر... حلت الظلمة مع الغسق. أسرعت

بالسيارة عبر تلك الظلمة . . . تعلقت عيناي بالسحب المتلبدة الداكنة. هل تثلج الليلة؟ هل تثلج بالقدر الكافي لفرش الأرض وتشكيل ذلك المشهد الذي تحدثت عنه أليس في رؤياها؟ يقدر إدوارد أن لدينا يومين إضافيين. بعد ذلك سنحتل موقعنا في تلك الفسحة في الغابة مجتذبين الفولتوري إلى موقع نختاره نحن.

أثناء سيري عبر الغابة التي كانت تزداد ظلمة رحت أفكر في رحلتي السابقة إلى سياتل. أظن أنني فهمت السبب الذي جعل أليس ترسلني إلى ذلك المكان المتداعي الذي يحيل ج. جينكس زبائنه المشبوهين إليه! لو ذهبت إلى واحد من مكاتبه الأخرى . . . الأكثر شرعية . . . فهل كنت لأعرف ما يجب أن أطلبه؟ لو قابلته بصفته جيسون جينكس أو جيسون سكوت . . . المحامي النظيف . . . فهل كنت لأعثر على ج. جينكس . . . بائع الوثائق المزورة؟ كان علي سلوك الطريق التي تجعل من الواضح أنني لا أريد خيراً! تلك هي خطة أليس.

كان الظلام قد خيم تماماً عندما توقفت بعد دقائق قليلة في ساحة وقوف السيارات أمام المطعم متجاهلة عمال المطعم الواقفين عند الباب. سحبت المفاتيح من السيارة ثم مضيت أنتظر ج. داخل المطعم. كنت على عجلة من أمري . . . أريد الفراغ من هذه المهمة الملحة للعودة إلى أسرتي، لكن ج يبدو شديد الحرص على عدم جعل ارتباطاته المشبوهة تشوه صورته . . . وكان لدي شعور بأن من شأن التسليم والاستلام في ساحة وقوف السيارات المظلمة أن يسيء إلى حساسيته بشأن هذا الأمر.

سألت الاستعلامات عن جينكس فقادني الموظف إلى غرفة خاصة صغيرة في الطابق الثاني فيها نار تفرقع في موقد حجري. أخذ الموظف معطفي المطري الطويل الذي ارتديته حتى أخفي حقيقة ارتدائي ما تراه أليس ملابس ملائمة. زفر الموظف بصوت خافت عندما رأى فستاني الفضي المصنوع من الساتان. شعرت بشيء من الإطراء. لم أكن معتادة بعد على أن يراني الجميع

جميلة . . . كنت معتادة على إدوارد فقط. نطق الموظف بعبارة مجاملة غير مكتملة وتراجع خارجاً من الغرفة.

وقفت أنتظر قرب الموقد. مددت أصابعي فوق اللهب لأدفئها قليلاً قبل المصافحة التي لا فكاك منها. صحيح أن ج كان منتبهاً تماماً إلى وجود شيء غريب في أسرة كولن، لكن تدفئة اليدين فوق النار تظل عادة بشرية يستحسن أن أتعلمها.

بعد نصف ثانية رحت أفكر . . . كيف يكون الأمر لو وضعت يدي في النار! كيف يكون شعوري عندما أحترق . . .؟

قطع دخول ج هذه الأفكار. تناول الموظف معطفه أيضاً. من الواضح أنه ما كان المتأنق الوحيد في هذا الاجتماع.

عندما صرنا وحيدين قال: «آسف جداً لأنني تأخرت».

«لا! جئت في الموعد تماماً».

مد يده فصافحته وشعرت أن أصابعه مازالت أكثر دفئاً من أصابعي . . . كان الفارق صغيراً . . . لكنه ملحوظ. لم يبد عليه اهتمام بذلك.

«تبدين مدهشة إن جاز لي القول يا سيدة كولن».

«شكراً يا ج خاطبني باسم بيلا لو سمحت».

ابتسم متردداً وقال: «علي القول إن التعامل معك مختلف عن التعامل مع السيد جاسبر. التعامل معك أقل . . . إرباكاً».

«حقاً! أنا أجد حضور جاسبر مريحاً للنفس إلى أقصى حد».

انعقد حاجباه وتمتم: «حقاً!» . . . قالها بأدب لكن اعتراضه على حكمي كان واضحاً. هذا غريب! ما الذي فعله جاسبر لهذا الرجل؟

«هل تعرف جاسبر منذ مدة طويلة؟»

تنهد الرجل وبدا عليه شعور بعدم الراحة: «أعمل مع السيد جاسبر منذ أكثر من عشرين عاماً. كما أن شريكي يعرفه قبل ذلك بخمسة عشر عاماً . . . إنه لا يتغير أبداً».

«صحيح! غريب أمر جاسبر من هذه الناحية».

هز ج. رأسه كما لو أنه يستطيع أن يسقط منه تلك الأفكار التي تثير قلقه:

«ألن تجلسي يا بيلا؟»

«إني في عجلة من أمري. لدي مسافة كبيرة حتى أصل إلى البيت»... أخرجت المغلف الأبيض السميك من محفظتي أثناء كلامي وأعطيته إياه. إنه المبلغ الإضافي الذي وعدته به.

قال: «أوه!»... ظهر في صوته شيء من خيبة الأمل. دس المغلف في جيب سترته الداخلي لكنه لم يهتم بعد النقود... «كنت آمل أن نتمكن من الحديث قليلاً».

سألته بفضول: «الحديث عن ماذا؟»

«دعيني أسلمك أوراقك أولاً. أريد التأكد من رضاك عنها».

استدار واضعاً حقيبته على الطاولة وفتحها ليخرج منها مغلفاً مما يستخدم في المحاكم.

ما كانت عندي فكرة عما يجب أن أنظر إليه في هذه الوثائق لكنني فتحت المغلف وألقيت نظرة فاحصة سريعة على محتوياته. لقد غير ج صورة جايكوب وبدل ألوانها حتى ما عاد واضحاً أن الصورة التي على جواز السفر والصورة التي على رخصة القيادة هما صورة واحدة في الأصل. بدت لي الوثيقتان ممتازتين، لكن ما أهمية حكمي؟ نظرت إلى صورة جواز سفر فانيسا وولف جزءاً من الثانية ثم أشحت بوجهي سريعاً وقد أمسكت الغصة بحلقي.

قلت له: «شكراً!»

ضاقت عيناه قليلاً فأحسست أنه خائب الأمل لأن فحصي للوثائق لم يكن متعمقاً: «أؤكد لك أن هذه الوثائق ممتازة... ستمر بكل سهولة عند أكثر الخبراء الأمنيين تدقيقاً.

«أنا واثقة من هذا. أقدر جهودك يا ج»

«هذا من دواعي سروري يا بيلا. أرجو ألا تترددي في المجيء إليّ في

المستقبل من أجل كل ما تحتاجه أسرة كولن». ما كان كلامه يحمل أي تلميح، لكنه بدا لي دعوة لأن أحل محل جاسبر في علاقتنا معه.

«كنت تريد أن تناقش معي شيئاً».

«أوه! نعم... الأمر محرج قليلاً...» أشار إلى الموقد الحجري بنظرة متسائلة فجلست على حافة الموقد وجلس إلى جانبي. كانت قطرات العرق تنبع من جبهته مجدداً... أخرج من جيبه منديلاً حريرياً أزرق وراح يمسح عرقه.

سألني: «هل أنت شقيقة زوجة السيد جاسبر أم أنك زوجة أخيه؟»

قلت له: «بل زوجة أخيه». إلى أين يمضي في هذا الحديث؟

«أنت إذن عروس السيد إدوارد؟»

«نعم».

ابتسم ابتسامة اعتذار: «أعرف أسماء أفراد الأسرة جميعاً كما ترين! أقدم لك تهنئتي بالزواج... وإن كانت متأخرة! أمر لطيف أن يعثر السيد إدوارد على زوجة جميلة مثلك بعد كل هذا الوقت».

«أشكرك جزيل الشكر».

صمت قليلاً وراح يمسح عرقه: «لقد تكون عندي خلال هذه السنوات كلها احترام شديد للسيد جاسبر وللأسرة كلها».

أومأت برأسي فاستنشق نفساً عميقاً ثم لم يلبث أن زفر من غير كلام.

«أرجوك يا ج أن تقول لي ما تريد قوله».

استنشق نفساً جديداً ثم تكلم مسرعاً... كانت كلماته تخرج من فمه متلاصقة: «ليتك تستطيعين طمأنتي إلى أنك لا تعتزمين اختطاف تلك الفتاة الصغيرة من والدها... حتى أستطيع النوم ليلاً!»

فوجئت فقلت: «أوه!»... كنت في حاجة إلى لحظة من الزمن حتى أستوعب استنتاجه الخاطئ... «أوه... لا! ليس الأمر كذلك على الإطلاق». ابتسمت له ابتسامة خفيفة محاولة إشاعة الطمأنينة في نفسه... «إنني أعد مكان

آمناً لها من باب الاحتياط... إذا أصابني مكروه... أنا أو زوجي».

ضاقت عيناه: «هل تتوقعون حدوث مكروه؟»... احمر وجهه فقال معتذراً: «أعرف أن هذا ليس من شأني على الإطلاق».

رأيت الدم ينتشر من خلف جلده... كنت سعيدة لأنني لست مثل المواليد الجدد. بدا لي ج. رجلاً لطيفاً... إذا تغاضينا عن سلوكه المخالف للقانون... من العار أن أقتل شخصاً مثله!

تنهدت وقلت: «من يدري؟»

تجهم وجهه قليلاً: «اسمحي لي بأن أتمنى لكم حظاً طيباً. ثم أرجو ألا تنزعجي مني يا عزيزتي، لكن... إذا جاء السيد جاسبر وسألني عن الأسماء التي وضعتها على هذه الوثائق...»

«عليك أن تقول له كل شيء طبعاً. أريد أن يكون السيد جاسبر مطلعاً تمام الإطلاع على هذه التعاملات بيننا».

الظاهر أن صدقي الواضح ساعده على تخفيف توتره قليلاً فقال: «حسن جداً! ألا أستطيع الإلحاح عليك للبقاء من أجل العشاء؟»

«آسفة جداً يا ج! ليس لدي وقت الآن».

«إذن أتمنى لك الصحة والسعادة. وأرجو ألا تترددي في الاتصال بي يا بيلا إن كانت أسرتك في حاجة إلى أي شيء».

«شكراً يا ج.»

مضيت حاملة وثائقي المزورة والتفت لأرى ج يحدق في إثري... حملت تعابير وجهه خليطاً من القلق والحسرة.

استغرقت رحلة العودة وقتاً أقل. كان الليل مظلماً مدلهماً فأطفأت أنوار السيارة وانطلقت في ذلك الليل. عندما وصلت إلى المنزل وجدت أكثر السيارات غائبة... بما فيها سيارتي الفيراري وسيارة البورش... سيارة أليس. كان مصاصو الدماء التقليديون قد انطلقوا بعيداً... قدر ما يستطيعون... من أجل إشباع ظمأهم. حاولت عدم التفكير في صيدهم

تلك الليلة... انكمش جسمي عندما تصورت أشكال ضحاياهم.

ما كان في الغرفة الأمامية إلا كيت وغاريت يناقشان القيمة الغذائية لدماء الحيوانات. استنتجت من هذا أن غاريت جرب ذلك فذهب في رحلة صيد «نباتية»، لكنه وجدها أمراً صعباً.

لابد أن إدوارد قد أخذ رينيمي إلى الكوخ حتى تنام. ولا شك في أن جايكوب في الغابة قرب كوخنا الآن. ولابد أيضاً أن بقية أسرتي قد ذهبت إلى الصيد. لعلهم ذهبوا مع أفراد أسرة كيت.

يعني هذا أنني وحيدة في البيت الآن... أسرعت في الاستفادة من هذه الفرصة.

أدركت من الرائحة أنني أول شخص يدخل غرفة أليس وجاسبر منذ فترة طويلة. ربما أكون أول شخص يدخلها بعد رحيلهما. رحت أبحث... من غير صوت... في الخزانة الضخمة حتى وجدت حقيبة مناسبة. لابد أنها من حقائب أليس. كانت حقيبة جلدية صغيرة يمكن تعليقها على الظهر... ذلك النوع الذي يستخدم بدلاً من محفظة اليد... كانت صغيرة إلى حد يجعل رينيمي قادرة على حملها دون أن يكون في منظرها شيء مستغرب. أغرتُ على نقودهما أيضاً فأخذت ما قد يبلغ ضعفي دخل أسرة أمريكية عادية في سنة كاملة. أظن أن هذه السرقة لن تكون ملحوظة الآن لأن غرفة جاسبر وأليس تجعل كل من في هذا البيت يشعر بالحزن. وضعت مغلف الوثائق في الحقيبة فوق النقود. ثم جلست على حافة سرير جاسبر وأليس ورحت أنظر إلى هذه الحقيبة الصغيرة التي هي كل ما أستطيع تركه لابنتي ولأعز أصدقائي لمساعدتهما على النجاة. تهاويت على عمود السرير... أحسست بضعفي.

لكن، ماذا أستطيع أن أفعل غير هذا؟

جلست هناك عدة دقائق... مطرقة الرأس... ثم داعبت عقلي فكرة جيدة.

إذا...

إذا افترضت أن جايكوب ورينيمي سوف يتمكنان من الفرار . . . فهذا يعني أن ديمتري يجب أن يكون ميتاً. هذا ما يعطي الناجين فرصة . . . فسحة لالتقاط الأنفاس . . . وهذا يسري على جاسبر وأليس أيضاً.

إذن، لم لا يستطيع جاسبر وأليس مساعدة جايكوب ورينيمي؟ إذا اجتمعوا معاً فسوف تحظى رينيمي بأفضل حماية ممكنة. ما من سبب يجعل هذا مستحيلاً . . . اللهم إلا لأن أليس لا تستطيع رؤية جايكوب ورينيمي. كيف يمكنها أن تبدأ البحث عنهما؟

فكرت في الأمر لحظة ثم تركت الغرفة واجتزت الصالة في اتجاه جناح كارلايل وإيزمي. كان مكتب إيزمي مليئاً بالمخططات والمشاريع كالمعتاد . . . كان كل ما عليه مرتباً في أكداس مرتفعة. وكان فوق المكتب فتحات صغيرة كثيرة مثل طاقات الحمام، وجدت في إحداها صندوق القرطاسية فأخذت منه ورقة وقلماً.

رحت أحدق في تلك الورقة الخالية عاجية اللون أكثر من خمس دقائق . . . رحت أركز تفكيري على قراري. قد لا تتمكن أليس من رؤية جايكوب أو رينيمي، لكنها قادرة على رؤيتي. تخيلتها تراني في هذه اللحظة . . . ليتها لا تكون شديدة الانشغال الآن!

ثم . . . رحت أكتب على الورقة ببطء . . . وبأحرف كبيرة . . . ريو دي جانيرو.

بدت لي ريو دي جانيرو أفضل مكان بالنسبة لهم: إنها شديدة البعد . . . كما أن أليس وجاسبر موجودان في أمريكا الجنوبية حسب آخر الأخبار. لا أظن أن مشكلاتنا القديمة قد كفت عن الوجود لمجرد أن لدينا مشكلات جديدة أسوأ منها. مازال أمامنا لغز مستقبل رينيمي . . . رعب نموها السريع! سوف نذهب جنوباً في جميع الأحوال، وسوف يكون البحث عن الأساطير من مهمة جايكوب الآن . . . آمل أن تكون أليس موجودة أيضاً.

طأطأ رأسي من جديد تحت وطأة حاجتي المفاجئة إلى البكاء . . . رحت

أشد على أسناني. من الأفضل أن تذهب رينيمي من دوني. لكنني اشتقت إليها كثيراً . . . منذ الآن . . . فكيف أستطيع احتمال هذا؟

استنشقت نفساً عميقاً ودسست الورقة في أسفل الحقيبة . . . يستطيع جايكوب العثور عليها في الوقت المناسب.

من المستبعد تماماً أن يكون جايكوب قد تعلم شيئاً من البرتغالية في المدرسة. لكني آمل أن يكون قد تعلم شيئاً من الإسبانية!

ما عاد لدي الآن شيء سوى الانتظار!

منذ يومين . . . يلازم إدوارد وكارلايل تلك الفسحة في الغابة حيث رأت أليس وصول الفولتوري. إنها حقل المعركة نفسه حيث كان هجوم مواليد فكتوريا الجدد في الصيف الماضي. هل يشعر كارلايل أن الأمر يتكرر الآن . . . لقد رأى هذا المشهد من قبل؟ سيكون مشهداً جديداً بالنسبة لي فسوف نقف أنا وإدوارد مع بقية أفراد أسرتنا هذه المرة. لقد افترضنا أن الفولتوري سيتعقبون آثار كارلايل وإدوارد فقط. هل سيكون عدم هرب هاتين الطريدتين مفاجأة بالنسبة لهم؟ هل يمكن أن يجعلهم هذا الأمر يشعرون بشيء من القلق؟ هل يمكن تخيل إحساس الفولتوري بالحاجة إلى الحذر؟

سوف أبقى مع إدوارد رغم أنني غير مرئية بالنسبة لديمتري! سأبقى معه طبعاً فما عاد لدينا أكثر من ساعات قليلة نمضيها معاً.

لم يجر وداع بيني وبين إدوارد . . . وما كنت أعتزم الوداع. إن قلت كلمة الوداع فأنت تجعلها نهائية قاطعة! سيكون ذلك مثل كتابة كلمة «النهاية» على الصفحة الأخيرة من كتاب. لن نتبادل كلمات الوداع بل سنبقى متقاربين . . . متلامسين دائماً. مهما يكن مآل الأمر كله فسوف يأتي . . . وعندما يأتي لن يجدنا مفترقين.

نصبت خيمة لرينيمي بعيدة عدة أمتار عن حافة الفسحة . . . داخل الغابة. ثم كان المشهد شبيهاً بذلك المشهد القديم عندما وجدنا أنفسنا مخيمين في البرد من جديد مع جايكوب. مستحيل أن يصدق المرء مقدار ما تغير من أشياء

منذ حزيران الماضي. كانت علاقتنا الثلاثية تبدو مستحيلة منذ سبعة أشهر . . . ثلاثة أنواع مختلفة من القلوب المحطمة . . . ما كان يمكن تجنب ذلك. أما الآن فقد صار كل شيء في توازن تام. كم هي مفارقة فظيعة أن تجد أجزاء الأحجية أماكنها الصحيحة . . . تماماً عندما حان وقت فنائها.

بدأ الثلج يهطل من جديد قبل ليلة واحدة من رأس السنة. ما عادت رقائق الثلج تذوب على الأرض الحجرية. كان جايكوب ورينيمي نائمَيْن . . . وكان شخير جايكوب عالياً . . . عجبت كيف لا يوقظها. شكّل الثلج طبقة جليدية رقيقة على الأرض ثم راح يتراكم فوقها. وعند شروق الشمس كان المشهد الذي رأته أليس مكتملاً. كانت يدي في يد إدوارد. رحنا نحدق في ذلك الحقل الأبيض المتلألئ . . . لم يتكلم أحد منا.

جاء الآخرون وتجمعوا في ذلك الصباح المبكر. كانت أعينهم تنطق باستعدادهم . . . كان بعضها ذهبياً وبعضها قرمزياً داكناً. وبعد اجتماعنا كلنا سمعنا أصوات الذئاب تتحرك في الغابة. خرج جايكوب من الخيمة تاركاً رينيمي نائمة فيها . . . جاء فانضم إلينا.

راح إدوارد وكارلايل يرتبان مواقع الآخرين ضمن تشكيلة قتالية فضفاضة. وقف شهودنا على الجانبين . . . مثل جناحين.

كنت أنظر من بعيد إلى خيمة رينيمي . . . انتظر استيقاظها. وعندما استيقظت ساعدتها على ارتداء الملابس التي اخترتها بعناية قبل يومين. إنها ملابس أنثوية تبدو هشة سريعة العطب . . . لكنها كانت في الواقع متينة لا تبلى . . . حتى إن اضطر لابسها إلى الارتحال بعيداً ممتطياً صهوة ذئب. علقت على كتفيها، فوق سترتها، الحقيبة الجلدية السوداء التي وضعت فيها الوثائق والمال والورقة ورسائل حبي لها ولجايكوب ولتشارلي ولرينيه. ما كانت الحقيبة ثقيلة . . . ما كانت عبئاً عليها.

اتسعت عيناها عندما رأت الألم في وجهي. لكنها عرفت السبب من غير سؤال.

قلت لها: «أحبك أكثر من أي شيء في العالم».

أجابتني: «أحبك أيضاً يا ماما». لمست الإطار الصغير المعلق في رقبتها. إنه يحمل الآن صورة صغيرة . . . صورة لها ولي ولإدوارد . . . «سوف نكون معاً دائماً».

قلت بهمس خافت: «سنكون معاً دائماً . . . في قلوبنا. لكن عليك أن تركبي اليوم عندما يحين الوقت».

اتسعت عيناها أكثر من ذي قبل ثم وضعت يدها على خدي. كان رفضها الصامت أعلى صوتاً من الصياح.

تجمعت الغصة في حلقي: «هل تفعلين هذا من أجلي؟ . . . أرجوك!»

ازداد ضغط أصابعها على وجهي . . . «لماذا؟»

همست: «لا أستطيع إخبارك! لكنك ستفهمين الأمر قريباً . . . أعدك بهذا».

رأيت وجه جايكوب في ذهنها فأومأت لها برأسي.

أبعدت رينيمي أصابعها فهمست في أذنها: «لا تفكري فيما أقوله لك. لا تخبري جايكوب شيئاً قبل أن تهربا».

لقد فهمت هذا . . . أومأت برأسها.

أخرجت من جيبي شيئاً أخيراً.

عندما كنت أحضر حقيبة رينيمي لفت نظري بريق لون غير متوقع. جاء شعاع من الشمس فأضاء العلبة الثمينة العتيقة الموضوعة فوق رف مرتفع في زاوية بعيدة. فكرت في الأمر لحظة. مازلت آمل في نهاية سلمية. لماذا لا أحاول أن أبدأ بإيماءة ودية؟ ما ضرر هذا؟ لابد أن يكون لدي شيء من الأمل . . . أمل أعمى عديم المنطق . . . لأنني مددت يدي إلى ذلك الرف وأخذت هدية آرو التي أرسلها بمناسبة زفافي.

وضعت الحبل الذهبي السميك حول عنقي فأحسست بوزن الماسة الضخمة عند ثغرة نحري.

همست رينيمي: «هذا جميل». ثم لفت ذراعيها حول عنقي. ضممتها إلى صدري وحملتها... متلاحمتين على هذا النحو... خارجة من الخيمة ومضيت بها إلى فسحة الغابة. رفع إدوارد حاجبه مستغرباً عندما اقتربت منه لكنه لم يعلق على ما ارتديته وعلى ما حملته رينيمي، وضع ذراعيه حولنا لحظة طويلة ثم أبعدهما وأطلق زفرة عميقة. لم أر وداعاً في عينيه. لعله يأمل في شيء بعد هذه الحياة... لعله يأمل في شيء يتجاوز ما يفصح عنه.

اتخذنا مواقعنا... كانت رينيمي جالسة برشاقة فوق ظهري حتى تترك يدي حرتين. وقفت خلف الخط الأمامي بخطوات قليلة. كان هذا الخط مكوناً من كارلايل وادوارد وإيميت وروزالي وتانيا وكيت وإليازر. وعلى مقربة شديدة مني وقف بنجامين وزافرينا. كان عليّ أن أحميهما قدر استطاعتي. إنهما سلاحنا الهجومي الأقوى. إذا عجز الفولتوري عن الرؤية لحظة واحدة فسوف يتغير كل شيء.

كان مظهر زافرينا متوتراً عنيفاً... وكانت سينا صورة عنها... بجانبها. كان بنجامين جالساً على الأرض واضعاً يديه على التراب... كان يدمدم شيئاً عن الفوالق الأرضية. لقد عمل طيلة الليلة الماضية فجمع أكواماً من الصخور الكبيرة طبيعية المظهر... صخور غطاها الثلج الآن فصارت جزءاً من المشهد العام. ما كانت تلك الصخور كافية لإلحاق الأذى بمصاص دماء واحد، لكنها قد تشغل انتباههم قليلاً.

تناثر الشهود إلى يميننا وشمالنا... كان بعضهم أقرب من بعض... كان من عبروا عن استعدادهم للوقوف معنا هم الأقرب إلينا. رأيت سيوبهان تفرك صدغيها... كانت عيناها مغمضتين... تركز أفكارها!... أتراها تمازح كارلايل الآن؟ أتراها تحاول تصور حل دبلوماسي؟

كانت الذئاب ساكنة مستعدة... مختفية في الغابة من خلفنا. ما كنا نسمع إلا لهاثها الثقيل وخفق قلوبها.

تجمعت الغيوم حاجبة ضياء الشمس. تقلصت عينا إدوارد عندما راح ينظر

إلى هذا المشهد بروية وإمعان... أيقنت أنه يراه للمرة الثانية... رآه في عقل أليس أول مرة! هكذا كان المشهد عندما وصل الفولتوري... ما عاد أمامنا إلا دقائق قليلة... أو ثوانٍ قليلة.

تأهب جميع أفراد أسرتنا... وحلفائنا.

ومن قلب الغابة... جاء الذئب الزعيم البني الضخم فوقف إلى جانبي. من الصعب عليه كثيراً أن يقف بعيداً عن رينيمي عندما تكون في خطر داهم. مدت رينيمي يدها فدست أصابعها في فرو كتفه... استرخى توتر جسدها قليلاً. صارت أكثر هدوءاً عندما اقترب منها. شعرت بشيء من المرارة. ستكون رينيمي بخير إن بقي جايكوب معها.

مد إدوارد يده صوبي دون أن يغامر بالالتفات إلى الخلف. مددت يدي فأمسكت بها. شد على أصابعي!

مرت دقيقة أخرى... توترت عندما سمعت صوت شيء يقترب. تيبس إدوارد وخرج من بين فكيه المطبقين صوت يشبه الفحيح. تركزت عيناه على الغابة... إلى جهة الشمال.

نظرنا في ذلك الاتجاه ورحنا ننتظر... ومرت الثواني.

36

شهوة الدم

جاء الفولتوري بأبهة وجلال كبيرين... بل بنوع من الجمال.

جاؤوا ضمن تشكيل متماسك رسمي. كانوا يتحركون معاً... لكن حركتهم ما كانت تشبه استعراضاً عسكرياً. كانوا يسيرون خارجين من الأشجار في توافق زمني تام... كانوا مثل خط داكن متصل بدا مرتفعاً عدة سنتيمترات فوق الثلج الأبيض... هكذا كان تقدمهم... سلساً!

كان المحيط الخارجي لذلك التشكيل رمادي اللون... وكان اللون الرمادي يزداد دكنة مع كل صف من تلك الأجساد حتى يصير أسود فاحماً عند المركز. كانت وجوههم ملثمة... محجوبة. وكان الصوت الخافت المنبعث عن حركة أقدامهم شديد الانتظام... كأنه موسيقى... إيقاع معقد لا يعرف الاضطراب.

عند صدور إشارة لم أرها... بل لعل ذلك كان من غير إشارة، لعله ثمرة خبرة عمرها ألف عام... انفتح ذلك التشكيل. كانت تلك الحركة قاسية حادية الزوايا، لكن تدرج الألوان كان يوحي بحركة تفتح زهرة. كان ذلك مثل انفتاح مروحة... مروحة فاخرة لكنها حادة المعالم. مضى أصحاب العباءات الرمادية إلى الجانبين في حين تقدم أصحاب العباءات الداكنة فصاروا في قلب التشكيل... كانت حركاتهم شديدة الضبط.

كان تقدمهم بطيئاً... من غير توقف. ما كانوا مستعجلين... ما كانوا

متوترين... ما كانوا قلقين. كان ذلك تقدم جيش لا يقهر.

هكذا كان كابوسي القديم! ما كان ينقصه إلا تلك الرغبة العارمة التي رأيتها على وجوههم في حلمي... ما كان ينقصه إلا ابتسامة تشي بمتعة الانتقام. كان الفولتوري أكثر انضباطاً من أن يسمحوا لوجوههم بالتعبير عن مشاعرها... على هذه المسافة. لم تظهر عليهم أي دهشة... أي انزعاج... إزاء تلك المجموعة من مصاصي الدماء المنتظرين هنا... مجموعة بدت فجأة عديمة التنظيم... عديمة الاستعداد. ولم يبد عليهم ما يشير إلى دهشتهم من وجود ذلك الذئب الضخم بيننا.

لم أستطع الامتناع عن إحصاء عددهم. كانوا اثنين وعشرين... حتى إذا أهملت شخصين نحيلين في عباءتين سوداوين... في المؤخرة تماماً... أظنهما الزوجتين... كان موقعهما المحمي يوحي بأنهما غير مشتركتين في الهجوم. كانوا أكثر عدداً! كان عدد المستعدين للقتال بيننا تسعة عشر شخصاً... وكان معنا سبعة غيرهم مستعدون لمراقبة موتنا. كانوا أكثر منا... حتى إذا عددنا الذئاب العشرة.

راح غاريت يدمدم شيئاً غريباً لنفسه ثم أطلق ضحكة قصيرة: «إنهم قادمون... إنهم قادمون»... اقترب خطوة باتجاه كيت.

همس فلاديمير لستيفان: «لقد جاؤوا فعلاً!»

أجابه ستيفان هامساً: «جاءت الزوجتان أيضاً... جاء الحرس كله. كلهم معاً. حسن أننا لم نهاجم فولتيرا».

عند ذلك... وكأن أعدادهم ما كانت كافية... ظهر مزيد من مصاصي الدماء وراحوا يدخلون الفسحة من خلف الفولتوري الذي تابعوا تقدمهم البطيء.

كانت وجوه هذه المجموعة الجديدة من مصاصي الدماء على عكس وجوه الفولتوري المنضبطة عديمة التعبير. كانت على وجوههم تشكيلة عجيبة من المشاعر. ظهرت عليهم الدهشة في البداية... ثم ظهر بعض القلق عندما رأوا قوة غير متوقعة في انتظارهم. لكن هذا القلق زال سريعاً... بعثت كثرة عددهم الثقة في نفوسهم... كانوا آمنين في موقعهم خلف قوة الفولتوري التي تتقدم

من غير توقف. عادت وجوههم إلى تعابيرها الأولية. . . قبل أن نفاجئهم.

كان فهم حالتهم الذهنية سهلاً. . . هكذا كانت وجوههم. . . واضحة! كان هذا جمعاً غوغائياً غاضباً مستثاراً متعطشاً لتحقيق العدالة. لم أدرك قبل الآن مدى عنف مشاعر عالم مصاصي الدماء إزاء الأطفال الخالدين. . . لم أدركها إلا الآن.

من الواضح أن هذا الحشد المتنوع غير المنظم (أكثر من أربعين مصاص دماء) لا يضم إلا «شهوداً» جلبهم الفولتوري. بعد أن نموت. . . سوف ينشرون الخبر. . . خبر اجتثاث المجرمين! بدا على كثير منهم الأمل في دور أكثر من الشهادة. . . إنهم راغبون في المشاركة في تمزيقنا وإحراقنا.

ما كانت لدينا صلوات! حتى لو تمكنا من تحييد أصحاب القدرات المتميزة عند الفولتوري فسوف يكونون قادرين على دفننا. . . بأجسادهم. حتى إن قتلنا ديمتري. . . فلن يكون جايكوب قادراً على الفرار من هؤلاء كلهم.

عندما شعرت بهذا. . . كان الشعور نفسه يتغلغل بين الواقفين من حولي. أثقل القنوط الهواء. . . راح يضغطني. . . يسحقني. . . بقوة أكبر من ذي قبل.

رأيت مصاص دماء واحد في المعسكر المقابل يبدو غير منتم إلى أي من المعسكرين. تعرفت فيه على إيرينا عندما راحت تتردد بين الجانبين. كانت ملامحها مميزة بين الآخرين. وكانت نظراتها المذعورة معلقة بتانيا الواقفة في الصف الأمامي. زمجر إدوارد. . . كانت زمجرة خافتة تماماً. . . لكنها حانقة.

همس إدوارد لكارلايل: «كان ألستير محقاً».

رأيت كارلايل ينظر إلى إدوارد نظرة استفهام.

همست تانيا: «كان ألستير محقاً!»

أجابهم إدوارد بصوت هامس لا يكاد يسمع. . . ما كان الفولتوري قادرين على سماعه لشدة انخفاضه: «إنهما. . . كايوس وآرو. . . آتيان من أجل التدمير والاستحواذ فقط. لديهما استراتيجية جاهزة من عدة طبقات. إذا استطعنا إثبات كذب اتهامات إيرينا فسوف يجدان سبباً آخر لمهاجمتنا. لكنهما

قادران على رؤية رينيمي الآن. . . وهما ثابتان على نهجهما. إننا قادرون على دحض الاتهامات المختلقة، لكن عليهم أن يتوقفوا أولاً. . . أن يسمعوا قصة رينيمي الحقيقية». . . ثم تابع بصوت أخفض من ذي قبل: «لكنهما غير عازمين على التوقف!»

أطلق جايكوب صوتاً منخفضاً غريباً.

بعد ذلك. . . بعد ثانيتين. . . توقف الفولتوري على نحو غير متوقع. تحولت الموسيقى المنخفضة. . . موسيقى الحركة المتوافقة تماماً. . . إلى صمت مطبق. لكن صفوفهم ظلت منضبطة كما كانت. تجمد الفولتوري في سكون مطلق كأنهم شخص واحد. كانوا على بعد مئة متر مني.

سمعت من خلفي. . . على الجانبين. . . خفق قلوب ضخمة. . . أقرب من ذي قبل. غامرت بالنظر يميناً وشمالاً. . . من زاويتي عيني. . . فرأيت ما أوقف تقدم الفولتوري.

لقد انضم الذئاب إلينا.

امتد صفا الذئاب على يميننا ويسارنا مثل ذراعين طويلين. لم يلزمني أكثر من جزء واحد من الثانية حتى أدرك أن عددهم كان أكثر من عشرة ذئاب. . . حتى أتعرف على وجوه من أعرفهم وأميز وجوه من لم أرهم قبل اليوم. كانوا ستة عشر ذئباً. . . موزعين على مسافات متساوية من حولنا. . . كان عددهم سبعة عشر مع جايكوب. كان واضحاً من حجمهم ومن أكف قوائمهم أن القادمين الجدد كانوا صغاراً. . . صغاراً تماماً. كان يجب أن أتوقع هذا. فمع وجود هذا العدد من مصاصي الدماء في المنطقة كان تزايد عدد المستذئبين أمراً محتوماً.

سيموت مزيد من الأطفال. كيف يسمح سام بهذا؟ أدركت أن ما من خيار آخر أمامه! إذا وقف أي ذئب معنا فمن المؤكد أن الفولتوري سوف يستهدفون بقية الذئاب. إنهم يغامرون بجنسهم كله في هذه المعركة.

لكننا خاسرون!

استبد بي الغضب فجأة. ومن خلف غضبي. . . كنت مستثارة على نحو

عنيف. تبخرت آمالي كلها! راح ألق خافت أحمر اللون يغلف تلك الشخوص القائمة أمامي. ما كنت أريد في تلك اللحظة إلا أن أحظى بفرصة غرس أسناني في أجسادهم... بفرصة تقطيع أوصالهم وتكويمها وحرقها. كان غضبي مسعوراً... كنت قادرة على الرقص حول محرقتهم عندما أحرقهم أحياء. ولسوف أضحك عندما يتهاوى رمادهم ساقطاً في النار. ارتدت شفتاي تلقائياً وشق حنجرتي زئير منخفض قاسٍ صادر من بطني. أدركت أن ابتسامة ظهرت عند زوايا شفتي.

رددت صدى زئير زافرينا وسينا الواقفتين إلى جانبي. شد إدوارد على يدي التي مازالت في يده... كان يحذرني.

مازال أكثر وجوه الفولتوري الملثمة من غير تعبير. لكن زوجين من الأعين لم يفصحا عن شيء إطلاقاً. كانا في القلب تماماً متلامسي الكفين... إنهما آرو وكايوس... لقد توقفا من أجل تقييم الموقف. توقف الحرس كلهم معهما... كانوا ينتظرون الأمر بالقتل. ما كان آرو وكايوس يتبادلان النظرات، لكن من الواضح أنهما يتواصلان تماماً. أما ماركوس فما كان طرفاً في هذا الحديث رغم أنه كان ممسكاً بيد آرو الأخرى. ما كانت تعابير وجهه خالية من التفكير مثل بقية الحرس... لكن نظراته كانت فارغة... مثل نظراتهم تقريباً. كان شكله يوحي بملل شديد... تماماً كما رأيته في تلك المعركة.

مالت أجسام شهود الفولتوري صوبنا. كانت عيونهم مسلطة عليّ وعلى رينيمي، لكنهم ظلوا عند حدود الغابة تاركين مسافة كبيرة بينهم وبين جنود الفولتوري. كانت إيرينا وحدها تحوم قريبة من جنود الفولتوري... كانت على مسافة خطوات قليلة خلف الزوجتين العتيقتين وحارسيهما الضخمين... كان للمرأتين شعر أشقر وجلد مغبر وعيون ضبابية.

رأيت امرأة تقف خلف آرو تماماً. كانت عليها عباءة رمادية قريبة من السواد. ما كنت واثقة... لكني أظن أنها كانت تلمس ظهره. هل هي صاحبة الدرع... رينانا؟ تساءلت... مثلما تساءل إليازر من قبل... هل تستطيع صدي؟

لكني لن أضيع حياتي في محاولة الهجوم على كايوس أو آرو. إن لدي أهدافاً أكثر أهمية!

رحت أفتش بين الصفوف فلم أجد صعوبة في التعرف على عباءتين صغيرتين رماديتين قاتمتين على مقربة من قلب التشكيل. إنهما أليك وجين... أصغر أفراد الحرس حجماً. كانا إلى جانب ماركوس تماماً... وكان ديمتري واقفاً إلى جانبه من الجهة الأخرى. كان وجهاهما الجميلان باردين تماماً... لا يفصحان عن شيء. وكانت عباءتاهما أقرب العباءات لوناً إلى عباءات القدامى السوداء. إن قوة هذين الشخصين حجر الزاوية في هجوم الفولتوري. إنهما أهم جوهرتين في مجموعة آرو.

توترت عضلاتي واندفع السمّ إلى فمي.

راحت عينا آرو وكايوس الضبابيتان تجوسان صفوفنا. قرأت خيبة الأمل في وجه آرو عندما نظر إلى الوجوه مرة بعد مرة. كان يبحث عن وجه غائب! ظهر الأسى على شفتيه المتوترتين.

لم أدرك صواب قرار أليس بالفرار إلا في هذه اللحظة! طال الوقوف... سمعت أنفاس إدوارد تزداد سرعة.

سأله كارلايل بصوت خفيض قلق: «ماذا يا إدوارد؟»

«لم يحسموا أمر خطوتهم اللاحقة. إنهم يقيّمون الخيارات المتاحة... يحددون الأهداف الرئيسية... أنا وأنت وإليازر وتانيا! أما ماركوس فيحاول قراءة مدى قوة ما يربط كلاً منا بغيره... يبحث عن نقاط الضعف. إن وجود الرومانيين يزعجهم. وهم قلقون لوجود وجوه لا يعرفونها... زافرينا وسينا خاصة... وهم قلقون من وجود الذئاب أيضاً. لم يواجهوا من يفوقهم عدداً من قبل... هذا ما أوقفهم».

همست تانيا غير مصدقة: «يفوقهم عدداً!»

همس إدوارد: «إنهم لا يحسبون شهودهم. لا أهمية لهؤلاء الناس في نظر الحرس، لكن آرو يحب وجود جمهور».

سأله كارلايل: «هل أتحدث معهم؟»

تردد إدوارد قليلاً ثم أومأ برأسه: «هذه هي الفرصة الوحيدة التي يمكن أن نحظى بها».

شد كارلايل كتفيه وتقدم عدة خطوات متجاوزاً خط دفاعنا. أفزعتني رؤيته وحيداً من غير حماية!

فتح ذراعيه باسطاً كفيه إلى الأعلى في حركة ترحيبية: «آرو! يا صديقي القديم. لقد مرت قرون!»

ظلت تلك الساحة البيضاء غارقة في الصمت لحظات طويلة. أحسست التوتر يفارق إدوارد عندما راح يصغي إلى تقييم آرو لكلمات كارلايل الترحيبية. لكن التوتر العام تصاعد مع مر الثواني.

عند ذلك خطا آرو خطوة إلى الأمام فخرج من قلب التشكيل. تحركت رينانا معه كما لو أن أصابعها مربوطة بعباءته. تململت صفوف الفولتوري للمرة الأولى، وتصاعد منها همس متواتر... عبست وجوههم وكشرت شفاههم عن أسنانهم. اتخذ اثنان منهم وضعية الاستعداد للوثب.

رفع آرو يده صوبهما يأمرهما بالهدوء.

تقدم عدة خطوات أخرى ثم مال برأسه. كانت عيناه الحليبيتان تفيضان فضولاً.

قال بصوته الهامس الحاد: «كلمات طيبة يا كارلايل! لكنها تبدو في غير محلها إذا نظر المرء إلى الجيش الذي قمت بحشده من أجل قتلي... ومن أجل قتل أعزائي كلهم».

هز كارلايل رأسه ماداً يده صوب آرو كما لو أن المسافة بينهما لم تكن مئة متر: «ما عليك إلا أن تلمس يدي لتعرف أنني لم أفكر في هذا أبداً».

ضاقت عينا آرو الذكيتان: «لكن، ما أهمية النوايا يا عزيزي كارلايل؟ ما أهميتها إن نظرنا إلى ما فعلت؟» أظلم وجهه وعبرت ملامحه مسحة من الحزن... لا أعرف إن كان حزناً حقيقياً!

«لم أرتكب الجريمة التي جئت تعاقبني عليها».

«تنحَّ إذن ودعنا نعاقب المسؤولين. لن يفرحني شيء يا كارلايل أكثر من الإبقاء على حياتك اليوم».

«لم يخرق القانون أحد منا يا آرو. دعني أشرح لك». مد كارلايل يده من جديد.

قبل أن يتمكن آرو من الإجابة أسرع كايوس فوقف إلى جانبه.

قال مصاص الدماء العتيق ذو الشعر الأبيض: «قواعد كثيرة لا معنى لها قوانين كثيرة لا ضرورة لها... وضعتها لنفسك يا كارلايل! فكيف يمكنك إذن أن تدافع عمن خرق أهم قوانيننا على الإطلاق؟»

«لم يخرق القانون أحد... إن أصغيت إلي...»

زمجر كايوس: «لكننا نرى الطفلة يا كارلايل. أم أنك ترانا حمقى؟»

«إنها ليست خالدة. إنها ليست مصاصة دماء. أستطيع إثبات هذا بكل سهولة في لحظات قليلة...»

قاطعه كايوس: «إذا لم تكن واحدة من الأطفال المحرّمين فلماذا جمعت هذه الفرقة كلها لحمايتها؟»

«إنهم شهود يا كايوس... تماماً مثل الشهود الذين جلبتهم معك»... أشار كارلايل بيده إلى الحشد الغاضب عند حافة الغابة... أجابه عدد منهم بزمجرة منخفضة... «يستطيع أي واحد من هؤلاء الأصدقاء إخبارك بحقيقة هذه الطفلة. ويمكنك أيضاً أن تنظر إليها بنفسك يا كايوس. يمكنك أن ترى الدم البشري في وجنتيها».

قال كايوس بصوت حاد: «إنه مصطنع! أين من أخبرتنا؟ فلتتقدم!»... التفت برأسه حتى رأى إيرينا خلف الصفوف فناداها: «أنتِ... تعالي!»

حدقت فيه إيرينا من غير أن تستوعب شيئاً. كان وجهها مثل وجه من لم يستيقظ بعد من كابوس مرعب. فرقع كايوس بأصابعه نافد الصبر فدفعها أحد الحارسين في ظهرها بكل خشونة. رفت عينا إيرينا مرتين ثم تقدمت ببطء

صوب كايوس... كانت ذاهلة. توقفت قبل أن تصل إليه بأمتار كثيرة. مازالت عيناها معلقتين بشقيقتيها.

مضى كايوس إليها فصفعها على وجهها.

ما كانت الصفعة لتؤلمها، لكنها كانت شيئاً مهيناً مذلاً إلى أقصى حد... كما لو أنك تنظر إلى شخص يرفس كلباً. صدر فحيح عن تانيا وكيت.

تصلب جسد إيرينا وتركزت عيناها على كايوس أخيراً. أشار بإصبعه المعقوف إلى رينيسمي التي صارت الآن معلقة خلف ظهري... مازالت أصابعها معلقة بفراء جايكوب أيضاً. صار كايوس أحمر اللون في عينيّ الغاضبتين. وسرت في صدر جايكوب زمجرة خفيفة.

سألها كايوس: «هل هذه هي الطفلة؟ الطفلة التي قلت إنها أكثر من بشرية؟»

نظرت إيرينا إلينا وراحت عيناها تفحصان رينيسمي للمرة الأولى منذ وصولها. مال رأسها جانباً وعلا الارتباك تقاسيم وجهها.

زمجر كايوس: «ماذا؟»

قالت بنبرة ارتباك: «أنا... لست واثقة».

تحركت يد كايوس كما لو أنه يهم بصفعها من جديد.

قال لها بهمس فولاذي: «ما معنى هذا؟»

«ليست كما رأيتها. لكني أظن أنها الطفلة نفسها. أقصد أنها... تغيرت. هذه الطفلة أكبر من الطفلة التي شاهدتها... لكن...»

صدرت زفرة غضب عن كايوس وكشر عن أسنانه فتوقفت إيرينا عن الكلام دون إنهاء جملتها. هرع آرو إليه ووضع يده على كتفه: «تمالك نفسك يا أخي. لدينا الوقت الكافي لنفهم هذا الأمر. لا حاجة للتعجل».

أدار كايوس ظهره لإيرينا وعلا وجهه تعبير أسف.

قال آرو بهمس دافئ سكري: «اسمعي يا حلوة! دعيني أرى ما تحاولين قوله»... مد يده إلى مصاصة الدماء الخائفة المرتبكة.

أمسكت إيرينا بيده... مترددة. ما كان آرو في حاجة إلى أكثر من خمس ثوان ترك يدها بعدها.

قال: «هل ترى يا كايوس؟ ليس صعباً أن نحصل على ما نريد!»

لم يجبه كايوس. نظر آرو من زاوية عينه إلى جمهوره... غوغائه... ثم استدار نحو كارلايل.

«يبدو أن لدينا لغزاً هنا. من الواضح أن الطفلة كبرت. لكن ذكريات إيرينا تتحدث عن طفلة خالدة... هذا غريب!»

قال له كارلايل: «هذا ما أحاول توضيحه لك»... أدركت من تغير صوته أنه بدأ يشعر بشيء من الانفراج. هذا ما كانت آمالنا السديمية معقودة عليه.

لكني لم أشعر بأي انفراج. انتظرت... خدرني غضبي... انتظرت اتضاح طبقات الاستراتيجية التي تحدث عنها إدوارد.

مد كارلايل يده من جديد.

تردد آرو لحظة: «أفضل أن أحصل على التوضيح من شخص أكثر علاقة بهذه القصة يا صديقي. أظن أن مخالفة القانون لم تكن فعلتك أنت».

«لم يخالف القانون أحد».

«فليكن ذلك! سوف أحصل على الحقيقة كلها»... تصلب صوت آرو الريشيّ... «إن الطريقة الأفضل للحصول عليها هي أن أتلقى المعلومات من ابنك الموهوب»... أشار إلى إدوارد برأسه... «أرى أن الطفلة متعلقة بزوجته المولودة حديثاً... وأظن أن لإدوارد علاقة بالأمر».

إنه يريد إدوارد طبعاً! فما أن يرى ما في رأسه حتى يعرف كل أفكارنا... إلا أفكاري أنا.

استدار إدوارد سريعاً فقبل جبهتي وجبهة رينيسمي دون أن تلتقي نظراتنا. ثم سار في الحقل الذي غطاه الثلج. ربت على ظهر كارلايل عندما مر به.

سمعت صوت نشيج منخفض من خلفي... إنه ذعر إيزمي!

صار الوهج الأحمر الذي رأيته محيطاً بجيش الفولتوري أكثر توهجاً من

ذي قبل. ما كنت أطيق رؤية إدوارد يسير وحيداً في تلك الفسحة البيضاء الخالية. لكنني ما كنت أطيق تقريب رينيمي خطوة واحدة من خصومنا. مزقني دافعان متناقضان. تجمدت تماماً حتى أحسست أن عظامي موشكة على التحطم تحت وطأة هذا الضغط.

رأيت جين تبتسم عندما تجاوز إدوارد منتصف الطريق... عندما صار أقرب إليهم منا.

نعم! لقد فعلتها تلك الابتسامة الراضية الصغيرة. علا غضبي... صار أعلى حتى من شهوة الدم المستعرة التي أحسست بها عندما رأيت الذئاب ملتزمين معنا بهذه المعركة المحكومة بالخسارة. أحسست بالجنون على لساني... أحسست به يتدفق في جسمي مثل موجة من قوة محض. توترت عضلاتي فتصرفت من غير إرادة مني. رميت بدرعي... بكل ما أوتي عقلي من قوة... رميته عبر تلك المسافة المستحيلة... أكثر من أنجح محاولاتي السابقة بعشر مرات... رميته مثلما أرمي رمحاً. صار تنفسي لهاثاً لشدة الجهد.

فارقني درعي بدفقة من طاقة صافية... صار مثل غيمة من فولاذ سائل. راح يتسع نابضاً كأنه شيء حي... كنت أحسه... كان ينبض من مركزه حتى أطرافه.

ما عاد هذا النسيج المطاط يعرف الارتداد الآن... في تلك اللحظة من لحظات القوة الخام... أدركت الآن أن ذلك الارتداد الذي كان من قبل من صنعي أنا... كنت أتمسك بدرعي... بذلك الجزء مني... دفاعاً عن نفسي... ما كان لاوعيي راغباً في تركه يمضي بعيداً عني. أطلقته الآن فابتعد خمسين متراً عني من غير جهد... لم يستهلك هذا إلا جزءاً صغيراً من تركيزي. أحسست به يمتط ويتحرك مثل عضلة من عضلات جسمي... أحسسته يطيع إرادتي. دفعته... شكلته على هيئة جسم بيضوي متطاول. صار كل شيء تحت ذلك الدرع الحديدي المرن جزءاً مني... كنت قادرة على الإحساس بقوة الحياة في كل شيء غطاه درعي... كان ذلك مثل نقاط من حرارة متوهجة... شرارات مدوخة مضيئة أحاطت بي. دفعته إلى الأمام...

نحو إدوارد ثم تنفست الصعداء عندما جاءني ضياء إدوارد الساطع... صار تحت حمايتي. بقيت هناك مادة هذه العضلة الجديدة التي أحاطت بإدوارد إحاطة محكمة... ملاءة رقيقة لا تخترق فصلت بين جسمه وأعدائنا.

مضى أقل من ثانية. مازال إدوارد ماضياً نحو آرو. تغير كل شيء تغيراً جذرياً. لكن أحداً غيري لم يلاحظ ذلك الانفجار! خرجت ضحكة مجفلة من بين شفتي. أحسست الآخرين ينظرون إلي ورأيت عينيْ جايكوب الكبيرتين الداكنتين تحدقان في وجهي كما لو أنني فقدت عقلي.

توقف إدوارد قبل خطوات قليلة من آرو. عندها أدركت والأسى يلفني أن من غير الجائز أن أمنع هذا التبادل من الحدوث رغم قدرتي على منعه. كان هذا هدف استعداداتنا كلها: أن نجعل آرو يستمع إلى قصتنا. لكن ذلك كان مؤلماً... ألم يكد يكون جسدياً. سحبت درعي إلى الخلف قليلاً وتركت إدوارد معرضاً للخطر من جديد. تبخر مزاجي الذي جعلني أضحك قبل قليل. صببت تركيزي كله على إدوارد... كنت مستعدة لحمايته فوراً إن حدث أي تطور سيئ.

كانت ذقن إدوارد مرتفعة بغرور... كان يمد يده صوب آرو كما لو أنه يسبغ عليه شرفاً عظيماً. لكن السرور كان ظاهراً على آرو لهذا السلوك. ما كان السرور شاملاً! راحت ريناتا تتململ بعصبية في ظل آرو. وكان تجهم كايوس عميقاً حتى ظننت أن جلده الورقي شبه الشفاف سيظل معقوداً فوق جبينه إلى الأبد. كشرت جين الصغيرة عن أسنانها وقلص أليك الواقف بجانبها عينيه لفرط تركيزه. رأيت أنه كان مستعداً... مثلي... للتحرك في ثانية واحدة.

اجتاز آرو المسافة الفاصلة من غير توقف... لماذا يخاف؟ ما كانت ظلال العباءات الرمادية الضخمة... وما كان المقاتلون الأشداء من أمثال فيليكس إلا على بعد أمتار قليلة منه. تستطيع جين الآن... بقدرتها الحارقة... أن ترمي إدوارد أرضاً متلوياً من الألم. وفي وسع أليك أن يعميه ويصمه قبل أن يتمكن من التقدم خطوة واحدة في اتجاه آرو. ما كان أحد

يعرف قدرتي على إيقافهما... ما كان إدوارد نفسه عالماً بها.

أمسك آرو يد إدوارد بابتسامة لا قلق فيها. أغمض عينيه على الفور ثم ارتعد كتفاه تحت وطأة تدفق المعلومات.

كل فكرة سرية... كل خطة... كل تأمل... كل ما سمعه إدوارد في عقول الآخرين خلال الشهر الماضي صار عند آرو. ثم صار عنده كل ما رأته أليس... كل حركة أو نأمة في أسرتنا... كل صورة في رأس رينيمي... كل قبلة... كل لمسة بيني وبين إدوارد... صار هذا كله ملك آرو أيضاً.

همهمت محبطة... عاجزة... فتعكر درعي لشدة انزعاجي. تغير شكله وحاول الارتداد صوبي.

سمعت زافرينا تهمس لي: «مهلاً يا بيلا!»

شددت على أسناني.

تابع آرو تركيزه على ذكريات إدوارد. كان رأس إدوارد محنياً أيضاً وكانت عضلات رقبته متوترة... كان يقرأ كل ما أخذه آرو منه ويقرأ ردود أفعال آرو كلها.

استمرت هذه المحادثة الثنائية غير المتكافئة زمناً جعل حرس الفولتوري أنفسهم في حالة اضطراب. سرت تمتمات خفيضة عبر صفوفهم لكن كايوس عوى آمراً بالصمت. كانت جين مثل من يهم بالوثب... غير قادرة على ضبط نفسها. وتصلب وجه ريناتا تحت وطأة توترها. تفحصت لحظة درعها القوي الذي بدا لي ضعيفاً مشكوكاً فيه، رغم فائدته لآرو. استطعت أن أرى أنها ما كانت مقاتلة. كانت مهمتها الحماية لا القتال. ما كان في عينيها تعطش للدم. كانت فجة... حديثة العهد... مثلي. أعرف الآن أنني قادرة على إفنائها إذا جرى قتال بيننا.

عدت إلى التركيز عندما انتصب آرو واقفاً من جديد وفتح عينيه. كانت تعابير هاتين العينين تشي بالقلق والخوف. لكنه لم يترك يد إدوارد.

ارتخت عضلات جسم إدوارد بعض الشيء.

سأله إدوارد بصوته المخملي الهادئ: «هل رأيت؟»

أجابه آرو: «نعم... رأيت حقاً!»... بدا مستمتعاً... «لا أدري إن كان بين الآلهة أو الفانين اثنان ممن رأوا بمثل هذا الوضوح؟»

ظهر على وجوه جنود الحرس المنضبطة تعبير عدم التصديق... لابد أن تعبير وجهي كان مثل تعبير وجوههم.

تابع آرو: «لقد أعطيتني الكثير مما يجب أن أفكر فيه يا صديقي الشاب. أكثر بكثير مما توقعت». لكنه لم يفلت يد إدوارد... وكان توتر إدوارد يوحي بأنه يواصل الاستماع إلى آرو.

لم يجبه إدوارد.

سأله آرو... بل كان يرجوه تقريباً... باهتمام ملح مفاجئ: «هل أستطيع رؤيتها؟ لم أحلم أبداً... خلال قرون حياتي كلها... بوجود شيء من هذا النوع. يا لها من إضافة مذهلة إلى قصص التاريخ».

قال كايوس بحدة قبل أن يتمكن إدوارد من الإجابة: «ما الأمر يا آرو؟»... لكن سؤال آرو وحده جعلني أغمر رينيمي بين ذراعيّ... أحميها فأشدها إلى صدري.

«إنه شيء لم تحلم به في حياتك كلها يا صديقي العملي. تأمل لحظة واحدة... إن العدالة التي جئنا ننفذها ما عادت تصلح هنا».

فوجئ كايوس بهذه الكلمات ففح غاضباً.

قال آرو يهدئه: «رويدك يا أخي».

لابد أن هذه أخبار جيدة... تلك هي الكلمات التي كنا نرجو سماعها... ذلك هو الانفراج الذي ما حسبناه ممكن الحدوث. لقد أصغى آرو إلى الحقيقة. لقد اعترف آرو بأن القانون لم يُخرق.

لكن عيني اتجهتا صوب إدوارد فرأيت عضلات رقبته تتوتر. كررت في ذهني الكلمة التي قالها آرو لكايوس... «تأمل»... أحسست بمعناها المزدوج.

سأل آرو إدوارد من جديد: «هل تريني ابنتك؟»

ما كان كايوس وحده من زمجر استياءً من هذه الفكرة.

أومأ إدوارد برأسه إيماءة قبول مترددة. لقد كسبت رينيمي قلوباً كثيرة حتى الآن! وكان آرو يبدو دائماً زعيماً على القدامى كلهم. إذا اتخذ جانبنا فهل يعصاه الآخرون؟

مازال آرو ممسكاً بيد إدوارد. أجابه الآن على سؤال لم يسمعه أحد منا: «أظن أن التنازل في هذه النقطة أمر مقبول بالنظر إلى الظروف. سوف نلتقي في منتصف المسافة».

ترك آرو يد إدوارد فاستدار إدوارد ومضى نحونا. انضم إليه آرو ملقياً بذراعه على كتفه بحركة عادية كأنهما صديقان حميمان... لكنه ظل يلمس جلد إدوارد بإصبعه طيلة الوقت. راحا يسيران في الحقل في اتجاه صفوفنا.

تقدم جنود الحرس كلهم خطوة خلف آرو لكنه رفع يده فأوقفهم من غير أن ينظر إليهم.

«قفوا مكانكم يا أعزائي. إنهم لا يريدون بنا شراً إن بقينا مسالمين».

كانت ردود أفعال جنود الحرس أكثر صراحة من ذي قبل... كانت زمجرة وفحيحاً محتجاً، لكنهم لزموا مواقعهم. تململت ريناتا قلقة وهي تزيد قربها من آرو.

همست له: «سيدي!»

أجابها: «لا تخافي يا حبيبتي... الوضع بخير».

قال إدوارد مقترحاً: «لم لا تحضر بعض حرسك معك؟ سوف يشعرهم هذا بشيء من الراحة».

أومأ آرو موافقاً كما لو أن إدوارد أسدى إليه نصيحة حكيمة كان الأجدر به أن ينتبه إليها بنفسه. فرقع بأصابعه مرتين: «فيليكس... ديمتري!»

صار مصاصا الدماء بجانبه على الفور. كانا مثلما رأيتهما آخر مرة... طويلين داكني الشعر. كان ديمتري صلباً ليناً مثل نصل السيف... وكان

فيليكس ضخماً جسيماً مخيفاً مثل هراوة ملفوفة بالحديد.

راح الخمسة يتقدمون معاً في وسط ذلك الحقل المغطى بالثلج.

صاح إدوارد: «بيلا! أحضري رينيمي... وعدداً من الأصدقاء».

استنشقت نفساً عميقاً. كان جسدي كله متصلباً... متوتراً... معارضاً! كانت فكرة أخذ رينيمي إلى قلب ذلك الصدام شيئاً... لكنني أثق بإدوارد! هو يعرف إن كان آرو يخطط لأي خدعة في هذه اللحظة.

كان من حول آرو ثلاثة يحمونه. سأحضر معي اثنين! قررت في ثانية واحدة فقلت بصوت هادئ: «جايكوب! إيميت!» اخترت إيميت لأنه يموت رغبة في الذهاب. واخترت جايكوب لأنه لن يطيق البقاء خلفنا.

أومأ الاثنان... وابتسم إيميت.

سرت عبر الحقل وهما معي. سمعت زمجرة جديدة تصدر عن جنود الحرس عندما عرفوا خياري... من الواضح أنهم لا يثقون بالمستذئبين. رفع آرو يده فأزاح احتجاجاتهم كلها وأسكتها.

همس ديمتري لإدوارد: «لديكم أصدقاء يثيرون الاهتمام!»

لم يجبه إدوارد، لكن زمجرة منخفضة انطلقت من بين أسنان جايكوب.

وقفنا على بعد أمتار قليلة من آرو. انفصل إدوارد عن يد آرو الممتدة فانضم إلينا وأمسك بيدي.

تواجهنا صامتين لحظة من الزمن ثم حياني فيليكس بصوت منخفض.

ابتسم ابتسامة واثقة مغرورة: «مرحباً من جديد يا بيلا!»... لكنه واصل متابعة أدق حركات جايكوب.

ابتسمت ابتسامة حذرة لمصاص الدماء الجبلي: «مرحباً يا فيليكس».

ابتسم فيليكس: «تبدين في أحسن حال! يبدو أن الخلود مناسب لك».

«شكراً جزيلاً».

«أهلاً بك! من المؤسف جداً...»

ظل نصف جملته معلقاً في الهواء لكنني ما كنت في حاجة إلى قدرات

إدوارد حتى أستطيع تخيل تتمتها. . . «من المؤسف جداً أننا سوف نقتلك بعد ثانية واحدة».

تمتمت: «نعم. . . مؤسف جداً».

غمز لي فيليكس بعينه.

ما كان آرو يلقي بالاً إلى حديثنا. مال برأسه جانبياً. . . كان مفتوناً: «أستطيع سماع قلبها الغريب». . . قالها بهمس يكاد يكون موسيقياً. . . «أشم رائحتها الغريبة». . . ثم تحولت عيناه الغائمتان صوبي. . . «الحقيقة يا بيلا الشابة هي أن الخلود جعلك أكثر حسناً. . . كأنك مصنوعة لهذه الحياة».

أومأت برأسي شاكرة هذه الملاطفة.

سألني وهو ينظر إلى القلادة في عنقي: «هل أعجبتك هديتي؟»

«إنها جميلة. . . هذا كرم كبير منك. شكراً لك. كان عليّ أن أبعث لك برسالة شكر».

ضحك آرو مسروراً: «هذا شيء بسيط كنت أحتفظ به. ظننت أنه يمكن أن يكون تكملة مناسبة لوجهك الجديد. إنه كذلك فعلاً!»

سمعت فحيحاً خافتاً في قلب صفوف الفولتوري. نظرت من فوق كتف آرو. همم! يبدو أن جين ما كانت مسرورة بأن يقدم لي آرو هدية.

تنحنح آرو مطالباً بانتباهي ثم سألني بصوت عذب: «هل لي بتحية ابنتك يا بيلا الجميلة؟»

هذا ما كان أملنا معقوداً عليه. . . هكذا قلت لنفسي. . . هكذا رحت أذكر نفسي. كنت أقاوم ذلك الدافع الذي يريد أن يجعلني أحمل رينيمي وأفر بها. . . تقدمت خطوتين بطيئتين. صار درعي ورائي. . . يحمي بقية جماعتي. . . أما أنا ورينيمي فكنا من غير حماية. أحسست أن هذا غير صحيح. . . أنه مخيف.

لاقانا آرو. . . كان وجهه يشع حبوراً.

تمتم يقول: «إنها بارعة الجمال! شديدة الشبه بك وبإدوارد». . . ثم قال بصوت أعلى: «مرحباً يا رينيمي».

نظرت رينيمي إلي بهدوء فأومأت برأسي.

أجابته بصوتها المرتفع الرنان: «مرحباً يا آرو».

أشرقت عينا آرو.

همس كايوس من خلفه: «ما الأمر؟». . . كانت حاجته إلى السؤال تثير حنقه.

قال آرو مخاطباً كايوس ثم مخاطباً بقية الحرس من غير أن يحول أنظاره المسحورة عن رينيمي: «نصف خالدة. . . نصف فانية! حبلت بها أمها المولودة حديثاً وحملتها في رحمها البشري».

قاطعه كايوس: «مستحيل!»

«إذن، هل تظن أنهم خدعوني يا أخي؟». . . كانت تعابير وجه آرو توحي باستمتاع كبير، لكن كايوس انكمش عند سماع هذه الكلمات. . . «وهل صوت نبض قلبها الذي تسمعه خدعة أيضاً؟»

تجهم كايوس وبان عليه الأسى كما لو أن سؤال آرو اللطيف كان لكمة أصابته.

حذره آرو وهو يواصل الابتسام لرينيمي: «اهدأ وتمهل يا أخي. أعرف كم تحب عدالتك. . . لكن العدالة غير كامنة في اتخاذ أي إجراء ضد هذه الصغيرة الفريدة بسبب أبويها. لدينا أشياء كثيرة نتعلمها. . . أشياء كثيرة جداً! أعرف أنك لست من المتحمسين لجمع قصص التاريخ. . . لكن صبراً عليّ يا أخي. . . دعني أضيف فصلاً جديداً يذهلني لشدة استحالته. جئنا من أجل تطبيق العدالة وحدها. . . جئنا غاضبين من أصدقائنا الكاذبين. . . لكن، انظر ماذا وجدنا بدلاً من ذلك! وجدنا معرفة جديدة رائعة بأنفسنا. . . بقدراتنا وإمكانياتنا».

مد يده إلى رينيمي يدعوها. . . لكنها ما كانت تريد الذهاب إليه. مالت بجسدها مبتعدة عني. . . مطت جسمها إلى الأعلى حتى تلمس وجهه بإصبعها.

ما كانت الصدمة هي ردة فعل آرو على حركتها. . . لقد كان معتاداً على

تدفق الأفكار والذكريات إليه من الآخرين... مثلما كان إدوارد!

ابتسمت ابتسامته وزفر مرتاحاً راضياً. همس: «رائع!» عادت رينيمي إلى حضني... كان وجهها الصغير شديد الجدية.

قالت له: «من فضلك!»

صارت ابتسامته بالغة اللطف: «طبعاً! ليست بي رغبة في إلحاق الأذى بمن تحبين... يا رينيمي الغالية!»

كانت صوت آرو صادقاً بعث الراحة في نفسي... انطلت عليّ هذه النبرة لحظة واحدة ثم سمعت صرير أسنان إدوارد... ومن خلفنا زمجرت ماجي عندما سمعت كذبته.

قال آرو متفكراً... كما لو أنه لم ينتبه إلى ردة الفعل على كلماته السابقة: «أتساءل...» استدارت عيناه فجأة ناحية جايكوب. وبدلاً من نظرة القرف التي كانت في أعين بقية الفولتوري تجاه الذئب الضخم... كانت عينا آرو مملوءتين بتوق لم أستطع فهمه.

قال إدوارد وقد فارق الحياد صوته الذي جاء الآن قاسياً خشن النبرة: «لن ينجح الأمر بهذه الطريقة!»

قال آرو: «إنها مجرد فكرة ضلت طريقها»... راح ينظر إلى جايكوب بإعجاب واضح ثم انتقلت عيناه إلى صفي الذئاب من خلفنا. لا أدري ما الذي جعلته رينيمي يراه، لكنه بدا فجأة شديد الاهتمام بالذئاب.

«إنهم لا ينتمون إلينا يا آرو... ليسوا ملكاً لنا! إنهم لا يتبعون تعليماتنا بتلك الطريقة. إنهم هنا لأنهم أرادوا الوجود هنا».

أطلق جايكوب زمجرة وعيد.

قال آرو: «لكن الظاهر أنهم مرتبطون بكم ارتباطاً شديداً... مرتبطون برفيقتك الشابة وأسرتك... موالون لكم». قال تلك الكلمة الأخيرة بلطف... كأنها يداعبها.

«إنهم ملتزمون بحماية أرواح البشر يا آرو. هذا ما يجعلهم قادرين على

التعايش معنا. لكنهم غير قادرين على التعايش معكم إلا إذا كنتم تعتزمون تغيير نمط حياتكم».

ضحك آرو مجبوراً: «كانت فكرة عابرة ضلت سبيلها. أنت تعرف كيف يكون هذا! لا يستطيع أحد منا ضبط رغبات وعيه الباطن ضبطاً كاملاً».

قال إدوارد مكشراً: «أعرف كيف يكون هذا! وأعرف أيضاً الفارق بين هذا النوع من الأفكار وبين الأفكار التي لها غاية كامنة خلفها. لن ينجح الأمر يا آرو».

استدار رأس جايكوب الضخم ناحية إدوارد وخرج من بين أسنانه صوت احتجاج خافت.

تمتم إدوارد يجيبه: «لقد داعبته فكرة... حرس من الذئاب».

مرت لحظة من الصمت الميت... ثم راح صوت زمجرة الذئاب الحانقة يمزق هدوء المكان.

عوى أحد الذئاب بصوت آمر حاد... أظن أنه سام، رغم أني لم أستدر لأنظر... تحول ذلك الاحتجاج إلى صمت مطبق منذر بالشؤم.

قال آرو ضاحكاً من جديد: «أظن أن هذا يجيب على سؤالي. لقد اختارت هذه الجماعة طريقها».

نفخ إدوارد وانحنى إلى الأمام. شددت على ذراعه متسائلة عما خطر في بال آرو فسبب ردة فعل إدوارد العنيفة. اتخذ فيليكس وديمتري وضعية هجومية. لكن آرو أشار لهما بيده من جديد. عاد الجميع إلى وضعهم السابق... وعاد معهم إدوارد.

قال آرو بنبرة صارت فجأة مثل نبرة رجل أعمال منشغل: «لدينا أمور كثيرة نناقشها. لدينا أشياء كثيرة نقررها. اسمحوا لي بالانصراف يا أعزائي... فليسمح لي حاميكم ذو الفراء أيضاً... عليّ التشاور مع إخوتي».

37

خطط مخادعة

لم يعد آرو صوب حرسه القلقين المنتظرين عند الجهة الشمالية بل أشار إليهم أن يتقدموا.

راح إدوارد يتراجع على الفور وهو يشد ذراعي وذراع إيميت. أسرعنا عائدين لكن أبصارنا ظلت معلقة بذلك الخطر المتقدم نحونا. كان جايكوب أبطأنا تراجعاً... رأيت شعر كتفيه منتصباً واقفاً ورأيته يكشر عن أنيابه ناحية آرو. كانت رينيمي ممسكة بنهاية ذيله أثناء تراجعنا كانت تمسكه كما تمسك سوطاً... تجبره على البقاء معنا. بلغنا بقية أفراد أسرتنا لحظة أحاطت العباءات القاتمة بآرو من جديد.

ما عاد يفصلنا الآن إلا خمسون متراً... مسافة يمكن لأي منا اجتيازها بقفزة واحدة... في جزء من الثانية.

راح كايوس يجادل آرو من فوره: «كيف يمكنك قبول هذه الفضيحة؟ لماذا نقف هنا عاجزين في مواجهة جريمة بهذه البشاعة والوضوح؟... جريمة يحاولون التستر عليها بهذه الألاعيب السخيفة!»... كانت ذراعاه ثابتتين متصلبتين على جانبيه... وكانت قبضتاه مشدودتين. لماذا لا يلمس آرو فيجعله يرى أفكاره؟ لعلنا نرى انشقاقاً في صفوفهم! أنكون محظوظين إلى هذا الحد؟

قال له آرو هادئاً: «لأنها الحقيقة! كل كلمة منها! انظر عدد الشهود

الجاهزين لتقديم الدليل على أنهم رأوا هذه الطفلة العجيبة تنمو وتكبر منذ أن عرفوها قبل فترة وجيزة. إنهم مستعدون للشهادة بأنهم أحسوا حرارة الدم النابض في عروقها». أشار آرو بيده إشارة واسعة... من آمون الواقف عند إحدى النهايتين إلى سيوبهان عند النهاية الأخرى.

صدرت عن كايوس استجابة غريبة لكلمات آرو المهدئة... بدأت استجابته منذ ذكر آرو كلمة «شهود» تبخر الغضب في قسمات وجهه وحل محله حساب بارد. راح ينظر إلى شهود الفولتوري وعلى وجهه تعبير بدا عصبياً... على نحو غريب.

نظرت بدوري إلى ذلك الحشد الغوغائي الغاضب فرأيت على الفور أن هذا الوصف ما عاد ينطبق عليه. تحول التوثب إلى شيء من الارتباك، وانداحت بينهم أحاديث هامسة... كانوا يحاولون فهم ما جرى.

كان كايوس متجهم الوجه... غارقاً في أفكاره. وكانت تعابير وجهه المتأملة تغذي نار غضبي الحارقة... لكنها كانت تقلقني أيضاً. ماذا لو تحرك الحرس عند إشارة خفية كما فعلوا أثناء سيرهم؟ رحت أتفقد درعي لكنني وجدته منيعاً كما كان. جعلته الآن قبة واسعة ضمت جماعتنا كلها.

كنت أحس لمسات حادة من الضوء حيث يقف أفراد أسرتي وأصدقائي... كان لكل منها نكهتها الخاصة الفردية حتى ظننت أنني قادرة على التعرف على أصحابها بعد فترة من التدريب. لكنني عرفت إدوارد فوراً... كان ضوؤه الأكثر ألقاً بينهم جميعاً. لكن المساحات الفارغة حول تلك النقاط المتألقة أثارت قلقي. ما كان درعي حاجزاً مادياً! إذا تمكن أي جندي فولتوري عنده قدرات خاصة من الدخول تحته فلن يعود الدرع قادراً على حماية أحد منا... إلا أنا! تغضن جبيني عندما رحت أركز تفكيري محاولة جعل ذلك الدرع المرن يتقلص قليلاً. كان كارلايل أكثرنا تقدماً ناحية الأعداء. رحت أسحب الدرع شبراً بعد شبر محاولة جعله يلف جسد كارلايل.

كأن درعي راغب في التعاون! لقد غير شكله عندما تحرك كارلايل قليلاً

ليقف قريباً من تانيا. امتط الدرع المرن وتحرك معه منجذباً إلى ضوئه!

مرت ثانية واحدة. . . مازال كايوس متأملاً. تمتم أخيراً: «المستذئبون».

انتابني ذعر مفاجئ. أدركت أن أكثر المستذئبين كانوا خارج حمايتي. هممت بمد درعي إليهم لكني أدركت. . . يا للغرابة. . . أنني أرى أضواءهم. هذا عجيب! سحبت الدرع قليلاً حتى صار آمون وكيبي، أبعد شخصين عند حافة جماعتنا، خارجه مع الذئاب. لكن ضوءاهما اختفيا فور خروجهما من تحت الدرع. أما الذئاب فما تزال شعلاتها مضيئة مرئية. . . ليست شعلات كل الذئاب بل نصفها. مددت الدرع من جديد فصارت شعلات الذئاب كلهم مرئية لحظة صار سام داخل الدرع.

لابد أن التواصل بين عقولهم أشد مما كنت أتوقع. إذا كان الزعيم داخل الدرع فإن عقولهم كلها تكون محمية مثل عقله.

أجاب آرو كلام كايوس بنظرة متألمة: «آه. . . يا أخي!».

سأله كايوس: «ألعلك تدافع عن هذا التحالف أيضاً يا آرو! إن أبناء القمر أعداء لنا منذ فجر الزمان. لقد طاردناهم وقتلناهم في أوروبا وآسيا حتى شارفوا على الفناء. لكن كارلايل يرعى علاقة إلفة ومحبة مع وجودهم هنا. لاشك في أنه يسعى إلى الإطاحة بنا فهي الطريقة المثلى لحماية نمط حياته المعوجّ».

تنحنح إدوارد بصوت مرتفع فنظر كايوس إليه. وضع آرو يده الرقيقة النحيلة على وجهه كأنه يريد إخفاء إحراجه من تصرف زميله.

قال إدوارد: «إنه وقت الظهيرة يا كايوس!». . . ثم تابع مشيراً إلى جايكوب. . . «من الواضح أنهم ليسوا من أبناء القمر. لا علاقة لهم بأعدائك في الجانب الآخر من العالم».

رد عليه كايوس حانقاً: «أنت تستولد المسوخ هنا».

تصلب فكا إدوارد لحظة ثم قال بصوت هادئ متوازن: «بل هم ليسوا مستذئبين أيضاً. يستطيع آرو إخبارك كل شيء عن هذا الأمر إن كنت لا تصدقني».

ليسوا مستذئبين! ألقيت نظرة ذاهلة ناحية جايكوب. رفع جايكوب كتفيه

الضخمين ثم أنزلهما. . . إنه حائر أيضاً! ما كان يعرف معنى كلام إدوارد. . . مثلي.

تمتم آرو: «عزيزي كايوس! لو أنك سمحت لي بالإطلاع على أفكارك لحذرتك من إثارة هذه النقطة. صحيح أن هذه المخلوقات تظن أنها من المستذئبين، لكنها ليست كذلك. لعل الاسم الأكثر صحة هو. . . المتغيرون! أما اختيار شكل الذئب فقد جاء بمحض المصادفة. كان يمكن أن يكون دباً أو حدأة أو فهداً عندما حدث التحول الأول. لا علاقة لهذه المخلوقات بأبناء القمر. لقد ورثوا هذا الجلد عن آبائهم. إنه وراثي. . . وهم لا يزدادون عدداً عن طريق نقل العدوى إلى الآخرين كما يفعل المستذئبون الحقيقيون».

نظر كايوس غاضباً إلى آرو. . . كان منزعجاً. . . وكان في وجهه شيء آخر. . . لعله اتهام بالخيانة!

قال بصوت لا تعبير فيه: «إنهم يعرفون سرنا».

هم إدوارد بالرد على هذا الاتهام لكن آرو سبقه إلى الكلام: «إنهم مخلوقات من عالمنا الخارق يا أخي. بل لعلهم أكثر منا اهتماماً بالسرية. لا أرى أنهم يستطيعون كشف أمرنا. احذر يا كايوس! لن نصل إلى شيء عبر مزاعم صادقة ظاهراً كاذبة باطناً».

تنفس كايوس عميقاً ثم أومأ برأسه. تبادل الرجلان نظرة طويلة محملة بالدلالة.

أظن أنني فهمت التوجيه الكامن خلف كلمات آرو التي اعتنى باختيارها. لن تفيده الاتهامات الكاذبة في إقناع الشهود المتفرجين. . . من الجانبين. لعل سبب التوتر الظاهر بين الرجلين هو أن كايوس ما كان شديد الاهتمام بالحفاظ على المظاهر كما كان آرو. كانت المذبحة الوشيكة أكثر أهمية في نظر كايوس من المحافظة على نظافة السمعة.

قال كايوس فجأة وهو يحول عينيه ناحية إيرينا: «أريد أن أتحدث مع مصدر معلوماتنا».

ما كانت إيرينا مصغية للحديث بين كايوس وآرو. كان وجهها معذباً وكانت عيناها معلقتين بشقيقتيها. . . كانت مستعدة للموت! صار واضحاً على وجهها الآن أنها أدركت زيف اتهامها.

عوى كايوس: «إيرينا!». . . ما كان مرتاحاً لمخاطبتها باسمها.

نظرت إليه وقد أجفلها صوته. ظهر عليها الخوف في اللحظة نفسها.

أشار لها كايوس بإصبعه.

تحركت مترددة فوقفت أمام كايوس من جديد.

بدأ كايوس يقول: «الظاهر أنك كنت مخطئة تماماً في مزاعمك».

انحنت تانيا وكيت إلى الأمام قلقتين.

همست إيرينا: «آسفة! كان علي التأكد مما رأيت. لكنني لم أتصور أبداً. . .» أشارت صوبنا إشارة عاجزة.

سأله آرو: «عزيزي كايوس! هل تتوقع منها أن تدرك في لحظة واحدة شيئاً يبلغ هذا الحد من الغرابة والاستحالة؟» لو كان أي منا مكانها لخرج بالاستنتاج نفسه.

مد كايوس أصابعه صوب آرو يريد إسكاته ثم خاطبها بصوت صارم حاد: «نعرف جميعاً أنك مخطئة! لكني أسألك عن دوافعك».

انتظرت إيرينا تتمة كلامه ثم رددت كلمته: «دوافعي!»

«نعم! ما الذي جعلك تتجسسين عليهم أصلاً؟»

ارتعشت إيرينا عندما سمعت كلمة. . . تتجسسين. . .

قال لها: «كنت غاضبة من أسرة كولن، أليس كذلك؟»

أدارت وجهها البائس ناحية كارلايل وقالت: «نعم!»

تابع كايوس: «ما السبب؟»

همست: «لأن المستذئبين قتلوا صديقي فلم تسمح لي أسرة كولن بالانتقام له».

صحح آرو كلامها: «قتله المتغيرون!»

قال كايوس ملخصاً الحكاية: «إذن، اتخذت أسرة كولن جانب المتغيرين فوقفوا ضد أبناء جنسهم. . . ضد صديق صديقتهم».

صدر عن إدوارد صوت خافت يشير إلى قرفه. كان كايوس يفتش في قائمة الاتهامات. . . يبحث عن تهمة يستطيع التمسك بها.

تصلب كتفا إيرينا: «هكذا رأيت الأمر آنذاك».

انتظر كايوس قليلاً ثم أسرع يقول: «إذا كنت راغبة في تقديم شكوى رسمية ضد المتغيرين وضد أسرة كولن لأنها دافعت عن أفعالهم فهذا هو الوقت المناسب». ابتسم تلك الابتسامة الصغيرة القاسية وانتظر ريثما تقدم له إيرينا الذريعة التي أرادها منها.

لعل كايوس كان عاجزاً عن فهم معنى الأسرة الحقيقي. . . عاجزاً عن فهم العلاقات القائمة على الحب لا على حب السلطة! ولعله يبالغ في تقدير قوة الرغبة في الانتقام.

شدت إيرينا قامتها وسوّت كتفيها: «لا! لن أقدم شكوى ضد الذئاب ولا ضد أسرة كولن. لقد جئتم اليوم لقتل الطفلة الخالدة ثم تبين أن لا وجود لطفلة خالدة. الذنب ذنبي. . . لقد أخطأت وسوف أتحمل كامل المسؤولية عن هذا الخطأ. لكن أسرة كولن بريئة وليس لديكم سبب للبقاء هنا. أنا آسفة جداً». . . .

كانت العبارة الأخيرة موجهة إلينا. ثم استدارت إيرينا فواجهت شهود الفولتوري: «ما من جريمة هنا وما من سبب حقيقي يدعوكم إلى البقاء هنا».

رفع كايوس يده أثناء كلامها فظهرت فيها أداة معدنية غريبة الشكل. . . أداة محفورة مزينة!

كانت تلك إشارة! كانت الاستجابة لإشارته بالغة السرعة جعلتنا نحدق جميعاً مذهولين غير مصدقين. انتهى الأمر قبل أن يتاح زمن لأي ردة فعل.

وثب ثلاثة من جنود الفولتوري فاختفت إيرينا تماماً خلف عباءاتهم الرمادية. وفي اللحظة نفسها سمعنا صوت احتكاك معدني مخيف ملأ المكان كله. انزلق كايوس متحركاً إلى قلب تلك العاصفة الرمادية فتحول الصوت الزاعق المرعب

إلى شلال هائل من الشرر وألسنة اللهب. قفز الجنود مرتدين عن ذلك الجحيم الذي ظهر فجأة وعادوا من فورهم فاحتلوا أماكنهم في صفوف الحرس.

ظل كايوس وحده عند بقايا إيرينا الملتهبة. مازالت تلك الأداة المعدنية في يده تصب عليها دفقاً غزيراً من اللهب.

ثم صدر صوت تكة صغير فاختفت تلك النار الخارجة من يد كايوس. سرت زفرة عميقة في صفوف شهود الفولتوري.

أما نحن فلم تسمح لنا شدة ذهولنا بأن نصدر أي صوت. مخيف أن تعلم بقدوم الموت إليك بسرعة وبقسوة لا تعرف الرحمة... لكن رؤيته أمامك شيء آخر... أكثر هولاً.

ابتسم كايوس ابتسامة باردة: «لقد تحملت الآن مسؤولية أعمالها».

التفت عيناه صوب صفنا الأمامي... صوب تانيا وكيت المتجمدتين.

فهمت في تلك اللحظة أن كايوس ما كان يقلل من شأن الروابط العائلية الحقيقية. هذه خطته! ما كان يريد أن تقدم إيرينا شكواها، بل أراد عصيانها. أراد سبباً يسمح له بإفنائها... بإشعال شرارة العنف الذي ملأ الجو من حولنا مثل ضباب كثيف قابل للانفجار. وقد ألقى كايوس عود الثقاب في هذا الضباب.

صارت الروح المسالمة التي سادت الجو قبل قليل في وضعية متقلقلة... صارت موشكة على السقوط في كل لحظة. إن بدأ القتال فلن يكون إيقافه ممكناً. سيستمر حتى يفنى أحد الطرفين فناء تاماً. نحن من سيفنى... كان كايوس يعرف هذا.

وكان إدوارد يعرف هذا أيضاً!

صاح إدوارد: «أوقفوهما!»... ثم قفز فأمسك بذراعي تانيا عندما همت بالوثب ناحية كايوس المبتسم وهي تطلق زعيقاً مجنوناً غاضباً. لم تستطع الافلات من إدوارد، جاء كارلايل فطوق وسطها بذراعيه تطويقاً محكماً.

راح يقنعها بالمنطق وهي تقاومه: «فات وقت إنقاذها. لا تعطيه الذريعة التي قتلها من أجلها!»

لكن السيطرة على كيت كانت أشد صعوبة. كانت تزعق من غير كلام... مثل تانيا. خطت الخطوة الأولى في هجومها الذي لن ينتهي إلا بموتنا جميعنا. كانت روزالي أقربنا إليها. لكن، قبل أن تتمكن روزالي من تثبيتها في مكانها صدمتها كيت صدمة كهربائية عنيفة جعلتها تسقط أرضاً. أمسك إيميت بذراع كيت وألقاها على الأرض ثم تراجع مترنحاً وقد خذلته ركبتاه. نهضت كيت واقفة على قدميها... ألن يستطيع أحد إيقافها؟

ألقى غاريت بنفسه عليها فأسقطها من جديد. لف ذراعيه حول جسمها وانطبق كل كف من كفيه على رسغ ذراعه الأخرى. رأيت جسده يتشنج تحت لسعاتها. أوشكت عيناه على الخروج من محجريهما لكنه لم يفلتها.

صاح إدوارد: «زافرينا!»

غامت عينا كيت وصار زعيقها أنيناً. أما تانيا فتوقفت عن المقاومة.

همست تانيا: «أعيدي إليّ بصري».

بحذر ولهفة شديدين رحت أشد درعي حتى يلف أصدقائي لفاً وثيقاً... ثم سحبته بحذر فائق حتى صارت كيت خارجه... جعلته غشاء رقيقاً يفصلها عن غاريت.

عند ذلك عاد غاريت فتمالك نفسه بعد أن تخلص من صدماتها وظل ممسكاً بها فوق الثلج.

همس لها: «إذا تركتك الآن فهل تعودين إلى صدمي من جديد يا كيت؟»

أجابته بزمجرة عنيفة... مازالت كيت ترتنح معمية البصر!

قال كارلايل بصوت منخفض متوتر: «أصغيا إليّ يا تانيا وكيت. لن يساعدها انتقامكما الآن. ما كانت إيرينا تريد أن تهدرا حياتكما على هذا النحو. عليكما التفكير في ما تفعلان. إذا هجمتنا الآن فسوف نموت جميعاً».

تهدل كتفا تانيا حزناً وأسى ومالت صوب كارلايل تستند إليه. هدأت كيت أخيراً فواصل كارلايل وغاريت مواساة الشقيقتين بكلمات مستعجلة.

عاد انتباهي إلى ثقل تلك النظرات التي راحت تضغط على درعي أثناء

لحظة الفوضى. ومن زاوية عيني رأيت أن إدوارد والجميع. . . عدا كارلايل وغاريت. . . قد عادوا إلى سابق انتباههم.

كانت أثقل النظرات نظرة كايوس الذي راح يحدق غاضباً غير مصدق في كيت وغاريت. كان آرو يراقبهما أيضاً. . . وكان عدم التصديق أبرز ما عبر عنه وجهه. كان يعرف ما تفعله كيت. . . لقد رأى قدراتها في ذكريات إدوارد.

أتراه يفهم الآن ماذا يحدث؟ هل أدرك أن درعي قد كبر وصار أكثر قوة ودقة مما رآه في ذكريات إدوارد؟ أم لعله يظن أن لدى غاريت نوعاً من المناعة؟

ما عاد حرس الفولتوري على انتباههم المنضبط. . . صاروا جاثمين مستعدين للوثب. . . لشن هجوم معاكس فور هجومنا.

ومن خلفهم كان أربعة وثلاثون شاهداً ينظرون إلينا وعلى وجوههم تعابير غير تعابيرهم لحظة دخولهم هذا المكان. تحول ارتباكهم إلى شك. . . هزمهم قتل إيرينا الذي تم بسرعة البرق. . . ما جريمتها؟

من غير ذلك الهجوم الفوري الذي أراد كايوس تحقيقه من خلال تصرفه هذا، صار شهود الفولتوري يتساءلون عن حقيقة ما يجري. التفت آرو إليهم سريعاً. راقبت تعابير وجهه فرأيت فيها لمحة من حيرة وانزعاج. ما عاد لديه الجمهور الذي أراد.

سمعت ستيفان وفلاديمير يتهامسان مسرورين بانزعاج آرو.

كان واضحاً حرص آرو على الاحتفاظ بمظاهر الرفعة والسمو (حسب تعبير الرومانيين). لكنني لم أصدق أن الفولتوري يمكن أن يتركونا بسلام إنقاذاً لسمعتهم. بعد أن يفرغوا من أمرنا سوف يذبحون شهودهم لتلك الغاية. أحسست بشفقة مفاجئة غريبة على ذلك الجمع من الغرباء الذين جاء بهم الفولتوري ليشاهدوا موتنا. سوف يصطادهم ديمتري واحداً بعد واحد حتى يفنيهم جميعاً.

يجب أن يموت ديمتري. . . من أجل جايكوب ورينيسمي. . . من أجل أليس وجاسبر. . . من أجل أليستير. . . ومن أجل هؤلاء الغرباء الذين ما كانوا يعرفون أن هذا اليوم سيكلفهم أرواحهم.

مس آرو كتف كايوس مساً خفيفاً: «لقد عوقبت إيرينا لأنها جاءت بأخبار كاذبة عن هذه الطفلة». . . هذا تبريره لإعدامها إذن! . . . تابع يقول. . . «لعل علينا الآن أن نعود إلى المسألة التي بين أيدينا!»

انتصب جسم كايوس وما عاد وجهه مقروءة. نظر إلى الأمام دون أن يرى شيئاً. ذكرني وجهه. . . على نحو غريب. . . بمن تلقى لتوه نبأ تخفيض رتبته.

تحرك آرو إلى الأمام. . . تحرك معه فيليكس وريناتا وديمتري على نحو تلقائي.

قال: «لا يجوز لنا أن نهمل شيئاً. أريد التحدث مع بعض شهودكم. . . إنها الإجراءات كما تعرفون». قال هذا ملوحاً بيده من غير اهتمام.

حدث أمران في وقت واحد. اتجهت عينا كايوس إلى آرو وعادت تلك الابتسامة القاسية إلى وجهه. وصدر عن إدوارد فحيح خافت ثم شد قبضتيه بعنف شديد حتى لكأن عظامهما صارت على وشك شق جلده الماسي الصلب.

ليتني أستطيع سؤاله عما يجري! لكن آرو كان قريباً إلى حد يجعله قادراً على سماع أدنى نأمة. رأيت كارلايل يلتفت قلقاً ناحية إدوارد. . . ثم رأيت وجهه يتوتر ويقسو.

لقد حاول كايوس إلقاء اتهامات لا طائل تحتها وقام بمحاولات متهورة لإشعال نار القتال، لكن من المؤكد أن آرو توصل إلى أسلوب أكثر تأثيراً.

سار آرو مثل شبح حتى بلغ النهاية الغربية لصفنا ثم توقف بعيداً نحو عشرة أمتار عن آمون وكيبي. انتصب شعر الذئاب القريبة لكنها التزمت مواقعها.

قال آرو بصوت دافئ: «آه! آمون. . . جاري الجنوبي! لم تزرني منذ فترة بعيدة جداً».

جعل القلق آمون عاجزاً عن الحركة وجعل كيبي تمثالاً يقف إلى جانبه. أجابه بشفتين ثابتتين: «لا يعني الزمان لنا شيئاً كثيراً لا أكاد ألحظ مروره».

قال آرو: «هذا صحيح! لكن لعل لديك أسباباً أخرى للبقاء بعيداً عني!»

لم يقل آمون شيئاً.

«يمكن لتنظيم القادمين الجدد ضمن جماعة واحدة أن يستهلك زمناً طويلاً. أعرف هذا جيداً! ولحسن حظي لدي من يقوم بهذا الشيء الممل. يسعدني أن الإضافة الجديدة إلى جماعتك كانت مناسبة تماماً. ولكم أحب التعرف عليهم. لابد أنك كنت تعتزم زيارتي قريباً».

قال آمون: «طبعاً»... كانت نبرة صوته خالية من أي تعبير... وما كان ممكناً أن يعرف المرء إن كان فيها خوف أو تهكم.

«لا بأس! ها نحن معاً الآن... أليس هذا جيداً؟»

أومأ آمون برأسه... مازال وجهه من غير تعبير.

«لكن سبب وجودك هنا ليس لطيفاً للأسف! لقد استدعاك كارلايل من أجل الشهادة».

«نعم».

«وما شهادتك؟»

تكلم آمون بذلك الصوت نفسه... من غير مشاعر: «راقبت الطفلة المعنية. كان واضحاً منذ البداية تقريباً أنها ليست طفلة خالدة...»

قاطعه آرو: «لعل علينا إعادة صياغة مصطلحاتنا فقد ظهرت تصنيفات جديدة الآن. أنت تقصد بعبارة طفلة خالدة طفلة بشرية عضها أحدنا فحولها إلى مصاصة دماء».

«نعم! هذا ما أعنيه».

«هل لديك ملاحظات أخرى عن هذه الطفلة؟»

«هي الأشياء نفسها التي جعلك إدوارد تراها في ذهنه. إنها ابنته من الناحية الجسدية... وهي تنمو... وهي تتعلم أيضاً».

قال آرو وقد ظهرت في نبرته الودية بوادر من نفاد الصبر: «نعم... نعم! لكن، ما الذي لاحظته تحديداً خلال أسابيع إقامتك معهم؟»

تغضن جبين آمون: «لاحظت أن نموها سريع جداً».

ابتسم آرو: «وهل ترى أن من الواجب تركها حية؟»

أفلت فحيح من بين شفتي... ما كنت وحدي. ردد صدى احتجاجي نصف مصاصي الدماء الواقفين في صفنا. كان الصوت هسيساً منخفضاً غاضباً لبث معلقاً في الهواء. وعلى الناحية الأخرى... صدر عن بعض شهود الفولتوري رد فعل مماثل. خطا إدوارد متراجعاً ووضع كفه على معصمي.

لم يستدر آرو عندما سمع ذلك الصوت لكن آمون راح يتلفت قلقاً. ثم قال غير جازم: «لم آت إلى هنا لإصدار الأحكام».

أطلق آرو ضحكة خفيفة: «هذا خيارك أنت».

رفع آمون رأسه: «لست أرى خطراً في هذه الطفلة. إن سرعة تعلمها أكبر من سرعة نموها».

أطرق آرو برأسه مفكراً. ثم استدار ذاهباً.

ناداه آمون: «آرو!»

استدار آرو: «ماذا يا صديقي؟»

«لقد قدمت شهادتي. ما عاد لدي عمل هنا. أود أن أغادر هذا المكان الآن مع رفيقتي».

ابتسم آرو: «طبعاً يسعدني أنني استطعت الحديث معك قليلاً. لكننا سوف نلتقي عما قريب».

شد آمون على شفتيه وأحنى رأسه قليلاً... لقد أدرك التهديد في عبارة آرو. لمس ذراع كيبي وانطلقا يجريان سريعاً نحو الجنوب ثم غابا بين الأشجار. أعرف أنهما لن يتوقفا عن الجري قبل وقت طويل.

عاد آرو إلى سيره أمام خطنا متجهاً إلى الشرق. ثم توقف أمام سيوبهان الضخمة.

«مرحباً يا سيوبهان العزيزة! مازلت جميلة كعهدك دائماً».

مالت سيوبهان برأسها تنتظر تتمة كلامه.

سألها: «ماذا عنك؟ هل تجيبين على سؤالي مثل ما أجاب آمون؟»

قالت سيوبهان: «نعم... أجيب كما أجاب لكني أضيف شيئاً. إن رينيمي تدرك الحدود إدراكاً جيداً. إنها غير خطيرة على البشر... بل هي قادرة على الاختلاط بهم أكثر من كثير من مصاصي الدماء. إنها ليست خطراً يهدد بكشف أمرنا».

سألها آرو بصوت صاخ: «ألا تجدين فيها أي خطر؟»

زمجر إدوارد... كان صوت منخفض عنيف يعصف في حنجرته.

لمعت عينا كايوس القرمزيتان الغائمتان.

اقتربت ريناتا من سيدها أكثر من ذي قبل.

ترك غاريت كيت وتقدم خطوة إلى الأمام متجاهلاً يدها التي كانت تحاول تحذيره هذه المرة.

أجابت سيوبهان متمهلة: «أظن أنني لا أفهمك جيداً».

تراجع آرو إلى الخلف قليلاً. بدت حركته عادية، لكنه صار في الواقع أقرب إلى حرسه. صار فيليكس وديمتري وريناتا ملتصقين به أكثر من ظله.

قال آرو بصوت ملاطف: «لم يحدث أي خرق للقانون...» لكننا أحسسنا جميعاً أنه موشك على تغيير المعنى. حاولت مقاومة الغضب الذي أراد أن يخرج من حنجرتي زئيراً محتجاً. صببت ذلك الغضب على درعي... جعلته أكثر سماكة وتأكدت من أنه يحمي الجميع.

كرر آرو: «لم يحدث خرق للقانون. لكن، هل يعني هذا عدم وجود خطر؟!»... راح يهز رأسه هزاً رفيقاً... «هذه مسألة جديدة».

ما كانت ردة الفعل على كلامه إلا زيادة في توتر أعصاب الجميع. أما ماجي التي كانت عند أطراف جماعة مقاتلينا فراحت تهز رأسها غاضبة.

عاد آرو يذرع الأرض من جديد مفكراً... كان مثل من يطفو فوق الأرض. لاحظت أنه كان يزداد قرباً من حرسه مع كل حركة.

«إنها فريدة... فريدة تماماً... إلى حد غير معقول. سيكون قتلها خسارة حقاً. لأننا لن نستطيع أن نتعلم أكثر»... تنهد كأنه غير راغب في

المتابعة... «لكنها خطر علينا... خطر لا نستطيع تجاهله».

لم يجب أحد كلامه القاطع. ساد صمت مطبق وراح آرو يتابع الكلام كما لو كان يحدث نفسه.

«يا للمفارقة! كلما تطور البشر وازدادوا إيماناً بالعلم وسيطرة على عالمهم... كلما ابتعدنا عن حب الاكتشاف. صحيح أننا صرنا منسيين أكثر من أي وقت مضى بسبب عدم إيمانهم بالخوارق، لكنهم صاروا بفعل تقدمهم التكنولوجي قادرين، إذا أرادوا، على إلحاق الضرر بنا... بل هم يستطيعون إفناء بعض منا.

على مر آلاف السنين كان سرنا مسألة راحة بالنسبة لنا أكثر من كونه مسألة أمان فعلي. أما هذا القرن الأخير الصاخب الحانق فقد شهد ولادة أسلحة شديدة البأس وضعت الخالدين أنفسهم موضع الخطر. لا يحمينا الآن من هذه المخلوقات الضعيفة التي نصطادها إلا أنها تعتبر وجودنا مجرد أسطورة.

إن هذه الطفلة المدهشة»... رفع يده كأنه يهم بوضعها على رينيمي رغم أن أربعين متراً كانت بينهما... كاد يصل إلى موقعه ضمن صفوف الفولتوري... «إذا استطعنا معرفة مقدراتها... إذا استطعنا معرفتها معرفة اليقين... إذا عرفنا أنها ستبقى دائماً مجللة بالسرية التي تحمينا جميعاً... لكننا لا نعرف شيئاً عن تطورها. إن والديها قلقان من مستقبلها. لا نعرف كيف ستكون بعد أن تكبر»... توقف قليلاً ناظراً إلى شهودنا في البداية ثم ملقياً نظرة موحية على شهوده. كان صوته يوحي كذباً بأن كلماته هذه تعذبه.

واصل النظر إلى شهوده: «لا نستطيع الركون إلى شيء لا نعرفه. لا نستطيع التسامح إلا مع ما نعرفه جيداً. أما المجهول... فهو خطر علينا».

اتسعت ابتسامة كايوس.

قال كارلايل بصوت جامد: «أنت تتعجل الاستنتاج يا آرو».

ابتسم آرو... ظل وجهه لطيفاً وظل صوته رقيقاً كما كان: «اهدأ يا صديقي! دعنا لا نتسرع. دعنا ننظر إلى الأمر من جميع الجوانب».

تقدم غاريت خطوة إلى الأمام قائلاً بصوت متزن: «هل لي أن أقدم جانباً من هذه الجوانب حتى تفكر فيه؟»

قال آرو: «أنت من الرحالة!»... ثم أومأ برأسه موافقاً.

رفع غاريت رأسه. تركزت عيناه على مجموعة مصاصي الدماء في آخر الميدان. فقد راح يتحدث إلى شهود الفولتوري على نحو مباشر.

«جئت إلى هنا بطلب من كارلايل. جئت حتى أشهد... مثل الآخرين. لكن هذا ما عاد ضرورياً على الإطلاق فيما يخص الطفلة... لقد رأيناها جميعاً.

«لكني بقيت هنا حتى أشهد على شيء آخر»... أشار بإصبعه إلى مصاصي الدماء المترقبين: «أنتم! أعرف اثنين منكم... ماكينا وتشارلز... وأرى أيضاً رحالة بينكم... جوالة مثلي... غير تابعين لأحد. لذلك عليكم أن تفكروا جيداً فيما أقوله لكم الآن.

لم يأت القدامى إلى هنا من أجل العدالة مثلما قالوا لكم. لعلكم تنظرون مثلي إلى أعين هذه العشيرة... ولعل تعجبون للون عيونهم الذهبي. من الصعب فهمهم.. هذا صحيح. لكن القدامى ينظرون إليهم ويرون فيهم شيئاً آخر غير خيارهم الغريب... خيار الامتناع عن دم البشر... إنهم يرون فيهم قوة!

لقد رأيت الروابط بين أفراد هذه الأسرة. لاحظوا أنني قلت أسرة ولم أقل جماعة. إن أفرادها ذوي العيون الذهبية ينكرون طبيعتهم نفسها... فهل وجدوا عوضاً عنها؟ هل وجدوا شيئاً أكبر قيمة من إشباع الشهوة إلى شرب الدم؟ لقد أجريت دراسة صغيرة عليهم أثناء وجودي هنا ويبدو لي أن طبيعة حياتهم السلمية ملازمة لروابطهم العائلية القوية، بل هي ما يجعلها شيئاً ممكن الوجود. ما من عدوان هنا... ليس لديهم شيء مما رأيناه لدى عشائر الجنوب الكبيرة التي يزداد عددها ثم ينقص بسرعة شديدة بسبب نزاعاتها المتوحشة... أما هؤلاء، فليست لديهم أي نية أو رغبة في الهيمنة. إن آرو يعرف هذا جيداً... يعرفه أكثر مني».

نظرت إلى وجه آرو عندما كان غاريت يدينه... رحت أنتظر ردة فعله

لكن وجهه كان يوحي بشيء من الفكاهة المهذبة... مثل من يستمع إلى طفلٍ يهذر من غير معنى صابراً عليه ريثما يدرك أن أحداً لا يستمع إلى كلامه.

«أكد لنا كارلايل جميعاً عندما أخبرنا بما سيحدث... أكد لنا أنه لم يطلبنا حتى نقاتل. لقد وافق هذان الشاهدان...» أشار غاريت إلى سيوبهان وليام... «على تقديم شهادتهما من أجل جعل الفولتوري يتوقفون قليلاً حتى يتمكن كارلايل من عرض قضيته».

انتقلت عيناه إلى وجه إليازر: «لكن ثمة من يتساءل إن كان وجود الحق في صف كارلايل كافياً لوقف هذه العدالة المزعومة. هل جاء الفولتوري هنا لحماية سريتنا أم جاؤوا لحماية سلطانهم؟ هل جاؤوا من أجل تدمير مخلوق غير شرعي أم جاؤوا لتدمير نمط حياة لا يعجبهم؟ هل يقتنعون عند رؤيتهم أن الخطر المزعوم لم يكن إلا سوء تفاهم؟ أم لعلهم يتابعون ما جاؤوا من أجله من غير مواصلة التذرع بالعدالة! لدينا إجابات عن هذه الأسئلة كلها. لقد سمعناها في كلمات آرو الكاذبة... لدينا شخص يملك القدرة على معرفة الصدق من الكذب معرفة أكيدة... رأينا الإجابة أيضاً في ابتسامة كايوس التواقة لمواصلة ما جاء من أجله. ليس هذا الحرس إلا سلاحاً من غير عقل... أداة في يد سادته يستخدمونها من أجل الهيمنة.

ثم لدينا أسئلة أخرى... أسئلة عليكم طرحها بأنفسكم. من يحكمكم أيها الرحالة؟ هل أنتم خاضعون لإرادة غير إرادتكم؟ وهل أنتم أحرار في اختيار طريقكم أم تتركون الفولتوري يحددون طريقة عيشكم؟

لقد أتيت من أجل الشهادة... لكنني بقيت حتى أقاتل. ليس الفولتوري مهتمين بقتل الطفلة بل هم يريدون قتل إرادتنا الحرة».

عند ذلك استدار غاريت فواجه القدامى: «تعالوا إذن! كفوا عن إسماعنا هذه الحجج الكاذبة. كونوا صادقين فعبروا عن نواياكم مثلما نعبر عن نوايانا. سوف ندافع عن حريتنا. فهل تعتزمون مهاجمتنا لسلبنا هذه الحرية! عليكم الاختيار الآن... وليرَ هؤلاء الشهود الموضوع الحقيقي الذي يجري الجدل فيه الآن».

نظر إلى شهود الفولتوري من جديد... راحت عيناه تنقبان في وجوههم. كانت قوة كلماته ظاهرة على تعابيرهم: «لعلكم تفكرون في الانضمام إلينا! إن كنتم تظنون أن الفولتوري يمكن أن يتركوكم أحياء حتى تنقلوا هذه القصة فأنتم واهمون. قد يتمكنون من إفنائنا جميعاً... لكنهم قد لا يتمكنون من ذلك أيضاً. وقد يتضح لهم أننا أقوى مما يظنون. لعل الفولتوري يواجهون من يستطيعون هزيمتهم الآن. لكني أعدكم بأمر واحد... إذا هزمنا... فسوف تموتون».

أنهى كلمته الحارة بأن تراجع فوقف إلى جانب كيت متخذاً وضعية الاستعداد للهجوم... مستعداً للقتال.

ابتسم آرو: «كلمة جميلة يا صديقي الثوري!»

ظل غاريت على وضعه لكنه زمجر قائلاً: «ثوري! على من أثور؟ هل أنت مَلِكي؟ أم أنت تريد أن أدعوك سيدي أيضاً مثلما يدعوك أفراد حرسك مختلي العقول؟»

قال آرو بنبرة متسامحة: «اهدأ يا غاريت! كنت أقصد الإشارة إلى زمن ولادتك... أرى أنك مازلت وطنياً!»

حدق فيه غاريت غاضباً.

قال آرو: «فلنسأل شهودنا. فلنسمع أفكارهم قبل أن نتخذ قرارنا. قولوا لنا أيها الأصدقاء...» استدار آرو فأولانا ظهره من غير اهتمام وسار عدة أمتار صوب شهوده المتوترين الذين صاروا الآن أقرب إلى حافة الغابة... «ماذا ترون في هذا كله؟ أؤكد لكم أن الطفلة ليست كما كنا نظن! فهل نغامر بتركها حية؟ هل نعرض عالمنا للخطر حتى نترك هذه الأسرة كما هي؟ أم أن غاريت المتحمس محق في كلامه؟ هل تنضمون إليهم فتقاتلون نزوعنا المفاجئ إلى الهيمنة؟»

قابل الشهود نظراته بوجوه حذرة. ألقت واحدة منهم... امرأة صغيرة الحجم سوداء الشعر... نظرة على الرجل الأشقر المسمر الواقف إلى جانبها. سألت آرو فجأة وهي تحدق فيه: «أليس لدينا خيارات أخرى؟ إما أن نوافقك أو نقاتلك؟»

قال آرو وقد بدا عليه الذعر لفكرة أن أحداً يمكن أن يصل إلى هذا الاستنتاج الغريب: «بالطبع يا ماكينا الرائعة! يمكنك الذهاب بسلام كما فعل آمون... حتى إذا كنت غير موافقة على قرار المجلس».

نظرت ماكينا إلى وجه رفيقها من جديد فأومأ برأسه إيماءة لا تكاد تبين: «لم نأت إلى هنا من أجل القتال». توقفت قليلاً ثم استنشقت نفساً عميقاً وتابعت: «جئنا نشهد. شهادتنا هي أن هذه الأسرة بريئة. وكل ما قاله غاريت صحيح».

قال آرو بصوت حزين: «آه! يؤسفني أنك ترينا على هذه الصورة... لكنها طبيعة عملنا!»

تكلم رفيق ماكينا ذو الشعر الأشقر... تكلم بنبرة عالية عصبية: «ليس هذا ما أراه... بل ما أحسه»... التفت إلى غاريت وتابع يقول: «قال غاريت إن لديهم طريقة لمعرفة الكذب. وأنا أيضاً... أنا أعرف الحقيقة عندما أسمعها... وأعرف الكذب عندما أسمعه». كانت عيناه مذعورتين... اقترب من رفيقته منتظراً ردة فعل آرو.

أطلق آرو ضحكة خفيفة: «لا تخف يا صديقي تشارلز. لا شك في أن هذا الثوري مقتنع بما يقول».

قالت ماكينا: «لقد أدلينا بشهادتنا... سنذهب الآن».

تراجعت ببطء مع تشارلز... لم يستديرا حتى غابا بين الأشجار. بدأ أحد الغرباء يتراجع بالطريقة نفسها ثم تلاه ثلاثة غيره.

رحت أقيّم وضع مصاصي الدماء الباقين... كان عددهم سبعة وعشرين. كان بعضهم أكثر ارتباكاً وتشوشاً من أن يتمكنوا من اتخاذ القرار. لكن أكثرهم بدا لي مهتماً غاية الاهتمام بمعرفة اتجاه سير الأحداث. أظن أنهم تخلفوا عمن رحلوا ليعرفوا من الذي سينتصر فيطاردهم.

كنت واثقة من أن آرو رأى مثلما رأيت. استدار مبتعداً عنهم وسار نحو الحرس بخطوات محسوبة. توقف أمامهم وخاطبهم بصوت واضح.

«نحن أقل عدداً من خصومنا يا أصدقائي! لا نتوقع أي مساعدة خارجية. فهل نترك هذا الأمر من غير حل حتى ننقذ أنفسنا؟»

همسوا بصوت واحد: «لا يا سيدي».

«هل تبلغ قيمة حماية عالمنا حد التضحية بعدد منا؟»

همسوا: «نعم! لسنا خائفين».

ابتسم آرو وعاد إلى رفيقيه المتشحين بالسواد.

قال بصوت مظلم: «يا إخوتي! علينا أن نفكر في أشياء كثيرة».

قال كايوس متحمساً: «فلنجتمع ونتشاور».

كرر ماركوس من خلفه بنبرة عدم اهتمام: «فلنجتمع ونتشاور».

أولانا آرو ظهره من جديد فواجه رفيقيه. تماسكت أيديهم فشكلت مثلثاً متشحاً بالسواد.

فور انغماس آرو في تلك المشاورة الصامتة اختفى اثنان آخران من شهودهم. . . انطلقا إلى الغابة صامتين. ليتهم يسرعون في الجري. . . من أجل سلامتهم!

حان الوقت! فككت ذراعي رينيمي عن رقبتي.

«هل تذكرين ما قلته لك؟»

تدفقت الدموع من عينيها لكنها أومأت برأسها وهمست: «أحبك يا أمي».

كان إدوارد ينظر إلينا في هذه اللحظة. كانت عيناه متسعتين. نظر جايكوب إلينا من زاوية عينه الكبيرة القاتمة.

قلت لها: «أحبك أيضاً». . . ثم لمست الإطار المعلق في رقبتها. . . «أكثر من حياتي». . . قبلت جبينها.

صدر صوت نواح عن جايكوب.

وقفت على أصابع قدمي وهمست في أذنه: «انتظر حتى ينشغلوا تماماً في مداولاتهم ثم انطلق بها. ابتعد عن هذا المكان قدر ما تستطيع. وعندما تبلغ أبعد ما يمكن أن تصل إليه على الأقدام سوف تجد معها ما يلزمكما للذهاب بالطائرة».

جلل رعب شديد وجهي جايكوب وإدوارد. . . كان رعبهما واحداً رغم أن أحدهما كان حيواناً في تلك اللحظة.

مضت رينيمي إلى إدوارد فاحتضنها بين ذراعيه.

همس من فوق رأسها: «أهذا ما كنت تخفيه عني؟»

همست: «أخفيه عن آرو».

«هل هي فكرة أليس؟»

أومأت برأسي.

تلوى وجهه ألماً. . . وفهماً. أهكذا كان تعبير وجهي عندما تمكنت أخيراً من لغز المعلومات التي تركتها أليس؟

كان جايكوب يزمجر بصوت خافت. . . كانت زمجرة خفيفة جداً لا تعدو أن تكون هريراً متواصلاً. كانت مخالبه بارزة صلبة. . . وكانت أسنانه عارية.

قبل إدوارد جبهة رينيمي وخديها ثم حملها فوضعها فوق كتفي جايكوب. جلست مرتاحة على ظهره وأمسكت بشعره فشدت نفسها حتى استقرت في تلك الحفرة بين لوحي كتفيه الهائلين.

استدار جايكوب صوبي. . . كان الحزن ملء عينيه المعبرتين. . . مازالت تلك الزمجرة مستمرة في صدره.

تمتمت أقول له: «أنت وحدك من نستطيع أن نعهد بها إليه. لو لم تكن تحبها إلى هذا الحد لما استطعت احتمال فراقها. أعرف أنك قادر على حمايتها يا جايكوب».

دس جايكوب رأسه في كتفي.

همست: «أعرف هذا. . . أنا أحبك أيضاً يا جايكوب. ستكون صديقي الأول على الدوام».

سالت من عينه دمعة ضخمة تغلغلت في فرائه البني.

مال إدوارد على الكتف الذي وضع رينيمي فوقه: «وداعاً يا جايكوب. . . يا أخي. . . يا ابني».

ما كان الآخرون غير منتبهين لمشهد الوداع. كانت أعينهم معلقة بالمثلث الأسود الصامت. . . لكني عرفت أنهم يستمعون إلينا.

همس كارلايل: «ألم يبق لدينا أمل إذن؟»

ما كان في صوته خوف. . . كان كله تصميماً. . . وقبولاً.

أجبته هامسة: «بل ثمة أمل طبعاً!». . . قلت في نفسي. . . قد يكون هذا صحيحاً. . . «أعرف مصيري».

أمسك إدوارد بيدي. كان يعرف أن مصيره هو مصيري. عندما نطقت هذه الكلمة ما كان لديه شك في أنني أقصدنا نحن الاثنين معاً. نحن نصفان من كلٍّ واحد.

جاءني تنفس إيزمي متقطعاً من خلفي. سارت أمامنا وهي تلمس وجوهنا ثم وقفت بجانب كارلايل وأمسكت بيده.

وفجأة. . . أحاطت بنا همسات الوداع والحب.

همس غاريث يقول لكيت: «إذا بقينا أحياء فسوف أتبعك أينما ذهبت يا امرأة».

أجابته: «الآن تقول لي هذا!»

تبادل إيميت وروزالي قبلة سريعة محمومة.

داعبت تيا وجه بنجامين. رد عليها بابتسامة مشرقة وأمسك بيدها ثم وضعها على خده.

لم أر جميع تعبيرات الحب والألم. شوشني ضغط مفاجئ على درعي. لا أعرف مصدره. . . لكنه بدا موجهاً إلى أطراف جماعتنا. . . إلى سيوبهان وليام خاصة. ما كان ضغطاً مؤذياً. . . ثم اختفى.

لم يتغير شيء. . . مازال القدامى يتشاورون صامتين. لكن. . . لعل إشارة صدرت فلم ألاحظها.

همست أخاطب الآخرين: «استعدوا. . . بات الأمر وشيكاً».

38

قوة

همس إدوارد: «تحاول تشلسي الآن فك تلاحمنا، لكنها لا تستطيع الوصول. لا تحس بوجودنا هنا. . .» انتقلت عيناه إليّ. . . «هل أنت من يفعل هذا؟»

ابتسمت له: «نعم».

ابتعد إدوارد عني فجأة فمد يده إلى كارلايل. وفي اللحظة نفسها أحسست بضربة حادة موجهة إلى درعي المحيط بكارلايل. ما كانت الضربة مؤلمة. . . لكنها كانت شديدة.

همس إدوارد مسرعاً: «كارلايل! هل أنت بخير؟»

«نعم. . . لماذا؟»

أجابه إدوارد: «إنها جين».

لحظة لفظه اسمها جاءتني هجمات كثيرة في ثانية واحدة. . . راحت تطعن درعي المرن في أماكن كثيرة. . . كانت متجهة إلى اثنتي عشر بقعة مضيئة. تحققتُ من درعي. . . تأكدت من أنه لم يصب بأذى. لكن الظاهر أن جين ما كانت قادرة على اختراقه. نظرت مسرعة حولي. . . كان الجميع بخير.

قال إدوارد: «شيء لا يصدق!»

همست تانيا: «لماذا لا ينتظرون صدور القرار؟»

أجابها إدوارد: «إنها الإجراءات المعتادة! عادة ما يعمدون إلى شل من تجري محاكمتهم حتى لا يتمكنوا من الهرب».

نظرت إلى جين التي كانت تحدق فينا بنظرات حانقة غير مصدقة. كنت واثقة من أنها لم تر قبلي أحداً يستطيع تحمل هجماتها الحارقة.

أظن أن آرو يستطيع في نصف ثانية أن يفهم (إن لم يفهم حتى الآن) أن درعي أكثر قوة مما يعرفه إدوارد. ثمة هدف كبير في رأسي الآن... لا معنى لأن أحاول إبقاء ما أستطيع فعله سراً. ابتسمت لجين ابتسامة عريضة راضية.

ضاقت عيناها فشعرت بوخزة جديدة. كانت موجهة صوبي هذه المرة.

اتسعت ابتسامتي فظهرت أسناني.

أطلقت جين صرخة مزمجرة مروعة. قفز الجميع في أماكنهم... بمن فيهم أفراد الحرس المنضبطون. انتفض الجميع إلا القدامى الثلاثة الذين لم يرفعوا رؤوسهم ليروا ما حدث. أمسك شقيقها أليك بذراعها عندما رآها تهم بالانقضاض.

راح الرومانيان يضحكان بتوق مظلم.

قال فلاديمير لستيفان: «قلت لك إن وقتنا حان».

أجابه ستيفان: «انظر... انظر إلى وجه الساحرة».

راح أليك يربت على كتف شقيقته حتى تهدأ ثم وضع ذراعه حول كتفيها. أدار وجهه صوبنا... هادئاً كل الهدوء... ملائكياً تماماً.

رحت أترقب بعض الضغط... أترقب إشارة تدل على هجومه، لكني لم أشعر بشيء. واصل التحديق فينا وقد حافظ وجهه على استقراره. هل كان يهاجمنا حقاً؟ أم أنه تمكن من اختراق درعي؟ لعلي صرت الوحيدة القادرة على رؤيته!

أمسكت بيد إدوارد وسألته بصوت مختنق: «هل أنت بخير؟»

همس: «نعم».

«هل يحاول أليك مهاجمتنا؟»

أومأ إدوارد برأسه: «إنه أبطأ من جين... قدرته تزحف زحفاً... سوف تصل إلينا بعد ثوانٍ قليلة».

عند ذلك... رأيتها. رأيتها عندما عرفت ما يجب أن أبحث عنه. كان ضباب رائق غريب ينداح فوق الثلج. كان غير مرئي فوق هذا البياض. ذكرني بالسراب... بذلك الغبش الخفيف. دفعت درعي فتجاوز كارلايل وبقية الواقفين في الصف الأول. خفت أن يكون هذا الضباب المتسلل شديد القرب منا. ماذا لو تمكن من اختراق حمايتي غير الملموسة؟ هل نهرب؟

صدر عن الأرض صوت مثل قصف الرعد سرى تحت أقدامنا. وهبت ريح شديدة فاكتسحت الثلج بيننا وبين الفولتوري. لقد رأى بنجامين الخطر الزاحف صوبنا. وهو يحاول الآن نفخه ليبتعد عنا. لكن الضباب لم يتأثر بالريح. كان مثل ظل على الأرض تحاول الريح اقتلاعه من غير جدوى.

انفض اجتماع القدامى أخيراً. وفي تلك اللحظة عينها انشقت الأرض بأنين مجلجل فانفتح شق عميق ضيق متعرج فصل بين المعسكرين. راحت الأرض تهتز تحت أقدامنا عدة لحظات. بدأت الثلوج تنهال في ذلك الشق... تحملها الريح. لكن الضباب اجتازه... لم يسقط في الشق... تماماً مثلما لم تذروه الريح.

نظر آرو وكايوس إلى الأرض التي انشقت بعينين متسعتين ذهولاً. ونظر ماركوس في الاتجاه نفسه نظرة من غير تعبير.

لم يتبادلوا أي كلمات. راحوا ينتظرون... مثلنا... ريثما يصل الضباب إلينا. زعقت الريح واشتدت لكنها لم تستطع تغيير مسار الضباب. صارت جين تبتسم الآن.

في تلك اللحظة اصطدم الضباب بجدار غير مرئي.

أحسست بطعمه عندما لمس درعي... نكهة حلاوة شديدة مقززة. جعلني طعمه أتذكر ذلك الخدر الذي تركه المخدر الموضعي على لساني.

بدأ الضباب يتسلق درعي... صاعداً... مفتشاً عن منفذ... عن نقطة

ضعف. . . لكنه لم يجد شيئاً. راحت أصابع الضباب الباحث تتلوى محاولة العثور على طريق الدخول. . . لكنها كانت أيضاً تبين الحجم المدهش للخيمة التي تحمينا.

صدرت زفرات دهشة من المعسكرين.

حياني بنجامين بصوت خفيض: «أحسنت يا بيلا».

عادت ابتسامتي.

أرى الآن عيني أليك العابستين. . . رأيت الشك يعلو وجهه للمرة الأولى عندما انداح ضبابه عند أطراف درعي عاجزاً عن الأذى.

عند ذلك أيقنت من قدرتي على فعل هذا. من الواضح أنني سأكون الهدف الأول. . . أول من يموت. لكننا نستطيع أن نكون على قدم المساواة مع الفولتوري. . . إذا بقيت صامدة. مازال لدينا بنجامين وزافرينا. . . لكن قدراتهما كانت معطلة تحت درعي.

همست لإدوارد: «عليّ زيادة تركيزي. فعندما يبدأ الالتحام المباشر سأجد صعوبة في الاستمرار في حماية جماعتنا».

«سوف أردهم عنك».

«لا! عليك أن تنال من ديمتري. سوف تدافع زافرينا عني».

أومأت زافرينا برأسها وقالت تعد إدوارد: «لن يتمكن أحد من لمسها».

«كنت أود أن أنال من جين وأليك بنفسي، لكن وجودي هنا أكثر فائدة.

همست كيت: «جين من نصيبي أنا. علي أن أذيقها شيئاً مثل دوائها».

زمجر فلاديمير من الناحية الأخرى: «إن أليك مدين لي بحياة الكثيرين، لكني سأكتفي بأخذ حياته. . . إنه حصتي!»

قالت تانيا: «لا أريد إلا كايوس!»

راح الجميع يختارون خصومهم، لكنهم سرعان ما صمتوا.

كان آرو ينظر بهدوء إلى ضباب أليك العاجز. . . تكلم أخيراً: «قبل أن نبدأ التصويت. . . »

هززت رأسي غاضبة. لقد سئمت هذا التظاهر السخيف. اشتعلت شهوة الدم بداخلي من جديد. . . ما أسوأ أن أكون مضطرة إلى مساعدة الآخرين عبر وقوفي ساكنة هنا. كنت أريد القتال!

تابع آرو: «دعوني أذكركم. . . لا حاجة إلى العنف مهما تكن نتيجة التصويت».

أطلق إدوارد ضحكة مظلمة.

حدق فيه آرو بحزن: «سيكون فقدان أي منكم خسارة مؤسفة لجنسنا. لكن خسارتك أنت أيها الشاب. . . وخسارة رفيقتك المولودة حديثاً مؤسفة أكثر من غيرها. سيكون الفولتوري سعداء باستقبال كثير منكم في صفوفنا. بيلا وبنجامين وزافرينا وكيت. ثمة خيارات كثيرة أمامكم. . . فكروا فيها».

بدأت تشلسي تحاول البحث بيننا لكن محاولتها عجزت أمام درعي. راحت نظرات آرو تفتش في عيوننا المحدقة. . . تبحث عن أي بادرة تردد. لكن قسمات وجهه أنبأتنا بأنه لم يجد شيئاً.

أعرف أنه يتمنى لو يبقي عليّ وعلى إدوارد. . . يتمنى أن يستطيع حبسنا عنده. . . تماماً كما أراد استعباد أليس. لكنها معركة كبيرة لا يستطيع الفوز بها إن بقيت حية! أسعدني كثيراً أن تبلغ قوتي حداً لا يترك له خياراً غير قتلي.

قال مظهراً بعض التردد: «فلنصوت إذن».

تكلم كايوس مستعجلاً: «الطفلة شيء غير معروف. ما من سبب يجعلنا نقبل بهذا الخطر. لابد من قتلها مع كل من يحاول الدفاع عنها». . . قال هذا ثم صمت مبتسماً.

بذلت جهداً كبيراً حتى أكبح صرخة عصيان ترد على ابتسامته القاسية.

رفع ماركوس عينيه اللامباليتين. . . كان كمن ينظر من خلالنا.

«لست أرى خطراً داهماً! لا خطر من الطفلة الآن. نستطيع إعادة تقييم الوضع في وقت لاحق. فلنذهب بسلام». . . كان صوته أخفض حتى من صوت أخيه الريشي.

لم يتخل أحد من أفراد الحرس عن وضعية الاستعداد للهجوم مع سماع هذه الكلمات. ولم تتراجع ابتسامة كايوس المترقبة... كما لو أن ماركوس لم يقل شيئاً.

قال آرو: «يبدو أن عليّ الإدلاء بالصوت الحاسم».

في تلك اللحظة أحسست بجسد إدوارد يتوتر إلى جانبي. همس يقول: «نعم!»

غامرت بالنظر إليه. كان وجهه يتلألأ بتعبير انتصار لم أستطع فهمه... لعل تعبير وجه ملاك الدمار يكون هكذا عندما يحترق العالم! لعله يكون جميلاً مرعباً مثل إدوارد.

صدر رد فعل خافت عن أفراد الحرس... سمعت تمتمتهم المرتبكة.

قال إدوارد... بل صاح تقريباً بنبرة انتصار ظاهرة في صوته: «ماذا يا آرو؟»

تردد آرو لحظة وراح يقيم هذا التغير في مزاج إدوارد ثم أجاب: «ماذا يا إدوارد؟ هل لديك شيء آخر...؟»

قال إدوارد مبتسماً وهو يضبط بهجته الغريبة: «ربما لدي شيء، وآمل ألا يكون للقرار أسباب غير الطفلة! لكني أريد توضيح نقطة واحدة قبل ذلك!»

قال آرو رافعاً حاجبيه: «بالتأكيد!»... كان في صوته نبرة اهتمام مغلفة بالتهذيب. شددت على أسناني... يكون آرو شديد الخطر عندما يصبح مهذباً لطيفاً.

«إن الخطر الذي تراه من ناحية ابنتي نابع كله من عدم قدرتنا على توقع تطورها! أليس هذا جوهر الأمر كله؟»

قال آرو موافقاً: «نعم يا صديقي إدوارد. إذا استطعنا التأكد... إذا استطعنا أن نكون واثقين من أنها... عندما تكبر... ستظل محجوبة عن عالم البشر... من أنها لن تعرض سرنا للخطر...» قطع كلامه رافعاً كتفيه.

قال إدوارد: «إذن، إذا استطعنا أن نكون واثقين مما يمكن أن

تصبح عليه... فلن تكونوا في حاجة إلى أي تصويت!»

قال آرو: «لو كان لدينا طريقة تجعلنا واثقين ثقة مطلقة...» صار صوته الريشيّ أكثر حدة. ما كان قادراً على فهم ما يرمي إليه إدوارد... وما كنت قادرة على ذلك بدوري... «عند ذلك... نعم!... لن يكون أمامنا ما يستدعي النقاش والتصويت».

سأله إدوارد وفي صوته مسحة من السخرية: «عند ذلك يمكننا أن نفترق بسلام... أن نعود أصدقاء من جديد!»

أجابه آرو بصوت أكثر حدة: :«طبعاً يا صديقي الشاب! لا شيء يسعدني أكثر من هذا».

ابتسم إدوارد ابتسامة جذلى: «إذن، لدي شيء آخر أقدمه لك».

ظهر الشك في عيني آرو: «إنها فريدة تماماً... لا يمكننا أن نعرف مستقبلها... إنه موضع تخمين».

عارضه إدوارد: «ليست فريدة تماماً... إنها نادرة الوجود... نعم... لكنها ليست فريدة جنسها».

حاولت مقاومة دهشتي. عاد أملي حياً من جديد... عاد يهددني بإلهائي عن مهمتي. مازال الضباب الكثيف يحوم عند أطراف درعي. حاولت التركيز فشعرت بطعنة جديدة حادة تستهدفه.

قال إدوارد يطالب آرو بكل كياسة: «آرو! هل يمكن أن تأمر جين بالكف عن مهاجمة زوجتي؟ مازلنا نناقش الأدلة».

رفع آرو يده: «هدوءاً يا أعزائي! دعونا نسمع ما لديه».

اختفى الضغط على درعي. كشرت جين في اتجاهي. لم أستطع منع نفسي من الابتسام لها.

صاح إدوارد بصوت مرتفع: «تعالي يا أليس؟»

همست إيزمي مصدومة: «أليس!»

أليس!

أليس! أليس! أليس!

«أليس!»... «أليس!»... راحت أصوات كثيرة تتمتم من حولي.

همس آرو: «أليس!»

اجتاحتني فرحة عارمة... اجتاحني انفراج عارم. استجمعت إرادتي كلها حتى أبقي درعي مثلما كان. مازلت أحس طعم ضباب أليك... مازال يبحث عن نقطة ضعف. إذا ظهرت ثقوب في درعي فسوف تراها جين.

عند ذلك سمعتهم يجرون في الغابة... يطيرون... يجتازون المسافة مسرعين من غير أن يحاولوا التزام صمت يمكنه تخفيف سرعتهم.

وقف المعسكران من غير حركة... مترقبين. سرى في شهود الفولتوري ارتباك جديد.

ثم... جاءت أليس بمشيتها الراقصة فدخلت الحقل من جهة الجنوب الغربي. أحسست أن سعادتي برؤية وجهها من جديد موشكة على إفقادي توازني. كان جاسبر خلفها بخطوة واحدة... اتقد التوتر في عينيه الحادتين. ومن خلفهما جاء ثلاثة غرباء. كان أولهم امرأة طويلة متينة البنية لها شعر جامح داكن السواد... من الواضح أنها كاشيري. كانت لها أطراف ممطوطة وملامح متطاولة مثل شقيقتيها الأمازونيتين، بل كانت هذه الملامح أوضح لديها.

ومن بعدها جاءت مصاصة دماء صغيرة الجسم زيتونية اللون لها ضفيرة سوداء طويلة تدلت من خلف ظهرها. راحت عيناها الخمريتان تتنقلان بين المعسكرين المتقابلين بحركة عصبية.

وكان الثالث صبياً شاباً... كان جريه أقل سرعة وانسيابية. وكان لون جلده أسمر داكناً غنياً على نحو لا يصدق. راحت عيناه المضطربتان تنظران إلى هذا الحشد الكبير، وكان لونهما بنياً محمراً. كان شعره أسود اللون... مجدولاً أيضاً مثل شعر المرأة التي سبقته لكنه ما كان بمثل طولها. كان شاباً جميلاً.

مع اقترابه منا سمعنا صوتاً جديداً ألقى موجة من الصدمة عبر الحشد كله. إنه نبض قلبه وقد جعل الإجهاد خفقه سريعاً.

قفزت أليس قفزة صغيرة من فوق الضباب الآخذ بالتلاشي ودخلت تحت درعي ثم توقفت بجانب إدوارد. مددت يدي فلمست ذراعها ومثلي فعل إدوارد وإيزمي وكارلايل. ما كان لدينا وقت للترحيب بها أكثر من ذلك. لحق بها جاسبر والآخرين فانضووا تحت درعي.

كان الحرس ينظرون جميعاً وفي أعينهم ترقب وفهم. شاهدوا هؤلاء القادمين يجتازون الحاجز غير المرئي من غير صعوبة. راح أصحاب العباءات البنية... فيليكس ومن مثله... يركزون نظراتهم عليّ فجأة. ما كانوا يعرفون قبل هذا تحديد ما يستطيع درعي صده. أما الآن فقد عرفوا أنه لن يوقف هجوماً مادياً. ما أن يعطي آرو أوامره حتى ينطلق الهجوم... وسوف أكون هدفاً وحيداً لهم. ما عدد الذين يمكن أن تتمكن زافرينا من إعمائهم؟ وكم يمكن أن يبطئ هذا حركتهم؟ هل يكون الوقت كافياً لأن يتولى فلاديمير وكيت إخراج جين وأليك من المعادلة؟ كان هذا مَعْقِد أملي!

كان إدوارد مستغرقاً... مأخوذاً بتوجيه التطورات الجديدة، لكنه تجمد غاضباً عندما سمع أفكارهم. لم يلبث أن سيطر على نفسه وراح يخاطب آرو من جديد.

«كانت أليس تبحث عن شهودها في الأسابيع الأخيرة. وهي لم تعد إلينا الآن خالية الوفاض. أليس!... لم لا تعرفينا على من جاء معك من الشهود؟».

جأر كايوس: «انتهى وقت سماع الشهود! أدل بصوتك يا آرو».

رفع آرو إصبعه فأسكت أخاه. كانت عيناه معلقتين بوجه أليس.

تقدمت أليس خطوة صغيرة إلى الأمام وأعلنت أسماء الغرباء: «هذه هويلن ومعها ابن شقيقتها ناهويل»... سمعت صوتها فأحسست أنها لم تتركنا أبداً.

تقلصت عينا كايوس عندما ذكرت أليس القرابة بين الاثنين. راح شهود الفولتوري يتبادلون همسات سريعة. إن عالم مصاصي الدماء يتغير... شعر بهذا كل من كان واقفاً هنا.

قال آرو: «تكلمي يا هويلن! هاتي شهادتك التي جاؤوا بك من أجلها».

نظرت المرأة الصغيرة إلى أليس... كانت متوترة. أومأت أليس لها تشجعها ووضعت كاشبيري يدها الطويلة على كتفها.

قالت المرأة بلغة واضحة تشوبها لكنة غريبة: «أنا هويلن!»... كان واضحاً من تتمة كلامها أنها أعدت نفسها لسرد هذه الحكاية... أنها تدربت عليها. تابعت تقول: «منذ قرن ونصف القرن كنت أعيش مع جماعتي... عشيرة المابوشي. كانت لدي شقيقة اسمها باير. أطلق عليها والدانا اسم الثلج الذي يغطي الجبال لأن جلدها كان أبيض اللون مثله. كانت بارعة الجمال... كانت جميلة أكثر مما يجوز لها أن تكون. جاءتني ذات يوم لتخبرني سراً عن الملاك الذي صادفها في الغابات... الذي راح يزورها في الليالي»... هزت هويلن رأسها بأسى... «حذرتها! أما كانت تلك الكدمات القطيعة على جلدها تحذيراً كافياً؟ عرفت أن زائرها ما كان إلا روحاً من تلك الأرواح الشريرة التي أخبرتنا بها أساطيرنا. لكنها لم تصغ إلى كلامي. كانت مسحورة.

عندما صارت واثقة من أن جنين ملاكها الأسمر كان ينمو في أحشائها جاءت من جديد فأخبرتني. كانت تعتزم الفرار فلم أحاول ثنيها عن ذلك. كنت أعرف أن الجميع... حتى أبانا وأمنا... سوف يشيرون بوجوب قتل الطفل... ومعه باير! مضيت معها إلى أعمق أعماق الغابة. راحت تفتش عن ملاكها الشيطاني لكنها لم تعثر عليه. رحت أهتم بها وأرعاها وأصطاد لها بعد أن خارت قواها. كانت تأكل لحم الحيوانات نيئاً وتشرب دماءها. كان هذا كافياً لأن أفهم طبيعة ما في رحمها. كنت آمل أن أستطيع إنقاذ حياتها قبل أن أقتل الوحش الذي فيها.

لكنها أحبت جنينها. أطلقت عليه اسم ناهويل... أي قط الأدغال... كبر الجنين وصار أقوى... راح يحطم عظامها... لكنها ظلت على حبها له.

لم أستطع إنقاذها! شق الطفل طريقه فخرج منها. ماتت أختي سريعاً...

ماتت وهي ترجوني طيلة الوقت أن أعتني بابنها... ناهويل. كانت تلك رغبتها الأخيرة... فوافقتها!

عضني ناهويل عندما حاولت رفعه عن جسدها الميت. ابتعدت زاحفة بين الأشجار حتى أنتظر الموت. لم يطل زحفي... كان الألم فظيعاً! لكنه وجدني! تمكن المولود من الوصول إليّ عبر الشجيرات الصغيرة وراح ينتظرني. وعندما انتهى الألم رأيته متجمعاً بجانبي... غافياً.

رحت أعتني به حتى صار قادراً على الصيد. كنا نغير على القرى من حول غابتنا... لم نخالط أحداً. لم نبتعد كثيراً عن مكاننا ولم نعد إلى بيتنا أبداً... لكن ناهويل أراد أن يأتي ليرى الطفلة التي هنا».

فرغت هويلن من قصتها فأحنت رأسها ثم تراجعت فصارت نصف مختبئة خلف كاشبيري.

رأيت شفتي آرو المشدودتين. كان يحدق في ذلك الصبي الأسمر.

سأله: «هل عمرك مئة وخمسون عاماً يا ناهويل؟»

أجابه الفتى بصوت صاف جميل دافئ: «أكثر من هذا أو أقل من هذا بعشر سنين. لسنا نهتم كثيراً بتسجيل الزمن»... ما كانت في صوته لكنة ملحوظة.

«متى نضج جسمك؟»

«بعد نحو سبع سنين من ولادتي... صرت مكتمل النمو».

«ألم تتغير بعد ذلك؟»

رفع ناهويل كتفيه حائراً: «لم ألحظ تغيراً».

أحسست رعدة سرت في جسم جايكوب. ما كنت أريد التفكير في هذا الآن. سوف أنتظر حتى ينجلي الخطر فأستطيع التركيز.

راح آرو يلح في أسئلته... كان يبدو مهتماً بالأمر رغماً عنه: «وماذا تأكل؟»

«الدم طعامي أكثر الأحيان، لكني آكل بعضاً من طعام البشر أيضاً. أستطيع العيش على الاثنين!»

«وهل تمكنت من صنع هذه الخالدة؟»... أشار آرو بيده إلى هويلن وقد

توتر صوته فجأة. ركزت انتباهي على درعي من جديد فلعل آرو يبحث الآن عن ذريعة جديدة.

«نعم! لكن أحداً من الآخرين لم يستطع ذلك».

سرت همسات الدهشة بين المجتمعين كلهم.

ارتفع حاجبا آرو: «الآخرون؟»

رفع ناهويل كتفيه من جديد: «أخواتي!»

حدق فيه آرو بنظرة ضارية لكنه لم يلبث أن سيطر على قسمات وجهه من جديد: «ألا تخبرنا بتتمة القصة... أرى أن لها تتمة!»

تجهم وجه ناهويل: «جاء والدي يبحث عني بعد سنوات قليلة من موت أمي»... تلوى وجهه الجميل قليلاً... «سرته رؤيتي»... كان واضحاً من نبرة ناهويل أن هذا السرور ما كان متبادلاً... «كان لديه ابنتان. لكنني كنت ابنه الوحيد. أراد مني أن أنضم إليه... هكذا أرادت أختاي أيضاً.

فوجئ أبي بأنني لم أكن وحيداً! ما كانت أختاي سامتين مثلي. هل هذا محض مصادفة أم هو بسبب جنسهن... من يدري؟ كنت أعيش مع هويلن... وما كنت مهتماً بالذهاب معهم. أرى أبي بين حين وآخر. لدي أخت جديدة الآن... وقد نضجت منذ نحو عشر سنين!»

سأله كايوس وهو يصر بأسنانه: «ما اسم أبيك؟»

أجابه ناهويل: «جوهام! إنه يعتبر نفسه عالماً ويظن أنه يخلق عرقاً جديداً متفوقاً»... لم يحاول ناهويل إخفاء الاشمئزاز البادي على صوته.

نظر كايوس إليّ وسألني بفظاظة: «هل ابنتك سامة؟»

أجبته: «لا!»... انتفض رأس ناهويل لسماع السؤال وراحت عيناه البنيتان تتفرسان في وجهي.

نظر كايوس إلى آرو نظرة تساؤل... كان يريد التثبت من صدق إجابتي لكن آرو كان غارقاً في أفكاره. شد على شفتيه ناظراً إلى كارلايل ثم إلى إدوارد ثم استقرت عيناه عليّ.

زمجر كايوس يستحث آرو: «سوف نعالج المخالفة التي جرت هنا ثم ننطلق جنوباً».

حدق آرو في عيني لحظات متوترة طويلة. ما كنت أعرف عن أي شيء يبحث... ما كنت أعرف إن وجد ما يبحث عنه! لكن شيئاً في وجهه تغير بعد تلك اللحظات كلها... تغيرٌ بسيط في عينيه وفي إطباقة فمه. أدركت أنه اتخذ القرار.

قال لكايوس: «يا أخي! من الواضح أن الخطر غير موجود. هذا تطور غير مألوف... لكنني لا أرى فيه خطراً. يبدو أن هؤلاء الأطفال نصف مصاصي الدماء شبيهون بنا».

سأله كايوس: «هل هذا صوتك؟»

«نعم!»

تجهم كايوس: «وماذا عن جوهام؟ هذا الخالد المولع بإجراء التجارب؟»

وافقه آرو: «لعل علينا التحدث معه».

قال ناهويل بصوت لا تعبير فيه: «أوقفوا جوهام إذا أردتم لكن اتركوا أخواتي! إنهن بريئات».

أومأ آرو برأسه وعلى وجهه تعبير وقور. ثم استدار إلى حرسه بابتسامة دافئة وصاح: «لن نقاتل اليوم يا أعزائي».

أومأ الحرس برؤوسهم جميعاً وتخلوا عن تأهبهم. تبدد الضباب سريعاً لكنني أبقيت درعي. لعل هذه خدعة جديدة.

رحت أراقب تعابير وجوههم عندما عاد آرو فاستدار صوبنا. كان وجهه لطيفاً... كعهده دائماً. لكنني أحسست خواءً غريباً خلف تلك الواجهة... كما لو أن ألاعيبه انتهت. كان غضب كايوس واضحاً لكنه صار غضباً داخلياً الآن... لقد استسلم للقرار... أما ماركوس فبدا ضجراً مثلما كان من قبل. لقد انتهى الأمر. عاد الحرس منضبطين مثلما كانوا... ما كانوا أفراداً متمايزين... إنهم جسم واحد! كانوا واقفين ضمن تشكيلتهم الأصلية...

مُستعدين للرحيل. مازال شهود الفولتوري على قلقهم واضطرابهم. . . كانوا يتبعثرون منطلقين إلى الغابة واحداً بعد آخر. ومع تضاؤل عددهم صار من بقي منهم أكثر استعجالاً. سرعان ما ذهبوا جميعاً.

مد آرو يديه صوبنا في حركة تشبه الاعتذار. ومن خلفه كان القسم الأكبر من الحرس ينسحب سريعاً، ومعهم كايوس وماركوس والزوجتان الغامضتان الصامتتان. كانت تشكيلة حركتهم مضبوطة دقيقة في انسحابهم مثلما كانت عند مجيئهم. لم يبق مع آرو إلا ثلاثة. . . هم حرسه الشخصي!

قال بصوت عذب: «أنا سعيد جداً لأن هذه المواجهة انتهت من غير عنف. كارلايل. . . يا صديقي! . . . كم يسرني أن أدعوك صديقي من جديد! أرجو ألا تغضب مني. أعرف أنك تدرك العبء الثقيل الذي يلقيه واجبنا على كاهلنا».

قال كارلايل بصوت جامد: «اذهب بسلام يا آرو. أرجو أن تتذكر أن علينا حماية سرية وجودنا هنا. لا تسمح لحرسك بالصيد في هذه المنطقة أبداً».

قال آرو: «طبعاً يا كارلايل! يؤسفني إزعاجك يا صديقي العزيز. لعلك تسامحني ذات يوم!»

«قد أسامحك ذات يوم إذا أثبت صداقتك من جديد».

طأطأ آرو رأسه. كان صورة مجسدة للأسف. . . ثم تراجع عدة خطوات قبل أن يستدير. وقفنا صامتين نراقب آخر الفولتوري يختفون بين الأشجار.

عم الهدوء. . . لكني لم أسقط درعي.

همست لإدوارد: «هل انتهى الأمر حقاً؟»

كانت ابتسامته واسعة: «نعم! لقد استسلموا! ثمة جبن خبيء تحت غرورهم مثل غيرهم من الأوغاد المتنمرين».

ضحكت أليس: «نعم! لن يعودوا! يمكنكم الاسترخاء جميعاً».

مرت لحظة صمت جديدة.

تمتم ستيفان: «ما أسوأ حظنا!»

عند ذلك انفجر الهرج والمرج. . . تعالت الصيحات المهللة وملأت

الهتافات المصمّة أرجاء المكان. راحت ماجي تدق بيدها على ظهر سيوبهان. وتبادل إيميت وروزالي قبلة طويلة. . . أطول وأشد حرارة من ذي قبل. تعانق بنجامين وتيا. . . وتعانق إليازر وكارمن. احتضنت إيزمي جاسبر وأليس وراح كارلايل يشكر القادمين الجدد بحرارة بالغة. . . لقد أنقذونا جميعاً. كانت كاشيري واقفة إلى جانب شقيقتيها زافرينا وسينا. . . كانت أصابعهن متشابكة. اختطف غاريت كيت فرفعها عن الأرض وراح يديرها من حوله.

بصق ستيفان على الأرض وطحن فلاديمير أسنانه غضباً وعلا وجهه تعبير مقيت.

أما أنا فتسلقت الذئب البني الضخم لأنتزع ابنتي من فوق كتفيه ثم ضممتها إلى صدري. أحاطت بنا ذراعا إدوارد في اللحظة عينها.

رحت أهدل لها: «نيسي. . . نيسي. . . نيسي».

أطلق جايكوب ضحكته الكبيرة العاوية ودفع ظهري بأنفه.

قلت له: «اسكت».

سألتني نيسي: «هل سأبقى معك؟»

أجبتها: «إلى الأبد».

إن لدينا الأبدية كلها. ستكون نيسي بخير. . . ستكون قوية معافاة. ستكون شابة بعد مئة وخمسين عاماً. . . مثل ناهويل. وسوف نكون كلنا معاً.

انداحت السعادة عاصفةً في داخلي. . . سعادة هائلة. . . عنيفة. . . لا أعرف إن كنت أستطيع احتمالها!

همس إدوارد في أذني: «إلى الأبد».

ما عدت أستطيع الكلام.

رفعت رأسي وقبلته بعاطفة مشبوبة لعلها قادرة على إحراق الغابة كلها.

لو احترقت الغابة ساعتها لما لاحظت شيئاً!

39

نهاية سعيدة

كنا جالسين في الغرفة الكبيرة... أسرتنا كلها إضافة إلى الضيفين الباقيين. حلت الظلمة خلف النوافذ الطويلة وجلل السواد الغابة. كان إدوارد يقول لهم: «كان في ما حصل مجموعة من الأشياء، لكن خلاصته كله هي... بيلا».

اختفى فلاديمير وستيفان قبل أن ينتهي احتفالنا برحيل الفولتوري. خيبت هذه النهاية آمالهما كثيراً لكن إدوارد قال: «إن ما أظهره الفولتوري من جبن كان تعويضاً كافياً لهما».

أسرع بنجامين وتيا خلف آمون وكيبي... كانا تواقين إلى إخبارهما بنتيجة المواجهة. سوف نراهم عما قريب... بنجامين وتيا على الأقل! لم يتأخر ذهاب الرحّل كثيراً. وبعد حديث قصير مع جاسبر رحل بيتر وشارلوت أيضاً.

كانت الأمازونيات الثلاث تستعجلن الرحيل أيضاً لأن فراق محبوبتهن... الغابة الاستوائية... شقّ عليهن كثيراً.

قالت لي زافرينا مصرة: «عليك أن تحضري الطفلة لرؤيتي. عديني بهذا!» وضعت نيسي كفها على رقبتي... كانت ترجوني أيضاً.

قلت: «سنأتي طبعاً يا زافرينا».

قالت المرأة المتوحشة قبل ذهابها مع شقيقتيها: «سنكون صديقتين يا نيسي».

ذهب الإيرلنديون أيضاً!

أثناء وداعهم قال كارلايل: «أحسنت صنعاً يا سيوبهان».

أجابته ساخرة مستغربة: «آه! تقصد قوة تأثيري!»... لكنها لم تلبث أن تحدثت بجدية: «لم ينته الأمر بطبيعة الحال! لن ينسى الفولتوري ما حدث هنا».

أجابها إدوارد: «لقد أصيبوا بصدمة حقيقية زعزعت ثقتهم. لكنك محقة! سوف يتجاوزون هذه الضربة ذات يوم. وعند ذلك... أظن أنهم سيحاولون اصطيادنا فرادى».

قالت سيوبهان بنبرة واثقة: «سوف تنبئنا أليس بنواياهم. وسوف نجتمع معاً من جديد. لعل وقت خلاص عالمنا من الفولتوري يحين قريباً».

أجابها كارلايل: «قد يأتي هذا الوقت. إذا أتى فسوف نكون معاً».

أجابته سيوبهان: «نعم يا صديقي... سنكون معاً. كيف يمكن أن نفشل إن أنا أردت العكس؟» قال هذا وأطلقت ضحكة كبيرة.

قال كارلايل: «تماماً!»... عانق سيوبهان مودعاً ثم صافح ليام... «حاول العثور على أليستير لتقص عليه ما جرى. لا أريد له أن يظل مختبئاً عشر سنين تحت إحدى الصخور!»

ضحكت سيوبهان من جديد. أما ماجي فاحتضنت نيسي واحتضنتني. ثم رحل الإيرلنديون.

كانت أسرة دينالي آخر الراحلين... وكان معهم غاريت... سوف يكون واحداً منهم منذ الآن... هذا ما كنت واثقة منه تماماً. كان الجو الاحتفالي ثقيل الوطأة على نفسي تانيا وكيت. إنهما في حاجة إلى بعض الوقت لتجاوز الأسى على أختهما.

أما هويلن وناهويل فقد بقيا عندنا رغم أني توقعت ذهابهما مع الأمازونيات. كان كارلايل غارقاً في حديث سحري مع هويلن. وكان ناهويل جالساً إلى جانبها مصغياً إلى إدوارد يحدث الآخرين بما كان لا يعرفه أحد غيره من قصة المواجهة.

«قدمت أليس لآرو الحجة التي كان في حاجة إليها حتى ينسحب من غير قتال. لو لم يصبه الرعب من بيلا لمضى في تنفيذ خطته الأصلية».

سألته متشككة: «هل أصابه الرعب مني؟»

ابتسم لي مع نظرة لم أعرف تفسيرها تمام المعرفة... كانت لطيفة لكنها كانت ابتسامة حنق أيضاً: «متى ترين نفسك على حقيقتها؟» بعد ذلك رفع صوته مخاطباً الآخرين: «لم يخض الفولتوري معركة متكافئة منذ نحو ألفين وخمسمئة سنة. ولم يسبق لهم أبداً أن خاضوا معركة مع من يفوقهم عدداً. يصح هذا خاصة منذ أن صار لديهم أليك وجين. لم يمارسوا بعد ذلك إلا مذابح ما كان فيها من يقف في وجوههم.

ليتكم رأيتم كيف كنا نبدو في أنظارهم! عادة ما يحرم أليك الضحايا من كل إحساس أثناء مداولات الفولتوري المزعومة. وهكذا لا يستطيع أحد أن يهرب عند صدور الحكم. لكننا كنا واقفين أمامهم مستعدين... منتظرين... نفوقهم عدداً... وكانت لدينا قدراتنا الخاصة في حين غدت قدراتهم عديمة الجدوى بفضل بيلا. لقد أدرك آرو معنى وجود زافرينا معنا... سوف يصيبهم العمى حال بدء القتال. أعرف أننا كنا سنخسر بعض رفاقنا، لكنهم كانوا واثقين من خسارة عدد كبير منهم أيضاً. بل كان ثمة احتمال حقيقي لأن نهزمهم تماماً. لم تسبق لهم مواجهة هذا الاحتمال من قبل. وهم لا يحسنون التعامل معه اليوم».

ضحك إيميت ولكز ذراع جايكوب: «ما أصعب أن يشعر المرء بالثقة عندما يكون محاطاً بذئاب يعادل واحدها الحصان حجماً!»

قلت: «الذئاب هي من أوقفهم في البداية».

وافقني جايكوب: «بالتأكيد».

وافقني إدوارد أيضاً: «طبعاً! كان هذا مشهداً لم يروه من قبل! نادراً ما يتحرك أبناء القمر الحقيقيون في قطعان. وهم غير قادرين على ضبط أنفسهم أيضاً: كان احتشاد ستة عشر ذئباً ضخماً مفاجأة ما كانوا مستعدين لها. إن

لدى كايوس خوفاً حقيقياً من المستذئبين. كاد أحدهم يقتله منذ بضعة آلاف من السنين... لم يستطع نسيان الأمر حتى الآن».

سألت: «المستذئبون حقيقة إذن!... اكتمال القمر... والرصاصات الفضية... وكل هذه الأشياء؟»

ضحك جايكوب: «إنهم حقيقة... فهل يجعلني هذا مخلوقاً خيالياً؟»

«أنت تدرك قصدي!»

قال إدوارد: «اكتمال البدر... نعم هذا صحيح! أما الرصاصات الفضية فهي من نسج الخيال. إنها أسطورة اخترعها البشر لإقناع أنفسهم بأن لهم فرصة في اصطيادهم. لم يبق كثير منهم في هذه الأيام. إنهم موشكون على الانقراض لكثرة ما اصطاد كايوس منهم».

«أما أنت... أنت لم تذكر هذا بسبب...!»

«لم أجد مناسبة!»

فتحت عيني واسعتين فضحكت أليس التي كانت مندسة تحت ذراع إدوارد الأخرى... انحنت إلى الأمام وغمزت لي بعينها.

حدقت فيها ملياً.

كنت أحبها منذ البداية طبعاً! أما الآن فأشعر بشيء من الانزعاج تجاهها... بعد إدراكي أنها عادت إلى البيت حقاً وأن رحيلها كان خدعة لجعل إدوارد يعتقد أنها هجرتنا. إن عليها أن تشرح لي الأمر كله.

تنهدت أليس: «خففي عن نفسك يا بيلا!»

«كيف استطعت أن تفعلي هذا بي يا أليس؟»

«إنها الضرورة».

انفجرت قائلة: «ضرورة! جعلتني أقتنع تماماً أننا في سبيلنا إلى الموت جميعاً. لقد حطمني هذا نفسياً لأسابيع كثيرة».

قالت بهدوء: «كان يمكن أن تسير الأمور في ذلك الاتجاه. لذلك كان لابد من استعدادك لإنقاذ نيسي».

كانت نيسي غافية في حضني فأمسكت بها بحركة غريزية.

قلت بنبرة اتهامية: «لكنك كنت تدركين وجود احتمالات أخرى أيضاً! كنت تعرفين أن الأمل موجود. هل خطر لك أنك كنت قادرة على إخباري كل شيء؟ أدرك ضرورة اقتناع إدوارد بأن الأفق مسدود أمامنا لأن آرو سيعرف ما برأسه... لكنك كنت قادرة على إخباري!»

راحت ترمقني بنظرات متأملة ثم قالت: «لا أظن هذا... أنت فاشلة في التمثيل».

«الأمر متعلق بقدراتي التمثيلية إذن!»

«هوني عليك يا بيلا! هل لديك فكرة عن مدى تعقيد هذه التركيبة؟ ما كنت واثقة أبداً من وجود شخص مثل ناهويل! ما كنت أعرف إلا أن عليّ البحث عن شيء لا أستطيع رؤيته! حاولي تخيل البحث عن شيء غير مرئي... ليس هذا سهلاً أبداً! ثم كان علينا إرسال بعض الشهود... وكأننا لم نكن في عجلة من أمرنا! ثم كان عليّ أن أبقى مفتوحة العينين طيلة الوقت لأرى قراراتك. كان عليك في لحظة من اللحظات أن تخبريني عن سبب جعلهما يذهبان إلى ريو دي جانيرو. وقبل هذا كله... كان عليّ رؤية كل ما يمكن أن يرسمه لنا الفولتوري من خطط وأحابيل فأعطيك ما توصلت إليه حتى تكوني متأهبة لمواجهة خططهم. وما كان لدي إلا ساعات قليلة حتى أتابع جميع الاحتمالات. ثم كان علي أيضاً... أكثر من كل شيء... أن أتأكد من اقتناعكم جميعاً بأنني تخليت عنكم. كان علينا جعل آرو مقتنعاً تماماً بأنكم ما عدتم تخفون شيئاً حتى يستطيع الانصراف مثلما فعل. أما إذا كنت تظنين أنني لم أكره نفسي بسبب ذلك كله...»

قاطعتها: «لا بأس... لا بأس... آسفة! أعرف أن الأمر شديد القسوة عليك أيضاً. لكني... لكن شوقي إليك كان جنونياً يا أليس. لا تفعلي هذا مرة أخرى!»

دوت ضحكة أليس الرنانة فملأت الغرفة كلها... ابتسم الجميع لتلك

الموسيقى. قالت أليس: «اشتقت إليك أيضاً يا بيلا! سامحيني وحاولي أن تكوني راضية بأنك كنت بطلة هذا اليوم».

ضحك الجميع... إلا أنا. دسست وجهي في شعر نيسي... محرجة!

عاد إدوارد إلى تحليل كل تفصيل من تفاصيل ما حدث اليوم ثم قال إن درعي هو ما جعل الفولتوري يهربون ممسكين ذيولهم بأسنانهم. جعلتني طريقة نظر الجميع إليّ أحس شيئاً من عدم الراحة. حتى إدوارد كان ينظر إليّ مثلهم. كانوا يتحدثون كأنني كبرت خمسين متراً في ذلك الصباح. حاولت تجاهل نظراتهم المتأثرة... حاولت إبقاء عيني على وجه نيسي النائمة وعلى وجه جايكوب الذي لم تتغير تعابيره. سأكون بيلا في نظره دائماً. هذا أمر مريح!

كان أصعب النظرات تجاهلاً، أكثرها إرباكاً! هي نظرات ناهويل... نصف الإنسان، نصف مصاص الدماء ينظر إلي بطريقة خاصة. كان يظن أنني معتادة على صد مصاصي الدماء المهاجمين كل يوم وأن ما حدث في الغابة اليوم كان شيئاً عادياً بالنسبة لي. لكن الصبي لم يرفع عينيه عني. أو... لعله كان ينظر إلى نيسي. جعلني هذا أشعر بعدم الراحة أيضاً.

لا يمكن أن يكون غافلاً عن حقيقة أن نيسي هي الأنثى الوحيدة من جنسه... عدا أخواته غير الشقيقات.

لا أظن هذه الفكرة خطرت في بال جايكوب حتى الآن. ليتها لا تخطر في باله قريباً. لقد نلت من الشجار والقتال ما يكفيني فترة طويلة.

أخيراً... نفد ما لدى الحاضرين من أسئلة يطرحونها على إدوارد وصار الحديث أحاديث صغيرة متفرقة.

أحسست بتعب غريب... ما كان نعاساً بطبيعة الحال، لكن يومي كان شديد الطول. كنت أريد شيئاً من السلام... شيئاً من لمسة الحياة العادية. أردت أن أضع نيسي في سريرها، وأردت أن تحيط بي جدران منزلي الصغير الدافئ.

نظرت إلى إدوارد وشعرت... لحظة واحدة... أنني قادرة على قراءة

أفكاره. رأيت أنه يفكر بالطريقة نفسها تماماً. . . كان راغباً في شيء من السلام.

«أليس علينا أن نأخذ نيسي. . .؟»

أجابني سريعاً: «هذه فكرة جيدة. لابد أنها لم تنم جيداً في الليلة الماضية. . . مع كل ذلك الشخير بجانبها».

قال هذا وابتسم ناظراً إلى جايكوب.

فتح جايكوب عينيه على وسعهما ثم تثاءب وقال: «لم أنم في سريري منذ وقت طويل. أظن أن والدي سيكون مسروراً برؤيتي تحت سقف بيته من جديد».

لمست خده بيدي: «شكراً يا جايكوب».

«في أي وقت يا بيلا! . . . لكنك تعرفين هذا».

نهض واقفاً فتمطى ثم قبل رأس نيسي وقبّل رأسي. وأخيراً سدد لكمة صغيرة إلى كتف إدوارد وقال: «أراكم غداً. أظن أن الوضع سيكون مملاً بعد اليوم. . . أليس كذلك؟»

أجابه إدوارد: «آمل هذا من كل قلبي».

نهضنا فور ذهاب جايكوب. تحركت بهدوء شديد حتى لا أوقظ نيسي. ما أجمل أنها نائمة بهذا العمق! كم كانت وطأة الأمر ثقيلة عليها! يجب أن تعود طفلة من جديد. . . طفلة محمية. . . آمنة! مازال أمامها عدة سنوات من الطفولة.

ذكرتني فكرة الأمان والسلام بشخص ما كانت لديه هذه الأحاسيس منذ وقت طويل.

قلت قبل خروجنا من الباب: «أوه. . . جاسبر!». . .

كان جاسبر جالساً بين أليس وإيزمي. . . محشوراً بينهما. . . كان يبدو في مركز هذه الصورة العائلية أكثر من أي وقت مضى.

أجابني: «ماذا يا بيلا؟»

«أتساءل عما يجعل جينكس خائفاً إلى هذه الدرجة. . . حتى من ذكر اسمك».

ضحك جاسبر: «أعرف من خبرتي أن بعض علاقات العمل يسير بشكل أفضل عندما يكون الخوف دافعاً له. . . لا المال!»

عبست. . . ونذرت على نفسي أن أتولى علاقة العمل هذه مع جينكس من الآن فصاعداً. عليّ إنقاذه من نوبة قلبية لابد أنها كانت وشيكة.

قبلنا الجميع واحتضنونا وتمنوا لنا ليلة هانئة. ما كان مختلفاً عنهم إلا ناهويل الذي راح ينظر إلينا بإمعان كأنه يريد اللحاق بنا.

بعد أن اجتزنا النهر رحنا نسير سير الهوينى. . . بخطوات لا تزيد سرعتها عن سرعة خطوات البشر إلا قليلاً. سرنا من غير استعجال. . . متماسكي الأيدي. سئمت هذا التوتر كله. . . ما كنت أريد الآن إلا أن أستمتع بوقتي. لابد أن إدوارد يشاطرني هذا الشعور.

قال لي: «لابد لي من القول إنني شديد التأثر بجايكوب في هذه اللحظة».

«كان أثر الذئاب كبيراً حقاً!»

«لا أقصد هذا! لم يفكر أبداً فيما قاله ناهويل من أن نيسي سوف تنضج تماماً بعد ست سنوات ونصف السنة».

فكرت في الأمر دقيقة ثم قلت: «إنه لا ينظر إليها بهذه الطريقة. وهو لا يستعجل نموها. لا يريد إلا أن تكون سعيدة».

«أعرف هذا. وهذا ما يجعلني متأثراً حقاً. إنه قادر على مخالفة طبيعته. . . أما هي فقد لا تقدر على هذا في المستقبل».

تجهم وجهي: «لن أفكر في الأمر قبل مضيّ هذه السنوات».

ضحك إدوارد ثم تنهد: «طبعاً! لكن الظاهر أنه سيواجه شيئاً من المنافسة عندما يحين الوقت».

ازداد تجهمي: «لقد لاحظت هذا! أنا شديدة الامتنان لناهويل بسبب مجيئه اليوم، لكن تحديقه كان غريباً مزعجاً. لست أبالي إن كانت ابنتي الأنثى الوحيدة من نوعه. . . عدا أخواته».

«أوه! . . . لم يكن يحدق فيها. كان يحدق فيك».

هذا ما رأيته فعلاً. . . لكنه كان من غير معنى: «وما الذي يجعله ينظر إلي بتلك الطريقة؟»

قال إدوارد بهدوء: «لأنك مازلت حية».

«لست أفهمك».

قال: «كان يرى نفسه طيلة حياته. . . لا تنسي أنه أكبر مني بمئة عام. . .»

قاطعته: «يا للعجوز اليائس!»

تجاهلني إدوارد: «كان يرى نفسه مخلوقاً شريراً. . . قاتلاً بطبيعته. قتلت أخواته أمهاتهن. . . مثلما فعل. لكنهن لم يرين في هذا الأمر شيئاً غير عادي. لقد رباهن جوهام على اعتبار البشر نوعاً من الحيوانات وجعلهن يحسبن أنفسهن من بين الآلهة. أما ناهويل فقد ربته هويلن التي أحبت أختها أكثر من أي شيء في العالم. لقد صاغت عقله كله. وهذا ما جعله يكره نفسه لأنه قتل أمه».

تمتمت: «هذا محزن كثيراً».

«ثم رآنا ناهويل. . . نحن الثلاثة. . . فأدرك للمرة الأولى أن كونه نصف خالد لا يعني أنه شرير بطبيعته. إنه ينظر إليّ فيرى. . . ما كان يجب أن يكون عليه أبوه».

«أنت مثالي من جميع الوجوه».

ضحك ثم عاد جدياً: «وهو ينظر إليك فيرى الحياة التي كان ينبغي أن تعيشها أمه».

همست: «مسكين ناهويل!» ثم تنهدت عندما أدركت أنني ما عدت قادرة على النظر إليه نظرة سوء بعد هذا الحديث. . . مهما أزعجني تحديقه.

«لا تشعري بالحزن عليه! إنه سعيد الآن. . . فاليوم بدأ يشعر أنه قادر على مسامحة نفسه».

ابتسمت لسعادة ناهويل ثم فكرت في أن هذا اليوم كله يوم سعادة. كان موت إيرينا ظلاً قاتماً وسط هذا الضياء الأبيض. . . كان الشيء الوحيد الذي

حال دون كمال هذا اليوم. . . لكن إنكار الفرحة مستحيل! صارت حياتي التي قاتلت من أجلها آمنة من جديد. اجتمع شمل أسرتي. وصار لدى طفلتي مستقبل جميل يمتد أمامها من غير نهاية. سأذهب لرؤية أبي غداً وسوف يرى الفرحة في عينيّ بدلاً من الحزن والخوف وسوف يكون سعيداً أيضاً. غدوت فجأة على يقين من أنه لن يظل وحيداً زمناً طويلاً. ما كنت شديدة الانتباه مثلما كنت في أسابيعي الأخيرة، لكنني أشعر الآن أنني أعرف كل ما جرى. سوف تكون سو مع تشارلي. . . والدة الذئب مع والد مصاصة الدماء! . . . ولن يكون وحيداً بعد اليوم. ابتسمت ابتسامة عريضة لهذه الفكرة الجديدة.

لكن أهم ما في هذه الموجة من السعادة. . . أكثر حقائقها يقيناً: إنني مع إدوارد. . . إلى الأبد.

لست أحب تكرار ما مر بي في هذه الأسابيع الأخيرة، لكن علي الاعتراف بأنها جعلتني أدرك قيمة ما لديّ أكثر من أي وقت مضى.

كان الكوخ ملاذاً يعمه السلام تحت ضوء القمر الفضي الأزرق. حملنا نيسي إلى سريرها. راحت تبتسم في نومها.

نزعت هدية آرو وألقيت بها في زاوية غرفتها. يمكنها أن تلعب بها إذا أرادت فهي تحب الأشياء اللامعة.

مشينا بخطوات بطيئة صوب غرفتنا. . . كان كفانا متماسكين. . . يتأرجحان بيننا.

تمتم إدوارد واضعاً يده تحت ذقني ليرفع شفتيّ إلى شفتيه: «إنها ليلة الاحتفال».

تراجعت وقلت مترددة: «انتظر!»

نظر إلي حائراً. لست أنا من يتراجع عادة. هكذا هي القاعدة العامة! بل هي أكثر من قاعدة عامة.

قلت له مبتسمة ابتسامة صغيرة عندما رأيت حيرته: «أريد أن أجرب شيئاً».

وضعت كفي على جانبي وجهه ثم أغمضت عيني وبدأت التركيز.

لم أحقق نجاحاً في هذا الأمر مع زافرينا، عندما كانت تحاول تعليمي. لكني أعرف درعي الآن معرفة أفضل. صرت أفهم ذلك الجزء الذي يمانع انفصاله عن جسدي... تلك الغريزة... غريزة حفظ الذات قبل أي شيء آخر.

كان هذا الأمر شديد الاختلاف عن حماية الآخرين مع الاستمرار في حماية نفسي. أحسست بهذه الممانعة المرنة من جديد عندما ظل درعي مصراً على حمايتي. كان علي بذل جهد كبير حتى أدفعه خارج جسدي تماماً... اقتضى هذا تركيز طاقتي كلها.

شهق إدوارد مصدوماً: «بيلا!»

أدركت أنني نجحت فزدت من تركيزي ورحت أستعيد الذكريات التي خبأتها من أجل هذه اللحظة... جعلتها تتدفق خارجة من عقلي إلى عقله.

كان بعض الذكريات مشوشاً... لقد رأيتها بعينين حسيرتين وسمعتها بأذنين ضعيفتين: عندما رأيت وجهه للمرة الأولى... إحساسي عندما احتضنني أول مرة في ذلك المرج... صوته يأتيني عبر ظلمة وعيي عندما أنقذني من جيمس... وجهه عندما وقف ينتظرني تحت كلّة من الورود يوم زفافنا... كل لحظة غالية من لحظاتنا في تلك الجزيرة... أصابعه الباردة تلمس طفلتنا عبر جلد بطني...

أما الذكريات الواضحة فقد استعدتها جليّة مثلما كانت: شكل وجهه عندما فتحت عيني على حياتي الجديدة، على فجر الخلود اللامتناهي... تلك القبلة الأولى... تلك الليلة الأولى...

صارت شفتاه على شفتي فجأة... فانقطع تركيزي.

شهقت... وفقدت سيطرتي على ذلك الوزن الذي يقاوم ابتعاده عني. ارتد الدرع مثل شيء مطاطي... عاد يحمي أفكاري من جديد.

تنهدت: «أوه! لقد أفلت مني».

همس إدوارد: «لقد سمعتك! فكيف؟ كيف استطعت هذا؟»

«إنها فكرة زافرينا. تدربنا على هذا الأمر عدة مرات».

أصابه الذهول فرفرفت عيناه واهتز رأسه.

قلت له: «صرت تعرف الآن... أحبك كما لم يحب أحد أحداً من قبل».

ابتسم... مازالت عيناه متسعتين: «أنت محقة تقريباً... لكني أعرف استثناء واحداً!»

«كذاب!»

بدأ يقبلني من جديد لكنه توقف فجأة. قال متسائلاً: «هل تستطيعين أن تفعلي ذلك مرة أخرى؟»

قلت مكشرة: «هذا صعب جداً».

راح ينتظرني وعلى وجهه لهفة واضحة.

حذرته: «لا أستطيع المحافظة عليه إذا تعرضت إلى أي تشويش!»

وعدني: «سأكون حسن السلوك».

شددت على شفتي... ضاقت عيناي... ثم ابتسمت.

وضعت كفي على وجهه من جديد ودفعت الدرع بعيداً عني ثم تابعت من حيث توقفت... تابعت تلك الذكريات الواضحة الصافية صفاء الكريستال... ذكريات ليلتنا الأولى في حياتنا الأولى... رحت أتمهل عند تفاصيلها كلها.

ضحكت مبهورة الأنفاس عندما عاجلتني قبلته فقطعت تركيزي من جديد.

راح يقبلني جائعاً عند أسفل فكي.

«لدينا وقت طويل لإتقان هذا الأمر».

تمتم إدوارد: «لدينا الأبدية كلها... كلها... كلها».

«هذا ما يعجبني».

ثم واصلنا هذا الجزء الرائع الصغير من أبديتنا.

تمت بحمد الله

منتديات روايتي

لـ نذى ع

ترقبوا بـ ما قريباً

مع مترجمة شمس منتصف الليل ..